



خصائص التنظيم القرآني

في
قصة إبراهيم عليه السلام

الدكتور الشيخ محمد بن عبد الوهاب

مَصَانِدُ النُّظُمِ الْقُرْآنِي فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

مَطْبَعَةُ الْأَمَانَةِ
٣ شارع جديدة بدران شبرا - مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقَدَرِهِ

الاحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين
والمُرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه
أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .
أما بعد :

فيحظى المسلم في مكة المكرمة — حرسها الله تعالى — بفيض من
البركات الالهية ، وافتوحات الربانية ، حيث يحيا في حوى بلد الله
الحرام ، الذى أقسم به فى كتابه العظيم فقال جل شأنه : « لا أقسم
بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد » (١) وقال تعالى : « وهذا البلد
الأمين » (٢) .

وينعم بجوار بيت الله العتيق، أول بيت وضع للناس مثابة وآمنا،
وقبله المسلمين الى يوم الدين ، « ان أول بيت وضع للناس للذى
بمكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله
كان آمنا » (٣) .

ويشرف بالسير فى مدارج رسول الله ﷺ وصحابته الأولين ،
الذين نصر الله بهم الدين ، وأعلى على أيديهم راية الاسلام فى
العالمين .

ولما من الله تعالى على بمجاورة بيته الحرام ، طوفت بخاطري
فى الماضى السحيق ، أتأمل تاريخ هذا البلد الأمين ، واتخيل

(١) البلد : ١ ، ٢ .

(٢) التين : ٣ .

(٣) آل عمران : ٩٦ ، ٩٧ .

صورته يوم أن كان وادياً مجدياً خالياً من الحياة وأسبابها ، ووجد
إليه إبراهيم عليه السلام من موطنه البعيد ، وترك فيه زوجته هاجر
وولدهما اسماعيل عليه السلام ، وتوجه إلى ربه داعياً صارخاً « ربنا
انني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من
الثمرات لعلهم يشكرون » (٤) •

واستجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام ، فتداول الوادي
المهجور إلى بلد معمور ، ينعم أهله بالأمن والرخاء ، وتهوى إليه
أفئدة الناس من جميع الأرجاء •

وعلى أثر هذه الخواطر شرعت في تتبع قصة إبراهيم عليه السلام
في القرآن الكريم أعيش أحداثها ، وأحيا مشاهدتها ، وأتأمل نظمها في
كل حلقة من حلقاتها ، وأنعم النظر في خصائصه البلاغية ، وأسارته
التعبيرية ، وأتدبر تأويله البديع في التعبير عن المعنى الواحد بأنماط
مختلفة طبقاً للملابسات المشاهد في كل حلقة ، وأبحث عن أسرار هذه
التنوع الأسلوبى المعجز •

ومن هنا كان هذا البحث « خصائص النظم القرآنى في قصة
إبراهيم عليه السلام » •

وقد بنيته على تمهيد وخمسة فصول وخاتمة •

التمهيد : وتحدثت فيه بإيجاز عن مفهوم القصة القرآنية
واختلافها عن القصة البشرية •

وعن حياة إبراهيم عليه السلام وملامح قصته في القرآن
الكريم •

والفصل الأول : الدعوة إلى عبادة الله تعالى •

وفيه تحليل بلاغى للحلقات التى تحكى جهاد ابراهيم عليه السلام فى دعوة أبيه وقومه الى عبادة الله الواحد القهار ، ونبذ عبادة الأصنام والكواكب وقد وردت هذه الحلقات فى سور : البقرة والأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصفات .

والفصل الثانى : ابراهيم عليه السلام والملائكة .

وفيه تحييه للحلقات التى تروى قصة ابراهيم عليه السلام مع خليفه من الملائكة وما جرى بينهما من محاورات ، وجاءت هذه الحلقات فى سور : هود الحجر والعنكبوت والذاريات .

والفصل الثالث : فى رحاب البيت العتيق .

وفيه تحليل للحلقات التى تعرض رفع ابراهيم عليه السلام قواعد البيت الحرام . ودعائه فى هذا المكان المقدس ، ومايتصل بذلك من محاورات جرت بيه وبين الله عز وجل . ووردت هذه الحلقات فى سور : البقرة وابراهيم والحج .

والفصل الرابع : عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته .

ويتضمن تحليل ما ورد من آيات فى بيان عقيدته ، واينزال منزلته عند الله عز وجل فى الدني والآخرة وجاءت فى سور : البقرة وآل عمران والسماء والتوبة والنحل وص والزخرف والامتنة .

وقد قدّمت بين يدي كل حلقة بمقدمة تلقى الضوء على موضوعات الحلقة ، وتبين تناسبها مع السورة ، ومع الآيات التى تسبقها ، وقسمت كل حلقة الى بداية ، وموضوعات نقل وتكرر طبقا لآياتها ، وخاتمة .

وأنبعت كل فصل من الفصول الأربعة السابقة ببحث خاص يبين أسرار التشابه والتنوع فى نظم الحلقات التى يتضمنها الفصل، وذلك من خلال المقارنة النصّية بين نطلها مجتمعة . على أننا فى تحليلنا

البلاغى لكل حلقة على انفرادها قد عينا عناية خاصة ببيان أسرار التنوع في نظمها ، وإيضاح ما فيه من تلوين أسلوبى بديع ، وأظهار كثير من لطائف ترتيبه ونسقه الفريد .

والفصل الخامس : الخصائص البلاغية العامة في قصة إبراهيم عليه السلام . وخصسته بالحديث عن الخصائص البلاغية الشائعة في حاقيات قصة إبراهيم عليه السلام ، مع التركيز على الجانب الإحصائى ، وتحليل نتائجها وتعليلها ، لاعطاء صورة شاملة عن أهم الخصائص البلاغية في القصة .

ونأتى الخاتمة لتلخص البحث وتبين أهم نتائجه . وينبغى أن نؤكد على أن المعالجة البلاغة للموضوعات القرآنية تتضاعف صعوبتها ، من حيث حاجتها الى التناهى في الدقة والالتزام ، خشية أن يخط القلم ما تزل به القدم . كما أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز وهو الذى لا تقضى عجائبه ولا تنتضى غرائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يحيط بأسراره الا العليم الحكيم .

ومن ثم فلا ندعى أننا بلغنا في بحثنا هذا درجة الكمال ، بيد أننا توخيناها وسعينا اليها مستمدين من الله تعالى انعون والمسداد ، فمنه التوفيق وعليه التوكل « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

ونحن اذ نقدم هذا الجهد المتواضع راجين ثوابه من المولى عز وجل نضرع اليه جل شأنه بدعاء إبراهيم عليه السلام « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

« ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

د/ الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
الأستاذ المساعد للبلاغة والنقد
بجامعة الأزهر وأم القرى

مسكة المكرمة
١١ شوال ١٤١١ هـ
٢٦ إبريل ١٩٩١ م

تمهيد

أولا : القصة في القرآن الكريم

يزخر كتاب الله تعالى بألوان من قصص الأنبياء السابقين ، تحكى جهادهم في الدعوة الى الله تعالى ، وتصور ما نالوه من ايذاء وبلاء في سبيل ذلك ، وتبين مواقف أقوامهم من الدعوة ، وتمسكهم بالحقر والجهود ، وتربصهم بأنبيائهم الدوائر ، وفي ثنايا ذلك تسوق العبر والعظات ، وتوجه الى الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين .

وانقصص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم اختصه الله منه بنصيب كبير لكانه من الدعوة ، وحسن بلائه في المعاونة على أدائها ، فإن تكن شعبة الأخرى هدى وإرشادا ، وشرعا ونظاما ، وتقويما وأصلاحا ، فإن القصص هو الزاد الإلهي الذي يمد الله به رسوله في رحلته البعيدة المدى ، الكثيرة المهوم ، اثقيلة الأعباء ، التي تحف من حولها المكار والمكاره والشرور (١) .

ومفهوم القصة في القرآن الكريم يختلف عن مفهوم القصة البشرية بما فيها من ضوابط ، ومالها من أهداف ، فالقصة القرآنية ليست أثرا فنيا يقاس بمقاييس الفن القصصي ، إنما هي عرض لأحداث تاريخية حقيقية وقعت في زمن معين ، ومع أشخاص معينين ، تساق لأغراض دينية تالف وتدور حولها ، وهذه الأحداث ليست من نسج الخيال ، ولا من بنات العقول ، ولا من تصورات الأوهام ، إنها حقائق ثابتة ، ووثائق تاريخية صادقة ، تنبئ بما وقع في الزمان من

(١) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة : ١٩ .

أحداث عظام ، وتشهد على أهله ومواقفهم منها « ان هذا هو القصص الحق » (٢) •

وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وانما هو عرض لبعض المواقف ، وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى الضمير موازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة العبرة والنعظة (٣) •
وتتلخص أهداف القصة القرآنية فيما يلى (٤) :

١ - اثبات الوحي والرسالة ، فذكر الرسول ﷺ لقصص السابقين وهو لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولا جلس الى معلم ، يدل على أن القرآن الكريم وحي يوحى ، وقد جاءت الآيات دالة على ذلك منها قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٥) وقوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك ننذرك فوما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (٦) •

٢ - بيان وحدة الدين فى مصدره وجوهره ، فالدين كله من عند الله تعالى ، وهو قائم فى أساسه على عقيدة التوحيد التى تقتضى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة ما سواه من أصنام وأحجار ، وكواكب وأشجار ، وملوك وزعماء •

٣ - بيان وحدة المؤمنين على مر الزمان ، فالمؤمنون أمة واحدة

(٢) آل عمران : ٦٢ •

(٣) للقصص القرآنى : ٦٨ •

(٤) ينظر التصوير الفنى فى القرآن : ١٨ - ١٢٦ •

(٥) يوسف : ٣ •

(٦) القصص : ٥٦ •

تدين بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، مهما اختلفت أزمانهم وأماكنهم ، ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم يسوق قصص عدد من الأنبياء ثم يعقب عليها بقوله : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٧) وفي موضع آخر يعقب عليها بقوله « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأتقون » (٨) •

٤ — بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة وأساليبهم مشتركة وأن استقبال قومهم لهم متشابهة ، حيث أعرضوا عن طريق الإيمان ، وتشبهوا بالكفر والعصيان ، وتذرعوا بتقليد الآباء والأجداد ، وأعلنوا الحرب على رسالهم •

٥ — الوعظ والارشاد والنصح والتعليم ، بما فيها من مشاهد وأحداث ، وما تنتهي إليه من نتائج وإعظات ، وما ينثر في ثناياها من تذكير وتبصر ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » (٩) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (١٠) •

٦ — تسلية الرسول ﷺ ومواساته بأخبار الأنبياء السابقين ، وما لا قوه من إيذاء وبلاء ، واضربهم على المشقات حتى أتاها نصر الله تعالى ، وأهلك الكافرين ، وفي ذلك تثبيت للقلب النبي ﷺ والذين آمنوا معه ، وطمأنتهم بأن الله تعالى مظهر دينه ، وناصر عباده ، ومنزل بأسه بالقوم الظالمين « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » (١١) •

(٧) الأنبياء : ٩٢ •

(٨) المؤمنون : ٥٢ •

(٩) يوسف : ١١١ •

(١٠) الأعراف : ١٧٦ •

(١١) هود : ١٢٠ •

٧ - تصديق التبشير والانذار وعرض نماذج واقعية من أحداث السابقين ، وذلك أقوى وأكد في تأييد الدعوة ، وحث الناس على الايمان واتباع الطريق المستقيم •

٨ - بيان نعم الله تعالى على أنبيائه وأصفياه وعباده المؤمنين ، واظهار قدرة الله تعالى على فعل ما يريد ، من المعجزات التي تؤيد أنبياءه ورسوله •

على ضوء هذه الأهداف الدينية تقاس أهمية القصة القرآنية ، وتقدر مكانتها ولا يصح الحكم على القصة القرآنية بمعيار اصطلاحي يشترط وحدة الموضوع ، واحكام التصميم ، وجودة الحبكة، والارتفاع بالحوادث الاستطاردية ، فالقرآن هو المرجع وهو الحكم في كل ما جاء فيه من قصص وغير قصص (١٢) •

ولا يجوز أن يؤخذ على القصة القرآنية أنها لا تتناول القصة من جميع أطرافها ، ولا أنها لا تتسلسل حوادثها مرتبة منظمة ، ذلك أن القرآن الكريم يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب وابعظ وغير ذلك ، فحينما يقص القصة كلها محبوكة الأطراف ، موصولة الأجزاء ، مرتبطا بعضها ببعض ، في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها الى لاحقه حتى تصل الى خاتمتها ، كما في سورة يوسف ، وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها ، لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف ، وقد يلمح القرآن ويشير الى القصة تلميحاً يستغنى به عن الاطالة اعتماداً على أن القصة معروفة مشهورة (١٣) •

(١٢) ينظر الاسلام في عصر العلم : ٢٥٣ •

(١٣) من بلاغة القرآن : ٣٦٨ •

وبناء على هذا نجد القرآن الكريم يبدأ قصة كز ببي من حيث تبدأ المواعظ والعبر ، والأهداف المقصودة . فنراه يغفل المراحل الأولى في حياة كثيرة من الأنبياء لأنها لا تتعلق بذكرها وتفصيلها غرض ، ولعدم اشتغالها على ما يهدف اليه القرآن الكريم ، وعلى هذا طوى ذكر المراحل الأولى لحياة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم .

بينما يذكر هذه المراحل عندما يتعلق بتفصيلها هدف ، وتشتمل على ما فيه عبر وعظات ، ودلالة على قدرة الله تعالى ، فذكر ولادة موسى وما تعرض له في بداية حياته حتى نزل عليه الوحي ، لأن ولادته وحياته الأولى فيها من العظات والعبر ما فيها ، وهي أساس جهاده ضد فرعون وجنوده . وذكر ولادة عيسى وفصل في تناولها حيث احتوت على معجزة خارقة وكانت ماثرا لاختلاف المنصاري فيه ، وإخراجهم له عن نطاق البشرية الى مرتبة الألوهية ، وهذا ضلال ما بعده ضلال .

وعدم احتكامنا الى ضوابط القصة البشرية في الحكم على القصة القرآنية لا يعنى أن القصة القرآنية خالية من الضوابط ، فقد ندرت كثير من الباحثين عن ضوابط القصة القرآنية ، وعلاقتها بضوابط القصة البشرية ، واهتدوا في ذلك الى كلام دقيق (١٤) ، ليس هذا مجال تفصيله .

ونستطيع أن نؤكد في هذا المقام أن القصة القرآنية طالت أو قصرت فهي تشتمل على بداية مشوقة ، وقمة مثيرة ، ونهاية وأعظمة

(١٤) ينظر على سبيل المثال : سيكولوجية القصة في القرآن ومناهج القصة في القرآن . والقصص القرآني في منطق ومفهوه . والسرد القصصى في القرآن الكريم .

هائفة ، وسرى ذلك في تحايلنا لحلقات قصة ابراهيم عليه السلام .
ففى كل حلقة منها نلاحظ البداية والقمة والنهاية . ويستطيع الناظر
فى كل قصة من قصص القرآن الكريم أن ييثر على ذلك دون مجهود
كبير ، ومن غير تحمل ، وهذا فى نظرنا من دلائل اعجاز القرآن الكريم .
وتبرز قضية أساسية تتعلق بتكرار القصة القرآنية فى عدد من
المسور ، وحكمة ذلك ، وهى قضية أثارها العلماء من قديم .

فالباقلاذى يرى أنها من دلائل اعجاز القرآن الكريم : فان اعادة
ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب ،
انذى تظهر به الفصاحة ، وتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص
فى مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم
عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا . ولو كان فيهم تهكن من المعارضة
لقصدوا تلك القصة وعبروا عنها بالفاظ لهم تؤدى تلك المعانى ونحوها
وجعلوها بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته
ففيما جاء به (١٥) .

فتكرار القصص بأساليب متنوعة ، وجه سام من وجود البلاغة ،
ولون من ألوان التحدى للعرب ، وفيه تسهيل وتوسيع لأمر المعارضة .
وكأنه يقال لهم : لم نضيق عليكم فى المعارضة ، فان القصة الواحدة
قد جاءت بأساليب متنوعة ، وان كان فى استطاعتكم أن تأتوا بها
فى أى صورة وأى أسلوب مماثل فافعلوا ، وفى هذا مزيد من التحدى ،
يظهر تمام عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا .

وبين الزركشى بعض أسرار هذا التكرار ومنها أن القرآن الكريم
يكرر القصة لفائدة خلت عنها فى الموضع الآخر ، فاذا كرر القصة زاد

فيها شيئاً • كما أنه يبرزها في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ، ولا يخفى ما في ذلك من الفصاحة ، كما أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن وعجز القوم عن الاتيان بمثل آيه ، نصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع اعلام بأنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأي نظم جاءوا ، وبأي عبارة عبروا (١٦) •

فأشار الى أن القصة عندما تكرر لا تكون في جميع حالاتها على نمط واحد ، بل تختلف بالزيادة في تفاصيلها ، وتنوع أساليبها ، وفي ذلك مزيد من التحدى ، ومظهر من مظاهر الاعجاز •

وذكر السيوطي أن بدر الدين بن جماعة ألف كتاباً سماه : المختصر في فوائد تكرير القصص ، وذكر في فوائده :

— أن في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله ، أو ابدال كلمة بأخرى لذاتة وهي عادة البلغاء •

— أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود الى أهله ، ويأتى بعده آخرون ، فاولا تكرر القصص لوقعت قصة موسى الى قوم ، وقصة عيسى الى آخرين وكذا سائر القصص ، فأراد الله اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه افادة لقوم وزيادة تأكيد الآخرين •

— أن في ابراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة مالا يخفى من الفصاحة •

— أنه تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الاتيان بمثله

تم أوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع اعلاما
بأنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأى نظم جاءوا وبأى عبارة عبروا •

— أنه تعالى لما تحدثاهم قال : « فأتوا بسورة من مثله » (١٧)
فلما ذكرت القصة في موضع واحد ، واكتفى بها اقل العربى : اثبتونا
أنتم بسورة من مثله ، فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعا لحجبتهم
من كل وجه •

— أن انقصة الواحدة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع
زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب
الأخرى ، فأعاد ذلك ظهور الأمر العجيب في اخراج الأمر الواحد في
صور متباينة في النظم ، وجذب النفوس الى سماعها لما جات عليه
من حب التنقل بين الأشياء المتجددة ، واستلذاذها بها ، واطهار خاصة
القرآن ، حيث لم يحصل مع ذلك التكرار هجنة في اللفظ ولا ملل عند
سماعه ، فباين بذلك كلام الخلوطين (١٨) •

ويستفاد من أقوال العلماء السابقة أن تكرر القصة القرآنية
وجه من وجوه البلاغة القرآنية السامية ، وزيادة في التحدى بالقرآن
الكريم ، ودلالة على اعجازه ، بجانب ما في ذلك من تعميم للفائدة
واشاعة للعظة والاعتبار •

كما أن القرآن الكريم عندما يكرر القصة يراعى ما يلي :

- ١ — زيادة تفاصيل ووقائع لم تذكر في موضع آخر وبذلك يتسع
مضمون المشهد الواحد ، ويراه المتأمل شيئا جديدا •
- نفى كل مرة تعرض فيها القصة تتكشف عن جانب من جوانبها •

(١٧) البقرة : ١٢٣ •

(١٨) معترك الأقران : ١/٤٣٧ : ٤٣٨ •

وتكتمل حدثا من أحداثها ، الأمر الذى لا يمكن أن يتم فى عرض واحد مستقل جون أن يقع فى الأسلوب اضطراب وتناقض وثقل لهذا التكرار المتصل ، ولاختلاف المقولات فيما يبدو أنه موقف واحد (١٩) •

٢ - الاختلاف فى صياغة المشهد المكرر بالتفنن فى الأساليب ، والتنوع فى الخصائص التعبيرية ، مما يجعل المشهد مختلفا عن سابقه فى شكله وطريقة أدائه بعد أن تنوع فى مضمونه ومحتواه •

٣ - أن القرآن الكريم لا يكرر قصص الأشخاص والجماعات ، ولكنه يذكر كلا فى سورته مرة واحدة ، أما قصص الأنبياء فيكررها ويفرقها فى جمع من السور أجزاء تتفاوت فى الطول والقصر ، والذكر والحذف ، والتفصيل والاجمال ، وفى صور العرض وأساليب التعبير (٢٠) •

وعلى هذا فان النظرة المتعجلة تحكم على القصص بالتكرار ، ولكن انعام النظر وطول التأمل وحصر انفروق ووجوه التنوع فى المشاهد ينطق بأن هذا التكرار الظاهر ليس تكرار على الحقيقة ، فالقصة فى كل موطن لها سماتها وطريقة عرضها ، ومشاهدها التى تختص بها ، وتتلاءم مع السورة التى وردت فيها • وفى حديثنا عن أسرار التنوع فى نظم الحاقات سنكتشف عن كثير من ذلك •

(١٩) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه : ٢٣٣ •

(٢٠) مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمه : ٣٣ •

ثانيا : ابراهيم عليه السلام

نسبه :

ذكر المؤرخون لابراهيم نسبا متحمل الحقاقت بنوح عليهما السلام :
فهو ابراهيم بن آزر بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر
ابن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام . وبهذا يكون نوح
هو الجد التاسع لابراهيم عليهما السلام (١) .

وتذكر التوراة أن اسم أبيه « تارح » ، وقد جاء اسمه في القرآن
الكريم « آزر » وذلك في قوله تعالى : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر
أنتخذ أصناما آلهة » الأنعام : ٧٤ .

وهو الصحيح الذي نأخذ به ، نظر لوروده في القرآن الكريم
وهو المهيمن على ما قبله من الكتب ، والمنزه عن التحريف والتبديل ،
وقد أيد ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه
قال : « يلقي ابراهيم أباه « آزر » يوم القيامة ، وعلى وجه « آزر »
قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ؟ فيقول
أنه أبوه : فاليوم لا أعصيك ... فيقول ابراهيم : يارب انك وعدتني
ألا تخزني يوم يبعثون ، وأى خزي من أبى إلا بعد ؟ فيقول الله :
انى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول لابراهيم : انظر ما تحت
رجليك ، فيظن فاذا هو بذبح متطاخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في
النار ... » (٢) فهذا الحديث نص في أن اسم أبيه « آزر » وهو
الحق الذي لا محيد عنه (٣) .

قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ، وما قاله النسابون

(١) ينظر قصص الأنبياء : ٧٠ ، وتاريخ الانبياء : ٩٥ .

(٢) فتح الباري : ٣٨٧/٦ ، ومسند أحمد : ٥٣/٤ .

(٣) النبوة والأنبياء : ٢٠٤ .

من أن اسمه تارح فقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً (٤) . والظاهر حينئذ أن يكون تارح هو اللقب ، لأن معناه المتكاسل . وهو لقب قبيح قلما يطلقه أحد ابتداء على ولده ، وإنما يطلق مثله على المرء بعد ظهور معناه فيه أو رميه به (٥) .
ولادته ونشأته :

ولد ابراهيم عليه السلام في بلدة « فدان آرام » ببابل بالعراق ١٩٩٢ قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وذلك بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة ، وكان هو الولد الأكبر لآزر ، وجاء من بعده أخوان « ناحور » و « هاران » وهو والد « لوط » عليه السلام (٦) .

وتذكر كتب الروايات وبعض التفاسير في ولادته أخباراً عجيبة . منها أن أمه خرجت ليلاً وولدت في مغارة في الجبل وأخذت تتعمده ، ومنها إدخال أبيه له السرب وهو رضيع وخروجه منه بعد أيام ليجادل قومه في عبادة الكواكب . وهذه اسرائيليات لا وزن لها بين الروايات الصحيحة . قال ابن كثير : وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم — من أخبار ولادته ونشأته — فعامتها أحاديث بنى إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقة الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك ردناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة نجعلناه وقفاً . وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين : ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة (٧) .

(٤) جامع البيان : ١٥٩/٧ .

(٥) المنار : ٤٤٧/٧ .

(٦) ينظر النبوة والأنبياء : ٢٠٥ ، والتحرير والتنوير ٧٠١/١ .

(٧) تفسير ابن كثير : ٦٨١/٣ ، وينظر تاريخ الأنبياء : ٩١ .

(٢ - خصائص الشفاء)

كان أهل بابل ينعمون برغد العيش ، ويتفيعون ظلال النعمة ، ولكنهم كانوا يتخبطون في دياجير الضلال ، يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم ، ويعظمون ملكهم نمرود بن كنعان الذي نصب نفسه لها وأمرهم بعبادته (٨) • وكان والد إبراهيم « آزر » نجارا يصنع الأصنام ويبيعها القوم ، ويعطيها في بعض الأحيان لولده إبراهيم كي يبيعها للناس ، فكان إبراهيم يحملها ويسير في الأسواق ويقول من يشتري ما يضره ولا ينفعه ، فلا يشتريها منه أحد ، ثم ينطلق بعد ذلك الى الماء ويغمر رءوسها فيه ويقول : اشربي (٩) •

في هذه البيئة المفعمة بالفساد نشأ إبراهيم عليه السلام ، نشأة تختلف عن أبناء جيله ، لأن الله تعالى يعمده لحمل رسالته الى قومه ، فكان مبغضا للأصنام ، موقنا أنها لا تنفع ولا تضر ولا تصلح لأن تكون لها يعبد ، انما الله هو خالق الكون ورب العالمين من بيده النفع والضر ، والحياة والموت ، والغنى والفقر ، المرض والشفاء ، والرحمة والعذاب ، واليه المرجع المسأب •

تزوج إبراهيم في شبابه بسارة وعاش معها ، وكانت عاتقرا لا تلد ، فظل سنين طويلة لم يررق منها بذرية ، حتى أذن الله بذلك فوهبه منها اسحاق عليه السلام بعد هجرته بمدة طويلة •

بعثته :

أرسل الله تعالى رسوله إبراهيم عليه السلام الى قومه يدعوه الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويردهم عن عبادة الأصنام والكواكب التي لا تنفع ولا تضر •

(٨) قصص القرآن : ٥٣ •

(٩) تاريخ الانبياء : ٩٦ •

فبدأ بدعوة أبيه وعشيرته الأقربين ، ثم بدعوة قومه أجمعين ، وتلطف في دعوتهم ، وأظهر لهم الحجج والبراهين ، وبذل في سبيل هدايتهم كل سبيل ، ولكنهم عارضوه وكذبوه ، وسخروا منه وآذوه ، وظلوا على أصنامهم عاكفين ، وفي ضلالهم سادرين ، ومنعوه من تبليغ دعوة ربه ونشرها بين الناس .

وتيقن إبراهيم عليه السلام أن الدعوة بالحسنى لم تؤت ثمارها بين هؤلاء الضالين المتعنتين ، فعزم على أن يهز مشاعرهم الجامدة بفعل قوى يؤثر فيهم ، ويبيح له عرض دعوته وحجته على الملأ ، فقام بتكسير أصنامهم وتدمير آلهتهم المزعومة ، وسرعان ما أقاموا له محاكمة علنية شهدها الملأ ، وكان هذا مما يقصده إبراهيم عليه السلام : حيث جهر فيهم بدعوة ربه ، وأعلن لهم حججه وبراهينه القاطعة على فساد ما هم فيه ، وحذرهم سوء العقوبة .

وقد أثر فيهم هذا الفعل تأثيرا قويا ، وبعثهم على التفكير في أمرهم واعترفوا بأنهم ضالون ، ولكنهم سرعان ما نكسوا على رؤسهم وعادوا للعصبية والجهل والضلال ، وتشاورا في الانتقام منه ، وانتهى الأمر إلى أن أقاموا له جحيما هائلا وطرحوه فيه ، ولكن الله تعالى أنجاه من النار وكان ذلك من آيات الله تعالى الباهرة ومعجزاته القاهرة التي أيد بها إبراهيم عليه السلام : « قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرون » الأنبياء : ٦٩ ، ٧٠ .

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار مؤيدا بنصر الله تعالى ، لم يهن عزمه ، ولم يضعف تصميمه على نشر الدعوة بين الناس . فاستمر في دعوة قومه إلى عبادة الواحد القهار ، وتحدى طاغية عصره « النمرود بن كنعان » وأفحمه بالحجة القاطعة ، وظل يجاهد في سبيل الله بين قومه حتى شاء الله له أن يهاجر .

هجرته :

ظن القوم في طغيانهم وضلالهم . ثم تجد معهم موعظة : ولم تنفعهم نصيحة . وازدادوا عداً وايداء لابراهيم عليه السلام ، ومن ثم قرر الهجرة فراراً بدينه ، لينتـهـكن من عبادة ربه والدعوة اليه في مكان آمن « وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين » الصافات : ٩٩ .

رحل ابراهيم الى ارض فلسطين ومعه زوجته سارة وابن اخيه لوط كما جاء في قوله تعالى : « فأمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم » العنكبوت : ٢٦ . وعاشوا في فلسطين فترة من الزمان ينعمون بالأمن والاطمئنان .

ثم خرج ابراهيم من فلسطين لقطع أصاب البلاد ، وولى وجهه شطر مصر ، فأقام ما شاء الله له أن يقيم ، ورجع منها بالرزق الوفير والخير الكثير ، واستقر ثانياً في فلسطين مع الفئة القليلة التي آمنت به واستجابت لدعوته (١٠) .

وكان ملك مصر قد أهدى « سارة » جارية مصرية تسمى « هاجر » فبنى بها ابراهيم عليه السلام . وولدت له اسماعيل سنة ١٩١٠ قبل الميلاد ، وخرج ابراهيم بهاجر واسماعيل وأسكنهما بوادي مكة في المكان الذي أقام فيه بيت الله الحرام بعد ذلك ، ورجع الى فلسطين بعد أن دعا الله قائلاً « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعّل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ابراهيم : ٣٧ .

وأقام اسماعيل وأمه بهذا الوادى الجديب . وشاءت ارادة الله تعالى أن يعمر المكان ، فنبعت زمزم المباركة . وأقبل الناس للعيش

حولها ، والتنعيم بمائها . وجاء ابراهيم بعد ذلك لزيارة ولده اسماعيل ، فرأى أن الله يأمره بذبحه وهو ابنه الوحيد ، فاستجاب لأمر الله تعالى ، وهم بفعل ما أمره الله به ، فأنزل الله تعالى الفداء العظيم الذى نجى اسماعيل عليه السلام ليتناسل منه النسل الكريم الذى توج بخاتم النبيين محمد ﷺ .

وفي احدى الزيارات بوأ الله تعالى لابراهيم مكان البيت فرفع قواعده بمعاونة اسماعيل ، وأذن فى الناس بالهج اليه استجابة لأمر الله تعالى الذى جعله مثابة للناس وأمنا .

وشاعت ارادة الله تعالى أن تحمل « سارة » ويرزق الله ابراهيم منها باسحاق عليه السلام سنة ١٨٩٦ قبل الميلاد ، وهو أصغر من اسماعيل بأربع عشرة سنة (١١) . وكان ذلك بعد حادث الفداء الذى وقع لاسماعيل عليه السلام . واكتملت النعم على ابراهيم بهبة الأولاد بعد الكبر ، وقد أثنى على الله تعالى وحمده على ذلك « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء » ابراهيم : ٣٩ .

وتوفى ابراهيم عليه السلام سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد ، ودفن فى مغارة المكفلية فى حبرون « بلد الخليل » أما اسماعيل عليه السلام فتوفى فى مكة المكرمة ودفن بالحجر الذى حول الكعبة . وأما اسحاق عليه السلام فتوفى فى فلسطين ودفن مع أبيه بمغارة المكفلية .

معالم قصة ابراهيم في القرآن الكريم :

ركزت قصة ابراهيم فى القرآن الكريم على جوانب أربعة :
الجانب الأول : دعوة ابراهيم الى الله عز وجل .

(١١) ينظر التحرير والتنوير ٧٣٤/١ .

والجانب الثاني : حوارهم مع الملائكة .

والجانب الثالث : بناؤه للبيت العتيق ودعاؤه فيه .

والجانب الرابع : عقيدته ومنزلته .

فأما دعوته إلى الله تعالى فقد بدأها بدعوة أبيه خاصة وقد جاء هذا في سورة مريم : ٤١ - ٥٠ .

ثم تأتي دعوته العامة لأبيه وقومه وقد حكى هذا في ست سور هي حسب ترتيب المصحف : البقرة : ٢٥٨ ، والأنعام : ٧٤ - ٩٠ ، والأنبياء : ٥١ - ٧٣ ، الشعراء : ٦٩ - ٨٩ ، والعنكبوت : ١٦ - ٢٧ ، والصفات : ٨٣ - ١١٣ . وفيها بجانب مشاهد الدعوة تفصيل لحادث الابتلاء المبين والفداء العظيم .

وأما حوارهم مع الملائكة فقد جاء في أربع سور : سورة هود : ٦٩ - ٧٦ ، وسورة الحجر : ٥١ - ٦٠ ، وسورة العنكبوت : ٣١ ، وسورة الذاريات : ٢٤ - ٣٤ .

وأما بناؤه للبيت العتيق ودعاؤه فيه وما يتصل بذلك ، فقد ورد ثلاث سور : البقرة : ١٢٤ - ١٣٤ ، وسورة إبراهيم : ٣٥ - ٤١ ، وسورة الحج : ٢٦ - ٢٩ .

وأما عقيدته ومنزلته فقد ذكر ما يتصل بهما في ثمان سور : البقرة : ٢٦٠ ، وآل عمران : ٦٥ - ٦٨ ، النساء : ١٢٥ ، والتوبة : ١١٤ ، والنحل : ١٢٠ - ١٢٣ ، وص : ٤٥ - ٤٧ ، والزخرف : ٢٦ - ٢٨ ، والممتحنة : ٤ - ٦ .

وقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في سورة أخرى ولكن ذلك لا يمثل طرفاً من قصته ، ومن ثم فسيتقصر حديثنا في قصة إبراهيم عليه السلام على تحليل الآيات التي أشرنا إليها في الجوانب الأربعة السابقة طبقاً لنهجنا في البحث .

الفصل الأول

الدعوة الى عبادة الله تعالى

أرسل الله عز وجل ابراهيم عليه السلام الى قومه ليدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ويبين لهم طريق الفلاح في الدنيا والآخرة ، وكان من الطبيعي أن يبدأ بدعوة أقرب الناس اليه ، فهو مسئول عنهم مسئولية أولية ، وهم من المنتظر أن يسارعوا الى الاستجابة له في دعوته ، فهم أهله وعشيرته ، ومناصرتهم في دعوته نصرة لهم وقوة وعزة ، وقد سلك رسولنا محمد ﷺ هذا المسلك استجابة لأمر الله تعالى له بقوله : « وأندز عشيرتك الأقربين » (١) .

بدأ ابراهيم عليه السلام بدعوه أبيه الى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الأصنام ، ولما لم يجد منه استجابة اتجه بالدعوى الى أبيه وقومه باذلاً ما في وسعه لاقتناعهم بدعوته ، وهم مستثمرون في ضلالهم وكفرهم ، لم يستجيبوا لنصحه ، ولم ترددهم حججه ، وانتهى الأمر انى أن كسر أصنامهم ، وقاموا بالقائه في النار ، فنجاه الله منها ، وخرج قوى العزيمة ، ثابت الجنان ، فجليبه طاغية عصره « النمرود » منتصراً عليه بالبرهان ، ثم هاجر من وطنه ، وألقى عصاه في « حران » (٢) ونزل بين أهلها فوجداهم يعبدون الكواكب من دون الله تعالى ، فجادلهم بالحجة وبين بطلان عبادتهم بالحوار ، ودعاهم الى عبادة الواحد القهار .

(١) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) ينظر قصص القرآن : ٥٠ .

هذه المسيرة العظيمة المفعمة بالجهاد في سبيل الله تعالى هي موضوع هذا الفصل ، حيث يتناول بالتحليل البلاغى المنظم القرآنى الذى عرض هذه المسيرة الجليلة • وقد جاءت فى سبع حلقات :

- الأولى : فى سورة « مريم » وهى مختصة بدعوته لأبيه •
- والثانية : فى سورة الشعراء •
- والثالثة : فى سورة الصافات •
- والرابعة : فى سورة الأنبياء •
- والخامسة : فى سورة العنكبوت •

وهذه الحلقات الأربع فى دعوته لأبيه وقومه ، وتدور حول ابطال عبادة الأصنام •

والسادسة : فى سورة البقرة وتحكى مواجهته لطاغية عصره وتحمديه له بالحجة والبرهان •

والسابعة : فى سورة الأنعام ، وتختص بابطال ريبوية الكواكب وعبادتها • وهى حسب النزول تأتى فى المرتبة الثالثة ، الا أننا أخرنا الحديث عنها الى نهاية الفصل لكونها مرحلة متأخرة تاريخيا ، وهوضوعها يختلف عن الحلقات السابقة التى تدور حول ابطال عبادة الأصنام •

وسنبدأ بتحليل النظم القرآنى فى هذه الحلقات تحليلا بلاغيا مفصلا ، يبين ما فيه من أسرار البيان ، وخصائص التعبير ، ثم نعرض للمقارنة بين النظم فى هذه الحلقات مبينين ما فيه من تشابه وتضاد ، وجهين ذلك فى ضوء ما نقف عليه من تراث العلماء . وما يظهر لنا مما يفتح الله تعالى به علينا •

الدخلة الأولى

دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه

قال الله تعالى :

« واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا • اد قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا • يا أبت انى قد جاءنى من المعلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا • يا أبت لا نعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا • يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا • قال أراغب أنت عن الهى يا ابراهيم لكن لم تنته لأرجمك واهجرنى مليا • قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا • وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا • غلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا • ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا • » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة « مريم » • وهذه السورة تبدأ بالتذكير برحمة الله تعالى عبده زكريا حين دعا ربه مستجلبا عطفة باظهار ضعفه وشيخوخته • طالبا من الله تعالى أن يهبه وليا تقر به عينه ويورثه «فهب لى من لدنك وليا • يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا» (٢) • واستجاب الله دعاءه ووهبه « يحيى » غلاما عابدا زكيا تقيا بارا بوالديه • ثم تنتقل الى التذكير بقصة مريم ، ومجى الروح اليها • ونبشيره لها بعيسى عليه السلام ، وما كان من أمرها حين حملت به ، وحسرتها

(١) مريم : ٤١ - ٥٠ •

(٢) مريم : ٦ •

حين جاءها المخاض ، وموقف قودها منها عندما أنتمهم تحملا . وسلام
عيسى عليه السلام في المهد « قال انى عبد الله اتانى الذئب وجعلنى
نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت
حيا . وبرا بوالدنى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣) . وبعد أن تبين الآيات القول
انفصل في عيسى عليه السلام ردا على مزاعم النصارى في تأليهه
وجعله ابنا لله تعالى ، تحذر الكافرين من يوم القيامة ، وتؤكد رجوع
الخالق الى الله تعالى للحساب . وبعد هذا تأتى الآيات القرآنية التى
سقتها وهى تحكى دعوة ابراهيم لأبيه خاصة ، وتبين تطفه معه في
الدعوة ، في الوقت الذى لم يجد من أبيه الا الانكار والجفاء
والقاطعة ، وهذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام لم ترد في
القرآن الكريم الا في سورة مزيم ، ومناسبتها لما قبلها من آيات : أن
سورة مريم اهتمت ببيان التوحيد ، وذكر النبوة ، والحشر ، والمنكرون
للتوحيد فريقان : منهم من أثبت معبودا حيا عاقلا فاهما وهم اليهود
والنصارى ، ومنهم من أثبت معبودا جمادا ليس بحى ولا عاقل ، وهم
عبدة الأوثان ، فلما بين الله ضلال الفريق الأول شفع ذلك ببيان ضلال
الفريق الثانى (٤) .

كما أن الآيات التى تسبقها فيها أمر للرسول ﷺ أن ينذر قومه
« وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » (٥)
والعرب كانوا مقرين بعلو شأن ابراهيم ، ويعتبرونه أبا لهم ، ومن ثم
أمر الله نبيه — بعد أن أذرهم — بذكر قصة ابراهيم عليه السلام وهو

(٣) مريم : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) الرازى : ٥٤٤/٥ .

(٥) مريم : ٣٩ .

يدعو أباه الى عبادة الله عز وجل ، لتكون عبرة لهم ، ودافعا لأن يسلكوا نهج ابراهيم عليه السلام .

البداية :

استهلت هذه الحاقة بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وهو معطوف على قوله تعالى : « واذكرهم يوم الحسرة » ، فالمراد : أنذرهم ذاك ، واذكر لهم قصة ابراهيم عليه السلام ، فانهم ينتهون اياه ، وعساهم باستماع قصته بقلوبهم عما هم فيه من القبائح (٦) .

وهذا الاستهلال فيه من البراعة ما فيه حيث يشوق النفس الى متابعة أحداث القصة : ويلفت الأسماع الى الأصغاء والمتابعة لما يرد من أمر عظيم وينبه الأذهان الى ما يأتي من حوار ابراهيم لأبيه في دعوته الى الطريق المستقيم ، ويبين مكانة ابراهيم العظيمة وقدره الجليل ، بما يشتمل عليه من ثناء جميل ، وشهادة عظيمة من رب العالمين في حقه عليه السلام .

وهذا البدء يتلاءم مع بدايات القصص المذكورة في السورة قبل قصة ابراهيم وبعدها ، فقبلها ذكرت قصة زكريا وقد بدئت بقوله تعالى : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » (٧) ، ثم ذكرت قصة مريم وبدئت بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب مريم » (٨) ، وبعدها جاء ذكر موسى واسماعيل وادريس عليهم السلام ، وخبر كل منهم يبدأ بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب » (٩) .

(٦) الألوسى ٩٥/١٦/٨ .

(٧) مريم : ٢ .

(٨) مريم : ١٦ .

(٩) مريم : ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ .

والمقصود بالكتاب : سورة مريم ، أو القرآن الكريم ، والذكر هنا بمعنى التلاوة أى : اقل على الناس قصة ابراهيم كقوله تعالى : « واثبت عليهم نبأ ابراهيم » (١٠) لأن ذكر ذلك فى الكتاب على الحقيقة هو الله تعالى ، ولأنه عليه السلام ناطق عن الله تعالى ، ومبلغ أوامره ونواهيه ، فكان كالذاكر فى الكتاب ما ذكره الله تعالى .

والجملة التى بدىء بها تثير سؤالاً فى النفس فحواد . ما علة ذكر ابراهيم فى الكتاب ؟ ، وجاءت الجملة التى بعدها « انه كان صديقاً نبياً » ، لتجيب عن هذا السؤال النفسى ، وتعلل الأمر بذكر ابراهيم عليه السلام فى الكتاب . ومن ثم فصلت عن سابقتها للاستئناف البيانى ، وجاءت هذه الجملة مؤكدة على النهج الأبلغ فى الجمل المستأنفة التى تعلل كلاماً سابقاً ، وتجيب عن سؤال مقدر فيه ، اذ تكون من قبيل الخبر الطبى على سبيل تنزيل غير المسائل منزلة المسائل ، لتقدم ما يستدعى سؤالاً . و « ان » فى مثل هذه المواقع بجانب افادتها التأكيد ، تربط الجملتين برباط قوى ، بحيث لا يستقيم الكلام بدونها ، ولا يصلح غيرها من أدوات الربط مكانها . « فهى تقييد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً ، غانت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ، ومقطوعاً موصولاً معا . . . وترى الجملة اذا هى دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأنف معه . وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا أفرغا واحداً ، وكان أحدهما قد سبق فى الآخر ، حتى لو اسقطتها فى مثل ذلك ، رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى عن معناه ، ورأيت لا يتصل به ، ولا يكون منه بسبيل ، حتى تجيء « بالفاء » . . . ثم لا ترى « الفاء » تعيد الجملتين الى ما كانا عليه من الألفة . ولا ترد عليك الذى كنت تجد « بان » من المعنى (١١) .

(١٠) الشعراء : ٦٩ .

(١١) دلائل الإعجاز : ٢٧٣ ، ٣١٦ .

والصديق من أبنية المبالغة ، ونظيره : الضحيك ، والمندمير .
 والمبالغة فيه ، تشمل الكيف ، والكم ، فهو عليه السلام ملازم للصدق
 لا ينفك عنه ، وهو كثير التصديق ، لكثرة ما صدق به من غيوب الله
 تعالى وآياته وكتبه ورسوله (١٢) . وكلا المعنيين يتناسب مع شخصية
 ابراهيم عليه السلام (١٣) .

و « صديقا » خبر كان ، و « نبينا » خبر آخر لها مقيد للأول
 مخصص له ، أى : كان صلى الله عليه وسلم جامعا بين الصديقية والنبوة ، وترتيبهما
 مبنى على تقديم الأعم على الأخص ، « ولعل هذا الترتيب للمبالغة في
 الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة ، فان كل نبي صديق (١٤) ،
 وليس كل صديق نبيا .

وهذه الآية التى بدىء بها تمهيد وتوطئة لما يأتى بعدها من دعوة
 ابراهيم عليه السلام لأبيه وموعظته له بلطف ولين ورفق .

دعوة ابراهيم لأبيه :

بدأ ابراهيم عليه السلام دعوته لأبيه بأن ناداه باللفظ نداء
 وأرقه وأحبه الى كل أب كما جاء في قوله تعالى : « اذ قال لأبيه
 يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » .

و « اذ قال لأبيه » بدل اشتغال من ابراهيم ، وما بينهما اعتراض
 مقرر لما قبله (١٥) ، و « يا أبت » أى : يا أبى والتاء عوض عن
 ياء الأضافة ، واذلك لا يجتمعان ، فلا يقال : يا أبتى ، لئلا يجمع

(١٢) ينظر الكشف : ٥١٠/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦٠/٦ .

(١٣) فى طلال القرآن : ٢٣١١/٤ .

(١٤) أبو السمود : ٢٦٦/٥ .

(١٥) السابق .

بين العوض والمعروض عنه (١٦) • ونادى أباه مع أنه في حضرته
لاحضار سمعه وتهيئة ذهنه لتلقى ما سيلقيه اليه (١٧) •

واستعمل في نداء أبيه « يا » التي للبعيد ، مع أنه بجواره
للاشعار برفعته ، وعلو منزلته عنده ، وشدة حرصه عليه ، وليس هذا
نداء محض بل يحمل في طياته الاشفاق والتطاف ، والامانة ، بتحريك
مشاعر الأبوة ، التي يمتلئ بها فؤاد الأب لابنه ، نيمتثال انصائحه ،
ويستجيب ادعوته •

وبعد أن لفت انتباهه ، وناداه بما يدفعه الى الاصغاء اليه ،
والاستجابة له ، سأل عن العلة التي جعلته يعبد ما ليس فيه من
خصائص الألوهية شيء البتة « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى
عنك شيئاً » ، استفهم ابراهيم عن السبب الحامل لأبيه على عبادة
الصنم وهو مذنب عنه الله مع والبصر والاغناء عنه شيئاً ، تنبيهاً على
شنعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف (١٨) ،
والعبارة القرآنية تتميز أفضل تميز على ما لو قيل : لم تعبد الأصنام
لأن العبارة القرآنية فيها دليل قوياً على بطلان ما يعبدده ، وبرهان
ساطع على فساد ألوهيته ، وذم له بنفى صفات الألوهية عنه •

والاستفهام ينطوى على تعجب من شأن أبيه وعبادته ، وتوبيخ
له ، عله يرجع الى نفسه ، فيدرك خطأ ما وقع فيه ، ومن ثم يثوب
الى رشده ، ويقطع عن جريمته •

وفي الكلام ايجاز بديع بترك مفعولى « يسمع ويبصر » وهذا
اما لتاخذ الى نفى الفعل عن الفاعل على الاطلاق من غير تعرض لذكر

(١٦) الكشف : ٥١٠/٢ •

(١٧) التحرير والتنوير : ١١٣/١٦ •

(١٨) المحرر المحيط : ١٩٢/٦ •

المفعول كقولك : ليس به استماع ولا ابصار ، بتنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم مبالغة في نفى حقيقة الاستماع والابصار عنه ، واما المقصد الى افادة العموم والشمول مع الاختصار ، أى : لا يسمع شيئا من المسموعات ، ولا يبصر شيئا من المبصرات (١٩) •

وتتخصيص السمع والبصر من بين سائر الخصائص لأنهما أظهرها وأكثرها تعلقا بالعبادة في نظر الناس ، فعدم وجودهما فيمن يدعى له الألوهية ويعبده ، يعنى عدم صلاحيته لشيء أصلا ، فضلا عما يدعيه له ، فهو لا يسمع ولا يبصر شيئا ومن ثم فلا يسمع منه دعاء ولا رجاء ، ولا يبصر له فعلا ولا عبادة ، ولا يرى ما يصدر عنه من طاعة أو معصية ، فكيف يكون الها معبودا يتوجه اليه بالدعاء والعبادة •

ولم يقتصر على سلب هاتين الصفتين بل عمم في سلب جميع القدرات عنه ، فهو لا يغنى عنه شيئا ولا يقدر على شيء ، وجوده كعدمه ، لا يقدم منفعة ولا يؤخر ضرر ، فكيف يكون الها معبودا وهو معدوم القدرة على فعل شيء •

و « شيئا » مفعول « يغنى » وايقار هذا اللفظ لافادة العموم في نفى الاغناء ، فهو لا يغنى عنه شيئا في جلب نفع أو دفع ضرر ، وتذكيره للتحقير والتقليل ، أى لا يغنى عنك شيئا ما من الأشياء مهما كان قليلا أو حقيرا •

ولما بين له فساد عبادته ، دعاه الى اتباعه في الحق انذى جاءه من الله عز وجل ، ليهديه الى الصراط المستقيم ، ومصدر دعوته باستعطافه مرة ثانية ، فربما تأثر بتكرار الاستعطاف « يا أبت أتى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » •

(١٩) ينظر دلائل الاعجاز : ١٥٤ ، والكشاف : ١٠/٢٠٦

وعفتاح العلوم : ٢٢٨ ، وما بعدها •

وأكد الكلام بأن وقد : تجاوبا مع مقتضى المقام : حيث يستدعى قوة التأكيد : فالابن يبطل عبادة أبيه ، ويعظله ، ويبين له أنه جاءه علم لم يأت به ، ويدعوه الى متابعتة ، وهذا داعية انكار من الأب ، ومن ثم أكد الكلام بأكثر من مؤكد •

وفي التعبير « بجاعنى » و « لم يأتك » إشارة الى أن هذا العلم لم يصل اليه بتعب ومثابرة وجد واجتهاد ، ولكنه علم جاءه من الله عز وجل بطريق الوحي فهو علم صحيح واجب الاتباع •

وفي تغاير اللفظين مع اتحاد المعنى تفنن وتلوين فى الأسلوب حيث لم يكن التعبير : جاعنى من العلم مالم يجئك ، وبينهما طباق السنب ، وهو قائم هنا على الاثبات والنفى بين المعنيين لا بين اللفظين ، فان معنى مالم يأتك : مالم يجئك ، والطباق يكسب المعنى قوة وتأكيذاً ، ويلبس اللفظ حسنا وجمالا •

و « من » فى قوله « قد جاعنى من العلم ما لم يأتك » للتبعيض ولام العلم للجنس ، وهذه الجملة تدل على كمال أدبه فى مخاطبته لأبيه ، وتظهر هضمه لنفسه مع ما أوتى من علم وفهم ، فلم ينعت أباه بالجهل المفرط ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق ، بل قال له : ان معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك (٢٠) •

وهذه الجملة مقدمة لحكم يترتب عليها ترتيبا عقليا هو قوله : « فأتبعنى أهك صراطا سويا » فان الواجب على من لم يأت به العلم أن يتبع من جاءه العلم •

و « أهك » مجزوم فى جواب الأمر ، والهداية هنا معناها الدلالة والارشاد وليس المراد بنا التوفيق الى الصراط المستقيم فهذا

من أفعال الله تعالى كما قال جل شأنه « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٢١) •

ومجىء النظم على طريق الأمر وجوابه المقرون به من غير فاصل للإشارة الى أن فائدة اتباعه محققة وسريعة ، فبمجرد اتباعه تكون الهداية الى الصراط المستقيم ، وتتكبر « صراطا » ووصفه بـ « سويًا » تعظيمه وتفخيمه بالتذكير والوصف معا ، والمراد بالصراط السوي : الدين الحق ، وأصله : الطريق المستقيم ، واستعماله في هذا على سبيل الاستعارة التصريحية لأنه يصل بالإنسان الى السعادة في الدنيا والفلآح في الآخرة •

وبعد أن دعا ابراهيم عليه السلام أباه الى اتباعه ليهديه الصراط المستقيم نهاه عن عبادة الشيطان ، مستمرا في ساوك منهج اللطف والاستعطاف بتكرير النداء المحبوب الى نفس كل أب : « ياأبت لا تعبد الشيطان » ، وأبوه كان يعبد الأوثان ، وإنما نهاه عن عبادة الشيطان ، لأن عبادة الأصنام في أصلها عبادة للشيطان ، فهو الأمر بهاء الموسوس باتباعها ، ومادام قد أطاعه في أمره ، وفقن بوسوسته وتربيزه فهو عابد لها ، وعبادة الشيطان يستكرها العقلاء ، ويستقبحها الأسوياء ، وإذا تغلب الإنسان على وساوس الشيطان ومغرياته استقام على الطريق السوي •

والنهي يستدعي علة نستوجبه ، ومن ثم سارع ابراهيم ببيان علة نهى أبيه عن عبادة الشيطان : « ان الشيطان كان للآرحمن عصيا » ، والجملة تذييل معلن للنهي ، ومقرر له ، ببيان أن الشيطان الذي تعبدوه قد استعصى على ربك الذي أنعم عليك بفتون النعم ، ولا يليق بك أن تلجأ الى عبادة من عصى ربه ، وخالف أمر خالقه •

والفصل بين الجملتين للاستئناف . فان جملة « لا تعبد الشيطان »
تثير سؤالا جاءت الثانية جوابا عنه ، واظهار الشيطان في موضع
الإضمار لزيادة التنفير منه ، واستبشاع عبادته من حيث ان اسمه
مستبشع وذكره مستفزع ، وللاشعر باستقلال جملة التذيين •

وذكر الله تعالى بالرحمن دون سائر أسمائه وصفاته لاطهار كمال
شناعة عصيانه ، حيث عصى الرحمن الذي عمت رحمته ونعمه العالمين ،
والاقتصار على ذكر عصيان الشيطان من بين سائر جنائياته الكثيرة
لأنه ملاكها ، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكيره
داع لأبيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته (٢٢) • وفي التعبير
بـ « كان » وصيغة المبالغة « عصيا » دلالة على أنه لا يفارق عصيان
ربه وأنه متمكن منه ، مبالغ فيه (٢٣) •

وبعد أن نهى عن عبادة الشيطان ، وبين له سبب ذلك ، استمر
في مناداته بالرفق واللين محذرا إياه من عقاب الله تعالى : « ياأبت انى
أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون الشيطان وليا » •

وعنى الرغم من أنه يحذره من عذاب الله تعالى الا انه استعمل في
أسلوب التحذير كل لطف ورقة ليناسب مقام شفقتة عليه ، ورحمته به ،
فعبر بالخوف ، وهو توقع مكروه من أمانة مظنونة أو معلومة (٢٤) فهو
غير منطوع فيه بما يخاف ، ولم يذكر انه جازم بمس العذاب له لمجاملة
له ، لأن ذلك أجمل من القطع بعذابه ، أو لاطهار ان عاقبة أمره وخيمة
فيجوز أن يعذب وألا يعذب ، واستعمل المس المسعر بالتقليل المنبىء عن
قلة الاصابة ، بدلا من ذكر ما يشعر بشدة عذابه ، ونكر العذاب

(٢٢) أبو السعود : ٢٦٧/٥ •

(٢٣) التحرير والتنوير : ١٦/١١٧ •

(٢٤) المفردات : ١٦١ •

للتقليل (٢٥) ، ووصف العذاب بأنه من الرحمن ليكون مسعراً بالتخفيف

وكل هذا يتلاءم مع تلفظه بأبيه وحسن الأدب معه .

وقيل ان تنكير العذاب للتعظيم ، والمراد بالمس مطلق الاصابة

فيكون مقصودا به المبالغة فيها كما في قوله تعالى : « لاسكن فيهما

أفئتم فيه عذاب عظيم » (٢٦) ، والمقام مقام تخويف وتحذير

فيناسبه ذلك (٢٧) .

قال الشهاب : والحاصل أن ههنا مقامين يمكن اعتبار كل منهما :

مقام التخويف ، ومقام اظهار مزيد الشفقة وأدب المعاملة ، ومقتضى

الأول جعل التنكير للتعظيم والمس لطلق الاصابة ، ومقتضى الثاني

خلافه (٢٨) .

ومن ثم ذكر السكاكي أن تنكير « عذاب » اما للتهدويل واما

بخلافه (٢٩) ، وعلق الخطيب على هذا فقال : والظاهر أنه لخلافه ، واليه

ميل انزمخسرى ، فانه ذكر أن ابراهيم عليه السلام لم يخل هذا الكلام

من حسن الأدب مع أبيه ، حيث لم يصرح فيه بأن العذاب لاحق لاصق

به . . . ولكنه ذكر الخوف والمس ونكر العذاب (٣٠) .

وسوى السعد بين الغرضين ، واعترض على من يرجح التقليل ،

فقال : وما يحتمل التعظيم والتقليل قوله تعالى : « انى أخاف أن يمسك

عذاب الرحمن » أى : عذاب هائل ، أو شيء من العذاب ، ولا دلالة

(٢٥) ينظر الكشف : ٥١١/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦١/٦ .

(٢٦) النور : ١٤ .

(٢٧) حاشية الشهاب : ١٦١/٦ .

(٢٨) السابق : ١٦٢/٦ .

(٢٩) مفتاح العلوم : ١٩٤ .

(٣٠) الاضاح : ١٢١/١ ، وينظر الكشف : ٥١١/٢ .

للفظ المس وإضافة العذاب الى الرحمن على ترجيح كونه للتقليل كما ذكره بعضهم . لقوله تعالى : « لسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » (٣١) .
والأن العقوبة من الكريم الحليم أشد لقوله عليه الصلاة والسلام :
« أعوذ بالله من غضب الحليم » (٣٢) .

والذى تستريح اليه النفس أن يكون التنكير المقتايل مراعاة لمقام النفقة والتلطاف وحسن الأدب ، ولو كان المقصود التعظيم والتهويل لجاء التعبير بألفاظ ممدحة لهذا الغرض معبرة عنه تعبيراً ظاهراً ، وفى الكشف : أن الحمل على التفتخيم فى « عذاب » مما يأباه المقام (٣٣) .
والله أعلم بمراده .

ولما بين له خوفه عليه من عذاب الرحمن ، أوضح النتيجة المترتبة على هذا العذاب (فتكون للشيطان ولياً) أى قريناً فى اللعن أو العذاب تأيه ويليك ، أو ثابتاً فى موالاته (٣٤) . كما يفهم من صيغة المضارع « تكون » الدالة على الاستمرار التجددى ومن صيغة الصفة المشبهة « ولياً » .

وقد جعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه مترتبة على العذاب فهى أكبر منه ، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه... فكذا ولاية الشيطان التى هى معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم (٣٥) .

وقد حلل الزمخشري الآيات التى حكى دعوة إبراهيم لأبيه

(٣١) النور : ١٤ .

(٣٢) المطول : ٨٩ .

(٣٣) الألوسى ٩٨/١٦/٨ .

(٣٤) البيضاوى : ٤١٩ .

(٣٥) الكشف : ٥١١/٢ .

تحليلاً دقيقاً بين فيه روعة ترتيبها وحسن اتساقها وكمال الأدب فيها، مما يجدر بنا أن نسوق تحليله ، قال رحمه الله : انظر حين اراد أن يصحح أباه وييعظه فيما كان مقورطاً فيه من الخطأ العظيم ، والارنكاب الشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء ، وانسلخ عن قضية التمييز : .. كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال الجمالة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل ، .. وذلك انه طلب منه أولاً العلة فى خطئه ، طلب منه على تماديه موقظ لافراطه وتناهيه ، لأن الميود لو كان حياً مميذا سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب ، نافعا ضاراً الا انه بعض الخلق لاستخف عقل من أهله للعبادة ، ولسجل عليه بالغي المبين ، والظلم العظيم...فما ظنك بمن وجه عبادته الى جماد ليس به حس ولا شعور ... ثم ثنى بدعته الى الحق مترفقا به متلطفاً ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : ان معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك ... فابغى أنجك من أن تضل وتنتيه ، ثم ثلاث بتثبيطه ونهييه عما كان عليه بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن ... هو الذى ورطك فى هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك ، فأنت ان حققت النظر عابد الشيطان ... ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجدره ما هو فيه من التبعة والنوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : انى أخأت أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب وجعل بولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ... وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : يا أبت ترسلانيه واستعظافا (٣٦) .

وقد ساق ابن الأثير الآيات السابقة التي تحكى موعظة ابراهيم لأبيه في باب « الاستدراج » وذكر انه استخرج هذا الفن من كتاب الله تعالى . وعرفه بأنه : التوصل الى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به . وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يوثق السامع ويطربه ، لأن مبنى صناعة التأليف عليه ومزئزأها منه . وعلق على الآيات تعليقا مطولا لا يخرج في جوهره عما سبقناه للزمخشري آنفا (٣٧) .

رد الأب على ابنه :

بينما يبين ابراهيم عليه السلام لأبيه فساد ما هو فيه ، ، ويدعوه الى الحق في أحسن منهج وأقوم سبيل مع خلق عظيم وأدب جميل ، يبدؤ أن « آزر » كان صامتا صمت الساخرين ، ينتظر انتهاء ابنه من هذا الكلام الذي لم يرق لديه . ويعد نفسه للرد عليه ردا غليظا قاسيا ، وما ان انتهى ابراهيم عليه السلام من موعظته حتى فاجأه أبوه برده اللفظ الجافى كما حكاه القرآن الكريم : « قال أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » .

وهذا الرد مرتبط بما قبله عن طريق الاستئناف الموجب للفصل ، كأنه قد قيل : فماذا قال أبوه عندما سمع منه هذه المواعظ ؟ فقيل : قال أرأغب أنت ،،،، وهو مشتعل على انكار ، وتهديد ، وأمر . فأما الانكار فهو : (أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى : أ معرض ومنصرف أنت عنها ؟ ما ينبغي أن يكون منك هذا ، وهو انكار توبيخى ، فيه لون من التعجيب ، لرغبته عن آلهته وتحقيره لها ، وهو ابنه المطيع له .

والرغبة عن الشيء تدل على الاعراض عنه ، وإنما عبر بالرغبة
للاشارة الى أن اعراض ابراهيم عنها نابع من محض رغبته وقناعاته
هو ، لا من أمر أمّر مثلاً ، وفي هذا تقوية للانكار والتوبيخ ، من حيث
انه ليس مجبراً من أحد على الاعراض عن آلهة أبيه ، ومن ثم ما ينبغي
له أن يمرض عنها •

وقد توخى في الانكار الشدة والقوة ، فيجانب ما ذكرنا ، قدم
الخبر « راغب » على المبتدأ « أنت » للاهتمام بالخبر والعناية به وعدم
الانتفات الى المبتدأ ، وبذلك توجه الانكار الى نفس الرغبة ، كأن آلهته
ما ينبغي أن يرغب عنها أحد ، وأظهر « أنت » بدلاً من اضماره لما في
اظهاره من الاستهانة به ، كأنه ليس أهلاً لذلك ، وناداه باسمه مجرداً
فقال : يا ابراهيم ، ولم يقل له : يا بنى في مقابل : يا أبت (٣٨) وآخر
ذكره لعدم العناية به ، واستعمل في النداء « يا » التي لنداء البعيد ،
للاشعارم ببعده عن نفسه وقلبه ، وقال : عن آلهتي ، ليدل على جزمه
بألوهيتها ، وتمسكه بها ، ومنافحته عنها ، وأن مواعظ ابراهيم لم
تؤثر فيه •

والنداء في قوله « يا ابراهيم » تكملة لجملة الانكار والتعجب ،
لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء
فعله ، كأنه في غيبة عن ادراك فعله ، فالتكلم ينزله منزلة الغائب
فيناديه لارجاع رُشده اليه (٣٩) •

وأعرب الزمخشري الوصف « راغب » خبراً مقدماً ، و « أنت »
مبتدأً مؤخراً ، وهذا رأى الكوفيين ، وأجاز البصريون هذا الاعراب

(٣٨) ينظر الكشف : ٥١١/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦٢/٦ •

(٣٩) التحرير والتوير : ١١٩/١٦ •

وعكسه ، بأن يكون « راغب » مبتدأ و « أنت » خبره ، واختاره كثير من النحاة (٤٠) •

وزيادة الانكار تنشأ من تقديم الخبر ، كأنه قيل : أرغب أنت عنها ، لا طالب لها راغب فيها ، منبها له على الخطأ في ذلك ، ولو قيل : أترغب ، لم يكن من هذا الباب في شيء (٤١) • وفي التعبير باسم الفاعل بدلا من الفعل إشارة الى ثباته واستمراره على هذه الرغبة ، وإنها ليست أمرا جديدا لجأ اليه ، بل هي أمر متأصل فيه ، وصفة ثابتة له •

وأما التهديد فهو (لئن لم تنته لأرجمنك) ، وهو تهديد وتحذير لأبراهيم عما كان عليه من العظة والتذكير ، أى : والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهي عن عبادتها ، والدعوة الى ما دعوتنى اليه لأرجمنك (٤٢) •

وقد شدد في التهديد كما شدد من قبل في الانكار ، فأتى به على سبيل الشرط والجواب للقطع بوقوع المهدد به وسرعته عند وقوع الشرط ، وأكد الشرط بالقسم واللام ، وأكد الجواب باللام ونون التوكيد الثقيلة ، وعبر بلفظ « تنته » بدلا من « تسكت » ونحوه لأغادة أن سكوته يجب أن يكون نهائيا فلا يعود الى الحديث في هذا الموضوع مرة أخرى ، ولم يذكر متعلق الانتهاء للتعميم والشمول فيما ينتهى عنه ، وعبر بالرجم بدل الرمي أو الضرب لشدة في التعبير عن العقاب ، ولم يبين أداة الرجم ولا نوعه ، وهل هو رجم بالحجارة أم • حم باللسان ؟ وذلك ليكون صالحا للتفسير بكل منهما ، فيكون رجما

(٤٠) ينظر شرح الأشموني وحاشية الصبان : ١/ ١٩٣ •

(٤١) حاشية الشهاب : ١٦٣/٦ •

(٤٢) الألوسی ٩٩/١٦/٨ •

بالحجارة على سبيل الحقيقة ، أو رجما باللسان بمعنى الشتم والذم
على سبيل الاستعارة ، ولا مانع من ارادة المعنيين •

وأما الأمر فهو (واهجرني مايا) أى : ابتعد عني واتركنى زمانا
طويلا ، وهو معطوف على محذوف يدل عليه لأرجمذك ، أى فاحذرنى
واهجرنى (٤٣) •

وهو أمر شديد مثل سابقه : الانكار والتهديد ، حيث عبر فيه
بالهجر بدلا من البعد أو الترك أو نحو ذلك لبيان أن المراد شدة
المفارقة وتتمام القطيعة ، ولم يحدد الهجر بزمن معلوم ولكن عبر عن
زمانه بلفظ «مايا» من الملاوة وهى الدهر الطويل ومنه الملوان وهما الليل
والنهار (٤٤) ، وبذلك يكون الهجر زمنا طويلا لا حدود له ، فهو هجر
دائم •

وهذا الأمر يدل على أن الأب قد بلغ منه الضيق منهتهاء، ولم يعد
يحتل رؤية ابنه ، ولا يطيق بقاءه فى بيته ، وهذه طاعة فى غاية انقسوة
والغلظة ، ولا يقدم عليها أب تجاه ابنه الا اذا فقد مشاعر الأبوة
وروابط البنوة التى طبعت عليها النفوس وفطرت عليها القلوب •

هذا هو الرد الذى تلقاه ابراهيم من أبيه فى مقابل دعوته انجيلية
التي فيها سعادته فى الدنيا والآخرة ، ونصيحته المخلصة التى تفيض
رقة ، ونقطر حنانا وشفقة ، وقد زاد من شدته وقسوته على كل
ما قدمناه ، انه كان ردا فى المواجهة ، خطابا مباشرا فى جميع مراحله،
لم يخف بالتفات ، ولم يترقق بكامة لينة ، ولا جديد فى ذلك، فهذه سنة
الكافرين مع أنبياء الله تعالى فى كل زمان ومكان •

(٤٣) الكشف : ٥١١/٢ •

(٤٤) ينظر البحر المحيط : ١٦٥/٦ •

موقف ابراهيم عليه السلام :

ويعجب المرء أشد العجب من هذا الموقف ، ويتساءل في نفسه ، وماذا كان رد ابراهيم عليه السلام على أبيه ، في مقابل هذا الإنكار الشديد ، والتهديد والوعيد ، والأمر بالهجران ؟

ويأتى الجواب مخالفا لما تمليه أهواء النفوس • ونزغات الشيطان ، وموافقا لما توجبه شرائع الله تعالى ، وما عهدناه من أخلاق خليل الرحمن ابراهيم ، كما حكاه القرآن الكريم : « تال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » •

ورد ابراهيم عليه السلام يشتمل على دعاء ، ووعد ، وأجابة ، ومنهج :

فأما الدعاء فهو « سلام عليك » وهذا دعاء لأبيه بالسلامة من كل سوء ، تطييبا لخاطره ، واستمالة له ، وهو في نفس الوقت سلام توديع ومشاركة ، ومقابلة للسيئة بالحسنة وكأنه يقول له : لأصيبك بمكرهه ، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك (٤٥) •

ويتجلى الايجاز البديع في سلام ابراهيم عليه السلام مع قوة المعنى والمبالغة فيه ، فقد جاء جملة اسمية تدل على ثبوت السلام ودوامه ، ونكر المبتدأ « سلام » للاستعار بتمام السلام وكماله. كأنه قيل : سلام كامل تام عليك ، وهذا ما سرغ الابتداء به وهو نكرة • وأما الوعد ، فهو : (سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا) ، وعد ابراهيم عليه السلام أباه أن يستغفر له ربه عز وجل ، لعله يوفقه للتوبة والايمان ، ويهديه الى الطريق المستقيم ، فحقيقة الاستغفار للكافر : استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرة الله سبحانه وتعالى (٤٦) •

(٤٥) ينظر الكشف : ٥١٢/٢ ، والبيضاوى : ٤١٩ •

(٤٦) ينظر البيضاوى : ٤١٩ ، وأبو السعود : ٢٦٨/٥ •

وكان هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام قبل أن يعلم أن أباه يموت على كفره ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر (٤٧) : « فلما تبين له انه عدو الله تبرأ منه » (٤٨) •

وأكد الوعد بالنسب ، وذلك لأنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخلها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتركيزه وتثبित معناه (٤٩) ، فالاستغفار كائن لا محالة ، وان تأخر الى حين ، وقدم الجار والمجرور « لك » على المفعول به « ربى » للمسارعة ببيان أن الاستغفار محض لأبيه ، وفائدته عائدة اليه ، وأوثر لفظ الرب لما فيه من معنى التربية والشفقة والعناية بابراهيم ، وهذا داع لاجابة استغفاره ، وأضيف اليه ضمير المتكلم لتشريف المضاف اليه وللاشارة الى أن الرب هو رب ابراهيم ، الذى هو الرب الحقيقى من بيده الخلق والأمر ، لا رب « آزر » الذى هو صنم لا ينفع ولا يضر •

وواعد ابراهيم عليه السلام بالإستغفار لأبيه مع فرط ما قدم له من قسوة وغلظة ، يثير تساؤلا عن العلة فى ذلك ، وقد أجيب عن هذا التساؤل اجابة مؤكدة (انه كان بى حفا) ، والحفى : البر اللطيف ، يقال : أحفيت بفلان ، وتحفيت به ، اذا عنيت باكرامه (٥٠) ، والمعنى : سأطلب لك المغفرة من الله ، فانه كثير البر واللاطف بى ، يجيبنى اذا دعوته (٥١) •

فالجملـة المذكورة تعليل لمضمون ما قبلها ، وفصلت عنه للاستئناف ،

(٤٧) التوبة : ١١٤ •

(٤٨) فتح البيان : ٣٠/٦ •

(٤٩) معنى اللبيب : ١٣٩/١ •

(٥٠) المفردات : ١٢٥ •

(٥١) فتح البيان : ٣٠/٦ •

وربطت به أقوى ريط بان المؤكدة ، وقدم فيها الجار والمجرور «بى» على المسند « خفيا » للمسرعة ببيان أن كرم الله تعالى حال به ، ولطفه ملازم له ، مع ما فى تقديمه من رعاية للفواصل ، ومحافظة على نهجها المتميز الذى جاءت عليه فى هذه السورة ، وجىء بلفظ حفى على صيغة فعيل للمبالغة فى بيان لطف الله به ، وكرمه له ، فالطاف الله تعالى عليه كثيرة ، وير الله به وفير ، ووسطت « كان » فى الكلام لتأكيد الحفاوة ، وبيان تحقق وقوعها ، فالله عز وجل حفى به من قبل ذلك ، وليست حفاوته به أمرا جديدا ، إنما هى واقعة فى الماضى ، ومستمرة فى المستقبل .

وأما الإجابة فهى : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فبهذا يكون إبراهيم قد استجاب لأمر أبيه له بأن يهجره طويلا ، اذ أخبره بأنه سيبتعد عنه وعن قومه وما يعبدون من دون الله ، وينتركهم وشأنهم بعد أن قائمهما عليه من نصحهم وتبليغهم ، ولم يستجيبوا لدعوته ، ولم يهتدوا بنصيحته .

والجابة إبراهيم عليه السلام فيها من حسن الأدب وكماله ، وغزارة المعنى وتسامه ، ما ليس فى أمر أبيه ، ويتضح هذا من المقارنة بين ما حكاه القرآن الكريم عن كل منهما ، فقد حكى عن الأب قوله : « واهجرنى مايا » وعن إبراهيم قوله « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » .

فعبّر الأب بالهجر ، وهو لفظ شديد الجرس ، يوحى بالفراق الشديد والمخاصمة والمقاطعة ، فمادته : هجر ، الدالة على القطيعة وانقطع ، ومنها : الهجر بضم الهاء وسكون الجيم وهو الانشائى فى المنطق ، ورماه بالهاجرات وهى الفضائح (٥٢) .

(٥٢) مقاييس اللغة : مادة هجر .

وعبر ابراهيم بالاعتزال ، وهو لفظ معتدل الجرس ينطوى على المفارقة بالمعروف ، فمادته : عزل ، الدالة على التنحية والامالة ، تقول : عزل الانسان انشىء يعزله ، اذا نحاها في جانب ، وهو بمعزل وفي معزل عن أصحابه ، أى في ناحية عنهم (٥٣) ، والعزلة سلوك محمود عند الزهاد ، ومن ثم كان الاعتزال مستعملا في القرآن الكريم في حكاية عبارات الرسل والمؤمنين ومقامات التباعد بالحسنى ، فيحكى القرآن الكريم عن موسى قواه لقومه : « وان لم تؤمنوا لى فاعزلوا » (٥٤) وعن أصحاب الكهف قولهم : « واذا اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله » (٥٥) •

ويقول في الأمر باجتناب الحائض : « فاعزلوا النساء في المحيض » (٥٦) بينما يقول في الابتعاد عن الناشز « واهجروهن في المضاجع » (٥٧) وحينما أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بهجر الكافرين قال : « واهجروهم هجرا جميلا » (٥٨) فقيده الهجر بالجميل تخفيفا لمفهوميته ، وكل هذا يدل على أن الهجر أشد من الاعتزال •

وطلب « آزر » من ابراهيم أن يهجره عن طريق الأمر المباشر الذى يقتضى التنفيذ ، وخصه بذلك ليكون أشد وأقسى عليه ، بينما لم يطلب ابراهيم من أبيه أن يعتزله ، وجعل الاعتزال من جهته هو ، ولم يواجه أباه بالاعتزال ولم يخصه بذلك ، بل جعله اعتزالا عاما شاملا لقومه الكافرين وما يعبدونه من دون الله ، وهو داخل في هذا العموم ، وفي هذا رفق بالأب لعدم مواجهته بابتعاده عنه ، وفيه اعلان

• (٥٣) السابق : مادة عزل •

• (٥٤) السخان : ٢٦ •

• (٥٥) الكهف : ١٦ •

• (٥٦) البقرة : ٢٢٢ •

• (٥٧) النساء : ٣٤ •

• (٥٨) المزمل : ١٠ •

عام بمقاطعة الكفر والكافرين ، وعبر عن الاعتزال بالخصارح الذى يتسع زمان تنفيذه لتخفيف وقع الخبر على أبيه •

وقيد « آزر » الهجر بزمان طويل لا حدود له ، بينما أطلق إبراهيم الاعتزال فلم يقيد بزمان ، والمطلق أهون من المقيد بزمان طويل غير محدد •

وعبر إبراهيم عن آلهتهم « بما » التى لغير العاقل للإشارة الى فقدان معبوداتهم للعقل وغيره من صفات العقلاء ، وقال « وما تدعون » ولم يقف وآلهتكم للإشارة الى أن من شرط المعبود أن يكون أهلاً للمناداة والدعوة فى الشدايد (٥٩) • وليسلب عنها صفة الألوهية التى يدعونها لها ، ويعظمونها بسببها ، ويشير الى أنه غير معترف بما يدعون لها من الألوهية ، ولا يجريه على لسانه ، وفى هذا تحقير لها ونهكهم بها ، ووصفها بأنها (من دون الله) لمواجهة بفساد عقيدتهم التى تقوم على عبادة أصنامهم من دون الله ، ولينبههم على أن الذى ينبغى أن يعبد هو الله عز وجل •

وبهذا يتضح لنا الفرق الكبير بين أمر « آزر » واجابة إبراهيم عليه السلام •

وأما المنهج فهو (وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً » فهذا بين إبراهيم طريقته ومنهجه القائم على عبادة الله الواحد القهار ، وأكد لأبيه وقومه أنه لن يجيد عن عبادة ربه وأن تمسكهم بعبادة أصنامهم واجباره على الهجرة من بلده ، ان يثنيه عن عبادة رب العالمين لا شريك له •

والمراد بالدعاء : العبادة ، لأنه منها ومن وسائلها (٦٠) ، فقد

(٥٩) نظم الدرر : ٢٠٨/١٢ •

(٦٠) الكشف : ٥١٢/٢ •

قال عليه السلام : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » (٦١) ، ومما يرجح انه العبادة قوله تعالى بعد ذلك : « فلما اعتزلهم وها يعبدون من دون الله » .

وقال : وأدعو ربى ، ولم يقل : وأدعو الله كما قال قبل ذلك : وما تدعون من دون الله ، لالتساع بالتغاير بين عبادتهم وعبادته (٦٤) ، وللإشارة بما في لفظ الرب من معانى التربية والعناية الى انه لطيف به مستجيب له ، والاضافة الى ضمير المتكلم للدلالة على انه الرب الحقيقى الذى يقبل دعاءه ويحقق رجاءه ، وليس ربهم العاجز الذى لا يملك ضرا ولا نفعا ولا يسمع دعاء ولا رجاء ، وفيه تعريض بربهم الذى يدعونه فلا يسمع ولا ييصر . وعلى عبادته لربه ودعائه له بعله مرغوبة ومطلوبة « عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » ، أى : خائبا ضائع السعى ، وتصدير الكلام بعسى لظهار التواضع ، ومراعاة حسن الأدب ، والتنبية على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من العيوب المختصة بالعليم الخبير (٦٣) .

وفى العبارة الكريمة تعريض بشقاء أبيه وقومه فى عبادة آلهتهم ، حيث يرهقون أنفسهم بعبادتها ، وتقديم القرابين لها ، وهى لا تغنى عنهم شيئا ، بل وسيحل عليهم بسببها الشقاء والعذاب فى الدنيا والآخرة .

واظهار « ربى » فى موضع اضماره لالتساع بعله الحكيم الذى هو عدم الشقاء ، والتعبد والتشرف بذكره تعالى .

(٦١) رواه الحاكم وصححه الجامع الصغير ١٧/٢ .

(٦٢) الألوسى : ١٠٢/١٦/٨ .

(٦٣) أبو السعود : ٢٦٩/٥ .

وبهذا حسم إبراهيم عليه السلام الموقف مع أبيه وقومه ، بأن
قرر اعتزالهم واللجوء الى حمى القرى العزيز ، لينعم بعبادته ، ويهتأ
مدعائه بعبدا عن أقوم الظالمين •

الخلاصة :

وبعد أن بيّنت الآيات موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ،
وقراره باعتزالهم وما يعبدون من دون الله تعالى ، تطوى مرحلة حدث
له فيها ما حدث ، ونفذ فيها قرار اعتزاله ، وتأتى الآيات لتبرز لنا
نتيجة اعتزاله ، وما جناه من نعم جليلة أعدقها الله عليه ، لتكون هذه
النتيجة خاتمة حسنة لهذه الحلقة من حلقات قصة إبراهيم عليه السلام
« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب
وكلا جعلنا نبيا وهبنا لهما من رحمتنا وجعلنا لهما نساء صديقا » ،
أى غلما فارقهم بالمهاجرة الى الشام لم يتركه الله تعالى وحيدا ، انما
وهب له اسحاق ومن بعده حفيده يعقوب عليهما السلام بدل من
فارقهم من أهله وقومه ، وأنتم عليهم النعمة بأن جعلهم من أنبيائه ،
وأعطاهم من رحمته كل خير ديني ودنيوي ، وجعل لهم ذكرا حسنا
بين الناس ، وهذه عاقبة حسنى ، ونهاية طيبة لاعتزاله الكفر
والكافرين •

وقد جاءت عبارة القرآن الكريم عن هذه النهاية الطيبة منطقية
على كثير من اللطائف البلاغية ، حيث عطف على ما قبلها بفاء التفريع
للدلالة على أن مضمونها متفرع على مضمون ما قبلها ، وأنها مبنية
على مقدمة سابقة هى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » ، وكرر
هذا القول بعد الفاء لتحقيق التلاحم بين المشاهد ، بجعل بداية هذا
المشهد هى نهاية المشهد السابق عليه ، فتبدو أجزاء الحلقة شديدة
الترابط ، رغم اختلاف أزمنة وأمكنة حدوثها ، وعطف اعتزاله ما يعبدون

من دون الله على اعتزالهم مع انه داخل فيه ، للنص عليه صراحة تأكيداً له ، لأنه في إحقيقه هو سبب الخصومة بينه وبين قومه ، وداعية اعتزاله لهم .

وربت هبة اسحاق ويعقوب على اعتزاله قومه لبيان كمال النعم التي أعطاهما الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء (٦٤)، وجاء الذنم على صورة الشرط وجوابه مع كون أداة الشرط « لما » التي هي حرف وجود لوجود ، أو وجوب لوجوب كما يقول بعض النحاة (٦٥) ، للاستعار بتحقق هذه الهبة العظيمة بعد تحقق الشرط ، وهذا لا يمنع من وجود فترة زمنية فاصلة بين الاعتزال والهبة المذكورة ، فالمشهور عند العلماء انه رزق باسمائيل أولاً ثم رزق باسحاق بعد ذلك بمدة طويلة (٦٦) .

والوهب والهبة : اعطاء شيء بلا عوض ، وهو هنا مجاز في التفضل والتيسير ، وعبر بالهبة للإشارة إلى أن اعطاء اسحاق ويعقوب وأن كان مترتباً تاريخياً على الاعتزال الا انه ليس أجراً مستحقاً في مقابل الاعتزال ، فما فعله من المهاجرة بدينه ، طاعة لله تعالى يرجوا بها رضوانه ، وما رزقه الله تعالى من البنين ، هبة وتفضل من الرزاق الوهاب جل شأنه ، وجمع بين الابن والحفيد دلالة على انه عاش مدة طويلة من الزمان بعد الاعتزال حتى أدرك حفيده يعقوب ، كما نقل عن العلماء ، وتخصيص اسحاق ويعقوب بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء في بني اسرائيل ، ولأن اسماعيل عليه السلام قد ذكر وبين فضله على انفراد (٦٧) في آية تالية هي قوله تعالى : « واذكر في الكتاب اسماعيل »

(٦٤) أبو السعود : ٢٦٩/٥ .

(٦٥) مغنى اللبيب : ٢٨٠/١ .

(٦٦) يراجع ما ذكرناه في التمهيد عن ذلك .

(٦٧) البيضاوى ٤١٩ .

انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا • وكان يأمر أهله بالصلاة
والزكاة وكان عند ربه مرضيا « (٦٨) » •

وبعد بيان نعمة الله تعالى عليه بالذرية التي كان يتسوق اليها من
زمن بعيد ، عقب ذلك ببيان نعمة جليلة أخرى من نعم الله تعالى
عليه ، (وكلا جعلنا نبيا) ، أى كل واحد منهم اصفاه الله وجعله
نبيا وهذا شرف عظيم لا يعادله شرف آخر ، (وكلا) مفعول أول
اجعلنا نبيا ، قدم عليه للتخصيص ، لكن لا بالنسبة الى من عداهم ،
بل بالنسبة الى بعضهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم
دون بعض (٦٩) •

و « كل » يقتضى استغراق ما أضيف اليه ، وحكم الاستغراق
أن يثبت الحكم لكل فرد فرد لا للمجموع ، والتتوين فيه عوض عن
المضاف اليه •

وهو لفظ حكمه الافراد ، والتذكير ، ومعناه يكون بحسب
ما يضاف اليه ، وان غلط عن الاضافة لفظا ، يجوز مراعاة لفظه فيأتى
بعده مفرد ، ويجوز مراعاة معناه فيأتى بعده جمع (٧٠) ، تقول : كل
قائم ، وكل قادمون ، وقد روعى فيه هنا جانب اللفظ ومن ثم جاءت
الفاصلة « نبيا » مفردة لتتلاءم مع قواصل السورة الكريمة التي جاءت
على نهج فريد ، وفى سورة الأنبياء روعى فيه جانب المعنى فقيس :
« وكلا جعلنا صالحين » (٧١) فتلاءمت الفاصلة مع ما قبلها وما بعدها
من قواصل •

(٦٨) مريم : ٥٤ ، ٥٥ •

(٦٩) أبو السعد ، ٢٦٩/٥ •

(٧٠) مغنى اللبيب ١/ ٢٠٠ •

(٧١) الأنبياء : ٧٢ •

وأُتبعَت النعمة الثانية بنعمة ثالثة « ووهبنا لهم من رحمتنا »
وعبر عنها بالهيئة للإشارة الى أنها عطاء خالص من الله تعالى ، وحذف
المفعول وهو الموهوب ، فلم تذكر الهيئة ، وذكر مصدرها وهو انجار
والمجرور « من رحمتنا » ومصدر الشيء يذل على الشيء ، ومن ثم أفاد
نظم الجملة أنها من رحمة الله تعالى التى هى أساس انبهاات ، وأصل
العطايا ، فهى هبة عظيمة عامة شاملة ، تتناول كل خير دينى ودنىوى ،
وتقتصر على النبوة أو المال أو الولد كما ذهب بعض المفسرين (٧٢)
تضييق لهبة الله الواسعة ، اتى منحها لهم بلا حدود .

وختمت النعم بنعمة رابعة (وجعلنا لهم لسان صدق غيا) أى
جعلنا لهم بين الناس ذكرا حسنا وثناء جميلا ، ظاهرا لا يخفى أمره ،
والمراد باللسان : ما يوجد به من الكلام والثناء ، ولسان القوم
الغنم قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » (٧٣) أى
بنعتهم ، ففى اللسان مجاز مرسل ، علاقته الآلية ، من اطلاق اسم
الآلة وإرادة ما ينشأ عنها ، وقال الشهاب : أطلق اللسان على ما يوجد
به من الكلمات والحروف ، كما تطلق اليد على العطية بعلاقة
السببية (٧٤) ، فراعى سببية اللسان للكلام ، ولا اشكال فى ذلك ،
فالعلاقتان واردتان ويمكن اعتبار واحدة منهما ، والمشهور عند البلاغيين
اعتبار الآلية (٧٥) .

واضافة اللسان الى الصدق باعتبار حقيقته اضافة مجازية ،
وباعتبار المراد منه اضافة حقيقية ، وعلى كل ففى وصف اللسان

(٧٢) ينظر الالوسى : ١٠٢/١٦/٨ .

(٧٣) ابراهيم : ٤ .

(٧٤) حاشية الشهاب : ١٦٤/٦ .

(٧٥) ينظر المطول : ٣٥١ .

بالمصدر مبالغة بجعله نفس الصدق و « عليا » أى انه ظاهر واضح لا يخفى على الناس ، واستعماله في ذلك على سبيل الاستعارة ، لأن أصل العلو : الارتفاع ، وما ارتفع مكانه ظهر ووضح كأنه نار على علم (٧٦) ، فاستعير العلو لظهور محامدهم ، وشيوع ذكركم ، والثناء عليهم بين الناس .

ونعود لنأمل آيتي الخاتمة ، ودقة نظمهما ، فنرى انهما قد اشتملتا على أربع نعم جليلة هي :

- ١ - هبة اسحاق ويعقوب .
- ٢ - جعلهم أنبياء .
- ٣ - اعطاؤهم كل خير من رحمة الله .
- ٤ - ابقاء ذكركم والثناء عليهم بين الناس .

وتضمنت كل آية من الآيتين نعمتين من النعم الأربع ، وعبر في النعمة الأولى والثالثة بالهبة ، وفي الثانية والرابعة بالجعل ، فجمعت كل آية بين هبة وجعل ، ولعل السر في ذلك أن النعمتين الأولى والثالثة تحويان منحة حسية وعطايا ملموسة ، تتعلق بهم وحدهم ، فناسب ذلك أن يعبر عنهما بالهبة وأن النعمتين الثانية والرابعة تحويان فضائل عقلية تتعلق بالهداية وتعود عليهم وعلى غيرهم ، ويبقى الانتفاع بها بين الناس ، فناسب ذلك أن يعبر عنهما بالجعل المشعر بالدوام والبقاء ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما دعا الله تعالى أن يرزقه بالذرية قال كما حكى القرآن الكريم « رب هب لى من الصالحين » (٧٧) فعبّر بالهبة ، وعندما دعا الله أن يمن عليه بالذكر

(٧٦) ينظر حاشية الشهاب : ١٦٤/٦ .

(٧٧) الصافات : ١٠٠ .

الحسن والثناء الجميل قال « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » (٧٨)
 فعبر بالجعل ، وبهذا تناسبت الاجابة مع الدعاء •

ولما كانت النعمة الاولى خاصة بابراهيم عليه السلام قيل فيها
 « وهبنا له » ، ولما كانت النعمة الثانية تتعلق بكل منهم فردا فردا ،
 ويمكن صرفها اليهم أو صرفها الى اسحاق ويعقوب باعتبار
 أن ابراهيم عليه السلام نبوته سابقة ، وجمع بينها وبين
 الرسالة ، عبر عنها بما يتناول التفسيرين ف قيل فيها (وكلا جعلنا
 نبيا) أى وكلا منهم أو وكلا منهما ولما كانت النعمتان الثالثة
 والرابعة عامتين للجميع قيل فيهما « وهبنا لهما » « وجعلنا لهما » •

وأسندت جميع النعم الى نون العظمة « وهبنا » « جعلنا »
 « رحمنا » لتعظيم أمرها ، وتفخيم شأنها حيث انها من نبيى الرزاق
 الذى له انخلق الأمر ولا معقب لحكمه وفيه أيضا دلالة على أن هذه
 النعم لا تصدر الا من الله عز وجل ، اذ الأفعال المسندة اليه لا يمكن
 ولا يعقل أن تصدر الا من الله سبحانه وتعالى (٧٩) •

وعطفت النعم على بعضها بالواو للاستعارة بتغايرها واستقلالها
 فى العظم والفقامة ، فكل نعمة منها جديرة بأن تذكر على انفراد ،
 ويمتن بها على حدة •

ورقت هذه الذم ترتيبا دقيقا ، فلما كان ابراهيم عليه السلام
 مشغولا بأمر الذرية ، ويتوق اليها من زمن بعيد ، بشر بهذه النعمة
 أولا ، باعتبارها تشغل فكره ، وتملا وجدانه ، وعقبت بما يسر خاطره
 بأبنائه ، ويحقق له ولهم الشرف العظيم ، وهى نعمة اختيارهم للنبوة ،

(٧٨) الشعراء : ٨٤ •

(٧٩) الاسلام فى عصر العلم : ٢١٤ ، وينظر ٣٢٤ ، ٢٤٦ •

وجعلهم أئمة للناس ، وأتبعته هذه النعمة بنعمة الخير العام الشامل
الذى لم يحد ولم يعد ، وختمت النعم بنعمة هى مسك الختام، وغاية
المرام ، انها الذكر الحسن والمثناء الجميل ، وتلك نعمة باقية مستمرة
بعد مماتهم ، حيث بقى ذكرهم نورا يضىء بين الناس على تجديد
الأعمار وتباين الأمصار •

وبهذه النهاية البديعة ، التى تشع بانقضاء الأعمار ونهاية
المشوار ، بعد نين المطالب وتحسين الرغائب ، تختتم هذه الحلقة من
قصة ابراهيم عليه السلام •

الحلقة الثانية

وأتل عليهم نبأ إبراهيم

قال الله تعالى :

« وأتل عليهم نبأ إبراهيم • اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون •
 قائلوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين • قال هل يسمعونكم اذ تدعون •
 أو ينفعونكم أو يضرون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • قال
 أفرايتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآبائكم الأقدمون • فانهم عدو لى
 الا رب العالمين • الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطمعنى
 ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يميئتنى ثم يدين •
 والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين • رب هب لى حكما
 والحقنى بالصالحين • واجعل لى لسان صدق فى الآخرين • واجعلنى
 من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبى انه كان من الضالين • ولا تخزنى
 يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب
 سليم » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الشعراء • وتتناول دعوة إبراهيم عليه
 السلام أباه وقومه الى عبادة الله عز وجل ونبذ عبادة الأصنام التى
 لا تنفع ولا تضر •

وهى تعتبر الحلقة الثانية بين الحلقات التى تدور فى محيط
 الدعوة الى الله تعالى وابطال عبادة الأصنام •

وسورة الشعراء تبدأ بالاشفاق على النبی ﷺ من شدة أساه
 وحزنه على عدم ايمان قومه « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا

مؤمنين» (٢) ، وتبين أن الله عز وجل لو شاء أجبارهم على الهداية لأنزل «عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين» (٣). على أن هؤلاء القوم معروفون بالأعراض عن آيات الله تعالى وتكذيبها ، وسينالون جزاء ذلك «وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون» (٤)

وتمضى السورة في ذكر قصص الأنبياء السابقين مركزة على بيان عناد أقوامهم ، وتمردهم على ما جاءوا به ، ومناصبتهم العداء وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ ، وحث له على الصبر حتى يأتيه نصر الله تعالى .

وتبدأ بتفصيل قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملائه ، وذلك اقرب زمانه من زمن الرسول ﷺ ، ولكن قصته مشتملة على كثير من الآيات والمعجزات ومع ذلك لم يتأثر بها فرعون وقومه ، وظلوا على عنادهم ومكابرتهم حتى أهلكهم الله بالغرق في البحر . وهذا يشير إلى أن كفار قريش لو جاءتهم الآيات التي دأبوا على طلبها من الرسول ﷺ فإن يتراجعوا عن كفرهم وعنادهم .

وتأتى بعد ذلك قصة إبراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب وبني إسرائيل معا ، فهو الجد الأعلى للطائفتين ، وفي ذكر قصته للعرب عظمة وعبرة ، لما بينهم وبينه من صلة يفخرون بها ، ولما بينهم وبين قومه من شركة في عبادة الأصنام ، وفي القصة احتجاج على بطلان عبادتها وفساد اللجوء إليها .

(٢) الشعراء : ٣ .

(٣) الشعراء : ٤ .

(٤) الشعراء : ٥ ، ٦ .

البداية :

تبدأ القصة بداية مثيرة فيها لفت للانتباه ، واستدعاء للانصات « وائل عليهم نبأ ابراهيم »، وهى بداية تختلف عن بدايات كل القصص فى السورة لما فيها من عظات بالغات لقوم النبى ﷺ نظرا لصلاتهم بابراهيم عليه السلام ، وتشابههم مع قومه فى عبادة الأصنام ودفاعهم عنها .

والتلاوة : القراءة ، و « نبأ ابراهيم » خبره العظيم الثان المتضمن للعظات والعبر . والأمر بتلاوة هذا الذبأ على انقوم لما فيه من تذكير لهم بسيرة أبيهم الذى يفخرون بالانتساب اليه ، لعلمهم يعتبرون بعداوتهم للأصنام وابطاله لعبادتها ، ويشوبون الى رشدهم . وأضيف النبأ الى ابراهيم عليه السلام دون قومه مع أنهم طرفه فيه ، لما أنه الأصل فيه ، اذ كان المبادئ بالدعوة الى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الأصنام . كما أن العرب يقدرون ابراهيم عليه السلام نفسه ، ويرغبون فى سماع أخباره .

حوار ابراهيم مع قومه :

وبعد هذه البداية المشوقة تبدأ الآيات فى سرد الحوار الذى دار بين ابراهيم عليه السلام وقومه « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » و « اذ » منصوب على الظرفية انبأ : أى نبأ حين قال لأبيه وقومه ما تعبدون . وبدء الحوار بسؤال ابراهيم عليه السلام انساره الى أنه كان مهموما من ضلال قومه ، وفى شغل شاغل عليهم ، ومن ثم بدأ بالحوار معهم ، ودعوتهم الى عبادة الواحد القهار . وتخصيص « أبيه » بالذكر مع أنه من قومه لأن أمره يهمه قبل غيره ، ومسئوليته عنه مقدمة على مسئوليته عن سواه .

و « ما » اسم استفهام يسأل به عن تعيين الجنس ، وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولأنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم نقول له : الرقيق جمال وليس بمال (٥) . فالاستفهام صوري أراد به افتتاح المجادلة معهم فالتقى عليهم السؤال ليكونوا هم الابتدائيين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم ، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد ، لأن الذي يتصدى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم (٦) .

وأجابه قومه بتعيين نوع معبوداتهم « قالوا نعبد أصناما فنظلم لها عاكفين » والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف البياني . على أنها جواب عن سؤال تقديره فماذا قالوا في جوابه ؟ وعلى هذا كل ما فيه القصة من قال وقالوا ، وهذا نهج مسلك في حكاية الحوارات (٧) .

وأطالوا في الجواب ولم يقتصروا على قولهم : أصناما ، كما هو مقتضى السؤال ، ابتهاجا بعبادتها وافتخارا بها باطالة الحديث عنها . قال الزمخشري : فان قلت : « ما تعبدون » سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا أصناما . كقوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٨) قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة

(٥) الكشف : ١١٦/٣ .

(٦) التحرير والتنوير : ١٣٨/١٩ .

(٧) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٨) البقرة : ٢١٩ .

كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب ابراهيم وعلى ما قصده من اظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار ، الا تراهم كيف عطفوا على قولهم « نعبد » « فنظل لها عاكفين » ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده ، ومثاله أن تقول لبعض السطار : ما تلبس في في بلادك ؟ فيقول : ألس البرد الأنحى ، فأجر ذيله بين جوارى الحى (٩) • وهذا الجواب من قبيل الاسلوب الأحق كما في الكشف (١٠) •

والمعهود في مثل هذه الحالات أن المتكلم بالجواب يكون واحدا نائبا عن الجميع ، وباقى القوم يستمعون ، وانما أوتر التعبير بصيغة الجمع في « قالوا نعبد » وما بعدها للإشارة الى رضاهم عن الجواب فأجريت الاجابة على لسانهم جميعا ، كأنهم قالوا في نفس واحد « نعبد أصناما ••• » وفي ذلك اشعار باجماعهم على الضلال ، وتوحدهم في نصرته •

وتكبر « أصناما » لتعظيم شأنها ، فهي معظمة عندهم ، ولها مكانتها الجليلة في نفوسهم • و « نظل » بمعنى ندوم ، وهى فعل ناقص دال على القتران مضمون الجملة بالنهار ، أو بمعنى صار • ويحتفل أن تكون تامة بمعنى دام كقولهم : لو ظل الظلم لهلك الناس • وعاكفين على الأولين خبر ، وعلى الثانى حال (١١) • وعلى كل ففى التعبير بنظل اشعار باستمرارهم على عبادتها •

و « لها » متعلق بنظل أو بعاكفين ، والعكوف يتعدى بعلى ، وإنما ضمن معنى العبادة ، فعدى باللام ، وهى تنفيذ معنى زائدا ، كأنهم قالوا : فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها ، أو مستديرين حولها ،

(٩) الكشف : ١١٦/٣ • وينظر مفتاح العلوم : ١٧٨

(١٠) ينظر الالوسى : ٩٣/١٩/١٠ •

(١١) حاشة الشهاب : ١٦/٧ •

وهذا أيضا من جملة اظناهم (١٢) ، واينار « عاكفين » على عابدين لما فيه من دلالة على الحبس (١٣) ، فهو مشعر بشدة اقبالهم عليها ، وعدم انصرافهم عنها ، وانحباسهم على عبادتها •

ولما بينوا نه حقيقة معبراداتهم تدرج معهم في الكلام لييطل عبادتها ، بما لا يمارون فيه ، من عجزها التام ، وهو مما ينأى روييتها « قال يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » • وسلك في بيان حجة مسلك الاستفهام دون أن يبين لهم عجزها بأساوب خبرى ، ليتوصلوا الى النتيجة بأنفسهم ، ولتكون اجابتهم اقرارا منهم بعجزها ، اذ لن يستطيعوا اثبات أى قدرة لها ، وبذلك تلزمهم الحجة •

وحذف المسموع مشعر بعموم عدم سماعهم لأى شىء ، فهم لا يسمعون دعاءهم ولا يسمعون غير ذلك ، والسماع مؤد الى الاجابة ، وانما قيل « يسمعونكم » دون يجيبونكم لا أن السماع أقل من الاجابة فاذا عجزت الأصنام عن السماع فهمى عن الاجابة أعجز •

و « اذ » ظرف لما مضى ، وانما جىء بالمضارع دون الماضى المناسب لها ، فام يقل : يسمعونكم اذا دعوتكم ، لاستحضار الحال الماضية ، وحكايتها ، أى : استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها ، وقبلوا : هل سمعوا أو أسمعوا تط ؟ وهذا أبلغ فى التبكيت (١٤) •

وتقديم السمع على النفع والضر لأن عدمه أدل على العجز منهما كما أن النفع والضر بينيان على السمع ، اذ يكون السمع أولا ثم يقترب عليه الفعل • وتقديم النفع على الضر لأن تحقيق النفع أهم

(١٢) أبو السعود : ٢٤٧/٦ •

(١٣) ينظر مقاييس اللغة : مادة عكف •

(١٤) الكشاف ١١٦/٣ ، وحاشية الشهاب : ١٧/٧ •

بالنسبة لهم ، والنفوس مولعة بما يحقق لها نفعا ، ومن ثم خاطبوا
بالنفع فقيل « ينفعونكم » ولم يخاطبوا بالضر . وفي ترك مفعول
« يضرّون » دلالة على العموم ، فهم لا يضرّونهم ولا يضرّون غيرهم .
بجانب ما في ذلك من مراعاة الفواصل .

وبين « ينفعون » و « يضرّون » طباق يؤيد تمام عجز الأصنام،
وذلك بارتفاع انقيضين عنها ، فهي لا تنفع ولا تضر .

ووجد القوم أن اجابتهم عن سؤال ابراهيم عليه السلام ستلزمهم
الحجة ، فانتقلوا بالكلام الى سبيل آخر « قالوا بل وجدنا آباءنا
كذلك يفعلون » ، فأضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضرر ،
اعترافا بما لا سبيل لهم الى انكاره ، واضطروا الى اظهار أن لاسند
لهم سوى التقليد ، فكأنهم قالوا لا يسمعونا ولا ينفعونا ولا يضرّوننا،
وانما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا
فاقتنينا بهم (١٥) .

ووجدان الشيء يدل على الفائه بعد بحث عنه ، ووجدت الضالة
أى ألفتها بعد بحث عنها (١٦) وفي التعبير بوجدنا اشارة الى انهم
ألفوا ذلك بعد بحث فيما كان عليه آباؤهم ، ومعانيثهم له في سيرتهم ،
ومن ثم فهم متمسكون به . وفي التعبير بالآباء اشعار بأنهم يطيعون
آباءهم وينهجون نهجهم كما هو حق الوالد على الولد ، فلا عتاب
عليهم في ذلك ولا مؤاخدة .

و « كذلك يفعلون » تشبيه لفعل الآباء بفعلهم و « كذلك » صفة
لمصدر محذوف والتقدير : يفعلون كذلك الفعل . وقدم الجار

(١٥) أبو السعود : ٢٤٨/٦ ، والآلوسي ٩٤/١٩/١٠ .

(١٦) ينظر مقاييس اللغة : مادة وجد .

والجور على « يفعلون » للاهتمام بمدلول اسم الإشارة (١٧) • وفي اسم الإشارة إيجاز أغنى عن التطويل ، ونفخيم لما يفعلون وما كان يفعلونه آبائهم •

ويكر ابراهيم على القوم بالانكار عليهم ما يبعدون هم وآباؤهم دون نظر وثأمن في فساد ما هم عليه « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤهم الأقدمون • فانهم عدو لى الا رب العالمين » أى أنظرتهم فأبصرتهم ، أو أتأملنهم فعلمتهم أى شئ استدمتم على عبادته ، فانهم أعداء لى ، لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بالنافع (١٨) •

والاستفهام للانكار التوبيخى ، وهو يتضمن بطلان آلهتهم وبطلان عبادتها وانه ضلال قديم لا فائدة فى قدمه الا ظهور بطلانه (١٩) • وجملة « أفرأيتم ما كنتم تعبدون » مفرعة على جمل كلام القوم المتضمنة عبادتهم الأصنام وانهم مقتدون فى ذلك بآبائهم ، فالفاء فى « أفرأيتم » لاتفرغ ، وتقدم عليها همزة الاستفهام لصدارتها ، وفعل الرؤية قلبى • ومثل هذا التركيب يستعمل فى التنبية على ما يجب أن يعنى على ارادة التعجيب مما يعلم من شأنه ، ولذلك كثر اردافه بكلام يشير الى شئ من عجائب أحوال مفعول الرؤية كقوله تعالى : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلاً وأكدى » (٢٠) ومنه تعقيبها بقوله « فانهم عدو لى » (٢١) •

(١٧) التحرير والتنوير : ٦٤٠/١٩ •

(١٨) أبو السعود : ٢٤٨/٦ ، والألوسى ٩٤/٩/١٠ •

(١٩) حاشية الشهاب : ١٧/٧ •

(٢٠) النجم : ٣٣ ، ٣٤ •

(٢١) التحرير والتنوير : ١٤٦/١٩ •

والتعبير بالرؤية دون العلم ونحوه لما في الرؤية من قوة في اثبات
البحلان لقيامها على المساعدة والتأمل • و « كنتم » تشعر باستدامتهم
على عبادتها ، فعبادهم لباطل قديمة مستديمة • و « أنتم » تؤكد
مخاطبتهم بالفعل وصرفه اليهم على وجه الخصوص • وعطف آبائهم
عليهم لما أنهم تعللوا في عبادتها بتقليد آبائهم، فكان الاهتمام ببيان بطلان
ما عليه آبائهم ، كي لا تبقى لهم شبهة في ذلك ، وفي وصفهم بالآقدمين
إشارة الى أن عبادتها باطلة مهما كانت قديمة متوارثة ، اذ لا عبرة
بالقدم في ذلك • وهذا إيغال في قلة الاكتراث بتقليد آبائهم لأن عرفه
الأنهم أن الآباء كلما تقدم عهدهم كان تقليدهم أكيد (٢٢) •

وبعد أن وجههم الى النظر والتأمل فيما يعبدون منكر عليهم غده
العبادة ، بين لهم حال ما يعبدونه « غانهم عدواى » أى فاعلموا
أنهم أعداء لعابديهم لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل
من جهة عدوه (٢٣) • وإنما قال « عدواى » تصويرا للمسألة في نفسه
على سبيل التعريض ، على معنى أنى فكرت في أمرى فرأيت عبادتى
لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك
أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا
ما نصحننا ابراهيم الا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا الا ما أراد
لروحه ليكون أدعى لهم الى القبول وأبعث على الاستماع منه •
ولو قال : فلننه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، وهذا باب من التعريض ،
وقد يبلغ التعريض للنصوص ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فربما قاده
التأمل الى التقابل (٢٤) • وهذا التعريض يحتمل الكناية والمجاز ، فان نظر الى

(٢٢) السابق •

(٢٣) أم السعود : ٢٤٨/٦ •

(٢٤) الكشف : ١١٦/٣ •

أن الأصنام لا تصلح لعداوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مجازاً ،
والإ فيكون كناية (٢٥) •

ويمكن أن يكون إطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ ،
أي فأنهم كالعدو لى فى أنى أبغضهم وأحاريمهم • وتأكيد الخبر لتحقيق
مضمونه فى مقام الإنكار من المخاطبين ، واستعمال ضمير العقلاء فى
« فأنهم » مع أنها لا تعقل ، جرياً على معاملتهم لها حيث يعتبرونها
من جملة العقلاء • والعدو : فعول بمعنى فاعل يلزم الأفراد والتذكير ،
ويجىء هو والصديق فى معنى الوحدة والجماعة قال الشاعر :

وقوم على ذوى مئـرة أراهم عدوا وكانوا صديقاً

شبهها بالمصادر لنموازنة كالقبول والولوع والحزين والصهيل (٢٦) ،
والتعبير بهذه الصيغة دون أعداء مشعر بوحدتهم تجاه عداوته ، فهم
مجتمعون ومكتظون على عداوته ، وجميعهم على صفة واحدة من
العداوة له •

ولما بين عداوة أصنامهم له ، دلهم على ولاية رب العالمين له ، عن
طريق الاستثناء « الا رب العالمين » والاستثناء منقطع من ضمير
« أنهم » كأنه قال : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو ونبي فى
الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بالإنافع (٢٧) ، والتعبير
بـ « رب العالمين » دون ربى ، لإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين ، فى
مواجهة أريابهم الذين لا حول لهم ولا طول • وفى هذا الإستثناء
تخلص إلى الثناء على الله تعالى بعد ذم آلهم وإبطال عبادتها •

(٢٥) حاشية الشهاب : ١٧/٧ •

(٢٦) الكشف : ١١٦/٣ •

(٢٧) الكشف : ١١٦/٣ وأبو السعود : ٢٤٨/٦ •

ولما أظهر ابراهيم ولاية رب العالمين له أخذ في الثناء على مولاه
ببعض ما أفاض عليه من نعم تستوجب تخصيص العبادة به عز وجل
وتبين لقومه تدره ربه المطلقة على فعل ما يريد ، في مقابل عجزنا
آلهتهم عن فعل شيء من نفع أو ضرر •

فذكر خمس صفات جليلة تتضمن نعماً عظيمة أفاضها الله تعالى

عليه :

الأولى : « الذي خلقني فهو يهدين » غرّب العالمين هو الذي
خلقه وسواه ، وهذه أول النعم وأسما ، وفرع عليها ما يتصل بها
وهي انه يهديه إلى ما يصلحه من أمور المعاش والمعاد ، فالخالق يدبر
أمر مخلوقاته ويرشدهم كما جاء في قوله تعالى : « انذى أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى »

والموصول وصلته صفة لرب العالمين ، وجملة « فهو يهدين »
معطوفة على الصلة ، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ وجملة « فهو
يهدين » خبراً ، وجيء بالفاء لتضمن الخبر معنى الشرط •

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلى في قوله « فهو يهدين »
معيد للقصر ، وهو قصر صفة على موصوف قصرها اضافياً على سبيل
القلب ، أى : هو يهدينى لا غيره • وإلقاء تدل على معاقبة الهداية
للخلق ، فانه تعالى يهدى كل ما خلقه الى أمور معاشه ومعاده •

وجيء في الخلق بلفظ الماضى وفي الهداية بلفظ المضارع لما أن
خلق الذات لا يتجدد في الدنيا ، بل لما وقع بقى الى الأمد المعلوم •
أما الهداية فهي مما يتكرر ويتجدد كل حين وأران ، فبين بذلك انه
سبحانه خلقه في الماضى دفعة واحدة ، وانه يهديه الى مصالح الدين
والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولحظة (٢٨) •

واطلاق الهداية عن التقيد لافادة العموم والشمول لكل ضروب الهدايات ، فانه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له هداية مستمرة متدرجة من مبتدأ ايجاده الى منتهى أجله (٢٩) •

والثانية : « والذي هو يطعمنى ويسقيني » وهى تستعمل على معنيين : الاطعام والسقيا وبهما يبقى الخلق وتدوم الحياة الى الأجل الذى حده الله تعالى • وتكرير الموصول هنا وفى النعم التالية مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة على صلة الموصول الأول للايذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستعمل فى استيجاب الحكم ، تحقيق بأن يجرى عليه تعالى بحياله ولا يجعل من روادف غيره (٣٠) •

وتقديم المسند اليه « هو » على خبره الفعل « يطعمنى ويسقيني » يفيد القصر كما سبق فى النعمة الأولى • أى : هو يطعمنى ويسقيني لا غيره • والتعبير بالفعل المضارع لما أن الطعام والشراب متجددان مستمران • وبين الفعلين مراعاة نظير وتناسب تام • واسناد الطعام والسقيا الى الله تعالى باعتبار الخلق والايجاد والتمكين منهما فهو الرزاق القادر على تمكينه من ذلك • ولم يصرح بذلك ردا على ما يشيع بين الناس من اسنادهما الى غير الله تعالى •

والثالثة : « واذا مرضت فهو يشفين » وعطفت على « يطعمنى ويسقيني » ونظمت معها فى سلك الصلة لموصول واحد ولم تفرد

(٢٩) ينظر الآلوسى : ٩٥/١٩/١٠ •

(٣٠) أبو السعود : ٢٤٩/٦ •

بموصوف على حدة ، لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب
غالباً (٣١) •

كما قبل :

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ولأن الأمور الأربعة مما يخص الأجسام ومطالبها وعوارضها •
وصيغت هذه النعمة على هيئة الشرط والجزاء لأن إبراهيم عليه السلام
لم يكن مريضاً حين قال ذلك ، ولأن المرض ليس مجزوماً بوقوعه ،
فقد يقع وقد لا يقع ، فعندما يقع مستقبلاً يدون الشفاء من الله تعالى •
ومن ثم جيء في الشرط بـ « إذا » التي تخص الفعل الذي بعدها
للمستقبل • وإنما عبر بـ « إذا » المشعرة بوجدان وقوع المرض دون
« ان » لأن الإنسان في حياته معرض لمن المرض عادة ، وإن كان غير
مجزوم بوقوعه •

وأُسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهم
منه عز وجل مراعاة لحسن الأدب بأسناد النعم إلى الله تعالى دون
النقم كما جاء في قوله تعالى حكاية عن الخضر « فأردت أن أعييها »
وقوله « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما » (٣٢) ، ولأن مقصود إبراهيم
عليه السلام تعديد النعم التي أفاض الله تعالى بها عليه ، فأصاب
إليه النعم دون النقم • ولا ينتقض ذلك بأسناد الامانة إليه ، فإن
الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه ، وإنما الضرر في مقدمته
وهي المرض ، ثم أنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحقها
دونها الحياة الدنيوية ، وخلاص من أنواع المحن والبليّة (٣٣) •

(٣١) أبو السعود : ٢٤٩/٦ •

(٣٢) الكهف : ٧٩ ، ٨٢ •

(٣٣) البيضاوي : ٤٩٨ ، وأبو السعود : ٢٤٩/٦ •

وقال الزمخشري : وإنما قال مرضت دون أمرضنى لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك (٣٤) •

وحكى ابن المنير رأى الزمخشري السابق ، ورأى غيره في جعله من باب حسن الأدب ، وتعقب الزمخشري في رأيه فقال : ولعل الزمخشري إنما عدل عن رأى الآخرين ، لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الامانة الى الله تعالى ، وهى أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذى أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت ، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه كذلك الموت الفاشىء عن سبب هذا المرض الذى يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه الى الله تعالى (٣٥) •

ثم بين ابن المنير رأيه فقال : ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض ، فكم معافى منه قد بغته الموت ، فالتأسي بعموم الموت لعلة يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ ، في الأدب نسبته الى الله تعالى ، وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاء محققاً ، فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان الى نفسه باعتبار ذلك السبب الذى لا يخاف منه ، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بقا وجباً لئله أمر لا بد منه ، وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا يتفق أورده مقروناً بشرط، وكان ممكناً

(٣٤) الكشف ١١٧/٣ •

(٣٥) الانصاف • بهامش الكشف ١١٧/٣ •

أن يقول : والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره : فها عدل عن المطابقة والمجانسة الماثورة الا لذلك والله أعلم (٣٦) •

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلي في قوله « فهو يشفين » .
يفيد انقصر على الحد الذي بيناه في النعمة الأولى • أى فهو يشفينى
لا غيره •

والفاء في « فهو » تشعر بمعاقبة الشفاء من الله تعالى للمرض
لأننا به وشفقة عليه • حيث لا يتركه جل شأنه فريسة للمرض •
وبين المرض والشفاء طباق يؤكد المعنى ويبرزه بجانب ما فيه
من تناسب وتناسق بديع •

والرابعة : « والذي يمينتى ثم يمين » • ولما كانت الامانة
من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدءا واعادة ، وقد نيطت أمور
الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمها في سمط واحد (٣٧) • وقد
سبق ايراد ما قيل في وجه اسناد الامانة اليه سبحانه وتعالى • وتقديم
الامانة على الإحياء يدل على أن المقصود بالاحياء هو البعث ، والموت
متقدم عليه وجودا وزمانا ، ومن هنا عطف الاحياء على الامانة
بد « ثم » اشعارا بالتراخي الزمنى بين الموت والبعث • وبين الامانة
والاحياء طباق بديع يظهر المعنى ويقويه ، ويضاءف من حسن الاسلوب
بما فيه من وقع أخذ وتناسب دقيق •

ولم يعبر هنا بالسلوب الحصر كما في النعم السابقة ، لأن قومه
لم يكونوا يزعّمون أن الأصنام تميمت أو تحيي ، بل يزعّمون أنها

(٣٦) السابق •

(٣٧) أبو السعود : ٢٤٩/٦ •

قادرة على الاعانة أو الاعاقة في أعمال الناس في حياتهم (٣٨) • فالمقام لا يقتضى الحصر •

وقد تأمل ابن الزمكاني الآيات الأربعة السابقة من حيث اختلاف التعبير بالفعل الماضى والمضارع ، واختلاف حروف العطف فقال : انظر في قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين » كيف أوقع كل لفظ في محله الذى يجب له ، فأتى بالماضى في « خلق » لأن خلقه مفروق منه وأتت الفاء دون الواو لأنه كالجواب ، اذ هن صور المعنى قادر على أن يصيره ذا معنى ، وهو للحصر ، لأنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم تهديهم • ثم قال : « والذى هو يطعمنى ويسقئ » فأتى بالمضارع لبيان تجدد الاطعام والسقيا ، وجاءت الواو دون الفاء لأنهم كانوا لا يفرقون بين المطعم والساقى ، ويعلمون انهما من مكان احد وان كانوا يزعمون أنه غير الله • وأتى بـ « هو » لدفع ذلك ، ودخات الفاء في « فهو يشفين » لأنه جواب ، ولم يقل « واذا مرضت يشفينى » اذ يفوت ما هو موضوع لافادة التعقيب ، ويذهب الضمير المعطى معنى الحصر ، وكانوا يقولون : المرض منا ومن الزمان ومن الأعذية ، والشفاء من الأطباء ومن الأدوية ، ولم يكونوا ينكرون أن الموت من الله ، وإنما أنكروا البعث ، ودخلت « ثم » لتراخى ما بين الاماتة والأحياء (٤٢) •

وفي تحليلنا للآيات اشارة الى ما ذكره ابن الزمكاني ، ولكننا بسطنا كلامه لتبين وجهة عالم فذا من علماء البيان الذين تأملوا نظم القرآن الكريم •

(٣٨) التحرير والتنوير ١٩/١٤٣ • وينظر درة التنزيل : ٣٣٢ •

(٤٢) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن : ١٤٢ •

والخامسة : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين »
 وذكر عليه السلام ذلك هضما لنفسه ، وتعليلها للأمة أن يجتنبوا
 المعاصي ، ويكفوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم ، وتلافيا
 لما عسى ينذر منه عليه السلام من خلاف الأولى ، وتنبيها لأبيه وقومه
 على أن يتأملوا في أمرهم ، فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة
 لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع ذنوبه في طاعة
 الله وعبادته في الغاية القاصية ، حيث كانت بتلك المثابة ، فما ظنك
 بحالك أولئك الغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا (٣٩) .

وعبر بالطمع في مغفرة الله تعالى دون أن يقول : والذي يغفر
 لي ، فواضعا لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة ،
 وإنما طمع في ذلك لوعده الله تعالى بذلك (٤٠) . ويوم الدين هو يوم
 الجزاء ، وتعليق المغفرة بيوم الدين لأن أثرها يتبين في هذا اليوم ،
 ولأن في ذلك تهويلا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر (٤١)
 وفي الاتيان بالجار والمجرور (لي) وتقديمه على المفعول مع إمكان
 التعبير بدونه اهتمام بايقاع المغفرة عليه ، وعناية بابرار كونها له .

وتقييد المغفرة بالمفعول « خطيئتي » لا يدل على أن له خطيئة
 معينة يطلب مغفرتها ، فقد يكون ذلك على سبيل التواضع وهضم
 النفس ، وإنسان مفتقر إلى مغفرة ربه عز وجل سواء أخطأ أم لم
 يخطئ ، وقد قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : « ليغفر لك الله
 ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٤٣) ، وعلى كل فلفظ الخطيئة مشعر

(٣٩) أبو السعود ٢٤٩/٦ ، والكشاف : ١١٧/٣ .

(٤٠) التحرير والتنوير ١٤٣/١٩ .

(٤١) الكشاف : ١١٧/٣ ، وأبو السعود ٢٥٠/٦ .

(٤٣) الفتح : ٢ .

يكرن الانسان عرضة للوقوع في الخطايا مهما علت رتبته، وذلك محدود في حق الأنبياء بما لا يتنافى مع عصمتهم المقررة شرعا .

وحصل الخطيئة على كلماته الثلاث : « انى سقيم » - « بن فعله كبيرهم » - وقوله لسارة : « هى أختى - مما لا سبيل اليه ، لأنها مع كونها معاريف كلام لا من قبيل الخطايا المغتفرة الى الاستغفار انما صدرت عنه بعد هذه المقابلة التجارية بينه وبين قومه . لان الأولين وقعنا مكتنفتين بكسر الأصنام ، ومن البين أن هذا الحوار كان في مبادئ الأمر قبل أن يفكر في ذلك ، والثالثة - ان صحت - فكانت بعد مهاجرته عليه السلام الى الشام (٤٤) .

ونتأمل النعم التي أثنى بها ابراهيم على ربه عز وجل ونعته بها ، فتراها تعمه في حياته وآخرته ، فقد خلقه الله وسواه ، وأرشده وهداه ، وهياً له عوامل الحياة ، من الطعام والشراب والشفاء مما يعبث به من أسقام ، وفي نهاية حياته يميته ثم بعد ذلك يحييه للبعث والحساب ، وفي الآخرة يغفر له ويشمله برحمته يوم الدين . وهى ذنوب تفرد بها المولى سبحانه وتعالى لا يشاركه في فعلها أحد ، وهذا يستوجب عبادته وحده لا شريك له .

وقد رتبت هذه النعم والنعوت ترتيباً طبعياً يلى اللاحق فيها السابق وجوداً وزماناً ، حيث بدىء بالخلق الذى هو أول وجود الانسان ، ونقب بارشاده وهدايته ، وهذا يعنى تكوين عقله واحساسه ، وهدايته الى المحسات ثم المعنويات هداية متدرجة في أطوار حياته . يلم ذلك اطعامه وسقايته ليستقيم على درب الحياة ومواصلة العيش فيها ، ويتصل به شفاؤه مما قد يعرض له من خلل

(٤٤) أبو السعود : ٢٤٩/٦ ، والألوسى : ٩٧/١٩/١٠ .

ومرض • يأتي بعد ذلك امامته عند انقضاء أجله المحدد ثم احياؤه للبعث والحساب ، ثم المغفرة له وادخاله في رحمة الله تعالى يوم الدين •

وقد وقع الفصل بين هذه الجمل لاتحادها في الخبرية مع تمام التناسب بينها في المعنى والصياغة • وسبكت هذه الجمل على نمط واحد مما جعل لها وقعا أخاذا ونسقا مؤثرا • وجاءت فواصلها منتهية بالنون الساكنة بعد حذف ياءات المتكلم منها تخفيفا وتناسبا للوقوف عليها • وبذلك توافقت فواصلها مع فواصل السورة التي ختمت بالنون غالبا •

الخلاصة :

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه جل شأنه مبينا نعمه عليه من مبدأ خلقه الى المغفرة له يوم الدين ، ختم حوارهم مع قومه بمناجاة لربه بدعاء جليل ، استجلابا للمزيد من نعمه ورحمته •

ومناسبة هذا الدعاء لما قبله ظاهرة ، وذلك أنه ﷺ لما أبلغ قومه دعوة ربه ، وأثنى عليه بنعمه الجليلة ، ناسب ذلك أن يتهلّل لربه بالدعاء فمثل هذا المقام مما يرجى فيه قبول الدعوات ، واجابة التضمرات •

وتتضمن مناجاته ستة أدعية (٤٥) :

الأول : « ربّ هب لي حكما » والحكم : هو الحكمة والنبوة ، وقد كان إبراهيم حين دعا نبيا ، وعلى هذا فالسؤال يعني طلب

(٤٥) يرى بعض المفسرين أن حكاية حوار إبراهيم تنتهي بنهاية هذا

الازدياد من ذلك ، لأن مراتب الكمال لا حد لها ، أو يعنى طلب الدوام على ذلك (٤٦) • وفى بدء الدعاء بالنداء مزيد خراعة وابتتهال لله تعالى ، وحذف حرف النداء مشعر بقرب ابراهيم من ربه عز وجل وفى نداءه باسم الرب اشارة الى انه مستجيب له ، فهو مربيه، وراعيه ومتولى أمره • ولفظ الهبة يشير الى أن استجابة الله تعالى له محض فضل منه عليه ، ومنحة يمنحها اياه وليست بالأمر المستحق • وتقديم الجار والمجرور « لى » على المفعول « حكما » للاهتمام بكون الهبة له ، مع ما فى ذلك من التشويق الى المفعول المؤخر • وتكثير « حكما » للتفخيم والتعظيم ، أى حكما كاملا شاملا •

والثانى : « وألحقنى بالصالحين » وهو طلب كمال القود العملية بأن يكون موفقا لأعمال ترشحه للانتظام فى زمرة الأكاملين الراسخين فى الصلاح (٤٧) • وفيه دلالة على أن صلاح الانسان لا يكون الا بتوفيق من الله تعالى • والوصل بين الجملة وما قبلها للتوسط بين

الدعاء ، حيث يعرض بعد ذلك مشهد من مشاهد يوم القيامة ، اذ ختم ابراهيم دعاءه بالألأ يخزيه الله تعالى فى هذا اليوم • ويرى آخرون أن مشهد يوم القيامة داخل فى حكاية كلام ابراهيم عليه السلام • وقد أثرتا الرأى الاول ، لما أن مشهد القيامة لم يرد محكيا عنه كما فى الآيات السابقة له ، وآياته تنطق بأنه مشهد علم يبين ثواب منتفقين ، وعقاب الكافرين ، وليس محكيا عن قول ابراهيم عليه السلام • وينظر : الألوسى : ١٠/١٩/١٠ ، والتحرير والتنوير : ١٩/١٤٧ وفى ظلال القرآن ٢٦٠٥/٥ •

(٤٦) التحرير والتنوير ١٩/١٤٥ •

(٤٧) الألوسى : ١٠/١٩/٩٨ •

الكمالين حيث اتحدتا في الإنشائية مع التناسب ، وكذلك سر الوصول بين الجمل التالية ، والتعبير بالحقنى دون اجعلنى مقسعر بتواضعه ﷺ حيث يعتبر الصالحين طائفة سبقت الى رضوان الله تعالى ويطلب من ربه عز وجل أن يلحقه بهم •

والثالث : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » أى اجعل لى ذكرا حسنا فى الأمم الآتية يبقى أثره الى يوم الدين • ولقد استجاب الله تعالى له ، فما من أمة من الأمم الا وهم محبوبون له مثنون عليه • فاللسان على هذا مراد به الفكر والثناء ، ففيه مجاز مرسل علاقته الآتية • وقيل المعنى : اجعل لى صادقا من ذريتى يجدد أصل دينى ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم اليه ، وهو محمد ﷺ (٤٨) • وعلى هذا ففى الكلام ايجاز بحذف المضاف أى صاحب لسان صدق ، أو فى اللسان مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء على الكل (٤٩) • وفى الايتان بانجار والمجرور « لى » ولقديمه على المفعول « لسان » اهتمام بتمحيض الدعاء له وعودة أثره اليه ، مع ما فى ذلك من التثويق الى المؤخر •

واضافة « لسان » الى « صدق » من اضافة الموصوف الى الصفة ، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر ، أى لسانا صادقا ، والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه ، لأنه يرغب فى تحقيقه ووقوعه فى نفس الأمر (٥٠) ، وتعريف (الآخرين) للاستغراق •

والرابع : « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » أى اجعلنى من المستحقين لجنة النعيم ، والورثة مستعار لأهل الاستحقاق ، لأن

(٤٨) البضاوى : ٤٩٨ •

(٤٩) حاشية الشهاب : ١٩/٧ •

(٥٠) التحرير والتنوير : ١٩/١٤٦ •

الموارث ينتقل اليه ملك الشيء الموروث بمجرد موت المالك السابق ،
ولما لم يكن الجنة مالكون تعين أن يكون الوارثون المستحقين من وقت
تبرؤ أهل الجنة الجنة (٥١) •

والتعبير بذلك مشعر باستحقاقهم وتملكهم الدائم لها ، اذ الارث
من أقوى أسباب الملك • وهذا لا ينافي تفضل الله تعالى عليهم بها • وفي
قوله « من ورثة » دون « وارثا » هضم لنفسه وتواضع جم ، حيث دعا
أن يكون من هؤلاء الورثة مع ما له من الزلفى عند الله تعالى • وتقييد
الجنة بالنعيم دلالة على أنها جنة خاصة تكثر فيها الفيوضات الإنسية ،
وتعم فيها النعم الربانية ، اذ الجنة درجات ومراتب •

والخامس : « واغفر لأبى انه كان من الضالين » وطلب المغفرة
يجوز أن يكون على حقيقته ، ويكون ذلك قبل أن يتبين له أنه عدو لله
كما في الآية الكريمة « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه الا عن موعدة
بوعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » (٥٢) • ويجوز أن يكون
كتناية عن سبب العفوان ، وهو التوبة والهداية ، أى وثقه للتوبة التى
يئذال بها مغفرتك ، وعال هذا الطلب بكونه من الضالين طريق الحق (٥٣) •
وتأكيد التعليل لتقرية مضمونة ، وربطه بما قبله عن طريق الاستئناف
الليانى المؤكد ، وهذا سر الفصل بينه وبين ما قبله • و « كان » تشعر
بقدمه فى هذا الوصف وثبوته فيه • وفى قوله « من الضالين » دون
أن يقول : ضالا ، دلالة على حسن أدبه مع أبيه رغم ضلاله ، فلم
يصفه بالضلال مباشرة ، ولكن جعله من جماعة ضالين •

والتعبير باسم الفاعل مشير الى ثبوتهم فى هذا الوصف

(٥١) السابق •

(٥٢) أبو السعود : ٢٥٠/٦ •

(٥٣) السابق : ٢٥١/٦ •

واستمرارهم فيه وهو معهم • وترك تقييده بمتعلق بوصفهم بالضلال على الإطلاق ، مع افادة العموم والشمول ، فمهم ضالون عن كل حق وهداية ونفlec .

والسادس : « ولا تخزننى يوم يبعثون » طلب من الله تعالى ألا يعرضه لما يخزيه ويهينه ويكسر خاطره يوم البعث • والتعبير بالخزى مع اطلاقه عن القيد بفيد العموم والشمول لذل ما يسبب له تأثيرا لا يرضاه ، فهو يرجو ربه ألا يعرضه لأى شىء يتسبب عنه مساسا به • والضمير فى « يبعثون » للناس كافة ، والإضمار قبل اذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه (٥٤) •

وتخصيص البعث بالذكر دون سائر ما يقع فى هذا اليوم اثبات للحقيقة التى ينكرها قومه وهى بعثهم بعد موتهم ، ولعل هذا هو السر فى ايقاع البعث على جميع الناس بما فيهم قومه ، دون أن يوقعه على نفسه فيقول : يوم أبعث ، كما أن البعث مقدمة يترتب عليه ما يحدث بعد ذلك من حشر وحساب وثواب وعقاب •

والتعبير بالمضارع لما أن يوم البعث سيقع مستقبلا فى الوقت الذى حدده الله تعالى له ، بجانب ما فى ذلك من محافظة على الفواصل بمجيئها على نمط واحد مختومة بالنون •

وزاد هذا اليوم تهريلا بذكر ما ينفع الناس فيه وما لا ينفعهم « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » • والجملة بدل من « يوم يبعثون » قصد به اظهار أن الالتجاء فى ذاك اليوم الى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس فى الدنيا من أسباب الدفع

عن أنفسهم (٥٥) • وفي ذلك تذكير لقرمه بأن أصنامهم التي يعبدونها من د ن الله تعالى لا تنفعهم ولا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً •

والفصل بين هذه الجملة وما قبلها لكمال الانصال • وإيثار « ينفع » على يغني أو يشفع ونحو ذلك لعموم النفع وتناوله لكل ما يحقق نفعاً بأي وجه من الوجوه ، فنفي النفع يعني نفي كل ذلك • ويتخصيص المال والبنين بالذكر مع عدم نفع أشياء كثيرة غيرهما ، لانهما معتقد الناس في دنياهم ، ومستندهم ومجال فخرهم ، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال جن شأنه « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥٦) • وفيه إشارة الى أن ابراهيم عليه السلام حين حرم من نعمة البنين فإن ذلك لا يضره شيئاً ، ولا ينقص من قدره عند الله تعالى ، فهذا مما لا نفع له ولا اعتداد به في موازين الرحمن جل شأنه • وتذكيرهما التعظيم والتكثير أى لا نفع لهما مهما كانت عظمتها وكثرتما وشأنهما بين الناس •

والاستثناء في قوله تعالى « الا من أتى الله بقلب سليم » فيه كلام كثير للعلماء ، والراجح أنه استثناء من مفعول « ينفع » أى يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر أحداً إلا أحداً أتى الله بقلب سليم (٥٧) •

وسلامة القلب تعنى السلامة المعنوية ، وهى خلوصه من الكفر والنفاق والأمراض القلبية على العموم ولعل هذا هو السر في إطلاق « سليم » عن القيود • وهذه السلامة مجازية في مقابلة المرض

(٥٥) التحرير والتنوير : ١٤٧/١٩ •

(٥٦) الكهف : ٤٦ •

(٥٧) التحرير والتنوير : ١٤٨/١٩ ، وينظر الكشاف ١١٧/٨ ،

وأبو السعود ٢٥١/٦ •

المجازى المذكور في قوله تعالى : « في قلوبهم مرض » (٥٨) • وفي صيغة « فعيل » مبالغة في وصف القلب بالسلامة ، وتمكده من ذلك • وسلامة القلب من العقائد الباطلة تبعث صاحبه على الأعمال الصالحة ، ومن ثم اقتصر في التعبير على سلامة القلب ، لأن سلامته تعنى صلاح صاحبه • وقد قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (٥٩) •

ونتأمل الدعوات السابقة فنراها رتبت ترتيبا دقيقا ، حيث بدئت بما يكون في حياته ، ثم بما يكون بعد مماته ثم بما يكون في الآخرة • فطلب من الله تعالى الحكمة ليتحقق له بذلك الكمال العلمى ، تلا ذلك طلب الصلاح ليتحقق له بذلك الكمال العملى ، ثم سأل بقاء ذكر حسن له بعد موته في الأمم التالية ، ثم دعا الله أن يدخله جنات النعيم في الآخرة • ولما دعا لنفسه تضرع الى الله تعالى أن يغفر لأبيه ، وأن يجنبه كل ما يسبب له خزيا بين الناس يوم القيامة •

وقد جاءت الدعوات موصولة للتوسط بين الكمالين حيث تتحدد جملها في الانشائية مع تمام التناسب • وزاد الوصل حسنا أن بدئت الجمل بأفعال أمر ونهى على سبيل الدعاء ، وتوالت أفعال الأمر ، وجاء النداء الأخير في صورة النهى • وقد أدى هذا الى التناسق التام •

ووقف جاز الله الزمخشري أمام آيات هذه الحلقة مبينا حسن ترتيبها فقال : وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا يستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر

(٥٨) البقرة : ١٠ •

(٥٩) صحيح البخارى : ١٩/١ •

ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون
شبهة فضلا أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى
تخلص منها الى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن
خلقه وانشائه الى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم
أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهاجا
الأوابين (٦٠) •

الحلقة الثالثة

وإن من شيعته لإبراهيم

قال الله تعالى :

« وإن من شيعته لإبراهيم • إذ جاء ربه بقلب سليم • إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون • أفيكأ آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين • فنظر نظرة في المجوم • فقال إني سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون • ما لكم لا تتنطقون • فراغ عليهم ضرباً باليمين • فأقبلوا إليه يرفين • قال أتعبدون ما تتحدثون • والله خالقكم وما تعملون • قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم • فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين • وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين • رب هب لي من الصالحين • فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وتله لجبين • وناديناه أن يا إبراهيم • قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين • إن هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه في الآخرين • سلام على إبراهيم • كذلك نجزي المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين • وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفثه مبين • ﴿ ١ ﴾

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الصافات ، وهي تشتمل على حلفتين من قصة إبراهيم عليه السلام الأولى تحكي دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى

(١) الصافات : ٨٣ - ١١٣ •

(٦ - خصائص النظم)

وتكسيـره لأصنامهم ، والقائه في النار ، والثانية تحكى تبشيره
باسماعيل عليه السلام وحادث الابتلاء المبين والفداء العظيم ، وقد
أدمجت الحاقتان في نسق واحد على نمط فريد •

وتأتى هذه الحلقة ثالثة الحقائق التى تناولت موضوع الدعوة
الى الله وإبطال عبادة الأصنام •

وتبدأ سورة الصافات باقسام من الله تعالى بالملائكة على
وحدانيته سبحانه ، ذاكرة بعض الأدلة على ذلك ، من ربوبيته تعالى
للسموات والأرض وما بينهما ، وترينه السماء الدنيا بالكواكب ،
وجعلها رجوما للشياطين •

وتنتقل الى الحديث عن المشركين وسخريتهم من آيات الله تعالى،
وقولهم انها سحر مبين ، وانكارهم لعقيدة البعث « إذا متنا وكنا
ترابا وعظاما أئنا لمبعثون • أو أبأؤنا الأولين » (٢) • ويوجه
الرسول ﷺ الى الرد عليهم « قل نعم وأنتم دالزون » (٣) •

وتعرض مشهدا لبعث الظالمين وحشرهم وما كانوا يعبدون ،
وحسابهم على ما قدمت أيديهم ، وخذلانهم وعدم قدرتهم على
التناصر ، واتهام بعضهم لبعض بأنهم انسبب في هذا المصير المهين ،
وتجفداهم في ذلك ، وانتهائهم الى العذاب الأليم يذوقونه جزاء
بما كانوا يعملون •

ثم يعرض مشهد لعباد الله المخلصين وما أعد الله لهم من جنات
النعيم فيها من ألوان الرزق العميم وصفوف التنعيم والتكريم ، ومن
ذلك تسليهم بالحديث وتساؤلهم عن قرنائهم الذين ظلوا في كفرهم

(٣) الصافات : ١٨ •

(٢) الصافات : ١٦ - ١٧ •

سادرين ، واطلاعتهم عليهم وهم يعذبون في الجحيم ، واعترافهم لهم
بنعمة الله تعالى عليهم ، وذلك الفوز العظيم •

ويقارن بين نعيم المؤمنين وبين عذاب الكافرين ، حيث طعامهم
الزقوم ، وشربهم الحميم ، ومرجعهم الى الجحيم ، اذ قلدوا آباءهم
في ضلالهم ، وهرعوا على آثارهم •

وتتخلص الآيات بذلك الى ضلال أكثر الأولين ، وارسال الرسل
اليهم منذرين ، وعقاب المكذبين ونجاة المخلصين ، وتبدأ بذكر قصة
نوح عليه السلام مع قومه باعتباره أبا البشرية الثاني بعد آدم عليهما
السلام ، ولكونه أول الرسل أولى العزم ، فتأتى على قصته في ايجاز
بديع ، وكأنما تمهد بذلك لتفصيل قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه ،
فعوى أشد لصوقاً بالعرب ، وأوعظ لهم ، لما بينهم وبين ابراهيم من
صلة الدم والنسب •

البداية :

تبدأ الحاقة بداية موصولة بقصة نوح عليه السلام « وان من
شيعته ابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم » وهذا تخلص بديع الى
قصة ابراهيم عليه السلام • فابراهيم من شيعه نوح على تباعد
الزمان بين الرسولين والرسالتين ، نظرا لما بينهما من صلة العقيدة
والدعوة والطريق ، فالنهج الالهي الواحد الذي يلتقيان عنده
ويرتبطان به ويشتركان فيه (٤) •

وقد أفاد هذا التخلص تأكيد الثناء على نوح وابتداء الثناء على
ابراهيم عليهما السلام ، وتخليد منقبة لنوح أن كان ابراهيم الرسول
العظيم من شيعته وفاديك به (٥) • وتأكيد الخبر بان اللام
لتحقيق دعوته ، وتأكيد مخالفة ملة ابراهيم عليه السلام لما عليه

المشركون الذين يزعمون أنهم على ملته ، وفي « من » اشعار بأن شيعة نوح عليه السلام تشمل كثيرين من الأنبياء والمرسلين والصالحين ، وإبراهيم عليه السلام منهم •

والشيعة : الأعوان والأنصار ، وأصله « شيع » وهو يدل على معاضدة ومساندة ، كما يشعر بتأخر ولحاق ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع (٦) • وعلى هذا فالتعبير بالشيعة دون الأعوان والأنصار يشعر بالاشتراك في الفكر والرأى والاتجاه دون اتحاد المكان والزمان ، بخلاف الأعوان والأنصار حيث يشعران بالمعاضدة المادية واتحاد الزمان والمكان • وفي تقديم المسند « من » شيعته « على المسند اليه » إبراهيم « اهتمام بالمقدم ، وتشويق الى المؤخر ، مع رعاية حق الفواصل من التناسب •

و « إذ » ظرف للماضي ، متعلق بـ « شيعة » لما فيه من معنى المشايعة ، يعنى : وان ممن شايعه على دينه ، وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم ، أو متعلق بمحذوف تقديره اذكر كما هو المعهود في نظائره (٧) • وفي « إذ » معنى التعليل لكونه من شيعته ، فان معنى التعليل غالب في استعمال « إذ » أو « حيث » دون سائر الظروف (٨) • والياء للمصاحبة ، أى جاء معه قلب صفته السلامة ، وهو القلب الخالى من العلك والأمراض ، وإطلاق الوصف « سليم »

(٤) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٢/٥ •

(٥) التحرير والتنوير : ١٣٦/٢٣ •

(٦) ينظر الصحاح ، ومقاييس اللغة مادة : شيع •

(٧) الكشف : ٣٤٤/٣ •

(٨) السابق : ٤٤٩/٣ • وينظر دراسات لاسلوب القرآن الكريم

مدير الى سلامته من جميع الآفات القلبية كالشرك والذفاق والنيات
النسيئة والعجب والغرور والكبر والحقد والحسد وما أشبه ذلك .
وسلامة القلب تعنى سلامة صاحبه ، وإنما اقتصر على ذكر القلب لأنه
أساس هذه السلامة كما جاء في حديث الرسول ﷺ « ألا وإن في
الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله
ألا وهى القلب » (٩) . وتكثير « قلب » للنوعية والتفخيم ، وفي
وصفه بالسلامة تخصيص له وتفخيم لشأنه ، فهو مفخم بالتكثير
ويأتى وصف ، ومجئ الوصف على صيغة « فعيل » فيه مبالغة في بيان
خلوص القلب وسلامته ، والتعبير باسم الرب مضافا الى ضمير
ابراهيم عليه السلام مشعر بعناية المولى به ورعايته له ، مع تشريفه
وتكريمه .

وأصل التعبير : جاء ربه سليم القلب واشار التعبير القرآنى
لما فيه من بيان أنه أخلص لله قلبه ، وعلم سبحانه ذلك الاخلاص منه .
وعلى هذا ففى التعبير القرآنى استعارة تمثيلية ، بأن تشبه الهيئة
المنترعة من اخلاص ابراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه
سبحانه ذلك الاخلاص منه موجودا بالهيئة المنترعة من المجيء بالغائب
بمحضر من الشاهد ومعرفته اياه وعلمه بأحواله (١٠) .

ويمكن أن يكون في « جاء » استعارة تصريحية تبعية مبنية على
تشبيه اخلاصه قلبه لله تعالى بمجيئه اليه بتحفة في أنه فاز بما يستجلب
رضاه (١١) .

وتعليق كونه من شيعه نوح بحين مجيئه بقلب سليم كناية عن

(٩) البخارى : ١٩/١ .

(١٠) الكشف : ٣٤٤/٣ . والالوسى : ١٢/٢٣/١٠٠ .

(١١) حاشية الشهاب ٢٧٥/٧ .

وصف نوح بسلامة القلب أيضا ، فحصل من قوله « وان من شيعته لابراهيم » اثبات مثل صفات نوح لابراهيم ، ومن قوله « اذ جاء ربه بقلب سليم » اثبات صفة مثل صفة ابراهيم انوح على طريق الكناية في الاثباتين (١٢) .

انكاره عبادة الأصنام :

وبعد بيان مجيء ابراهيم ربه بقلب سليم تبين الآيات أثرها من آثار هذه السلامة ، حيث أنكر على أبيه وقومه عبادتهم الأصنام . ودعاهم الى عبادة الله رب العالمين « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » يو « اذ » بدن من « اذ » الأولى ، أو ظرف نجا ، أو لسليم (١٣) ، وتخصيص أبيه بالذكر مع دخوله في القوم اهتمام بذكر قوله لأبيه ، وتقديمه على القوم مشعر بأنه قال له ذلك قبل أن يقوله لقومه ، حيث دعا أباه أولا ثم اتجه بالدعوة الى القوم عامة وفيهم أبوه .

و « ما » استفهامية مبتدأ ، و « ذا » اسم اشارة أو موصول خبره ، والاستفهام للانكار التوبيخي ، أنكر عليهم أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله تعالى ، ومشاهدته لأصنامهم ، اشارة اليها دليل على أن الاستفهام مراد به الانكار عليهم ، والتبكيك والتقريع لهم (١٤) . والتعبير بالمضارع « تعبدون » يصور حالتهم وتلبسهم بعبادة الأصنام واستمرارهم على ذلك .

وأتبع الانكار بانكار آخر دون انتظار لاجابتهم « إفكا آلهة دون الله تريدون » . والهمزة للاستفهام و « إفكا » مفعول له ،

(١٢) التحرير والتنوير : ١٣٨/٢٣ .

(١٣) أبو السعود : ١٩٧/٧ .

(١٤) ينظر : درة التنزيل ٣٣١ . وملاك التأويل ٤٧٦/٢ .

والتقدير : أتريدون آلهة من دون الله إفا . • وتقديم المفعول « آلهة » على الفعل للعناية والاهتمام لأن إنكاره هو المقصود . • وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفاك وباطل في شركهم • ويجوز أن يكون « إفاك » مفعولا به بمعنى أتريدون إفاك ، وتكون « آلهة » بدلا منه بدل كل من كل ، عني أنها عين الإفاك فهي أفك في نفسها • ويجوز أن يكون حالا من ضمير « تريدون » أي أتريدون آلهة من دون الله أفكين ، أو حالا من آلهة أي : آلهة مأفوكة مكذوبة (١٥) • وفي تقديم الحال على صاحبها اهتمام بتعجيل وصفهم بالإفك والضلال •

وأيثار اسم الجلالة « الله » على غيره لما فيه من تفخيم وترهيب وتصريح بالألوهية في مقام يقتضى ذلك ، حيث اتخذوا آلهة مكذوبة على سبيل الأفك والبهتان • وإرادة الشيء : ابتغاؤه والعزم على تحصيله ، والتعبير بالإرادة مشعر برغبتهم في عبادة هذا الأفك من دون الله تعالى ، واختيارهم طريق الضلال •

وفرع على الاستفهام الإنكارى استفهام إنكارى ثالث «فما ظنكم برب العالمين» أي فما ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رب العالمين، حتى تركتم عبادته ، وأشركتم به غيره (١٦) • وما هو تصوركم لله — عز وجل — وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذى تتكبره الذنطرة لأول وهلة (١٧) • وقال الرازى فيه وجهان . أحدهما : أنظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية • وثانيهما : أنظنون برب العالمين أنه من جنس هذه

(١٥) الكشف : ٣/ ٣٤٤ ، والالوسى : ١٢/ ٢٣/ ١٠٠ •

(١٦) البيضاوى ٥٨٧ •

(١٧) فى ظلال القرآن : ٥/ ٢٩٩٢ •

الأجسام حتى جعلتهم مساوية له في العبودية ، فذبهم بذلك على أنه ليس كمثله شيء (١٨) •

والمراد بالظن الاعتقاد الخاطئ الذي هم عليه ، وسعى ظنا لأنه مخالف للحقيقة ، وفي تسميته ظنا مبالغة في الإنكار عليهم ، حيث أنكر ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصد عن عبادته ، أو يجوز الاشتراك به ، أو يقتضى الأمن من عقابه (١٩) •

وفي التعبير برب العالمين تهويل لجريمتهم • وتشنيع لخطأ معتقدتهم ، اذ هو خطأ في حق رب العالمين ، الربنى لهم ، والمهتم بأمرهم • والاضمار في موضع الاضمار لبيان شدة خطئهم ، وعظم ضلالهم •

وهكذا توالت الاستنكارات العنيفة من ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، دون انتظار لردودهم فهو غير طالب لها لأنها معروغة لديه وفي طي ردودهم عليه ايجاز بديع في القصة القرآنية وهو يشير الى كبتهم وعدم قدرتهم على النطق في مواجهة تقاريعه النازلة عليهم نزول الصواعق ، ويشعر بضيق صدره من تماديهم في الكفر والضلال ، ونفاد صبره عن سماع جوابهم ، بجانب ما فيه من اهتمام بذكر مواطن العظة والعبرة في القصة دون سرد دقائقها وتفصيلها •

تدبير وتدبير :

ويمضى اللفظ القرآنى طاويا حوارهم معه الى ذكر تدبير ابراهيم عليه السلام للقضاء على أصنامهم ، ليقيم بذلك الحجة على

(١٨) الرازى ١٤٤/٧ •

(١٩) البيضاوى ٥٨٧ •

ضلالهم ، بعد أن ثبت لديهم عنادهم واصرارهم على الكفر والضلال .
 « فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم » .
 والفاء لعطف مشهد على مشهد سابق نظرا لما فى السياق من ايجاز ،
 وهى نشعر بترتب تفكره فى حيلة للانتقام منهم على استنكاره
 لمعتقداتهم وضيقه بعنادهم ، والتعقيب فيها منظور اليه باعتبار توالى
 الأحداث المذكورة وتتابعها دون نظر انى ما بينها من أحداث مطوية ،
 فهو تعقيب نسبى .

وقوله « فنظر نظرة فى النجوم » أى قلب نظره فى السماء متفكرا
 فى جوابهم ، حيث دعووه للخروج الى عيدهم ، وهديرا أمرا يستطيع
 به الكيد لأصنامهم . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى
 النجوم ، يعنى بذلك : أنه نظر الى السماء متفكرا فيما يلهيهم به (٢٠) .
 ونقل القرطبى عن الخليل والمبرد قولهم : يقال للرجل اذا فكّر فى
 الشئ يدبره نظر فى النجوم (٢١) .

ونظره الى السماء ونجومها جعلهم يصدقون خبره بأنه سقيم ،
 حيث توهموا أن النجوم دلته على ذلك حسب معتقداتهم الباطلة .
 وهذا من معاريف الأفعان وهو نظير ما وقع فى قصة يوسف عليه
 السلام من تفتيش أروية اخوته بنى علاته قبل وعاء شقيقه ، فان
 المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها ، وآخر تفتيش وعاء
 أخيه مع علمه بأنه فيها تعريضا بأنه لا يعرف فى أى وعاء هو ، ونفيا
 للهمة عنه لو بدأ بعاء الأخ (٢٢) .

واسم المرة « نظرة » مشعر بقله مدة نظره ، حيث ألهمه الله

(٢٠) ابن كثير : ١٣/٤ .

(٢١) القرطبى : ٥٥٣٦/٧ .

(٢٢) الألوسى : ١٠١/٢٣/١٢ .

تعالى على الغرر ما يعتذر به لقوم... وما يعينه على تنفيذ ما عزم عليه .

والفاء في قوله « فقال انى سقيم » تدل على ترتب القول على النظر . وعلى حدوده عقيبه ، اذ جاءته لفكرة اثر النظر الى السماء . وتأكيد الخبر لتحقيق مضمونه في مقام يحتاج الى ذلك ، فالمخاطبون مراهضين لدعوته ، ومعرضون عن اخباره وآرائه .

وكان للقوم عيد يخرجون فيه الى الخلوات بعد أن يضعوا الطعام بين يدي آلهتهم لتباركها ، ثم يعودون بعد المرح غياخذون طعامهم المبارك ، وان ابراهيم عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم له وأيقن بانحراف فطرتهم ، اعتزم تكسير أصنامهم ، وانتظر هذا اليوم الذي يعودون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم ، وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه ، فلما دعى الى الخروج معهم قلب نظره في السماء متفكرا وقال انى سقيم ، لا طاقة لى بالخروج معكم (٢٣) . فاعتذر لهم بذلك لئيمه من تنفيذ ما عزم عليه عندما يخلو المكان وينفرد بأصنامهم .

وقوله : « انى سقيم » من المعارض في الكلام المقصد شرعى دينى كما جاء في الحديث « ان في المعارض اندوحة عن الكذب » ويمكن أن يكون المقصد انى سقيم القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى (٢٤) . وعلى هذا يكون الكلام من قبيل التشبيه يجعل سقم القلب مرضا ، أو هو مجاز باستعماله في لازمه وهو الخروج عن حد الاعتدال ، فان الاعتدال الحقيقي غير موجود (٢٥) . والخطب

(٢٣) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٢/٥ .

(٢٤) ابن كثير : ١٣/٤ .

(٢٥) حاشية الشهاب : ٢٧٦/٧ .

في هذا سهل ، وإن كان المفسرون أجهدوا أنفسهم في تخريجه . فيمثل هذا القول شائع على ألسنة الناس . فيقول أحدهم اني متعب ، واني مرهق ونحو ذلك ولا يعد هذا كذبا ولا خروجا عن الحقيقة . وقد قال ابراهيم ذلك معبرا عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه ، ولم يكن هذا كذبا منه ، انما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم ، وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه (٢٦) .

وعلم القوم من خبر ابراهيم عليه السلام أنه لن يستطيع الخروج معهم « فتركوا عنه مدبرين » أي أداروا له ظهورهم وأسرعوا الى عيدهم دون تأمل في كلامه وحالته . فهم مشغولون بفرحتهم وسرورهم . والتولى : الاعراض والمفارقة ، و « مدبرين » حال مؤكدة ، وهو من التوكيد الملازم لفعل التولى غالبا لدفع توهم أنه تولى مخالفة وكراهة دون انتقال (٢٧) . وفي التعبير بالتولى والادبار اشعار بما تنطوى عليه نفوس القوم من عدم مبالاة به واهتمام بأحواله ، وبذهابهم بعيدا عنه الى حيث يستمتعون بعيدهم .

وتأكد ابراهيم عليه السلام من تولى القوم وخلو الجوف له « فراغ الى آلتهم فقد ألا تاكلون » . أي ذهب الى آلتهم في خفية وسرعة ، وأمامها ما تركوه من طعام غقال لهم على سبيل الاستهزاء والتهم « ألا تاكلون » . والفاء تدخل على أن ذهابه اليها عقيب توليهم مدبرين . حيث سنحت له الفرصة للخلو بها . والروغ : أنين على سبيل الاحتياج . ومنه راغ الثعلب يروغ روغانا .. وراغ فلان الى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتياج (٢٨) . فاستعماله

(٢٦) في ظلال القرآن : ٢٩٩٣/٥ .

(٢٧) التحرير والتنوير : ١٤٢/٢٣ .

(٢٨) المفردات : ٢٠٨ .

في الذهاب في خفية وسرعة على سبيل الاستعارة ، لما أن المتخفى يميل إلى جانب عادة ليتم له الاختفاء والتلبيس • وتسمية أصدانهم آلهة فيه مراعاة لمعتقدهم فيها ، وتسميتهم لها ، وهذا منه على سبيل الاستهزاء والتحقير لها ، وفي اضافتها الى ضميرهم الإشارة الى ذلك فهي آلهتهم المزعومة وهم أصحابها ، وليست آلهة لجميع الناس •

والهمزة في « الا تأكلون » للعرض على سبيل الاستهزاء والتهكم ، حيث عرض على آلهتهم الادل مع علمه بانها لا تستطيع ذلك ولا تقدر عليه • ويمكن أن تكون للانكار ، بأن أنكر عليهم عدم الأكل من الطعام النشئ الذي وضعه القوم أمامهم • وفي الانكار توبيخ لهم وتعجيب من شأنهم •

ولم يسمع من الأصنام جوابا كما هو معلوم له ، فاستمر في تهكمه بها واستخفافه بشأنها ، وتعجيبه من عجزها « مالكم لا تنطقون » • وتهكمه المتوالى بالأصنام يشعر بشدة غيظة منها • فهو يشفى غليله بمزيد من الاستخفاف بها قبل أن يقوم بتحطيمها ، بجانب ما في ذلك من شحذ همته وتقوية عزيمته على تنفيذ ما خطط له •

وانتعبير بالنطق دون الجواب لما أن في عدم نطقهم نفى لجوابهم وزيادة • وعدم تقييد الأكل والنطق بالمفعول للقصد الى ذات الفعل ونفيه نفيا عاما ، مبالغة في نفى قدرتها على ذلك • واستعمال ضمير العقلاء في مخاطبة الأصنام مبنى على تسميتها آلهة ومعاملتها معاملة عدتها ، امعاننا في الاستهزاء بها من حيث ان القول مخالف للاعتقاد والحقيقة •

ولم تجب الأصنام إبراهيم عليه السلام ، وآلهة عجزها القام على الانتقام منها بالفعل بعد أن سخر منها بالقول « فراغ عليهم ضربا باليمين » أى مال مستعليا عليهم ضاربا باليمين ، فضربا منصوب

على الحالية من ضمير « فراغ » (٢٩) • والفاء تشير الى حدوث الضرب والتكسير عقب استفهامه التوكمى دون تراخ فى ذلك ، وتقيد انضرب باليمين كناية عن شدته وقوته ، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما عادة ، وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته ، ومن ثم جعلهم جذاذا كما فى سورة الأنبياء ، ويجوز أن تكون اليمين مجازا عن القوة (٣٠) •

وايثار التعبير القرآنى على أن يقال : فضربهم باليمين ، لما فى الربوغان من دلالة على الميل فى جوانب مختلفة ، فيشعر التعبير به بأنه أخذ فى ضربهم على مختلف الجوانب والجهات حتى قضى عليهم • مع ما فى التعبير القرآنى من جزالة وفخامة لا تتأتى فى سواه • ولفظ الاستعلاء « عليهم » مشعر بتمكنه منهم وتفوقه عليهم ، فلم يحركوا تجاهه ساكنا ، ولم يستطيعوا دفع شيء من الضرب الشديد النازل عليهم •

هواجته وانتقام :

حطم ابراهيم عليه السلام الأصنام مبقيا على كبيرها ، وجاء القوم فرأوا ما فعل بأصنامهم ، وتساءلوا عن الفاعل ، ووجهوا أصابع الاتهام الى ابراهيم ، وأمر كبارؤهم باحضاره أمام الناس ليشهدوا ما كان وما يكون • ويطوى السياق كل هذا فى ايجاز بديع ليعرض علينا أسراعهم اليه لاحتضاره « فأقبلوا اليه يزفون » • وفى طى ما سبق إشارة الى تيقنهم من أن الفاعل هو ابراهيم عليه السلام ، ومن ثم أسرعوا اليه على الفور وبمجرد وقفهم على ما جرى

(٢٩) أبو السعود : ١٩٨/٧ •

(٣٠) دكتور • السدانة •

لأصنامهم • قبل أن يحققوا في الحادث • والفناء تشعر بالضرورة وتدلل على التعقيب ، وهو هذا تعقيب نسبي منظور فيه الى تتابع ما ذكر من أحداث • والتعبير بـ « أقبلوا » يشير الى تدافعهم نحوه ، ويتسقى مع ما سبق من ادبارهم عنه في قوله تعالى « فقولوا عنه مدبرين » لقد أدبروا عنه منذ قليل ذاهبين الى لهوهم ، وهاهم يقبلون عنه في غضب وهياج مما فعله بأصنامهم • و « يزفون » حال من فاعل أقبلوا ، أى يسرعون ، وأصل الزفيف في هبوب الرياح ، وسرعة النعام التى تخطط الطيران بالمشى ، وزفzf النعام أسرع (٣١) • ولهذا الفعل دلالة صوتية فالتعبير به يشير الى ما فى اسراعهم من جلبة وضجيج ، وما هم عليه من غضب وهياج •

وأثنا بابراهيم عليه السلام على أعين الناس ، ودار من الحوار بينهم وبينه ما دار ، مما هو مفصل في سورة الأنبياء • ويضمّر هذا في سياق الحلقة ، ويظهر توبيخ ابراهيم لهم وابطاله عبادتهم بالحجة العقلية « قال ، أتعبدون ما تتحتون والله خالقكم وما تعملون » • وفى اضمار ما دار من حوار مسارعة الى بيان قوة ابراهيم عليه السلام وشجاعته في اعلان الحق ، وعدم خوفه منهم حيث قابلهم بالحجة الدامغة على بطلان عبادتهم في أسلوب توبيخى تقريعى •

والفصل بين « قال » وما قبلها للاستئناف البيانى ، لأن اقبال القوم الى ابراهيم بحالة تنذر بحنقهم وارادة البطش به يشير فى نفس السامع تساؤلا عن حال ابراهيم فى تلقيه بأولئك وهو شاق قد للنصير معرض النكال وجاء « قال أتعبدون ما تتحتون » جوابا عن هذا السؤال (٣٢) •

(٣١) المفردات : ٢١٣ •

(٣٢) التحرير والتأويل : ١٠٤ / ٢٣ •

والاستفهام للانكار التوبيخى . بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك منكم ، وفيه حث لهم على الرجوع الى أنفسهم ، والتفكير فيها هم عليه من ضلال ، وعند ذلك يخطئون مما يرتكبون ، ويستحقون مما يفعلون ، ويثوبون الى رشدهم ، والمضارع « تعبدون » يسور حالهم في عبادتهم الباطلة ، واستمرارهم عليها •

والنحت : تسوية الشئ ونجده على شكل مقصود (٣٣) • و « ما » موصولة ، والعائد محذوف أى الذى تحتونه ، والتعبير بـ « ما تحتون » دون أتعبدون الأصنام ، فيه تحقير لشأنها بابهامها وعدم ذكرها باسمها الصريح • وأشعار بعله الانكار والتوبيخ حيث يعبدون ما ينحتونه ويصورونه بأيديهم •

وبجانب ذلك فهو مدار الاستدلال على بطلان عبادتهم ، ووجه الاستدلال أن الخشب والحجر قبل النحت والأصلاح ما كان معبودا للإنسان ألبة ، فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناد أن الشئ الذى ما كان معبودا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودا عند ذلك • وفساد ذلك معلوم ببديهية العقل (٣٤) •

والواو في قوله « والله خافكم وما تعبدون » واو الحال ، والجملة حال من فاعل تعبدون وهى مؤكدة لانكار والتوبيخ ، ومفيدة للتعجيب من أمرهم ، حيث يعبدون ما ينحتون ولا يعبدون الله الذى خلقهم وخلق ما يعملون •

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلى يفيد التخصيص ، فالله خلقهم وما يعملون لا غيره ، والمراد بما يعملون ما ينحتون ، والتعبير

(٣٣) ينظر مقاييس اللغة مادة : نحت .

(٣٤) الرازى ١٤٦/٧ •

بالعمل لافادة العموم والشمول ، غاشه تعالى خلقهم وخلق سائر
أعمالهم ، فيدخل في ذلك نحتهم للأصنام .

والتعرض لخلقهم أولاً مع كَوْن الكلام في عبادتهم ما ينحتون
لاظهار قدرة الله تعالى واثبات عجزهم ، فليس لهم من الأمر شيء اذا
هم وما يعبدون من خلق الله تعالى . ومك له جئ شأنه ، فكيف
يعرضون عن عبادته .

ولما أورد عليهم ابراهيم هذه الحجة القوية التي تبطل عبادتهم
وتلزهم بعبادة الله تعالى خالقهم وخالق أعمالهم ، وبهتوا فلم يقدرُوا
على جوابه بمثل حجته ، عدلوا الى سبيل الايذاء ونهج العدوان
والانتقام « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » .

انه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة سواء ، عندما
تعوزهم الحجة . وينقصهم الدليل ، حينما تخرجهم كذمة الحق
الخالصة ذات السلطان المبين (٣٥) .

والفصل بين « قالوا ... » وما قبلها للاستئناف البياني ،
فهو بمثابة جواب عن سؤال مقدر ، وهذا ما درج عليه القرآن
الكريم في حكاية المحاورات وذلك نهج مسلوک في البيان العربي .

والقائلون كبار القوم كما عليه المفسرون ، والتعبير عنهم
بضمير الجمع وعدم تسميتهم فيه اهمال لشأنهم وتحقير لهم ، كما
أن فيه اشعاراً بكثرتهم واجتماع القوم على ذلك . و « بنيانا »
مفعول « ابنوا » وتقديم الجار والمجرور « له » عليه مشعر
بال تخصيص ، أي ابنوا بنيانا خاصا به ليعذب فيه . وفي الأمر بالبناء

مع تخصيص البنيان به يشير الى شدة كيدهم منه ، واستعدادهم
لفعل كل شاق في سبيل الانتقام منه .

والجحيم : النار الشديدة الانتقاد ، وكل نار عظيمة في مهواة
فهي جحيم (٣٦) . واللام عوض على المضاف اليه ، أو للعهد ،
والمراد جحيم ذلك البنيان التي هي فيه (٣٧) . والثناء مشعرة
بالتعقيب والمسارة بالقائه . و « في » دالة على كون الالتقاء في
داخل الجحيم ومعظمه لا في طرف منه ، وهذا من تشديدهم في
الانتقام منه .

ويطوى السياق مشهد بنائهم للبنيان ، والقائه في الجحيم ،
وما حدث له بعد ، ليبرز كل ذلك ونتيجته في جملتين « فأرادوا به
كيذا فجئناهم الأسفلين وقد تحدثنا عن نظير هذه الآية في حلقة سورة
الأنبياء التالية ، وقد عبر فيها بـ « الأخسرين » وعبر هنا
بـ « الأسفلين » والأسفل هو المغلوب لأن الغالب يتخيل معتليا على
المغلوب ، فهي استعارة لامة الغلوب (٣٨) .

الهجرة والبشرى :

ولما نجى الله ابراهيم عليه السلام من الجحيم الذي ألقوه
فيه ، ورأى أن قومه مصرعون على كفرهم ولن تؤثر فيهم دعوة الى
الله تعالى ، عزم على الخروج من بلده الى حيث يتمكن من عبادة
الله تعالى « وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين » . أى مهاجر الى
حيث أمرنى ربي ، أو الى حيث أتجرد فيه لعبادة ربي بعيدا عن

(٣٦) الصحاح . مادة : جعم .

(٣٧) الألوسی : ٢٦/٢٣/١٢ .

(٣٨) التحرير والتنوير : ١٤٦/٢٣ .

موطن الفتنة (٣٩) • جعل الذهاب الى المكان الذي أمره ربه بالذهاب اليه ذاهبا اليه ، وكذا الذهاب الى مكان يعبد فيه (٤٠) • وهذا مشعر بأن مقصوده بالذهاب ليس هو المكان ، وإنما المقصد الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ومن ثم لم يحدد المكان الذي سيذهب اليه ، لأن الله تعالى موجود في كل مكان ، فحيثما ذهب وتمكن من عبادة ربه فهذا هو المقصد •

وتأكيد الجملة بان لتحقيق مضمونها لدى قومه ، ومهاجرة الانسان عن وطنه من الأمور الصعبة على النفس الغريبة على العادة فتحتاج الى تأكيد • والمراد بالذهاب المهاجرة ، والتعبير باسم الفاعل « ذاهب » مشعر بتصميمه على الذهاب الى ربه وأخذه في ذلك دون تردد أو تراجع •

وفي اسم الرب المضاف الى ضميره إشارة الى أنه لن يكون وحيداً أو غريباً في مهاجرة ، فهو ذاهب الى من ربه ويتولى أمره ، ويعنى بمصالحه •

وقوله « سيهدين » بيان لسبب هجرته الى ربه ، أى سيرشدني الى ما فيه صلاحى في دينى ودنياى (٤١) • والسين لتأكيد الوقوع في المستقبل ، لأنها في مقابلة نفى لن المؤكدة للنفى (٤٢) • وبت القول بذلك لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، أو للبناء على عادته تعالى معه ، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال « عسى ربي أن يهدينى سواء السبيل » (٤٣) ولذلك أتى بصيغة التوقع (٤٤) •

(٣٩) أبو السعود : ١٩٩/٧ • (٤٠) حاشية الشهاب ٢٧٨/٧ •

(٤١) البضاوى : ٥٨٨ • (٤٢) حاشية الشهاب ٢٧٨/٧ •

(٤٣) القصص : ٢٢ • (٤٤) أبو السعود ١٩٩/٧ •

ولما كان إبراهيم عليه السلام في هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أوامر الأهل والقربى والصحة والمعرفة ناسب ذلك أن يتوجه الى ربه الذى أعلن أنه ذاهب اليه يسأله الذرية الصالحة والخلف المؤمن (٤٥) « رب هب لى من الصالحين » • أى رب هب لى ولدا من الصالحين ، وحذف مفعول « هب » لدلالة الهبة عليه ، فأنها فى القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع انعقلاء فى الأولاد (٤٦) • ولدلالة البشرى بالغلām بعد ذلك عليه وفى حذف المفعول اطلاق للهبة المطلوبة دون تحديدها بعدد معين ، فهى من فضل الله تعالى الذى لا يحد ولا يعد •

وفى حذف حرف النداء اشعار بقربه من ربه عز وجل ، واىثار اسم الرب لما فيه من احياء بالتربية والرحمة والعناية ، وهذا ادعى لأن يجيب طلبه والتعبير بالهبة مشير الى أنها نعمة مسداة من الله دون مقابل • ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد لا تكتمل الا اذا كان صالحا ، لأنه عند ذلك يكون بارا بوالديه ، معينا لهما على طاعة الله عز وجل ، قائما بشؤونهما • واىثار « من الصالحين » على صالحا ، لما فى ذلك من تعيين الصلاح المطلوب ، بجعله من جنس الصالحين المعروفين بصلاحهم ، والتميزين به عن سواهم •

وفى هذه الجملة الدعائية ايجاز واختصار وهو مناسب لتلايىاز فى لفظ « رب » واختصار مقدمة الكلام تنبىء عن الايجاز فى كلام قال السكاكى فى قوله تعالى « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيئا » (٤٧) واعلم أن الذى فتق أكمام هذه الجهات عن اراهير

(٤٥) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٤/٥ •

(٤٦) حاشية الشهاب : ٢٧٩/٧ •

(٤٧) مريم : ٤ •

القبول في القلوب ، هو أن مقدمة هاتين الجملتين وهي « رب » اختصرت ذلك الاختصار ، بأن حذفتم كلمة النداء وهي « يا » وحذفت كلمة المضارع وهي « ياء المتكلم » واقتصر من مجموع الكلمات على كلمة واحدة هي المنادي ، والمقدمة للكلام فازنة منزلة الأساس للبناء فكما أن البناء الحاذق لا يرمى الأساس الا بقدر ما يقدر من البناء عليه ، كذلك البليغ يصنع بمبدأ كلامه ، فمتى رأيته اختصر المبدأ فقد آذنتك باختصار ما يورد (٤٨) •

كما أن هذه الجملة الدعائية تخلص بديع الى ذكر قصة اسماعيل عليه السلام بعد ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ، مع قومه ، وقد مهد لهذا التلخيص بقوله « اني ذاهب الى ربي سيهدين » وبذلك ترابط النظم ترابطاً قوياً ، فلا شعور بفجوة في الانتقال ، ولا احساس بمباعد في الأحداث •

واستجاب الله دعاء ابراهيم « فبشرناه بسلام حليم » وان شاء الله للتعقيب ، والبشارة الاخبار بخير وارد عن قرب أو بعد • فان كان الله بشر ابراهيم بأنه يولد له نسل عقب دعائه كما هي الظاهر فالتعقيب على ظاهره ، وان كان الله بشره بسلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر بعد خروجه بمدة طويلة ، فالتعقيب نسبي ، وعلى الاحتمالين فالسلام الذي بشر به هو الولد الأول الذي ولد له ، وهي اسماعيل لامحالة ، وهو غير الغلام الذي بشره به الملائكة الذي هو اسحاق (٤٩) •

وقد ساق ابن كثير أدلة كثيرة على أن هذا السلام هو اسماعيل عليه السلام ، وهو الذي وقعت معه قصة الذبح والافداء ، وروى ذلك

(٤٨) مفتاح العلوم : ٢٨٧ •

(٤٩) التحرير والتنوير : ١٤٨/٢٣ •

عن جمهور من العلماء والمحققين (٥٠) •

وفي التعبير بالبشارة مسارعة الى بيان أن الهبة كانت بشرى
تشرح صدره وتسر خاطره • وقد تضمنت الآية بشارات هي : أن
الولد غلام ذكر • وذلك لأختصاص العلامة بذلك • وأنه يبلغ آوان
الحنطم ، لأن ذلك ملازم لوصفه بالحليم ، إذ الحطم لارم لذلك النسن
بحسب العادة ، إذ قلما يوجد في الصبيان سعة صدر ، ، وحسن صبر ،
واغضاء في كل أمر • وأنه يكون حليما ، وأى حلم أعظم من حلمه
حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : «ستجدني ان شاء الله من
الصابرين» (٥١) •

ابتلاء وفداء :

وقرت عين ابراهيم عليه السلام بولده اسماعيل الذي وهبه الله
له على الكبر ، ونساءت اراد الله تعالى أن يبتلى ابراهيم ويختبره
في ولده الذي سغل جزءا كبيرا من قلبه وتفكيره • « فلما بلغ معه
السعى قال يا بني انى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال
يا أبت انعل ما تؤمر مستجدي ان شاء الله من الصابرين » •

والفاء في قوله « فلما » فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا
على شهادة الحال ، وايدانا بعدم الحاجة الى التصريح به ، لاستحالة
التخاف والتأخر بعد البشارة والتقدير : فوهبنا له ولدا فنشأ ويفع
ويبلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه ، فلما بلغ السعى (٥٢) •
وتقديم الظرف « معه » على المفعول للتخصيص ، وذلك لأن الأب

(٥٠) ينظر ابن كثير : ١٤/٤ ، وقصص الأنبياء له : ١٦٢ •

(٥١) ينظر الكشف : ٣٤٧/٣ ، وحاشية الشهاب ٢٧٩/٧ •

(٥٢) ينظر الكشف ٣٤٧/٣ ، وأبو السعود ١٩٩/٧ ، ٢٠٠ •

أكمل في الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل أوانه • وكان
لإسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة (٥٣) •

وندأؤه بأداه البعيد « يا » مع قربهِ لمزيد تنبيهه واستدعائه
إصغائه • والتعبير بينى دون اسمه الصريح منسجـ برحمته ولطفه به
وخوفه عليه ، ليطمئنه بأن ما يقوله له إنما هو أمر لا دخل له
فيه • وتأكيـد الخبر بأن حاجة المقام الى التأكيد نظراً لغرابة الأمر
وبخروجه عن العادة • وإيثار صيغة المضارع « أرى » لاستحضار
الصورة الماضية التي رآها في منامه ، وكأنه يراها الآن بعينها ، وفيه
اشعار بأنه مستمر في رؤيتها ، وأن الرؤيا متكررة •

وتقيد الرؤية بانجار والمجور « في المنام » يبين أن ما رآه
ليس من عند نفسه ولكنه من الله تعالى فرؤيا الأنبياء حق • ولعل
السـر في كون الأمر به في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهم الى
الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص لله تعالى (٥٤) • وإيثار
« أنى أذبحك » على ذبحك لما فيه من تأكيد محقق لهذا الخبر الغريب
المستبعد فعلاه من أب بوحيدة ، واستحضار للصورة الماضية بالفعل
المضارع ، كأن ذبحه له متمثل أمامه وهو يحكى لأبنه •

وبعد أن حدثه برؤياه العجيبة حثه على أن يتدبر ويقول رأيـه
فيها وموقفه منها « فانظر ماذا ترى » أى : فانظر ما الذى تراه من
الرأى فى ذلك •

وأمره بالنظر أولاً لما أن الأمر هام ، وينبغى أن يتدبره ويقلب
نظره فيه قبل أن يبين موقفه منه • وفى هذا إرشاد الى تدبر الأمور
والتفكر فيها قبل اصدار الأحكام بشأنها •

وإنما شاوره فى ذلك وهو أمر محتوم ، ليعلم موقفه فيما نزل

من بلاء الله تعالى ، فيثبت قدمه ان جزع ، ويأمن عليه ان مسلم ، وليوطن نفسه عليه فيهيون البلاء ، ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد لأمر الله تعالى قبل وقوعه (٥٥) . وفي هذا ارشاد وتعليم للتشاور واستطلاع الرأي في الأهور المهمة ، وامتناع المأمور بما يؤمر به ليفعله طوعية واختياراً .

وأجاب اسماعيل على الفور « قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين » وبدأ جوابه بالنداء بأداة البعيد تعظيماً له وتفضيماً ، ونداءه بوصف الأبوة توقيراً وتعظيماً ، مع ما فيه من اشعار بعدم المخالفة لأن الأبوة تقتضى الطاعة من الابن ، وتحريك سلسلة الرحمة في قلب أبيه بدافع الأبوة ، ومراعاة التقاسب بين نداء الأب له بقوله « يابنى » . وإضافة الأب الى ياء المتكلم المموض عنها التاء مشعر بمزيد من الترقق والتحنن .

والأمر « افعل » يفيد الاذن والسماح والرضى بما سيفعله أبوه . وإيثار « افعل ما تؤمر » على اذ بحنى لأمر : تحاشى نفض الذبح لما فيه من تهيج لشاعر الأب ، واستعماله في مخاطبة الابن لتوضيح الرؤيا والمطلوب فيها حيث لا يتضح الأمر الابنه . والتعميم في السماح بفعل كل ما يؤمر به ذبحاً أو غيره ، عن طريق الموصول المجهول وصيغة المضارع « تؤمر » الدالة على التجدد والاستمرار ، فتشمل ما يؤمر به الآن وما يؤمر به بعد ذلك .

والجمع بين الاذن بالذبح وعلة الرضى بهذا الأمر الغريب . والإشارة الى فقه اسماعيل عليه السلام ، حيث فهم أن هذا أمر من الله تعالى ، لأن رؤيا الأنبياء حق ، ومن ثم عبر عن ذلك بالأمر .

(٥٤) البيضاوى ٥٨٩ : .

(٥٥) البيضاوى ٥٥٨ : وأبو السعود ٢٠٠/٧ .

وهذا من دواعي بناء الفعل للمفعول ، إذ الأمر معلوم وهو الله عز وجل •

وبعد أن أذن له بفعل ما أمر به وعده بالأمثال لما سيفعله به تنفيذاً لأمر الله تعالى « سجدنى ان شاء الله من الصابرين » والسين لتأكيد وجده من الصابرين عند تنفيذ ما أمر به • وعق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتميم ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله (٥٦) •

وأيثار « من الصابرين » على صابرا لما فيه من المبالغة في انصافه بالصبر ، لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين أشتهروا بالصبر وعرفوا به (٥٧) •

وتيقن إبراهيم من استجابة اسماعيل ، وصبره على قضاء الله تعالى ، وحنان موعده بالتنفيذ « فلما أسلما وتلاه للجبين » و « لما » حرف وجود لوجود ، و « أسلما » فعل الشرط ، ومعناه : استسلما وانقادا وخضعا لأمر الله تعالى • وجواب الشرط محذوف وسيأتى الحديث عنه في موضعه •

وأيثار « أسلما » على غيره مما يؤدي معناه ، لما فيه من دلالة على قبول أمر الله تعالى بارتياح وصفاء وإخلاص ، بخلاف الانقياد والخضوع فقد يكون عن قسر والجزاء وبعد إباء وامتناع • ولتناسبه مع ما وصف الله به إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : « ولكن كان حنيفاً مسلماً » (٥٨) وما وصى به إبراهيم بنيه كما في قوله تعالى : « يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٥٩) واستناد الاستسلام لهما معا لأنهما مشتركان فيه ، فإبراهيم خضع

(٥٦) الرازي ٦٥٣/٧ •

(٥٧) التحرير والتنوير ١٥٣/٢٣ •

(٥٨) آل عمران ٦٧ •

لأمر الله تعالى بذبح ولده مع ما في ذلك من المشقة والألم ، واسماعيلين
أطاع والده فيما أمره به الله تعالى وصبر على ذلك •

« ونله للجبين » معطوف على « أسلما » و « نله » أى صرعه ،
وأصله : الرمي على القتل وهو القرباب المجتمع . ثم عمم في كل
صرع (٦٠) • والجبين : أحد شقي الجبهة ، واللام بمعنى على ،
والمعنى : وألقاه على الأرض على جانب بحيث كان جبينه يلامس
الأرض • والتعبير بالثل دون الالتقاء ونحوه ، لأنه مشعر بقوة
الالتقاء ، وهذا يشير إلى الاقدام على تنفيذ أمر الله تعالى دون كسل
أو تردد • والتعبير بالجبين دون الجذب فيه دلالة على سدة الصاقه
بالأرض ، وأنه غفل به ما يفعل بالشاة حيث تلقى على جنبها ، ويأصق
جبينها بالأرض فمتضح صفحة عنقها ، وتظهر أوداجها ، ويتمكن الذابح
من إجراء الذبح في موضعه بيسر •

وبذلك أصبح الغلام معدا لأمرار الشفرة على عنقه ليسيل دمه
الذكي طاعة لأمر الله تعالى ، وعند ذلك صدر النداء الإلهي « وناديناه
أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا » • ومناداة الله إبراهيم بطريق الوحي
بارسائل الملك ، وأسندت المناداة إلى الله تعالى لأنه الأمر بها • وأن
مفسرة ، وتصديق الرؤيا تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل
الذي رآه (٦١) •

وقد أخذ إبراهيم في تحقيق ما رآه حيث أتى بالمقدمات وأقبل
على الذبح وفي اللحظة الحاسمة جاء النداء من الله تعالى مانعا له
من مواصلة الفعل ، فقد صدق الرؤيا ونجح في الابتلاء • وتأكيد
الجملة بقدر لتحقيق مضمونها ، والمقام في حاجة إلى تأكيد لطبيعة

(٥٩) البقرة ١٢٢ •

(٦٠) حاشية السهباء ٢٨٠/٧ •

(٦١) التحرير والتنوير ١٥٣/٢٣ •

الفعل الخارجة عن العادة • وفي الجملة ثناء من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام لقيامه بتنفيذ أمر الله تعالى على الرغم مما فيه من مشقات لا يطيقها الا من عصمه الله •

وجواب « لما » محذوف وموضعه بعد « صدقت الرؤيا » والتقدير : « فَمَا أَسْلَمَا وَتَلَهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيد به الوصف ، من استبشروهما واءتباطهما ، وحمدهما لله تعالى وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والاعواض ، ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب (٦٢) • وفي حذف الجواب اشعار بأنه مما لا يفى به المقال ولا تؤديه العبارة • مع ما فيه من الایجاز •

وبذلك جعل الله لهما من المضيق فرجا ، ومن الشدة مخرجا فقد وفيا بعهدهما مع الله تعالى وكانا من المحسنين كما تبين الآية « انا كذلك نجزي المحسنين » فهذا تعليل لتحويل ما خولهما الله تعالى من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبغية بعد اليأس (٦٣) •

ولما كان الجزاء عظيما لا يقادر قدره شبه بمشار اليه بإشارة البعيد للشعار بعلو قدره وبعد مرتبته في الكمال والفضل • أي مثل ذلك الجزاء الكامل العظيم نجزي الكاملين في الاحسان • وتأكيد الجملة مع جعل المسند اليه نون العظمة فيه مزيد تحقيق لمضمونها وتعظيم له • وجاءت الجملة عامة في الافادة تشمل ابراهيم واسماعيل وكل المحسنين لبيان سنة الله تعالى مع عباده ، في مجازاتهم بالاحسان احسانا كما قال جل شأنه « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (٦٤) •

(٦٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨ •

(٦٣) السابق ٣/ ٣٤٨ •

(٦٤) حمن ٦٠ •

وتبين الآيات صعوبة ما كلف به إبراهيم وابنه عليهما السلام ، وما فيه من مشقة وشدة عنيهما « ان هذا لهو البلاء المبين » • أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم ، أى المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها (٦٥) •

والآية فى غاية التأكيد والقوة بما اشتملت عليه من مؤكدات وإشارة وقصر ، فقد اجتمع فيها ان واللام والضمير ، وتعريف المسند باللام ، ووصفه بالمبين ، والإشارة اليه بما يميزه ويعظمه ، وهى كلها خصائص قوة وتأکید ، وبها صار المعنى : ان هذا البلاء اعظيم المميز هو البلاء المبين لا غيره •

وايثار البلاء على الاختبار ونحوه لما يشعر به من وقوع مصيبة فادحة ، ونزول كرب شديد لا يطاق •

ولما كان البلاء شديدا ونهايته غير محتملة رفعه الله تعالى برحمته قبل وقوع نهايته التى لا تطاق ، وذلك بفداء اسماعيل « وفديناه بذبح عظيم » • والفادى فى الحقيقة هو إبراهيم عليه السلام لأنه المباشر له ، واسناده الى الله تعالى على سبيل المجاز العقلى ، لأنه الأمر به • ويجوز أن يكون المجاز فى فدينا بمعنى أمرنا أو أعطينا ، والعدل عن الحقيقة الى المجاز لما فيه من تعظيم للفداء (٦٦) •

والدبح بكسر الهمزة : المذبح ، ووصفه بعظيم لأن الله غدى به ابن رسول وأبقى به من سيكون رسولا ، فعظمه بعظم أثره (٦٧) • والتعبير بذبح دون ذكر الحيوان نفسه فيه ايجاز حيث دل على الحيوان وما فعل به من الذبح •

(٦٥) الكشف ٣/ ٣٤٩ •

(٦٦) ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٨١ •

(٦٧) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥٦ •

الختاتمة :

وتختتم الحقة ببيان النعم التي توالى على ابراهيم عليه السلام لقاء جهاده في الدعوة ، وهجرته الى ربه ، وصبره على أشد البلاء . وذلك بعد الثناء عليه وبيان تفريج كربته بالفداء العظيم . وقد جاءت النعم على النحو التالي :

١ - المذكر الحسن والثناء الجميل بين الأمم على مر الزمان .
« وتركنا عليه في الآخرين . سلام على ابراهيم » أى وأبقينا له في الناس الآتين على مر العصور دعاءهم له ، وتسايمهم وثناءهم عليه . وفي « تركنا » أشعار بأن هذا السلام من جانب الله تعالى ، وقد تركه في الباقيين ليثبثوا به على ابراهيم عليه السلام .

والضمير في « عليه » لابراهيم عليه السلام بدليل ما بعده . والتعبير بقى دون بين يشعر بأن السلام عليه متدكن في داخلهم ، مستقر فيهم ، غير منفصل عنهم . وفي لفظ « الآخرين » إشارة الى أن الثناء عليه مستمر الى آخر الناس .

و « سلام على ابراهيم » مبتدأ وخبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لما فيها من معنى الدعاء والوصفية . والكلام وارد على الحكاية كقولك : قرأت « سورة أنزلناها وفرضناها » بالرفع على الحكاية ، أى : تركنا عليه في الآخرين هذا الكلام بعينه وهو « سلام على ابراهيم » . وتذكير « سلام » لتعظيمه وتفضيحه .

وقيل في قصة نوح « سلام على نوح في العالمين » ولم يذكر هنا لما أن نوحا عليه السلام بهتابة آدم الثاني للبشر ، فقد تداست البشرية منه وهم نجا معه من الطوفان . من ثم فذكره سائر في العالمين لانتمائهم اليه . واظهار « ابراهيم » في موضع الاضمار لتعظيمه بذكر اسمه ، مع ما في ذلك من بيان التضمير السابق .

٢ - ثناء الله تعالى عليه بالاحسان والايمان • « كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين » • و « ذلك » اشارة الى ابقاء الثناء الجميل عليه فيما بين الأمم ، وهو ما يتضمنه قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم » • أما الآية السابقة « انا كذلك نجزي المحسنين » فالإشارة فيها الى الجزاء الذي يتضمنه جواب « لما » كما مر آنفا ، فلا تكرار ، لأن كلا من الآيتين تشير الى جزاء يختلف عن الآخر • وفي الاشارة الى الجزاء بالتسمية البعيد لتعظيمه وتقديره وبيان علو فضله وبعد مكانته •

ولم تصدر هذه الآية بـ « انا » كما في غيرها من القصص ، وكما في الآية السابقة ، للاكتفاء بالتأكيد في الآية السابقة عن التأكيد هنا ، والمجزي في الآيتين ابراهيم عليه السلام ، وللإشارة الى أن قصة ابراهيم عليه السلام لم تنته بعد ، فقوله تعالى « وبشرناه بإسحاق » الخ من تكملتها (٦٨) • وللمغايرة بين النظم في القصص الواحدة •

والآية تذييل تليق لمجازاة ابراهيم عليه السلام بأبقاء ذكره التمجيد بين الأمم ، فقد جوزى بذلك لأنه من المحسنين ، والله يجزي المحسنين • وفي ذلك ثناء جميل على ابراهيم بأنه من المحسنين •

وعلى جزأه بهذا الجزاء بتعليق آخر « انه من عبادنا المؤمنين » وهو ثناء عظيم على ابراهيم عليه السلام ، وصرح به خلافا لسابقه المفهوم من الكلام لما له من أهمية ، فهو ثناء بالايهان الذي هو أساس العلاقة بين العبد وربيه ، وعليه مدار صحة الأعمال • والتأكيد لتحقيق اتصافه عليه السلام بهذا الوصف العظيم ، وفي الاتيان بـ « عبادنا » دون أن يكون التعبير : انه من المؤمنين ، لما في اغظ

(٦٨) ينظر الكشف ٣/٣٤٣ ، وأبو السعود ٧/٢٠٢ • والأوسى

١٢/٢٣/١٣٢٠ •

العبودية المضاعفة الى ضمير الجلالة من تشریف ابراهيم والتنبيه على
عنو منزلته ، وقربه من الله تعالى •

٣ — البشارة باسحق • «وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين» وهذه
البشارة غير البشارة السابقة بالغلام الحليم ، وهى متأخرة عنها بزمن
طويل ، وعلى هذا يتلون اسحاق المبشر به هنا غير الغلام الحليم ،
الذى جرت معه قصة الذبح والفداء ، وهو اسماعيل عليه السلام (٦٩)
و «نبيا من الصالحين» حالان من «اسحاق» أى : مقصيا
بنبوته ، مقدرا كونه من الصالحين • ولا حاجة الى وجود المبشر به
بوقت البشارة ، فان وجود ذى الحال ليس بشرط ، وانما اشترط مقارنة
تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال ، فلا حاجة الى تقدير مضاف ،
وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء الى أنه الغاية لها ،
لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق «(٧٠)» •

وقد تضمنت هذه البشارة على ايجازها ثلاثة أشياء : ولادة
اسحاق عليه السلام ، واستمرار حياته ليبلغ مبلغ الرجال ، وجعله
نبيا من الصالحين، وهذا وحده غاية البشارات، ونهاية الشرف والفضل •
٤ — اسباغ البركة عليه وعلى اسحاق • «وباركنا عليه وعلى
اسحاق» أى أنصنا عليهما بركات الدين والدنيا • وافراد كل منهما
بالذكر دون أن يقال : «وباركنا عليهما» للتخصيص على أن الله تعالى
بارك على كل واحد منهما على سبيل الاستقلال مما يضاعف من شأن
ما نال كل واحد منهما من البركة •

(٦٩) ساق المفسرون أدلة كثيرة على أن الغلام الحليم هو اسماعيل
عليه السلام ، وهو الذبيح ، وتقدمت الإشارة الى ذلك • وينظر
الالوسى ١٢/٢٣/١٣٣ - ١٣٦ ، والتحرير والتنوير ٢٣/١٥٦ - ١٥٩
وقصص الأنبياء ١٠٢ - ١٠٣ • النجار •

(٧٠) أبو السعود ٧/٢٠٢ •

و « على » للاستعلاء المجازي ، أى تمكن البركة من الاحاطة بهما (٧١) • والتعبير بها مثلهن بنزول البركة عليهما من السماء على بركة علوية غمرتهم وعمتهم •

وبعد تعداد ما أنعم به عليهما عقب الكلام ببيان موقف ذريتهما من الهداية « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » • أى ومن ذريتهما من هو عامل بالعمل الحسن ، فهو من المحسنين المجريين باحسنهم • ومن هو مشرك أو غير مستقيم على طريق الخير فهو من الظالمين المعاقبين بظلمهم •

وفى هذا تنبيهه على أن انذبيث وانطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر ، والفاجر البر ، وعلى أن فساد الأعتاب لا يعد غضاضة على الآباء ، وان مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات • وفى هذا أيضا ابطال لغرور المشركين الذين كانوا يفخرون بأنهم من ذرية ابراهيم ولا يتبعون دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم (٧٢) •

والتعبير باسم الفاعل « محسن وظالم » يفيد الثبوت والاستمرار ، فمنهم الثابت على الاحسان المستمر فيه ، ومنهم الثابت على الظلم المستمر فيه • وتقييد الظالم بالجار والمجرور « لنفسه » لأنه اذا ظلم نفسه كان حريا بظلم غيره من باب أولى ، وبيان أن من ظلم غيره فهو فى الحقيقة ظالم لنفسه حيث أوردنا بذلك مورد التهكة • وترك تقييد « محسن » بذلك لأن الانسان قد يكون محسنا لنفسه غير محسن لغيره • ووصف « ظالم » بـ « مبين » مشير الى ظهور ظلمه ووضوحه •

وبتوضيح أحوال ذريتهما من بعدهما تنتهى هذه الحلقة ، وهذا من حسن الخاتمة ، حيث ختمت الحلقة بختام حياتهما وبيان أحوال خلفهما

(٧١) التحرير والتنوير ١٦٢/٢٣ • (٧٢) التحرير والتنوير ١٦٢/٢٣ •

الحاقة الرابعة

ولقد آتينا إبراهيم رشده

قال الله تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين • إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون • قالوا وجسدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين • قالوا أجبنا بالحق أم أنت من الملاحين • قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين • وثالله لأكيـدن أصناءكم بعد أن تولوا مدبرين • فجعلهم جذاذاً ألا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين • قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم • قالوا فأتوا به على أعين الناس لعنهم يـشهدون • قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم • قال بل فعله كبيرهم هذا فامألوهم ان كانوا ينطقون • فرجوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون • قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم • أف أنتم أنتم ولما تعبدون من دون الله أغلاً تعقلون • قالوا مـرقوه وانصروا آلهتنا ان كنتم فاعلين • قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم • وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين • ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين • ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين • وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين • » (١) •

(١) الأنبياء : ٥١ - ٧٣ •

بين يدي الآيات :

تحكى هذه الآيات مجادلة أبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه في شأن الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى ، وإبطاله لعبادتها بالدليل العقلي ، والفعل العملي المؤيد له ، وما ترتب على ذلك من القائه له في النار ، ونجاته منها بقدره الله تعالى ، وانعام الله عليه بالذرية الصالحة .

وتمثل هذه الآيات الحلقة الرابعة في المحاقات التي تتناول تفصيل هذا الموضوع طبقاً لترتيب نزول السور فيها ، فهي من سورة الأنبياء المسبوقة بهريم والشعراء والصفاء .

وتبدأ هذه السورة بتحذير الناس من التمسك بالضلالات والعصيان ، ببيان اقتراب يوم القيامة والحساب مع غفلتهم عنه « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » (٢) . وتحكى اعتراض المشركين على رسول الله ﷺ بأنه بشر مثلهم ، ووصفهم لما يتلوه من وحي الله تعالى : تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أضغاث أحلام ، وثالثة بالافتراء ورابعة بالشعر . وتوضح رد الله تعالى عليهم بأن كافة المرسلين قبله ما كانوا إلا رجلاً مثله أوحى الله إليهم بآياته ، وصدقهم وعده بنصرهم ، واهلاك المسرفين .

وتذكر هؤلاء المشركين بالأمم السابقة الذين قصمهم الله تعالى بأن عذاب لظالمهم وكفرهم دون أن ينقذهم من عذاب الله شيء ، وتحذرهم من تعرضهم لمثل ذلك .

ثم تعرض لقضية التوحيد عرضاً مفصلاً ، فتثبت وحدانية الله تعالى بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة « لو كان فيهما آهة إلا الله

(٢) الأنبياء : ١ .

(٨ — خصائص النظم)

لنفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٣) • وتطالب
المشركين ببرهان على شركهم ان كان ادبهم برهان « أم اتخذوا من
دونهم آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من عصى وذكر من قبل بل
أكثرهم لا يعلمون الحق فهم دمرضون » (٤) •

وتسوق السورة عددا من الآيات الكونية الدالة على قدرة الله
تعالى ووحدانيته ، تنتقل بعدها الى بيان وقوع الموت على كل نفس ،
ورجوع الناس الى الله تعالى ، حيث لا تستطيع قوة ما منع أحدهم
من ذلك الحصر المحتوم ، في يوم الحساب الذي توضع فيه الموازين ،
ويحكم الله عز وجل بين الناس بالقسط ، وكفى بالله حسيبا •

ثم تعرض السورة قصص بعض الأنبياء تنفية للرسول ﷺ
فيما يناله من قومه ، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة ، وانصبر على كل
عارض دونها (٥) • حتى يأتيه نصر الله تعالى الذي نصر الرسل
السابقين على المستهزئين بهم « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق
بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (٦) • وفي هذا القصص
نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك الا رجالا
نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (٧) • وقوله
تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله
الا أنا فاعبدون » (٨) •

(٣) الأنبياء : ٢٢ •

(٤) الأنبياء : ٢٤ •

(٥) الرازي : ١٠٨/٦ •

(٦) الأنبياء : ٤١ •

(٧) الأنبياء : ٧ •

(٨) الأنبياء : ٢٥ •

وتبدأ القصص بإشارة موجزة الى انزال الفرقان على موسى وهارون عليهما السلام « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين » (٩) ، ولعل البداية بذلك للقرب الزماني بين رسالتي موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، واشترك الرسالتين في القيام على وحى من الله تعالى بذكر عظيم ، ومعرفة كثير من العرب بأخبار موسى عليه السلام من خلال التقائهم باليهود المجاورين لهم ، والآيات السابقة تخاطب الرسول ﷺ وقومه « قل انما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون • ولئن مستهم نفخة من عذاب ربك ليقرلن ياويلنا انا كنا ظالمين » (١٠) •

وأعقبت قصة موسى وهارون بقصة ابراهيم عليه السلام التى يقاوم فيها الشرك ويبين الحجة على بطلانه ، لأن ابراهيم كان هو المثل الأول قبل مجيء الاسلام فى مقاومة الشرك ، اذ قاومه بالحجة ، وبالقوة ، وباعلان التوحيد قولاً وعملاً حين أقام الكعبة بمكة المكرمة • • • فكانت قصته مع قومه شاهداً على بطلان الشرك الذى كان مماثلاً لحال المشركين بمكة ، وقد جاء الرسول محمد ﷺ ليقطع دابرهم • وفى ذكر قصته تعريض للمشركين من أهل مكة وذم لهم ، اذ كانوا على الحالة التى نعاها جدهم ابراهيم عليه السلام ، وكفى بذلك لهم ، وحجة على ابطال معتقداتهم • كما أن شريعة ابراهيم أنسهر شريعة يعرفها العرب بعد شريعة موسى عليهما السلام (١١) •

وقدمت قصة ابراهيم على قصة نوح عليهما السلام لانهما النوثيقة بالعرب ، فهو أبوهم الذى يقدرونه ويفخرون بالانتماء اليه ، وقصته مع قومه شديدة الشبه بقصة الرسول ﷺ ، فقاموا

(٩) الأنبياء : ٤٨ •

(١٠) الأنبياء : ٤٥ ، ٤٦ •

(١١) التحرير والتنوير : ٩٢/١٧ •

يعبدون الأصنام ، والعرب كانوا كذلك ، وقد خاض في سبيل إبليس عبادتها جهادا مريرا ونالا كثيرا من الأذى والضرر ، وتحمل ذلك بصبر جميل ، وحاله في هذا يشبه حال الرسول ﷺ في محاربته عبادة الأصنام ، وتعرضه لصنوف من الأذى ، وصبره الطويل على ذلك ، فنذكر الرسول ﷺ بقصة ابراهيم عليه السلام ، وتسليته بها أدخل وأعظم في هذا الباب ، لما بين حالهما من تشابه كبير ، ولعل هذا من أسرار البسط والتفصيل في قصة ابراهيم عليه السلام ، والايجاز في غيرها من القصص في هذه السورة .

وقد سلك هذا الترتيب في سورة الشعراء ، حيث بدى فيها بقصة موسى ، وتلتها قصة ابراهيم ، وجاءت بعدها قصة نوح عليهم السلام .

البداية :

تبدأ القصة بداية تعلق فيها نبرة التأكيد ، حيث أكدت بلام القسم وقد « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » وذلك لتحقيق مضمونها لدى المخاطبين ، وتقديره في أذهانهم ، لما أنه من الأمور الهامة التي يجب أن يعلموها عن يقين . ولتنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم ابراهيم منزلة المذنب المذنب لكون ابراهيم أوتى رشدا وهديا (١٢) .

وفي التعبير بالآيتاء اشعار بأن الرشده منحة وعطية من الله عز وجل لابراهيم عليه السلام لم ينلها بمحض كسبه . واستناد الايتاء الى نون العظمة فيه تفخيم لشأن الرشده وتعظيم له ، فهو من لدن العليم

الحكيم ولا يقدر عليه غيره . وفي اتحاد هذه البداية مع بداية قصة موسى وهارون مع عطفها عليها تناسب بديع بين المعطوف والمعطوف عليه .
والرشد : الاهتداء بوجوده الصلاح ، قال الله تعالى : «فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم» (١٣) . واضافته اليه من اضافة المصدر إلى مفعوله ، أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة بالوحي ، والاقترار على اصلاح الأمة باستعمال النواميس الالهية (١٤) . وفي اضافة الرشد اليه اشارة الى عظم شأن هذا الرشد وغضاضته ، وتنبيه على اختصاصه وانفراده به ، وفي هذا ايماء الى ما انفرد به ابراهيم عليه السلام من الهداية بين قومه (١٥) .

و « من قبل » أي من قبل أن نؤتي موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا ، وهذا هو الأوفق والمناسب للمقام لفظا ومعنى . وقيل من قبل استنبائه ، أو من قبل بلوغه وهذا مما يأباه المقام (١٦) . ويدل على المعنى الأول ما ورد بعد ذلك في قصة نوح عليه السلام « ونوحا اذا نادى من قبل فاستجبنا له » (١٧) فهذا صريح في القبيضة الزمانية ، ويفسر ما سبق في قصة ابراهيم عليه السلام . وفي تقييد ايتائه الرشد بالقبليّة المذكورة اشارة الى سبق رسالته لرسالة موسى عليه السلام ، فعلا لتوهم سبق موسى الزماني بناء على سبقه في الذكر ، وقد ذكرنا آنفا ما ظهر لنا من سر في تقديم قصة موسى وهارون على قصة ابراهيم عليهم السلام .

(١٣) النساء : ٦ .

(١٤) الكشف : ٥٧٥/٢ ، وفتح البيان : ١٦٣/٦ .

(١٥) ينظر التحرير والتنوير : ٩٣/١٧ .

(١٦) ينظر : الرازي : ١٠٩/٦ ، وأبو السعود : ٧٢/٦ .

(١٧) الأنبياء : ٧٦ .

وذيلت الآية بجملة « وكذا به عالمين » ، والضمير في « به » يعود إلى ابراهيم عليه السلام ، والجملة معترضة ، وفيها زيادة تفخيم وتعظيم لشأن ابراهيم ، أى : آتيناه رشدًا عظيمًا على علم منا بأنه أهل لما آتيناه ، وجدير بما أعطيناه من الرشد والهدى •

وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محصل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم • أى علم من سريره صفات قد رضىها وأحمدتها فاستأهل بها اتخاذه خليلًا (١٨) • والتعبير بـ « كنا » يشعر بسبق العلم به على إيتائه الرشد ، وفي نون العظمة تعظيم لشأن العالم والعلم وتفخيم لحال المعلوم • وتقديم الجار والمجرور « به » على متعلقه للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر • وفي التعبير باسم الفاعل « عالمين » إشارة إلى ثبوت العلم واستمراره • ومن هذا يتجلى فضل الجملة القرآنية على أن يقال : وعلمنا به ، وما أشبه ذلك •

جدال ابراهيم لقومه :

وبعد هذه البداية المؤكدة التي تضمنت الثناء على ابراهيم عليه السلام ، وبينت أهليته للدعوة إلى الله تعالى ، تعرض الآيات ما دار من حوار بين ابراهيم وقومه في شأن عبادتهم الأصنام وإبطالها « إذا قال الأبويه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » • وفي بدء الحوار من جانب ابراهيم اشعار بأقباله على الدعوة إلى الله تعالى ، وحرصه على هداية قومه وإنقاذهم مما هم فيه من ضلال ، وجده في إبطال عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر •

و « اذ » ظرف متعلق بآتيننا على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما يترب عليه من أتعوانه وأفعاله • أو متعلق برشده ، أو بمحذوف ، أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت (١٩) •

واختار ابن عاشور أنه ظرف لآتيننا ، أى كان أيتاؤه الرشيد حين قال لأبيه وقومه « ما هذه التماثيل » الخ • نذاك هو الرشيد الذى أوتيته ، أى حين نزول الوحى اليه بالدعوة الى توحيد الله تعالى ، فذلك أول مبدء به الوحى (٢٠) •

وفى بيانه للمعنى نظر ، لأن أيتاء الرشيد لم يكن حين قال لأبيه وقومه ما قال فقط ، فقد أوتي الرشيد قبل ذلك ، وما قاله لأبيه وقومه مثل للرشيد الذى أوتيته ، وليس هو كل الرشيد • ولم يكن هذا بدء الوحى والدعوة بالنسبة له ، فقد سبق ذلك دعوته لأبيه وحده كما جاء فى سورة مريم ، وليس من الحكمة فى الدعوة أن تبدأ بهذا الجدال القوي الذى انتهى باقائه فى النار •

والظاهر أن هذا الجدال كان مع قومه مجتمعين ، وتخصيص أبيه بالذكر مع اندراجهم فيهم ، وتقديمه عليهم ، للإشارة الى اهتمامه بنصحه وإنقاذه من الضلال ، نظرا لمسئوليته الخاصة عنه لما بينهما من رابطة قوية تستدعى حذبه عليه واهتمامه به قبل غيره •

والاستفهام فى قوله « ما هذه التماثيل » من باب تجاهل العارف أو سوق المعلوم مساق غيره ، حيث سألهم عن أصنامهم بـ « ما » التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم ، كأنه لا يعرف أنها ماذا ، مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا ، والنكته فى

(١٩) ينظر الكشف : ٥٧٥/٢ ، والآلوسى : ٥٨/١٧/٩

(٢٠) التحرير والتنوير : ٩٣/١٧ •

ذلك التمهيد لتخطئتهم بعد أن يجيبوه ببيان حقيقتها (٢١) • بجانب
 ما يحمله من تحقير لشأنها ، وتوبيخ لهم على عبادتها •
 والجملة الاستهامية تحمل ألوانا من انتهوين والتحقير
 لأصنامهم ، والتوبيخ والتفريع لهم من خلال الخصائص التالية :
 — السؤال عن شيء معلوم بالنسبة للسائل ، وفي هذا تصغير
 وتحقير لشأن المسئول عنه ، وتهكم وتوبيخ للمسؤولين •

— التعبير باسم الإشارة « هذه » وفيه تحقير للأصنام بواسطة
 الإشارة القريبة التي تميز حقيقتها المهانة المنحلة عن رتبة الألوهية •
 — ذكر آلهتهم باسم « التماثيل » • جمع مثال ، وهو اسم للشيء
 المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى ، من مثلت الشيء بالشيء
 إذا شبهته به (٢٢) •

وفي هذه التسمية اشعار بعدم استقلالها ، وإثبات لتمام عجزها ،
 إذ هي صور مصنوعة لا حقائق موجودة ، وفي هذا زيادة تحقير لها •
 — وصفها بجملة « التي أنتم لها عاكفون » مما يزيد من توبيخهم
 على فساد تفكيرهم حيث يعكفون على تماثيل لا حقائق •
 — خطابهم بـ « أنتم » وفيه استهانة بهم وتوقيف على سوء
 صنيعهم (٢٣) ، وإشارة إلى عدم مشاركة أحد لهم في هذه الشغلة
 أنشعاء •

— تقديم الجار والمجرور « لها » على متعلقه ، وفي هذا مزيد
 تخصيص لهم بهذا الفعل القبيح مما يضاعف من ذمهم وتوبيخهم •

(٢١) ينظر أبو السعود : ٧٢/٦ ، والتحرير والتنوير : ٩٤/١٧ •

(٢٢) الرازي : ١١٠/٦ •

(٢٣) البحر المحيط : ٣٢٠/٦ •

— التعبير عن عبادتهم لها بمطّبق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء الغرض من الأغراض ، قصدا الى تحقيرها واذلالها ، وتوبيخا لهم على اجلائها (٢٤) •

— الاتيان بالعكوف على صيغة اسم الفاعل للإشارة الى استمرارهم ودوامهم على ذلك ، مما يقتضى مزيد الذم والتوبيخ لهم .
وأجاب القوم على ابراهيم عليه السلام « قائلوا وجدنا آباءنا لها يعابدين » • والفصل بين قائلوا وما قبلها للاستئناف البيانى ، على السبيل المسلوک فى حكاية المحاورات والمجادلات ، وهذا جار فيما يتبع ذلك من بقية الحوار •

وجوابهم ليس جوابا عن سؤال ابراهيم ، وإنما هو جواب عما لزمه من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها (٢٥) • اذ لما سألهم عنها وهى مشاهدة معلومة حملوا كلامه على السؤال عن سبب عبادتها بقرينة توصيفها بالتى أنتم لها عاكفين (٢٦) •

وهذا من الأسلوب الحكيم — وإن كانت لا حكمة فيما يقولون ولا فيما يفعلون — حيث أجابوه عن سبب عبادتها لا عن حقيقتها وماهيته كما هو مقتضى سؤاله • وفى هذا هروب من الوقوع فى طوق الحجة المألزمة ، اذ لو أجابوه ببيان حقيقتها ، ألزمتهم الحجة حيث عبدوا أصناما صنعوها بأيديهم من الحجر أو الشجر ، وبطلان هذا من الوضوح بمكان •

والتعبير بـ « وجدنا » يشعر بتحقيقهم من كون آباؤهم على ذلك وتاددهم منه ، لما أن الواو والجيم والدال أصل يدل على

• (٢٤) أبو السعود : ٧٢/٦ •

• (٢٥) البضاوى : ٢٤٢ •

• (٢٦) حاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

لقيام الشيء، والظفر به، وغالبا ما يكون هذا بعد جهد وبحث، ووجدت
الضانة وجدانا، أى اقيمتها بعد بحث عنها (٢٧) •

وايثار لفظ ابائنا على قومنا وما فى معناه لما يشير اليه من
وجرب طاعتهم والافتداء بهم وعدم مخالفتهم، فالابن مطيع لأبيه،
وناشئ على ما رباه عليه :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وفى هذا تعريض منهم بابراهيم عليه السلام حيث لم يتبع
ما وجد عليه أباه، ولم يطعه فى ذلك •

وتقديم الجار والمجرور « لها » على متعلقة للتخصيص أى
عابدين لها لا لغيرها فقلدناهم فى ذلك • وفى تعبيرهم بالعبادة
لا العكوف كما ورد فى السؤال اشارة الى تخرجهم من وصف آبائهم
بما وصفهم به من العكوف، الذى فيه تحقيق وتوبيخ اهم • وفى
استعمال اسم الافعال « عابدين » دلالة على استمرارهم وثبوتهم على
ذلك، وهم سائرون على طريقتهم •

وبذلك جاءت اجابتهم على السؤال مشتملة على عدد من
الخصائص التى تؤكد اقتناعهم باتباع آبائهم، وتقليدهم فيما
درجوا عليه •

لقد تشبثوا فى جوابهم بعضا التقليد التى يتوكأ عليها كل عاجز،
وما أفتبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان
للقائلين، حين استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل،
وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شئ (٢٨) •

(٢٧) ينظر مقاييس اللغة، والصاح • مادة : وجد

(٢٨) الكشف : ٥٧٥/٢، وفتح البيان : ١٦٤/٦ •

ومن ثم جاء رد ابراهيم عليهم ردا قويا « قال اقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » فوصفهم بالضللال المبين هم وآباؤهم • ولما كان المقام في حاجة الى مضاعفة التأكيد والتقوية بسبب انكارهم لما وصفهم به ، فقد جمع في الرد بين عدد من الخصائص المؤدية لذلك •

حيث جاء مؤكدا بالقسم وقد لاثبات مضمونه بقوة ، وتقريره بوضوح • وعبر بـ « كنتم » للاثعار بقدمهم وعراقتهم في هذا الضلال هم وآباؤهم • وأكدت نسبته اليهم بالضمير « أنتم » وهو من التأكيد الذي لا يصح انكلام مع الاخلال به لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع (٢٩) • وفي التأكيد به امعان في مواجهتهم بهذا الحكم الشديد ، ونعتهم به على سبيل الخصوص •

وعطف آباؤهم عليهم لاشراكهم معهم في الضلال المبين ، فهم سبب وقوع أبنائهم فيه ، فحكم بالضللال على المقلدين والمقلدين (٣٠) • وفي هذا مزيد اثبات لضلالتهم اذ ورثوه كابرا عن كابر • وقدم الأبناء على الآباء خلافا للترتيب الوقوعي ، لأن الأبناء هم المخاطبون والمواجهون بهذا الرد تشديدا في الذكر عليهم ، وجعل الضلال مستندا لهم ، وهم متمكنون فيه عن طريق الظرفية « في ضلال » ، ونكر « ضلال » اشعارا بشيوعه وكبره وعجب أمره • فهو ضلال عجيب كبير ، لا يقادر قدره • ويوصف الضلال بأنه « مبين » لادانة على أنه ظاهر جلى لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك (٣١) •

(٢٩) الكشف : ٥٧٥/٢ •

(٣٠) البحر المحيط : ٣٢٠/٦ •

(٣١) أبو السعود : ٧٢/٦ •

وعبر بمبين وهو بمعنى بين ، وفيه إشارة الى أن ضلالهم كما هو ظاهر في نفسه ، مظهر انفساد عقولهم وتخطيهم في عمية التقليد .
ولاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال ، بقوا متعجبين من تضليله اياهم ، وحسبوا أن ما قاله انما كان على سبيل المزاح والمداعبة لا عن طريق الجد (٣٢) ، ومن ثم سألوهم « قالوا أجدتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » والاستفهام يفيد التعجب من وصفه لهم ولآبائهم بالضلال البين ، واستبعاد أن يكونوا كذلك .

وفي التعبير بالمجىء اشعار بأن ما يدعوههم اليه من عبادة الله تعالى قد جاء به من عند نفسه . والمراد بالحق الجاد الذي هو ضد اللعب ، المعبر عنه في المعادل بـ « أم أنت من اللاعبين » . وعلى هذا فبينهما تضاد في المعنى . والمراد باللعب هنا اللعب بالكلام وهو المزح والهزل . والمعنى : أجدتنا بالجد أم بالهزل واللعب .

وقد اختلف التعبير في الجملة المعادنه عنه في الجملة الاستفهامية ، فجاءت الجملة الاستفهامية فعلية تفيد التجدد والحدوث مما يتسعر بحدوث ما جاء به ان كان حقا ، وجاءت الجملة المعادنه اسمية تفيد الثبوت والاستمرار مما يدل على رجحانها عندهم ، فهم يرجحون أن ما جاء به هزل ولعب ، ومن ثم عبروا عن ذلك بالجملة الاسمية المؤكدة بتذكير الضمير « أنت » . وخاطبوه بالضمير « أنت » على نمط خطابه لهم بالضمير « أنتم » وبذلك واجهوه بالحكم على سبيل الخصوص كما واجههم قبل ذلك . وفي هذا تناسب بديع في الكلام .

وهذا ما أشار اليه السكاكي بقوله : المعنى : أجددت وأحدثت عندنا تعاطى الحق فيما نسمعه منك ؟ أم اللعب أى أحوال الدنيا

يُعد على استمرارها عليك ، استبعادا منهم أن تكون عبادة الأصنام
من الضلال (٣٣) •

والعدول عن وصف لاعب الى جعله من زمرة اللاعبين فيه مبالغة
في توغص كلامه ذلك في باب المزح • بحيث يكون قائمه متمكنا في اللعب
ومعدودا من الفريق الموصوف باللعب (٣٤) • والتعبير مع هذا فيه
تلطف في وصفه باللعب حيث لم ينسبوه اليه صراحة ، لمعرفة
بقوة حجته • ورغبة في استمالة جانيه اليهم ، وعدم اغصابه •

وهذا كلام منصف ، وان أيمأوا فيه الى ثبوت الوجه الثاني (٣٤) •
والمنصف من ألوان الكلام البديع وقد أشار اليه السكاكي في
حديثه من تقييد الفعل بالشرط والجزاء ، وبين أنه يقول على ترك
المواجهة بالفعل وعدم التصريح بنسبته الى المخاطب ، ومنه قوله
تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » (٣٦) •
فحق النسق من حيث الظاهر : قل لا تسألون عما عملنا ولا نسأل
عما تجرمون وكذا ما قبله « وإنا أو أياكم لعلى هدى أو في ضلال
مبين » (٣٧) • وهذا النوع من الكلام يسمى المنصف (٣٨) • وسمى
بذلك لأن كل من سمعه قال للمخاطب قد أنصفك المتكلم به ، أو لأن
المتكلم قد أنصف من نفسه حيث حط مرتبته عن مرتبة المخاطب ، ويسمى
أيضا الاستدراج ، لاستدراجه الخصم الى الأذعان والتسليم ، وهو
من لطائف الأساليب ، يكثر في التزليل والأشعار والمحاورات (٣٩) •

(٣٤) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ • وحاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

(٣٣) مفتاح العلوم : ٢٧٢ •

(٣٥) الألوسى : ٦٠/١٧/٩ •

(٣٦) سبأ : ٢٥ • (٣٧) مباء : ٢٤ •

(٣٨) مفتاح العلوم : ٢٤٥ ، ٢٤ •

(٣٩) المطول : ١٦٤ ، ١٦٥ •

والاستدراج كلما عرفه ابن الأثير هو : التوصل الى حصول العرض من المحاطب . والملاحظة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به (٤٠) .

وذكر الدكتور أحمد مطلوب أن السكاكي ذكر « المنصف » ولم يعرفه (٤١) ، وهذا غير دقيق لظهور المراد بهذا النوع من الكلام في حديث السكاكي الذي سقناه آنفا ، وهو بمثابة تحديده وتعريفه . وفي حديث السكاكي عن البديع جعل قوله تعالى « وأنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » من باب «سوق المعلوم مساق غيره » وهو ما سماه البلاغيون « تجاهل العارف » ولم يرتض السكاكي هذه التسمية (٤٢) وعندى أن استعمال مصطلح « المنصف » في هذه الآية أدق وأوقع وأشبه بمضمونها .

رد ابراهيم عليه السلام :

ولما كشفت عبارة القوم عن توهمهم أن ابراهيم عليه السلام لئما يمازح بما خاطبهم به ، رد عليه السلام عليهم بما يعلمون به أنه مجد في اظهار الحق وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وذلك بالقول والفعل (٤٣) .

فأما الرد بالقول فهو : « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

و « بل ربكم » اضراب لابطال كونه من اللاعبين ، كما جاء في قولهم ، وذلك باقامة البرهان على ما ادعاه ، من كونهم وآبائهم في

(٤٠) الجامع الكبير : ٢٣٥ .

(٤١) معجم المصطلحات البلاغية : ٣/٣١٥ ، ٣١٦ .

(٤٢) ينظر مفتاح العلوم : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، والتلخيص : ٣٨٥ .

(٤٣) الرازى : ١١٠/٦ .

ضلال مبين (٤٤) ، وأنه جاءهم بالحق وهو عبادة الله تعالى خالق السموات والأرض • وقال أبو السعود انه اضرب عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كون تلك التماثيل أربابا لهم ، كانه قيل ليس الامر كذلك بل ربكم رب السموات والأرض (١) • وعلى هذا ففي الذلالم قصر موصوف على صفة طريقه العطف ببل ، والمنفى محذوف مفهوم من الكلام أى ليست التماثيل أربابا لكم بل ربكم رب السموات والأرض • وجعل الطيبي هذا الجواب من قبيله الأسلوب الحكيم ، فقد كان الظاهر أن يجيبهم عليه السلام بقوله : بل أنا من المحقين ولست من الناعبين ، ولكنه جاء بقوله « بل ربكم » الآية ، لينبه على أن ابطاله لما هم ، عاكفون عليه ، وتضليلة اياهم مما لا حاجة فيه الى الدليل لوضوحه ، ولكن عليهم أن ينظروا الى هذه العظيمة وهى تركهم عبادة خالقهم ، ومالك أمرهم ورازقهم ، ومالك العالمين ، والذي فطر ما هم عليه عاكفون ، ويشغلون بعبادتها دونه ، فأى باطل أظهر من ذلك ، وأى ضلال أبين منه (٤٥) •

ورد الشيخ ابن عاشور وجهة نظر الطيبي وقال ان جواب ابراهيم ابطال لقولهم « ام أنت من اللاعبين » مع مستند الابطال باقامة اندليل على أنه جاءهم بالحق ، واثبات أن ربهم هو الرب الذى خلق السموات والأرض ، وليست تلك التماثيل المصنوعة المنحوتة التى لا ينكرون عدم قدرتها على خلق السموات والأرض ، فالجواب على هذا ليس فى طريقة الأسلوب الحكيم كما ظنه الطيبي (٤٦) •

وايثار التعبير القرآنى على أن يقال : ربكم الله الذى خلق

(٤٤) ينظر البيضاوى : ٤٤٣ •

(٤٥) الاوسى : ٦١/١٧/٩ •

(٤٦) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ •

السموات والأرض ، للإشارة باتحاد اللفظين « ربكم » و « رب » الى وحدة الربوبية ، والاتحاد في الربوبية ، فربهم هو رب السموات والأرض وهم وانسموات والأرض مربوبون له • مع ما في لفظ الرب من اشعار بالعناية والرعاية والحفظ للمربوب •

وتخصيص ربوبيته للسموات والأرض بالذكر دون غيرهما من المخلوقات لأنهم لم يثبتوا لأصنامهم ربوبيتها للسموات والأرض ، ولم يذكروا أنها غير خالقة لهما ، فهم في ذلك يشبهون عموم الكافرين « واثن سائقتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٤٧) • وعلى هذا فالأخبار عن ربهم بأنه رب السموات والأرض وخالقهن ، الزام لهم بما يعرفون والجام لهم بما يعلمون • و « فطرهن » أى خلقهن وأنشأهن ، والفطر من معانيه : الشق ، والابتداء والاختراع ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فلقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها (٤٨) • وإيثار « فطرهن » على خلقهن لما فيه من الابتداء والاختراع على غير مثال سابق ، مع القوة في الخلق ، حيث شق بهما ظلمة العدم •

والضمير في « فطرهن » للسموات والأرض ، ووصفه تعالى بإيجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن ، تحقيقا للحق ، وتنبهيا على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية ، وقيل : الضمير للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم ، لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل في كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات (٤٩)

(٤٧) الزخرف : ٩ •

(٤٨) الصالح : مادة : نظر •

(٤٩) انكشاف : ٥٧٦/٢ ، وأبو السعود : ٧٣/٦ •

وقوله « وأنا على ذلكم من الشاهدين » تذييل للجواب به ، هو مقابل لقولهم « أم أنت من اللاعبين » كأنه قال : لست من اللاعبين في الدعاوى بن من العالمين فيها بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعاوى (٥٠) .

وبناء الخبر على الضمير « أنا » فيه اهتمام بابرار شهادته على ذلك وتأكيدا ، واسم الإشارة « ذلكم » راجع الى قوله « ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن » وفي الإشارة اليه باسم الإشارة للبعيد مع قربته تفخيم وتعظيم له ، بجانب ما أسبغته الإشارة على العبارة من اختصار حقق لها الجزالة والفخامة . وفي خطابهم باسم الإشارة عناية بتوجيه الإشارة انيهم مباشرة ليتأملوا المشار اليه وهو واضح أمام أعينهم .

وتقديم الجار والمجرور « على ذلكم » على متعلقه يفيد التخصيص ، أي وأنا على ذلكم من الشاهدين لا على غيره . والشاهد يكون عالما بالشيء على سبيل الحقيقة ومن ثم يدلي بشهادته على ما شهد عليه ، وتكون شهادته حجة وبرهانا عليه ، ولذا أوشر التعبير بالشاهدين على غيره . وجعله من الشاهدين يشير الى وجود كثير من الشاهدين على قضيته في مختلف الأعصار والأمصار ، وهو من جملة هؤلاء الشاهدين .

وقوله تعالى : « وأنا على ذلكم من الشاهدين » اعلام لهم بأنه مرسل من الله تعالى لاقامة دين التوحيد ، لأن رسول كل أمة شهيد عليها (٥١) .

(٥٠) الألوسی : ٦١/١٧/٩ .

(٥١) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ .

وأما الرد بالفعل فهو : « وثالثه لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا لا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون » • وهو يمثل تطوره في الدعوة حسب المقتضيات فقد تدرج إبراهيم من تغيير المنكر بالقول الى تغييره بالفعل ، بعد ما رأى من اصرارهم على الضلال ، ونفورهم عن الحجة الواضحة •

وهو ينطوى على العزم على تحطيم الأصنام ، والقيام بتنفيذ ما عزم عليه ، وجاء الاعلان عن عزمه في غاية القوة حيث أكد بالقسم واللام والنون المشددة ، لاطهار جديته في تنفيذه مع صعوبة ومشقته • والمقام مقام انكار من المخاطبين لزعمهم أنها أرباب لا يلحقها الضرر ولا يصل اليها الأذى •

وجيء بحرف التاء في القسم وهي تنقضي في أمر متعجب منه ، وكأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه ، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ، مع ما فيه من مخاطرة (٥٢) • وعبر عن فكسير الأصنام بالكيد ترشيحا لصعوبته وعدم انجزه الا بالاحتبال نه وعبر عن آلهتهم بالأصنام مع اضافتها اليهم تحقيرا لشأنها وشأنهم فهي أصنامهم التي يملكونها ومع هذا يعبدونها •

والكيد للأصنام يعنى الاجتهاد في كسرها وأصل الكيد الاحتيال في ايجاد ما يضر مع اظهار خلافه ، وهو يستلزم الاجتهاد في ذلك ، فتجوز به عنه على سبيل الاستعارة ، أو استعمال في لازمه على سبيل الكناية (٥٣) •

(٥٢) الكشف : ٥٧٦/٢ •

(٥٣) حاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

وأجاز الشيخ ابن عاشور جعل ذلك من قبيل المسألة التقديرية،
لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها . فلا
يستطيع أن يمسها بسوء الا على سبيل الكيد (٥٤) . وهو وجه بعيد
يحتاج الى تقدير بعد تقدير ، مما يؤدي الى خفاء القرينة وعدم ظهور
التشاكل كما أن اعتقادهم أنها أرباب تدفع عن أنفسها ، يجعلهم
يقننون بعدم وصول الضرر اليها مواجهة أو كيدا ، اد ستدفع كل
ذلك .

وتقييد الكيد بما بعد انصراف المخاطبين اشارة الى أنه سينفذ
عزمه في أول وقت التمكن منه حتى يكون كيده مجديا ، اذ لا يتمكن من
تنفيذه مع حضورهم (٥٥) . وفيه دليل على دوام مباشرتهم لها ،
وجودهم بجانبها ، وحراستهم لها .

وانتعبير بالتولي يشير الى مسارعتهم في الذهاب عنها الى شيء
يتلهفون للقائه ، ويشتاقون اليه ، وهو عيدهم الذي يخرجون اليه ،
وينشغلون فيه باللهو واللعب . و « مدبرين » حال مؤكدة لعاملها ،
وفي الجمع بين التولي والادبار دلالة على بعدهم الشديد عنها ، وأنه
سيختار لتنفيذ كيده وقتا يتخلون فيه عن آلهتهم ، ويديرون لها
ظهورهم مولين الى ما يشغلهم .

وفي الروايات أنه جعلهم يخرجون في يوم عيدهم ودخل على
الأصنام ، فوجدوها سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم من
الباب ، فكسرها بفأس في يده حتى لم يبق الا الكبير فعلق الفأس
في عنقه (٥٦) .

(٥٤) التحرير والتنوير : ٩٧/١٧ .

(٥٥) السابق .

(٥٦) الرازي : ١١١/٦ .

والفاء في قوله « فجعلهم جذاذا » فصيحة . تفصح عن تسليم
مقدر طوى لدلالة الحال عليه ، أى فتولوا الى عيدهم فأتى ابراهيم
الأصنام فجعلهم جذاذا (٥٧) •

والجذ : الكسر والقطع ، وجعلهم جذاذا أى كسرهم قطعا ،
وايثار « جذاذا » على غيرها مما هو بمعناها لما فيها من اشعار
بشدة تكسيرها الى قطع صغيرة ، وعن ثم يقال للحب الذى يجذ
ويجعل سويقا جذيذة (٥٨) •

واجراء ضمير العقلاء على الأصنام فى « جعلهم » وفى « ألا كبيرا
لهم » جري فى التعبير على مزايم القوم فى معاملتها معاملة العقلاء من
تعظيمها والتقرب اليها • وتكثير « كبيرا » يشير الى عدم اختصاصه
بهذه الصفة وحده بل كان فى الأصنام من يشاركه فى الكبر لكن حطم
معها •

حطم ابراهيم الأصنام واستبقى الصنم الكبير « لعلهم اليه
يرجعون » ، وانجمله مستأنفة لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ،
والضمير فى « اليه » عائد على ابراهيم عليه السلام عند الجمهور ،
أى لعلهم يرجعون الى ابراهيم لا الى غيره ، لما سمعوا من انكاره
لدينهم وسبه لألهتهم فيحاجهم ويكنهم ، وتقديم الجار والمجرور
لإفادة الاختصاص ، أى يرجعون اليه لا الى غيره (٥٩) •

وقيل : الضمير راجع الى الكبير الذى استبقاه ، والمعنى : لعلهم
يرجعون الى هذا الكبير كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات ،
فيقولون له ما هؤلاء مكسورة ومالك صحيحا ، وهذا مبنى على علمه

(٥٧) البحر المحيط : ٣٢٢/٦ •

(٥٨) مقاييس اللغة : مادة جذ •

(٥٩) الكشف : ٥٧٦/٢ ، وحاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

أن جهلهم سيؤدى بهم الى استشارته • والفائدة التى ينشدها ابراهيم من ذلك أنهم اذا رجعوا اليه تبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم فى عبادته على ضلال عظيم (٦٠) • ويحتمل أنه عليه السلام يعلم أنهم لا يرجعون اليه لكن ذلك من باب الاستهزاء والاستجھال (٦١) •

وقيل الضمير فى « اليه » راجع الى الله تعالى أى لعلمهم يرجعون الى الله تعالى وتوحيده حين يسألونه عليه السلام فيجيبهم ، ويظهر عجز آلتهم عن دفع ما يصيبها من ضرر ، وعلى الوجهين الآخرين فى مرجع الضمير ، يجوز أن يكون تقديم الجار والمجرور للحصر ويجوز أن يكون للتأيد والتقوية وأداء حق الغاملة (٦٢) •

البحث عن الفاعل :

رجع القوم من عيدهم ، وذهبوا الى بيت أصنامهم ، فرأوا ما حدث لها ، فانه تفهموا على سبيل البحث والانكار عن اندى فعل ذلك « قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين » • وفى السياق ايجاز بطل ما سبقت الإشارة اليه لاتصاله من القرائن (٦٣) ، ولو صرح به لترهل المشهد ، وأفسده التطويل المخل • وفى الحذف مسارة الى ذكر الشئ المهم •

والاستفهام لانكار التوبيخ والتشنيع على من فعل هذا الفعل الشائن ، والتعبير بفعل دون كسر لأغراض الفعل نكيرا للجريمة

(٦٠) الكشف ٥٧٦/٢ ، والبحر المحيط : ٣٢٣/٦ ، والتحرير

والتنوير : ٩٨/١٧ •

(٦١) الألوسى : ٦٢/١٧/٩ •

(٦٢) انساب •

(٦٣) ينظر البحر المحيط : ٣٢٣/٦ •

وتفخيلها ، وليتناول الكسر والاستبقاء وتعليق الفأس • وفي اسم
الإشارة تعظيم الفعل ، وتهويل لشأنه ، فهو فعل يعاين بالإشارة ،
ولا يستطاع وصفه •

وفي التعبير عنها بالآلهة دون الأصنام وما أشبه ذلك لأنه بالغة في
الإنكار والتشنيع على من فعل هذا المنكر بالهتهم (٦٤) •

وقوله تعالى « انه لمن الظالمين » استئناف مقرر لنا قبله من
الإنذار والتوبيخ والتشنيع • وتأكيده بان واللام لتحقيق مصمونه في
مقام التعليل والتقرير لفعل غريب منكر ، وفي اسمية الجملة وجعته من
الظالمين وتعريف الظالمين باللام والاثنيان بها على صيغة اسم الفاعل
مزيد وصف له بالظلم ، وإشارة الى أنه من الثابتين فيه ، المستهزئين
عليه ، المعروفين به • وفي اطلاق الظلم اشعار بعموم ظلمه وتناوله
لكل ألوانه •

ورد على السائلين بعض منهم « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال
له ابراهيم » والذين قالوا ذلك جماعة سمعوا ابراهيم عليه السلام
وهو يتهدد الأصنام ويقسم على الكيد لهما ، وقد ردوا بذلك على
السائلين الذين لم يسمعوا تهديد ابراهيم عليه السلام •

و « فتى » مفعول « سمعنا » • والفتى : واحد الفتيان وهو
الشباب ، وقد يطلق على من استكمل خصال الرجال المحموده شابا أو
رجلا قان طرفه :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنى دعيت فلم أكسل ولم أتبدل
وتتكبره لتصغيره وتهوين شأنه بواسطة التكرير بعد تصغيره
وتهوين شأنه بلفظ فتى نفسه • ولم يعظمود مع شهرته بينهم ليجترى
عليه من يسمع وصفه المذكور •

وجملة « يذكرهم » صفة لفتى ، والمعنى يتحدث عنهم بالذم ويتهددهم وأطلق الذكر لظهور المراد به من القرينة وفي أئصار « يذكرهم » على يعيهم أو يتوعدهم ونحو ذلك مع اطلاقه عن القيود تعظيم منهم لآلئتهم بتنزيها عن الألفاظ الموحية بالذم ، وإشعار بأن مجرد ذكره لآلئتهم وهو غير مؤمن فيه ما فيه من الخطأ في حقها ، وكاف في توجيه الاتهام اليه ومحاسبته .

والتركيب انقراآني « سمعنا فتى يذكرهم » أبلغ من قولنا : سمعنا ذكر فتى ونحوه ، لما أن « سمعنا » لنا تعلق بفتى أفاد أجمالا أن المسموع نحو ذكره ، إذ لا معنى لأن يكون نفس الذات مسموعا ، ثم اذا ذكر « يذكرهم » علم ذلك مرة أخرى ولما فيه من تقوى الحكم بتكرار الاسناد ، حيث أسند « يذكرهم » الى « فتى » ثم الى ضميره الذى يقع فاعلا (٦٤) .

ووصف « فتى » بجملة أخرى هي « يقال له ابراهيم » وفيها تصغير لشأنه وتحقير له زيادة على ما سبق ، فهم لا يعرفون عنه سوى أنه فتى مجهول مذكر يدعى أو يسمى ابراهيم . وفي بناء الفعل للمجهول مزيد تنكر له ، وتهوين لشأنه ، فهم لا يقولون له ولا تدعوه ألسنتهم ولا يخطر على بالهم ، وإنما يناديه مجهولون .

ولما سمع السائلون هذا الاتهام الموجه الى ابراهيم « قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » . أى أحضروه مشاهدا معينا للناس حيث ينظرون اليه نظرا لاختفاء معه (٦٦) . وفى الأمر بالاتيان به دلالة على أن القائلين من تكبراء القوم ووجهائهم ، وإشارة الى وجوب احضاره مقادا ، كما يؤتى بالمتهم الى المحكمة مما يشعر بقوتهم وجبروتهم .

(٦٥) ينظر الأوسى : ٦٣/١٧/٩

(٦٦) ينظر نظم الدرر : ٤٣٩/١٢

و « على أعين الناس » في محل الحال بمعنى معينا مشاهدا أي
بمراى منهم ومنظر ، و « على » للاستعلاء المجازي ، كأنه لتحديقهم
اليه وارتفاع أبصارهم لرؤيته مستعل على أبصارهم ، والمراد أن يثبت
اقيانه في الأعين ، ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه ،
فعلى مستعارة لتمكن الرؤية وانكشافها (٦٧) •

والمراد بالناس قوم ابراهيم عليه السلام ، والتعبير بالناس يفيد
تشهير المعانين له ، والتوسيع في حشد المشاهدين له ، مبالغة في التشهير
به وإشاعة فعلته النكراء لاستجلاب سخط الجميع عليه حتى لا يتعاطف
معه أحد •

وعاوا أمرهم باحضاره أمام الناس بـ « لعنهم يشهدون » أي
يلعنون عليه بما سمع منه وبما فعله ، أو يحضرون عقوبتهم له (٦٨) •
وفي التعبير بيشهدون دون يحضرون اشعار بأنهم شهود على ما فعله
يجنب حضورهم عقابه • وفي حذف مفعول « يشهدون » ايدان
بالعموم في الفعل مما يجعله شاملا لجميع التفسيرات • وفي المجيء
لمعل المفيدة للرجاء اشارة الى وجود بعض غير منساقين في التيار
المعادي لابراهيم عليه السلام وان لم يؤمنوا بما يدعو اليه ، وهؤلاء
يكون شهودهم لتأليبهم عليه ، فالأصل في الرجاء طلب أمر غير حاصل
يتوقع حصوله ، وهذا يجعله موحيا بما ذكرناه •

وحشد الناس للمعينة والمجاهدة كان مطلب كبار القوم كما بينا،
عنى أنه في ذات الوقت مراد ابراهيم عليه السلام ومراه ، حيث كان

(٦٧) ينظر الكشف : ٥٧٧/٢ ، والبحر المحيط : ٣٢٠/٦ ،

وحاشية الشهاب : ٢٦١/٦ •

(٦٨) الكشف : ٥٧٧/٢ •

يود اجتماعهم في محفل حاشد لا يوجد مثله ، ليبين لهم على رموس
الأنهاد ما هم عليه من واضح الجهل المتضمن قلة العقل (٦٩) •

محاكمة ابراهيم وظهور حجته :

وأتى القوم بابراهيم عليه السلام الى ساحة التحقيق ، حيث
احتشد الناس لشهود ما يجرى ، وبدأوا تحقيقهم معه بحمته على
الاعتراف بأنه الذى كسر أصنامهم « قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا
يا ابراهيم » • وفى السياق ايجاز بطل مشهد الاتيان به والاقتصار على
ذكر سؤالهم له ، وذلك للتنبية الى أن اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك
أمر محقق غنى عن البيان (٧٠) • وللتعجيل بحكاية ما عليه مدار القصة •
والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف البياني المبني على
سؤال مقدر ناشئ من حكاية أمرهم باحضاره أمام الناس ، كاه قيل :
فماذا فعلوا به بعد ذلك ؟ • وهذه طريقة متبعة فى حكاية المحاورات
فى القرآن الكريم (٧١) • وقد أشرنا اليها فى مناسبات عدة •

والاستفهام للتقرير بالفاعل ، كما هو مقتضى تقديمه وليس
للتقرير بالفعل ، فهم يريدون حمله على الاقرار بأنه هو الذى كسر
أصنامهم وجعلها جذاذا ، قال الشيخ عبد القاهر : لا شبهة فى أنهم
لم يقولوا ذلك نه عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر
الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف — يريدون
الأول — وقد أشاروا له الى الفعل فى قولهم « أنت فعلت هذا » وقال
هو عليه السلام فى الجواب « بل فعله كبيرهم هذا » • ولو كان التقرير
بالفعل لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل (٧٢) •

(٦٩) ينظر نظم الدرر : ٤٤٠/١٢ •

(٧٠) أبو السعود ٧٤/٦ •

(٧١) نظر دلائل الإعجاز : ٢٤٠ ، ومفتاح العلوم : ٢٦٥ . ٢٦٦ •

(٧٢) دلائل الإعجاز : ١١٣ •

وللخطيب نظر في كون الاستفهام للتقرير ، فيرى أن الاستفهام يجوز أن يكون على أصله من قصد السؤال لا التقرير ، اذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام (٧٣) • حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام •

وأجيب عن هذا بأن في السياق ما يدل على علمهم بذلك وهو أنه عليه الصلاة والسلام قد حلف بقوله « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ثم لما رأوا كسر الأصنام « قالوا من فعل هذا بالهتتا أنه لن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه للأصنام (٧٤) ، فلا يصح حمل استفهامهم على حقيقته (٧٥) •

والتعبير باسم الإشارة « هذا » لتحويل الفعل وتعظيم أمره ، فهو من شدته وفظاعته يشار إليه ولا يعبر عنه ، بجانب ما فيه من تمييز للفعل بالإشارة المحسوسة مع الإيجاز • وفي التعبير « بالهتتا » زيادة تكبير للفعل ، وتعظيم للجريمة ، ونداءه بأداة البعيد « يا » مع قربها للدلالة على أنه بعيد عن قلوبهم ، غير عالق بأذهانهم ، لا تربطهم به صلة تستوجب قربها •

وجاء سؤال القوم لإبراهيم عليه السلام على ما يريد ويتوقع ، ومن ثم كان قد أعد جوابه سائفا بالفعل حين علق الفأس في عنق الصنم الكبير ، ولما جرى به في مجمع الناس أجابهم عنه بالقول المحم المؤسس على فعله السابق « قال بل فعنه كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » •

(٧٣) بغية الايضاح : ٤٥/٢ ، ٤٦ •

(٧٤) المطول : ٢٣٦ •

(٧٥) بغية الايضاح : ٤٦/٢ •

وقد اهتم الزمخشري بتخريج جواب ابراهيم عليه السلام بكلام لا يد من ذكره فقال : هذا من معارض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا اذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه ان قصد ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الضم ، وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما او قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمة لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة ماسدة ، فقلت له : بل كتبتك أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك واثباته للامى أو المخرمش ، لأن اثباته والأمر دار بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل اليه ، لأنه هو الذى تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند الى مباشرة يسند الى الحامل عليه . ويجوز أن يكون حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم ، فكأنه قال لهم : ما تذكرون أن يفعل كبيرهم ، فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على هذا وأشد منه (٧٦) .

والزمخشري يخرج جواب ابراهيم عليه السلام على ثلاثة أوجه :

الأول : انه وارد على سبيل التعريض ، فقد قصد اثبات الفعل

بنفسه من حيث أثبتته للصنم الكبير وهو عاجز عنه تهكما واستوز ، به
وبعباديه ، والزاما لهم بالحجة عندما يتيقنون بعجزه عن ذلك •

والثاني : أنه من الاسناد المجازي ، حيث أسند الفعل الى سببه ،
فقد غاظله الأصنام وبخاصة كبيرها ، وكان هذا سببا في تكسيره لها •

والثالث : أنه من قبيل الزام الخصم بمقتضى مذهبه ، تخصيصا
عليه ، لينبين ما فيه من باطل ، وما يجرد عليه من حرج غير جمع عنه (٧٧) •

وقال أبو السعود في تخريج هذا الجواب : سلك عليه السلام
مسلكا تعريضا يؤديه الى مقصده الذي هو الزامهم الحجة على اللطف
وجه وأحسنه ، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من انتقوى
من الكذب ، حيث أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بأسناده
اليه ، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس في عنقه ، وقد قصد
اسناده اليه بطريق التسبيب (٧٨) •••

والفرق بين الزمخشري وبين أبي السعود أن الزمخشري يفصل
فكرة التعريض عن فكرة المجاز العقلي ، ويجعل كلا منهما أساسا
لتخريج مستقل ، أما أبو السعود فلا يفصل بينهما ، وإنما يوظفهما معا
في اتجاه نحو غاية واحدة هي الزام الحجة على اللطف وجه وأحسنه (٧٩)
ولأبي السعود وجهة نظر في كلام الزمخشري فصلها بقوله :
وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه
الى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وأثبتته لها على أسلوب تعريض
يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيته ومثل ذلك : بصاحبه

(٧٧) التعريض في القرآن الكريم : ٢٤ •

(٧٨) أبو السعود ٧٤/٦ •

(٧٩) التعريض في القرآن الكريم : ٢٥ •

الخط الحسن والأمرى ... فمبغزل عن التحقيق ، لأن خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله في السؤال لابتدائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالة عندك ، ولا ريب في أن مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم في سؤالهم لابتدائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبيه عنه قوله « فاسألوهم ان كانوا يدطقون » (٨٠) .

ورد الدكتور الخولى على أبى السعود فقال : انه التمس عليه بيان الغرض ببيان وجه الدلالة في حديث الزمخشري ، وكان المنل الذى ضربه جار الله انما هو لبيان الغرض وليس كذلك ، وانما ساقه لبيان وجه الدلالة التعريضية ، وهذا بين من قوله : « لأن اثباته — الفعل — والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر ، أما الغرض من الآية فقد صرح به الزمخشري في قوله : وانما قصده تقريره الفعل لنفسه وإثباته لها على وجه تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهو نفس ما قاله أبو السعود : سلك بهم مسلكا تعريضيا يؤديه الى غرضه ، وهو الزامهم الحجة على اللفظ وجه وأحسنه (٨١) .

ونعود الآن في جواب ابراهيم عليه السلام لنتبين ما فيه من خصائص : ففي التعبير بـ « كبيرهم » مزيد تهكم بالأصنام وبعابديهم ، لأن الكبير — وهو الذى له عندهم من المكانة ماله — اذا كان عاجزا فالصغار منه أعجز .

(٨٠) أبو السعود : ٧٥/٦ .

(٨١) التعريض فى القرآن الكريم : ٧٩ .

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزمهم هذا ، وردهم الى شيء من التدبر والتفكير (٨٤) ، « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » • أى فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، ولا على الاضرار بمن كسره بوجهه من الوجوه ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أو جلب منفعة له فحيف يستحق أن يكون معبودا (٨٥) •

وذكر الشيخ ابن عاشور أن قوله تعالى : « فرجعوا الى أنفسهم » يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم الى بعض ، أى أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة ابراهيم عليه السلام ، فقال بعضهم لبعض انكم أنتم الظالمون ، وضمائر الجمع على هذا مراد منها التوزيع كما فى : ركب القوم دوابهم •

ويجوز أن يكون معناه فرجع كل واحد الى نفسه ، أى ترك التأمل فى تهمة ابراهيم ، وتدبر فى دفاع ابراهيم ، فلاح لكل منهم أن ابراهيم برىء فقال بعضهم لبعض انكم أنتم الظالمون ، وضمائر الجمع على هذا جارية على أصلها المعروف (٨٦) •

وانتعيم بالرجوع الى أنفسهم ، مجاز عن التفكير والتدبر على سبيل الاستعارة ، حيث شبه تحولهم من الحديث مع ابراهيم عليه السلام الى التدبر والتفكير فيما هم عليه بالرجوع ، بجامع التحول من شيء الى شيء آخر • وفى ايثار الرجوع ائثار بأنهم تبيينوا خطأ ما هم فيه فرجعوا عنه • وفى ايثار « أنفسهم » على الى بعضهم اشارة الى أن الحق مستقر فى أنفسهم قابض فيها ، لا يحتاج فى اظهاره

(٨٤) فى ظلال القرآن : ٢٣٨٧/٤ •

(٨٥) الألوسى : ٦٦/١٧/٩ •

(٨٦) التحرير والتنوير : ١٠٣/١٧ •

الا رجعة تأمل مع النفس • ويمكن أن يكون رجوعهم الى أنفسهم كناية عن استقامة تفكيرهم ، وتدبرهم فيها هم عليه •

وقد حكموا على أنفسهم بالظلم على أقوى نهج ، فاندوا حكمهم بان ، وقصروا أنفسهم على الظلم عن طريق ضمير الفصل « أنتم » وتعريف المسند باللام ، وأطلقوا الظلم لافادة أنهم موصوفون به على العموم فهم ظالمون لابراهيم عليه السلام ، وهم ظالمون في عبادة ما لا ينطق ، وغير ذلك من ألوان الظلم ، والقصر اضافي بالنسبة الى ابراهيم عليه السلام ، أى أنتم الظالمون لا ابراهيم ، حيث اتهمتموه بالظلم •

وكانت بادرة خير أن يرجعوا لأنفسهم ويستشعروا ما في موقفهم من سخف وما في عبادتهم لعدد انتمثيل من ظلم •• ولكنها لم تكن الا ومضة واحدة أعقبها الظلام (٨٧) « ثم نكسوا على رؤوسهم لقد غمت ما هؤلاء ينطقون » • أى استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة وأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة (٨٨) •

والنكس : قلب الشيء على رأسه (٨٩) • و « نكسوا على رؤوسهم » استعارة تمثيلية ، شبه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل انشئ مستعليا على أعلاه (٩٠) ويجوز أن يكون كناية عن انقلابهم الى الجدل والمكابرة ، أو كناية عن تطاوى رؤوسهم وتكيسها الى الأرض

(٨٧) فى ظلال القرآن : ٢٣٨٧/٤ •

(٨٨) الكشف : ٥٧٧/٢ •

(٨٩) مقاييس اللغة ، ولسان العرب ، مادة : نكس •

(٩٠) البضاوى : ٤٤٣ •

على سبيل الخجل والانكسار مما بهتهم به ابراهيم من قول الحق ،
ودمغهم به فلم يطيعوا جوابا (٩١) •

وعلى كل ففى العبارة تصوير لهم فى رجوعهم عن الفكر المعتدل
الى المجادلة والمكابرة بصورة المنقلب على رأسه بعد أن كان منتصبا
على قدميه فى وضع معتدل ، وفى هذا مزيد تشمينع بهم ، وتنديد
بعقولهم وفكرهم المقلوب •

وفى العطف بثم اشارة الى أن رجوعهم عن التفكير المعتدل وبعد
الاقترار الصريح بما هم عليه من ظلم — أمر بعيد عجيب (٩٢) وفى بناء
الفعل « نكسوا » للمفعول اشارة الى أنهم قلبوا قلبا لا اختيار لهم فيه
ولا حيلة لهم فى دفعه ، مما يدل على شدة تأثرهم بالاضلال ،
وانقيادهم له •

وجملة « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » مقول محذوف أى
قائلين لقد علمت أنه ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم (٩٣)
وال تأكيد باللام وقد ، والتعبير بالعلم ، لاثبات علمه بعدم نطق
الأصنام على وجه اليقين الذى لا شك فيه ، وفى هذا اشعار بزيادة
لومهم له على أمرهم بسؤالهم ، واستنكارهم لذلك •

وتقديم المسند اليه المسبوق بالنفى على خبره الفعلى « ما هؤلاء
ينطقون » يفيد تخصيصهم بعدم النطق ، واثباته لغيرهم ، كما هو
مذهب الامام عبد القاهر (٩٤) • وفى اسم الاشارة تعظيمهم حسب

(٩١) البحر المحيط : ٣٢٥/٦ •

(٩٢) ينظر نظم الدرر : ٤٤٢/١٢ •

(٩٣) أبو السعود ٧٥/٦ •

(٩٤) ينظر دلائل الاعجاز : ١٢٤ ، ١٢٥ •

زعمهم ، مع كونه مخرجا للقيوم من دأرق تعبيرى ، اذ لو ذكروهم بالآلهة لنتائى ذلك مع عدم نطقهم ، ولو ذكروهم بالأصنام أو التماثيل لكان تحقيرا لهم .

ولما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق ، انتهز ابراهيم الفرصة لارشادهم مع التوبيخ والتعنيف ، مفرعا على اعترافهم بأنها لا تنطق استفهاما انكاريا على عبادتهم أياها ، وزائدا بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر (٩٥) « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف، لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

ورد ابراهيم عليه السلام يتضمن ثلاثة أمور :

الأول : ابطال عبادة الأصنام بالدليل « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم » فهذا ابطال لعبادة الأصنام بالحجة المقنعة ، لأن حالها تنطق بعجزها ومهانتها وعدم صلاحيتها للآلوهية ، وهم يعلمون ذلك وقد أقروا به أمام ابراهيم ، وهذا يوجب اجتناب عبادتها قطعاً .

والاستفهام للانكار التوبيخى ومجئ الجملة على صيغة الاستفهام لما فى ذلك من توبيخ وتقريع لهم ، بجانب أنه يحثهم على التأمل ويدعوهم الى النظر والتدبر فيما يعبدون ، ومدى استحقاقه المعبادة ، مما يجعلهم ينتهون عما هم فيه من ضلال بين . والفاء عاطفة على مقدر أى : أتعلمون ذلك فتعبدون ... وفى الحذف ايجاز ، وأحكام للعبارة . والتعبير بالمضارع « تعبدون » يدل على استمرارهم فى عبادتها . والتعبير عن الأصنام بالوصول المبهم « ما » يشير الى جهالتها ، واستهجان التصريح باسمها ، وليدخل فى ذلك كل ما يعبد من دون الله تعالى .

و « شيئاً » تفيد العموم ، وتفكيرها يفيد التحقير ، فهذه الأصنام لا تنفعهم شيئاً م من الأتسياء • وحذف « شيئاً » في حان الضرر لعلمه مما سبق ، وفي حذفه اشعار بمزيد العموم ، فهي لا تلحق بهم ضرراً أياً كان • وبين النفع والضرر طبق بديع أظهر المعنى وأكدّه • وتقديم النفع على الضرر لما أن الإنسان ميال بطبعه الى ما يعود عليه بالنفع ويحقق له المصلحة ، ولكون النفع أدل على القدرة من حيث انه يكون عادة بالايجاد ، والضرر يكون عادة بالسلب • وإيثار التعبير بـ « ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضر دم » على ما لا ينطقون كما هو المتبادر من كلامهم السابق ، لظاهر عموم عجزها وشموله ، اذ لا يقتصر عجزها على عدم النطق فقط ، بل هو عجز كلي عن فعل ما ينفع أو يضر ، ولا رجاء لأحد الا بواحد منهما كما قال الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضر غانماً يرجى الفتى كيما يضر وينفع

والثاني : اعلان تضجره وغضبه من قومه ومعبوداتهم « أف لكم ولما تعبدون من دون الله » وهذا استئناف لتبكييتهم بعد أن أثبت لهم عجز معبوداتهم وعدم أحقيتها بالعبادة ، وقد استعمل فيه أعلى كلمات التحقير التي لا تقال الا لما هو غاية في القذارة (٩٦) •

و « أف » اسم فعل بمعنى أضجر ، دال على تضجره واستنقذاره منهم ومن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى • وأصله صـجرت المنضجر الذي ضاقت نفسه من شيء ، وقد أضجره ما رأى من شائهم على عبادة الأصنام بعد انقطاع عذرهم بوضوح الحق وزهوق الدال • واللام لبيان المتأفف به ، أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف (٩٧) •

(٩٦) نظم الدرر : ٤٤٣/١٢ •

(٩٧) الكشف : ٥٧٧/٢ •

وقيل « ولما تعبدون من دون الله » دون أن يقال : ولا تهتكم
أو لأصنامكم ونحو ذلك في الجملة القرآنية من تشنيع بهم وننديد
بجريمتهم ، حيث عبدوا الأصنام من دون الله القادر الحكيم ، كما
أن فيها اشعاراً بعلّة التأفف منهم ، إذ تشبثوا بعبادة باطلة ، وتلك
جريمة تدعو إلى تضجره منهم واحتقاره لهم ولعبوداتهم •

وأظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لزيادة البيان ، وتشنيع
عبادة غيره (٩٨) وهو الله الذي بيده ملك السموات والأرض •

والثالث : توبيخهم على عدم تدبرهم وتعقلهم « أفلا تعقلون » •
وهذا استنهام عن انتفاء تعقلهم ، مستعمل في الإنكار والتوبيخ •
نزلوا منزلة من اندقى تعقله فأنكر عليهم ذلك (٩٩) • والفاء عاطفة
على مقدر دل عليه ما عطف عليه ، أي ألا تتفكرون فلا تعقلون •
والفعل « تعقلون » منزل منزلة اللازم ، وذلك لوصفهم بعدم التعقل
على الإطلاق فهم لا يعقلون شيئاً ما ، وهذا أبلغ في الإنكار عليهم
والتوبيخ لهم • وإيثار « تعقلون » على تتفكرون ونحوها ، لأن عدم
تعقلهم يلزم منه عدم تفكرهم وتدبرهم ، إذ العقل أداة التفكير والتدبر ،
فعدمه عدم لها ، كما أن نفى التعقل عنهم يثبت ضده لهم وهو الجنون ،
وهذا أبلغ في التشنيع عليهم والذم لهم •

ومما سبق نرى أن رد إبراهيم عليه السلام عليهم جاء رداً قوياً
جامعاً لخصائص الإنكار والتوبيخ والذم والتشنيع ، حيث اشتمل على
إنكارين بينهما تأفف واستقذار منهم ومن معبوداتهم مع تضمينها العناصر
التعبيرية التي بينها •

(٩٨) التحرير والتنوير : ١٧/١٠٥ •

(٩٩) السابق : ١/٤٧٧ •

وقد رتب هذه الأمور الثلاثة ترتيبا طبيعيا ، حيث بدئت بابطال عبادتهم ، تلا ذلك تأففه من هذا الباطل وتشبثهم بعبادته ، وختمت ببيان سبب ذلك وهو عدم التعقل • وفصلت جملة « أف لكم ... » و « أفلا تعقلون » عن سابقتهما لأنهما متفرعتان عليها لزيادة الذم والتوبيخ • فعبادة ما لا ينفع ولا يضر تقتضى تحقيق فعلهم واستقراره ، وهما يقتضيان عدم التعقل والتفكر •

ويصور الفصن الحالة النفسية التى كان عليها ابراهيم عليه السلام ، اذ كان قد بلغ به الضيق منهم مبلغه ، لاعراضهم عن الحجة الواضحة وتمسكهم بالباطل ودفاعهم عنه ، فانطلق انطلاق الغيظ الذى ينفث عن نفسه بتقريع معانده ، فى جمل متواليات لا عطف بينها كى لا يعطيه فرصة يقطع من خلالها تقريعه وتقريغ شاذته النفسية •

الذكم والنجاسة :

ولما دمع ابراهيم عليه السلام القوم وباطلهم بالحجة القامرة ، وقذفهم بسهام التوبيخ والتقريع القاتلة ، وعجزوا عن مواجهته بباطلهم ، ثارت عصبيتهم ، وهاجت حميتهم ، واندفخوا الى الانتقام منه وايقاع أقصى العقوبات به ، « قالوا حرقوه وانصروا آلهم ان كنتم فاعلين » • أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاعت عليهم الحيل حرقوه وهكذا المبطل اذا قرعت شبهته بالحجة واقتضح لم يكن أحد أبغض اليه من الحق ، ولم يبق له مفرع الا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة (١٠٠) •

واسناد القول اليهم بضمير الجمع مشعر باتفاق كلمتهم على التحريق ، وأن القول بذلك كن دفعة واحدة ودون مواربة • والأمر

في « حرقوه » مستعمل في المشاورة (١٠١) • ومما دل على ذلك ما جاء في قوله تعالى : « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » (١٠٢) •

وفي صيغة فعل بالتشديد مبالغة في حرقه حتى لا يبقى له أثر يذكر ، ودلالة على شدة حنقهم عليه ، وغيظهم منه • وضمير الغائب مشير الى تحقيرهم له وتهوينهم لسانه •

وانما اختاروا اهلاكه بالنار ليكون عقابهم له أشد مما فعله بالهتكم ، وبذلك يأتي ردهم العمل عليه أفضح من رده العمل عليهم حين كسر أصنامهم ، وهكذا شأن الظلمة الكافرين على مدى العصور •

وحرصوا على التحريق وحثوا عليه بأمر آخر هو « وانصروا آلتهكم » التي حطها ففى **تحريقكم** نصر مؤزر لها • والتعبير بـ « انصروا » مشعر بأن ابراهيم يحارب آلتهم ، ولا بد لهم من نصرتها في هذه المعركة • وذكرها باسم الآلهة مع اضافتها اليهم مزيد اثاره وتحريض على نصرتها ، فما أغير العابد على معبوده •

ويؤكد التحريض ويقوى الالهاب بجملة « ان كنتم فاعلين » أى: كنتم فاعلين النصر ، أو ان كنتم ناصرين آلتهكم نصرا مؤزار ، فاختراروا له أهول المعاقبات وهي الاحراق بالنار ، والا فرطتم في نصرتها (١٠٣)

وعلى هذا فجواب الشرط محذوف لدلالة ما سبق عليه ، وفي حذفه ايجاز بديع يشعر بضيق وقتهم عن تكلمة العبارة ، فلم يعد للكلام متسع ، والمطلوب المسارعة الى تنفيذ الحكم •

• (١٠١) التحرير والتنوير : ١٧/ ١٠٥ •

• (١٠٢) العنكبوت : ٢٤ •

• (١٠٣) الكشف : ٢/ ٥٧٨ •

ويطوى السياق مشهد اعداد النار بجمع الحطبي ، وبناء البنيان ،
واخرام النار ، وتحولها الى جحيم ، والقاء ابراهيم عليه السلام
فيها . ويذكر أمر الله تعالى للنار بالابراء والسلام « قلنا يا نار كوني
بردا وسلاما على ابراهيم » . وانما طوى ما سبق لاتضاحه من القرائن
والأحوال ، وفي طيه اشارة الى السرعة التي تم بها تنفيذ الحكم
ونجاته منه ، اذ يوحى بعدم وجود فاصل زمني بين الأمر بتحريقه
والنائه في النار وأمر الله تعالى بنجاته .

واسناد القول الى نون العظمة لما أنه لا يصدر الا عن الله تعالى
ولأ يقدر عليه سواء ، وفيه دلالة على عظمته ، وفخامة مضمونه ،
وتحقيقه الفوري . وفي نداء النار وأمرها تصوير لها بصورة مأمور
مطيع للأمر سيده . والأمر بمعنى التسخير كما في قوله تعالى :
« كونوا قردة خاسئين » (١٠٤) اذ جعلت النار المسخرة لقدرة الله
تعالى مأمورة مطاوعة (١٠٥) .

و « كوني بردا وسلاما » أي كوني ذات برد وسلام ، أي أبردى
بردا غير ضار ، واقامة « كوني بردا » مقام أبردى لما فيه من
الاجمال بكان والتفصيل بخبرها ، وافادة دوام بردها لجعلها مكونة
له (١٠٦) .

وذكر « سلاما » بعد ذكر البرد كلاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه
اذا اشتد ، فعقب ذكره بذكر السلام لذلك (١٠٧) . والتقييد بالجار
والمجرور « على ابراهيم » لما أن جعل النار ذات برد وسلام كان

(١٠٤) البقرة : ٦٥ .

(١٠٥) ينظر أبو السعود : ٧٦/٦ حاشية الشهاب : ٢٦٣/٦ .

(١٠٦) حاشية الشهاب : ٢٦٣/٦ .

(١٠٧) التحرير والتنوير : ١٠٦/١٧ .

من أجله ، بوغن ابن عباس رضى الله عنهما : لو لم يقل « وسلاما »
لهلك ابراهيم من البرد ، ولو لم يقل « على ابراهيم » لما أحرقت
نار بعدها ولا انتقدت (١٠٨) •

وكانت النار — كم أمرها خالقها جل شأنه — بردا وسلاما على
ابراهيم ، فمكث فيها مدة اختلفت في تحديدها الآراء ، رأى فيها من
رحمة الله ما رأى ، حتى خمد لهيبها وصارت رمادا ، وطلع ابراهيم
عليه السلام ساطع البرهان باهر الحجة ، بينما أصيب القوم بانذهول
وبعدوا بالخيبة ، ويطوى السياق القرآنى هذه التفاصيل ليبرز موطن
الحظة والعبرة « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » وفى ترك
تفاصيل ما حدث بعث للنفس على التأمل فى أمر هذه المعجزة الباهرة
لتتصور ما دار فيها وما كان ، مما يعجز عن وصفه اللسان ، ولا يحيط
بكنهه بيان •

و « كيدا » أى مكرا عظيما فى الأضرار به • وتسمية عزمهم على
أحرقه كيدا يقتضى أنهم دبروا ذلك خفية منه ، ولعل قصدهم من ذلك
ألا يفر من الباد فلا يتم الانتصار لآلهم (١٠٩) • وانما ذكرت الآية
إرادة الكيد ولم تصرح بما فعلوه به مع قيامهم بالقائه فى النار حقيقة ،
لأن الأمر عند التحقيق لم يتعد مرحلة الإرادة ، حيث أبطل الله تعالى
ما دبروه له ، فلم يكن الفعل ذا أثر عليه ، ومن ثم لم يعتقد بذكره
وكأنه لم يكن ، وتقديم الجار والمجرور « به » على المفعول يفيد
تخصيصه بهذا الكيد ، فقد أرادوا كيدا به لا بغيره •

وقوبلت ارادتهم بالجمعن من الله تعالى ، فمبلغ كيدهم كان
بالإرادة ، إذ الفعل لم يكن له تأثير لأن الله أبطله ، وفى مقابل ذلك •

(١٠٨) البحر المحيط : ٣٢٨/٦ •

(١٠٩) التحرير والتنوير : ١٠٧/١٧ •

جذبهم الله الأخرسين ، و « الفاء » مشعرة بمعاقبة خسارتهم وخيبتهم لارادتهم الكيد ، مما يدل على أن الله تعالى كان لهم بالمرصاد ، فلم يمهلهم لتحقيق مأربهم • وفي اسناد الفعل الى نون العظمة تفخيم لشأن هذا الجعل ، فهو من العظيم الذى لا يقدر عليه الا هو •

و « الأخرسين » جمع أخسر اسم تفضيل مشعر بأن خسارتهم فوق كل خسارة ، حيث خسروا كيدهم وتدميرهم ، وخسروا بانتقام الله منهم بعد ذلك ، وفي حذف المفضل عليه اشارة الى أنهم الموصوفون بهذا الوصف على الاطلاق ، فهم الأخسرون من كل خاسر على العموم • وتعريف « الأخرسين » باللام يفيد القصر ، أى جعلناهم الأخرسين لا غيرهم ، فخصهم الله بالخسران البالغ ، فى مقابل أنهم خصوا ابراهيم عليه السلام بالكيد والانتقام •

وهكذا نجى الله ابراهيم من النار ، وأظهر حجته ، ونصره على النجوم الكافرين ، وجعلهم الأخرسين ، وتلك عقبى كل جبار عنيد •

الخاتمة :

ولم تترك الآيات ابراهيم عليه السلام عند هذا المشهد البالغ التأثير ، وانما وأصلت عرض نعم الله تعالى التى توالى عليه بعد ذلك فى سبيل اظهار الخاتمة العظيمة لقصة جهاده من أجل عبادة الله الواحد النقيض ، لتشرح بذلك صدور المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، ويتيقن من نهاية هائلة بالنصر ، مفعمة بالامدادات الالهية والبركات الربانية •

وتذكر الآيات ست نعم جليلة :

الأولى : « ونجيناه ولو طأ الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » وبداية بهذه النعمة لأنها تمثل نهاية مشواره مع أبيه وقومه ، وبداية مشواره جديد فى الدعوة فى ظلال حياة عامرة بالخيرات والبركات •

وعطف « لوط » عليه لما أنه ابن أخيه الذى آمن به وصدقته
وهاجر معه •

وعدى « نجينا » بالى لتضمينه معنى الاخراج ، وقين ان « البى »
معلقة بمحذوف وقع حالا أى منتهى الى الأرض ، فلا تضمين (١١٠) •
و « الأرض » هى أرض فلسطين ، ووصفت بأن الله بارك فيها للعالمين
لكثرة خصبها وثمرها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء (١١١) •
والمقصود بالعالمين الناس ، أو الساكنون فيها (١١٢) ، وفى إطلاق
العالمين عليهم اشعار بكثرتهم • وفى اسناد بارك الى نون العظمة
تفخيم لشأنها فهمى من لدن العظيم الكريم الذى يقدر على ذلك دون
سواه •

والثانية : « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة » • وهبة اسحاق
له كانت على الكبر وبعد أن يؤسس زوجه سارة من الولاد ، وهبة يعقوب
كانت لاسحاق فى حياة والده ابراهيم عليه السلام • والنافلة الزيادة
غير الموعودة ، و « نافلة » منصوبة على الحال من اسحاق ويعقوب ،
شأن الحال الواردة بعد المفردات اذ تعود الى جميعها (١١٣) • والتعبير
بالهبة لما أنه كان محض تفضل من الله تعالى اذ ولد له فى حال
شيخوخته وكون امرأته عجوزا عقيما • وتقديم الجار والمجرور « له »
على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، ولأن فى تأخير
اخلاقا بجزالة انظم الكريم لما فى المفعول وما عطف عليه من طول •
والثالثة : « وكلا جعلنا صالحين » أى كل واحد من هؤلاء المذكورين :
ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب عليهم السلام جعلنا صالحين ، بأن

(١١٠) الألوسى : ٧٠٧/٩

(١١١) القرطبى : ٤٣٤٤/٦

(١١٢) ينظر التحرير والتنوير : ١٠٨/١٧

(١١٣) التحرير والتنوير : ١٠٩/١٧ ، وينظر أبو السعود : ٧٧/٦

وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين (١١٤) • وتنبؤين
« كلا » عوض عن المضاف اليه ، وتقديمه على الفعل لتخصيص الصلاح
بالكل لا ببعضهم دون بعض •

والرابعة : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » وتكرار الجعل
للاهتمام بابرار هذه النعمة على وجه الاستقلال تأكيدا لفخامة مضمونها
وأهميته • و « أئمة » جمع امام وهو القدوة والمثل لغيره : وفي إثارة
على ما يشبهه لما يلابسه من دلالة دينية ، فهم أئمة يقتدى بهم في
أمور الدين ، وبين ذلك بجملة « يهدون بأمرنا » فهم أئمة هدى ورشاد
بما أمرهم الله تعالى به عن طريق وحيه •

وفي إطلاق امامتهم عن القيد ، وحذف ، فعول « يهدون » تعميم
يبين عظمة هذا الجعل ، وفخامة شأن هؤلاء الأئمة • وقوله « يأمرنا »
فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور
هو بها ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها • وأول ذلك أن يهتدى بنفسه
لأن الانتفاع بهداه أعم والنفوس التي الاهتداء بالمهدي أميل (١١٥) •
والخامسة : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وأيتاء

الزكاة » ، و « فعل الخيرات » اقامة شرائع الدين بين الناس من
العبادات والمعاملات • وهو مصدر مضاف الى مفعوله ، فالمصدر
هنا بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن المقصود هو مفعوله ، وأما الأفعال
فقتب له ، أى أن يفعلوا هم ويفعل قومهم الخيرات ، حتى تكون
الخيرات مفعولة للناس كلهم ، فحذف الفاعل لتعميم مع الاختصار
لاقتضاء المفعول آياه • ويجوز أن يكون « فعل الخيرات » هو الموحى

(١١٤) أبو السعود : ٧٧/٦ •

(١١٥) الكشف : ٥٧٨/٢ •

به . أى وأوحينا اليهم هذا الكلام ، فيكون المصدر قائما مقام الفعل مراداً به الطلب ، والتقدير : افعلوا الخيرات ، كقوله تعالى : « غادا لتقيم الذين كفروا فاضرب الرقاب » أى : فاضربوا الرقاب (١١٦) .

وفى « فعل الخيرات » ايضاح بعد اجمال ، وهو يؤكد الموضح ويثبت في النفس بعد أن تشوقت اليه في الاجمال . وعطف « اقام الصلاة وايتاء الزكاة » على « فعل الخيرات » من قبيل عطف الخاص على العام ، دلالة على فضل الخاص ، واعتنائها بشأنه ، واعتناء بتحصيله . والبداية باقامة الصلاة لأنها افتتحت على سائر الأعمال . والأصل اقامة الصلاة وحذفت التاء وعوض عنها بالاضافة ، وفى حذفها تناسق في النظم ، تتشاكل بين الألفاظ « فعل واقام وايتاء » كما هو ظاهر بين ألفاظ « الخيرات والصلاة والزكاة » . وبذلك تحقق للجمل الثلاث جرس بديع .

والسادسة : « وكانوا لنا عابدين » وهى خاتمة النعم في الآيات ، وأسند فعلها اليهم لما أنها شكر منهم لواهب النعم على ما أنعم به وتفضل ، مع كونها فى ذات الوقت نعمة كبرى وفقهم الله تعالى اليها ، فتميزوا بها على غيرهم .

وقد اختلفت في صياغتها لاختلافها عن بقية النعم في كونها شكرا ونعمة ، ولتكرين شهادة من الله تعالى لهم بالمداومة على العبادة والاخلاص فيها .

ونقديم الجار والمجرور « لنا » يفيد التخصيص ، أى وكانوا لنا عابدين لا لغيرنا ، غلم يخطر ببالهم غير عبادتنا . والتعبير بالكون

مشعر بأنهم جبلوا على ذلك ، وتمكن فيهم ، وفي صيغة اسم الفاعل دلالة على أنهم في العبادة ثابتون وعليها مستثمرون •

ونظرة تأمل في نظم النعم الست ترى أنها جاءت في جمل موصولة إثر وسط بين الكمالين ، حيث تتحد في الخبرية مع التناسب البديع واتحاد بدايتها بالأفعال الماضية المسندة الى نون العظمة مما جعل لها موقعا آخذا • وفي اسناد هذه النعم الى نون لعظمة نفخيم نشأته ، فهي نعم عظيمة امتن بها العظيم جل شأنه ، ولا يقدر عليها أحد غيره • وقد رقت هذه النعم ترقيا دقيقا ، فلما كان الحديث قبلها في احراق ابراهيم عليه السلام وانقاذ الله له من النار كان من المناسب أن تبدأ بنعمة نجاهه من قومه وأرضه الى أرض جديدة بارك الله فيها ، ولما كان قد خرج معتزلا قومه وأصبح في أمس الحاجة الى الدرية التي تروى عن قومه تلتها نعمة هبة الأولاد التي كان يتوق اليها من قديم ، وتلا ذلك النعم الشاملة له ولذريته وهي الإصلاح والامامة والنبوة والعبادة ، وبدأ بالصالح لما فيه من تكميل للنفس ، ثم بالامامة التي هي تكميل للغير ثم بالنبوة التي هي أعلى درجات الامامة ، وأسمى تكليف الهى ، وختمت ببيان محافظتهم على هذه النعم عن طريق شكر المنعم وتلك نعمة جليلة •

وقد اختلف المخاطب بهذه النعم تبعاً لما فيها من عموم وخصوص ، فلما كانت نعمة النجاة متعلقة بابراهيم عليه السلام أصلاً أوقعت عليه ، وعطف لوط عليه لأنه لم يكن محارباً مثل ابراهيم عليهما السلام • ولما كانت نعمة الهبة مما يخصه ، وقد دعا الله تعالى بها فقال « رب هب لى من الصالحين » (١١٧) أوقعت عليه خاصة • أما بقية النعم فهي عامة لهم جميعاً ومن ثم أوقعت عليهم •

وقد عبر في كل نعمة بما يناسبها غفى نعمة الأمن والاستقرار قيل
« ونجينا » وفي نعمة الانجاب قيل « ووهب له » • وفي نعمتى الصلاح
والامامة قيل « جعلنا » لما تتطلبه النعمتان من جعل وتحويل من حال
الى حال • وفي نعمة النبوة قيل « وأوحينا » لما فى اللفظ من اشعار
بنبوتهم ، أما نعمة العبادة فأثبتت لهم على نمط خاص لما أشرنا اليه
قبل ذلك ، والله أعلم •

وبهذه الخاتمة العظيمة تنتهى حلقة مسورة الأنبياء التى حفلت
بالمشاهد والأحداث ، واشتملت على عبر جلية وعظمت بليغة • ومن
أصدق من الله قيلا « (١١٨) » •

الحلقة الخامسة

اعبدوا الله واتقوه

قال الله تعالى :

« وَاِبْرَاهِيْمَ اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوْهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ • اِنَّمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ اَوْثَانًا وَتَخْلُقُوْنَ اَفْكَا اِنْ الذِّكْرِ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ **لَا يَمْلِكُوْنَ لَكُمْ رِزْقًا** فَابْتَغُوا عِزَّ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوْهُ وَاسْتَكْرُوا لَهٗ اِلَيْهِ تَرْجِعُوْنَ • وَاِنْ تَكْذِبُوْا فَقَدْ كَذَّبَ اُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلٰى الرَّسُوْلِ اِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِيْنُ • اَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللهَ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيْدهٗ اِنْ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيْرُ • قُلْ سِيرُوْا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوْا كَيْفَ بَدَا الْخَلْقَ ثُمَّ اللهَ يَنْشِئُ النَّشْءَ الْاٰخِرَةَ اِنْ اللهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ • يَعْذِبُ مَنْ يَّشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَّشَاءُ وَاِلَيْهِ تُقْلَبُوْنَ • وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ وَّلٰىٍ وَلَا نَصِيْرٍ • وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا بَاٰيٰتِ اللهِ وَلِقَايَهِ اُولٰٓئِكَ يَنْسَوْنَ مِنْ رَّحْمَتِيْ وَاُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ • غَمًا كَانَ جِيََابٌ قُوْدِهِ اِلَّا اَنْ قَالُوْا اقْتُلُوْهُ اَوْ حَرِّقُوْهُ فَاَنْجَاهُ اللهَ مِنَ النَّارِ اِنْ فِيْ ذٰلِكَ لَآيٰتٌ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُوْنَ • وَقَالَ اِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ اَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نٰصِرِيْنَ • فَاَمِنْ لَهُ لَوْطٌ وَقَالَ اِنِّىْ مَهَاجِرٌ اِلَى رِبِّىْ اِنَّهٗ هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ • وَوَهَبْنَا لِهٰسَدِ بْنِ اِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَجَعَلْنَا فِيْ ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتٰبَ وَآتَيْنَاهُ اٰجْرَهٗ فِي الدُّنْيَا وَاِنَّهٗ فِي الْاٰخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ » (١) •

(١) العنكبوت : ١٦ - ٢٧ •

بين يدي الآيات :

تمثل هذه الآيات الحلقة الخامسة من الحلقات التي تحكى دعوته
قرمه الى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأوثان •

وتركز سورة العنكبوت في بدايتها على اختبار الله تعالى لمن يدعون
الايمان ، ليظهر الصادقون من الكاذبين في دعواهم • فلا يحسبن من
يدعون الايمان أن الله تاركهم دون فتنه واختبار ، فقد فتن من قبلهم •
ولا يحسبن من يفعلون السيئات أنهم يفتنون من عذاب الله تعالى :
« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا
الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين • أم حسب
الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » (٢) •

وتبين أن أجل الله آت لا محالة ، فمن جاهد في طاعة الله تعالى
فتوابع جهاده عائد لنفسه ، فانه غنى عن العالمين • وهو يحزى
الصالحين بأحسن أعمالهم • وتوصى الانسان بوالديه احسانا فيما
لا يخالف أمر الله تعالى ، فان أرغماه على الشك بالله فعليه بمخالفتها
وعدم طاعتها ، وهذا من ألوان الفتن والاختبارات التي يتعرض لها
المؤمنون •

ويتصل الحديث عن الفتنة والاختبار في دين الله ، فتبين السورة
أن بعض من يدعون الايمان لا يثبتون أمام هذه الفتن ، ويترددون
في مسلكتهم ، وتصمم هؤلاء بالنفاق ، وتؤكد علم الله تعالى بهم : « ومن
الناس من يقول آمنا بالله فاذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله
ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في
صدور العالمين • وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » (٣) •

(٢) العنكبوت : ٢ - ٤ •

(٣) العنكبوت : ١٠ ، ١١ •

وكان الحديث عن الفن والصبر عليها مناسبة لعرض قصص بعض الأنبياء وبيان صبرهم على إيذاء قومهم ، وتحملهم لما يتلون به في سبيل الدعوة الى الله تعالى . وتلتزم السورة الترتيب الزمني فيما ذكرته من قصص ، فتبدأ بقصة نوح عليه السلام وتعرض الجانب المناسب منها لجو السورة في ايجاز دقيق بديع . « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث معهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » (٤)

وتنتقل السورة الى قصة ابراهيم عليه السلام فتفصل دعوته الى عبادة الله تعالى ، ونبذ عبادة الأوثان ، وتحكى ما لاقاه من قومه من إيذاء شديد انتهى بالقائه في النار ، وهجرته بعيدا عن قومه ووطنه بعد أن نجاه الله منها .

وفي تفصيل ما لاقاه ابراهيم من استهزاء وإيذاء وصبره عليه ، ومهاجرته بعيدا عن وطنه وقومه الى حيث يتمكن من عبادة ربه والدعوة الى دينه مثل بين للرسول صلى الله عليه وسلم ، يقتدى به في مسلكه مع قومه الذين تعقبوه بصنوف الأذى ، ويوطن نفسه به على ما سيكون في القريب من اذن الله تعالى له بالهجرة . وهذه السورة آخر ما نزل من السور بمكة والرسول ﷺ على مشارف الهجرة (٥) . وكان حديثها عن هجرة ابراهيم عليه السلام كان تمهيدا واعادا نفسيا لهجرته ﷺ .

البداية :

تبدأ هذه الحلقة بالدخول في الموضوع مباشرة دون تمهيد ، فتحكى ما قاله ابراهيم لقومه « وابراهيم اذا قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذاكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

(٤) المكيوت : ١٤ ، ١٥ . (٥) نظر الاثنان : ٩/١ - ١١ .

(١١ - خصائص النظم)

لقد بدأ ببيان حقيقة ما يدعوهم اليه ، وما تتضمنه هذه الحقيقة من خير لهم ، فأظهر لهم الحقيقة وغايتها ليقبلوا عليها .

« وإبراهيم » نصب عطفا على « نوحا » والتقدير : وأرسلنا إبراهيم ، و « أذ » ظرف متعلق بأرسلنا المقدر ، أى : أرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه « اعبدوا الله وانقوه » وقيل : نصب باضمار اذكر ، و « أذ » بدل اشتمال من إبراهيم ، لأن الأحيان تشتمل على ما فيها (٦)

و « اعبدوا الله وانقوه » أمران فيهما إشارة الى الذوحيد . نفى الأول إشارة الى الآتيان بالواجبات ويدخل فيه الاعتراف بالله ، وفى الثانى إشارة الى الامتناع عن المحرمات ويدخل فيه الامتناع عن الشرك (٧) . وعطف التقوى على العبادة من عطف العام على الخاص لأن التقوى أشمل من العبادة ، اذ هى فعل المسامرات ، واجتناب المذنبات والبعد عن المنشابهات . وتقديم العبادة على التقوى لخصيصيتها فيما يتعلق بأمور الدين .

وعلى الأمر بالعبادة والتقوى بقوله « ذلكم خير لكم » ، وأشير إليهما بإشارة البعيد لتنظيم أمرهما وتفخيم شأنهما ، مع الإيجاز المغنى عن تكرار الفعلين . ومخاطبة الجميع ضمن الإشارة لتنبية قومه الى أن الفائدة التالية تعود عليهم جميعا . وتنكير « خير » تعظيمه وتفخيمه وتقويده بالجوار والمجور « لكم » لتمحيص خيريته لهم وصرفها اليهم ، وأنه لن يجنى من وراء ذلك فائدة لنفسه .

وفى حذف المفضل عليه اشعار بالعموم والشمول بعبادة الله ونفواه خير لهم من كل شئ سواها وجعل عبادة الله وتقواه خيرا لهم .

(٦) ينظر الكشف : ٢٠٠/٣ . وأبو السعود : ٣٤/٧ .

(٧) ينظر الرازى : ٤٧٦/٦ .

أن ما هم عليه من عبادة الأصنام شرًا لهم ، لأن العبادتين «تضادتان» فإذا مات الأولى خيرا محضًا كان ضدّها شرًا محضًا •

واللهم على التيقن من خيرية ذلك نهم • وحظهم على الاستجابة لب أمرهم به عن طريق الشرط « أن كنتم تعلمون » وإذا كنتم «موصوفين بضد ذلك من الجهل الشيخ • ومفهوم « بعثون » موصوف لدلالة ما قبله عليه • أي : أن كنتم تعلمون الخير والشر ، أر أن كنتم تعلمون شيئًا من الآثـياء بوجه من الوجوه • أي أن كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم وعلى هذا الوجه يكون العلم بمعنى النظر والفكر ، فإن انظر بسبب العلم مستلزم له ، فأطلق الشرع رأييد العلوم على سبيل التكاية (٨) • ويجوز أن يكون « تعلمون » مثلًا منزلة اللازم . أي أن كنتم أهل علم ونظر وتفكر • وعلى كل فترك المفعول مشير إلى العموم والشمول ، وفي ذلك بجانب حذف جواب الشرط مزيد من التوبييح والحدث على الاستجابة لب فيه خيرهم كي لا يتصفوا بالجهل الشامل المطبق مع ما في الحذفين من الإيجاز الذي لا يخفى سر جماله •

إبطال عبادتهم الأصنام :

وبعد أن أمرهم بعبادة الله ونفروا ، بين لهم بطلان عبادتهم وعجز معبوداتهم ، وبنى على ذلك دعوتهم إلى عبادة الله القادر الذي إليه يرجعون • « أنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون أفكًا أن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فبتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون » •

وقوله « أنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون أفكًا » من فاعل الفاعل على المفعول ، وللبلاغيين في هذا اللون من القصر ثلاثة اعتبارات:

(٨) حاشية زاده : ٦/٤ •

الأول : قصر الفعل الصادر من الفاعل على المفعول بعد تأويل الفعل باسم مفعول ، فيكون قصر صفة على موصوف • والثاني . قصر الفاعل على الفعل المتعلق بالمفعول ، فيكون قصر موصوف على صفة • والثالث : قصر الفعل نفسه على التعلق بهذا المفعول ، فيكون قصر صفة على موصوف ، وهو مختار الشيخ سليمان نزار رحمه الله تعالى (٩) • وعلى هذا فالقصر في الآية يمكن تخريجه على الوجوه السابقة • فعلى الأول يكون المعنى : ما معبودهم الا أنا وما مخلوقهم الا افكاً وعلى الثاني يكون المعنى : هم مقصرون على عبادة الأوثان وخلق الافك • وعلى الثالث يكون المعنى : عبادتهم مقصورة على تعلقها بالأوثان وخلقهم مقصور على تعلقه بالافك • والقصر على الوجهين الأول والثالث قصر صفة على موصوف ، وعلى الوجه الثاني قصر موصوف على صفة •

وفي جعل طريق القصر « انما » اشعار بأن عبادتهم الأوثان وخلقهم الافك من الأمور المعلومة الواضحة التي لا تجهل ولا يشك فيها • فموضوع « انما » على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة (١٠) •

وصيغة المضارع في « تعبدون » و « تخلقون » لتصوير حالهم الواقعة وما هم مستمرّون عليه من ضلال وبهتان • وللتقيد بالجار والمجرور « من دون الله » مع تقديمه على المفعول الصريح للمساواة بين المعبود الحق الذي ضلوا عن عبادته وذكيرهم به قبل بيان معبوداتهم المفتراة التي لا تنفع ولا تضر •

(٩) مذكرة في القصر : ١١ •

(١٠) دلائل الاعجاز : ٣٣٠ •

والأوثان : بجمع وثن بفتحين ، وهو صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة انسان أو حيوان • والوثن أخص من الصنم ، لأن الصنم يطل على حجارة غير مصورة أم الوزن فيطلق على المصور • وكانت أصنام قوم ابراهيم مصورة قال تعالى(١١) « قال آتبعنوني ما تنهون »(١٢) •

و « تخلقون » مضارع خلق الخبر أى اخلقه ووضع كذبا ، والخلق فى الأصل : التقدير المستقيم ، ويستعمل فى ادعاء الشئ من غير أصل ولا اعتداء ، والخلق لا يستعمل فى كافة الناس الا على وجهين : أحدهما معنى التقدير ، والثانى فى الكذب كما فى هذا الموضع(١٣) • والافك : كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه • ويطلق على الكذب لأنه مصروف عن الحق(١٤) •

واختلافهم الافك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء الله أو دفعاء إليه ، أو سمى الأصنام افكا وعملهم لها ونحتهم خافك للافك(١٥) • وفى ذلك مبالغة بجعل الأوثان هى افك • وفى ألفاظ الجملة إشارة الى باوهم للغاية فى الكذب والافتراء ، حيث جمعت بين الاختلاف وهو محض كذب وافتراء ، وبين الافك وهو كذب شنيع فهم يكذبون الكذب ويفترون الافتراء •

ولما أبطل عبادتهم ببيان أنها لأوثان يخلقون لها الأكاذيب ، أبطلها عن طريق عدم نفع ما يعبدونه لهم « ان الذين تعبدون من دون

(١١) الصافات : ٩٥ •

(١٢) التحرير والتنوير : ٢٢٥/٢٠ •

(١٣) المفردات : ١٥٧ •

(١٤) السابق •

(١٥) الكشف : ٢٠١/٣ •

الله لا يملكون لكم رزقا » • وتأكيده الجملة لتحقيق مضمونها في مقام يقتضى التأكيد لكون المخاطبين غير مقرين به • والتعبير بالوصول المستعمل في جماعة العقلاء مبنى على ما جرى عليه انقوم من معاملة الأوثان معاملة العقلاء • وفي تكرير «تعبدون من دون الله» مزيد تشنيع بهم ، وقضح اضلالهم ، باظهار جريمتهم الذكراء ، حيث يعبدون الأوثان من دون الله وهي لا تنفع ولا تضر •

وتنكير « رزقا » للتخثير والتقليل ، ووقوعه في سياق النفي يدل على عموم نفى تدرء أصنامهم على أى رزق مهما كان قليلا وتخصيص الرزق بالذكر لأهميته الكبيرة لجميع الناس ، فهو محصلة سعيهم وكفاحهم في الحياة ، وبه تقوم حياتهم • وهم في أمس الحاجة اليه • والتقييد بالجار والمجرور « لكم » مع تقديمه على المفعول للمساورة ببيان أن الأصنام لا تملك لهم رزقا مع أنهم عابدها ، وهذا يقتضى أنها لا تملك رزقا لغيرهم من باب أولى • وقيل « لا يملكون لكم رزقا » دون : لا يرزقونكم لما في نفى الملكية من مبالغة في نفى قدرتهم على الرزق ، إذ قد يملكون رزقا ولا يرزقونهم كما يملك البخيل المال ولا يعطى المستحقين • فنفي عنهم السبب وهذا يقتضى نفى السبب • والجملة تتضمن دعوة القوم الى ترك عبادة الأوثان وتحثهم على ذلك ، إذ الأصنام لا تملك لهم رزقا ، فليسوا في حاجة اليهم ، ولا يتقدمهم من جانبها شيء ، فعليهم أن ينبذوا عبادتها ويتحلاوا من ارتباطهم بها ،

ولما نفى عن الأصنام ملكية رزقهم ذكرهم بالرازق الحقيقي ، وحثهم على طلب الرزق منه « فابتغوا عند الله الرزق » والجملة تقتضى ترجيه العبادة لله تعالى وتخصيصه بها ، لما أنه مالك الأرزاق دون ما سواه • وإيثار الابتغاء على الطلب لما فيه من اشعار برغبتهم في الرزق ، فنو بغيتهم وهداهم •

و « عند » ظرف مكان وهو مجاز • شبه طلب الرزق من الله تعالى بالبحث عن شيء في مكان يختص به فاستعير له « عند » إدالة على المكان المختص بها يضاف إليه الظرف (١٦) • والتعبير بالمعدنية منسجج بوجود الرزق في خزائن الله تعالى التي لا تنفذ كما قال جل شأنه « ما عندكم ينفذ وما عند الله باق » (١٧) •

و قد تم التعريف في « الرزق » لام الجنس المفيدة للاستغراق بمعرنة المقام ، أي غاطبوا كل رزق قل أو أكثر من الله تعالى دون غيره ، والمعرف بلام الجنس في قوة النكرة : فكأنه قيل : غابتخوا عند الله رزقا ، ولذلك لم تكن إعادة لفظ الرزق بالتعريف مقتضية كونه عين الأول (١٨) ، وتقدير الظرف « عند » على المفعول الصريح يفيد الاختصاص ، أي غابتخوا عند الله الرزق لا عند غيره •

ثم صرح بمقتضى الجملة السابقة وهو عبادة الله تعالى وشكره على نعمه « راعبوه واشكروا لله » وهذه الجملة مرتبطة بما قبلها ارتباط وثيقا فهي من مقتضياته كما بينا ، كما أنها من أسبابه ووسائله ، إذ العبادة والشكر من أسباب استجلاب الرزق وزيادته ، وهي أيضا مرتبطة بجملة « إليه ترجعون » التي بعدها ، لأنها معللة بما : إذ لما أمرهم بعبادة الله وشكره على ذلك برجعهم إلى الله تعالى ليحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم بها فليعبدوه ويشكروه لينالوا ثوابه • والشكر من شعب العبادة فعطفه عليها من قبيل عطف الخاص على العام اهتماما بشأن الشكر لأن المقام مقام حديث عن الرزق وابتغائه وتقديم العبادة لأنها الأصل ، والمشتعلة على جميع الشعب ، والمنطوية في كل حال •

(١٦) التحرير والتنوير ٢٠/٢٢٦ •

(١٧) النحل : ٩٦ •

(١٨) التحرير والتنوير : ٢٠/٢٢٦ •

وتقديم الجار والمجرور « اليه » على الفعل « ترجعون » لافتادة التخصيص ، أى اليه ترجعون لا الى غيره • فيجازيكم على ما قدمتموه فافعلوا ما أمرتكم به • وبذلك أدمج تعليل العبادة باثبات البعث (١٩) والفصل بين الجملة وما قبلها للاستئناف البياني فى تعليل لما قبلها، وجواب عن سؤال متضمن فيها •

وقد اشتملت الآية التى حللناها على ابطال مذهب القوم فى عبادة الأوثان بأبلغ الرجحان ، وذلك لأن المعبرد انما يعبد لأحد أمور : اـ لكونه مستحقا للعبادة بذاته ، واما لكونه نافعا فى الحال ، واما لكونه نافعا فى المستقبل ، واما للخوف منه • فقوله . « انما تعبدون من دون الله اوثانا » اشارة الى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها اوثانا لا شرف لها • وقوله « ان الذين تعبدون من دون الله » الخ الآية ، اشارة الى عدم نفعا فى الحال وفى المآل وأنه لا خوف منه (٢٠) •

وبالنظر فى الآيتين السابقتين نرى أن ابراهيم عليه السلام دعا قومه دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، وعرضها عرضا دقيقا مرتبا ، فبدأ ببيان حقيقة الدعوة التى يدعونهم اليها « اعبدوا الله واتقوه » وثنى بتدبيب هذه الحقيقة اليهم وما تتضمنه من الخير لهم لو كانوا يعمون أين يكون الخير « ذلكم خير آدم ان كنتم تعلمين » • فى الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه : اولها : أنهم يعبدون من دون الله اوثانا • وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستقدون الى برهان أو دليل وانما يخلقون افكا وينشئون باطلا • وثالثها : أن هذه الأصنام لا تقدم لهم نفعاً ولا ترزقهم شيئا •

(١٩) ينظر التحرير والتنوير : ٢٠ / ٢٢٦ •

(٢٠) ينظر الرازى : ٦ / ٤٧٧ •

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق ، وهو الأهر الذي يهتمهم ويمس حاجتهم • وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ليعبدوه ويشكروه • وأخيرا يكشف لهم أنه لا مفر من الله تعالى ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين (٢١) •

ولما دعاهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأوثان الباطلة بين لهم عقبة اعراضهم وتكذيبهم « وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما عني الرسول الا البلاغ المبين » •

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله تعالى « فما كان جواب قومه » محتملة أن تكون من جملة ما حكى من قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، وأن تكون آيات في شأن رسول الله ﷺ ومشركي قريش وقعت معترضة بين أول قصة إبراهيم وأخوها ، ووجه توسطها بين طرفي قصة إبراهيم واتصالها بها وقعت معترضة فيه : ان ايراد قصة إبراهيم للتفنيس عن رسول الله ﷺ وتسليته والتفريج عنه بأن أباد إبراهيم خليل الله منى بمثل ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان وتكذيبهم له فالحال ان متشابها ، فاعترض بقوله « وان تكذبوا ... » على معنى أنكم يا معشر قريش وان تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه ، وكل أمة كذبت نبيها (٢٢) •

ويرى بعض المفسرين أن آية « وان تكذبوا ... » من حكاية قول إبراهيم عليه السلام لقومه ، وأن آية « أو لم يروا كيف يبدى الله

(٢١) في ظلال القرآن : ٢٧٢٨/٥ •

(٢٢) الكشاف : ٣/٣٠١ •

الخلق .. » وما بعدها كلام مستأنف من الله تعالى للافتكار على تكذيب
قوله بالبعث مع وضوح دليله وسفوح سبيله (٢٣) •

ونديل الى الراى الثانى لأن آية « وان تكذبوا ... » مبدوءه
بالخطاب عند جميع القراء ، وهذا ما يرجح كونها من حكاية كلام
ابراهيم حيث ورد جزء منه بطريق الخطاب في الآيتين السابقتين •
أما آية « أو لم يروا ... » فالكلام وارد فيه بطريق الغيبة وهو
ما يرجح كونه كلاما مستأنفا فيه افكار على قوم ابراهيم ولا مانع من
سحبه على مشركى قريش وغيرهم ممن كفروا بالله وأنكروا البعث •

وعلى هذا الراى تكون الآيات متصلة اتصالا ظاهرا وسياق
القصة متوال ولا اعتراض بين طرفيها ، وهذا أولى من تكلف البحث
عن وجه لتوسط الاعتراض بين طرفى القصة •

ونعود الى التأمل في نظم الآية ، وعلى الراى الذى رجحناه
تكون جملة « وان تكذبوا » معطوفة على مقدر يقتضيه المقام ، والتقدير
فان تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين ، أو نحو ذلك • وفي طى
هذا اشعار بأن تصديقهم أمر ليس في الحسبان ، هم معروفون سلفا
بأنهم سيكذبونه ، مع ما في ذلك من الایجاز •

وحذف مفعول « نكذبوا » لم يقيد تكذيبهم بما كذبوا به ، وأصل
الكلام : وان تكذبونى فيما أخبرتكم به • وفي حذف المفعول والتقيد
إشارة الى تعميم تكذيبهم له ولغيره ، وشموله لكل الحقائق • ويمكن
أن يكون الفعل منزلا منزلة اللزم ، لوصفهم بمطلق التكذيب للحققت
الایمانية •

وجواب الشرط محذوف وقوله « فقد كذب أمم من قبلكم » تعويل
للجواب ، والتقدير : وان تكذبونى فلا تضروننى بتكذيبكم ، فان من

قبلكم من الأمم كذبوا رسلهم • فإم يضرهم تكذيبهم شيئاً • وإنما صر
أنفسهم حيث تدبب إنا حل بهم العذاب فكذا تكذيبكم (٢٤) • وفي
حذف الجواب تشويق إلى معرفته وبعث للعقل على التفكر فيه •

وأند انتعنين بقدر لتحقيق مضمونه • وحذف مفعول « حذب »
وقيده والتقدير : فقد كذب آدم من قبلكم رسلهم فيما أخبروهم به •
وسر الحذف مشابه إنا ذكرناه آنفاً في « تكذبوا » ، وفي الحذف في
الموضعين تناسب وتلاؤم في التعبير ، وتسوية بين ما فعله إبراهيم
وما فعلته الأمم التي قبلهم برسلهم ، وتذكير أمم مفيد للتذكير •

وختمت الآية ببيان وظيفة الرسول في قومه تأكيداً لما ذكر من
أن تكذيبهم لا يضره شيء « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » •
والمراد بالرسول على الرأي الذي رجحناه إبراهيم عليه السلام • وعلى
هذا ففي الجملة اظهر في موضع اضمار وهو يفيد وصفه بالرسالة •
وهذا يقتضي تصديقه فيما أخبر به • كما يبين وظيفة الرسول على
العموم ، فليس عليهم إلا البلاغ • ووصف البلاغ بالمبين لبيان أن
المطلوب منهم هو التبليغ الواضح الذي لا تخفى معه حقيقة من حقائق
الايمان •

وفي الجملة قصر للخبر على المبتدأ • وهو قصر صفة على موصوف
قصرأ اضافياً • ويفيد قصر وظيفة الرسول على التبليغ الواضح الذي
لا يبقى معه شك • وما عليه أن يصدقه قومه ألبتة • ويفهم من هذا
أنه خرج من عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه • فلا ضرر عليه من تكذيبهم
له بعد ذلك (٢٥) •

• (٢٤) أبو السعود : ٣٤/٧

• (٢٥) أبو السعود : ٣٤/٧

وبعد بيان تكذيبهم بالحقائق الايمانية عامة يأتي الإنكار على تكذيبهم بالبعث المشار اليه بقوله « اليه ترجعون » وهو من أعظم الحقائق الايمانية وأصل من أصول الدين « أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » • وهذا كلام مستنذف مسوق من جهة تعالى للإذكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله (٢٦) • وقرئ بصيغة الخطاب « أولم تروا » وفي ذلك تشديد للإنكار عن طريق مواجهتهم به •

والاستفهام لانكار عدم رؤيتهم كيف يبدئ الله الخلق ، وتقريرهم بهذه الرؤية ، أى قد رأوا ذلك ، حيث يشاهدون ولادة المخلوقين ، وظهور النباتات والثمار • والواو للعطف على مقدر أى أنهم ينفذوا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى انجلاء والظهور كيف يبدئ الله الخلق • و « كيف » اسم استفهام وهى معلقة فعل « يروا » عن العمل فى معونه أو معمول به • والمعنى : ألم يتأملوا فى هذا السؤال ، أى فى الجواب عنه • والاستفهام بكيف مستعمل فى التنبيه ولفت الأنظار فى طلب الاخبار (٢٧) •

وبصيغة المضارع « يبدئ » لتصوير بدء الخلق حال دونه ماثلا وواقعا أمامهم ، فهو متجدد فى كل وقت • وفى الجملة تخريج على خلاف الظاهر والظاهر أن يقال : كيف أبدأ الخلق ثم أعيده ، وظاهر اسم الانجلاء فيه تدليل لما تضمنته الجملة ، وظاهر لفظة المطلق ، وتربية لمنهابة والخشية • والخلق : مصدر خالق ، وهو بمعنى مفعول أى المخلوق ، وفى التعبير به إشارة الى الحقيقة نفسها على سبيل العموم •

وجملة « ثم يعيده » معطوفة على جملة قوله « أولم يروا »

(٢٦) السابق •

(٢٧) التحرير والتنوير : ٢٢٩/٢٠ •

لا على « ييدى » لعدم وقوع الرؤية على الاعادة ، فهي اخبار بآفة
تمالى يعيد الخلق قيسا على الابداء • ونحوه قولك : ما زلت أوشر
فلانا وأستخلفه على من أخافه ، فقولك : وأستخلفه معطوف على جملة
قولك : ما زلت أوشر فلانا (٢٧) •

و « ثم » للتراخي الرتبى ، لأن أمر اعادة الخلق أهم وأرفع
رتبة من بدئه لأنه غير مشاهد ، ولأنهم يذكرونه لا ينكرون بدء
الخلق (٢٩) •

وقيل يجوز عطف « ثم يعيده » على « ييدى » بتأويل الاعادة
بانشائه تعالى كل مدة مثل ما أنشأه في السنة السابقة من النبات
والثمار وغيرهما (٣٠) • وهو كما ترى لا يحل مشكلة اعادة الخلق
في الانسان لدى المخاطبين لاختلافها عن اعادة الانشاء المذكورة •
وعلى هذا تكون جملة « ثم يعيده » داخلة في حيز انكار كسابقتها •
وتختتم الآية بتذييل مقرر لقدرة الله تعالى على الاعادة والبعث
« ان ذلك على الله يسير » • وتأكيد الجملة لتحقيق مضمونها •
و « ذلك » إشارة الى ما ذكر من اعادة الخلق ، أو البدء والاعادة
معا • وتذكيره على تأويله بما ذكر • والإشارة الى الاعادة بالإشارة
لمبدأ تقديم شأنها • وتقديم الجار والمجرور على الخبر « يسير »
يفيد التخصيص • وهذا كقوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده
وهو أهرن عليه » (٣١) • في اظهر اسم الجلالة في موضع الاضمار
اشعار بملة الحكم الذى تضمنته الجملة ، وتربية للمهابة والخشية ،
فالفاعل الله الذى لا يعجزه شيء ، والمالك لكل شيء •

(٢٨) الكشف : ٢٠٢/٣ •

(٢٩) التحرير والتنوير : ٢٢٨/٢ •

(٣٠) أبو السعود : ٨٥/٧ •

(٣١) الروم : ٢٧ •

٣٢٠ إلى القدير والنفير :

وبعد انكار عليهم عدم رؤية بدء الخلق ثم اعادته • أمروا بالسير في الأرض للأنام في احوال الأمم الماضية وتسميها • والنظر في قدرة الله تعالى على ايجاد المخلوقات وانها لها ايجاد غيرها ليدينوا بقدرة الله تعالى على اعادةها وبمعناها « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يبعث انفسا البشر ان الله على كل شيء قدير » •

وعلى الرأي الذي رجحناه يكون المأمور بـ « قل » هو ابراهيم عليه السلام ، وعلى الرأي القائل أن هذا القدر معترض بين طرفين • ابراهيم يكون المأمور بالقول هو رسولنا محمد ﷺ • وأما كان فأمر الرسول أن يقول لهم « سيروا • • » دون توجيه الأذن اليهم مباشرة ، لما أن الخصومة قائمة بينه وبينهم فهو في حاجة إلى تأييد من الله تعالى يظهر دعوته •

كما أن الأمر منه فيه مواجهة لهم بكل من الطول التي توجههم إلى الاستدلال على قدرة الله تعالى ، ليطرحه عليهم فيما يجري بينهم من مناقشات ، فيكون تأثيره فيهم أبلغ وأوقع •

رائد أمروا بالسير في الأرض لأن السير فيها يطلعهم على مشاهد مختلفة من آيات الله في الكون ، ويريه تاريخ الأمم حاضرها وغابرها ، وغير ذلك مما لم يعتادوا رؤيته في أوطانهم ، فينشط تفكيرهم إلى البحث في وجود الخلق وفنائه واعادته ، بسبب ما شاهدوه من مناظر لم يألفوها ، والتجديد يبعث على التفكير • فالسير في الأرض وسيلة جامعة للوقوف على دلائل قدرة الله تعالى (٣٢) •

ولما أمرهم بالسير في الأرض عتبه ببيان الغاية منه « فانظروا كيف بدأ الخلق » فغيته الظن في أسوال الخلق ، وكيف خلقهم الله تعالى ابتداء ، « الاعتبار بأحوالهم » وليس المراد منه اللغو والتعجب كما هو مقصد كثير من السائرين في عصرنا ، يعطى على جملة « سيروا في الأرض » قوله « ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » وهو داخل في حيز القول ، ثم للتراخي الرتبى ، وفيها إشارة الى أهمية النشأة الآخرة والتعبير عن الاعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بحون البدء نشأة أولى للتنبية على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة ونسبا من حيث أن كلا منهما اختراع وإخراج من العدم الى الوجود ، ولا فرق بينهما الا بالأولية والآخرة (٣٣) .

وأظهر الاسم الجليل في موضع الأسماء فيه مزيد اهتمام ببيان تحقيق النشأة الآخرة ، والأشعار بعلة الحكم واستقلال الجملة . وتقديمه على الخبر الفعلى يؤكد الحكم ويقويه . وذيل الآية بقوله « إن الله على كل شيء قدير » ، وهو تذييل يؤكد لقدرة الله تعالى على الاعادة ، وتعليل لها . وتأكيد التذييل للاهتمام بتحقيق مضمونه . وأظهر الاسم الجليل في موضع الأسماء مشعر بعلة الحكم ومغيب لاستقلال جملة التذييل . والتعبير بالفظ « شيء » مسبقا بلفظ العموم « كل » فيه بيان لشمول قدرة الله تعالى وعمومها فهو سبحانه قادر على الاعادة وغيرها من الأمور . وتقديم الجار والمجرور على الخبر « قدير » للاهتمام ببيان محل القدرة وأظهر عمومها وشمولها .

وهذه الآية والتي قبلها تتحدثان عن بدء الخلق واعادته ، وقد اختلف ظمهما تبعاً لوضع كل منهما وغايتها ، وللرازي وقفة متأنية أمام الآيتين قارن فيها بين نظميهما من جهات هي (٣٤) :

(٣٣) أبو السعود : ٣٥/٧ .

(٣٤) الرازي : ٤٧٨/٦ ، ٤٧٩ .

١ — أن الآية الأولى اشارة الى العلم الحدسى ، وهو الحاصل من غير طلب فقيل « أولم يروا » على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقيل في هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكرى . وهذا لأن الانسان له مراتب في الادراك ، بعضهم يدرك شيئا من غير تعليم واقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم الا بآبنة ، وبعضهم لا يفهمه أصلا .

٢ — جاءت الآية الأولى بنفط الرؤية وهذه بلفظ النظر ، وذلك لأن العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين ، والرؤية أتم من النظر ، لأن النظر يفضى الى الرؤية يقال : نظرت فرأيت ، والمفضى الى الشيء دون ذلك الشيء .

٣ — جاءت الآية الأولى بصيغة الاستفهام والثانية بصيغة الأمر لأن العلم الحدسى ان حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وان لم يحصله فلا يحصل الا بالطلب وبالطلب يصير الحاصل فكثيرا فيكون الأمر به تكليف مالا يطاق ، وأما العلم الفكرى فهو مقدور غورده الأمر به .

٤ — أبرز اسم الله تعالى في الآية الأولى عند البدء حيث قيل « كيف يبدىء الله » وأضمر عند الاعادة . وفي هذه الآية أضمر عند انبدء وأبرز عند الاعادة فقيل « ثم الله ينشئ الانشاء الآخرد » . لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقيل « كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » كما يقول القائل : ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ، ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد الانشاء بالأول . وفي الآية الثانية كان ذكر انبدء مسندا الى الله تعالى عما ذكرى به ولم يبرزه كقول القائل : أما علمت خرج زيد . اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد : وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قيل « ثم الله ينشئ » فالحكمة بالغة هي أن مع اقامة البرهان على امكان

الاعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كماله وذوات جلالة
يقطع بجواز الاعادة •

٥ - جاءت الآية الأولى بلفظ المستقبل « كيف يبدى » وهذا
الآية بلفظ الماضى « كيف بدأ » وذلك لأن الدليل الأول هو الدليل
النفسى الموجب للعلم الحدسى • وهو فى كل حال يوجب العلم ببدا
انخلق فقيلا : ان كان ليس لكم علم بأن الله تعالى فى كل حال يبدأ
خلقا فانظروا الى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقا
يحصل المطلوب من هذا القدر ، فانه ينشئ كما بدأ •

٦ - ختمت الآية الأولى بقوله « ان ذلك على الله يسير » وختمت
هذه الآية بقوله « ان الله على كل شىء قدير » وفى ذلك غائتان :
أحدهما : أن الدليل الأول هو الدليل النفسى • وهو وان كان موجب
العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم
العام ، فقال عند تمام ذكر الدليلين « ان الله على كل شىء قدير » وقال
عند ذكر الدليل الواحد « ان ذلك على الله يسير » •

وثانيهما : أن العلم الأول أتم وأن الثانى أعم ، وكون الأمر يسيرا
على الفاعل أتم من كونه مقدورا له ، بدليل أن القائل يقول فى حق من
يحمل مئة من ، انه قادر عليه ، ولا يقول انه سهل عليه ، فاذا سئل
عن حمله عشرة أمان يقول : ان ذلك عليه سهل يسير •

وكلام الرازى وان كان مشروبا بالفكر الفلسفى الا أنه يطالعنا على
أسرار دقيقة لما يبين نخم الآيتين من غروق •

ولما ذكرت النشأة الآخرة عقبته بذكر ما يتبعها ويترتب عليها
وهو تعذيب المكذبين واثابة المحققين « يعذب من يشاء ويرحم من
يشاء واليه تقلبون » وبين « يعذب » و « يرحم » دباق بديع فيه إبراز
للمعنى وتقوية له ، وتجميل للأسلوب • وتقديم التعذيب على الرحمة
(١٢ - خصائص النظم)

لما أن المقام مقام ترهيب إذ الحديث مع المكذبين المستحقين للعذاب .
والتعبير بـ « من يشاء » دون يعذب الكافر ويرحم المؤمن أو نحو
ذلك لأن التعبير بالشيئة فيه مزيد من التخويف ، والرجاء ، وإثبات
لنفذ مشيئة الله تعالى فإذا أراد تعذيب شخص أو رحمته فلا يمنعه
من ذلك مانع . وفيه أيضا تعميم الخوف والرجاء ، لأن الأمن الكلى
من الله يوجب الجراءة فيغضى الى صيرورة المطيع عاصيا (٣٥) .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه « تعلقبون » لتأكيد الحكم
وتقويته ، والجملة تقرير للاعادة التي بينتها الآية السابقة حيث أكدت
أن الرجوع في النهاية الى الله سبحانه وتعالى . وفيها تلويح بارتعاب
والعذاب الذي أعده الله لهؤلاء المكذبين . كما أنها تمهيد وتوطئة
لكاية التي بعدها وهي قوله تعالى « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا
في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .

والمعجز حقيقته : هو الذي يجعل غيره عاجزا عن فعل ما ، وهو
هذا مجاز في الغلبة والانفلات من المكة . فالمعنى : وما أنتم بمفعلتين
من العذاب . ومفعول « معجزين » محذوف للعلم به ، أى بمعجزين
الله تعالى (٣٦) والتعبير باسم الفاعل معجزين دون الفعل لأن نفى
الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال : ان فلانا لا يخطط
لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (٣٧) . وبذلك أفاد اسم
الفاعل نفى صلاحيتهم للعجاز والفوت .

وفي نفى كونهم معجزين لله تعالى في السماء بعد نفيه في الأرض
مع أن هروبهم في السماء غير محتمل البتة ، احتراسا فيه فطع لأطماعهم

(٣٥) الرازى ٤٨٠/٦ .

(٣٦) التحرير والتنوير ٢٣٢/٢٠ .

(٣٧) الرازى ٤٨٠/٦ .

في الفوت من عذاب الله تعالى في أى مكان كان • وتقديم الأرض على السماء لأن فوتهم مع استحالته أو فرض امكانه فيكون في الأرض أولا لأنهم عليها ومتمكنون منها • ونكرار اللفظ مع اللفظ دون عطفها على الأرض للتخصيص على نفى الفوت فيها على سبيل الاستقلال •

ولما بين لهم أنهم بانفسهم لا يمكنهم الا نفلات من عذاب الله تعالى أتبعه ببيان عدم استطاعتهم بمساعدة غيرهم حيث لا يجدون من يعينهم « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ، والولى من يتولى الأمر ، وولى أمر فلان أى قمت به ، وهو فعيل بمعنى فاعل على سبيل المبالغة ، والنصير هو الناصر والمعين ، ونصيره أى ناصره ، وهو أيضا فعيل بمعنى فاعل على سبيل المبالغة (٣٨) • والفرق بينهما : أن تولى بمعنى الوالى والمسالك ، والنصير المعين ، والمالك قد لا يقدر على النصرة أو قد يقدر ولا يفعل ، والمعين قد يكون مالكا وقد لا يكون بن أجنبيا عنهم ، فهذهما عموم وخصوص وجهي (٣٩) • وقد اتفاد نفيةما معا عدم وجود من يشفع لهم بالقول أو ينصرهم بالفضل • وتقديم الولي على النصير لكثرة وجوده في واقع اناس خلافا للنصير • وتذكيرهما في سياق اللفظ مفيد للعموم ، وادخال « من » عليهما للتخصيص على العموم ، فان الكلام قبل دخولها يحتسب نفى الجنس ونفى الوحدة فاذا دخلت « من » على النكرة المنقبة في الجنس (٤٠) • وفي الجملة قصر بطريق النفي والاستثناء • مستناد من قوله « من دون الله » لأنه بمعنى سوى الله (٤١)

(٣٨) ينظر لسان العرب في مادتي : نصر وولى •

(٣٩) حاشية الشهاب : ٢٢١/٢ •

(٤٠) معنى اللبيب : ٣٢٢/١ • ودراسات لاسلوب الف :

٤١٠/٣/١ •

(٤١) حاشية الشهاب : ٢١٢/٢ •

اسم الجلالة في موضع الاضمار لتربية المخاطبة ، والاشعار بعنة الحكم الذي تضمنته الجملة •

وبعد بيان عدم فوتهم من الله تعالى أتبعه ببيان استبعادهم من رحمته ، ودخولهم في العذاب الأليم « والذين كفروا بآيات الله ولقائه » و« أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم » • وفي الأسلوب التفاضل من الخطاب في « أنتم » و « لكم » في الآية السابقة الى الغيبة في هذه الآية ، حيث عبر عنهم بـ « الذين كفروا » وفي الانفصالات تمييز للحكم باجرائه على كل الكافرين مثلهم دون المخاطبين وحدهم ، وبيان لسبب ما لهم المهيئ بالاعلان عن جريمتهم النكراء ، وهي كفرهم بآيات الله تعالى ولقائه • وفي تعريفهم بالموصول ايماء الى وجه بناء الخبر وأنه مما يسيئهم ويؤلمهم ، جزاء ما وصفوا به في الصلة •

واظهار اسم الجلالة في موضع الاضمار مع اضافة الآيات اليه للاشعار بعظمة الآيات ، وشناعة الكفر بها • وعطف اللقاء عليها لبيان جريمة أخرى لهم حيث لم يقتصر جرمهم على الكفر بآيات الله الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ، وإنما ضموا الى ذلك كفرهم بالبعث والتعبير باللقاء دون البعث لما فيه من دلالة على البعث والمقصود منه وهو لقاء الله تعالى للحساب والجزاء • واسم الإشارة « أولئك » وشعر بترتيب ما بعده على قبالة ، فالكفر سبب في يأسهم من رحمة الله ونيل عذابه الأليم ، مع ما فيه من تمييزهم أكمل تمييز ، وتحقيقهم بإشارة البعيد •

والإيأس : قطع الرجاء (٤٢) • و « يئسوا من رحمتي » أي ييأسون منها يوم القيامة ، فيكون عيدا لهم • وصيغة الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع • أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن انما يكون راجيا

خشياً ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف • أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة (٤٣) ، فيكون على سبيل الاستمارة • وفي التعبير باليأس إشارة الى أنهم يتمنون الرحمة يوم القيامة ولكنهم يصابون باليأس لعدم استحقاقهم لها •

وفي التعبير التقفات من النغية في الاسم الظاهر « الله » الى التكلم في « رحمتي » والتعبير بضمير التكلم مع افراده ، يشعر بملكية هذه الرحمة لله وحده ، فهو يمنحها من يشاء ويمنعها عن يشاء •

ثم ذكر ما يترتب على يأسهم من رحمة الله تعالى « وأولئك لهم عذاب أليم » وفي تكرير اسم الإشارة ، وتكرير الاسناد ، وتكرير العذاب ، ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم ما لا يخفى (٤٤) • وتقديم الجار والمجرور « لهم » للاحتمام ببيان كون العذاب لهم • وجاء خبر الإشارة في الجملة السابقة جملة فعليه لما أن الرحمة قد يئسوا منها بعد تمنيههم لها ، وجاء الخبر هنا جملة اسمية لأن العذاب ليس أمنية لهم بل هو معدلهم وثابت في حقهم •

جواب القوم :

ويعد بيان مصير المكذبين وتقرير أنهم لا يفلتون من عذاب الله الأليم ، عاد الكلام الى حكاية جواب القوم لابراهيم عليه السلام عن دعوته لهم الى عبادة الله وتقواه « فما كان جواب قومهم الا أن قتلوا اقتلوه أو حرقوه فأجابه الله من النذر ان في ذلك آيات لقوم يؤمنون » • وفي القصة ايجاز بطى ما جرى بينه وبينهم في شأن أصنامهم وعزمه على تكسيها وتنفيذ ذلك ، وإيهامهم له وغير ذلك مما فصل في حلقات أخرى •

(٤٣) الكشف : ٢٠٣/٣ •

(٤٤) أبو السعود : ١٣٦/٧ •

وحكى جواب القوم بطريق القصر للدلالة على أن هذا هو الذى استقر عليه جوابهم أخيرا بعد اللتيا والتي ، ونيس المراد بالقصر أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقتلة ، فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى • (٤٥) •
والقائلون طائفة من القوم لعلمهم أصحاب الرأى فيهم ، وأسناد القول الى جميع انقوم دلالة على اتفاق كلمتهم على الانتقام منه ، ورغبة جميعهم في ذلك •

وتبين الآية أنهم أشاروا بقتله أو تحريقه ، واستقر أمرهم في النهاية على تحريقه بالنار ، وقد دل على ذلك قوله تعالى « فأنجاه الله من النار » بجانب ما فصل في حلقات أخرى • وإنشديد في « حرقوه » يشير الى شدة غيظهم منه وحرصهم على الانتقام منه أشد انتقام بتحريقه في نار هائلة شديدة ، وتسمية قولهم « اقتلوه أو حرقوه » جوابا مع أنه ليس بجواب لأمرين : أحدهما : أنه خرج مخرج كلام المتكبر ، كما يقول الملك لرسول خصمه : جوابكم بالسيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه : أقابله بالسيف ، فكذلك قالوا لا تجيبوه عن براهينه واقتلوه أو حرقوه • والثانى : أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فثبت أنهم لم يكن لهم جواب أصلا ، وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (٤٦) •

وتطوى الآية مشهود القائه في النار لتسارع ببيان نجاته منها « فأنجاه الله من النار » وكأن النجاة من النار كانت أسرع من القائه فيها نظرا

(٤٥) أبو السعود : ٣٦/٧ •

(٤٦) الرازى : ٤٨١/٦ •

لأن النار لم تملسه بسوء • والفاء فصيحة ، أى نالقره فى النار فأدجاء
الله تعالى منها بأن جعلها بردا وسلاما عليه •

ورخم الآية بقوله تعالى « ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون »
وتأكيد لجمة بان وانلام لحاجة المقام الى مزيد من التأكيد نظرا لكون
نجاته من النار بعد القائه فيها أمرا عجيبا وفعلا خارجا عن العادة •
واسم الإشارة « ذلك » مفيد لتعظيم تكرار المشار اليه • وتقديم
الخبر « فى ذلك » على اسم ان فيه اهتمام ببيان موطن الآيات ومحلها
وهو النجاة ، وانما كان فى ذلك آيات لا آية واحدة لاحتوائه على
دلائل قدرة الله تعالى ، وتضمنه نصر رسوله ، وإظهار صدقه ، وخذلان
عدوه ، وغير ذلك من العبر •

وتشديد الآيات بكونها لقوم يؤمنون لما أنهم المنتفعون بها •
والمتبرون بما فيها ، وتكثير « قوم » لتعظيم • والفعل المضارع
« يؤمنون » فيه تصريح لحالهم ، وبيان لاستمرارهم على الإيمان •
ووصفوا بالإيمان دون غيره من الصفات لأن الإيمان تصديق ، وباعت
على التصديق بآيات الله تعالى ، فمن أكثر ملاءمة للاعتبار بهذه المعجزة ،
وفى قوله « لقوم يؤمنون » تعريض بقوم ابراهيم الذين لم ينتفعوا بها
فى هذه الآيات ، من عبر وعظمت لأنهم غير مؤمنين •

ابراهيم يواصل الدعوة :

ولم يؤثر انتقامهم من ابراهيم شيئا فيه ، ولم يصرفه عن غايته ،
فبعد أن نجاه الله من النار عاود الكرة بدعوتهم الى عبادة الله تعالى
وابطال عبادة الأصنام ، وبيان مآلهم المهين بسببها ، لعلمهم يشوبون الى
رشدكم بعد ما رأوا من الآيات فى نجاته من النار « وقال انما اتخذكم
من دون الله آلهة أنى مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر
بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين » •

والمودة : المحبة ، وهى على قراءة النصب مفعول لأجله ، والمعنى
انما اتخذتم من دون الله أوثانا لتتواذوا بينكم وتتراصوا لاجتماعكم على
عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم ، كما يتفق الناس على هذهب فيكون
ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول
له فى الخارج ، أو المعنى : أن مودة بعضكم بعضا هى التى دعيتكم الى
اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودونه اتخاذها ، فاتخذتموها موافقة له
لمودتكم اياه ، وهذا كما يرى الانسان من يرده يفعل شيئا فينعله مودة
له ، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولا له فى
الخارج (٤٧) •

ومحط القصر بـ « انما » هو المفعول لأجله ، أى . ما اتخذتم
أوثانا الا لأجل مودة بعضكم بعضا (٤٨) • والمراد نفى أن يكون غيها
أثارة من نفع أو ضرر تلجئهم الى عبادتها ، وانما الداعى الى بقائهم على
عبادتها هو مودة بعضهم بعضا • وجاء القصر بانما مع كونهم ينكرون
ذلك تنزيلا له منزلة الأمر المعلوم الذى لا ينكر ، دلالة على أنه من
التشيعور والشهرة بحيث لا محل لانكاره •

وفعل « اتخذتم » مراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد
وضوح بطلان استحقاقها لعبادة (٤٩) • ومفعوله اثنانى محذوف تقديره
آلهة ، ويجوز أن يكون « مودة » هو المفعول بتقدير مضاف أى سبب
مودة ، أو بتأويله بمودودة ، أو بجعلها نفس المودة مبلغة (٥٠) •
وقوله « من دون الله » قيد فيه تذكير لهم بالاله المعبود بحق ،
والذى من الواجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له • وتقييد المودة

(٤٧) الآلوسى : ١٥٠/٢٠٧/١٠ •

(٤٨) التحرير والتنوير : ٢٣٤/٢٠ •

(٤٩) السابق •

(٥٠) الكشف : ٢٠٣/٣ •

بقوله « في الحياة الدنيا » اشارة الى زوالها وانتهائها بنهاية حياتهم الدنيا ، ولن يبقى لها اثر في الحياة الآخرة ، حيث يلحقهم الندم والخزي ، وتبديل المودة الى تقاطع وتلاعن ، وقد بين ذلك بقوله « ثم يوم القيامة يكثر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » وبين هذه الجملة وسبققتها تقابل معنوى باعتبار أن الأوثان في الحياة الدنيا سبب المودة ، وفي الحياة الآخرة سبب المقاطعة والمخاصمة .

والتعبير بـ « يوم القيمة » دون الحياة الآخرة لما فيه من تخويف وإشارة الى البعث والقيام للحساب ، وتقديمه على متعلقة للاهتمام ببيان الوقت المحدد لتتأكرهم وتلاعنهم ، بجانب ما في ذلك من تشويق الى المؤخر .

وفي لفظ « ينقر » دلالة على شدة انحدار والنفار فالمخاضون يكفرون بأصنامهم ، ويجحدون عبادتها ، ويفكرون معرفتهم بها . وفي « يلعن » دلالة قوية على شدة الخصومة بين الفريقين : العبد والمعبودين . ويجوز أن يكون ذلك بين العبد وحدهم حيث ينقسمون الى فريقين : ضالين ومضلين ، ويشهد التناكر والتلاعن بينهما ، على حد ما جاء في قوله تعالى « اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » (٥١) وهذا هو الأظهر . وصيغة المضارع في الفعلين تصور حالهم وتسير الى استمرار التناكر والتلاعن وتجده بينهم .

وبعد بيان الخزي الذى يلحقهم من جهة أنفسهم أتبعه بذكر ما يلحقهم من خزي العذاب الشديد « ومأواكم النار » وفي جعل النار مأوى لهم تهكم لاذع بهم وسخرية منهم اذ المعتاد أن يأوى الانسان الى مكان يحتمى فيه ويستريح ، أما هم فمأواهم النار يحرقون بلظاها ،

ويشويهم لهيبها • وفي الجملة قصر ، أى : مأواكم النار لا غيرها ، وفيه تأكيد لعدم خروجهم من النار اذ لا مأوى لهم غيرها ، والانسان لا يبقى بدون مأوى • وفي جعل النار مأواهم تناسب بديع بين ما فعلوه بابراهيم وما يفعل بهم يوم القيامة ، فقد ألقوه فى النار وجعلوها مأوى له واكن الله تعالى نجاه منها ، وها هم يكبون فى النار لتكون مأواهم ، وحسبهم نار السعير مأوى ، ولكن لن يجدوا من ينقذهم منها •

وقد جاءت الجملة التالية مبينة ذلك « ومالككم من ناصرين » يخلصونكم من النار كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها ، وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع ، أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا (٥٢) • وتذكير « ناصرين » مع ايقاعها فى سياق النفس مفيد للعموم ، وادخال « من » عليها للتخصيص على العموم •

ومجىء هاتين الجملتين اسميتين مفيد لثبوت هذا الجزاء لهم ، وتقرره فى حقهم واستمرارهم فيه ، أما التناكر والتلاعن فهو أمر متجدد بينهم ، ومن ثم عبر فيه بالمضارع كما بينا آنفا •

الهجرة :

وجد ابراهيم أن القوم مصرون على كبرهم وعنادهم ، وأن الدعوة لن تثمر بينهم ، فقرر الهجرة الى حيث يتمكن من عبادة ربه « فأمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى أنه هو العزيز الحكيم » • وجملة « فأمن له لوط » معترضة بين الاخبار عن ابراهيم اعتراض التفريع (٥٣) • وفائدة الاعتراض بيان من آمن به بعد طول دعوته وشدة ما ناله من اذى ، وكان رجلا واحدا هو لوط ابن أخيه • وفى

(٥٢) ينظر أبو السعود : ٣٧/٧ •

(٥٣) التحرير والتنوير : ٢٣٦/٢٠ •

هذا اشارة الى أن هجرته كانت ضرورة نظرا لعدم وجود مناخ صالح
للدعوة بين قومه •

وتأكيد الجملة بان لتحقيق مضمونها نظرا لأن هجرة الانسان من
قومه ووطنه تعد أمرا صعبا على النفس ، واتخاذ قرار بذلك يحتاج الى
تأكيد وحسم • وإيثار « مهاجر » على أهاجر لما فيه من دلالة على
ثبوت هجرته وتصميمه على تحقيقتها •

وحرف « الى » في قوله « الى ربى » للانتفاء المجازى ، اذ
جعل هجرته الى الأرض التى أمره الله بأن يهاجر اليها كأنها هجرة
الى ذات الله تعالى فتكون « الى » تضييلا لاستعارة مكثية • أو جعل
هجرته من المكان الذى لا يعبد أهله الله لطالب مكان ليس فيه مشركون
بأنه كأنه هجره الى الله ، فتكون « الى » على هذا الوجه مستعارة لمعنى
لام التعليل استعارة تبعية (٥٤) • وعلى كل فالتعبير يصور اقباله على
الله تعالى بكنيته ، وهو شغله الشاغل حتى أنه تارك وطنه وقومه لذلك •
وفى إيثار لفظ « ربى » مضافا الى ضميره اشعار بأذنه ناصره ومؤازره
ولن يتركه وحيدا فهو مربيه ومالك أمره ومتوليّه •

وتذييل الآية بقوله « انه هو العزيز الحكيم » وهو تذييل تعليل
لضمون قوله « انى مهاجر الى ربى » لأن من كان عزيزا حكيما يعتر به
من هاجر اليه وأقبل عليه • وقد تضمن التذييل جملة من الخصائص
المؤكدة لمضمونه وهى التأكيد بان ، وضمير الفصل ، وتعريف المسند
بائلام وهما يفيدان القصر فصار المعنى : انه هو العزيز الحكيم
لا غيره • واتباع وصف « العزيز » بـ « الحكيم » للدلالة على أنه
لا يفلى فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة ، فعزته محكمة وواقعه موعها •

الخاتمة :

وتختتم الحلقة ببيان النعم التي أسبغها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بعد هجرته « ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين » . وفي ذكر هذه النعم اثر عزمه على الهجرة وربطها بها اشارة الى أنها كانت مكافأة له من الله تعالى على جهاده في الدعوة الى الله وهجرته في سبيلها .

وقد تضمنت الآية أربع نعم عظيمة :
الأولى : هبة الوند وهو ما طال شوقه اليه « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » وتتقدم شرح ذلك في حلقة الأنبياء .

والثانية : « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » واللام في الكتاب للجنس فيقتابل الكتب الأربعة : التوراة والانجيل والزيبور والقرآن ، فهي كلها كتب نزلت على أنبياء من ذرية ابراهيم عليهم السلام . وتقديم الجار والمجرور « في ذريته » للاهتمام ببيان محل النبوة والكتاب وهو ذريته .

والثالثة : « وآتيناه أجره في الدنيا » فقد أنعم الله تعالى عليه بنعم كثيرة في الدنيا منها نجاته من النار ، وتصرته على أعدائه ، وهبة الذرية ، واستمرار النبوة في ذريته وغير ذلك . والتعبير عن ذلك بالأجر وضافته الى ضميره — مع كونه فضلا من الله تعالى — للإشارة الى كونه قد استحق ذلك بما عمله من أعمال صالحة .

والرابعة : « وأنه في الآخرة لمن الصالحين » وبذلك جمع له فضل الدنيا والآخرة . وتأكيد الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها نظرا لكونه من أمور الآخرة المستقبلية . وتقديم الجار والمجرور « في الآخرة » للاهتمام ببيان كبر ذلك في الآخرة التي هي الدار الباقية . وجاءت

هذه الجملة اسمية خلافا للجمال السابقة لافادة ثبوت مضمونها وتحققه .
بينما النعم التي تحتوى عليها الجمال السابقة حدثت على فترات
زمنية فالتجدد فيها ظاهر •

وقد عبر في النعمة الأولى بالهبة للإشارة الى أن منحه الذرية
كان عطاء خلصا ليس له فيه اجتهاد • فهي نعمة جاءت خارجه عن
نطاق العادة ، وفي أحوال يستحيل فيها ذلك عدة • وعبر في الثانية
بأنجعل لما فيها من تحويل من بشرية عادية الى بشرية متصفة بالعبودية
وتبليغ الرسالات • وعبر في الثالثة بالايلاء ليتناسب مع الأجر ،
اذ يؤتى الأجر في مقابل العمل • وعبر في الرابعة بالجملة الاسمية
لإفادة تحقيق مضمونها وثبوته ، على الرغم من كونها في الآخرة •

وأشدت الأفعال الى نون العظمة ، وفي ذلك دلالة على أنها
عظيمة لا تصدر الا عن العظيم جل شأنه ، ولا يقدر عليها أحد سواه •
ورتبت النعم ترتيبا دقيقا ، حيث بدىء بالنعمة التي كان يتمناها
ويتوق اليها من زمن بعيد وهي نعمة الذرية ، وأتبع بما يتصل بها
ويكملها ، وهو جعل هذه الذرية من الأنبياء والمرسلين المبلغين عن الله
تعالى ، ففى ذرية من نوع خاص لها مكانتها ومنزلتها • وتلتها النعمة
التي تتصل به في الدنيا وهي ايتاؤه الأجر • وأعقبها النعمة التي تتعلق
به في الآخرة « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وبهذه النعمة الاخيرة
التي تشعر بالنهاية العظيمة ، تختتم الحلقة ليكون ذلك من حسن الختام
وجودة النهاية •

العقبة السادسة

إبراهيم عليه السلام وأنعموه

قال الله تعالى :

« ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » (١) •

بين يدي الآية :

تتناول هذه الآية الكريمة مشهداً من قصة إبراهيم عليه السلام، يحكي ما دار بينه وبين طاغية عصره « النمرود بن كنعان » • والمناسبة بينها وبين ما قبلها جليلة، فالآية التي قبلها تبين ولاية الله تعالى للمؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وولاية الطاغوت للكافرين وإخراجهم من النور إلى الظلمات • قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) •

وجاءت الآية التي نحن بصدد الحديث عنها شاهداً على ذلك . كأنه قيل : انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه ، فيظل على نور

(١) البقرة : ٢٥٨ •

(٢) البقرة : ٢٥٧ •

من ربه ، وطلبى الذى حاجه كيف كان بن لاية الطاغوت له يعمى عن نور النجاة ، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشبه والشكوك الى أخرى (٣) .
ويلى هذا الشاهد شاهدان آخران أولهما يتعلق بالرجل الذى مر على قرية خاوية على عروشها ، وثانيهما يتصل بابراهيم عليه السلام عندما طلب من الله عز وجل أن يريه هيئة أحيائه الموتى ، وبديء بهذا المشهود أولا لأنه أدلها وأجمعها ، لاشتغالها على ضلال الكافر وهدى المؤمن ، واستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به الكلام . وهو اجترأوه على المحاجة فى الله عز وجل ، وما أتى به فى أثنائها من العظمة المنادية بكمال حماقة (٤) وفساد عقلاه وتفكيره .

• البداية

يبدأ هذا المشهود بداية فيها لفت للعقول ، وتشويق للأسماع ، وحث على النظر فى هذا الأمر العجيب المتمثل فى محاجة نمرود فى الله تعالى وكفره به « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك » . ولم يعطف الكلام على سابقه ، لأنه دليل عليه وبيان له بشاهد عملى جرت أحداثه على أرض الواقع .

وهذه الاستفهام للتقرير بالرؤية لا للتقرير بعدمها ، ومن البلاغيين من يجعلها للانكار ، أى انكار عدم الرؤية ، والرؤية مثبتة على الوجهين ، وقد أشرنا الى ذلك مفصلا فى موضع آخر (٥) .

وقد جمع أبو السعود بين القولين فقال : وهمزة الاستفهام لانكار ادافى ، وتقرير المنفى ، أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك الى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لاضلال الناس ، وانفراجهم من النور الى

(٣) المنار : ٣/٣ .

(٤) أبي السعود : ٢٥١/١ .

(٥) ينظر ابراهيم والبعث « او لم تؤمن » .

الظلمات . أى : قد تحققت الرؤية وتقرر بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب (٦) .
وفي الاستفهام تعجيب من محاجة هذا الطاغية في الله عز وجل ، وكفره به ، وتجبره بقوته (٧) .

وقد شاع تركيب « ألم ترا الى ... » في القرآن الكريم ، وهذا التركيب اذا جاء فعل الرؤية فيه متعديا الى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه ، كان كلاما مقصودا منه التحريض على علم ما عدى اليه فعل الرؤية ، ومن ثم تكون همزة الاستفهام غير مستعملة في الاستفهام الحقيقي ، بل في معنى من معانيه التي يخرج اليها ، كما أسلفنا ، ويكون الخطاب به غالبا موجها الى غير معين فيشمل تن من يصح اه الخطاب (٨) .

وقد اشتهر هذا التركيب في ذلك حتى أجرى مجرى المش في هذا الباب ، بأن شبه حال من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ، وأنه ينبغي أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى ، قصدا الى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب (٩) .

والرؤية يمكن أن تكون علمية ، ضمنت معنى الوصول والانتها ، أى : ألم ينته علمك الى الذى حاج ... ، ويمكن أن تكون بصرية ، ضمنت معنى النظر ، أى : ألم تنظر الى الذى حاج ... ، وهن ثم عدت الرؤية يائى ، لتضمينها أحد المعنيين السابقين (١٠) .

(٦) أبو السعود : ١٥١/١ وينظر الفتوحات الالهية : ١٩٧/١ .

(٧) ينظر الكشف : ٣٨٧/١ ، وينظر الفتوحات الالهية : ٢١٠/١ .

(٨) ينظر التحرير والتنوير : ٤٧٦/٢ .

(٩) الالوسي : ١٦٠/٢/١ .

(١٠) ينظر السابق نفسه ، والتحرير والتنوير : ٧٦/٢ .

قال الراغب : ان الفعل مما يتعدى بنفسه لكن لما استعير ليعنى
 ألم تنظر ، عدى بالى ، وفائدة استفادته أن النظر قد يتعدى عن
 الرؤية ، فاذا أريد الحث على نظر ناتج لا محالة لها استعيرت نه ،
 وقلما استعمل ذلك في غير التقرير ، فلا يقال : رأيت الى كذا (١١) .

وتعريف الطاغية الاسم الموصول دون التصريح باسمه ، لما في
 اخفاء اسمه من تحقيره وإسماله ، ولأن اسمه لا يهم المخاطبين في نسيء
 لحصول الافادة والعبارة دون الحاجة الى معرفته ، وللتمكن من وصفه
 بجملة الصلة ، لكشف جريمته التي التصقت به ، وأصبح معروفا
 ومشهورا بها بين الناس على مر العصور .

والمحاجة : المغالبة بالحجة ، يقال : حاجبت فلانا نحججته أى
 غلبته بالحجة ، وذلك يكون عند الخصومة (١٢) . والأغلب أنها تفيد
 الخصام بباطل (١٣) .

واختلفوا في وقت هذه المحاجة ، ف قيل انها وقعت عند كسر
 الأصنام قبل الاقواء في النار ، وقيل وقعت بعد القائه في النار ونجاته
 منها (١٤) .

والضمير في « ربه » راجع الى ابراهيم عليه السلام ، وفي
 التعبير بلفظ الرب اشعار بأنه مؤيده ونصره في هذه المحاجة ، فهو ربه
 وممثل أمره ، وفي اضافته الى ضميره عليه السلام تشريف وتكريم له .
 وإشارة الى أنه الرب المعبود بحق جل شأنه ، لا من يتخذ هذا الطغية
 وقومه الها لهم بالباطل .

(١١) المفردات : ٢٠٩ .

(١٢) مقاييس اللغة : مادة « حج » ،

(١٣) التحرير والتنوير : ٣٢/٣ .

(١٤) الرازي : ٢١٧/٢ .

وبعد التعجب من حاجة هذا الطاغية ، ذكر سبب حاجته ،
 ودافع عنه اليها وهو « أن آتاه الله الملك » وجاءت هذه الجملة منفصلة
 عما قبلها للاستئناف البياني ، حيث أنها علة لما قبلها • وعليتها
 تفسر على وجهين : أما أن تكون علة محضة واردة على سبيل الحقيقة ،
 أى أن إيتاء الملك أورثه الكبر والبطر والفتور ، فحاج في ربه بسبب ذلك
 وأما أن تكون علة عائية واردة على سبيل التهكم من باب عكس الكلام ،
 أى أنه وضع الحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن
 آتاه الله الملك ، كما تقول : عذائي فلان لأنني أحسنت إليه ، تريد أنه
 عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الاحسان (١٥) •

قال ابن المنير : والوجهان قريبان من حيث المعنى ، إلا أن بينهما
 فرقاً في الصنعة وهو أنما استعمل المصدر في الأول مفعولاً لأجله ، وفي
 الثاني ظرفاً (١٦) •

ونفى بعضهم أن يكون المصدر مفعولاً لأجله ، لعدم اتحاد الفاعل
 وأنما الكلام على حذف اللام وهو مطرد في « أن » و « أن » أى لأن
 آتاه ، كما اعترضوا على الظرفية بأن الحاجة لم تقع وقت إيتاء الملك ،
 بل الإيتاء سابق عليهما ، وينص النحاة على أنه لا يقوم مقام الظرف
 الزماني إلا المصدر الصريح بلفظه ، كجئت خفوق النجم وصياح
 الديك (١٧) •

والتعبير بلفظ الجلالة دون لفظ الرب المتقدم ، وإظهاره صريحا ،
 لتربية المهابة والخشية ، والتذكير بالقدرة الماطقة للمؤتى جل شأنه ،
 مع ما في هذا المسلك من تلوين للأسلوب والنأي به عن وقوع التكرار

(١٥) ينظر الكشف : ٣٨٨/١ ، والتحرير والتنوير : ٣٢٦/٣ •

(١٦) الانصاف • بهامش الكشف : ٣٨٨/١ •

(١٧) ينظر الألويسي : ١٦٠/٣/٢ •

فيه وانلام في الملك للعهد ، أى الملك المعهود لدى المخاطبين عن طريق علمهم به •

ما دار في الحاجة :

وبعد هذه البداية المشوقة لما بعدها ، المستمعة على تعجيب منه ، وحث على معرفته ، تذكر الآية ما دار في هذه الحاجة العجيبة « اذ قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت » وفصل هذا عما قبله لكمال الاتصال فهو بيان وتوضيح لما دار في الحاجة • والبداية بقول ابراهيم عليه السلام ، دليل على أنه هو الذى بدأ بالدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له محتجا بهذه الحجة الواضحة التى يدركها كل عاقل (١٨) • وقيل ان ابراهيم عليه السلام قال ذلك اجابة عن سؤال عن نمرود له : من ربك الذى تدعو اليه (١٩) ؟ وبهذا يكون نمرود هو الذى بدأ بالحاجة •

ولا تعارض بين الرأيين ، فدعوة ابراهيم الى ربه سابقة ومستمرة لم تنقطع ، حيث دعا قومه مرارا ، وجادلهم في شأن أصنامهم ، وصار مشهورا بذلك ، وبناء على هذه السوابق أرسل اليه الطاغية ليجادله فيما يدعوا اليه ، فلما مثل بين يديه سألته من ربك الذى تدعو الناس اليه وتحثهم على عبادته (٢٠) •

وطرى هذا القدر من الحاجة لظهوره من جواب ابراهيم عليه السلام ، وفي ذلك ايجاز لا يخفى أثره في تقوية المشهد المعروض ، بالاقصرار على ذكر ما فيه عظة وعبرة ، وطى ما يفهم من السياق •

(١٨) التحرير والتنوير : ٣٣/٣ •

(١٩) ينظر الأخرى : ١٦/٣/٢ •

(٢٠) ينظر قصص القرآن : ٤٨ •

و « ربى » مبتدأ ، و « الذى » خبره ، و « يحيى ويميت » صلة الموصول ، وإيثار لفظ الرب لما فيه من الأشعار بتربيته والعناية به وتسيده ، وما يحققه من ترابط للنظم بمراعاة انتناسب بين (حاج ابراهيم فى ربه) و (تان ابراهيم ربى) والاضافة فيه للتشريف ، وتعريف الخبر لافادة التخصيص ، فهو الذى يحيى ويميت دون غيره وعبر بالذى الدال على المعهود المعروفة صنته دون « من » التى غيرها الاتهام ، وبالمضارع الدال على التجدد والاستمرار ، لاغادة ان هذا شأنه دائماً كما هو معهود معروف لمن نظر فى الأكوان نظر المفكر المستدل (٢١) .

وقدمت الحياة على الموت على خلاف ما فى كثير من الآيات ، لأن ابراهيم يدعو الى الله بالدليل ، والدليل يجب أن يكون فى غاية الوضوح ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر ، وإطلاع الانسان عليها أتم ، فلا جرم تقدمت الحياة فى الذكر (٢٢) .

وفى تقديم الاستدلال بخلق الحياة ادماج لاثبات البعث ، لأن الذى حاج ابراهيم كان من عبدة الأصنام ، وهم ينكرون البعث وذلك موضع العبرة من سياق الآية فى القرآن الكريم على مسامع أهل الشرك (٢٣) . والادماج لون من ألوان البديع عرفه ابن أبى الاصبغ بقوله : أن يدمج المتكلم غرضاً له فى ضمن معنى قد نحاه من جملة المعانى ، ليوهم انسامع أنه لم يقصده ، وإنما عرض فى كلامه لتتمة معناه الذى قصد اليه (٢٤) . وعرفه الخطيب بقوله : أن يضمن كلام سيق

(٢١) المنار : ٣٩/٣ .

(٢٢) الرازى : ٣١٨/٢ .

(٢٣) التحرير والتنوير : ٣٣/٣ .

(٢٤) بديع القرآن : ١٧٢ وينظر خزانة الأدب : ٥٩٤/٢ .

المعنى معنى آخر (٢٥) •

وحذف مفعولى « يحيى ويميت » تنزيلا للمتعدى مزالة اللزوم ،
لأثبت المعنى فى نفسه لله جل شأنه على الإطلاق من غير اعتبار تعلقه
بمن يقع عليه ، أى يوجد الحياة والموت • وبين « يحيى ويميت »
طبق بديع يقوى المعنى بذكر الشئ وضده ، كلما يحسن الأسلوب بما
له من وقع مؤثر •

ولما ذكر ابراهيم عليه السلام هذه الحقيقة الثابتة مدعمة
بالحجة القوية ، حازه الطاغية فيها « قال أنا أحيى وأميت » • والفصل
بين قال وما قبلها للاستئناف المبنى على سؤال ناشئ مما سبق ، كأنه
قيل : كيف حازه فى هذه المقالة القوية ، فقيل : قال أنا أحيى
 وأميت (٢٦) • وهذا سبيل مسلوكة فى حكاية المحاورات والمجادلات •

وأجابة « نمرود » تعتبر مقدمة ثانية فى قياس وردت مقدمته
الأولى فى كلام ابراهيم عليه السلام ، وتفهم نتيجته من سياقته • فهو
يريد أن يقول : ربك يحيى ويميت ، وأنا أحيى وأميت ، فأنا رب كذلك •
وهو قياس غير صحيح لاختلاف معنى الأحياء والأمانة فى كل من
المقدمتين ، فقد أراد ابراهيم بيحيى ويميت : أنه الذى يخلق الحياة
والموت فى جميع الكائنات ، وأراد الطاغية غير ذلك ، فقد روى أنى
برجلين فقطل أحدهما وعفا عن الآخر (٢٧) وهذا ليس إيجادا للحياة
والموت فى جميع الكائنات ، وأراد الطاغية غير ذلك ، فقد روى أنه أتى
أسباب •

(٢٥) تلخيص المفتاح : ٣٨٣ •

(٢٦) أبو السعود : ٢٥١/١ •

(٢٧) الأثرى : ١٧/٢/٢ •

وهذه الاجابة من « نمرود » حماقة ما بعدها حماقة ، حيث أجاب بما يكذبه العقل ، وهو ضد الأسلوب الحكيم ، وقد سماه الطيبي وغيره : الأسلوب الأحق (٢٨) • وهى اجابة منقطعة عن الدليل الذى أتى به ابراهيم عليه السلام ولذلك لم يقل : فقال أنا أحى وأميت • فقد أراد أن يكون سببا للاحياء والاماتة ، والكلام فى الانشاء والتكوين ، لا فى اتخاذ الأسباب ، والتوسل فى الشئ المكون (٢٩) •

وتقديم المسند اليه على خبره المفعلى فى حكاية كلام الطاغية لتقوية الحكم وتأكيدده لا للتخصيص ، اذ لو كان للتخصيص لكان الكلام : أنا الذى أحى وأميت ، فيكون ردا للدليل السابق •

ومنشأ التقوية والتأكيد فى هذا الأسلوب على ما يرى الامم عبد القاهر : ما فيه من تشويق المخاطب ، بسبب تقديم المسند اليه على الخبر ، وتبنيه على أن حديثا سيدور بشأنه ، ليلتفت اليه ، فيدخل على قلبه دخول المأنوس به ، ويقبله قبول المهيأ له ، وذلك أشد لثبوته ، وأدخل فى تحقيقه ، وهو بمثابة التكرير فى تأكيد الكلام (٣٠) • وقد تبعه الرازى فى هذه العلة (٣١) •

وعلى السكاكى ذلك : بأن المبتدأ يستدعى أن يستند اليه شئ فاذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صرفه الى نفسه ، فينعقد بينهما حكم ، فاذا كن ما بعده متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير اليه ثانيا فيكتسى الحكم قوة (٣٢) • لما فى الكلام من تكرار الاسناد • وعلى هذا سار الخطيب القزوينى (٣٣) •

(٢٨) حاشية الشهاب : ٢/ ٣٣٧ •

(٢٩) المنار ٣/ ٣٩ •

(٣٠) ينظر دلائل الاعجاز : ٦٧ •

(٣١) ينظر نهاية الايجاز : ١٢٣ •

(٣٢) مفناح العلوم : ٢٢١ •

(٣٣) بغية الإيضاح : ١/ ١٤٤ •

سمع ابراهيم عليه السلام محاجة « النمرود » فعلم أنه مكابر يجادل بالباطل في حقيقة جليلة ، فلم يعبا بايطل صلالته الحمقاء ، لظهور بطلانها . بحيث لا يكاد يخفى على أحد ، ولم يتصد لابطلها ، لأنه من قبيل السعى في تحصيل الحاصل ، وأتى بمثال لا يجد فيه البطاغية مجالا للتمويه والتلبيس (٣٤) . « قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » . وفصلت جملة قال عن سابقتها للاستئناف البياني كما سبق تفصيله . واظهار ابراهيم وعدم اضماره كما في كثير من الحوارات المحكية عنه في قصته ، للعناية باظهار كلامه وتمييزه ، حيث ان المقام يقتضى توضيح القائل أمنا من عروض لبس لأن طرفي الحوار هفردان .

رجلة « فان الله يأتي بالشمس ... » مقبول القول ، ودخلت انفاء على « ان » ايذاً بتعلق هذا الكلام بما قبله ، والمعنى : اذا ادعيت الاحياء والامانة ولم تفهم ، فالحجة ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب (٣٥) . وتأكيده الكلام لما أن المقام يقتضى التأكيد . والتعبير باسم الجلالة دون لفظ « ربى » المستعمل في الدليل الأول ، لما فيه من بعث المهابة والخشية ، والترقى في التعبير بذكر الله تعالى بالاسم المختص به ، الذى لا يشترك معه أحد فيه . والتعبير بالمضارع « يأتي » للدلالة على التجدد والاستمرار ، فالأتيان بالشمس من المشرق أمر مستمر ومتجدد كل صباح . والباء للتعدية ، ومن في الموضعين لابتداء الغاية وهى متعلقة بالفعل الذى يتقدمها .

والأمر لتحدى الطاغية وتعجيزه والقامه الحجر ، لأنه لن يستظلم أن يفعل ذلك ، مهما أوتى من قوة ، بل لا يمكن أن يفكر في فعله .

(٣٤) أبو السعود ٢٥٢/١ .

(٣٥) املاء ما من به الرحمن : ٥٠٨/١ .

يعلم مقدما من استحالته عليه ، ويعين المشرق والمغرب طباق يوضح المطلوب منه أتم توضيح ، اذ عليه أن يفعل عكس ما تجرى به السنة الإلهية في الكون ، وهذا محال .

واختلفت نظرة المفسرين الى هذا القول ، فقل بعضهم ان ابراهيم عليه السلام لما رأى نمرود جادل في الدليل الأول عدل عنه الى دليل آخر أوضح منه ، ولا يقال الجدال ، وقال آخرون ان هذا ليس انتقالا من دليل الى دليل آخر ، بل الدليل واحد في الموضعين ، وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على أحداثها ، فلا بد من قادر آخر يتولى أحداثها وهو الله سبحانه وتعالى

قال الرازي وهذا الوجه أحسن من الأول وأليق بكلام أهل التحقيق منه (٣٦) . وسار على هذا صاحب المنار فقال : هذا ايضاح لقوله الأول وازالة لشبهة الخصم ، لا أنه جواب آخر والمعنى : ان ربى الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذى يطلع الشمس من المشرق ، أى هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التى نشاهدها عليها ، فان كذت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طالع الشمس ، واثت بها من الجهة المقابلة للجهة التى جرت سنته تعالى بظهورها منها (٣٧) .

ولامراء فى أن هذين القولين وان كانا حجة على شىء واحد هو وجود الله القادر الحكيم الا أنهما ليسا شئنا واحدا ، وفى ترتبهما على هذه الطريقة ترق مما أثار الخصم فيه شبهة باطلة على سبيل المكابرة ، الى ما لا يمكن أن يثير شبهة فيه ، وبذلك تلزمه الحجة .

• (٣٦) الرازي : ٣١٩/٢

• (٣٧) المنار : ٣٩/٣

وقد اختلفا في نظميهما فجاء الأول خبرا لا يستدل على تحد الطاغية ، ولعل هذا كان ايدانا بمكابرته فيه ، وجاء الثانى خبرا مؤكداً ، يعقبه تحد قوى للطاغية عن طريق الأمر ، لاثبات عجزه واعلانه على الملأ • وجاء الأول باسم الرب المشعر بالتربية والرحمة واللفظ ، وجاء الثانى باسم الجلالة المشعر بالمهابة والخوف والقوة ، وفي هذا انتقل في أسلوب الحاجة الى الأقوى لانزام الخصم وانحامه •

ولكن هذا التحدى قاطعا في افحام الطاغية واخراسه عن الكلام، فلم يستطع جوابا كما قال جل شأنه « فبهت الذى كفر » أى : ذهش وتحير ، وأخذ الحصر من نصروع الحجة وسطوعها فلم يحس جوابا (٣٨) • يقال : بهت الرجل يبهت بهتا ، وهو من الأفعال التى جاءت على صورة المبني للمفعول والمعنى فيها على البناء على الفعل ، فالذى كفر فاعل لا نائب فاعل (٣٩) •

والتعبير عنه بالموصول وصلته للإشارة الى أنه معهود ومعروف بهذه الصلة ، لا باسم آخر ، وللتوصل الى ذمه بما في حيزها من الكفر • وايراد الكفر بدلا من الصلة الأولى « حاج ابراهيم في ربه » للتسعار بعلّة الحكم ، والتنصيص على أن الحاجة انتهى قالها من قبيل الكفر (٤٠) ، وتعميم الحكم على كل كافر ، واطلاق الكفر عن التقييد بمتمعلق ليتناول الكفر بكل ما يجب الايمان به ، وفي مقدمة ذلك كفره بالله عز وجل •

والايتان بالفاء للشعر بسرعة ادمايته بالبوت عقيب التحدى مباشرة دون وجود زمن ولو قليل يخضر له فيه أن يكفر في فعل الأمر المتحدى به ، لتيقنه من أنه لن يمككه القيام به •

(٣٨) ينظر المفردات : ٦٣ ، والنار : ٣٩/٣ •

(٣٩) الفتوحات الالهية : ٢١١/١ •

(٤٠) أن السجود : ٢٥٢/١ •

الخاتمة :

وبعد أن بينت الآية نهاية محاجة الطاغية باصابته بالالجام ، والحصر من جراء صدمته الشديدة بالحجة الدامغة ، ختمت بقوله تعالى « والله لا يهدى القوم الظالمين » وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، وعبرة مستفادة من هذه المحاجة ، ونتيجة عامة لها تؤيد الحكم المذكور في الآية السابقة « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى انظلمات » •

ووصل التذييل بما قبله للتوسط بين الكمالين مع التناسب ، فالجملتان متحدتان في الخبرية وتبينان عدم توفيق الله تعالى للكافرين • وتقديم المسند إليه - لفظ الجلالة - على خبره الفطلى لتأكيد الحكم وتقويته ، والأسعار بأنه حكم ثابت ومستمر ، عن طريق اسمية الجملة • وترك متعلق يهدى لاثبات المعنى لله تعالى على الاطلاق من غير اعتبار تعاظه بشيء ، وفي ذلك تعميم لعدم هداية الظالمين الى شيء من الخير ، وقيل في تقديره : الى مناهج الاستدلال ، أو الى سبيل النجاة ، أو الى طريق الجنة (٤١) • • • والأولى جعله عاما وشاملا لما ذكر وغيره ، وتخصيصه بشيء من ذلك تضيق للواسع •

والتعبير في الفاصلة بالظالمين بدلا من الكافرين كما هو متبادر الى الذهن من قوله « فبهت الذى كفر » لافادة العموم والشهول في عدم هداية من لا يستحقون الهداية ، فالظالم أشم من الكافر ، وهو

أنواع ، وأشدّه ظلم النفس بالكفر ، وعبادة غير الله تعالى . والانسراك
به ، قال تعالى « ان الشرك لظلم عظيم » (٤٢) •

وانما انتفى هدى الله للقوم الظالمين ، لأن الظلم حائل بين صاحبه
وبين التنازل الى التأمل من الحجج ، واعمال النظر فيما فيه النفع ،
اذ الذهن في شغل عن ذلك بزهو وغروره (٤٣) •

(٤٢) لقمان : ١٣ •

(٤٣) التحرير والتنوير ٢٤/٢ •

الحلقة السابعة

ابطال عبادة الكواكب

قل الله تعالى :

« واد قال ابراهيم لأبيه آزر أنتخذ أصناما إلهة انى أراك وفومك
 فى ضلال مبين • وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض
 وليكون من الموقنين • فلما جن عليه اللين رأى كوكبا قال هذا ربى
 فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما
 أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من الخالين • فلما رأى
 الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفنت قال يا قوه انى برىء
 مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما
 أنا من المشركين • وحاجه قومه قال أتحتاجونى فى الله وقد عبادن ولا
 أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما أفلا
 تتذكرون • وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركت بالله ما لم
 ينزل به عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون •
 الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون •
 وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك
 حكيم عليم • ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا مدينا من
 قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيسى ويوسف وموسى وهارون وكذلك
 نجزي المحسنين • وزكريا ويحيى وعيسى والياس ذله من الصالحين •
 واسماعيل وإيسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين • ومن
 آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبتناهم وهديتناهم الى صراط مستقيم •
 تخلصك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده واو أشركوا ليطع عنهم
 ما كلوا يعملون • أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ان يكفر

بها هؤلاء فقد وكانوا بها قوما نيسوا بها بكافرين • أولئك الذين هدى الله
فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين « (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الأنعام ، وهي كغيرها من السور الملكية
تهتم بارساء دعائم عقيدة التوحيد . واثبات البعث والحساب ، وذلك
عن طريق تدبر آيات الله تعالى في الكون • وقد بدأت بذكر خلق الله
للمسوات والأرض والظلمات والنور • وخلق الانسان من طين ،
وقضائه الآجال وعلمه بالسر والجهر • •

« الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون • هو الذي خلقكم من طين ثم قضى
أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون • وهو الله في السموات
وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » (٢) •

وانتقلت الى بيان تكذيب المشركين بالرسول ﷺ والحق الذي
جاءهم به ، وعنادهم وتحديهم له أن يأتيهم بكتاب من السماء ، أو ملك
يكرن معه نذيرا ، وردت عليهم في هذا العناد « ولو نزلنا عليك كتابا في
قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين •
وقالوا لو لا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لنقضى الأمر ثم لا ينظرون •
ولو جعلناه ملكا لجذناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (٣) •

ثم بينت ملكية ما في السموات والأرض لله تعالى ، وجمعه الناس
ليوم القيامة الذي لا ريب فيه ، وقهره لعبده ، وأنزله القرآن على

(١) الأنعام : ٧٤ - ٩٠ •

(٢) الأنعام ١ - ٣ •

(٣) الأنعام ٧ - ٩ •

الرسول ﷺ لا نذار الناس به • وعدم فتح الكافرين له وببردهم عنه
ونهيهم الناس عن سماعه •

وعرضت موقف الخافرين يوم القيامة وتمنيهم الرجوع الى الدنيا
ليكونوا من المؤمنين وانتقلت الى تمسليية الرسول ﷺ عن تذبذب
المكذبين ، والزام الحجة على الكفار ، وإقرارهم بقدره الله تعالى ،
وبيان استعجالهم العذاب •

وذكرت احتصاص الله تعالى بعلم الغيب ، وقهره وغلبته على
المخاوقات ، ونهت عن مجالسة المكذبين الذين يخوضون في آيات الله
تعالى ، ويتخذون الدين لعباً ولهاوا • ووصفت حيرة المشركين في شركهم
واستواء الشياطين لهم ، وأمرت بإسلام الوجه لله رب العالمين ،
وحثت على اقامة الصلاة وتقوى الله تعالى الذى يقول للشيء كن فيكون
، قوله الحق وله الملك •

وبعد هذا تذكر جابا من قصة ابراهيم عليه السلام يحكى
استدلاله على استحالة ربوبية الكواكب ، وعلى بطلان عبادتها من دون
الله تعالى ، ويفصل محاورته لقومه في ذلك ، وتعقب عليها ببيان ما
أنعم الله تعالى به عليه من الذرية الصالحة التى جعل الله فيها النبوة
والرسالات • وفى ذكر هذه القصة تذكير لمشركى قريش وحث لهم على
النظر في تاريخ أبيهم ابراهيم ، والاهتداء بهديه ، واتباع الرسول
محمد ﷺ الذى سار على نهجه واهتدى بهداه • وهذا الجانب من
قصة ابراهيم عليه السلام هو موضوع هذه الحلقة •

البداية :

لما كانت هذه الحلقة مبنية على مجازاة الخصم لابتنال شبهته
جاءت بدايتها دالة على النهاية ليعرف من أول الأمر رأى ابراهيم في
عبادة أبيه وقومه ، حتى لا تكون هناك شائبة في عقيدة ابراهيم عليه

السلام بسبب ما سيصدر عنه بعد ذلك من أقويل يجارى بها خصومه
لابطال شبههم ومزاعمهم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما
آلهة انى أراك وقومك فى سلال مبين » •

« واذ » منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى ﷺ
معطوف على قوله تعالى « قل أندعوا ... » (٤) أى : اذكر لهم —
بعدما أنكرت عليهم عبادة مالا يقدر على نفع وضر وحقت أن الهدى
هدى الله ، وما يتبعه من شئونه تعالى — وقت قول ابراهيم لأبيه
أنتخذ أصناما آلهة ، موبخا له على عبادة الأصنام ، فان ذلك مما
بيّنت المشركين وينادى بفساد عبادتهم (٥) •

وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من أحداث مع
أنها المقصود الأصلى ، للمبالغة فى ايجاب ذكرها ، لما أن ذكر الوقت
ذكر لما وقع فيه بطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها فاذا
استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٦) •

و « آزر » عطف ببيان لأبيه أو بدل منه • والصحيح أنه اسم
أبيه خلافا لما فى التوراة من أن اسم أبيه تارح • قال ابن جرير :
والصواب أن اسم أبيه آزر ، وما قاله الناس من أن اسمه تارح •
فقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس • أو يكون أحدهما لقباً (٧) •
قال ابن كثير : وهذا الذى قلناه جيد قوى (٨) • وقال البهارى فى
التاريخ الكبير : ابراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح والله سبحانه

(٤) الأنعام ، ٧١ •

(٥) أبو السعود : ١٥١/٣ •

(٦) السائق : ٧٩/١ •

(٧) جامع البيان : ١٥٩/٧ •

(٨) ابن كثير : ١٤٠/٣ •

آزر • وعلق الشيخ رشيد رضا على هذا بقوله : فقد اعتمد آن آزر هو اسمه عند الله أى فى كتابه ••• والقرآن هو المهيمن على ما قبله ، نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه ، ونلزم الوقف فيما سكنت عنه حتى يدل عليه دليل صحيح (٩) •

والاستفهام فى قوله « ألتخذ أصناما آلهة » للاتكار التوبيخى أى . لا ينبغى أن يكون منك هذا • وفى ذكرها باسم الأصنام اشعار بتحقيرها ، وبإبطال لاتخاذها آلهة ، فهى فى الحقيقة أصنام ، والأصنام لا يمكن أن تكون آلهة •

ولما وىخه عن طريق الاستفهام ، صرح برأيه فيما هو وقومه عليه ، ليجمع بين الانكار بالمفهوم والآنكار بالمنطوق « انى أراك وقومك فى ضلال مبين » • وتأكيد الجملة لتحقيق مضمونها فى مواجهة المضاطبين المنكرين له ، والتعبير بأراك دون أجذك ونحوه لما فى البرية من دلالة على اليقين التام عن طريق المشاهدة ، وإشارة إلى أن ضلاله ظاهر للعيان • وفى اسناد القوم الى أبيه دلالة على أنه قائدهم فى ذلك وهم أتباعه فى عبادتها •

والضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويقال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيرا (١٠) • والتعبير بفى مشعر بغرقهم فى هذا الضلال • وإحاطته بهم • وتذكيره لتفخيمه وتحويله فهو ضلال هائل مطبق ، ووصفه بمبين لبيان أنه ظاهر واضح لا شبهة فيه عن طريق البرهان ، لأنه اذا كان مبينا لضلالهم وغيرهم فهو بين فى نفسه من باب أولى •

وعقب هذا الانذار القوى من ابراهيم لأبيه وقومه ببيان فضل

(٩) المنار : ٤٤٧/٧ •

(١٠) المفردات : ٢٩٧ •

الله تعالى على ابراهيم في تبصيره طريق الحق، وتعريفه أسرار السموات والأرض « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » • قال الشيخ رشيد رضا : أى وكما أرينا ابراهيم الحق فى أمر أبيه وقومه وهو أنهم كثروا على ضلال بين فى عبادتهم للأصنام كذا نريه المرة بعد المرة ملكوت السموات والأرض على هذه الطريقة التى يعرف بها الحق (١١) • وعلى هذا فالكاف لتبسيه هذه الآراء بآراء أخرى مفهومة من الآية السابقة •

وكلام الزمخشري يدل على أن « ذلك » إشارة الى مصدر « نرى » لا الى آراء أخرى مفهومة مما سبق اذ قال : ومثل ذلك التعريف وانتبصير نعرف ابراهيم ونبصره ملكوت السموات والأرض (١٢) • ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه لأن المثل غير مراد ، وإنما جىء به مبالغة كما يقال : ذلك كذلك (١٣) • وعلى هذا فالكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، ومحطها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير : نرى ابراهيم آراءه كائنه مثل تلك الآراء ، فقدم على الفعل لافادة القصر ، والمشار اليه نفس المصدر المؤبد لا نعتا له (١٤) •

وما فى اسم الإشارة من معنى البعد مؤذن بعنو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكامل تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وفى صيغة المضارع « نرى » حكاية لنحال الماضية لاستحضار صورتها •

(١١) المنار : ٤٦٢/٧ •

(١٢) الكشف : ٣٠/٢ •

(١٣) حاشية الشهاب : ٦٩/٤ •

(١٤) أبو السعود : ١٥٢/٣ •

والملكوت مصدر ملك كالرغبت والرحموت ، وتأؤه زائدة للمبالغة
وهو مختص بملك الله تعالى (١٥) •

وقوله تعالى « وليكون من الموقنين » متعلق بمحذوف مؤخر
والجملة اعتراض مقرر لما قبلها ، أى وليكون من زمرة المراسخين
فى الإيقان بمعرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور
لأمر آخر ، وتقديم المتعلق يفيد التقصر ، وهو لا يدل على انحصار
فائدة التبصير فى ذلك بل يدل على أن ذلك هو الأصل الأصيل والباقى
من مستتبعاته ، فان ارشاد الخلق والزام المشركين بالحجة من فوائده
بلا مرية • فالقصر اضافى بالنسبة الى شىء معين • وقيل انه متعلق
بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليها
الكلام أى : ليستدل وليكون من الموقنين (١٦) •

واليقين : هو الاعتقاد الجازم المبني على الأمارات والدلائل
والاستقباط ، وقال الراغب : هو سكون مع ثبات الحكمة ، وهو من
دفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، يقال : علم يقين ولا يقال
معرفة يقين (١٧) •

وأما « من الموقنين » على مؤقنا لما فيه من اثبات اليقين
الكامل له بجملة من زمرة الموقنين المعروفين بهذا الوصف دون غيرهم ،
واطلاق اليقين لوصفهم باليقين المطلق ، أو لتعميم اليقين وشموله •

الاستدلال على بطلان ربوبية الكواكب :

وتبدأ الآيات فى عرض استدلال إبراهيم على استحالة ألوهية
الكواكب وبطلان عبادتها ، من خلال نظره فيها وافقراض رببيتها

(١٥) المفردات : ٤٧٣ •

(١٦) أبو السعود ١٥٢/٣ •

(١٧) المفردات : ٥٥٢ •

مجاراة لقرمه ثم بيان استحالة ذلك على كواكب يعتریها التغيير والتبديل ، وهذا مما يتنافى مع الألوهية •

وتحكى الآيت ثلاث وقفات لأبراهيم عليه السلام ، نظر وتأمل فيها بعض النيرات انتى خلقها الله تعالى فى الكون ، حيث شاهد بزوغها تارة وأغروبها تارة أخرى ، واطلع على تحولها وتغيرها من حال الى حال ، وهذا دليل على استحالة ألوهيتها ، وبه واجه قومه وبأبطل عبادتهم للكواكب والنجوم •

وكانت الوقفة الأولى نظره الى الكوكب « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » • والآية — على جعل « وليكون من الموقنين » متعلقا بمحذوف مؤخر — تكون معطوفة على « واذ قال ابراهيم » داخلة تحت ما أمر ذكره ، وقوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ... » اعراض مقرر لما سبق وما لحق ، فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض وما فيهما ، وكرمه من الراسخين فى معرفة شئونه تعالى مما يقضى ان يحكم عليه السلام باستحالة الهية ما سواء سبحانه من الأصنام والكواكب • وفى الاعراض أيضا تنويه باستدلال ابراهيم عليه السلام وأنه تبصير له من الله تعالى وتسييد (١٨) •

وعلى جعل قوله « وليكون من الموقنين » متعلقا بالفعل السابق تكون الآية تفصيلا لما ذكر من اراءة ملكوت السموات والأرض ، وبياننا لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة الايقان (١٩) • وجن عليه الليل أى ستره بظلمته ، وأصل الجن الستر عن الناس ، يقال : جنه الليل وأجنه وجن عليه فجنه : ستره ، وأجنه : جعل له

(١٨) ينظر الكشف ، والانصاف : ٣٠/٢ • وأبو السعود ١٠٢/٣

(١٩) ينظر البيضاوى والشهاب : ٨٥/٤ ، وأبو السعود ١٥٣/٣

ما يجنّه ، وجن عليه كذا : ستره (٢٠) • وإيثار « جن » على غيره
 لب يتضمنه من اشعار بالحماية المؤدية الى السكينة والهدوء وصفاء
 الفكر للتدبر في الكون • وقوله تعالى « رأى كوكبا » جوابا لما ،
 وتذكير « كوكبا » لعدم الحاجة الى تعيينه فهو كوكب من
 الكواكب السيارة في الأفق ، ومن ثم فلا داعي الى البحث في اسمه
 كما فعل كثير من المفسرين •

وقوله « قال هذا ربى » استئناف مبنى على سؤال نشأ من
 الجملة السابقة ، كأنه قيل : فماذا فعل عليه السلام حين رأى الكواكب؟
 فقيل : قال هذا ربى • وفى اسم الإشارة تمييز له أكمل تمييز بواسطة
 الإشارة ، وما فيه من معنى القرب مشعر بنفخيمه وتعظيمه • وإيثار
 « ربى » على الهى لما فيه من اشعار بأنه مربيه ومدير أمره ورحيم
 به فى مقام يفتقر الى هذه المعانى •

وقد اختلف العلماء فى هذا القول وما يليه فى القمر والنسب ،
 فآخروهم على أنه قل ذلك وهو عارف لربه تعالى عابد له ، وانما
 قاله على سبيل الفرض والتقدير مجازاة لأبيه وقومه فى مناظرته لهم
 كي يمهّد بذلك لابطال مزاعمهم فى هذه الكواكب • وإقامة الحجة
 عليهم ، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر
 عليه بالابطال (٢١) •

وقيل انه قل ذلك فى مقام النظر والاستدلال لنفسه ، وكان ذلك
 فى زمان مراهقته وأوان بلوغه (٢٢) •
 ورجح الرازى الرأى الأول بأدلة هى :

(٢٠) بصائر ذوى التمييز : ٣٥٣/٢ •

(٢٢، ٢١) ينظر الرازى : ٧٥/٤ • وأبو السعود : ٥٣/٢ •

والمنازل : ٤٦٤/٧ ، والتحرير والتنوير : ٢٢٤/٧ •

- ١ - أنه قال قبل هذا لأبيه « أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك في ضلال مبين » •
- ٢ - أنه رأى ذلك بعد رؤية ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين •
- ٣ - أن الفاء تقتضى الترتيب فتدل على أن هذا كان بعد الاراءه التى كان بسببها من الموقنين •
- ٤ - أن هذه الواقعة حصلت بسبب مناظرة ابراهيم مع قومه ، حيث قيل في آخر القصة « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه » ولم يقل على نفسه ، فعلم من ذلك أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه (٢٣) •
- يضاف الى ذلك قول ابراهيم في مشهد القمر « لكن لم يهتدي ربي لأخون من القوم الصائين » فهذا تصريح منه بمعرفة الرب الحقيقى الذى بيده الهداية والتوفيق الى الطريق المستقيم •
- ولعل سلوك هذه الطريقة مع قومه في بيان استحالة رموبية الكواكب دهرن بيان استحالة الهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلانها واستحالة من الأول ، فلو مددع بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عبادة الأصنام لتمادوا في المكابرة والعناد واجروا في طغيانهم يعمهون (٢٤) •
- والأقول : غيبوبة النيرات كالقمر والنجوم (٢٥) • وقوله « لا تأحب الآفلين » على تقدير مضاف عند الزمخشري ولذلك قال فيمعناه :

(٢٢) الرازى : ٧٦/٤ •

(٢٤) أبو السعود : ١٥٣/٣ •

(٢٥) المفردات : ٢٠ •

لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال الى حال ، المتقلبين من مكان الى مكان ، المحتجبين بستر ، فان ذلك من صفات الأجرام (٢٦) •

وام يقدر البيضاوى مضافا ، وقال « لا أحب الآملين » فضلا عن عبادتهم ، وقوله فضلا عن عبادتهم اما اشارة الى عدم العبادة بالبرهان ، أو اشارة الى أنه كنى بعدم المحبة عن عدم العبادة ، لأنه يلزم من نفى المحبة نفى العبادة بالطريق الأولى (٢٧) •

والتعبير بعدم المحبة عن عدم العبادة مشعر بأن العبادة يجب أن تؤسس على المحبة المتمكنة في قلب العابد ، ليكون اقباله على العبادة بشغف •

وتأتى التوقف الثانية ، وفيها تأمل القمر وهو على ما يظهر للناس أقوى نورا وأكبر حجما وأكثر نفعا فيكون أحق بالربوبية من سابقه ، ولكنه أيضا سرعان ما يأمحل ويحتجب ، فربوبيته مستحيلة ، وعبادته باطلة « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين » •

والبزوغ : ابتداء الطلوع ، يقال : بزغت الشمس بزغا وبزوغا أى شرقت ، وبزغ ناب البعير : طلع و « رأى القمر بازغا » أى طالعنا منتشر الضوء (٢٨) •

وفي تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد وتعليق الضلال على عدم هداية الله تعالى تقرير وتحقيق لا يدع مجالا للشك في أن مصدر الهداية هو الله عز وجل •

وقوله « لأكونن من القوم الضالين » تعريض بقومه وتبئيه لهم

(٢٦) الكشف : ٣١/٢ •

(٢٧) البيضاوى والشهاب : ٤ •

(٢٨) بحائر ذوى التمييز ٢٤٤/١ •

على أن من اتخذ اله قمرا وهو نظير الكواكب في الأغول فهو ضال •
 والتعريض بضمالاتهم هنا أصرح وأقوى من قوله أولا « لا أحب
 الآفلين » وإنما ترقى الى ذلك لأن الخصوم قد قامت عليهم باستدلال
 الأول حجة • فأنسوا بالقدح في معتقدهم • ولو قيل هذا في الأول
 فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون الى الاستدلال • فما عرض صاوات
 الله عليه بأنهم في ضلالة الا بعد أن وثق باصغائهم الى تمام المقصود
 واستماعهم الى آخري • والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة
 الى التصريح بالبراءة منهم • والتفريع بأنهم على شرك حين تم قيام
 الحجة عليهم • وتبلغ الحق وبلغ من الظهور غايته (٢٩) •

وفي التعبير القرآني معنى لا يجد فيما هو قيل : لأكون ضالا •
 حيث سيكون موسوما بالضلال معروفا به • لأنه من جنس المعروفين
 بالضلال المشهورين به •

وفي الوقفة الثالثة نظر ابراهيم الى الشمس وتأملها مفترضا
 ربوبيتها بل أحقيتها بالربوبية من الكوكب والقمر لأنها أكبر جرما
 وأقوى ضوءا وأعظم نفعا • ولكنها تأفل كما أفل الكوكب والقمر • فلا
 يمكن أن تكون ربا • ولا يمكن أن يكون شيء من الكواكب والنجوم
 بهذه الصفة • الذين يزعمون ربوبيتها مشركون ضالون • وهو برىء منهم
 ومن مزاعمهم •

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال
 ينقوم انى برىء مما تشركون » •

وتدعى اسم الإشارة « هذا » دون تأنيثه لما أن المشار اليه
 والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث
 هو مسمى بالشمس • أو لتذكير الخبر روعى تذكير المبتدأ لأنهما شيء •

وَاحِدٌ . وفى التذكير صيانة الرب عن وصمة أنثائيت (٣٠) .

وجملة « هذا أكبر » جارية مجرى العلة لجملة « هذا ربى »
وفيه تأكيد لما رآه من اظهار النصفة للقرم ومجازاتهم فى مزاعمهم ،
تمهيدا لدحضها بالحجة البالغة . كما أن فيها إشارة خفية الى فساد
ديمهم ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر (٣١) وحذو . المفضل
عليه مشعر بكبزه العظيم ، فهو أكبر مما سبق ومن غيره .

ولما أفلت الشمس كما أفل ما قبلها لم يبق أمام ابراهيم الا أن
يصدع فى قومه بالحق الذى لا محيد عنه « يا قوم انى برىء مما
تشركون » وفى الجملة من خصائص التعبير وعناصر القوة ما يلى :

النداء ، وفيه تنبيه وإيقاظ لهم ، ليتهيئوا لتلقى حكمه القاطع
بشركهم وبرأته من هذا الشرك . واستعمال أداة السعيد مع قربهم
منه ، وهو مشعر بقوة ندائه لهم ، وعلو صيخته عليهم ، لما هم فيه
من غفلة ولهو واعراض عن الحق الواضح . ونداؤهم بياقوم دون
يابنى فلان ونحو ذلك ، وفى هذا إشارة الى أنه حريص عليهم ، مهتم
بأمرهم مخلص فى نصيحتهم ، فهم قومه وأهله ، وما أشد حرص
الانسان على قومه .

تأكيد الخبر لتحقيق برأته وتخليصها من كل شائبة . وانتمام فى
حاجة الى ذلك ، بعد ما قال هذا ربى على سبيل الفرض والمجازاة
لقومه واظهار النصفة فى مقام الاستدلال . والأتيان بالخبر جملة
اسمية للدلالة على أنه ثابت على هذه البراءة مستمر عليها ، وهى
ليست جديدة فى حقه .

(٣٠) ينظر أبو السعود : ١٥٤/٣ .

(٣١) السابق .

ابهام ما يشركون عن طريق الموصول ، وفيه تعميم لبرأته من الكواكب ومن كل ما يشركون من أصنام وغيرها • وايشتر الشرك على العبادة لذمهم بالشرك والاشارة الى علة البراءة ، وصيغة المضارع لتصوير حالهم ، ودوامهم على هذا الشرك •

لم يقتصر ابراهيم على التبرؤ مما يشركون بل أتبع ذلك ببيان عقيدته التي يدين بها وهى التوحيد الخالص لله تعالى خالق السموات والأرض « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » • والفصل بين « انى وجهت » وما قبلها نكمال الاتصال ، فهى بمنزلة بدل اشتمال من جملة « انى برىء مما تشركون » لأن البراءة من الأشرار تشتمل على توجه الوجه الى الله تعالى (٣٢) • وتأكيد الكلام لتحقيق مضمونه وتقريره في مقام يحتاج الى ذلك كما بينا آنفا •

والنعل « وجه » يتعدى الى المكان المقصود بالى وقد يتعدى باللام اذا أريد أنه انصرف لأجل ذلك الشيء فيحسن ذلك اذا كان الشيء المقصود مراعى ارضاءه وطاعته كما تقول : ترجعت للحبيب ، ولذلك عدى هنا باللام لأن فى ذلك التوجه ارضاء وطاعة • و « وجهت وجهى » : صرفته وأدبرته ، وهذا تمثيل : شبهت حالة اعراضه عن الأصنام وقصده الى افراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئا وقصده وانصرف عن غيره (٣٣) • وتخصيص الوجه بذلك لأنه أساس التوجه والمقابلة ، وبين الكلمتين جناس الالفاظ ، وفيه اظهار للمعنى وتقوية له بجانب ما فيه من تحسين العبارة وإبراز علائقها •

(٣٢) التحرير والتنوير : ٣٢٣/٧ •

(٣٣) المسماة : •

والفطر : الشق طولاً ، وفطر الله الخلق . ايجاده الشيء وابداعه
على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال . وفطر السموات والأرض :
ابتدأ خلقهما بما غُثِّق من رقيق مادتهما وهى دخان وأكمل خلقهن
أطواراً (٣٤) .

وايثار « لئذى فطر السموات والأرض » على اسم الجلالة لما
فيه من اشعار بعلة التوجه اليه وافراده بالعبادة ، فهو خالق السموات
والأرض ومدبر الكون فهو الاله الحقيق بالعبادة . ولأن قومه كانوا
يعتقدون أن هذا الكون من صنع الله تعالى ولكنهم يشركون بالله الهة
أخرى ، مثلهم في ذلك مثل مشركى قريش الذين قال الله فيهم : « ومن
سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٣٥) .

و « حنيفاً » حال من الضمير فى « وجهت » ، والحنف : الميل
عن الضلال الى الاستقامة ، والجنف : ميل عن الاستقامة الى الضلال .
وحنيفاً : أى مائلاً عن العقائد الباطلة الى الطريق المستقيم (٣٦) وفى
النحى تأكيد لتوجهه الى فاطر السموات والأرض وبرأته مما يشركون .

وختم كلامه بالبراءة منهم بعدما تبرأ من شركهم « وما أنا من
المشركين » ، والمراد بالمشركين قومه وايثار وصفهم بذلك على أن يقال :
وما أنا منكم لدمهم بالشرك ، وليبيان العلة التى دعتهم للبراءة منهم ،
ولتعميم براءته من كل مشرك ، من قومه أو من غيرهم . وفى الجملة
تعريض شديد بهم ، وتعريض بمشركى قريش الذين كانوا يدعون
أنهم على ملته . وفيها أيضاً تأكيد لتوجهه الى فاطر السموات والأرض
عن طريق نفى كونه من المشركين .

(٣٤) ينظر المفردات : ٣٨٢ ، والمنار : ٤٦٩/٧ .

(٣٥) الزخرف : ٩ .

(٣٦) ينظر المفردات : ١٣٣ .

وبهذا ينتهي النظم القرآني من عرض الوقفات التأملية لأبراهيم عليه السلام في الأجرام السماوية ، حال ما نظرت له لقومه بطلان مزاعمهم في ربوبيتها وعبادتها •

وقد رتبت هذه الوقفات ترتيباً تصاعدياً فيه ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، فبدأت بالتأمل في الكوكب وهو أصغر الأجرام الثلاثة في مرأى العين ، ثم بالتأمل في القمر الذي يكبره ، ثم بالتأمل في الشمس التي هي أكبر من سابقتها •

وبنى افتراض ربوبية هذه الأجرام اظهاراً للنصفة على أساس واحد ، هو بزوغها نيرة مشرقة ، وذلك لأن البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ملائمة لتوهم استحقاق الربوبية •

وبنى استحالة ربوبية هذه الأجرام عقلاً على أساس واحد هو أقولها واحتجابها ، وذلك لأمر :

أن الاحتجاج بالأقوال أظهر لأنه انتقل إلى خفاء واحتجاب ، ففيه نقص بعد كمال • وأن الأقوال حالة مقتضية لانطماس الآثار ، ويطلان الأحكام ، المنافيين لاستحقاق الربوبية منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد • وأن الأقوال السابق على البزوغ غير مشاهد لهم حال الاستدلال ، فكان الأقوال بعد البزوغ أخصر في الاحتجاج من أن يقال : ان هذا البازغ كان آفلاً من قبل (٣٧) •

وقد روعي في ختام الوقفات الثلاث الترقى من التعريض الخفي ، إلى التبيين الظاهر ، إلى التصريح الجلي ، فختمت وقفته مع الكوكب بقوله « لا أحب الآفلين » وفيه تعريض خفي بقومه الذين يدينون بعبادة الآفلين ويهيمون بهم •

(٣٧) ينظر : الكشف : ٣٢/٢ • وأبر السعود : ١٥٤/٢ •

والتحريير والتنوير : ٣٢١/٧ •

وختمت وتمغته مع القمر بقوله « لنئن لم يهدنى ربى إلا كونن من القوم الضالين » وفيه تعريض ظاهر قوى بقومه حيث وسمهم بالضالين • وجاء ختام الوقفة الثالثة مع الشمس صدعا بالحق وجها بالحقبة « يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » وبذلك بين لهم عقيدته الصحيحة ادراا. لا قد يعلق فى أذهانهم من إثارة من شك فيه بسبب ما صدر عنه مجازاة لهم فى مقام الاستدلال • وجاء بيانه لعقيدته بين براءتين : الأولى براءته من شركهم ومما يشركون ، والثانية براءته منهم وهم المشركون الضالون • وبهذا جلى لهم عقيدته الصحيحة المبنية على التوحيد الخالص لله رب العالمين •

مجادلة القوم وجواب ابراهيم عليه السلام :

ثم يدع القوم ابراهيم وشأنه بعد أن أثبت لهم استحالة ربوبية الكواكب وبطلان عبادتها ، وبين لهم عقيدة التوحيد ، اذ جادلوه بأدلة فاسدة مبنية على التقليد ، وخبروه بالكهنة أن تصيبه بسوء ، « وحاجه قومه » أى شرعوا فى مغالبتهم بمخاضمته فى أمر التوحيد ، المطالبة بمفاعلة من الحجة والصيغة تدل على أنهم بدءوا بالمغالبة والمخاضمة ، فصيغة المفاعلة تقتضى أن المجول فيها فاعلا هو انبأىء بالمحاجة •

وتطلق الحجة على كل ما يدلى به أحد الخصمين فى اثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، فتقسم الى حجة ناهضة يثبت بها الحق ، وحجة داحضة يموه بها الباطل ، وهذه تسمى حجة على سبيل ادعاء الخصم حكاية لقوله (٣٨) • وقد طويت حجتهم فى هذا المقام حيث فصلت فى الشعراء والأنبياء ، وهى تقوم على ادعاء تقليد الآباء واتباعهم ،

وهى حجة واهية وفي حذفها ايجاز بديع ، واهمال لها وعدم اعتداد بها : لأنها ليست حجة صحيحة •

ورد ابراهيم عليهم ردا مفصلا مدحا بسيماج من الانكار الشديد والتوبيخ اللاذع ليقترن مع حجتهم المتهاففة ومزاعمهم الباطلة ، وقد رد عليهم في شيئين : مجادلتهم في شأن الله تعالى ، وتخويفه وتهديده بالهتكم •

فأما مجادلتهم له في شأن الله تعالى فقد جاء رده عليهم غبها مريزا اكتفاء بتفصيله في مواضع أخرى « قال أحتاجونى فى الله وقد هذان » ، والفصل بين « قال » وما قبلها للاستئناف البيانى ، غوى بمثابة جواب عن سؤال مقدر نشأ من حكاية محاجتهم ، كأنه قيل : غماذا قال عليه السلام حين حاجوه ؟ ف قيل : قال أحتاجونى ... والاستفهام للانكار التوبيخى والتعجيب من محاجتهم مع جهلهم الشديد بالله تعالى وصفاته المقدسة •

و « فى » للظرفية المجازية • وفى الكلام ايجاز بحذف المضاف أى فى شأن الله تعالى ، وفى حذف المضاف تهويل لمحاجتهم وتفنيع لها وتشنيع بها ، حيث كانت فى الله تعالى الذى له الخلق والأمر • وفى ايثار اسم الجلالة على الرب المتقدم فى الآيات لما فيه من تربية للهابة والخشية ، وتهويل لأمر محاجتهم المنكرة •

وأكد الانكار التوبيخى بالجملة الحالية « وقد هذان » مع ما فيها من التئیس لهم من مجادلته ومحاجته بغية ارجاعه الى الصل • فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومريدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام (٣٩) ويقضى بانهدام أى محاولة لاثناؤه عن الهداية •

رأى بالفسدة وتخريفه وتهديده بآلهتهم ففقد جاء رده عليهم في ذلك مفصلاً لعدم وروده في غير هذا الموضع ، وقد استتم الرد على جانبين :

الأول فيه نفى الخوف بطريق مباشر ، والثاني فيه نفى الخوف بحرين برهاني دقيق • ويتلخص الجواب الأول في قوله « ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون » أي لا أخاف آلهتكم التي تشركونها بالله تعالى لأنها لا تنفع ولا تضر ، لكن إذا شاء ربي وقوع شيء بي فانه يقع لا محالة بشيئته تعالى لا بمشيئة آلهتكم ، فهو الذي يحيط بكل شيء علماً •

و « م » موصولة حذف عائدتها ، والضمير المجرور لله تعالى ، أي لا أخاف الذي تشركونه به سبحانه • وفي إبهام ما يشركون وعدم ذكرها باسمها الصريح تجاهل لها ، وتحقيق أشأفه ، فهي غير جديرة بأن يصرح باسمها ، بجانب ما في ذلك من إفادة العموم في نفى الخوف عنه من كل ما يشركون من أصنام وكواكب وغيرها ، والتعبير بما يشركون دون ما يعبدون لذهمهم بالشرك ، وبينان جريمتهم النكراء والتشنيع عليهم بها •

وقوله « إلا أن يشاء ربي شيئاً » استثناء مفرغ من عموم الخوف في عموم الأوقات ، أي لا أخاف ما تشركون به سبحانه في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من أصابة مكروه بي من جهتها وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً • وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام اظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلامه لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته (٤٠) •

وبين « يشاء » و « شيئاً » جناس يضيف على العبارة قوة وجماًلاً ، و « شيئاً » يقصد به مكروه ما ، وقال « شيئاً » تحانياً للفظ المكروه لأنه راجع إليه .

وأنتبع الاستثناء بما يؤكد ويغله « وسع ربى كل شيء علماً » أى أحاط بكل شيء علماً فلا يبعد أن يكون فى علمه تعالى أن يحقق بى مكروه من قبلها بسبب من الأسباب .

والجملة استئناف بياني يجيب على ما قد يخلج فى نفوسهم : كيف يشاء ربك شيئاً تخافه وأنت تزعم أنك قائم بمرضاته ، ومؤيد لدينه (٤١) .

وفى أظهر الرب فى موضع الاضمار تأكيد لاسننلامه لأمره واعترافه بأنه تحت ملكوته وربوبيته ، بجانب ما فيه من تلذذ بذكره تعالى ، واستجلاب لعطفه ورحمته .

و « علماً » تميز محول عن الفاعل وأصل التعبير : وسع علم ربى كل شيء ، وفى التعبير القرآنى اسناد للفعل الى فاعله وهو الرب سبحانه وتعالى وهذا مشعر بعلّة الحكم ، ففاعل الفعل هو الرب عز وجل الذى لا يعجزه شيء . وفى الجملة تعريض بأربابهم التى يعبدونها ، اذ هى لا تعلم ولا تعقل شيئاً .

وبعد أن نفى عن نفسه الخوف من جهة آلهتهم وبخيم توبيخاً شديداً على عدم ادراكهم أن آلهتهم لا تافع ولا تضر « أهلاً تذكرون » أى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع أو ضرر فلا تذكرون أنها غير قادرة على أضرارى . وفى إيراد الذكر دون التفكير ونظائره إشارة الى أن أمر أصنامهم مركز فى العقول لا يتوقف الا على الذكر (٤٢) .

(٤١) السجدة والفرقان ٢٢٩/٢ - (٤٢) البقرة السجود : ١٥٣/٢

وفي الجملة بحسب التوبيخ ذم شديد لهم بالعفلة ونسيان ما هو ظاهر للعيان ومشاهد للجميع من عجز آلهتهم وعدم قدرتها على فعل شيء •

أما الجانب الثاني من الرد فيشتمل على جملتين استنهاميتين : الأولى « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تحافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » أى وكيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخزوعات وأهولها وهو إشراككم بالله تعالى • والاستفهام لانكار وقوع خوئه من آلهتهم ونفيه عنه بالكلية • وفي توجيهه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس في توجيهه الى نفسه بأن يقال : أخاف ، لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعاً ، فإذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني (٤٣) •

وقرر انكار الخوف ونفيه عنه بالجملة الحالية « ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » فذلك مما يؤكد عدم خوئه . ويثبتة عندهم فأنهم حيث لم يخافوا في محل الخوف بل أن لا يخاف عليه السلام في محل الأمن أولى وأحرى • وكأله قال : وما لكم تتكبرون على الأمن في موضع الأمن ولا تتكبرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف (٤٤) •

وفي الجملة ما يجعل عدم خوفهم من أعذب المعائب ، وأقبح المذكرات ، فقد أشركوا بالله تعالى الذى ليس كمثله شيء بعض مخلوقاته بل أقلها شأنًا وأنم يأتهم في ذلك برهان ولا حجة ولم ينزل به عليهم

(٤٣) السابق •

(٤٤) الكشف : ٣٢/٢ •

سلطان ، وفي هذا تهكم لاذع بهم ، وإشارة الى أن الأمور الدينية لا يعول فيها الا على الحججة المأزلة من عند الله تعالى (٤٥) .

وقد صرح في الجملة الحانية بما لم يصرح به في الجملة الاستفهامية حيث جرى فيها بمتعلق الاشرار وهو اسم الجلالة ، كما جرى بالفعل به « ما لم ينزل ... » لأن الجملة الاستفهامية مبنية على الاختصاص لسبق قوله « ولا أخاف ما تشركون به » ، ولأنها راجعة الى ابراهيم عليه السلام والمهم عنده انكار الخوف من غير الله تعالى سواء كان مما يشركه الكفار أولا ، وفي حذف اسم الجلالة إشارة الى بعد وحدانيته عن الشريك ، فلا ينبغي عنده نسبته الى الله تعالى ولا ذكره معه ، أما الجملة الحالية ففيها بيان لحال المشركين ، وهم لا ينزهون الله تعالى عن الشرك ومن ثم صرح باسم الجلالة ، وفي التصريح به تهيؤ للأمر وتغليظ له ، فان المنكر المستبعد عند العقل السليم هو الاشرار بالله تعالى لا مطلق الاشرار (٤٦) .

والايتان بالفعل اسما موصولا مبهما دون ذكره باسمه الصريح لتحقير آلهتهم بعدم التصريح باسمها ، ولذمها بجملة الصلة التي تبين أن اتخاذها شريكا كذب وبعثان لا أساس له . وتقديم الجار والمنجور على المفعول « سلطانا » للاهتمام ببيان عدم نزول حجة عليهم بما يشركون حتى يتخذوه شريكا ، وفي نفى نزول سلطان به عليهم نفى لنزوله على غيرهم ، لأنهم أصحاب الشأن في ذلك ، فاذا لم ينزل عليهم السلطان قلا محل انزوله على غيرهم ممن ليست لهم مصلحة فيه ، وقوله تعالى « أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » قائم على الايجاز ، لأن المعنى : أشركتم بالله شركاء لا ثبوت لها أصلا ، ولا

(٤٥) ينظر أبو السعود : ١٥٥/٣ .

(٤٦) بنظر حاشية الشهاب : ٨٨/٤ . والالوسي : ٢٠٦/٧/٤ .

(١٥٠ - خصائص النظام)

أقول انه باثرائها حجة ، أى تلك الشرائع ، وإزالة الحجة كلاهما منتف
تماما ، حيث انتفى المازوم بانتفاء اللازم (٤٧) •

والجملة المنتهية الثانية « فأى الفريقين أحسن بالأمن ان
كُتبت تعلمون » وهى مفرعة على الإنكار السابق بالفناء ، مسبوقة
لألجائهم الى الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لما هو عليه من الأمن
وعدم استحقاقهم لما هم عليه • ولم يعين عليه السلام الأحق بالأمن
مع يقينه ألا أحق به الا هو ، وهذا الكلام يسمى عند السكاكى
بالمصنف ، أو سوق الملام مساق غيره ، ويسمى عند غيره بتجاهل
العارف (٤٨) وفيه تعريض بهم ، وبعث إهم على التفكير فى حالة
و حالهم ، وحث على التأمل فيما هو عليه وما هم عليه ، ليتفوا
بأنفسهم على خطأ ما هم فيه ، ويعلموا بالبرهان أنهم على ضلال
ولا يستحقون الأمن ، وأن ابراهيم عليه السلام هو الأحق به •

ولم يقل فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ، احترازاً عن تركية نفسه ،
فعدل عنه الى قوله « فأى الفريقين » يعنى فريق المشركين وفريق
المؤمنين • وذلك ليعم بالأمن كل واحد وبالخوف كل مشرك ويندرج
هو فى حكم المؤمنين ، وقومه فى حكم المشركين (٤٩) • وفى هذا
المسلك أيضا تأكيد لألجائهم الى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم ،
والنقضى عن التصريح بتخطئتهم التى قد تدعى الى العناد واللاجاج •
ومن ثم جىء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة وذلك
لاستئزازهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سبيل
الانصاف (٥٠) •

(٤٧) مفتاح العلوم : ٢٨٠ •

(٤٨) ينظر مفتاح العلوم : ٢٤٦ ، ٤٢٧ ، وبغية الايضاح : ٦٦/٤ •

(٤٩) الكشف والانصاف : ٣٣/٢ •

(٥٠) أبو السعود : ١٥٦/٣ •

وهيجههم وألهيهم على الاغترار والجواب بالجملة الشرطية « أن كنتم تعلمون » لأنهم ان عجزوا عن الاجابة أو تباطؤوا فيها وسعدوا بالجهل • ومفعول تعلمون اما محذوف تعويلا على ظهوره ، بمعونة المقام أى أن كنتم تعلمون من أحق بذلك ، أو قصدا الى التعميم أى أن كنتم تعلمون شيئا • وإما متروك بالمرّة تنزيلا للفعل المتعدى منزلة اللازم أى أن كنتم من أولى العلم (٥٢) •

والتعبير بان دون اذا مشعر برجحان عدم علمهم ، فهم يتجاهلون الحقائق أو يجهلونّها • وجواب الشرط محذوف أى « أخبروني ، وفي حذفه ايجاز ، وتنبه ليم على المسارعة الى الجواب ، فان المقام في حاجة ماسة اليه حتى تتضح الحقيقة •

وبعد السؤال عن الفريق الآخر بالأمن يأتى الجواب عنه « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلام أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » وفى هذا الجواب احتمالات :

الأول : أنه من قبل ابراهيم عليه السلام ، صرح به إذ استكثرا عن الجواب مشددين مبالغة في تبكيتهم •
والثاني : أنه من الله عز وجل فصل به القضاء بين ابراهيم ومن حاجه من قومه •

والثالث : أنه من قوم ابراهيم ، حيث تذكروا لما ذكرهم ، ورجعوا عقولهم وفطرتهم ، فاعترفوا بالحق كما اعترفوا حين كسروا أصنامهم(٥٢) •

والأول رأى الجمهور ، فيكون من حكاية كلام ابراهيم ، تدل على جواب نفسه ولم ينتظر جوابهم ، لكن الجواب مما لا يسع المسئول

(٥١) ينظر السابق : ١٥٦/٣ •

(٥٢) ينظر جامع البيان : ١٦٧/٧ ، والبيضاوي والشهاب ٨٩/٤ •

والألوسي : ٢٠٧/٧/٤ ، والمنار : ٤٨٢/٧ •

الا أن يجيب بمثله ، وفي ذلك تبكيت لهم وافحام (٥٣) • ولم يذكر الزمخشري غير هذا الرأي (٥٤) •

ومجىء الجواب على ضرورة اثبات الأمن للمؤمنين لبيان المستحقين للأمن على العموم ، وفيه اثبات الأمن لأبراهيم بالطريق البرهاني لأنه من المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، فيكون داخلا في المستحقين للأمن ، وفيه بيان لعلّة استحقاق الأمن ، ترغيبا للقوم في النظر إليها والسير عليها ، ليكونوا من الأمنين • والاثنيان بالمسند إليه اسمًا موصولا للإيماء الى وجه بناء الخبر وأنه شيء عظيم ، نظرا لما في جملة الصلة من صفات تؤهل لذلك ، وفي الموصول وصلته الطويلة تشويق الى الخبر •

وقيد الايمان الموجب للأمن بقوله « ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » أي لم يخلطوه بشرك ، وأصل اللبس : ستر الشيء ، ويقال ذلك في المعاني ، فيقال : لبست عليه الأمر ، وفي الأمر لبسة أي التباس • • ولا لبست فلانا خالطته (٥٥) • وهو هنا مجاز في العمل بتسيئين متسببين في شيء واحد ، بخلط الأجسام (٥٦) • وفي التعبير به دون الخط إشارة الى أن الظلم اذا اختلط بالإيمان يستتره ويغطي عليه فيظهر الشخص وكأنه غير مؤمن •

والجمهور على أن الظلم في الآية مراد به الشرك في التعقيدة أو العبادة ، واستدلوا بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وأحمد وغيرهم : أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس ، فقاؤا يارسول الله : أين لا يظلم نفسه ، فقال : انه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا

• (٥٣) التحرير والتنوير : ٣٣٢/٧

• (٥٤) ينظر الكشف : ٣٣/٢

• (٥٥) المفردات : ٤٤٧

• (٥٦) التحرير والتنوير : ٣٣٢/٧

ها قال العبد الصالح « يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »
انما هو الشرك (٥٧) •

وفي تنكير الظلم اشعار بأن يسيره وقليله اذا خالط الايمان منع صاحبه من استحقاق الأمن ، ومن ثم يجب على المؤمن أن يحذر قليله وكثيره ، وأن ينتزه عنه بالكلية فلا يقرب شيئاً منه •

وجيء بالخبر جملة اسمية المبتدأ فيها اسم اشارة « أولئك لهم الأمن » للإشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة من صفات تؤهله لاستحقاق الخبر ، وفي الاشارة اليه بعد وصفه بما ذكر ليذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم ، وانتظموا بسببه في سلك الأمور المشاهدة • وما في اسم الاشارة من معنى البعد مشعر بعارو درجتهم وبعده منزلتهم في الشرف (٥٨) •

و « لهم الأمن » جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر هي خبر اسم الاشارة ، وتقديم الخبر على المبتدأ ينفيد القصر أى لهم الأمن لا لغيرهم • واللام في الأمن للجنس وهي تشير الى أنه هو الأمن انسابق المسئول عنه بزاء على أن المعرفة اذا أعيدت كان الثانی عين الأول • وانجملة تشير الى أن الأمن ثابت لهم ومختص بهم ، من حيث كونها اسمية وتقدم فيها المسند على المسند اليه •

ولم يقتصر في الجواب على المطلوب فقط بل أضيف اليه وصف جليل مستحق لهؤلاء المؤمنين « وهم مهتدون » وانجملة يمكن أن تكون معطوفة على قوله « لهم الأمن » و « مهتدون » خبراً ثانياً عن اسم

(٥٧) ابن كثير : ١٥٣/٢ •

(٥٨) أبو السعود : ١٥٦/٣

الاشارة ، والضمير للفصل ، فيفيد قصر المسند على المسند اليه أي
الاهتداء مقصور عليهم دون غيرهم • ويمكن أن تكون معطوفة على
« أولئك لهم الأمن » فيكون ضمير الجمع مبتدأ ، ومهندون خبره ،
ولا قصر في الجملة (٥٩) • ولكن فيها تأكيد وتقوية ، من حيث تقدم
المسند اليه على خبره الفعلي •

الخاتمة :

وتأتى خاتمة الحلقة مشتملة على ثلاثة موضوعات :

- ١ - تعقيب على القصة •
- ٢ - بيان ما وهبه الله تعالى من الذرية الصالحة •
- ٣ - الثناء عليهم ، والحث على الاقتداء بهداهم •

فأما التعقيب على القصة فيتمثل في قوله تعالى : « وتلك حجتنا
آتيناهم ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » •
« وتلك » مبتدأ و « حجتنا » خبره ، والاشارة الى جميع ما
احتج به ابراهيم عليه السلام على قومه من قوله تعالى « فلما جن
عليه الليل » الى قوله « وهم مهندون » (٦٠) • وأثبتت الاشارة لما
أن المشار اليه هو الحجة ، وما في اسم الاشارة من معنى البعد مشعر
بتفخيم الحجة ورفع شأنها وعلو منزلتها في الفضل والشرف • واطافة
الحجة الى نون العظمة لتفخيمها وتعظيمها وبيان صحتها لكونها حجة
الله تعالى •

و « آتيناهم ابراهيم على قومه » أى أرشدناه اليها وعلمناه
اياها • و « آتيناهم » في محل نصب على أنها حال من « حجتنا »

(٥٩) ينظر التحرير والتنوير : ٣٣٣/٧ •

(٦٠) الكشاف : ٣٣/١ •

والعامل فيها معنى الإشارة ، أو في محل الرفع على أنها خبر ثان ، أو هي الخبر و « حجتنا » بدل أو بيّن للمبتدأ • و « إبراهيم » مفعول أول لأننا تقدم عليه المفعول الثاني « ها » ذكرته ضميراً ، و « على قومه » متعلق بحجتنا ان جعل خبراً لنك ، أو بمحذوف ان جعل بدلاً • و « على » للاستعلاء المجازى المبنى على تشبيهه الغالب بالمستعمل المتمكن من المغلوب • وفيها دلالة على رفع درجة إبراهيم على قومه وغلبته لهم •

ولما أشير الى الحجة وأنها من الله تعالى وقد رفع بها إبراهيم على قومه ، بين أن ذلك سنة الله تعالى المستمرة في عبادة الصالحين « نرفع درجات من نشاء » • ورفع الدرجات تمثيل لتفضيل الشأن ورفعته ، شابت حابة المفضل على غيره بحال المرتقى في سلم اذا ارتفع من درجة الى درجة وفي جميعها رفع ، والدرجات مجاز في الغضائل المتفاوتة (٦١) •

وصيغة المضارع « نرفع » تدل على أن ذلك سنة الله تعالى الجارية في عبادة الصالحين ، وفي ذون العظمة تعظيم شأن الرفع وإشعار بعلته فهو من فعل القادر الحكيم • و « درجات » نصب على المصدرية بذاويك رفعات ، أو على الظرفية ، أو على نزع الخافض أي الى درجات ، أو على التمييز • و « من نشاء » مفعول « نرفع » وتأخيره على الأرجح الثلاثة الأخيرة للاعتناء بالمقدم والنشوي الى المؤخر (٦٢) • ومفعول المشيئة محذوف أي من نشاء رفعه ، وفي محله ايجاز بديع • ونقييد الرفع بالمشيئة دال على أنه ليس لكل أحد من الناس ، وانما هو خاضع لمشيئة الله تعالى الذي لا اراد لمشيئته ولا معقب لحكمه ،

(٦١) التحرير والتنوير : ٣٣٥/٧ •

(٦٢) ينظر أبو السعود : ١٥٧/٣ •

ثم علل هذا الحكم بقوله « ان ربك حكيم عليم » وفصله عما قبله للاثبات ان قوله « نرفع درجات من نشاء » يثير سؤالا : لماذا يرفع بعض الناس دون بعض ، فأجيب بأن الله تعالى يعلم مستحق ذلك ومقدار استحقاقه •

والتأكيد بان لربط الكلام بما قبله ربطا قويا ، وتقرير مضمونه . وفي السياق التمتاع من التكلم في « نرفع » الى الغيبة في « ربك » • وفي وضع الرب مضافا الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام اظهار تزييد لطف وعناية به عليه السلام (٦٣) • وفيه أيضا تربية المهابة ، واشعر بعلو الحكم الذي تضمنته الجملة ، وايدان باستقلال جملة الذليل • وتقديم « حكيم » على « عليم » لما أن رفع درجات بعض الناس مظهر للحكمة النجارية وفق علم الله تعالى بمن يستحق التفضيل ومن لا يستحق •

وأما بيان الذرية الصالحة التي وهبها الله تعالى لابراهيم عليه السلام فقد جاء في أربع آيات هي « ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هديا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين • وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين • واسماعيل وإيسع ويونس داود وكلا ففضلنا على العالمين • ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم • » •

وقد ذكر من ذريته في هذه الآيات ستة عشر نبيا ، وبدى بذكر اسحاق ويعقوب لأن اسحاق ابنه ويعقوب حفيد ، وعبر فيها بالهبة التي هي مجاز في التفضل لأنهما جاءا على الكبر وبعد انقطاع الأمل

حسب القوانين العادية ، فكاننا هبة أعطيت له بلا جهد منه . وفصل بينهما وبين ما يليهما بالجملة الاعتراضية « كلا هدينا » و « كلا » مفعول لهدينا ، ونقدمه عليه للتقصر ، لكن لا بالنسبة الى غيرهما مطلقا بل بالنسبة الى أحدهما ، أى كل واحد منهما هدينا لا أحدهما دون الآخر (٦٤) . وفى الاعتراض بذكر هدايتهما بيان لحالهما وتنويه بسانتهما ، لما لهذا الوصف من تعظيم للمتصفين به .

وعطف « نوح » على الاعتراض لما له من شهرة فى باب الهدايا ، ومكانة بين الأمم ، ولكونه الأصل الذى تناسل منه هؤلاء وغيرهم ، فهو الأب الثانى للبشرية .

وقد جرى ذكر الأنبياء فى الآيات على غير ترتيب تاريخى ، ونحن لمعان جامعة بينهم كما يرى الشيخ رشيد رضا (٦٥) .

فالآية الأولى : جمع فيها بين الذين أتاهم الله الملك والامرة والحكم والجاه والسيادة مع النبوة والرسالة، فجمع لهم بين نعم الدنيا وهداية الدين ، ولذلك ختمت بقوله تعالى « وكذلك نجزي المحسنين » . « وكذلك » اشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ، ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير : نجزي المحسنين جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم لتقصر .

وعلى هذا يكون المراد بالمحسنين الجنس ، وبمماثلة جزائهم لجزائه مطلق المشابهة فى مقابلة الاحسان لا المماثلة من كل وجه . وقيل ان ذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده . وهو عبارة عما أوتى المذكور من فنون الكرامات، وما فيه من معنى البعد للايدان بعلو طبقته ، وانكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ، ومحلها

(٦٤) السابق .

(٦٥) ينظر المنار : ٤٨٩/٧ ، ٤٩٠ .

النصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، ولام المحسنين للتعهد ،
والقدير : نجزي المحسنين المذكورين جزاء كافئاً مثل ذلك الجراء ،
فقدم على الفعل لافادة القصر ، وبذلك يكون المشار إليه نفس
المصدر المؤد لانعثاله ، أى وذلك الجزاء البديع نجزي المحسنين
المذكورين لاجزاء آخر أدنى منه • والاظهار فى موضع الأضمار لثناء
على المذكورين بالاحسان (٦٦) •

والآية الثانية : جمع فيها بين الأنبياء الذين شهروا بشدة الزهد
فى الدنيا والاعراض عنها ، ولذلك خصهم الله بوصف الصالحين
بقوله « كل من الصالحين » أى كل واحد من المذكورين من الكاملين فى
الصالح • وذلك لأن « كل » يقتضى استغراق ما أضيف إليه ، وحكم
الاستغراق أن يثبت الحكم لكل فرد فرد لا للمجموع (٦٧) •

والآية الثالثة : جمع فيها بين من ام يكن لهم شهرة فى الملك أو
الزهد ، اذ لم يكونوا من ملوك الدنيا ولا من ذوى السلطان فيها ،
كما كان من فى الآية الأولى ، ولم يكونوا مبالغين فى الاعراض عن
الدنيا والزهد فيها كما كان من فى الآية الثانية ، ولذلك وصفوا بالتفضيل
على العالمين الذى جعله الله تعالى لكل نبي على عالمي زمانه ، ف قيل
فيهم « وكلا فضلنا على العالمين » • أى وكل واحد من أولئك
المذكورين فضلنا بالنبوة لا بعضهم دون بعض ، فتقديم المفعول « كلا »
منيد للقصر لكن لا بالنسبة الى غيرهم مطلقا ، بل بالنسبة الى كل
واحد منهم •

وأتبع تفصيل أسماء بعض ذريته بذكر عروم ذريته اجمالا لتناول
من لم يرد اسمه فى التفصيل « ومن آبائهم وذرياتهم براخه وانهم

(٦٦) أبو السعود : ١٥٨/٣ •

(٦٧) التحرير والتنوير : ٣٤٢/٧ •

واجنيبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » • واجتنبوا الله العبد :
تحصيله اياه بفيض الهى يتحصل له منه انواع من النعم بلا سعى
من العبد ، وذلك للأبياء وبغض من يقاربهم من الصديقين
والشهداء (٦٨) • « واجتنبناهم » عطف على « فقلنا » « وهديناهم »
تكرير للتأكيد على اثبات الهداية لهم ، وتمهيد لبيان ما هدوا اليه
وهو الصراط المستقيم • والصراط المستقيم تمثيل لما يكون به الفوز
وانجاة من أعمال بينها الله تعالى لعباده ، تشبيها لهذه الأعمال بالطريق
المستقيم الذى يوصل من سار عليه الى قصده فى أسرع وقت ودون
تحرير أو ضلال • والمهتدى الى هذه الأعمال مهتد الى الصراط المستقيم •
وتنكير « صراط » لتفخيمه وتعظيمه ، وقد أضيف الى ذلك تفخيمه
بالوصف « مستقيم » فحصلت له الفخامة الذاتية والفخامة الوصفية •
ثم بين أن هذا الهدى من الله تعالى لمن يشاء من عباده ، بياناً
لفضله وعظمته ، واختصاصه بمن شاء الله هدايتهم اليه « ذلك هدى
الله يهدى به من يشاء من عباده ولم أشركوا بحبظ عنهم ما كانوا
يعملون » • و « ذلك » إشارة الى الهدى الى الصراط المستقيم ، وما
فيه من معنى البعد لتعظيم شأنه وتفخيمه •

واضافة الهدى الى الله لتشريفه وتعظيمه ، وبيان أنه الهدى الذى لا
لا ضلال معه ، وفيه ترويض بما عليه المشركون من ضلال يزعمون
هدى وفى السياق الالتفات من التكلم فى « وهديناهم » الى العبيدة فى
« هدى الله » ولما سار الكلام على مقتضى الظاهر ليقين : ذلك هدانا • •
وفى اظهار اسم الجلالة على سبيل الالتفات تربية للهابة والخشية ،
وتعظيم لشأن الهدى ، وحث على اتباعه •

وفى تعليق الهداية بالمشيئة إشارة الى أنه تعالى مفضل بالهداية

على من يشاء من عباده وهم المستعدون لقبول الهداية • وفي إيهام من
بشاء الله تعالى هدايتهم بعث للنفوس على طلب الهدى والسعى في
سبيل الرشاد •

وختمت الآية بتحذير شديد « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا
يعملون » فهؤلاء المذكورون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، الذين
اجتباهم الله تعالى وهداهم إلى الصراط المستقيم لن ينفعهم عو
سأنتهم وسمو منزلتهم لو أشركوا ، اذ تحبط أعمالهم مع ما لهم من الفضل
والمكانة • وفي هذا نفطيع لأمر الشرك وتحذير منه . لانه لا ينفع لأحد
مهما كنت مكانته •

والحبط : البطلان ، وأحبط الله عن الكافر أى أبطنه ، والحبط
أيضا : أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها فتهلك وفي الحديث الشريف :
لن مما يذبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم « (٦٩) » وإيثار « حبط » لنا
فيه من دلالة على البطلان مع لحوق الضرر والألم والعذاب الشديد
بهم من جراء ذلك ، حيث كانوا يطعمون في دفع هذه الأعمال غيطات •
وفي اطلاق الفعل « يعملون » أشعار ببطلان كافة أعمالهم ، وعدم
انقذعهم بشيء منها لو حدث منهم شرك • وفي التعبير بـ « أو »
إشارة إلى امتناع ذلك منهم ، واستحالة دوره عنهم بعد أن اصطفاهم
الله تعالى وهداهم إلى صراطه المستقيم • وفي الجملة توبيخ شديد
لشركى قريش ، وبيان لبطلان كافة أعمالهم •

وأما الشاء عليهم والحث على الاقتداء بهم فيتمثل في آيتين :
الأولى قرنه تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان
يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » و « أولئك »
إشارة إلى المذكورين من الأنبياء والمعطوفين عليهم باعتبار اتصافهم

بما وصفوا به من الذنوت الجالبة • وفيه تمييز لهم أكمل تمييز • وما فيه من معنى البعد مشعر بعلو شأنهم وسمو منزلتهم •

واللام في « الكتاب » للجنس ، أى جنس الكتاب المتحقق في ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية • « والحكم » أى الحكمة أو فصل الأهر على ما يقتضيه الحق والصواب • « والنبوة » أى الرسالة (٧٠) وفى الاخبار بيتائهم هذه الأشياء العظيمة من الثناء عليهم ما لا يخفى • وتعريف المسند بالموصول والمسند اليه بالإشارة يفيد التخصيص أى أولئك الذين أتييناهم الكتاب والحكم والنبوة لا غيرهم ، والقصر اضافى بالنسبة إلى الموجودين في زمانهم وبعد النناء عليهم بما أوتوه من كتاب وحكمة ونبوة ، وجه الكلام إلى كفار قريش « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين » والتعبير بان مع أن الكلام في الكافرين المقطوع بكفرهم اتوبيخهم على هذا النقص ، والإشارة إلى أنه ما كان ينبغي حدوثه إلا على سبيل الفرض لا على سبيل التحقيق • والضمير في « بها » راجع إلى الثلاثة المذكورة أو إلى النبوة • وهى جامعة لكل •

واسم الإشارة « هؤلاء » راجع إلى كفار قريش ، وفيه تحقير لهم ، ودلالة على أنهم ليسوا أهلاً لتصریح باسمهم • وتقديم الجار والمجرور على الفاعل الاهتمام بالمقدم والنشويق إلى المؤخر •

وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله « فقد وكلنا ... » والتقدير : فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلاً فقد وكلنا ... وإفاء لربط الجملة بما قبلها ، وقد لتحقيق مضمون الجملة وتأكيده حصوله • وصيغة الماضى « وكلنا » تدل على قيام المؤمنين بذلك دون انتظار لكفر هؤلاء •

و « وكلنا » أى أمرنا بمراعاتنا ووفقنا للإيمان بها والقيام بمقتضاها ، فالوكيل هنا استعارة ، لأن التوكيل اسناد صاحب الشيء تدبير شيئه الى من يولى تدبيره . ويكفيه كلفة حفظه ورعاية ما به بلاؤه وصلاحه واملؤه ، وقد استعير في الآية للتوفيق الى الإيمان بالغيرة والكتاب والحكم ، والنظر فيما تدعو اليه ورعايته ، تشبيها لتلك الرعاية برعاية الوكيل ، وتشبيها للتوفيق اليها باسناد النظر الى الوكيل ، لأن التوكلة تقتضى وجوب الشيء الموكل بيد الوكيل مع حفظه ورعايته ، فكانت استعارة وكلنا لهذا المعنى ايجازا بديعا يقابل ما يتضمنه معنى الكفر بها من انكارها الذى فيه أضاعة حدودها (٧١) •

و « قوما » مفعول به • وتذكيره للتفخيم والتعظيم ، وتقديم الجار والمجرور « بها » عليه وهو المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والنشويين الى المؤخر ، ولأن فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه الى الاخلال بتجاوب النظم الكريم (٧٢) • والباء في قوله « ليسوا بها » صلة لكافرين ، قدمت عليها للاهتمام بالمقدم ، ومراعاة للفواصل • والباء في « بكافرين » لتأكيد النفي • والجملة الاسمية المنفية تنيد دوام النفي للكفر عنهم بمعونة المقام لأنفى الدوام ، مثلما تنيد الاسمية الموجبة دوام الثبوت ، أى ليسوا بها بكافرين في وقت من الأوقات ، بل مستمرون على الإيمان بها •

والآية الثانية « أولئك الذين هدى الله فبإيدهم اقتدء قتل لا أسألكم عليه أجرا ان هر الا ذكرى للعالمين » • و « أولئك » إشارة الى الأنبياء المذكورين في الآيات السابقة ، وفي اسم الإشارة تمييز لهم أكمل تمييز ، وما فيه من معنى البعد مشعر بعاد درجتهم وسماهم

منزلتهم في الشرف والنضل • وتكرير الإشارة لتأكيد المعاني المستفادة منها • والجملة ابتدائية قصد من استنفافها استقلالها • لئلاهتمام بمضمونها ، ولأنها وقعت موقع التكرير باضمون الجمليتين التين قبلها وحق التكرير أن يكون مفصلاً ، ولعيني عليه التفريع التام في قوله « فبهدهم اقتده » • وتعريف الهدى والهدى اليه لقصر جسس الذين هداهم الله على المذكورين تفصيلاً واجمالاً (٧٣) •

وفي اظهار اسم الجلالة التفات من التكلم في الآية السابقة الى الخيبة ، وفي الالتفات الى الاسم الجليل تربية لاهلها بالخشية • واشعار بكمال هدايتهم لأنهم اهدوا بهدى الله • وفي حذف المنعول ايجاز بديع •

وقوله « فبهدهم اقتده » تفريع على قوله « هدى الله » وتخص الى ذكر حذ محمد ﷺ من هدى الله ، وفي هذا إشارة الى عابو منزلته ﷺ ، وأنها منزلة جديرة بالتخصيص بالتفكير ، حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدمين ، وأنه جمع هدى الأولين ، وأكملت له الفضائل ، وجمع له ما تفرق من الخصائص والمزايا (٧٤) •

وتقديم أفعال الجار والمجرور على الفعل في قوله « فبهدهم اقتده » يفيد التخصيص ، أي فاختص هداهم بالافتداء ، ولا تقند إلا بهم (٧٥) • والمراد بهداهم طريقهم في الايمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابضة للنسخ • والهاء في « اقتده » هاء السكت التي تتراد في الوقف ساكنة (٧٦) •

(٧٢) أبو السعود : ١٦٠/٣ •

(٧٣) التحرير والتنوير : ٣٥٥/٧ •

(٧٤) السابق •

(٧٥) الكشف : ٣٤/٢ •

(٧٦) الألويس : ٢١٧/٧/٧٤ •

ولما أمر الرسول ﷺ بالاعتداء بهداهم ، عقب بذكر مثل من هذا
 الاقتداء وهو ابلاغ قومه بألمه لا يسألهم عن القرآن الكريم أجرا كما
 لم يسأل الأنبياء السابقون أهمهم أجرا على الهداية « قل لا أسألكم
 عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين » • وفي أمره ﷺ به « قل »
 اشارة الى أهمية المأمور به • والتعبير به « لا أسألكم » مشعر بأنه
 لا يفاتحهم في مجرد سؤال الأجر ، فكيف يأخذه • والصير في « عليه »
 للقرآن الكريم ، واضماره مع عدم تقديم ذكره ادلالة سياق الكلام
 عليه ، وفي ذلك اشارة الى وضوحه واشتهاره بين المخاطبين • وتتكبر
 « أجرا » مفيد للعموم والشمول ، أى أجرا ما قبلها أو كثيرا •

وفي قوله تعالى « ان هو الا ذكرى للعالمين » اشارة الى العلة في
 عدم سؤال الأجر ، أى : ما القرآن الا تذكير للعالمين كافة ، ومن ثم
 لا أسألكم عليه أجرا • وفي الجملة قصر موصوف على صفة ، طريقة
 النفي والامتناء ، وهو يؤكد كون القرآن الكريم عظة وتذكرا للعالمين
 كافة ، لا يختص بقوم دون قوم • وبهذا البيان العظيم لمكانة القرآن
 الكريم تنتهي هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام •

أسرار التشابه والتنوع في النظم

وبعد أن انتهينا من التحليل البلاغى للنظم القرآنى فى الحلقات السبع التى تدور فى محيط الدعوة الى الله تعالى ، نأتى الى التأمل فى نظم هذه الحلقات للكشف عما فيه تشابه وتنوع ، محاولين الوقوف على أسرار ذلك من الوجهة البيانية .

الموضوع والنظم :

تدور هذه الحلقات فى مجال دعوه ابراهيم الى عبادة الله تعالى ، وابطال ربوبية الأصنام والكواكب وعبادتها . وهى تتخذ أربعة محاور : المحور الأول : دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه ، ريمثل ذلك فى حلقة واحدة فى سور قمرىم وهى توضح أربعة أمور : تلتف ابراهيم مع أبيه فى الدعوة ، فى محاولة متأنية لاقتناعه بالحجة العقلية ، ثم بيان الضرر الذى سيلحقه من جراء عبدة الأصنام ، وتخويفه من عذاب الله تعالى . يلى ذلك رد جاف غليظ من أبيه ، يتضمن التهديد والوعيد ، والأمر بالهجر والمفارقة . يعقبه لين وسماحة وسلام من ابراهيم ، وقران بالعزلة . وتختتم الحلقة ببيان نعم الله تعالى عليه بعد العزلة .

ولغة النظم فى هذه الحلقة على نمطين : نمط لين سهل يفيض رحمة وعطفا وشفقة ، وهو ما يجرى على لسان ابراهيم عليه السلام ممثلا حلمه ورفقه بأبيه وخوفه عليه . ونمط يتسم بالجزالة والقوة ، ويغص بالتهديد والوعيد ، وهو ما يجرى على لسان أبيه ممثلا غلظته ، وتعتته فى التمسك بالضلال .

والمحور الثانى : دعوة ابراهيم عليه السلام لآبيه وقومه ، وابطال عبادة الأصنام . ويمثل هذا المحور أربع حلقات : الأولى فى سورة الشعراء ، والثانية فى سورة الصافات ، والثالثة فى سورة الانبياء ، والرابعة فى سورة العنكبوت . وهى وان اتحدت فى موضوعها العام

(١٦ - خصائص النظم)

لأنها تتنوع في تفصيها وطريقة عرضه ، وما تتضمنه من زوائد وإضافات .

فحلقة الشعراء تتضمن ثلاثة مشاهد : حيث تبدأ بإبطال عبادة الأصنام عن طريق حوار هادئ مع قومه يظهر عدم قدرتها على السمع أو الفهم أو الضرر . ويتوسطها نشاء إبراهيم على الله تعالى بأفعاله العظيمة ونعمته الجليلة التي تظهر قدرته المطلقة في مقابل عجز الأصنام المطلق ، ويعرف قومه من خلاله بصفات رب العالمين ، وتنتهي بدعاء خاشع من إبراهيم عليه السلام يسأل الله تعالى فيه الحكم والإصلاح والذكر الحسن ووراثة الجنة ، والمغفرة لأبيه ، وعدم الخزي يوم القيامة ، وكأنه بهذا يقول لقومه إن ربي سميع الدعاء مجيب الرجاء بينما لا تسع آلهتكم دعاء ولا تحقق رجاء .

ونعنة النظم في الحلقة تجمع بين السهولة والجزالة في آيات قصيرة ، ذات صياغة هادئة ، تعتمد على أساليب ثلاثة : أسلوب الاستفهام في البداية ، وهو يحقق لإبراهيم ما يرجوه من الإنكار على قومه وإرشادهم إلى الصواب دون إثارة مشاعرهم وتنجير غيظهم وأسلوب الخبر في الوسط ، وعن طريقة أمكنه النشاء على ربه بأفعاله ودفاته ، وعرف قومه برب العالمين القادر الحكيم . وينتهي الخاتمة بأسلوب الدعاء الخاشع الذي يركز على صيغة الأمر منتهيا بصيغة النهي .

وحلقة الصافات تتضمن قسمين : الأول يتعلق بدعوة إبراهيم إلى الله تعالى وإبطال عبادة الأصنام ، والثاني فيه تفصيل لقصة إسماعيل عليه السلام وتعداد لنعم الله تعالى على إبراهيم . وفي هذين القسمين توضيح لأربعة مشاهد : أولها : يبطل فيه إبراهيم عبادة الأصنام عن طريق تساؤلات من جانبه وحده لقومه تارة وللأصنام أخرى بينما يلوذ قومه بالصمت ، ويتولون عنه مذهبين فيستنطق الأصنام

تهكما وسخرية ، وتعجز الأصنام عن النطق فيقوم بتفسيرها ، يحرك مشاعر القوم فيواجهون حججه ويردون عليه • وثانيها : يصور مجيء القوم اليه في صياح ولغط غير مفهوم ، وافحام ابراهيم لهم بالدليل • وثالثها : يوجز انتقامهم منه ببناء البنيان والقائه في الجحيم • ونجاته منه وقراره بالهجرة التي ربه • ورابعها : ذكر النعم التي وهبها الله له اثر ذلك ، وهي تبدأ بتفصيل نعمة كبرى لم تذكر في غير هذه السورة وهي هبة اسماعيل وذكر ما جرى معه من ابتلاء وفداء ، وتختتم بتعداد نعم جليلة أخرى في ايجاز بديع •

ونظم هذه الحلقة يتنوع تبعاً لقسميها : ففي قسمها الأول يميل الى الجزالة والقوة ، ويقع في آيات قصيرة عالية انبرة ، تعبر عن الانكار الشديد ، والتوبيخ العنيف ، وشدة العجب والغيظ من جانب ابراهيم عليه السلام وهو يواجه قوم لادوا بالصمت ، وأصناماً لا تنطق ، كما تعبر عن الحقد الدفين من جانب القوم وقد اتوا صائحين مصممين على الانتقام بأفظع الوسائل • وفي قسمها الثاني يميل الى اللين والسهولة ، ويقع في آيات بعضها طويل وبعضها قصير ، مع هدوء نبرتها في كل ، إلا أنها تستجلب الائتماف والعطف في عرض حادث الابتلاء ، وتعلن البشر والفرحة في عرض الفداء وبقيّة النعم •

وحقّة الانبياء خالصة لحكاية مجادلته لقومه في عبادة الأصنام وابطالها بالحجة العقلية ، وما ترتب على ذلك • ومن ثم اهتمت بتفصيل هذا الموضوع ، ويبين مراحلته عن طريق الحوار المستمر بين ابراهيم وقومه من أول الحاقة الى آخرها تقريبا • وأطلعنا على تفاصيل دقيقة عن تساؤلات ابراهيم عليه السلام للقوم ، وردودهم عليه ، وتهديده بالكيد للأصنام ، وقيامه بتفسيرها وترك كبيرها ، وحدث القوم عن الفاعل ، وشكهم في ابراهيم ، واحضاره للتحقيق والمحكمة أمام الجمهور ، والزائم بالحجة على فساد عبادتهم ، وتقبر غيظهم وانحسار

عليه بالتدريق ، ونجاته من النار بأمر الله تعالى لها أن تكون بردا وسلاما عليه • وما أصابهم من خزي وخسران بعد ذلك • وتختتم الحلقة بتعداد موجز لبعض ما أنعم الله به عليه اثر هجرته •

ونظم هذه الحلقة آياته متوسطة الطول ، ولغته تميل الى السهولة ايضا للحوار المتتابع بين الفريقين ، والذي يستولى على معظم الحلقة ، ونبرته هادئة وان كانت تشدد في المواطن المعبرة عن الغيظ كما في قوله « وتالله لأكيدن أصنامكم » وقوله « أف لكم ولم تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » ، وقولهم « حرقوه وانصروا آلهتكم » •

وحلقة العنكاويت تنحو في عرض القضية منحى مختلفا عن الحلقات السابقة ، حيث تمزج بين الأمر والخبر والاستفهام في نمط متناهل يؤدي المقصود ، فتبدأ بأمر ابراهيم قومه بعبادة الله وتقواه ، معللا بالأسلوب الخبري • يتبع ذلك بيان خبري يكشف حقيقة عبادتهم الفاسدة التي هي لأوثان لا فائدة منها • يعقبه أمر بابتغاء الرزق عند الله وعبادته وشكره معلل بالجملة الخبرية التي تبين رجوعهم اليه للحساب • يلي ذلك لفت لمظاهر القدرة في الخلق والاعادة عن طريق الاستفهام التقريري ، لايتمتع بتذليل خبري يؤكد يسر ذلك على الله تعالى • وأمر بالسير والنظر في بدء الخلق واعادته وتذليل خبري يقرر قدرة الله على ذلك وعلى غيره • يليه تهديد ووعيد وبيان لعدم تفاتهم من عذاب الله تعالى • ثم يساق رد موجز للقوم مبني على الأمر بقتله أو حرقه ، وخبر موجز بنجاته من النار • ويعاود ابراهيم عليه السلام تذكيرهم بأنهم على ضلال في اتخاذهم الأوثان آلهة ، ويحذرهم من موقفهم السيئ يوم القيامة • وتأتي بعد ذلك مهاجرة الى ربه وفي اثرها نعم الله التي تواتت عليه •

وآيات هذه الحلقة يغلب عليها الطول ، ولغتها تميل الى الجزالة والقوة لخلوها من الحوار وقيامها على الأوامر القوية والأخبار المؤددة

وفي نظمها وزج بين الأمر والخبر والاستفهام كما أشرنا آخفا ، ونبرته هادئة إلا في الأمر بالانتقام من ابراهيم « اقتلوه أو حرقوه » وفي بيان مصير اقنوم يوم القيامة « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويعلم بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » •

والمحور الثالث : مواجهة ابراهيم عليه السلام للنمرود بن كنعان طاغية عصره • ويمثله حلقة سورة البقرة وهي تتكون من آية واحدة طويلة تبدأ باستفهام تقريرى تعجيبى ، ثم حوار يبدؤه ابراهيم عليه السلام بقراره أهم أن الله هو الذى يحيى ويميت ، فيرد عليه الملك أنه هو الذى يحيى ويميت ، فيفحمه ابراهيم بطالب لا يقدر عليه « ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » فيبيت الطاغية ولا يستطيع جوابا ، وتختتم الحلقة بتذييل يبين عدم هداية الله للظالمين •

فدوضوع الحلقة ليس في ابطال عبادة الأصنام كالحلقات السابقة، ولكنه في ابطال ألوهية الطاغية الذى يدعى الألوهية • ونظمها يميل الى السهولة التى يتطلبها الحوار الهادى الذى تبنى عليه الحلقة •

والمحور الرابع : ابطال ربوبية الكواكب وعبادتها • ويمثله حلقة واحدة في سورة الأنعام • وهى تصم ثلاثة مشاهد :

الأول : يحكى استدلال ابراهيم على بطلان ربوبية الكواكب وعبادتها ، ويتكون من وقفات ثلاث أمام الكوكب والقمر والشمس ، والاستدلال بأفولها على استحالة ألوهيتها ، وعدم أحقيتها بالعبادة ، ويختمها بالتبرؤ من شرك قومه ، ويبين للته الصيفية التى تقوم على توحيد الله تعالى •

والثانى : يبين محاجة القوم لابراهيم عليه السلام ، وتخصيفه بكهنتهم ، ورد ابراهيم عليهم في ذلك •

والثالث : خاتمة طويلة تتضمن تعقيبا على القصة ، وسردا مفصلا
لذرية ابراهيم من الأنبياء والمرسلين ، وبياننا لمكنونهم وما أوتوا من حكم
ونبوة ، وحثا على الاهتداء بهداهم .

وآيات هذه الحلقة متوسطة الطول ، ونظمها يجمع بين السهولة
والجزالة ، ويبنى في المشهد الأول على حوار لابراهيم مع نفسه ،
ينتهي باعلان البراءة من شرك قومه . ويعتمد في المشهد الثانى على
الاستفهام الانكارى بجانب الجمل الخبرية ، والمواجهة فيه من طرف
واحد هو ابراهيم عليه السلام ، ردا على محاجتهم التى لم تفصل .
ويقوم المشهد الثالث على الأسلوب الخبرى المؤكد فى كثير من جملة .

البدايات :

تشابه الحلقات فى بداياتها من حيث ما تتضمنه من تنبيه
للأذهان ، وإيقاظ للاسماع ، لتلقى ما يعرض عليها باهتمام ، وتتنوع
شكلا وموضوعا ويتنوع السبيل الى ذلك ، فبدأت عن طريق كلمة ،
كما فى بداية حلقة العنكبوت « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله
وانقره » فالبدا بالاسم « ابراهيم » فيه تشويق وتنبيه لما يأتى
بعده من أحداث تخصه وتتعلق به . ويكون عن طريق جملة فى الآية ،
كما فى بداية حلقة البقرة « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه » .
ويأتى عن طريق آية تمهيدية ، وهو ما نراه فى أكثر الحلقات ، فتبدأ
حنقة مريم بقوله تعالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا
نبيا » ، وحلقة الشعراء بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ ابراهيم » ،
وحلقة الصافات بقوله تعالى : « وان من شيعته لابراهيم » ، وحلقة
الأنبياء بقوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به
عالمين » . ونجده عن طريق آية تشترك مع صلب الحلقة فى الموضوع
العام وهو الدعوة ، وتختلف عنه فى محورها ، وذلك فى حافة الأنعام

حيث تبدأ بآية في الابتكار على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة ، بينما موضوع حلقة الأعلام في أبطال عبادة الكواكب « واذ قال إبراهيم لأبيه آزر آتخذ أصدناما آلهة انى أراك وقومك في ضلال مبين » وضاعف من التنبيه في هذا الموطن شدة لهجة الآية وعلو نبرتها ، ثم ما تلاها من آية تمهد لظهوره في النيرات السماوية « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » •

وبدائية كل حلقة تتخذ نسقا يتلاءم مع ما في السورة بوجه من الوجوه • فحلقة سورة مريم تبدأ بالأمر بذكر إبراهيم في الكتاب « واذكر في الكتاب إبراهيم » وهذا يتلاءم مع بدايات القصص الواردة في السورة ، فبدائية قصة زكريا « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » (١) وبدائية قصة مريم « واذكر في الكتاب مريم » (٢) ثم تأتي قصة إبراهيم تليها قصة موسى وبدايتها « واذكر في الكتاب موسى » (٣) ثم قصة اسماعيل وبدايتها « واذكر في الكتاب اسماعيل » (٤) وتخدم القصص بقصة ادريس وبدايتها « واذكر في الكتاب ادريس » (٥) •

وحلقة الشعراء تختلف في بدايتها عن بدايات القصص التي في السورة ، فأول قصة فيها هي قصة موسى عليه السلام وتبدأ بقوله تعالى « واذ نادى ربك موسى » (٦) ، وتأتى بعدها قصة إبراهيم عليه السلام وبدايتها « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ، يليها قصص : نوح وهود وصالح

(١) مريم : ٢ •

(٢) مريم : ١٦ •

(٣) مريم : ٥١ •

(٤) مريم : ٥٤ •

(٥) مريم : ٥٦ •

(٦) الشعراء : ١٠ •

ولوط وشعيب عليهم السلام : وهى مبدوءة جميعها بنسبة التكذيب الى اقوام هؤلاء الرسل (٧) • ولعل السر في الاختلاف بداية قصة ابراهيم عما قبلها وما بعدها من قصص ، هو ارتباطها الشديد ببداية سورة ، اذ تبدأ سورة الشعراء بخطاب للرسول ﷺ ، وحديث عن المكذبين من قريش وعنادهم ، وهؤلاء ينتسبون الى ابراهيم عليه السلام ، ويعتبرونه جدالهم ، ويوعدون أنهم يسيرون على نهجه ، فلما عرضت قصة ابراهيم ناسب هذا أن يؤمر الرسول ﷺ بتلاوتها على قومه على سبيل الخصوص ، ليلفت أذهانهم اليها ، ويعلموا منها محاربة ابراهيم للأصنام وعابديها ، ويتيقنوا أنهم ليسوا على نهجه ، وقلد يدفعهم ذلك الى متابعة الرسول ﷺ • كما أن جريمة قوم ابراهيم المذكورين في الشعراء هى عبادة الأصنام ، والعرب يشتركون معهم في ذلك ، فتلاوة هذه القصة عليهم فيها عظة واعتبار لهم أكثر من غيرها ، نظرا للاشتراك في الجرم زيادة على ذلك أن قوم ابراهيم في حلقة الشعراء لم يكذبوه ولم يسخروا منه وانما عللوا فعلهم بتقليد الآباء ، ومن ثم لم تبدأ القصة باسماد التكذيب اليهم كما في القصص التي كذب فيها الأقوام أنبياءهم •

وحلقة الصافات ترتبط فيها قصة ابراهيم بقصة نوح عليهما السلام بتفاصيل بديع وقد مهد لذكر القصص في هذه السورة بقوله تعالى « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين • ولقد أرسلنا فيهم موزرين • » (٨) • ثم جاءت قصة نوح كأحد هؤلاء المذخرين على نفس المنهج « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » (٩) ثم ربطت قصة ابراهيم بنوح عليه السلام باعتبار أن ابراهيم من شيعته « وان من شيعته لابراهيم » •

(٧) الشعراء : الآيات : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٦٠ ، ١٧٦ •

(٨) الصافات : ٧١ ، ٧٢ •

(٩) الصافات : ٧٥ •

وهي بداية لا تختلف كثيراً عن بدايات قصص أخرى نليناها في السورة « وان الياس لمن المرسلين » ، « وان لوطا لمن المرسلين » ، « وان يونس » « وان المرسلين » (١٠) •

وحلقة الأنبياء متلاءم بدايتها مع بداية قصة موسى وهارون التي تسبقها وهي أول قصة في السورة « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء » (١١) وعلى هذا النهج بدئت قصة ابراهيم « ولقد آتينا ابراهيم رشده » •

وحلقة العنكبوت عطف بدايتها « و ابراهيم » على « نوحا » في القصة التي تسبقها حيث بدئت بقوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحا » (١٢) فنلتها قصة ابراهيم معطوفة عليها والفقير : وأرسلنا ابراهيم ، وبذلك اتصلت القصتان ، ثم جاءت القصة التي بعد ذلك على نفس النهج « ولوطا اذ قال لقومه » (١٣) •

وحلقة البقرة تبدأ بداية تقريرية تعجيوية « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » وهي بداية تتناسب مع بدايات القصص التي سبقتها قبل آيات ، والتي تبدأ بقوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » ، وقوله تعالى : « ألم تر الى الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى » (١٤) •

وسيرة الأنعام تزاو من القصص المفصل الأنبياء السابقين ، ألا من قصة ابراهيم عليه السلام فسلك في بدايتها النهج الشائع في

(١٠) الصافات : الآيات : ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٩ •

(١١) الأنبياء : ٤٨ •

(١٢) العنكبوت : ١٤ •

(١٣) العنكبوت : ٢٨ •

(١٤) البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٦ •

تخير من قصص القرآن الكريم • وأخبره وهو البدء بـ « إذ » كما أن قبلها أمر للرسول ﷺ بترك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وأمر بالتذكير بالقرآن الكريم في قوله تعالى : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » (١٥) ثم أمر له بالإنكار عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر « قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » (١٦) وبعد ذلك جاءت قصة إبراهيم عليه السلام مبدوءة بالأمر بالتذكير الذي تفسح عنه « إذ » الظرفية « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وهذا يتلاءم مع ما سبق من الأمر بالتذكير والإنكار : أى اذكر لهم — بع — ما سلف — قول إبراهيم لأبيه ••• فهم أقرب الناس إليه ويدعون أنهم على نهجه ، وتذكيرهم بقصته أبلغ في وعظهم وزجرهم وحثهم على اتباع نهجك المستقيم •

السؤال الأول وجوابه :

وبعد البداية المشوقة يأتي أول حدث في الحلقة ، ويتمثل في حكاية ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه أو لقومه ، وجواب هذا القول • وإبراهيم عليه السلام هو الذى يبدأ الحوار في الحلقات السبع ، وذلك باعتباره مكلفا بدعوة قومه الى عبادة الله تعالى ، ومهتما بتغيير الباطل السائد بينهم ، وحريصا على اخراجهم مما هم فيه من ضلال ، وهن ثم فهو الذى يملك زمام المبادأة •

ويتنوع الأسلوب الذى يبدأ به الحوار : فهو استفهام موجه لأبيه في مريم والأنعام ، واستفهام موجه لأبيه وقومه في الشعراء

(١٥) الأنعام : ٧٠ •

(١٦) الأنعام : ٧١ •

والصافات والأنبياء ، وأمر لقومه في العنكبوت ، وجملة خبرية في البقرة .
كما تتنوع صيغة الاستفهام في الحلقات التي بدئت به ، والجواب عنه ، ومن أوضح كل ذلك فيما يلي :

١ - في حاقة مريم « أذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » •

وفي حلقة الأنعام « واذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتخذ أصناما إلهة انى أراك وقومك في ضلال مبين » •

والتنوع في الآيتين يبدو من وجوه :

الأول : في الآية الأولى أضمر القائل وهو إبراهيم عليه السلام ، وذلك لتقدم ذكره في الآية السابقة عليها • وفي الآية الثانية أظهر القائل لعدم تقدم ذكره في الآيات السابقة •

والثاني : في الأولى قيل « لأبيه » ، وفي الثانية قيل « لأبيه آزر » ولعل السر في ذلك أن الكلام جرى في الآية الأولى على منهج الرفق والأمانة كما هو مطلوب في مخاطبة الأب فعلم من ذلك أنه أبوه الحقيقي بدلاله الأسلوب وقرر ذلك بذرائع « يا أبت » ، وتكرار هذا النداء في الآيات التالية • وفي الآية الثانية علت ذبرة التوبيخ والتعنيف بما أن تبين اصرار الأب على الكفر والعناد مع القيم ، وهذا غير معتاد في مخاطبة الآباء ، فصرح باسم الأب دلالة على أنه الأب الحقيقي لا على سبيل المجاز الذي يوحى به الأسلوب التوبيخي • وهذا في نظرنا يسقط ما قاله بعض المفسرين من أن « آزر » ليس الأب الحقيقي ، بدليل مخاطبته بالغلظة والجفاء (١٧) • فعلى ما بيناه تكون الغلظة

(١٧) ينظر الألوسي : ١٩٥/٧/٤ • وينظر ما كتبناه عن اسم أبيه

في تحليلنا لهذه الحلقة •

التي يحتجون بها داعية لظهور اسم الأب ، ليعين بوصفه واسمه كى لا يصرف الى المجاز ، والغلظة هنا من مقتضيات المقام بعد ظهور اصرار الأب على العناد والكفر ، على أن ما فى الآية ليس من غيبيل الغلظة المحرمة ، فهى فى سبيل الله تعالى لا فى سبيل مصلحة دنيوية ، ولم تزد على كونها مصارحة بالحقيقة ، وحكاية للحال القائمة •

والثالث : جاء الاستفهام فى الآية الأولى رقيقا لينا ، فهو وإن كان مفيدا للتوبيخ والتعجيب ، إلا أنه ورد فى صيغة سؤال عن العلة فى عبادة ما يعبد ، وكأنه بذلك يتيح لأبيه فرصة يجيب عليها ، ويبين عذره فى هذه العبادة ، فيتواصل الحوار بأن يبطل ابراهيم عذره ويزيله ، وهذا يتلاءم مع جو الحلقة المفعم باللفظ واللين فى دعوة أبيه • وجاء الاستفهام فى الآية الثانية منظويا على تزيين شديده وتهكم وتعجيب ، حيث جاء بالهمزة وهى أضل فى هذا الباب ، ولم يكن عن العلة ، وإنما كان عن وصف للضع المتلبس به واللوم عليه ، وعبر فيه بالاتخاذ المبني على الاختيار ، فهو الذى يتخذها باختياره دون أن تفرض عليه ، أو يكون له عذر فى عبادتها ، وتسمية المعبودات باسمها الذى يبين أصلها الجمادى الذى لا حول له ولا طول ، ففيتنافى اتخاذها آلهة مع أبسط مقررات العقول • وهذا يتلاءم مع جو الحلقة ، حيث يشتد ابراهيم فى إعلان البراءة من قومه المشركين ومن شركهم ، ويصرح بعدم خوفه من تهديدهم •

والذى يبدو لى - والله أعلم - أن اللطف واللين فى حلقة مريم استجيبه بجانب الأبوة أنه يعرض على أبيه الدعوة ويبين له مضار عبادة الأصنام ، وهذا يستدعى اللطف فى العرض ، مع انتفضيل فيه بأساليب متنوعة • أما آية الأنعام فهى فى صدر حلقة موضوعها ابطال عبادة الكواكب وهو مختلف عن موضوع آية مريم الذى يدور فى محيط عبادة الأصنام ، والآية ليس فيها عرض للدعوة ، بل وصف وتقرير

حالة وجوده مع الآلوه والتمنيف عليها ، فبليت على المصارحة بالحقيقة مهما كانت شديدة ومؤلمة •

٢ - في حلقة الشعراء قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » وقيل في جواب القوم « قالوا نعبد أصناما فنظن لها عاكين » •

وفي حلقة الصافات قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » ولم يرد جواب للقوم عن هذا •

وفي حلقة الأنبياء قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » وقيل في جواب القوم « قالوا وجدنا آبائنا لها عاكدين » •

وتتفق الحلقات الثلاث في أن القول كان من ابراهيم لأبيه وقومه ، والاهتمام بالنص على أبيه مع أنه يدخل في القوم لظهار العناية بتبليغه أكثر من غيره ، حيث دعى على انفراد ودعى مع القوم ، وللاشارة بأن أباه كان مشاركاً القوم في ناديمهم ومصرأ معهم على عبادة الأصنام •

وتتنوع الحلقات الثلاث في السؤال والجواب : ولعل السر في ذلك أن دعوة ابراهيم لأبيه وقومه لم تكن مرة واحدة بل تكررت في فترات مختلفة وبأساليب متنوعة ، اذ لا يعقل أنه دعاهم مرة واحدة وكان بعدها ما كان من القائه في النار ، وبهذا يضعف ما قيل من أن القصة واحدة وقد اختلف المحكى (١٨) •

نعم القصة واحدة من حيث دورانها في محيط دعوة أبيه وقومه الى عبادة الله تعالى ونبد عبادة الأصنام ، لكن عرض الدعرة على القوم

(١٨) ينظر ملاك التأويل : ٨٣٨/٢ •

والحوار معهم في شأن الأصنام متكرر ومتعدد ، ودانت نتيجته النهائية تسير الأصنام ثم القاؤه في النار ، فالقصة واحدة من حيث موضوعها العام ، وواحدة في نتائجها النهائية ، ومتعددة في أحداثها الداخلية نتيجة لتكرر عرض الدعوة ، ومن ثم ثلا تكرار للقصة على سبيل الحقيقة .

وحلقة الشعراء هي أولى الحلقات نزولا ، وتحكى أولى مراحل الدعوة (١٩) ومجرد التنبية والايقاز الى ما يعبدون كاف فيها ، فجاء السؤال فيها عن ما هية ما يعبدون بقوله « ما تعبدون » أى : أى شيء تعبدون ؟ وكأنه عليه السلام لم يشاهدها ، وعلم أنهم يعبدون أصناما لا تعقل عبادتها . ومن ثم أجروه مجرى المستفهم حقيقة عنها ، فأجابوه مبينين حقيقة ما يعبدون ؟ وكيف عبادتهم له « قالوا نعبد أصناما فظل لها عاكفين » وبذلك طابق جوابهم سؤاله (٢٠) .

وحلقة الصافات تمثل مرحلة تالية تلتى قبلها ، ومن ثم كان السؤال فيها ممحضا للإنكار بما فيه من دلالات ، حيث قال « ما تعبدون » فجاء بما الاستفهامية داخلية على اسم الإشارة « ذا » المشرب معنى الموصول ، وتعبدون صلته وهذا يقتضى أن ما يعبدونه مشاهد ومعروف لأبراهيم عليه السلام ، فانصرف الاستفهام بذلك عن معناه الحقيقي الى معنى الإنكار ، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوه كما أجابوه في الحلقة السابقة ، ومن ثم استمر في توبيخهم وتبكيتهم فقال « أفكأ آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين » (٢١) . والمقرر عند الفحويين أن « ماذا » اما مركبة من « ما » الاستفهامية و « ذا » التى هي اسم إشارة أو اسم موصول ، أو هي

(١٩) ينظر التحرير والتنوير : ١٣٨/٢٢ .

(٢٠) ينظر درة التنزيل : ٣٣١ ، وملاك التأويل : ٨٢٩/٢ .

(٢١) ينظر درة التنزيل : ٣٣١ ، والتحرير والتنوير : ١٣٨/٢٢ .

كلها اسم استفهام ، وهى على كل حال أقوى وأركن من « ما » وحدها .
فلمّا كان القصد فى حلقة الشعراء هو تنبيههم كانت « ما » كافية فى
أداء المقصود ، ولما اشد فى التوبيخ والتفريع فى مرحلة تالية كانت
« ماذا » هى الأقوى والأبلغ والأنسب بالمقام (٢٢) .

وحلقة الأنبياء تمثل مرحلة ثانية فى الدعوة لمرحلة حلقة الصالحات ،
فجاء سؤال إبراهيم فيها أشد فى التوبيخ وأقوى فى السخرية والتهكم
بهم وبمعبوداتهم حيث قال « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون »
فمعبّر باسم الإشارة منفصلا عن « ما » الاستفهامية لا مركبا معها ،
وألحق به هاء التنبية ، فأكمل فى الدلالة على حقارة المعبودات وضععتها ،
وسماها « تماثيل » خلافا لما يسمونها به ، سخرية واستهزاء بها ،
ووصفهم بالعكف عليها والملازمة لها زيادة فى التهكم بهم ، حيث
يعكفون على تماثيل صنعوها بأيديهم . وقد دفعهم هذا التوبيخ الشديد
والتهكم اللاذع الى البحث عن اجابة تدرك ما حل بهم ، فلم يجدوا
الا أن يلجأوا الى التقليد ، ويتشبثوا باتباع الآباء « قالوا وجدنا آباءنا
لها عابدين » .

ولما كان فى سؤاله إشارة تحقيرية الى تماثيلهم التى يعبدونها ،
مما يدل على معرفته القامة بها ، وأن السؤال ليس حقيقيا ، بل على
سبيل الإنكار والتهكم ، لم يجابوه ببيان حقيقتها كما هو ظاهر سؤاله ،
بل أجابوه ببيان سبب عبادتها ، وهو تقليد الآباء . وبذلك اختلف
الجواب هنا عنه فى الشعراء ، اذ ورد السؤال فى الشعراء خاليا من
الإشارة الى الأصنام ومما يدل على معرفته بها ، فأجابوه ببيان حقيقتها
« قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين » .

انتقل بتقليد الآباء :

علل انقوم عبادتهم للأصنام بتقليد آباءهم ، وقد جاء هذا في حلقتي الشعراء والأنبياء ففي الشعراء : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » •

وفي الأنبياء : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » •

والتنوع يظهر من وجهين :

الأول : وجود « بل » في آية الشعراء دون آية الأنبياء • وسر ذلك راجع إلى اختلاف السؤالين ، ففي حلقة الشعراء كان السؤال « هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » وانجواب عن هذا السؤال إما أن يكون بالاثبات أو بالنفي ، فلو أجابوا عنه بالنفي كما هو الحق ، لا عترفوا بأنهم يعبدون آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، وبذلك نازمهم الحجة ببطان هذه العبادة ، ولو أجابوا عنه بالاثبات لكانت اجابتهم مخالفة للحقيقة المشاهدة المحسوسة ، فيظهر كذبهم ، ومن ثم لم يجدوا ما ينقذهم من الاجابة عن هذا السؤال الذي سيورطهم ويوقعهم في الحرج الا أن يضربوا عن الاجابة عنه الى ما يروونه عذرا وعلة لهم في عبادتها ، وهو تقليد الآباء فجاءت الاجابة مصدرة بـ « بل » لتفديد آخرابهم عن السابق الى كلام جديد ، وكانهم قالوا لا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • وبذلك كانت « بل » هنا لازمة للجواب ، ولا يمكن أن يتأتى بدونها •

أما في حقيقة الأنبياء فقد كان السؤال « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » وهذا سؤال على سبيل التوبيخ والتهكم ، وكأنه يقول لهم : لم تعبدونها وتمكفون عليها وأنتم تعمارون أنهما تماثيل صنعتها بأيديكم ولا حياة فيها ولا ضر • فقلوا دبينين العاة والسبب

في عبادتها : « وجدنا آباءنا لها عابدين » ، فلا محل للاضراب هنا .
والجواب لا يقتضى وجود « بل » لأنه لا اضراب عن كلام سابق (٢٢) .
والثانى : فى آية اشعراء قيل « كذلك يفعلون » وفى آية الأنبياء
قيل « لها عابدين » . والذى يظهر لنا فى سر ذلك هو تلوين الأسلوب ،
ومجانبية التكرار من غير فائدة ، ففى حلقة الشعراء تقدم ذكر العبادة
والعكوف ، اد كان السؤال الأول « ما تعبدون » وكانت الاجابة « نعبد
أصناما فنظّل لها عاكفين » ومن ثم عبر فى الجواب الدالى بالفعل نظراً
لتقدم العبادة والعكوف ، مع الاكتفاء بدلالة الكاف للتشبيهية واسم
الاشارة على تعيين الفعل المقصود وهو « نعبد أصناما فنظّل لها
عاكفين » .

أما فى حلقة الأنبياء فلم يتقدم سوى ذكر العكوف فى السؤال
« ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ولم تذلل عبادة ، ومن ثم
ذكرت فى جوابهم « وجدنا آباءنا لها عابدين » لاختصاصها بالدلالة على
المقصود ، مع عدم تقدم ذكرها ، والتغاير موجود فى الأسلوب مع
التعبير بها .

إبطال عنتهم :

ولما تعلق القوم بتقليد آبائهم فى عبادة الأصنام رد ابراهيم
عليهم عنتهم وقد جاء رده متنوعا .

ففى حلقة الشعراء « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآبائكم
الأقدمون • فانهم عدو لى الا رب العالمين » .

وفى حلقة الأنبياء « قل لقد كنتم أنتم وآبائكم فى ضلال مبين » .
وهذا راجع الى أن حلقة الشعراء تهل مرحلة البدايه فى الدعوة

(٢٢) ينظر درة التنزيل ٢٢٩ ، وملاك التأويل ٨٤٠ .

(١٧ — خصائص النظم)

ففيها تخفيف من حدة الإنكار والتوبيخ ، وبعد عن الذم المباشر ، حتى لا يصدهم عنه ويؤلبهم عليه من أول الأمر ، فناسب هذا أن يشرفهم الى حكمه على أصنامهم عن طريق الاستفهام الطويل ، وبعد التشويق الى الحكم أخبرهم بأنها عدو له ، ولم يذم القوم بنعت ما من النعوت ، ولكن تخلص من ذلك الى ذكر ربه رب العالمين ، وأخذ في الثناء عليه ليعرفهم ببعض نعمه وفضائله •

أما حلقة الأنبياء فظاهر أنها كانت في مرحلة متأخرة من الدعوة وذلك بعد أن لاقى منهم ما لاقى من اعراض وايداء واصرار على العناد والكفر ، ومن ثم اشد عليهم فيها بالتوبيخ ، يذمهم ذمًا مباشرًا هم وأبائهم بالخبر المؤكد بعدة تأكيدات فقال « لقد كنتم أنتم وأبائكم في ضلال مبين » • وقد هزمهم هذا الذم المباشر هزا عنيفا وحرك مشاعرهم ، ودعاهم للسؤال عن حقيقة ما جاءهم به « قالوا اجئتنا بالحق أم أنت من الالعبين » • فأضرب ابراهيم عن كلامهم مبطلا كونه من الالعبين ، ببيان الرب الحقيقي مع الدليل على ربوبيته ، وهو خلق السموات والأرض « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي غطاهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » ، وأتبع ذلك بتهديد أصنامهم ، والحنف على الكيد لها والانتقام منها « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » •

تكسير الأصنام :

وتفسير ابراهيم عليه السلام للأصنام مشهد واحد كما أشرنا الى ذلك آنفا ، وهو مشهد متسع المساحة ، وقد جاء في حلقتي الصفات والأنبياء محكيا بعبارة متنوعة ، تعطيه من جميع جوانبه ، بالاجابة عن الأسئلة التالية :

متى عزم على التكسير ؟ وم الوقت الذي حددته اذلك ؟ وما الحيلة التي لجأ اليها لتنفيذ مرادة ؟ وكيف ذهب الى الأصنام يكسرها ؟ وما

بمواصفات التكسير وحدوده ؟ وما موقف انقوم من ذلك ؟ وكيف واجهوا ابراهيم وحققوا معه ؟ وما جوابه عليهم ؟ وما موقف انقوم بعد جوابه ؟ وما الرد النهائي من ابراهيم عليه السلام ؟ وهذه الأسئلة العشرة لم تجب عنها حاقّة واحدة ، ولا كررت الاجابة عنها في الحلقنتين ، بل ان كل حلقة منهما أجابت عن عدد منها يجعل المشهد فيها كاهل الافادة دالا على المقصود .

ي . عن السؤال الأول والثاني تجيب حلقة الأنبياء : « وثالثه لأديين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فقد عزم على كسر الأصنام بعد المناقشة الحامية معهم ، وعندها أقسم قسما مؤكدا بأن يكيد لأصنامهم ، وحدد رقت ذلك بذهابهم مدبرين بعيدا عنها ، كي لا يرده أحد عن تنفيذ ما عزم عليه .

وعن السؤال الثالث تجيب حلقة الصافات : « فنظر نظرة في النجوم . فقال أنى سقيم . فقراروا عنه مدبرين » لقد جاءه انقوم ليخرجهم الى عيدهم فجال ببصره في السماء مفكرا فيما يقول ، وسرعان ما اعتذر لهم بالسقم ، فأسرعوا الى عيدهم مدبرين عنه . تاركين أصنامهم من غير حراسة بعد أن تركوا أمامهم أطياب الطعام لتباركه .

وعن السؤال الرابع تجيب حلقة الصافات : « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تتطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين » . لقد تسال الى آلهتهم في خفية كي لا يشعر به أحد ، فوجد الأطلعة وقد صفت ، أمامهم ، فوبخهم وسخر منهم لعدم قدرتهم على الأكل وانطق ، ثم انهال عليهم ضربا قويا للقضاء عليهم .

وعن السؤال الخامس تجيب حلقة الأنبياء : « فجعلهم جذاذا ألا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » لقد حولهم من شدة الضرب الى قطع صغيرة ، وترك صنما كبيرا من غير تكسير ، قاصدا توبيخهم عندما يرجعون اليه لسؤاله عما حدث .

وعن السؤال السادس تجيب حلقة الأنبياء : « قالوا من فعل
هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين • فانوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم •
قالوا نأثروا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون » •

وعن السؤال السابع تجيب حلقة الصافات في ايجاز : « غافقنوا
اليه يزفون » ولم تفصل سؤالهم له ، وقد فصلته طقه الأنبياء « قالوا
أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » •

وعن السؤال الثامن تجيب حلقة الأنبياء : « قال بل فعله كبيرهم
هذا فاسألهم ان كانوا ينطقون » •

وعن السؤال التاسع تجيب حلقة الأنبياء : « نرجعوا الى انفسهم
فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسروا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء
ينطقون » •

وعن السؤال العاشر تجيب حلقة الصافات : « قال أتعبدون ما
تتحقرن • والله خلقكم وما تعملون » كما تجيب حلقة الأنبياء : « قال
أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم آف لكم ولما
تعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم آف لكم ولما
أللهجة ، فيها تضجر منهم ومن آلوتهم ، وتوبيخ لهم بعدم التقفل •
وفي اجابة كل من الحلقتين الزام بالحجة على فساد عبادتهم •

ومن هذا العرض رأينا كيف تبادلت الحلقتان تفصيل المشهد بتفنن
وانقان ، وبهذا انتفى التكرار في المشهد وتفصيل أحداثه ، حيث
اختصت كل حلقة بتفصيل جانب من جوانبه • ومن جمع ما في الحلقتين
معا يتم عرض المشهد عرضا مفصلا حاويا جميع جزئياته ، والاكتفاء بما
في حلقة واحدة مهما يتم عرض المشهد عرضا موجزا مؤديا للمقصود •
ففى جمع ما في الحلقتين معا تفصيل وتوضيح ، وفى الاختصار على ما
في واحدة منهما ايجاز واختصار ، والفائدة محققة بكاملها فى كلا

الوجهين ، وهذا من عجيب نظم القرآن الكريم • وبه تنتفى نسبة
التكرار التي يرجف بها بعض قصار النظر •

وقد اختصت كل حلقة من الحلقتين بعرض الأحداث التي تناسبها،
والتي يتتبعون من عرضها مشهد متكامل ، وبأسلوب ينتاسب مع جو
الحلقة •

فحلقة انصافات مبنية على الحوار من جانب واحد هو ابراهيم
عليه السلام ، حيث طويت فيها اجابات القوم عن أسئلته ، ومقولاتهم
له ، فبدت وكأنها تساؤلات نفسية ، يلقيها ابراهيم عليه السلام على
نفسه متفكرا فيها ، غير منتظر اجابة أحد عنها • لذا نجد تفصيلا في
عرض الأحداث التي من جانبه ، ويغلب عليها طابع التأمل والتفكر ،
كالتساؤلات المتتابعة في توبيخهم على عبادة الأصنام « ماذا تعبدون •
أفكأنتم آلهة دون الله تتريدون • فما ظنكم برب العالمين » • وانظر والتفكر
في النجوم « فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم » والذهاب الى
آلهتهم ، ومساءلتها وتوبيخها لها وهى لا تجيب « فراغ الى آلهتهم فقال
ألا تأكلون • مالكم لا تتطعمون » •

ولم تفصل حلقة الأنبياء هذه الجوانب ، اقيام الحلقة على الحوار
من الجانبين : سؤالات من ابراهيم وجواب من القوم ،
أو سؤالات من القوم وجواب من ابراهيم عليه السلام • ولذا
وجدنا فصلت الأحداث التي يلزمها حوار من جانبين ، كالسؤال عن
الفاعل ، والاشارة الى ابراهيم باللاتهام ، والأمر باحضاره على أعين
الناس ، والتحقيق معه في الحادث ، ورحمهم الى أنفسهم للومها بعد
تبين الحق ، ثم ما عرض لهم من نكسة عن الحق قلبهم الى طريق
الباطل • وهذه الأحداث لم تفصلها حلقة الانصافات لاهتمام الحلقة
بحماية ما صدر عن ابراهيم عليه السلام دون ما صدر عن القوم •

وتتشابه نهاية هذا المشهد في الحلقنتين من حيث بذائه في كل منهما على الاستفهام التوبيخي المسلط على فعل العبادة ، مع بيان معبوداتهم الفاسدة بوصف يبطل عبادتها ، ويلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر .

نفى الصافات : « قال أتعبدون ما تنحتون • والله خالقكم وما تعملون » •

وفي الأنبياء « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » •

والتنوع في النهايتين يبدو من وجوه :

الأول : قيل في الصافات « أتعبدون » من غير « غاء » ، وقيل في الأنبياء « أفتعبدون » بالفاء • والسبب في ذلك أن الاستفهام في الأنبياء مبني على قول سابق لهم ، ومفرع عليه ، وهو قوتهم « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » فجاء قوله « أفتعبدون » عقيمة مباشرة ، ومبني عليه ومن ثم صدر بالفاء ، وكأنه قال : إذا كن هؤلاء ينطقون كما أقررتم فلماذا تعبدون من دون الله وهم لا يقدمون لكم نفعاً ولا ضراً؟! أما الاستفهام في الصافات فليس مفرعاً على محيئهم إليه ولا كان عقيمة مباشرة ، بل بينهما أحداث مطوية ، وهو التحقيق معه ، وما تبعه من رجوعهم إلى أنفسهم ، ثم نكسهم على رؤوسهم ، حسبما فصل في سورة الأنبياء •

والثاني : في الصافات قيل « ما تنحتون » ، وفي الأنبياء قيل « مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم » ولعل السر في ذلك أن حجة انصافات لم يتقدم فيها ذكر لبيان حقيقة هذه المعبودات ، ولم يعترفوا فيها بأنها جمادات لا تنطق ، فتناسب ذلك أن يكشف عن حقيقتها ، ويبين أصلها . أما حجة الأنبياء فتقدمت فيها الإشارة إلى أنها تماثيل صنعوها بأيديهم ،

وأقروا هم بأنها جمادات لا تتطق ، فتناسب ذلك وصفها بوصف لم يتقدم ذكره هو عدم قدرتها على نفعهم أو ضرهم •

والثالث : قيل في الصفات : « والله خلقكم وما تعملون » ولم يرد نحر هذا في الأنبياء ، والسر في ذلك أن هذه الجملة الحالية من تكلمة الدليل ومن موجبات التوبيخ ، لأن الله الذي خلقهم وخلق ما ينحتون وما يعملون على العموم هو الأولي بالعبادة • ولم يتقدم في هذه الحلقة بيان لقدرة الله تعالى يعرفون من خلاله الاله الحق • بينما في حلقة الأنبياء ورد في الآية نفسها قوله « من دون الله » ، كما تقدم في الحلقة ما يعرفهم بالاله الحق من خلال بيان قدرته في خلق السموات والأرض « بن ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن » فتناسب ذلك عدم تكرار ما يدل على قدرة الله تعالى نظرا لتقدمه •

وختم المشهد في حلقة الأنبياء بالتضجر منهم ومن آلهتهم ، وتوبيخهم بعدم التعقل للحقائق ، وهذه اللهجة الشديدة مناسبة لجو الحلقة ، حيث ظل يجادلهم ويحاورهم طويلا بدون فائدة ، كما أنهم عاينوا الحق واعترفوا به ثم انقلبوا عنه الى الباطل ، وهذا مما يثير غضب الحليم ، ويستوجب شدة التعنيف •

القاء في النار ونجاته منها :

ومشهد القاء ابراهيم عليه السلام في النار ونجاته منها مشهد واحد في القصة ، وعرض في ثلاث حلقات بعبارات متنوعة :
ففي الصفات : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم • فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » •

وفي الأنبياء : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين • قلنا يانار كونى برذا وسلاما على ابراهيم • وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين » •

وفي العنكبوت : « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو
 حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك آيات لقوم يؤمنون » •
 وبالنظر في الآيات السابقة نرى أن كل حلقة فيها زيادة ليست
 في الأخرى :

فحلقة الصافات تبين أنهم بنوا بنيانا وأوقدوا فيه النار وألقوه
 فيها •

وحلقة الأنبياء تبين كيف نجاه الله من النار ، وذلك بأن أمرها
 أن تكون بردا وسلاما على ابراهيم •

وحلقة العنكبوت تبين أن القوم تشاوروا في كيفية الانتقام منه ،
 أبقتله أم بتحريقه ؟ وانتهى الأمر الى القائه في النار •

وهذه الزيادة التي اختصت بها كل حلقة لا تؤثر في الالفادة ،
 ولا تؤدي الى الاخلال في واحدة منها ، فكل مشهد في حلقة يؤدي
 المعنى المقصود ، وهو القاءه في النار ونجاته منها بقدرة الله تعالى ،
 ومجموع ما في الحلقات فيه تفصيل للمشهد بجزئياته •

وهن مجموع ما في الحلقات الثلاث يكون المشهد قد تم على النحو
 التالي :

تشاور القوم فيما يفعلونه بابراهيم أيقنلونه أم يحرقونه ؟
 واستقر الأمر على حرقه ، فقالوا حرقوه وانصروا ألهكم ، وبنوا
 بنيانا وأوقدوا فيه النار حتى صارت جحيما ، وألقوه فيها فقل الله
 تعالى لنار كبرنى بردا وسلاما على ابراهيم ، فأنجاه منها ورد كيدهم
 الى نحورهم فكانوا خاسرين •

قد أدى التنوع في النظم ووجود زيادات في كل حلقة عن الأخرى
 مع وفاء كل ما بالمقصود الى انتفاء التكرار في عرض المشهد ، والى
 أن يكتسب القارئ حقائق جديدة عندما ينتقل من حلقة الى حلقة ،

فلا يحس بأنه يقرأ ما قد سبقت قراءته ، ولا يشعر بأنه يرتل نظاما منبثق له ترتيبه .

وبين خاتمة المشهد في الصفات وفي الأنبياء تشابه وتتنوع . ففى الصفات « فأرادوا به كيذا فجعلناهم الأسفلين » وفي الأنبياء « وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخسرين » . والتنوع يظهر من وجهين :

الأول : فجىء الفاء في الصفات ومجىء الواو في الأنبياء . وسر ذلك فيما يبدو لى : أن أرادة الكيد في الصفات بمثابة تنفيذ الأمر بالقائه في الجحيم ، فجىء بالفاء لتشعر بأن القاءه في النار كان بمجرد صدور الأمر بذلك ، وكأنه قيل : فنفذوا الأمر بالقائه في الجحيم فجعلناهم الأسفلين . كما أن آية الصفات هي التي بينت نجاة إبراهيم عليه السلام ، فلا تنهم النجاة بدونها ، فعقبت على ما قبلها بالفاء مسارعة إلى بيان نجاته ، وإشارة إلى أنها كانت عقيب القائه في النار ، فلم يكن لالنار تأثير فيه .

أما في الأنبياء فنجاته من النار مصرح بها في قوله تعالى : « قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » وجاء قوله « وأرادوا به كيذا ... » بمثابة تعقيب على ما حدث ، وتخصيص لموطن العنة والعبرة فيه ، وهذا لا يحتاج إلى بيان ترتبه على القائه في النار ، ومن ثم جىء فيه بالواو .

والثاني : جاء في الصفات « الأسفلين » وجاء في الأنبياء « الأخسرين » وقد بين الاسكافي سر ذلك : بأن الله تعالى أخبر في سورة الأنبياء عن إبراهيم أنه قال « وتالله لأكيدن أصنامكم » ثم أخبر عن الكفار لما ألقيهم في النار « وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخسرين » فذكر مكيدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام ، فكادهم ولم يكيدوه ، فخسرت تجارتهم ، وعادت عليهم مكيدتهم ، لأنه كسر أصنامهم ، ولم

يبلغوا من احراقه مرادهم ، فذكر الأخسرين لأنهم خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكيدة التي أضعفت اليهما .

وأما التي في سورة الصافات ، فإن الله تعالى أخبر عن الكفار فيها بما اقتضى من الأسفلين ، وهو أنه قال « قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم » فبنوا له بناء عائياً ، ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك الى النار التي أججوها ، فلما علوا ذلك البناء وحطوه منه الى أسفل ، عادوا هم الأسفلين ، لأنهم أهلكوا في الدنيا ، وسفل أمرهم في الآخرة ، والله تعالى نجى نبيه وأعلاه عليهم ، فالتقلب على أمرهم في صعود البناء وسافل أمر ابراهيم عليه السلام لما حط الى النار ، أن صار ذاك سافلاً ، وأمر النبي عليه السلام عائياً ، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله « فجعلناهم الأسفلين » (٢٤) .

ويرى الغرناطي : أن الخسران والسفالة غاية حال الكافر ، ومن كان من الأسفلين فقد خسر خسرانا مبيناً ، فلا تضاد بين الصفتين ، سوى أن السفل لا حق في ذات السفلى ، والخسران حقيقة في خارج عنه ، فالسفل أبلغ ، فقدم ما هو لاحق خرجي ، وآخر مالا يتعدى ذات المتصف تكملة وتنتمة ، اذ هو أبلغ على ما يجب ، وعلى ما قدمنا من رعى الترتيب ، فورد كل على ما يجب ويناسب (٢٥) .

ويفهم من كلامه أن الأنبياء متقدمة على الصافات ، وهذا صحيح ان كان قصده في ترتيب المصحف ، أما ان كان القصد في ترتيب النزول فإنصافات متقدمة على الأنبياء ، وبذلك فلا وجه لما ذكره . وتعليل الاسكافي أظهر وأدق . ويضاهى اليه أن حلقة الأنبياء قائمة على الحوار المستمر بين الطرفين ، وكل طرف يريد أن ينتصر ويفوز بمبتغاه ، وقد فاز ابراهيم عليه السلام ، ولم يحصل الكفرون من جدالهم على

(٢٤) درة التنزيل : ٣٠٠ .

(٢٥) ملاك التأويل : ٨٤١/٢ ، ٨٤٢ .

بغيتهم ، فخسروا في مقابلة فوز ابراهيم عليه السلام ، فناسب هذا وصفهم بالأخسرين •

ويختلف ختام المشهد في حلقة العنكبوت عن ختامه في خلقتي النصافات والأنبياء ، حيث ختم بقوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » وهذا ختم يتناسب مع الجو العام للحلقة ، حيث سبق فيها اظهار لقدرة الله تعالى ، وحث على السير في الأرض للنظر في كيفية بدء الله تعالى الخلق واعادته ، واخبار عن سوء مصير الكافرين بآيات الله تعالى ولقائه ، ونجاة ابراهيم عليه السلام من النار بعد أن لقي فيها آية كبرى من آيات الله تعالى الدالة على قدرته ، لا تختلف عن آياته الكونية التي دعوا الى النظر فيها والاعتبار بها •

قرار الاعتزال :

وبعد نجاة ابراهيم من النار يتبين أنه لن يهناً بعبادته ربه بين هؤلاء القوم ، وأن الدعوة بينهم لا مستقبل لها ، حيث أصروا على العناد والكفر ، فقرر اعتزالهم بالهجرة الى مكان آمن يستطيع فيه عبادة ربه وتبليغ دعوته • وقد ورد قرار الاعتزال صريحا في ثلاث سور بعبارات متنوعة •

ففي مريم قيل : « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين » وفى العنكبوت قيل : « وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » •

فعبر في مريم بالاعتزال ، وهو مناسب لما يسود الحلقه من تلمذ ابراهيم عليه السلام ، وترفقه في دعوة أبيه ، فهو ينطوي على المفارقة بالمعروف ، فمادته عزل الدالة على الفتحية والامالة (٢٦) • والعزلة سلوك محمود عند الزهاد ، وهى لا تقتضى الهجرة ، واخف منها

(٢٦) ينظر مقاييس اللغة مادة : عزل •

على النفس ، ومن ثم واجه ابراهيم عليه السلام أباه بها رأفة به وشفقة عليه ، في الوقت الذي أمره فيه الأب بالهجرة قائلا « واهجرني مليا » .
وعبر في الصفات بالذهاب ، وهو أخص في الدلالة على مفارقتهم والتبعد عنهم من العزلة إلا أنه أخف من الهجرة ، وهو ملائم لما قبله من اخبار بأن قومه أرادوا به كيذا فجعلهم الله الأسفلين ، فان الله تعالى الذي نصره عليهم وأبطل كيدهم لواجب أن يذهب اليه ، ويلجأ الى كنفه في بلد آمن يتمكن فيه من عبادته والدعوة اليه .

وعبر في العكس بالهجرة ، وهذا أشد في الدلالة على مفارقتهم وتركهم وهذه الشدة ملائمة لما قبلها من تشدده في ذمهم وبيان مصيرهم المزلم يوم القيامة « وقال انما اتخذتم من دون الله مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » .

ولم تذكر الهجرة صراحة في حلقة الأنبياء ، وانما تفهم من قوله تعالى « ونجيناه وابطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » حيث يفيد أن الله نجاه بالهجرة الى أرض مباركة هو وابن أخيه لوط ، نعمة من الانعم التي أعدها الله عليه .

ولعل السر في ذلك أن التصريح بالهجرة كان يقتضى وروده على لسان ابراهيم عليه السلام كما في الحلقات التي ورد فيها ذلك ، وسياق حلقة الأنبياء لا يلائمه حكاية كلام على لسان ابراهيم في هذا الموضع ، لأن الآيتين السابقتين على قوله « ونجيناه » مسندتان الى نون العظمة « قلنا يانار ... » « فجعلناهم ... » وفيهما نعمتان جليلتان على ابراهيم عليه السلام ، فتروالت النعم معطوفة بالواو حتى آخر الحلقة فقيل « ونجيناه ... » « ووهبنا له اسحاق ... » « وجعلناهم أئمة ... » ولم يقطع السياق بحكاية قرار ابراهيم بالهجرة .

أما السياق في مريم والعنكبوت فليس فيه ذكر للنعم قبل حكاية قرار الاعتزال وإنما ذكرت النعم تالية له .

وأما في الصفات فقد جاءت حكاية قرار الاعتزال تخلصاً من قصة ابراهيم مع قومه الى فضته مع ولده اسماعيل عليهما السلام ، وفيها تفصيل للحوار الذي دار بينهما في شأن ذبح اسماعيل ، وبيان لنعمة ائداء العظيمة ، وما أعقبها من نعم جبيلة وبذلك تنتهي الحلقة . فليس في ذكر قرار الاعتزال قطع للسياق ، وإنما مهد به للانتقال من قصته الى قصته .

ختم الحاقات :

وتشترك جميع الحاقات ماعدا حلقتي التسعراء والبقرة في ختمها بتعداد النعم الجليّة التي أنعم الله بها عليه ، بعد اعتزاله قومه ، مسنده الى ذنوب العظمة ، ومبحووه بنعمة هبة الأولاد ، وتقديم هذه النعمة على ما سواها لأنها هي النعمة التي كان يتوق اليها من زمن بعيد ، وبعد هجرته أصبح في أمس الحاجة اليها ، ليأمن بالأولاد والذرية بعد أن هجر أهله ووطنه في سبيل الله تعالى .

وقد عبر عن هذه النعمة — فيما عدا حلقة الصفات — بفعل الهبة واقعاً على اسحاق ويعقوب عليهما السلام .

ففي مريم « وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً » .
وفي الأنبياء « وهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين » .

وفي العنكبوت « وهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » .

وفي الأنعام « وهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا » .

والتعبير بالهبة يشعر بأن الله منحه هذه النعمة دون مقابل منه ،
 غمى تفضل عليه من الله تعالى ، ومشير الى أن الله تعالى راض عنه
 محب له ، لأن الواهب يكون عادة راضياً عن الموهوب له وحانياً عليه .
 ونون الظمة تشير الى اختصاص الله بذلك ، حيث لا يقدر على هذه
 الهبة سواه .

أما في الصافات فعبر عن ذلك بالتبشير ، ف قيل في اسماعيل «بشرناه
 بغلام حلیم» وقيل في اسحاق « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين» .
 ولعل السر في ذلك : أن الاخبار عن اسماعيل ورد عقيب دعائه
 « رب هب لي من الصالحين » فكأنه بذل في ذلك جهدا ما ، ودعا ربه
 وانتار نتيجة الدعاء فناسب ذلك لفظ التبشير . كما أن الاخبار عن
 اسحاق جاء عقيب الانتهاء من أزمة كبيرة كانت تنقضى عليه وهي
 أمره بذبح اسماعيل ، ونجاته من هذه الأزمة يناسبه التبشير ، وكأنه
 قد قيل له : نجينا لك اسماعيل وغديناه ، وبشرناك بأخيه اسحاق
 مثوبة لك على صبرك وطماعتك .

وبهذا نصل الى ختام حديثنا عن أسرار التشبيه والتنوع في نظم
 حلتقات الدعوة وبه ينتهي هذا الفصل .

الفصل الثاني

ابراهيم عليه السلام والملائكة

هاجر لوط مع عمه ابراهيم عليهما السلام ، وانتهى به المقام في أرض سدوم وكان أهلها على جانب كبير من الضلال والاضلال وفساد الاخلاق ، وقد أرسل الله تعالى اليهم لوطا عليه السلام يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن فعل المنكرات • ولكنهم لم يستجيبوا له وآذوه وسخروا منه ، وظلوا في ضلالهم ، وانكبوا على الفواحش والمنكرات • حتى اذا أذن الله تعالى بالانتقام منهم أرسل ملائكته الى لوط عليه السلام لانزال العذاب على قومه الظالمين •

وفي الطريق مر الملائكة على دار ابراهيم عليه السلام في صورة ضيوف ، فأسرع لآكرامهم ، ولكن أيديهم لم تمتد الى طعامه ، فأوجس منهم خيفة ، فطمأنوه وبشروه بسلام عليم ، وجاءت امرأته فأخذها المعجب من البشرى ، ودار بينها وبين الملائكة حوار قصص القرآن الكريم • وأخبر الملائكة ابراهيم بذهابهم الى قوم لوط لانزال العذاب عليهم ، فجادلهم في شأنهم ، ورجا منهم تأخير البلاء عنهم يتوبون ، وبين لهم أن بينهم لوطا ومن آمن معه من أهله ، فقطعوا له بنجاته ومن معه من المؤمنين وايقاع العذاب بالقوم المجرمين •

واقصد حكي القرآن الكريم تفاصيل قصة ابراهيم عليه السلام مع الملائكة في أربع حلقات ، تختلف في نظمها وما تتضمنه من وقائع وأحداث ، بحيث تفصل هذه الحلقات القصة كاهنة ، مع استقلال كل حلقة منها في الافادة •

وقد وردت هذه الحلقات في أربع سور مكية هي حسب ترتيب
الازول كما يلي :

- الأولى : في سورة هود
- والثانية : في سورة الحجر
- والثالثة : في سورة الذاريات
- والرابعة : في سورة العنكبوت (١)

وجاءت هذه الحلقات في طولها على نفس الترتيب السابق تقريبا ،
فأطول هذه الحلقات هي التي وردت في سورة هود ، تليها التي وردت
في سورة الحجر ، وتتساوى معها التي جاءت في سورة الذاريات ،
ثم تأتي أقصر الحلقات في آخر السور المكية نزولا وهي سورة
العنكبوت •

وسنتناول في هذا الفصل تحليل النظم القرآني في هذه الحلقات
تحليلا بلاغيا يكشف عما فيه من أسرار البيان ، ثم نعرض للمقارنة
بين نظم الحلقات مجتمعة للوقوف على ما فيه من تشابه وتنوع ،
وننتهي الفصل ببيان تكامل هذه الحلقات واشتراكها في عرض القصة عرضا
مفصلا دون تكرار فيها •

الحلقة الأولى

مجيء الرسل بالبشرى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ • فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف أنا أرسلناك الى قوم لوط • وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراءه إسحاق يعقوب • قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب • قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد • فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • إن إبراهيم لحليم أواه منيب • يا إبراهيم عرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود • » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الأولى من الحلقات التي تحكى مجيء رسل الله تعالى الى إبراهيم عليه السلام ، لتبشيره بالولد ، وما دار بينهم وبينه ، وتبين موقف امرأته من البشرى ، ورد الملائكة عليها • وقد وردت قصص الأنبياء في سورة هود مرتبة ترتيبا زمنيا حيث ذكرت قصة نوح مع قومه ، وتلتها قصة هود مع قومه عاد ، وتبعته قصة صالح مع قومه ثمود ، ثم جاءت قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة •

وقصته بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام مع قومه ، نظرا لما بينهما من صلة الدم والقربا ، فلوط ابن أخيه وآمن به ، وفحصته

(١) هود : ٦٩ - ٧٦ •

(١٨ — خصائص النظام)

مع قومه جرت عقيب حديث الملائكة مع ابراهيم عليه السلام من غير فاصل ، اذ بشروا ابراهيم بالولد ، وأخبروه بما أرسلهم انه به من عذاب قوم لوط ، وجادلهم ابراهيم في أمر هؤلاء القوم ، ثم خرجوا من عنده ، فازلوا على لوط وجرى بينهم وبينه ما جرى مما قصه القرآن الكريم •

البداية :

تبدأ هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » وهى بداية مختلفة عن بداية قصتى هود وصالح الحكيمتين قبلها ، كما تختلف عن بداية قصة شعيب ، الآتية بعدها ، ولعل السر فى ذلك أنه لما كان المقصود فى السورة للكرامة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ، ولحقق العذاب بهم بسبب ذلك ، ولم يكن جميع غرم ابراهيم عليه السلام ممن لحق بهم العذاب ، بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة ، تغير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى : « والى عاد آخامهم هودا ٠٠٠ (٢) » والى ثمود آخامهم صالحا ٠٠٠ (٣) ، ثم رجع اليه بعد ذلك حيث قيل (٤) : « والى مدين آخامهم شعيبا » (٥) •

وفى تشابه هذه البداية مع بداية قصة نوح عليه السلام « ولقد أرسلنا نوحا ٠٠٠ (٦) » إشارة الى ما بينهما من مماثلة فى كون كل منهما من أولى العزم من الرسل ، وجدان كل منهما فى شأن الكافرين ، شفقة عليهم ورجاء لنجاتهم حيث تكلم نوح فى شأن ابنه « غفل ربى

(٢) هود : ٥٠ •

(٣) هود : ٦١ •

(٥) أبو السعود : ٢٢٤/٤ •

(٦) هود : ٢٥

«ان ابنى من أهلى» (٧) وتكلم ابراهيم في شأن قوم لوط كما في الآيات التى نحن بصدد تحليلها •

وذكر قصة ابراهيم عليه السلام مع عدم ائتمالها على أخبار المكذبين وعذابهم كما في القصص السابقة واللاحقة لأنها - كما ذكرنا - بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام وذكر جرائم قومه وما نزل بهم من عذاب شديد على نمط غير مسبوق وفي ذلك أعظم موعظة ومزدرج • كما أن في قصة ابراهيم عليه السلام ردا على المشركين الذين تحدوا الرسول ﷺ ، بما حكى عنهم في أول السورة من قولهم «اولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك» (٧) وذلك لما فيها من ذكر مجيء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام ، ومحاورتهم معه ، وكان الآية تقول للمشركين ان طلبكم مجيء ملك مع الرسول ﷺ ليس عزيزا على الله تعالى ، فقد جاءت الملائكة كثيرا الى الرسل ، ولكن فزعولهم مرهب ، وأمرهم عند المكاشفة مرعب (٨) •

ودخلت «قد» هنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع ، فجاءت اتؤذن بأن السامع في حال توقع لذلك ، ودخلت عليها اللام لتأكيد الخبر (٩) ، لاشتماله على أمر عجيب هو مجيء الرسل الى ابراهيم وتجاوزهم معه •

والمقصود بالرسول الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام ، وفي اضافتهم الى نون العظمة تشريف لهم ودلالة على عظم مكانتهم المستمدة من كونهم رسل الله تعالى •

(٧) هود : ٤٥ •

(٨) هود : ١٢ •

(٩) نظم الدرر : ٣٢٨/٩ •

(٩) الرازى : ٧٢/٥ •

واسناد مطلق المجيء بالبشرى اليهم دون الارسال ، لأنهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام ، بل الى قوم لوط لقوله تعالى : « انّا أرسلنا الى قوم لوط » وانما جاءوه لداعية البشرى (١٠) •

والباء في قوله « بالبشرى » للملابسة ، أى متلبسين بالبشرى ، واطلاق البشرى يؤهلها لانتظام كل ما ذكره العلماء من البشرى بالولد ، والبشرى بعدم لحقوق الضرر به ، وغير ذلك •

قال الزمخشري والظاهر أنها البشرى بالولد ، وقال في الكشف ، انه الظاهر من اطلاقها ، ولقوله تعالى (١١) : « وبشروه بغير غلام عليم » (١٢) •

تحية وحوار :

وبعد هذه البداية التى أثبتت مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام تذكر الآيات ما دار بينهم وبينه ، وأول ذلك التقاؤهم التحية عليه ، ورده على هذه التحية « قالوا سلاما قال سلام » • حيوه بالسلام الذى هو تحية الاسلام ورد عليهم بمثل ذلك ، وانما بادروه بالفاء التحية كما هى عادة الضيوف ليطمئنوه بأنهم لا يقصدون به سرا ، وان اختلفوا في مظهرهم عن أهل بلاده ، فهم ضيوف مستنون •

والفصل بين « قالوا ... » وما قبلها للاستئناف ، فان جملة « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » يخبرها الغريب المخالف للعادة فتعير سؤالا في النفس فحواء : فماذا قالوا له ؟ نجاء الجواب : « قالوا سلاما » ، وكذلك سر الفصل بين جملة « قال سلام » وما قبلها • وهذا ما قرره البلاغيون في سر الفصل بين جمل المحاورات التى وردت في التزيين مبدوءة بقال وقالوا ونحو ذلك (١٣) •

(١٠) أبو السعود : ٢٢٤/٤ • (١١) الذاريات : ٢٨ •

(١٢) ينظر الكشف : ٢٨٠/٢ وحاشية الشهاب : ١٣/٥ •

(١٣) ينظر دلائل الاعجاز : ٢٤٠ •

و « سلاما » منصوب بفعل محذوف ، والجملة مقول القول أى :
سلمنا أو تسلم عليك سلاما ، أو منصوب بنفس القول أى قلوا قولاً
ذا سلام .

و « سلام » بالرفع مبتدأ خبره محذوف أى عليكم سلام ، أو
سلام عليكم ، وسوغ الابتداء به أن تتكبره لافادة الكمال والتمام ، أى
سلام كامل تام عليكم ، وأكثر ما يستعمل سلام عليكم بغير ألف
ولام ، وذلك لأنه فى معنى الدعاء كقولهم : خير بين يديك (١٤) .

قالوا حياهم ابراهيم عليه السلام بأحسن من تحيتهم ، لأن
تحيتهم وردت جملة فعلية تفيد التجدد ، وتحيته وردت جملة اسمية
تفيد الدوام والثبوت ، فهي أبلغ من تحيتهم (١٥) . وفى هذا ارشاد
للقدامين بالقاء التحية والسلام ، وتعليم للمستقبلين برد التحية بأحسن
منها كما قال جل شأنه : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو
ردوها » (١٦) .

وبعد أن رد ابراهيم التحية أسرع الى أهله وعجن بأعداد الطعام
لضيوفه بناء على ما جبل عليه من كرم ومعرفة بواجبات الضيافة
« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » . أى فما أبطأ ابراهيم عليه السلام فى
الحىء بعجل مشوى على الحجارة المحماة يقطر دسمه (١٧) . وفى
الجملة ايجاز بطنى ذهبه الى أهله واعداد الطعام . وأصل حنيذ :
منضج على الحجارة ، قال ابن فارس : الحاء والنون والذال أصل واحد

(١٤) الرازى : ٧٣/٥ .

(١٥) حاشية الشهاب : ١١٣/٥ وينظر المطول : ٢٥٩ .

(١٦) النساء : ٨٦ .

(١٧) الكشف : ٢/٢٨٠ ، والبيضاوى : ٣١٣ .

وهو انضاج الشيء ، يقال شواء حنيذ أى منضج ، وذلك أن تحمى الحجارة وتوضع عليه حتى ينضج (١٨) •

وفى دخول الفاء على « ما » إشارة الى اسرعه وتعجيله بالذهاب الى أهله واعداد الطعام • وفى مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل (١٩) •

وقرب ابراهيم الطعام لضيوفه ، فلم يمدوا أيديهم اليه ، « فلما رأى أيديهم لا تصل اليه ذكرهم وأوجس منهم خيفة » ورأى ان كانت بصرية فجملة « لا تصل » حال ، وان كانت علمية فمفعول ثان •

ومعنى « لا تصل اليه » لا تمتد الى العجل للتناول منه كما يمد الأكل يده الى الطعام (٢٠) فالجملة كناية عن أنهم لا يمدون اليه أيديهم ، ويلزم منه أنهم لا يأكلون •

و « نكرهم » أى اشتدت نكارتهم لهم ، وانفعل لذلك ، ونكر أبلغ من أنكر كما ذكر بعض العلماء وقيل نكر فيما يرى وأنكر فيما لا يرى من المعانى (٢١) والانتكار ضد العرفان ، يقال أنكرت كذا ونكرت ، وأصله أن يرد على القلب مالا يتصوره ، وانما أنكرهم لأنهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظفوا أنه لم يجىء بخير (٢٢) •

(١٨) مقاييس اللغة : مادة « حنن » •

(١٩) اللوسى : ٨٤/١٢/٦ •

(٢٠) المنار : ١٠٦/١٢ •

(٢١) نظم الدرر : ٣٣٠/٩ ، والبحر المحيط : ٢٤٢/٥ •

(٢٢) المفردات : ٥٠٥ ، وأبو السعود : ٢٢٤/٤ •

و « أوجس منهم خيفة » أى أدرك أو أضمر ، أو أحس من جهتهم خوفاً ، والوجس الصوت الخفى ، واللاجس وجود ذلك فى النفس ، والوجس حالة تحصل من النفس بعد الهاجس ، لأن الهاجس مبدأ التفكير ، ثم يكون الواجس الخاطر (٢٣) •

والخيفة الخوف ، وأصلها الحالة التى عليها الانسان من الخوف واختيار هذه الصيغة لما فيها من المبالغة أى خيفة عظيمة • وتأخيرها عن الجار والمجرور « منهم » لأن المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم لا من جهة غيرهم ، كما أن فى تأخيرها تشويقاً إليها ، لأن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقية النفس إليه فينتهز عذد وروده عليها فضل تمكن (٢٤) •

ولما رأى الرسل ما ظهر على إبراهيم عليه السلام من الخوف « قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » فطمأنوه ونفوا عنه الخوف ، وعللوا ذلك بأنهم مرسلون الى قوم لوط لانزال العذاب بهم ، فجعلوا « انا أرسلنا ... » استئناف فى معنى التعليل لانتهى عن الخوف • وذهب أبو السعود الى أنها ليست كذلك إنما قالوها جواباً عن سؤال صريح ورد فى سورة الذاريات « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » (٢٥) ، ولم يصرح به هنا اكتفاء بما هناك (٢٦) •

وتعقب بأن ذلك لا يقدح فى كونها استئنافاً تعينياً ، لجوار أن يكونوا قالوا ذلك على معنى التعليل لانتهى عن الخوف ، ولم يذكروا

(٢٣) المفردات : ٥١٢ •

(٢٤) أبو السعود : ٢٢٥/٤ •

(٢٥) الذاريات : ٣١ ، ٣٢ •

(٢٦) أبو السعود : ٢٢٥/٤ •

العذاب الذى أرسلوا به ، ولا نوعه ، فسألهم بعد ذلك عن الأمر العظيم الذى أرسلوا من أجله كما ورد فى الذاريات (٢٧) •

حوار مع امرأته :

وتنتقل الآيات للحديث عن امرأته سارة وما كان من أمرها فى ذلك « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » ، وجملة « وامرأته قائمة » فى موضع الحال من ضمير « قالوا » واختلف فى قيامها فقيل كانت قائمة على خدمتهم ، وقيل قائمة وراء الستر للمعاونة فى خدمتهم عندما يطلب منها ، وقيل غير ذلك (٢٨) •

والمقصود بالضحك هنا حقيقته المعروفة ، وقيل المراد به التبسم وطلاقة الوجه فيكون مجازا (٢٩) ، واختلف فى سبب ضحكها فقيل ضحكت سرورا بزيار الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، وقيل لبشرى زوجها بالولاد ، حيث تقدمت البشرى قبل مجيء امرأته (٣٠) ولعل فى ضحكها نونا من ألوان التعجب من هذا الخبر العجيب •

وكان ضحكها مناسبة لتبشيرها هى أيضا بالولد ، لترداد سرورا على سرورها ، حيث وقع عقوبة ، كما تشير انفاء فى ذيله « فبشرناها بإسحاق » والتبشير كان من الرسل ، وإنما أسند إلى الله عز وجل لأنه الأمر بذلك ، وما عليهم الا التبليغ • وفى هذا تلويح للأسلوب من خلال اسناد الأفعال تارة الى الله تعالى وتارة الى ملائكة •

(٢٧) ينظر الألوسى : ٩٦/١٢/٦ •

(٢٨) الكشف : ٢٨١/٢ ، والبحر المحيط : ٢٤٢/٥ •

(٢٩) حاشية الشهاب : ٦١٤/٥ •

(٣٠) ينظر الكشف : ٢٨١/٢ ، ونظم الدرر : ٢٣١/٩ •

و « يعقوب » بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله « فبشرناها » أى وهبنا لها من وراء اسحاق يعقوب ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ ومن وراء خبره ، أى من بعد اسحاق يعقوب كائن ، أو مولود ، أو موجود ، وكلا الاسمين داخل في البشارة : أى فبشرناها باسحاق متصلاً به يعقوب (٣١) و فى تبشيرها بـيعقوب من بعد اسحاق إشارة الى أن اسحاق سيعيش ويكون له عقب وذرية •

وتوجيه البشارة اليها مع أن الأصل فى ذلك ابراهيم عليه السلام وقد وجهت اليه فى مواضع أخرى ، للايدان بأن ما بشر به يكون منهما ، ونكرتها عجوزاً عقيماً حريصة على الولد ، فتبشيرها بصاعف سرورها ، ولأن المرأة أعجل فرحاً بالولد •

وتمضى الآيات تبين موقفها من هذه البشارة العظيمة « قالت ياويلتا ألد وأذا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب » لقد أخرجتها الفرحة الغامرة بهذه البشرى العظيمة عن طبيعتها ، وعى وان كانت تتمنى الولد الا أنها تعلم أن العادة لم تجر بأن تلد امرأة فى مثل سنها ، ومن ثم كان منها هذا العجب الشديد ازاء ما بشرت به من الولد وقد صورت الآية نعجبها الشديد عن طريق ثلاثة أساليب : التذبة ، والاستفهام ، والخبر •

فالتذبة فى « يا وينتا » وأصلها ياويلتى بالياء : فابدلت ألفاً لأنها أذف من الياء والكسرة ، وأصل الويل الخزي ، ثم شاع فى كل أمر فظيع ، والمعنى : ياويلتى احضرى فهذا أو ان حضورك ، وهذه الكلمة خف استعمالها على أفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، والمراد بها هنا التعجب لا معنى الويل ، لأنه لا يناسب المقام ، كما يدل عليه الاستفهام وقولها « ان هذا لشيء عجيب » (٣٢) •

(٣١) ينظر أبو السعود : ٢٢٥/٤ ، والالوسى : ٩٦/١٢/٦ •

(٣٢) ينظر القرطبي : ٣٢٩٧/٥ ، وحاشية الشهاب : ١٦١/٥ •

واصل النداء أن يكون لمن يعقل ، وقد ينادى ماذا يعقل على سبيل
المجاز ، وفي ندائه تعظيم للأمر على نفس التكلم وعلى سامعه ان كان
ثم سامع (٣٣) •

والاستفهام في « أألد وأك عجوز وهذا بعلى نسيخا » وهو
استفهام يحمل معنى التعجب والاستبعاد المعتقد ، وقد تقرر هذا وعلى
بالجملتين الواقعتين حالا من الضمير في « أألد » وهما « وأنا عجوز
وهذا بعلى نسيخا » والجملة الأولى منهما تبين حالها المنافية للولادة
الموجبة للتعجب ، وهي كونها عجوزا عقيما كما صرح بذلك في الذاريات .
والجملة الثانية تبين حال زوجها التي يقل معها احتمال الانجاب وان
كانت لا تنافية ، وهي أيضا من موجبات التعجب ، وفي اسم الإشارة
تميز له أكمل تمييز بالإشارة الحسية ، ووصف لحاله من الشيخوخة
وصفا مرثيا مشاهدا ، وهذا أبلغ في وصفه مما لو قيل وبعلى شيخ •

وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه السلام ، لأن مباينة
حالتها لما ذكر من الولادة أكثر ، اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب ،
أما المعجائز فلا ، ولأن البشارة متوجبة اليها صريحا ، ولأن العكس في
البيان ربما يرههم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة الى جانب
ابراهيم عليه السلام وفيه مالا يخفى من المحذور (٣٤) •

وأما الخبر فهو « ان هذا لشيء عجيب » وهو خبر مؤكد بان واللام
لتنقية مضمونه ، واسم الإشارة يعود الى ما ذكر من حصول الولد من
عجوز عقيم وشيخ كبير • والتعبير به أبلغ مما لو قيل « انه » بالضمير
لما في اسم الإشارة من وصف كامل محسوس ، وتميز مبنى على

(٣٣) دراسات لاسلوب القرآن الكريم : ٦٣٤/٣/١

وينظر الكتاب لسيبويه : ٣٢٠/١ ، والبحر المحيط : ٤٦٦/٣

(٣٤) أبو السعود : ٢٢٦/٤

المشاهدة ، كما أن فيه استعظاما للإشار اليه وتفضيحه ، لئلا يزداد العجب ، وهذا الخبر مع كونه مثبتا للتعجب مما ذكر ، فهو أيضا تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي للتعجب والاستبعاد المستفاد من طريق الاستفهام ، وتأكيده له •

وتعجبها واستبعادها لحصول الولد مع الأسباب المنافية لذلك ليس بالنسبة الى قدرة الله تعالى فهي تعلم أنه على كل شيء قدير ولكنه بالنسبة الى ما جرت عليه العادة وتواتر بين الناس •

وعجبها الشديد وتعبيرها عنه بصور مختلفة يؤثر سؤالا في النفس عن موقف الملائكة منها ، وجوابهم على تعجبها ، وقد جاء جوابهم مفعولا للاستئناف البياني « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » •

ورد الملائكة يتكون من ثلاثة أساليب : استفهام وخبرين : فالاستفهام « أتعجبين من أمر الله » وهو استفهام انكاري تعجبي ، فيه تعجب وانكار لتعجبها ، أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء من أمر الله تعالى الذي لا يعجزه شيء ، لأنك معتادة على رؤية الخوارق والمعجزات في بيت النبوة ، والعجب انما يكون ممن حفي عليه مثل ذلك (٣٥) •

وفي الجملة ايجاز بطي موطن تعجبها الحقيقي ، أي أتعجبين من حصول الولد مع الملابسات المنافية لذلك ، وهو أمر الله تعالى ، وفي طي ذلك وإيقاع التعجب على « من أمر الله » زيادة انكار لتعجبها ولوم لها ، ورد عليها بأن هذا الشيء المنافي للعادة من أمر الله تعالى وشأنه وقدرته وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، فلا ينبغي التعجب من ذلك •

والخبر الأول « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وهو خبر مستأنف علل به انكار تعجبها : كأنه قيل : ليس المقام مقام استعجب ، فإن الله تعالى على كل شيء قدير ، ولستم يا أهل بيت النبوة والخزامة والزلفى كسائر الطوائف ، بل رحمته المستنبعة لكل خير ، الموسعة لكل شيء وخيراته المتكاثرة الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (٣٦) •

وقيل الجملة دعائية ، والأول ما عليه جمهور المفسرين (٣٧) • وفي « رحمة الله » وضع للمطور موضع المضمرة ، لاطهار شرف الرحمة وعظمتها باضافتها الى اسم الجلالة ، وفي ذلك تشريف لأهل البيت الذين عمتهم هذه الرحمة العظيمة •

و « أهل البيت » نصب على المدح أو اختصاص أو النداء ، وفي حذف حرف النداء اشعر بخصوصيتهم وفضلهم وقربهم من الله عز وجل عنهم أهل بيت النبوة • وقد جاء الخطاب في الاستتھام موجها اليها وحدها لأنها كانت المتعجبة ، ثم انتقل الكلام في هذه الجملة الى خطاب الجميع اشعارا بعدهم بالحكم على أهل البيت ، وفيه مع ذلك تلوين للأسلوب وتزيين له ، ووجه الخطاب الى جمع المذكر تغاييا كما هو متبع في الأساليب •

والخبر الثاني « انه حميد مجيد » وهو تذييل يعلل الخبر الأول المتضمن افاضة الله عليهم رحمته وبركاته ، وقد أكد بان سبق ما يشعر به ، ويهيئ النفس لاستقباله ، وهذا سبيل مسلك في الأساليب البليغة ، والتأكيد مفيد لاستقلال التذييل التعليلي ، وهو في نفس الأمر رابط له بما قبله ربطا معنويا دقيقا •

(٣٦) أبو السعود : ٢٢٦/٤ •

(٣٧) الألوسی : ١٠٢/١٢/٦ •

و « حميد » أى فاعل ما يستوجب به الحمد ، و « مجيد » واسع الخير والكرم والاحسن (٣٨) وبين اللفظين جناس أوجد في الجملة جرسا مؤثرا ، وأسبغ على المعنى قوة ، وفي المجيء بكل منهما على صيغته المذكورة تقوية للمعنى ، وإبراز له في أبلغ صورة •

جدال ابراهيم عن قوم نوط :

ويرد الملائكة على امرأة ابراهيم عليه السلام ينجي الموقف لدى ابراهيم وأهل بيته ، ويذهب عنهم الخوف ، ويبدا موقف جديد • هو جدال ابراهيم في شأن هلاك قوم نوط ورد الملائكة عليه « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم نوط » •
ولقاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه السلام ببعض غيب افسالها بما ليس بأجنبي من كل وجه ، بل له مدخل تام في السياق والسياق (٣٩) وهو الحوار مع امرأته بشأن الولد • و « لم » حرف وجود لوجود ، تقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما (٤٠) •

و « الروع » الخوف والفرع ، يقال : روعت فلانا ورعته : أفزعته وأخفته (٤١) • والمعنى : ذهب ما أوجس منهم من الخيفة ، واطمأن قلبه بعرفانهم ، وعرفان سبب مجيئهم • و « الروع » فاعل « ذهب » وتأخيره عن الجار والمجرور لأنه مصب الفائدة ، وتأخيره مع أن حقه التقديم يشوق النفس الى وروده ويجعلها تنتظر مجيئه ، فلذا ورد عليها تهكّن فيها فضل تمكن (٤٢) •

(٣٨) البيضاوى : ٣١٣ •

(٣٩) أبو السعود : ٢٢٦/٤ •

(٤٠) مغنى اللبيب : ٢٨٠/١ •

(٤١) مقاييس اللغة مادة : روع •

(٤٢) أبو السعود : ٢٢٦/٤ •

« وجاءته البشرى » بدل الروع حيث تبدل خوفه بالسرور
والبشارة (٤٣) • « ذهب عن ابراهيم الروع رجاءته البشرى »
مقابلة بديعة توضح المعنى وتبرزه ، وتضفى على الأسلوب روعة وبهاء ،
نقد ذهب الخوف وحل محله السرور والأمن والبشرى ، وفي تقديم
ذهاب الروع على مجيء البشرى مراعاة للترتيب الطبيعي ، ولأن
التخليّة مقدمة على التحلية •

وفي الجملتين استعارة مكنية مبنية على تشبيه كل من الروع
والبشرى بمعاقل يذهب ويحذف ، وحذف المشبه به وإثبات لازم من
لوازمه للمشبه • وفي ذلك تصوير للاروع والبشرى بصورة محسوسة •
وجواب « لما » قوله « يجادلنا في قوم لوط » والأصل ، جادلنا
لأن جواب « لما » يكون فعلا ماضيا ، وإنما قيل « يجادلنا » بصيغة
المضارع لتصوير حالة الجدل كأنها حاضرة ، وللإشارة الى تكرار
المجادلة أى جادلنا فيهم جدالا كثيرا (٤٤) •

وقيل جواب لما محذوف وقوله « يجادلنا » كلام مستأنف دال
على الجواب ، والتقدير : قال كيت وكيت أو فطن لجادلتنا (٤٥) •••
والرأى الأول أظهر لأنه لا يحتاج الى تقدير •

وجدا له كان لرسول الله ، وإنما قيل « يجادلنا » على تنزيل مجادلة
الرسول منزلة مجادلة الله عز وجل ، لأنهم رسله المرسلون بأمره وحكمه
ففى الكلام مجزئ فى الاسناد (٤٦) • وفيه ايجاز بالحذف والأصل « فى
شأن قوم لوط » فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، للإشارة
الى مدى اهتمامه بهم وشفقته عليهم حيث جادل الرسول فيهم •

(٤٣) حاشية الشهاب : ١١٧/٥ •

(٤٤) ينظر المنار : ١٠٨/١٢ ونظم الدرر : ٣٣٣/٩ •

(٤٥) دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ٦٢٦/٢/١ •

(٤٦) حاشية الشهاب : ١١٧/٥ •

ومجادلته إياهم ذكرها القرآن الكريم في سورة العنكبوت في قوله تعالى : « قال ان فيها لوطا قتلوا نحن أعلم بمن فيه » (٤٧) • وقد أفاضت كتب التفسير في الحديث عن هذا الجدل وتفصيل جوانبه نقلًا عن التوراة (٤٨) ، والأولى الاقتصار على ما ورد في كتاب الله الكريم، ومنه نفهم أن المسألة لم تكن جدالًا كبيرًا كما تصوره كتب العهد القديم وأما كان سؤالًا منه عن مصير المؤمنين من قوم لوط قتلنا وخوفًا عليهم وهذا هو المناسب لجلال النبوة وتسليمها لأمر الله تعالى دون مناقشة • وبين الآيات باعثة على الجدل في شأن قوم لوط « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » والجملة خبر مستأنف يحلل جداله في شأن هؤلاء القوم ، ويبين أن الذي حمله على ذلك ما فطر عليه من رقة القلب والرأفة والرحمة • و « حليم » غير عجل على الانتقام من المسيء اليه ، و « أواه » كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ، و « منيب » تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى (٤٩) •

وتأكيد الخبر بان واللام لتقوية مضمونه ، وربطه مع ما قبله ربطًا معنويًا عن طريق أداة التأكيد « ان » • والفصل بين الصفات لأنها صفات لموصوف واحد وردت على نمط التعداد دون نظر إلى ما بينها من اختلاف •

الخاتمة :

ونأتي خاتمة هذه الحلقة ردا حاسما على إبراهيم عليه السلام في جداله عن قوم لوط « يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر

(٤٧) العنكبوت : ٣٢ •

(٤٨) ينظر الألوسی : ١٠٣/١٢/٦ ، ونظم الدرر : ٢٣٤/٩ - ٣٢٧

وقصص الأنبياء : ٩٥ • النجار •

(٤٩) الكشف : ٢٨٢/٢ ، والبيضاوی : ٣١٣ •

ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود » • وهذا بيان مستأنف يوضح ما أجابته به الرسل عن الله تعالى ، وهو مرتبط بما قبله لأنه على تقدير القول أى قال الرسل يا ابراهيم أعرض ...

والبدء لشد انتباهه وإيقاظه لتلقى الأمر الوارد عقبيه بالاعراض عن الجدال في شأن هؤلاء القوم : لأن الله قد حكم عليهم بالهلاك حكماً محتوماً لا رجعة فيه • وفي استعمال أداة البعيد « يا » مع قرب ابراهيم عليه السلام منهم اشعار بتعظيم شأنه ، واعلاء منزلته •

والاعراض عن الشيء : النصد والانصراف عنه (٥٠) • وفي استعمال صيغة الأمر « أعرض » حسم للجدال بالتشديد في الانصراف عنه • واسم الإشارة « هذا » يعود على الجدال ، وفي إيناره تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، مع الاغضاء عن ذكره وعدم الاهتمام بشأنه لأنه لا فائدة منه •

وهذا الأمر بشدته مثير لسؤال في النفس جوابه « انه قد جاء أمر ربك ... » وقد جاء الجواب مفصلاً للاستئناف البياني • وهذا الجواب تعليل للأمر بالاعراض ، وقد جاء مؤكداً بأن وقد لوروده عقيب السؤال المقدر ، والأمر المشير إلى الخير ، ومثل هذا يؤكد في الأساليب البليغة •

وانقصود بـ « أمر ربك » قضاؤه وحكمه ، وفي التعبير عنه بالأمر إشارة إلى أنه واجب النفاذ ولا راد له ، وما في لفظ « ربك » من معنى اقترابية والرعاية يشير إلى أن أمره بالاعراض لا ينافي ردهم به ورعايته له ، وفي اضافة ذميره إلى الرب تشريف له ، وإشارة إلى ما يعرفه من صفات ربه الرحيم بعباده •

« وانهم آتيهم عذاب غير مردود » معظوف على سابقه والوصف
 المتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملتان في الخبرية مع التناسيم
 وقد أكدت الجملة لتقوية مضمونها وإثبات أنه أمر محتوم .
 وفي تنكير « عذاب » إشارة إلى فخامته وشدته وكونه عذاباً من
 نوع خاص لم يعهدوه . وفي وصفه بـ « غير مردود » بيان لحتميته
 ونفاذه لا محالة ، وأنه لا يرد بجداً ولا بدعاء ولا بغيرهما .
 وبهذا الرد الحاسم الذي يغلّق باب المناقشة ، وينهى أسباب
 الحوار ، نختم حلقة هود ، وهو ختام حاسم وقاطع ، لا يترك شبهة
 وراءه .

الحلقة الثانية

نبأ ضيف ابراهيم

قال الله تعالى :

« ونبئهم عن ضيف ابراهيم • اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون • قالوا لا ترجل انا نبشرك بغلام عليم • قال ابشروني على أن مسنى الكبر فبهم تبشرون • قالوا بشرك بالحق فلا تكن من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون • قال فما خطبكم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • الا آل لوط انا لنجوههم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الثانية من الحلقات التي تنقص نبأ ابراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله اليه لتبشيره بالولد ، واخباره بانزال العذاب على قوم لوط •

وسورة الحجر تبدأ بوصف الكتاب الكريم ، وتقدير أمر النبوة ، وتتفق الى ذكر دلائل قدرة الله تعالى في الكون من خلق السموات والأرض ، وما فيهما من آيات ، وخلق آدم وتفصيل ما جرى بشأنه ثم تذكر أحوال القيامة ، ومصير الأشقياء والسعداء ، وتتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء لتعريف العرب بأحوال من يعرفونه ممن عصى وكذب الرسل وما حل بهم من عذاب ، ليكون سماعها مرغبا في الطاعة المنوابة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذرا عن المعصية التي تهبط بأصحابها الى دركات الأشقياء (٢) •

(١) الحجر : ٥١ - ٦ •

(٢) ينظر الرازي : ٢٧٥/٥ •

وتبدأ هذه القصص بقصة ابراهيم عليه السلام ، لأنه النجد الأعلى للعرب وهم يفتخرون بالانتساب اليه وذكر قصته تجعلهم يعتبرون بما فيها من هواعظ ، لأنها قصة جدتهم ، كما أن فيها تبشيرا لابراهيم ، وتعذيبا لقوم لوط ، فهي بمثابة دليل على الحكم السابق لها في قوله تعالى : « نبي عبادي أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم » (٣) •

كما أنها تدور حول حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام بعد مجيئهم اليه ، وهذا مناسب لطب العرب من رسول الله ﷺ في أول السورة أن يأتيهم بالملائكة « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون • لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (٤) وكان القصة تقول لهم ان الاتيان بالملائكة ليس مطلباً صعباً على الله تعالى فقد أتت الملائكة الى رسل الله تعالى ومنهم ابراهيم جدكم الأعلى •

وهذه الحلقة تنقسم بالايجاز وسرعة الايقاع انساقاً مع سورة الحجر المبنية في عمومها على ذلك ، كما سنبينه في موضعه •

البداية :

بداية هذه الحلقة معطوفة على ما تقدمها من قوله تعالى : « نبي عبادي أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابي هو العذاب الأليم » • وهى مع كونها معطوفة على ما تقدمها الا أنها بداية فيها تتسويق وتبنيه لما يأتى بعدها ، حيث لم يجر ذكر إرسال الرسل وحوارهم مع ابراهيم عليه السلام مباشرة ، بل مهد لذلك بما يبعث الشوق فى النفس لمعرفة وهو قوله تعالى : « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » فان النفس عندما تتأمل هذا الأمر تشتاق الى معرفة هذا النبأ وتفاصيل ما جرى فيه •

(٣) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ •

(٤) الحجر : ٦ ، ٧ •

والنبا : الخبر : و « نبئهم » أى خبرهم اخبارا عظيما (د) ، وهذا الفعل يدل بمادته على وجود خبر هام ينبغي أن يقصر ويستمع له ، فهو مشوق لما يأتى بعده ، ويدخل بصيغته المشددة على عظمة الخبر وأهميته • والضيف : فى الأصل مصدر ضاف يضيف ، إذا أتى انسانا لطلب اقربى ، ثم سمي به ، ولذلك وحده فى اللفظ وهم جماعة والتعبير عنهم بافظ الواحد اشارة الى اتحاد كلمتهم (٦) وسموا ضيفا : لأن من يدخل دار الانسان ويلتجئ اليه يسمى صيفا (٧) ، ولأنهم كانوا على صورة الضيف ، وأنصفوا الى ابراهيم عليه السلام وان لم يكونوا أصيافا لأنهم أتوا انيسه ، ولأنهم كانوا فى صورة من كان ينزل به من الأضياف إذ كان لا ينزل به أحد الاضافه وكان يكبر أبى الضيفان (٨) ولم يذكروا بعنوان الرسالة ، لأنهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه السلام بل الى قوم لوط (٩) •

تحية وحوار :

وبعد هذه البداية المشوقة يبدأ سرد الحوار الذى دار بين الملائكة و ابراهيم عليه السلام « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما » واذا ظرف نصب على المفعولية بفعل محذوف معطوف على « نبى » أى واذا ذكر وقت دخولهم عليه ، أو ظرف « لضيف » بناء على أنه مصدر فى الأصل (١٠) •

(٥) نظم الدرر : ٦٥/١١ •

(٦) نظم الدرر : ٤٦١/١٨ •

(٧) الرازى : ٢٧٩/٥ •

(٨) البحر المحيط : ٤٥٨/٥ •

(٩) أبو السعود : ٨١/٥ •

(١٠) الألوسى : ٦٠/١٤/٧ •

وفي قوله « دخلوا عليه » اشعار بأنهم جاءوه بلا مقدمات ، ودخلوا عليه دخولا مفاجئاً غير متوقع كما أنه دخول مشوب بالاستعلاء لا كالدخول المعهود للضيوف ، على حد ما يشير اليه قوله « عليه » ، وهذا مما زاد في خوفه بجانب كونه لا يعرفهم . والفاء تدل على أن إلقاء السلام عليه كن عقيب الدخول مباشرة بلا تأمل بينهما . و « سلاما » منصوب بفعل مقدر أي : نسلم سلاما ، أو سلمنا سلاما . ولم يذكر رده عليهم ولا بقية القصة ، لأن المقصود هنا الترغيب والترهيب فاقترن من القصة على ما يؤدي ذلك ، حيث فصلت القصة في موضع آخر (١١) . ولا يقدر ذلك فيما ذكر في هود والداريات ، فان « إذ » ظرف زمان بمعنى حين ، والحين قد يكون واسعا ، فيذكر ما فيه ، تارة جميعه على ترتبيه ، وأخرى على غير ذلك وتارة بعضه مع اسقاط البعض ، مع صدق جميع وجوه الاخبار ، لكونه كان مشتملا على الجميع ، وتكون هذه التصرفات على هذه الوجوه لمعان يستخرجها من أراد الله (١٢) .

وجملة « قال انا منكم ورجلون » مفصلة عما قبلها للاستئناف البياني ، غنى جواب عن سؤال مقدر تثيره الجملة التي قبلها ، وهذه طريقة سلكها القرآن في عرض المحاورات ، وفي التأكيد بأن تقوية لمضمون الجملة وتحقيق له . وتقديم الجار والمجرور على الخبر لإفادة أن الرجل منهم لا من شيء آخر ، وفيه أيضا تشويق للخبر . والرجل : استشعار الخوف ، أو اضطراب النفس لتوقع مكروه ، و « ورجلون » أي خائفون ، وكان خوفه لعدم معرفته بهم ، وامتاعهم عن الأكل ، ودخولهم عليه بلا مقدمات (١٣) . وفي الايتين بوجولون على صيغة

(١١) ينظر حاشية الشهاب : ٢٩٨/٥ .

(١٢) نظم الدرر : ٦٦/١١ .

(١٣) المفردات : ٥١٣ ، والكشاف : ٣٩٢/٢ ، وأبو السعد : ٨١/٥ .

المنبأة « فعل » بكسر العين أشعار بشدة الخوف • وفي مجيء الجملة اسمية اثبات للخوف وتحقيق لوجوده •

ويجيئه الرسل مطمئنين قلبه ، ومبشرين له بالولد « قالوا لا توجل أنا نبشرك بغلام عليم » • والفصل بين « قالوا » وما قبله للاستئناف البياني ، وقد نهوه عن الوجل رداً على خبره ، وفي النهي مزيد طمأنينة له ، حيث جعل قادراً على الانتهاء عنه ، وإطلاق الوجل دون تقويضه بالجار والمجرور « هنا » كما ورد في خبره التعميم في نفى الوجل عنه ، سواء أكان منهم أم من غيرهم •

ولما كان نهيه عن الوجل يثير سؤالاً عن سبب ذلك ، عللوا هذا النهي بقولهم « أنا نبشرك بغلام عليم » فإن البشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن ، كيف لا وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمناً طويلاً (١٤) •

وتأكيد الخبر بان لتحقيقه وتقويته ، لما يتضمنه من أمر سيكون مثار عجب لديه عند سماعه ، ولتلاءم خبرهم المؤكد مع خبره المؤكد « أنا منكم وجيلون » • وإيثار البشارة على غيرها من الألفاظ لما في هذا اللفظ السار من المسارعة بطمأنته ، والتعجيل بادخال السرور على نفسه ، وفي مخاطبته بالبشرى مزيد مسرة له ، ولأن الحوار كان معه •

وقد بشروه بشيئين : أنه سيكون ذكراً ، وأنه سيصير عليماً (١٥) • وهذه أعظم بشرى يتلقاها الإنسان بعد حرمانه من نعمة الولد حتى صار شيخاً هرمًا •

(١٤) الألوسى : ٦١/١٤/٧ •

(١٥) أبو السعود : ٨١/٥ •

والغلام : هو الذى طرئ ساربه ، أى طاع وظهر (١٦) • وفى اطلاق لفظ الغلام على الطفل الذى سيولد له مجاز مرسك علاقته اعتبار ما سيكون • وفى ذلك إشارة الى أنه سيكون ويبلغ مبلغ العلمان • كما أن فيه إشارة الى أن هذا المولود سيكون طفلاً مكتملاً قويا ، وليس كأولاد الشيوخ ضعيفا (١٧) وفى لفظ « عليم » إشارة الى أنه سيكون رجلاً عظيم القدر ذا علم كثير عزيز • وتذكير « غلام » للتعظيم ، أى غلام عظيم الشأن ، ووصفه بـ « عليم » زيادة تعظيم له وبذلك عظم بالتذكير وبالوصف •

ويتصل الحوار فيرد ابراهيم عليه السلام على بشارة الملائكة « قال أبشرونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون » ورده يشهد على استفهامين :

الأول : « أبشرونى على أن مسنى الكبر » والاستفهام للتعجب و « على » بمعنى مع وإيثار على لادلالة على شدة اقتران البشارة بمس الكبر اياه (*) ، وتمكن مس الكبر منه • والجار وانجوز فى موضع الحال ، فيكون عليه السلام قد تعجب من بشارتهم اياه مع هذه الحال المتنافية لذلك ، أى أن الولادة أمر عجيب فى العادة مع الكبر ، ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار ، والمعنى : لا ينبغي أن تكون البشارة مع الحال المذكورة (١٨) •

والثانى : « فبم تبشرون » و « ما » استفهامية ، والاستفهام للتعجب كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى • ويجوز أن يكون للانكار ،

(١٦) مقاييس اللغة : مادة غلم •

(١٧) ينظر نظم الدرر : ٦٦/١١ •

(*) التحرير والتنوير : ٩/١٤ •

(١٨) ينظر : الكشف ٣٩٢/٢ ، وحاشية الشهاب : ٢٩٨/٥ •

والالتوسى ٦١/١٤/٧ •

والمعنى : أنكم تبشرونى بما هو غير متصور فى العادة ، غباى شئ تبشرونى ، يعنى : لا تبشروننى فى الحقيقة بشئ ، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شئ ، ويجوز أن نكون الباء للملابسة والاستفهام سؤال عن الوجه والطريقة ، يعنى بأى طريقة تبشروننى بالولد ، والبشارة به لا طريق لها فى العادة (١٩) •

واختار الشيخ ابن عاشور أن يكون الاستفهام الأول للتعجب ، وقد أكد هذا التعجب باستفهام تعجب آخر « فبم تبشرون » وفيه نزل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم ، لأنه يكاد يكون غير معلوم • وقد علم إبراهيم عليه السلام من الإشارة أنهم ملائكة صادقون ، فتعین أن الاستفهام للتعجب (٢٠) •

وتعجب إبراهيم عليه السلام عن طريق الاستفهامين السابقين مبنى على استبعاد البشارة حسبما جرت به العادة ، وما درجت عليه السنن الكونية ، لا باعذر القدرة الانهية ، إذ لا شك فى إيمانه بقدرة الله تعالى ، وييقنه بأنه يقول بشئ كن فيكون • ويرد الملائكة على تساؤلات إبراهيم عليه السلام « قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من المقاتلين » والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستفهام البيانى كما سبق مراراً •

وبالباء فى « بالحق » للتعدي ، كما فى بشرته بقدوم زيد ، فيكون المعنى : بشرناك بالأمر الواقع لا محالة ، بناء على أن الاستفهام للتعجب ، أى أن البشر به أمر لابد من وقوعه فكيف يتعجب منه • أو يكون المعنى : بشرناك باليقين الذى لا لبس فيه ، بناء على أن الاستفهام للانكار ، أى أن البشر به أمر محقق متيقن ، فكيف يذكر •

(١٩) الكشف : ٣٩٢/٢ ، والالوسى : ٦١/١٤/٧ •

(٢٠) التحرير والتنوير : ٥٩/١٤ •

ويجوز أن نكلون الباء لئلا كما في ضربه بالسوط ، فيكون المعنى :
 بشرتك بطريق هو حق ، وهو أمر من له الأمر القادر على خلق الولد
 من غير أبوين فكيف بايجاده من شيخ فان وعجوز عاقر (٢١) •
 وتعريف الحق وإطلاقه يشعر بأنه الحق الثابت المقطوع به ، الذي
 لا حق سواه في هذه القضية • ورد الملائكة عند التحقيق ليس جوابا
 على استفهام إبراهيم عليه السلام لأنه استفهام غير حقيقي ، بل هو
 رد لكلامه وتعجبه (٢٢) •

وبعد أن بينوا له أنهم يتسرون بالحق نهوه عن أن يكون من
 الآيسين بقولهم « فلا تكن من القانطين » والقنوط : اليأس • ونهيه
 له لا يدل على تلبسه بالقنوط ، لأن النهي عن الشيء لا يدل على تلبس
 المنهى عنه به ولا بمقاربتة (٢٣) • فالنهي هنا على سبيل الإلهاب والتهيج
 حثا له على ادوام التمسك بيقينه الثابت في أن الله عز وجل لا يعجزه
 شيء ، فهو يشبه النهي في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ « ولا تكونن
 من المشركين » (٢٤) •

وفي صياغة النهي على هذه الصورة بدلا من أن يكون : فلا تكن
 قانطا مثلا ، اشعار بعدم قنوطه ، حيث لم يخبر عنه بالقنوط ، بل
 نهى عن أن يكون من جماعة القانطين وهو ليس داخلا فيهم •

ولما ألهموه بهذا النهي ، رد عليهم منكرا أن يكون من القانطين
 « قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، والاستفهام انكاري ،

(٢١) البيضاوي : ٣٥٧ ، وحاشية الشهاب : ٢٩٩/٥ ، والالوسي

• ٦٢/١٤/٧

(٢٢) التحرير والتنوير : ٩٥/١٤

(٢٣) البحر المحيط : ٤٥٩/٥

(٢٤) القصص : ٨٧ •

أى لا يقنط من رحمة ربه الا المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته ، ومراده بذلك نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه ، أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى ، وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على (٢٥) •

وانما كان رده أبلغ فى نفى القنوط عن نفسه من أى أسلوب آخر لأنه نفاه عن طريق الحجة والبرهان حيث نفى القنوط عن غير الضالين وأثبتته للضالين ، وبما أنه ليس من الضالين فهو من غير القانطين •

كما أن رده جاء مؤكدا عن طريق القصر بالنفى المستفاد من الإنكار والاستثناء بالا ، وهذا من أقوى طرق القصر فى تأكيد الحكم الذى تتضمنه الجملة •

و فى التعرض لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة (٢٦) لما فيهما من معاني التربية والعذية واللفظ والشفقة ، وذلك مما ينافى القنوط ولما ريد عليهم أبلغ رد وآكده ، وتحقق من البشرى وعلى أنهم ملائكة الله تعالى ، ورأى أن اتیانهم مجتمعين على غير الصفة التى يأتى عليها الملك للروحى ، كان ذلك سببا لأن يسألهم عن أمرهم وشأنهم (٢٧) « قال فما خطبكم أيها المرسلون » وفاعل قال هو ابراهيم عليه السلام وتوسيط القول بين كلامه السابق والملاحق صريح فى أن بين القولين مقالة مطوية لهم ، فان توسيط قال بين قوليه للإيدان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتناؤه عليه بن على غيره • ثم ان خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالته المطوية كانت متضمنة لبيان أن

• (٢٥) أبو السعود : ٨٢/٥ •

• (٢٦) السابق •

• (٢٧) نظم الدرر : ٦٧/١١ •

مجيئهم ليس لمجرد البشارة : بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا نثائه
قال عليه السلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو؟ (٢٨) •

وانفاء في « فما خطبكم » لا تدل على اتصال الكلامين ، لجواز أن
تكون دالة على أن ما بعدها انتقال الى بحث آخر ، ومثله كثير في الكلام ،
أر أن تكون فصيحة على معنى اذا تحقق هذا فأخبروني ما أمركم الذي
جئتم له سوى البشارة؟ (٢٩) •

والخطب : الأمر ، ولا يكاد يقال الا في الأمر الشديد (٣٠) •
وايثاره على غيره من الألفاظ لما فيه من شدة تناسب مقام الوجع منهم
ونقلاء مع مجيئهم الغريب الذي ليس بمعتاد ، مما يدل على أنه مجيء
لأمر جليل وقد فصل الرازي ذلك فقال : فان قلت هل في الخطب فائدة
لا توجد في غيره من الألفاظ فنقول نعم ، وذلك من حيث ان الألفاظ
المفردة التي يقرب منها وهي : الشغل ، والأمر ، والفعل وأمثالها لا تدل
على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل
على عظم من على يده ينقضى فقال « ما خطبكم » أي لعظمتكم لا ترسلون
الا في عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول : ما شغلكم الخطير وأمركم
العظيم للزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز (٣١) •
واسأله انيهم لما أنهم مبالغوه وحاملوه الى قوم لوط •

وحذف حرف النداء من « أيها المرسلون » لقريتهم منه قريبا حسيا
وقريبا معنويا حيث أنس بهم بعد أن عرفهم وتحقق منهم ، ومن ثم
ناداهم بصفتهم الحقيقية وهي الرسالة •

• (٢٨) أبو السعود : ٨٢/٥

• (٢٩) الألوسي : ٦٣/٧

• (٣٠) البحر المحيط : ٤٥٩/٥

• (٣١) الرازي : ٦٤٥/٧

ويجيب الرسل على سؤال ابراهيم عليه السلام مبينين الأمر الذي أرسلوا من أجله « قالوا ان أرسلنا اثنى قوم مجرمين • الا آل لوط انا لمنجوههم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » •
 وانفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف ، وتأكيده الخبر بان لتحقيق مضمونه ، ولوقوعه في جواب السؤال المقدر ، وبناء الفعل « أرسلنا » للمفعول لكونه عليه السلام عالما به رسالهم وهو الله سبحانه وتعالى • وتنكير « قوم » لتحقيقهم والاستهانة بهم ، ووصفهم بـ « مجرمين » مزيد ذم لهم بالوصف الصريح بعد ذمهم بالتكثير ، وبيان لجنايتهم التي تسببت في ارسال الرسل اليهم بالعذاب ، وفي مجيء الوصف اسم فاعل يشعر بعراقتهم في الاجرام وأصالتهم فيه ، والمراد بالقرم المجرمين قوم لوط • والتعبير عنهم بذلك فيه مسارعة الى ايضاح فسادهم وبيان علة عذابهم ، واشعار بأنهم معروفون بهذا الوصف ، مشهورون به بين الناس •

ونظم الآيات يشتمل على استثنائين دار حولهما كلام المفسرين:
 الأول : « الا آل لوط » وهذا استثناء يجوز أن يكون منقطعا ، على أنه استثناء من « قوم » لأن انقوم موصوفون بالاجرام ، فاخذنا، لذلك الجنسان ، وعلى هذا فآل لوط مخرجون من حكم الارسال ، ويكون الملائكة أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا • ومعنى إرسالهم على هذا كإرسال الحجر أو السهم الى المرعى ، فهو في معنى التعذيب والاهلاك ، كأنه قيل انا أهاننا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم ، وعلى هذا يكون قوله « انا لمنجوههم » يجري مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط ، لأن المعنى : لكن آل لوط منجون •

ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا ، على أنه استثناء من التضمين في مجرمين ، كأنه قيل : الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم

وعلى هذا فالقرآن والارسل شاملان للمجرمين وغيرهم ، ويكون الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ايهلكوا الأولين ، وينجوا الآخرين ، فلا يكون الارسل مخلصا بمعنى الاهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول ، وعلى هذا يكون قوله « انا لمنجوهم » كلاما مستأنفا كأن ابراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ؟ فقالوا انا لمنجوهم أجمعين (٣٢) .

والاستثناء الثاني قوله « الا امرأته » ويرى الزمخشري أنه استثناء من الضمير المجرور في قوله « لمنجوهم » وليس استثناء من الاستثناء السابق ، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال . أهكناهم الا آل لوط الا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق . أنت طالق ثلاثا الا اثنتين الا واحدة ، وفي قول المقر : فلان على عشر دراهم الا ثلاثة الا درهما ، فأما في الآية فقد اختلف الحكماء ، لأن آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين ، والا نهرأته متعلق بمجرهم ، ومن ثم فليس هنا استثناء من استثناء (٣٣) . وقيل انه استثناء من الاستثناء ويصحح هذا أنه لما كان الضمير في « لمنجوهم » عائداً على « آل لوط » وقد استثنى منه المرأة ، صار كأنه مستثنى من « آل لوط » لأن المضمرة هو الظاهر في المعنى (٣٤)

وبعد توجيه الاستثناءين نعود للتأمل في خصائص النظم ، فنرى تعدد التأكيد في قوله « انا لمنجوهم أجمعين » حيث أكدت الجملة بان واللام وأجمعين ، مع مجيء « منجورهم » مشددة العين تعظيماً لهذه النجاة وعلى صيغة اسم الفاعل الدالة على ثبوتها ، وتقدم استثناء

(٣٢) ينظر الكشف : ٣٩٣/٢ ، والبحر المحيط : ٤٦٠/٥ ،

وأبو السعود ٨٢/٥ ، ٨٣ .

(٣٣) الكشف : ٣٩٣/٢ ، ٣٩٤ .

(٣٤) البحر المحيط : ٤٦٠/٥ .

هؤلاء الناجين بقوله « ألا آكل لحوا » وهو لاغت للانتباه مثير للتساؤل، وكل هذه الخصائص تثبت مضمون الجملة وتحققه على أبلغ وجه وأكدّه وأقواه •

« على هذا النمط البديع من اثار الانتباه ، والتسدد في التأكيد ، وحشد مختلف عناصر التقوية تأتي جملة الاستثناء الثاني « الا امرأته عذرنا انها لمن الغابرين » حيث تضمنت الخصائص التالية :

استثناء امرأته من الناجين مما يثير الانتباه ، ويشوق لمعرفة مصيرها الذي لم يعرف بعد ، والبدء في بيان مصيرها بفعل « عذرنا » الدال بممانته على أنه قضاء وقدر محترم ، وإدخال بصيغته الماضية على أنه قضاء أبرم ولا راد له ، والشوق بحاجته الى التفسير والايضاح إلى ما يأتي بعده من أحكام ، واسناد التقدير الذي هو فعل الله تعالى إلى الملائكة على سبيل المجاز العقلي بناء على أنهم المنفذون له ، وفي هذا اشارة الى حضور المقدرين والمنفذين بأنفسهم مما يصعب معه رد تقديرهم •

وتعليق فعل التقدير عن العمل في قوله « انها لمن الغابرين » بسبب وجود لام الابتداء التي لها صدر الكلام ، وفي هذا ما يجعل فعل التقدير المعلق مثيرا لتساؤلات نفسية عن ماهية هذا التقدير ، كما يجعل الجملة المتضمنة للحكم مستقلة ببيانه وايضاحه •

وتأكيد الخبر المقصود بأن واللام ، والاتيان بلفظ « الغابرين » على صيغة اسم الفاعل الدالة على الثبوت ، وتعريفه واطلاقه للأشعار بأنهم مهودون ومعروفون بهذا الوصف المطلق •

و « الغابرين » جمع غابر وهو الماكث بعد مضى ما هو معه • • ومنه الغبرة وهي البقية في الضرع من اللبن ، والغبار ما ينفى من

الترايب المشار (٣٥) : الا امرأته قضينا انها من الباقيين مع الكفرة في العذاب لتهلك معهم (٣٦) •

وببيان المصير المحتوم لقوم لوط وامراته ، وايضاح نهايتهم المؤلة ، يختتم حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام ليبدأ عقبيه حوارهم مع لوط عليه السلام •

(٣٥) المفردات : ٣٥٧ •

(٣٦) ينظر العرطى : ٣٦٥٣٧٥ •

الحققة الثالثة

حديث ضيف ابراهيم

قال الله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المذرمين • اذ دخلوا عليه فقالوا
سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين •
فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف
وبشروه بغلام عليم • فأقبلت امرأته في صرة غصصت وجهها وقالت
عجوز عقيم • قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم • قال عما
خطبكم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • نرسل
عليهم حجارة من طين • مسومة عند ربك للمسرفين » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الحلقة الثالثة من الحلقات التي تعرض قصة ابراهيم عليه
السلام مع الملائكة الذين جاءوه بالبشرى وأخبروه بهلاك قوم لوط •
وسورة الذاريات التي منها هذه الآيات ، مقصدها الأول الدلالة
على صدق قضية الألوهية ، وصدق ما وعد به الله سبحانه وتعالى ،
وأخبر به في كتابه ، من مشاهد يوم القيامة ، وما فيه من أحوال وأهوال •
ومن ثم بدأت السورة بالاقسام بآيات الله الكونية على صدق
ذلك ووقوعه ، ثم عرضت للمكذبين الخراصين ، الذين هم في غمرتهم
ساهون ، ينكرون يوم الدين ، حتى اذا غاجأهم ذاقوا فيه العذاب الأليم
وعرضت في أثرهم للمتقين وثوابهم العظيم ، وأعمالهم التي نالوا بها

(١) الذاريات : ٢٤ - ٣٤ •

هذا الثواب ، ثم أشارت الى آيات الله تعالى في الأرض وفي الأنفس وفي السماء مبينة أنها حجة — لمن ينظر فيها — على صدق ما أخبر به الله عز وجل .

وانتقلت السورة بعد ذلك الى ذكر قصص بعض الأنبياء علي سبيل الإيجاز مؤكدة على ما فيها من هلاك المكذبين ، لتكون عبرة وموعظة لمشركى قريش الذين يكذبون بيوم الدين .

وبدئ بذكر قصة ابراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب ، حيث يعتبرونه أباهم الأعلى ، وقد جرى الحديث عن مشركيهم في صدر السورة ، وخطبوا بجرائمهم وشنائعهم ، وفي ذكر قصته «زيد تعريش بهم ، لأنهم لم يتبعوا أباهم ولم يسيروا على نهجه في توحيد الله تعالى وعبادته .

كما أن قصة ابراهيم عليه السلام أطول القصص المعروضة في السورة ، وتشتمل على خبر عجيب وحوار غريب لم يحدث لنبي من الأنبياء المذكورين فيها ، ففى أدل على قدرة الله تعالى التى تهتم السورة بابرارها وذكر مظاهرها .

البداية :

تبدأ هذه الحلقة بداية مثيرة للانتباه ، مشوقة للنفس باعثة لها على ترقب ما يأتى بعدها « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين » .

والاستفهام هنا للتشويق للنفس واثارته لمعرفة ما يأتى بعده من حديث عجيب ، ومن ثم يتيقظ السمع ويتنبه الذهن للتركوف على تفاصيله ، والتثبت منها . ويرى أبو حيان أن الاستفهام تقريرى ، (٢٠ — خصائص النظم)

فَتَجْتَمِعُ نَفْسُ الْمُخَاطَبِ، كَمَا تَبْدَأُ الْمَرْءَ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تُحَدِّثَهُ، بِجَيْبٍ مُفْتَقَرٍ هَلْ سَمِعَ ذَلِكَ أَوْ لَا ، فَكَأَنَّكَ تَقْتَضِي أَنْ يَقُولَ لَا وَيَسْتَطْعَمُكَ الْحَدِيثُ (٢) .
 وَفِي هَذَا الْاسْتِفْهَامِ تَفْخِيمٌ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ ، لِأَنَّهُ يَحْمِلُهُ مِنَ التَّعْجِيبِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَأَنَّهُ مِمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ لِأَهَمِّيَّتِهِ (٣) .
 وَالْمُخَاطَبُ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَفِي لَفْظِ « أَتَاكَ » إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَإِنَّمَا عَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ . وَفِي مُخَاطَبَتِهِ بِذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِقَلْبِهِ بِبَيَانِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَرَضَ لَهُمْ مِثْلُ مَا يَعْصُرُ لَهُ (٤) . مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عِظَةٍ وَاعْتِبَارٍ . وَفِي الْكَلَامِ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَشْبِيهِ الْحَدِيثِ بِقَادِرٍ عَلَى الْإِتْيَانِ ، وَحَذَفَ الْمَشَبَّهُ بِهِ وَاثْبَاتِ لَازِمَةٍ لِلْمَشَبِّهِ . وَفِي ذَلِكَ تَصْوِيرٌ لِلْحَدِيثِ بِصُورَةٍ قَادِرٍ يَأْتِيهِ وَيُنَحِّدُ إِلَيْهِ بِمَا فِي نَفْسِهِ .

وَالْحَدِيثُ : الْخَبَرُ ، مَا خُذَ مِنْ حَدَثٍ ، الدَّالُّ عَلَى كَوْنِ الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ كَلَامٌ يَحْدُثُ مِنْهُ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ (٥) .
 وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ حِوَارٌ دَارَ وَحْدَتِ شَيْئًا فَشَيْئًا .
 وَإِضَافَةُ الْحَدِيثِ إِلَى ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُمْ الْبَادِئُونَ بِهِ ، وَالسَّبَبُ فِي جَرِيَانِهِ . وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ عَنْ لَفْظِ « ضَيْفٌ » فِي الْحَلْقَةِ السَّابِقَةِ ، فَلَا دَاعِيَ لِتَكَرُّارِهِ .

و « الْمَكْرَمِينَ » وَصَفَ لَهُمْ ، وَقَدْ وَصَفُوا بِذَلِكَ لِكِرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » (٦) ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ

(٢) البحر المحيط : ١٣٨/٨

(٣) ينظر الكشف : ١٧/٤ ، وحاشية الشهاب : ٩٧/٨

(٤) الرازي : ٦٤٠/٧

(٥) مقاييس اللغة ، والصحاح : مادة : حدث

(٦) الأنبياء : ٢٦

من أكرام إبراهيم عليه السلام لهم • وفي وصفهم باسم المفعول
إشارة إلى ثبوت هذه الصفة وبرسوخها فيهم •
تحذية وحوار :

وبعد البداية المشوقة للحديث ، يعرض الحوار الذى بدأه الملائكة
مع إبراهيم عليه السلام بالتحذية مبدؤا ببيان وقته « أذ دخلوا عليه
ثقالوا سلاما » ورد إبراهيم عليهم بأحسن من تحذيتهم « قال سلام »
وقد سبق الحديث عن ذلك مفصلاً حلقتى « هود » و « الحجر » •
ويرد رده السلام فى هذه الحلقة بقوله « قوم منكرون » أى
جماعة غير معروفين أنا معرفه يسكن اليها القلب قال ابن فارس :
الفنن والكاف وانراء أصل صحيح يدل على خلاف المعرفة التى يسكن
اليها القلب ، وفكر الذى ، وأنكره لم يقبله ولم يعترف به أسننه (٧) •
وفى ايثار منكرون على غيره من الألفاظ اشعار بعدم اطمئنان قلبه
من جهتهم •

« قوم خبر مبتدأ محذوف والتقدير : هؤلاء قوم منكرون وحذف
المسند اليه مشعر بما اعتراه من خوف ولبلة وضيق من عدم معرفتهم
وقيل التقدير : أنتم قوم منكرون ، وأراه بعيدا لما يوحى به من
أنه واجههم بذلك ، وفى هذا من عدم اللياقة التى ينتزعه عنها إبراهيم
عليه السلام ما فيه • والذى يبدو أن هذا كان حديثا نفسيا لإبراهيم
لم ينطق به وأظهره العليم الخبير (٨) ، أو حديث هامس قاله لمن
بجواره لم يسمعه القادهون ، وبهذا تجرى العادة التى يومنا هذا ،
فَعَندَما يأتى الى أحدنا غرباء يقول فى نفسه : من هؤلاء ؟ ومن أين
أنتم ؟ وماذا يريدون ؟ وكلها أسئلة نفسية لا يجهر بها •

(٧) مقاييس اللغة : مادة نكر •

(٨) بنظر البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، ونظم الدرر : ٤٦٢/١٨ •

ولما حيّاهم بأحسن من تحيتهم مضى على عجل الى أهله لاحضار
القرى « فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قتل ألا تأكلون ،
والرؤغ : الليل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب يروغ روغاً ،
وراع فلان الى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، والمضى :
فذهب اليهم في خيفة من ضيوعه ، وخفة وسرعة ، ومن آداب
المضيف أن يخفى أمره وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف
حذرا من أن يكفه ويعذره (٩) .

والفاء في قوله « فراغ » تدل على اسرعه وتعجيله بالقرى ،
وعدم المهلة في ذلك ، والفاء في قوله « فجاء » فصحة من جمل قد
حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وايداننا بكمال السرعة في المجيء
بالطعام . أى غذبح عجلا فحنّذه فجاء به (١٠) . وفي ذلك من الإيجاز
بطى الأحوال المفهومة مالا يخفى . ووصف العجل بسمين يعنى أنه
كثير اللحم والشحم ، وهذا يدل على أنه أحضر أجود ما عنده ، وهذا
من آداب الضيافة .

وقوله « فقربه اليهم » أى وضعه بين أيديهم ، وفيه من آداب
الضيافة تقديم الطعام الى الضيف في مكانه لا نقله الى موضع الطعام .
وفي إثارة « قرب » على « قدم » لاشعاره بأنه وضعه في غاية القرب
منهم ، بخلاف « قدم » فإنه لا يدل على القرب ، فقد يقدمه اليهم
وهو غير قريب منهم .

ثم دعاهم للأكل « قال ألا تأكلون » وألا للعرض وهو الطيب
بلين ورفق ، عرض عليهم تناول طعامه ، ولم يأمرهم بذلك بأن
يقول لهم كنوا مثلاً ، ذلك من آداب الضيافة ، وفي هذا العرض تأنيس

(٩) انفرادات : ٢٠٨ ، والكشاف : ١٨/٤ .

(١٠) التلوي : ١٢/٢٧/١٤ .

لهم وتنجيع على الأكل ، لدلالتة على أنه راغب في أن يأكلوا مسرور
بذلك ، وهذا بخلاف من قدم طعاما ولم يدع ضيفه الى الأكل منه ،
فقد يفهم الضيف أن غذا على سبيل التجميل لا رغبة في الاكرام (١١) .
وقيل الهمزة في ألا للانكار ، وكأن في الكلام حذفاً والنقد
فامتنعوا من الأكل فأنكر عليهم ترك الأكل فقال : ألا تأكلون (١٢) .
وعلى هذا ففى الكلام ايجاز بالحذف .

ولما دعاهم للأكل فلم يهتدوا أيديهم اليه أضمر في نفسه خوفا
منهم « فأوجس منهم خيفة » فطمأنوه وبشروه بالولد « قالوا لا تخف
وبشروه بغلام عليم » . وقد مر الكلام في ذلك مفصلا في حلقتى هود
والحجر .

الحوار مع امرأته :

وتنتقل الآيات الى وصف حال امرأته ، وكانت على مقربة منهم
فلما سمعت ذلك عجبت أشد العجب « فأقربت امرأته في صرة فصكت
وجهها وقلت عجوز عقيم » . وقوله « فأقربت امرأته » قيل : أى
أقبلت الى بيتها وكانت في زاوية تنظر اليهم وتسمع كلامهم (١٣) .
وقال الرازى : أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم فلما
تكلموا مع زوجها بولادتها استحييت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى
ذلك بلفظ الاقبال على الأهل ولم يذكره بلفظ الادبار عن الملائكة (١٤) .
قال الألوسى : وفي الكلام على هذا استعارة ضدية ، ولا قرينة
هنا تصحها (١٥) .

(١١) ينظر الرازى : ٦٤٣/٧ ، والبحر المحيط : ١٣٩/٨ .

(١٢) ينظر الكشف : ١٨/٤ ، والبحر المحيط : ١٣٩/٨ .

(١٣) البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، والألوسى : ١٢/٢٧/١٤ .

(١٤) الرازى ٦٤٤/٧ .

(١٥) الألوسى : ١٣/٢٧/١٤ .

والاستعارة الضدية هي المشهورة عند البلاغيين بالعنادية ، وهي ما لا يجتمع طرفاها في شيء واحد لتنافييهما ، وسميت عنادية اتعاند طرفيها في الاجتماع (١٦) •

وأرى أنه لا استعارة هنا ، لأن الابقال مستعمل في معناه ، وكلام الرازي لا يدل على أنه مستعمل في ضده فيكون استعارة ، بل ظاهر كلامه أن حالها يمكن التعبير عنه بلفظين باعتبارين ، فهو اقبال باعتبار ذهابها الى بيتها أو أهلها ، وهو ادبار باعتبار ذهابها عن الملائكة • وإيثار لفظ من اللفظين لا يعنى أن فيه استعارة • وإنما أوشر الاقبال على الادبار مراعاة للمقام وما يليق به من الألفاظ ، وفي لفظ الادبار إيحاء لا يليق بالمقام •

وفي النفس شيء من تفسيرهم الاقبال بأنه اقبال الى بيتها أو أهلها ، وأرى أنه اقبال على الملائكة ، كما يدل على ذلك النظر في حلقات القصة مجموعة في حلقة متكاملة ، فمن ذلك يتبين لنا أنها كانت قائمة بقربهم فسمعت البشارة ، فأقبلت عليهم مسرورة متعجبة ، فبشروها هي ، فازداد عجبها وفعلت ما فعلت •

كما أن في اقبالها الى بيتها وأهلها اعراض عن الملائكة بعد معرفتهم ، وقطع للحوار معهم ، علماً بأن حوارها مع الملائكة لم ينقطع ، وكلام الملائكة معها لم ينته بمجرد البشارة كما ترشد الى ذلك آيات سورة هود ، وبقيّة الآيات في هذه الحلقة •

والصرّة : الصيحة ورفع الصوت ، من صر التجذب وصر القلم والباب صرياً ، و « صرة » في موضع النصب على الحال ، أى فجاءت صارة (١٧) • والظاهر أن هذه الصرة كانت مصاحبة لقولها : « يا ويلتنا »

كما في سورة يهود • ويؤيد هذا عادة النساء المشاهدة الى اليوم في
النصائح مع التويل •

وقوله « فصكت وجهها » أى ضربت يدها على وجهها على عادة
النساء عند اشتداد تعجبهن (١٨) • ومادة صك تدل على تلاقى شيئين
بقوة وشدة حتى كأن أحدهما يضرب الآخر (١٩) • وإيثار الصك على
المضرب لما فيه من دلالة على ظهور صوت مسموع من ضرب يدها على
وجهها وإن لم يكن الضرب شديداً ، بخلاف الضرب فقد لا يظهر له
صوت رغم شدته • والفاء تشعر بمقارنة الصك للصيحة دون فاصل
زمنى يعتقد به •

وبين الصر والصك تناسق صوتى بديع أبرزه اتحاد غائيهما في
انصاف المستعابية المطبقة ذات الصفير ، واتحاد عينيهما في التضعيف ،
مما أدى الى قوة الأسلوب وجزالته •

وإنما صاحت وصكت وجهها من جراء الدهشة الشديدة التى
امتلكتها لما بشرت بالولد وهى غير مؤهلة لذلك بحكم العادة • وقد
أفصحت عن ذلك « وقالت عجوز عقيم » وعجوز خبر مبتدأ محذوف ،
والنقدير : أنا عجوز عقيم • وفى حذفه اشعار بضجرتها وضيق صدرها
من شدة ما ألم بها ، وما أخبرت به من أمر عجيب يتنافى مع حالها •
والمسند اليه يحذف لضيق المقام ، وتجد لهذا مذاقا حسنا فى سياق
الضجر والشدة ، حين ينزع المتكلم الى الاشارات اللماحة لفرط ما يجد ،
ويلجأ الى الايجاز لثقل الكلام عليه (٢٠) •

ولما كان ما فعلته وما قانتة مثيرا للتساؤل عن رد فعل الملائكة ،
فقد بينت الآية التالية ذلك « قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم »

(١٨) القرطبي : ٦٢٧/٩ •

(١٩) مقاييس اللغة : مادة صك ج

(٢٠) خصائص التراكيب : ١٣٠ •

أى مثل ذلك الذى بشرناك به قال ربك ، وإنما نخبرك به عنه لا نقولنه من تلقاء أنفسنا (٢١) •

وقد أفاد اسم الإشارة الإيجاز ، ودل على تفخيم البشرى وتعظيمها ، ولفظ الرب بما فيه من معانى التربية والعناية والرافة يشعر بعنايته ولطفه بها ، وأنه منعم عليها بما هى فى شوق إليه ، وممدها به • وإضافة ضميرها الى الرب تعظيم لشأنها ، وأشعار بما يخصها به من الخيرات والبركات •

وعلوا كلامهم بتذييل مؤكد « انه هو الحكيم العليم » أى ان الله سبحانه وتعالى قال ذلك ، لأنه وحده الحكيم فيما يفعله ، العليم بمصالح خلقه ، فقوله عز وجل حق ، وفعله جل شأنه متقن لا محالة • وقد جاء هذا التذييل التعليلي مؤكداً بان وضمير الفصل ، وعرف فيه المسند باللام لإفادة القصر ، وهذا يؤكد تفردة سبحانه وتعالى بالحكم والعلم دون غيره ، فلا يعجزه شيء •

وابراهيم عليه السلام يعلم أن نزول الملائكة واجتماعهم على هذه الصفة لا يكون الا لأمر جليل ، ومن ثم وجه اليهم سؤالاً « قال فما خطبكم أيها المرسلون » • وقد سبق تفصيل ما فى هذا السؤال من أسرار تعبيرية فى حلقة سورة الحجر السابقة •

وأجابه الملائكة عن سؤاله « قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين » • وتعد بينا فى حلقة سورة الحجر ، ما فى قولهم « غاثوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » من خصائص النظم ، وهذه الآية قد نلتها هناك آيات تبين نجات آل لوط ، واستثناء امرأته من ذلك حيث بقيت فى الهالكين •

أما هنا فقد أعقبها بيان علة إرسالهم الى هؤلاء القوم المجرمين « لارسل عليهم حجارة من طين » ، واللام للتعليل والفعل المضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، والتعبير بارسل بدلا من تلقى ، « أشبه ذلك » يشعر بأنها حجارة مرسله اليهم من السماء خاصة بهم لهلاكهم وليست ككل الحجارة ، وفي مجيء الارسل في الآية السابقة ماضيا مبنيًا المفعول « أرسلنا » إشارة الى وقوع هذا الارسل ، وأنهم مرسلون من لدن القادر القاهر لا من عند أنفسهم ، وفي مجيئه هنا فعلا مضارعا مبنيًا للأفعال إشارة الى أن إرسالهم للحجارة لم يتع بعد . وأنهم المباشرون لإرسالها المتفقدون لهذا العمل كما أمرهم الله تعالى •

وفي تكرار الارسل مع اختلاف النصيغة والمتعلق به ، تناسق صوتي فيه ربط قوى للأسلوب بجعل الملائكة في آن واحد مرسلين بفتح السين ، ومرسلين بكسرها • و « عليهم » تدل على العلو ، فالحجارة ترسل عليهم من أعلى كالمطر الشديد لتعميم وتعم قراهم بالهلاك ، دون أن تترك عاليا أو واديا •

وقوله « حجارة من طين » أى طين متحجر ، وهو السجيل كما ذكر في آيات أخرى ، وهو طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير نالحجارة (٢٢) • قال الألوسي : وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها بردا ، فان بعض الناس يسمى البرد حجارة (٢٣) •

وهذا في نظري ليس بوجه ، ولعل الوجه في ذلك هو بيان أنها ليست حجارة صخرية وإنما من نوع الآجر الذي يكون طينا ويطبخ فيكون أشد تأثيرا من الحجارة الملساء ، وفيه إشارة الى أنه كلما تحول باحراقه الى حجارة ، فسرها لهم ويمزق أجسادهم ، وقد عبر القرآن الكريم

(٢٢) البحر المحيط : ١٤٠/٨ •

(٢٣) الألوسي : ١٤/٢٧/١٤ •

عن الآجر بقوله « حجارة من طين » كطريقته في ذلك دائما ، حيث لم يستعمل الآجر اذ ليس فيها من خفة التركيب الا الهزمة وسائرهما نادر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، ولكن عبر عن معناها بالطف عبارة وأرقها وأعذبها في قوله تعالى : « فأوقد لى ياهامان على الطين فأجعل لى صرحا » (٢٤) • وقد ضاعف من حسنها القلقلة التي هي في الدال من قوله « فأوقد » وما يتلوها من رقة اللام ، فانها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس افتزاعا (٢٥) •

ومهما قيل في وصف هذه الحجارة وبيان ماهيتها فهي حجارة خاصة بهم ليست كحجارة الدنيا ويدل على هذا أعظم دلالة قوله تعالى في وصفها « مسومة عند ربك للمسرفين » • أى معلمة معروفة قد أعدها الله للمجاوزين الحد في الكفر والنفجور (٢٦) • والتعبير باسم المفعول « مسومة » فيه دلالة على سبق تعليمها ، وثبوت علامتها لا أنها جديدة حادثة •

و « عند ربك » فيه اشعار بفخامتها وهول تأثيرها : ناز الله عز وجل قد أعدها لهم ، وخصها بهم • وفي لفظ الرب المضاف الى ضميره اشعار بعنايته به وحفظه له ، فلن يمسسه ولا الذين آمنوا معه شيء من هذا السوء •

واللام في المسرفين للعهد ، أى لهؤلاء المسرفين المعهودين الذين هم قوم لوط المعبر عنهم بالقوم المجرمين • وفي وضع الظاهر موضع

(٢٤) القصص : ٣٨ •

(٢٥) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٣٣ ، ٢٣٤ •

وينظر المثل السائر : ٢٠٠/٩ •

(٢٦) ينظر القرطبي : ٦٢١٨/٩ •

الاضمير ذم لهم بالاسراف ومجاوزة الحد في الفجور بعد ذمهم بالاجرام،
 واشعار بعلّة الحكم الذي تضمنته الجملة (٢٧) • وفي التعبير باسم
 الفاعل اشارة الى أنهم ثابتون في الاسراف موصوفون به وصفا
 دائما •

وبتفصيل المهمة التي جاء من أجلها الملائكة ، وبيانهم لنهاية قوم
 لوط المسرفين ينتهي حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام ليبدأ
 بعده ذكر ما جرى لقوم لوط عليه السلام •

الحلقة الرابعة

جدال إبراهيم عن لوط عليهما السلام

قال الله تعالى :

« ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا قتلوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين • » (١) •

بين يدى الآيات :

هذه الحلقة وردت في ثنايا قصة لوط عليه السلام مع قومه ، وبذلك تختلف في موقعها من النظم عن الحلقات الثلاث السابقة التي وردت مستقلة قبل قصة لوط ثم عقيبت بذكرها • وهى أوجز الحلفات التى عرضت خبر ابراهيم عليه السلام مع الملائكة حيث اقتضت على ما يخص لوطا وقومه •

وقصة لوط في هذه السورة مسبوقة أيضا بحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام ، ولكتتها خاصة ببيان دعوته لقومه وهجرته بدينه ، وليس فيها ذكر لحديث الملائكة معه • وقد جاءت بعدها قصة لوط وهى تبدأ ببيان ما قاله لوط عليه السلام لقومه « ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٢) وتذكر جواب قومه وتحذيرهم له بقولهم « آتينا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » (٣) وتوجه لوط الى ربه داعيا « رب انصرنى على القوم المفسدين » (٤) •

(١) العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ •

(٢) العنكبوت : ٢٨ •

(٣) العنكبوت : ٢٩ •

(٤) العنكبوت : ٣٠ •

واستجاب الله عز وجل دعاء لوط وبعث إليه الملائكة لتنزل العذاب بقوته
المفسدين ، وقبل مجيء الملائكة اليه مروا على خليل الله ابراهيم عليه
السلام لتبشيره بالولد ، واخبره بهلاك قوم لوط ، وقد جادلهم ابراهيم
في شأن لوط لما علم بنزول العذاب على القرية ، وطأطأوه بأنه عاج
هو ومن آمن معه من أهله ثم ذهبوا من عنده الى لوط عليه السلام ،
وجرى بينهم وبينه ما جرى مما ورد في باقى القصة •

ولعل هذا ما جعل هذه الحلقة ترد في ثنايا قصة لوط عليه السلام

بداية وحوار :

بداية هذه الحلقة تشبه بداية حلقة « هود » الا أن بداية حلقة
« هود » بداية مستقلة وقائمة بذاتها ، ومؤكدة باللام وفد « ويند
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » (٥) • أما بداية هذه الحلقة فغير
مستقلة ، حيث تتصل وترتبط ارتباطا وثيقا بالحوار الوارد في الحلقة ،
اذ تقع البداية شرطا للما الحيزية ، ويقع الحوار جوابا لها « ولما
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان
أهلها كانوا ظالمين » •

وربط مجيء الرسل بهلاك القرية التى فيها قوم لوط بواسطة
« لما » التى تدل على وجود الجواب لوجود الشرط ، فيه اشعار بأن
ذلك هو المقصد الأصلى من مجيئهم ، والهدف الأساسى من ارسالهم •
وفى بدء الحوار هنا بقرن الملائكة « قالوا انا مهلكوا أهل هذه
القرية » مع عدم تفصيل المشاهد التى تتعلق بابراهيم عليه السلام
وامراته ايجاز بديع بطى هذه المشاهد ، نظرا لورودها فى حلقات
سابقة ، ولأن هذه الحلقة عارضة فى ثنايا قصة لوط ، فالمقام يقتضى

أيراد ما يخص هؤلاء القوم فيها ، وطى ما يخص إبراهيم عليه السلام ،
وإدراؤه لعدم الحاجة الى ذكره •

وأكد الكلام بان التأكيد الحكم وتقويته في مقام المحاورة ، وغرابة
الحكم ، وعبر باسم الفاعل « مهلكوا » دون الفعل للإشارة الى أن
إهلاكهم أهل القرية ثابت محقق ، فهم مهلكوها لا محالة ، وفي إفصاح
الإهلاك على أهل القرية لا نفس القرية إشارة الى أن المقصود أهل القرية
المفسدون ، وليس القرية بذاتها •

والقرية هي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط ، ومركز
تجمعهم ، ولذا خصت بالذكر دون غيرها (٦) • وفي اسم الإشارة
« هذه » تعيين للقرية وتمييز لها بواسطة الإشارة المحسوسة ، والشعار
بحقارتها وضعفها ودنو منزلتها من خلال اسم الإشارة مقريب •

وقوله تعالى : « ان أهلها كانوا ظالمين » تعليل للإهلاك باصرارهم
على الظلم ، وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي (٧) • وقد
على الإهلاك لأن الاخبار باهلاكهم مثير للتساؤل عن سبب ذلك ، ومن
ثم جاء التعليل مفصلاً عما قبله للاستئناف البياني •

وتأكيد التعليل لتحقيق مضمونه ، وإبراز تعلقه بما قبله عن
طريق الربط المعنوي بان • وظهر الأهل في موضع الاضممار لزمهم
بالظلم ، وللشعار باستقلال الجملة التعليلية لا • والتعبيي بـ « كانوا »
فيه إشارة الى قدم ظلمهم ، وعراقتهم في الاتصاف به • • والتعبير
باسم الفاعل « ظالمين » للدلالة على ثبوت ظلمهم واستمراره •

وكان تعميمهم في الاخبار باهلاك أهل هذه القرية مبعث تساؤل
لإبراهيم عليه السلام عن لوط ومصيره ، بسبب وجوده في هذه القرية

(٦) ينظر الألوسی : ١٠/٢٠٤ •

(٧) أبير السعود : ٣٨/٧ •

« قال ان فيها لوطا » أى فكيف تهلكونها مع وجوده فيها ؟ وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن اطمئنانا كاملا على ابن أخيه الذى يهتم بأمراء وتزداد شفقتة عليه •

وتأكيد الخبر بان لتحقيق مضمونه ، وزيادة تنبيههم على وجوده فيها • وفى التعبير بفيها دون منهم أو من أهلها ، اشعار بأنه يعلم أن لوطا غير هالك مع أهلها ، ولكن لما كان هالك أهلها يعنى تدمير القرية بكاملها ، وكان لوط موجودا فيها ، دفعه ذلك الى تحاوره مع الملائكة بشأنه كى ينبهم الى وجوده فيها ، وليطمئن على مصيره ، وهذا سر جداله معهم من وجهة نظرنا ، والله أعلم •

ورد الملائكة على قول ابراهيم عليه السلام « قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » • وبالتأمل فى هذا الرد نراه يشتمل على أربع جمل :

الجملة الأولى : « نحن أعلم بمن فيها » وهذا تسليم منهم لقوله عليه السلام فى لوط ، والمراد أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام (٨) • وهذا يقتضى نجاته من الهلاك عن طريق الكفاية •

والتعبير باسم التفضيل « أعلم » فيه دلالة على مزيد علمهم بلوط عليه السلام ووجوده فى هذه القرية ، وفى حذف المفضل عليه اشعار بتعميم مزيد علمهم ، نعمهم بمن فيها زائد على علمه وعلى علم غيره • والتعبير بمن فيها دون التعبير بنحن أعلم بلوط ، فيه اشارة الى عموم علمهم ، فهم عالمون بلوط عليه السلام والمؤمنين من أهله ، وعالمون بالفسدين من أهله ومن غيرهم ، وعالمون بجميع من فى القرية •

والجملة الثانية : « لننجينه وأهله » وهذه الجملة بيان صريح وتفصيل لصح لوط عليه السلام والمؤمنين معه ، بعد بيان مصيره عن

(٨) ينظر الكشف : ٢٠٥/٣ ، والالوسى : ١٥٥/٢٠/١٠ •

طريق الكتابة في الجملة الأولى ، وفي هذا مزيد طمأنة لابراهيم عليه السلام وتسكين لقلبه •

واللام واقعة في جواب القسم ، والتقدير : والله لننجيهم وأهله ، وفي تأكيد الوعد بالتجية بالقسم ونون التوكيد الثقيلة تحقيق له ، وإشارة الى اعتنائهم بشأن نجاة لوط والمؤمنين من أهله أتم اعتناء (٩) •

وفي عطف أهله عليه تأكيد لعموم علمهم به وبغيره ممن في القرية ، حيث بينوا بذلك أنهم غير غافلين عن لوط وعن غيره من أهله وأتباعه المؤمنين الذين لم يتعرض لهم ابراهيم عليه السلام في حوار (١٠) • وتقديم نجاته على نجاة أهله لأنه الأصل في ذلك وهم تبع له ، ولأنه المتحدث عنه والذي دار الحوار بشأنه •

والجملة الثالثة : « الا امرأته » ، وهي استثناء مخرج لها من أهله الناجين ، ومدخل لها في المهلكين المعذبين • وفي الاستثناء إبراز تخروجها منهم ، وإعلان مؤكد له •

ولما كان استثناءؤها من الناجين محوجا الى بيان مصيرها ، ومشوقا لمعرفة حالها جاءت الجملة الرابعة مبينة لذلك ، « كانت من الغبريين » أى من الباقين في العذاب أو القرية ليقع عليها الهلاك مع المهلكين • وقد سبق الحديث عن الاستثناء وما تلاه في حلقة سورة الحجر •

وبهذا تنتهى هذه الحلقة المتداخلة في ثنايا قصة لوط عليه السلام ليتابع السياق اثرها عرض ما تبقى من قصته •

(٩) ينظر الكشف : ٢٠٥/٣ ، وأبو السعود : ٣٧/٧ •

(١٠) ينظر السابق •

أسرار التشابه والتشريع في النظم

بعد عرضنا للحلقات التي تحكى قصة ابراهيم عليه السلام مع الملائكة ، وتحليلنا للآيات الواردة في كل حلقة منها ، نقف لتأمل نظمها مجتمعة وننظر ما فيه من تشابه وتنوع محاولين الكشف عن الأسرار البلاغية في ذلك .

البدايات :

تبدأ الحلقات الأربع بدايات مشوقة ، فيها اثارذ للانتباه ، وايقاظ للاهتمام وتهيئة للعقول . وان اختلفت درجة التشويق في كل منها .

فحلقة « هود » ضمت بدايتها عنصرين من عناصر التأكيد هما اللام وقد « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » . وذلك للاستعارة بأهمية الخبر ، وتأكيد مجيء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام ، وتحقيق قدرة الله تعالى على انزال الملائكة الى رساله في الأرض ، تثبيتا لقلوب النبي محمد ﷺ ، وردا على مطبب المشركين في بداية السورة « فلعنك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدورك أن يقولوا لو لا أنزل عليه كاز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » (١١) .

واشتملت من الألفاظ المشوقة على لفظ « البشرى » الذي جاء مطلقا زيادة في التشويق ، وترغيبا في متابعة الحلقة لمعرفة مضمون هذه البشرى .

وترداد درجة التشويق في بداية حاقة « الحجر » من خلال أمر الرسول ﷺ بالتنبئ بهذا الخبر ، وايراد الملائكة بوصف الضيف « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » .

وفي بداية حلقة « الذاريات » تعلو نبرة التشويق وتشتد من خلال حشد عدد من عناصره « هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين » بحيث بدىء بالاستفهام المشوق لما بعده ، وعبر بلفظ الحديث ، وصور بصورة القادر على الاتيان ، وجعل الملائكة ضيوفاً ، ووصفوا بالمكرمين ، وفي كل ذلك اشارة للانتباه ، وتشويق الى معرفة هذا الحديث العجيب ، ترغيباً للسامع في متابعتها خصوصاً بعد أن عرض عليه مرتين فيما نزل من السور قبل ذلك •

وبداية هذه الحلقة وان كانت تتشابه مع بداية الحلقة الثانية في لفظي « ضيف إبراهيم » الا أنها تختلف عنها في باقى الألفاظ ومن ثم تختلف دلالة البدايتين ، فلأ تكرار بينهما •

« من جوانب الاختلاف بينهما مجيء بداية الحلقة الثالثة مستقلة غير معطوفة على شيء سابق ، بينما جاءت بداية الحلقة الثانية معطوفة على ما سبقها « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » (١٢) •

وتأتى بداية حلقة « العنكبوت » ملائمة لموضعها في ثانيا قصة أخرى ، فربطت بها ربط وثيقاً عن طريق العطف و « لما » الشرطية وهذا في حد ذاته عنصر من عناصر التشويق يضاف الى لفظ « الشرى » • وربطها بأحداث قصة لوط لم يتح فرصة لوجود احساس بفجوات في السرد ، أو شعور بانتقال مفاجيء • وبهذا الربط القوي والاتصال الوثيق ، تختلف عن بداية الحلقة الأولى وأن تشابهتا في أكثر الألفاظ •

إلقاء السلام :

وبعد البداية تبدأ الحلقات في سرد الحوار الذى دار بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام • ويبدأ الحوار بإلقاء الملائكة السلام على إبراهيم

ورده عليهم ، وقد جاء سلام الملائكة في حقة « هود » مباشرة غير مسبق ببيان وقته ، « قالوا سلاما قال سلام » بينما جاء في حقتي « الحجر » و « الذاريات » مسبقا بذكر وقته « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما » .

والسر البلاغي في هذا أن بداية حلقة « هود » ذكرت مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام ، فأغنى هذا عن ذكر دخولهم عليه ، وبالا كان تطويلا ينزه النظم الكريم عنه . أما حلقتا « الحجر » و « الذاريات » فلم يذكر في بدايتهما مجيء الرسل الى ابراهيم ، فناسب ذلك ذكر دخولهم عليه .

وذكرت حلقتا « هود » و « الذاريات » رد ابراهيم عليه السلام على الملائكة « قال سلام » وجاء رده أقوى من تحيتهما لكونه جملة اسمية تفيد الدوام والثبوت ، بينما وردت تحيتهما جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث . ولم تذكر حلقة « الحجر » رد ابراهيم عليه السلام اشعارا بشدة وجله وخوفه منهم ، حيث صرح فيها بذلك « انا منكم وجلون » وكأن الخوف والوجل منهم طغى على رد السلام .

ولم تذكر حلقة « العنكبوت » سلام الملائكة ولا رد ابراهيم عليه السلام ، كما لم تتعرض لشيء من الحوار الا ما يخص قوم لوط ، وورودها في ثانيا قصته ، لكشف جدال ابراهيم عن لوط عاينها السلام ، وأعقب سلام ابراهيم في حلقة « هود » بأسرعه في انجىء بعجل حنيذ ، وبانكاره لهم وخوفه منهم لما رأى أيديهم لا تمتد اليه « قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » .

وفي حلقة الذاريات عقب سلامه بالانكار ، وذهابه الى الله ومجيئه بعجل سمين ، وتقريبه اليهم ، وعرض الأكل عليهم والخوف

منهم ، « قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة » •

وفي حلقة الحجر عقب سلام الملائكة بقوله مباشرة « أنا منكم رجلون » ولم يذكر شيء مما ذكر في حلقتي « هود » و « الذاريات » • والذى يبدو لى فى سر هذا التنوع أن حلقة « هود » لم تركز على التعجيب من الخبر ، والتشويق اليه ، فلم تبرز الحالة النفسية التى داخلته عقيب سلام الملائكة ، أما حلقة « الذاريات » فمبنية على التعجيب من هذا الحديث العجيب ، والتشويق الى ما فيه من حوار غريب ، فناسب ذلك أن تبرز حالته النفسية المصاحبة للسلام حيث نكرهم من البداية وتملكه الخوف منهم وهذا عنصر مشوق فى الخبر • والمختار عند المحققين أن وله عقيب السلام « قوم منكرون » كان حديثا نفسيا لا قولاً لفظيا (١٣) ، اذ لا يابق بالنبي الكريم المضيايف أن يواجه ضيفه منذ البداية بمثل ذلك •

كما ناسب قيامها على التعجيب والتشويق وتأخر نزولها أن تتصل فيها جزئيات لم تذكر فى حلقة « هود » — « فراغ الى أهله » « فقربه اليهم » « قال ألا تأكلون » — اقتضاء لحق المقام ، اذ النفوس بعد تعجيبها وتشويقها فى تعطش لمزيد من التفصيل فى سرد الخبر ، وسماع ما لم تسمعه قبل ذلك •

وحلقة « الحجر » وإن بدئت بالتشويق الا أن نبرته غير عالية ، وقد ركزت على ذكر خوف ابراهيم ووجهه ، وحكاية حوارهِ وحده دون اشارة الى أهله وما دار معهم من حوار ، ومن ثم حاوت فيها التلميحات الخاصة بذهابه الى أهله وما تبع ذلك من اعداد الطعام وتقديمه اليهم •

(١٣) بنظر البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، ونظم الدرر : ٦٢/١٨ •

والسؤال الذى يطرح نفسه هو أكان أنكار ابراهيم لهم بعد السلام مباشرة كما جاء فى حاقة « الذاريات » أم بعد أن قدم لهم الطعام ورأى أيديهم لا تصل اليه كما جاء فى حلقة « هود » ١ •

والجواب يتمثل فى الجمع بين الحقتين ، فيكون قد حصل عنده فكر لهم لما دخلوا عليه فى هيئتهم الغريبة التى لم يعهدها ، ثم زاد الفكر وتأكد بالخوف بعد أن قدم لهم الطعام ولم تصل أيديهم اليه ، وظهر عليه أثر ذلك مما دعاهم أن يقولوا له « لا تخف » •

والذى يدل على هذا أن انكارهم عقيب السلام كان انكارا عاما عند جميع من يراهم ولذلك لم يسند ابراهيم الى نفسه بقوله : « أنكرتكم مثلاً ، بل قال « قوم منكرون » أى عند كل أحد منا • ولما شاهدتهم لا يأكلون اشتد انكاره لهم ومن ثم أسند الانكار اليه فقليل « نكرهم » (١٤) •

طمأنة الملائكة ابراهيم عليه السلام :

وتحكى الحاقات الثلاث الأولى ما قاله الملائكة لابراهيم عليه السلام طمأنة له وتثبيتاً لقلبه ، وإزالة لخوفه على نحو متنوع ، ففى « هود » : « قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » • وفى « الحجر » : « قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم » • وفى « الذاريات » : « قلوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » •

وسر هذا التنوع — فيما يظهر لى — أن حلقة « هود » بدئت بخبر مجيء الرسل بالبشرى الى ابراهيم عليه السلام ، فلم يك من المناسب أن يكرر تبشير الملائكة له فى هذا الموضع القريب من سابقه والا ترتب عليه التطويل ، الذى لا يليق بجزالة التنزيل • ومن ثم

طمائئوه وأزالوا خووفه ، بأعلامه أنهم رسل الله تعالى أرسلهم الى قوم
لوط لانزال العذاب بهم •

وحلقة « الحجر » لم يذكر في بدايتها مجيء الرسل اليه
بالبشرى ، ومن ثم طمائئوه وأزالوا وجله بأقرب الأشياء الى نفسه ،
وأحبها الى قلبه ، وهى تبشيريه بلغلام العليم •

وذلك الحال فى حلقة « الذاريات » • الا أنه لما عبر عن خوفه
فى « الحجر » بالوجل وجرى ذلك على لسانه « أنا منكم وجلون »
أزالوا وجله بمثل ما جرى على لسانه « قالوا لا توجل » وأكدوا له
البشرى على نمط تأكيده الوجل « انا نبشرك » ليكون قولهم متناسبا
مع قوله ومتلائما معه وفى هذا ازالة لخوفه الشديد الذى عبر عنه
بالوجل ، ونطق به صراحة على سبيل التأكيد •

ولما جاء التعبير فى « الذاريات » بالخوف « فأرجس منهم
خيفة » أزالوا خوفه بمثل ذلك « قالوا لا تخف » ولم يؤكدوا له
البشرى « وبشروه بغلام عليم » تناسبا مع عدم تأكيد الخوف ، ولعدم
نطقه بالخوف منهم صراحة • وهكذا تتنوع التعبير لـبـتناسب مع نظم
الحلقة الوارد فيها مع عدم الاخلال بالمقصود •

وفى الجمع بين الخوف والوجل ذكر العلماء أن هذا تفصيل لـارجس
يتلو بعضها بعضا ، فقد ظهر عليه الخوف بعد دخولهم عليه على هيئة
غير معتادة ، ولما تأكد خوفه بعدم أكلهم واجههم بوجله منهم ، فالخوف
كان مرحلة أولى وقد ظهر عليه ولم ينطق به ، وتبعه الوجل الذى
صرح به (١٥) •

وجاءت بشرى الملائكة فى « الحجر والذاريات » « بغلام عليم »
بينما جاءت فى سورة الصافات « بغلام حلیم » (١٦) وقد اهتم

(١٥) ينظر حاشية الشهاب : ١١٤/٥ •

(١٦) الصافات : ٢٠١ •

« الغرناطي » ببيان السر في ذلك فيذكر أن الم بشر به واحد ، والقصة واحدة ، فما موجب اختلاف الصفتين ؟ وأجيب عن ذلك فقال : ان موجب تخصيص آية « الصافات » بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى « فلما بلغ معه السعى قال يا بني انى أرى فى المنام انى أذبحك » وجواب ابنه عليهما السلام بقوله « ياأبت افعل ما تؤمر » واتباعه ذلك تسلياً لأبيه وامثالاً لأمر ربه « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » ، فلما دل جوابه على عظيم حاله ، وتلقيه عظيم هذا الابتلاء بالرخى ، وانصبر التام ، امثالاً لأمر ربه ، وارضاء أبيه ، كان ذلك مبيناً لجليل حلمه ، ووفور كماله فى حاله ، مع وصفه فى سنه بالأولية والابتداء . ، أما آية « الذاريات » وآية « الحجر » فلم يقع فيهما ذكر لهذه القضية ، فورد فيهما وصفه بالعلم المحرز لجليل نبوته . وبذلك ورد فى كل موضع ما ينسب به (١٧) .

وبنا وجهة نظر فى هذا الكلام ، فقد ذكر أن الم بشر به واحد وانقصه واحدة ، وهذا غير دقيق ، فالتحقيق أن الم بشر به نيس واحداً ، والقصة ليست واحدة ، اذ ان الم بشر به فى « الحجر » و « الذاريات » هو « اسحاق » كما صرح بذلك فى « هود » « فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » وقد بشر به فى مجيء الملائكة اليه وحوارهم معه وكان ذلك بعد أن ولد له اسماعيل وشب (١٨) . بينما الم بشر به فى « الصافات » هو اسماعيل عليه السلام كما عليه جمهور المفسرين وأهل العلم (١٩) . وقد بشر به استجابة لدعائه بعد هجرته حيث قال « رب هب لى هن الصالحين . فبشرناه بغلام حليم » .

(١٧) ملاك التأويل : ٨٦٠/٢ وينظر : ٧٢٦/٢ ففيها نحو هذا .

(١٨) البحر المحيط : ٤٥٨/٥ .

(١٩) ينظر ابن كثير ١٤/٤ ، والبيضاوى : ٥٨٨ ، وأبو السعود :

٢٠٠/٧ ، وقصص الانبياء ١٩ : ١٦٢ ابن كثير . وقصص القرآن : ٦١ ،

وتاريخ الانبياء : ٩ ، ١٠ .

ومما سبق يتضح لنا أن المبشر به ليس واحداً والقصة ليست واحدة ، ومن ثم فلا مدعاة للتساؤل عن الخلاف بين الوصفين في الآيات المذكورة ، لأن الصفتين لموصوفين مختلفين ، فوصف اسماعيل عليه السلام بالحلم لظهوره فيه في هذا المقام ، لما كان من طاعته المطلقة ، وصبره على البلاء ورضاه بالقضاء ، ووصف اسحاق بالعلم وهو وصف عام للأنبياء . وهذا لا يمنع من أن يكون اسماعيل عليه السلام عليماً ، واسحاق عليه السلام حليماً إلا أن المقام اقتضى التركيز على الصفة المناسبة له .

وقد وقعت البشرى في « الحجر » و « الذاريات » صريحة لابراهيم عليه السلام ، بينما جاءت في « هود » صريحة لامرأته ، وذلك لأن البشارة كانت لهما معا ، فقد تكون حاصلة في رقت واحد ، فهي بشارتان باعتبار المبشر ، وقد تكون حصلت في وقتين ، بشروه بانفراد ، ثم جاءت امرأته فبشروها (٢٠) .

ولعل السر في مجيء البشارة على هذه الطريقة المتنوعة هو ما أشرنا اليه آنفاً من أن البشرى وقعت لابراهيم في مقدمة حلقة « هود » فلم يكن من المناسب تكريرها ، فبشرت امرأته بشارة مفصلة وبشر هو على سبيل الاجمال ، وفي « الحجر » و « الذاريات » بشر ابراهيم عليه السلام صراحة لعدم تقدم ذكر لبشارته .

وخصت حلقة « الحجر » ببيان موقف ابراهيم عليه السلام من البشرى « قال أبشرتهموني على أن مسنى الكبر فيم تبشرون قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » . ولعل ذلك لأنها خاتمة بذكر ما دار من حوار بين الملائكة و ابراهيم دون أهله . كما أن البشرى في حلقة « الحجر »

واردة بصيغة المضارع « نبشرك » الدالة على أن الفعل يحصل حالا أو سيحصل مستقبلا ، وخوطب بها بضمير الخطاب الدال على مواجهته بالبشرى ، فكلن ذلك مناسبا لحكاية حوارهم معهم بشأن هذه البشرى وردهم عليه .

الملائكة وامرأة ابراهيم عليه السلام :

ورد مشهد الملائكة مع امرأة ابراهيم عليه السلام في حلقتي « هود » و « الذاريات » وقد جاء مفصلا في « هود » على هذا النحو : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا شئ عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

وجاء مجملا في « الذاريات » على هذا النحو : « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » .

ولم يرد هذا المشهد في حلقة « الحجر » حيث ذكر فيها ما يخص ابراهيم عليه السلام دون ما يخص أهله في هذه القصة . وقد فصل موقفه من البشرى ومقابلة الملائكة لهذا الموقف بما لا يوجد في حلقة أخرى من حلقات القصة .

ولعل السر في تفصيل ما دار مع امرأته في حلقة « هود » أن البشرى وقعت لها في هذه الدلقة صراحة ، فبين أثرها عليها وحوار الملائكة معها مفصلا ، أما في حلقة « الذاريات » فلم تقع البشرى لها صراحة ، إنما صرح بها لابراهيم عليه السلام ، فلذلك أجمل موقفها وأوجز في ذكر ما يخصها ، وبهذا الاجمال ام يكرر ما غفل في « هود » ، اختفا ، بتفصيله فيها .

والاختلاف في وصف حالها وحكاية قولها في « هود » عنه في « الذاريات » راجع الى التفصيل في بعض المواقف والإيجاز في بعضها اكتفاء بما في الفصل ، ومن العجيب في ذلك أن تختلف العبارة عن الوقائع في حالي الإيجاز والتفصيل مع مطابقة كل من الوصف الموجز والفصل لما حدث في الواقع على وجه دقيق لا يخاد بوجود في غير القرآن الكريم .

وقيل في « هود » « انه حميد مجيد » وفي « الذاريات » « انه هو الحكيم العليم » فوقع تنوع في ذكر صفات الله تعالى ، وسرد ذلك : أن الحكاية في « هود » أبسط منها في « الذاريات » فذكروا فيها ما يدفع الاستبعاد بقولهم « أتعجبين من أمر الله » ثم لما صدقت آرتدوها الى اقيام بشكر نعم الله تعالى ، وذكروها بنعمته بقولهم « حميد » فان الحميد هو الذي تتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم « مجيد » إشارة الى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وانما يحمده ويسبح له لنفسه ، ولما لم يقلوا في « الذاريات » « أتعجبين » ، أشاروا الى ما يدفع تعجبها من التنبية على حكمه وعلمه ، وفيه نظيفة ، وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بانفعاله ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه قاصدا لذلك الوجه ، بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا ، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فانه لا يقال له حكيم ، وأما اذا فعل فعلا قاصدا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع الى الذات ، إشارة الى أنه يستحق الحمد بمجده وان لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه وان لم يفعل على وفق القاصد (٢١) .

الحوار بشأن قوم لوط عليه السلام :

حكّت الحلقات الأربع ما دار بين إبراهيم والملائكة بشأن قوم لوط في أساليب متنوعة :

نفى « هود » جاء على هذا النحو « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • ان إبراهيم لحليم أواه منيب • يا إبراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيتهم عذاب مردود » •

وفي « الحجر » ورد على هذا النحو « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قائلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • الا آل لوط انا لم نجوهم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها من الغابرين » •

وفي « الذاريات » ورد على هذا النحو « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قائلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • لشرس عليهم حجارة من طين • مسومة عند ربك للمسرفين » •

وفي « العنكبوت » جاء على هذا النحو « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا قائلوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » •

ومن المتأمل في نظم هذا المشهد في جميع معارضه نجده يبدأ في « هود » بالتصريح بذهاب الخوف عن إبراهيم عليه السلام ، بينما لم يصرح بذلك في الحلقات الأخرى ، والسبب في ذلك أن حلقة « هود » لم يفصل فيها تبشير إبراهيم ولم يجر فيها حديث معه بهذا الشأن ، فتناسب ذلك أن يصرح بذهاب الخوف عنه كلى لا يظن أنه مازال على خوفه وروعته بدليل عدم وجود حوار معه ، وأما في الحلقات الأخرى فقد بشر إبراهيم صراحة وجرى في بعضها حديث معه ، وهذا كاف في بيان زوال الخوف عنه وذهابه بعد أن بشره وتحدث معهم •

كما نجد أن هذا المشهد يبدأ في « الحجر والذاريات » بسؤال ابراهيم للملائكة عن خطبهم وشأنهم الذي جاءوا من أجله • بينما لم يبدأ في « هود » بهذا السؤال • والسبب في هذا أن حلقة « هود » أشير في بدايتها الى المهمة التي من أجلها أرسل الملائكة « انا أرسلنا الى قوم لوط » فليس من المناسب لجزالة التزييل ودقته واحكامه أن يسأل عن ذلك مرة أخرى ، لأنه سيكون سؤالاً عن المبين ، ولا بلاغة في السؤال • بينما لم تبين وظيفة الرسل ومهمتهم في بداية حلقتي « الحجر والذاريات » فكان لابد لابراهيم عليه السلام من أن يسألهم عن خطبهم وشأنهم الذي أرسلوا اليه •

ولم يذكر شيء « في الحجر والذاريات » عن جدال ابراهيم بشأن لوط ومن آمن معه ، بينما أشير اليه اشارة موجزة في « هود » وفصل ووضح في « العنكبوت » • ولعل السبب في ذلك : أن الرسل حددوا مهمتهم في « الحجر والذاريات » بأنهم أرسلوا لاهلاك قوم مجرمين ، وهذا التحديد يخرج لوطاً ومن آمن معه من الدخول في المهاكين ، فلم يذكر في هذا المقام مقتضى لذكر جدال ابراهيم عن لوط ومن آمن معه ، لأن أمرهم واضح بهذا التحديد المبين للمهاكين •

أما في « هود » فقد قالوا « انا أرسلنا الى قوم لوط » وفي هذا القول تعميم يبعث على التساؤل والجدال عن مصير المؤمنين من هؤلاء القوم ومن ثم أشير الى جدال ابراهيم عنهم •

وفي العنكبوت « قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية » وهذا تعميم أكثر دما هو في « هود » فكان هذا المقام مناسباً لتفصيل جدال ابراهيم في لوط ورد الملائكة عليه • أضف الى ذلك أن هذه الحلقة واردة في ختاي قصة لوط مع قومه ، وهذا مقتضى آخر لتفصيل جدال ابراهيم في شأن لوط عليهما السلام •

ووصف إبراهيم عليه السلام في حلقة « هود » بقوله تعالى : « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » ووصف في سورة النوبة بقوله تعالى : « ان ابراهيم لأواه حليم » (٢٢) فوصف في « التوبة » بصفتين : التأوه والحلم مع تقديم وصف التأوه على الحلم ، ووصف « هود » بثلاث صفات : الحلم والتأوه والادابة ، مع تقديم الحلم على التأوه .

بوجه ذلك — والله أعلم — أن الأواه ، الكثير التأود والتفجع ، والمراد في آية « التوبة » أن إبراهيم عليه السلام مع غلظة أبيه وتساوته طفق يدعوه حتى قال له : « لئن لم تنته لأرجمك » وإبراهيم عليه السلام يتأوه تأمناً وتضرعاً على أبيه عن أجابته واتباعه مع تالط إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه إلى الإيمان ، وكان عليه السلام يفرط ترحمه ورأفته وحلمه يتعطف على أبيه ويستغفر له ، ولم يزل على ذلك إلى أن قطع الرجاء من حاله ، وتبين له أنه عدو لله فغضب منه ، فأخبر الله تعالى نبيه محمداً بما كان من أبيه إبراهيم في ذلك ليقتدى به ، ويهتدى بهديه ، فقال تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢٣) ، وأعلمه تعالى بعد ذلك إبراهيم في استغفاره ، وأن ذلك كان عن موعده تقدمت منه لأبيه ، فتقدم وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه أواه لمناسبة حاله الذي تقدم تفصيله .

أما آية « هود » فمؤلفة في مجادلته في قوم لوط حرياً على وصفه

• (٢٢) التوبة : ١١٤

• (٢٣) التوبة : ١١٣

ببطلانه الحلم ، فتان تقديم وصفه هنا بالحلم أنسب وأجربى وروده على ما بنى عليه • وبذلك جاء في كل موضع ما يناسبه (٢٤) •

هذا ما قلناه « الغرناطى » وفحواه أن التأوه قدم في « التوبة » المناسبة. احاك ابراهيم عليه السلام من التأسف والتحسر على حال أبيه بعد أن تبين له مصيره باصراره على الكفر ، وقدم الحليم في « هود » منسأ جداله عن قوم لوط غلبة الحنم عليه مما بعثه على الرغبة في عدم التججيل بالانتقام •

ولم يعرض لبيان السر في زيادة وصف « منيب » في « هود » ولعل ذلك — والله أعلم — أن في جملة « يجادانا » اشعاراً بتكرار المجادلة والأخذ والرد ، مما يوحى بشدة حنقه عليهم وحرصه على نجاتهم ، فناسب ذلك أن يصف بعدد أكثر من الصفات الدالة على فظالة ، والباعثة له على هذا الجدال المتكرر عنهم حتى قيل له « أعرض عن هذا » • وتتفرع الأساليب التي أخبر بها ابراهيم عن عذاب قوم لوط ، ففي « هود » أخبر بإشارة موجزة ولكنها صريحة « وانهم آتيتهم عذاب غير مردود » ، وكذلك في « العنكبوت » « انا مهلكوا أهل هذه القرية » وفي « الحجر » لم يشر اليه صراحة ولكن أخبر بنجاة المؤمنين من أهله وبقاء امرأته مع المالكين « الا آكل لوط انا لمنجـوهم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » • وفي « الذاريات » فصل له العذاب الذي سيقع بقوم لوط « لفرسل عليهم حجارة من طين • مسومة عند ربك للسرفين » •

والسر في ذلك — حسب علمنا — أن قصة ابراهيم في « هود » أنقبتها قصة لوط مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، وقد ورد في قصة لوط تفصيل وتوضيح للعذاب الواقع بقرمه « فلما جاء أمرنا جعلنا عليها

سافلها وأهطرنا عليها حجارة من سجيل منضود • مسومة عند ربك
وما هي من الظالمين ببعيد » (٢٥) • فلم يك من المناسب لدقة القرآن
واحكامه أن يخبر إبراهيم بهذا العذاب في قصته ، ويكرر ذكره في
قصة لوط التالية لها والمرتبطة بها على أن ذكره في قصة لوط أحق
وأزيم وهي به أولى • لأنها مختصة بقومه ومبينة لجناياتهم ، فيلزم أن
تختتم ببيان عقابهم الشديد الذي ترتب على هذه الجنايات البشعة •

وكذلك الحال في سورتي « الحجر » و « العنكبوت » • بل إن
ما يخص إبراهيم عليه السلام في حاقة « العنكبوت » عارض في ثانيا
قصة لوط نبیان موقف إبراهيم من هؤلاء القوم ، فلس من الجزالة
والدقة أن يفصل العذاب في وسط القصة ، ثم يعاد تفصيله في آخرها •
أما في سورة « الذاريات » فلم تذكر قصة لوط مفصلة عقيب
قصة إبراهيم ، بل اندمجت القصتان في قصة واحدة على نهج بديع ،
من خلال تفصيل العذاب الذي سيقع بقوم لوط لإبراهيم عليه السلام •
وجعل هذا آخر قصته ، مع كونه في ذات الوقت بداية ونهاية لقصة
قوم لوط وما وقع لهم بايجاز فريد ، وبذكره تنتهي قصتهم في السورة ،
فلم تذكر في موضع آخر ، وبذلك كان هذا هو الموضع المناسب اذكر
العذاب وتفصيله •

وفي الاخبار بنجاة لوط وأهله إلا امرأته نجسدت تنوعا في التعبير ،
ففي « الحجر » قيل : « إلا آل لوط أنا لمنجوهم أجمعين • إلا امرأته
قدردنا انها لمن الغابرين » وفي « العنكبوت » قيل : « لننجيه وأهله
إلا امرأته كانت من الغابرين » • ولم يذكر مثل ذلك في حاقة « هود »
ولا في حاقة « الذاريات » •

(٢٥) هود : ٨٢ ، ٨٣ •

(٢٦) هود : ٨١ •

ولعل السبب في ذلك أنه أرجى، ذكر ذلك في « هود » الى قصة
 لوط التالية لقصة ابراهيم فهي الأولى بذكره ، ويحكى بعبارة مختلفة
 حيث قيل « قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر ياهلك بقطع
 من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه معيها ما أصابهم » (٢٦)
 فدل على وسيلة النجاة والتخلص من العذاب الذي سيقع على الفرية
 وأهلها ، وأعلم بهلاك امرأته مع الهالكين • وفي حلقة « الذاريات » لم
 يذكر ذلك ، لأن اخبار الملائكة بارسال الحجارة عقب بقوله تعالى :
 « فأخرجنا من كلن فيها من المؤمنين • فما وجدنا فيها غير بيت من
 المسلمين » (٢٧) فكان هذا بيانا لمصير لوط عليه السلام والمؤمنين
 معه ، وقد أغنى ذلك عن ايراد مره ثانية •

أما في « الحجر » فقد ذكر ذلك لأن قصة « لوط » وردت عقيب
 قصة ابراهيم ولم يذكر فيها ذلك ، وفي « العنكبوت » ورد هذا جوابا
 من الملائكة عن جدال ابراهيم عليه السلام ، والمقام يقتضى ذكره •

وأكد الكلام بان في « الحجر » دون « العنكبوت » ليتناسب مع
 الكلام المؤكد قبله « انا أرسلنا » « انا لنجوههم » وعلى هذا النمط جاء
 « انها لمن الغابرين » ليتم التناسب • وقيل في « الحجر » : « الا امرأته
 كانت من الغابرين » • وذكر « الغرناطي » أن « قدرنا » معط من المعنى
 ما يعطيه « كانت » من غير فرق ، لأن المراد الحاقها بالهالكين واخراجها
 من الناجين ، وهذا المعنى هو المراد بقدرناها مشددا (٢٨) •

وهذا في رأيي غير دقيق لأنه وان كان المراد كما ذكر الا أن
 « قدرنا » تشعر بأن هلاكها أمرا مقدرًا محتوما لا دخل لها فيه ، وهي
 عاجزة عن رده أو عن الهروب منه • أما « كانت » فتشعر بأنها السبب

(٢٧) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦ •

(٢٨) ملك التأويل : ٥١/١ •

في بقائها مع الهائلين . لأنها كانت منهم ، فالفعل مسند اليها وهي
السبب فيه •

وكل كلمة من الكلمتين السابقتين وقعت الموقع الملائم لها في النظم
بحيث لا يمكن وضع واحدة منهما مكان الأخرى دون تغيير فيه • غتاكيذا
الأسلوب في الحجر بالا لا يناسبه استعمال « كانت » اذ لا يجمع بينها
ومين « انها » في مثل هذا التركيب • وكذلك لا يحسن استعمال « قدرنا »
في « العنكبوت » مع بقاء التعبير على صورته •

تكامل الحقائق :

وبالتأمل في الحلقات الأربع التي عرضت قصة الملائكة مع ابراهيم
عليه السلام نرى أن كل حلقة منها كافية في موضعها ملائمة له مستقلة
في افادة ما جاءت لوصفه وحكايته ، وهي مع هذا الاستقلال تتكامل
مع باقى الحلقات وتشاركها في استيعاب القصة بأكملها دون نقص أو
خل ، فكل حلقة لا تستغنى عن الأخرى لما في كل منها من تفصيلات
وحكاية جزئيات لا توجد في الأخرى ، قد اقتضاهما المقام ، واستوجبها
انحلال •

وبهذا ينتهى عن هذه الحلقات وهم التكرار الممل ، والاعادة
المردولة ، حيث تستأثر كل حلقة بتفصيلات لا توجد في الأخرى ، بجانب
تنويع النظم وتلوين الأسلوب كما بيناه آنفا •

ويستطيع المتأمل في هذه الحلقات مجتمعة أن ينسج منها قصة
كاملة تفصل ما دار في هذا الخبر العجيب دون تكرار أو زيادة أو حذف ،
مما يؤكد ما ذكرناه من تكامل الحلقات مع استقلال كل مذهب بالافادة
اللتامة في موضعها •

ويضم هذا النسيج الموحد العناصر التالية :

(٢٢ — خصائص النظم)

- ١ - مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام ومبادرته بالتحية •
 - ٢ - رد ابراهيم ، ووصف حاله ، وبيان ما فعله •
 - ٣ - تبشير بالولد وموقفه من ذلك •
 - ٤ - تبشير امرأته وبيان موقفها من ذلك •
 - ٥ - سؤال ابراهيم الرسل عن مهمتهم ، وبيانهم لها •
 - ٦ - جداله عن قوم لوط ورد الملائكة عليه •
- وعلى هذه العناصر تقوم قصة الملائكة مع ابراهيم عليه السلام، ولذا فصلناها وسلكتها في نسيج واحد من خلال ضم ما يخص كل عنصر منها في سائر الحلقات لوجدنا قصة مفصلة الجوانب ، ترابطة السياق ، لا تطويل فيها ولا اخلاق .
- والمشاهد المذكورة في الحلقات تأتي في القصة على التبع التالي :
- « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » هود : ٦٩ •
- « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الي أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون » الذاريات : ٢٥-٢٧
- « فلما رأى أيديهم لا تصل اليه فكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف » هود : ٧٠ •
- « انا نبشرك بغلام عليم • قال أبشروني على أن مسنى الكبير بهم تبشرون • قالوا بشرك بالحق فلا تكذب من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » الحجر : ٥٣ - ٥٦ •
- « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » هود : ٧١ •
- « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وتالت عجوز عقيم » الذاريات : ٢٩ •
- « يا ويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب • قالوا أتعجبين من أمر الله » هود : ٧٢ ، ٧٣ •

- « كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الذاريات : ٣٠ .
- « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » غلما
- ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشري » هود : ٧٣ ، ٧٤ .
- « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قتلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • انرسل عليهم حجارة من طين • دسومة عند ربك للمسرفين » الذاريات : ٣١ — ٣٤ .
- « انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بدن فيها لننجينه وأهله الا امراته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ .
- « ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ .
- ومن هذا نرى أن انحلقات الأربع تكون قصة مفصلة الجواب ، لا تكرار في مشاهدتها ، ولا زيادة في أجزائها ، ولا حذف في مكوناتها ، وهذا من أحق ما أدلك على تكامل الحلقات وتكوينها قصة واحدة .
- ومن أعجب العجب أنها مع هذا التكامل قد جاءت كل حلقة منها كافية في وضعها ، مستقلة في افادة ما يناط بها ، ملائمة لمكانها من النظم ، ويتحقق لديك هذا وتتيقن منه بقراءتك لتحليلنا السابق لكل حلقة على حدة .

وصدق الله العظيم القائل « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا » (٢٩) •

الفصل الثالث

في رحاب البيت العتيق

أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وولادهما اسماعيل في هذا الرادى المقنر الخالى من الحياة واسبابها عند بيت الله الحرام ، وتركهما في عناية الله تعالى ورعايته ، وليس معهما من الطعام والماء الا الشيء النقيض ، وتوجه الى الله عز وجل بالدعاء طالبا رحمة بهذه انذرية « ربنا انى أسكت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) •

ويستجيب الله دعاء إبراهيم وتتبع زمزم ويعمر المكان ، ويغد إبراهيم عليه السلام على ذريته ، فيحمد الله تعالى على نعمه التى أغدقها عليه وعلى ذريته ، ويأمره الله تعالى برفع قواعد البيت الحرام فى المكان الذى بوأه له ، وعمل إبراهيم بمشاركة اسماعيل عليهما السلام هذا العمل الجليل ، وهما يدعوان الله تعالى أن يتقبل عملهما ، ويتوب عليهما ، ويبعث فى هذه الأمة من يرشدها ويهديها الى طريق الله المستقيم • وأمر الله تعالى إبراهيم بأن يؤذن فى الناس بالحج الى بيت الله العتيق ، بعد أن رفع قواعد وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود • ويواصل إبراهيم الدعوة الى الاسلام حين الله الحنيف ، ويرضى أبناءه بالتمسك بالاسلام ، وتتوارث ذريته هذه الرضىة الخالدة من بعده •

هذه الأحداث العظام فصلها النظم القرآني في ثلاث حقائق ،
وترتيبها حسب النزول :

- الأولى : في سورة ابراهيم • وهي سورة مكية •
- والثانية : في سورة البقرة • وهي سورة مدنية •
- والثالثة : في سورة الحج • وهي سور مدنية ، ونزولها متأخر
عن سورة البقرة (٢) •

وستتناول في هذا الفصل تحليل النظم القرآني في هذه الحلقات
تحليلاً بلاغياً يبرز ما يحويه من أسرار التعبير ، ثم تتبع ذلك بالمقارنة
بين نظمها مبينين ما فيه من تشابه وتنوع مثلما فعلنا في الفصلين
السابقين •

الحلقة الأولى

دعاء ابراهيم في الحرم

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام • رب انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم • ربنا الى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون • ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء • الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء • رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء • ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب • » (١)

بين يدي الآيات :

هذه هى الحلقة الأولى من الحلقات التى تتصل بالبيت الحرام ودعاء ابراهيم فيه حسب ترتيب النزول ، وتحكى آيات هذه الحلقة جملة من دعاء ابراهيم عليه السلام ، لعلها صدرت عنه فى أزمنة متفرقة (٢) ، ونظمها القرآن الكريم فى سلك متصل ، للتذكير بها ، واخذ العظة والعبرة منها ، وتوجيه الناس الى الاقتداء بأبى الأنبياء عليه السلام فى الضراعة الى الله تعالى بما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم •

دعا ابراهيم ربه عز وجل للبلد الحرام بالأمن ، ولنفسه وبنيه بالهداية الى عبادة الله الواحد القهار ، واجتناب عبادة الأصنام ، وطلب

(١) ابراهيم : ٣٥ - ٤١ •

(٢) أبو السعود : ٥٤/٥ •

لذريته التى أسكنها عند البيت الحرام أن يعينهم الله على عبادته وشكره بأعمار المكان والانععام عليهم بالثمرات ، وأثنى على الله تعالى وحمده أن ربه اسماعيل وإسحاق ، وسأله أن يوفقه وذريته لإقامة الصلاة ، ويغفر لهم وللمؤمنين يوم الحساب •

وقد وردت هذه الحلقة في سورة إبراهيم ، وهذه السورة تدور حول حقيقتين هامتين هما وحدة الرسالات والرسول في مواجهة الكفر والكفار ، فانه عز وجل أرسل الرسل بلغات أقوامهم لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له جل شأنه ، والكفار في كل زمان ومكان ينكرون هذه الدعوة ويعتبرون الرسل بشرًا مثلهم لا يتميزون عليهم ، ويعدلون على أيدائهم ، وأخرجهم من أرضهم • وهاتان الحقيقتان تتناسبان مع اسم السورة وعنوانها ، فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، وحامل راية التوحيد وملة الإسلام ، التى بعث بها خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام (٣) •

والآيات التى تسبق هذه الحلقة تشتمل على تعجيب من أمر كفار مكة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وتذكر بآيات الله ودلائل قدرته ونعمه التى لا تحصى ومقابلة الناس لها بالكفران والجحود : وتأنى عقبها هذه الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام لتذكر هؤلاء بأبيهم إبراهيم الذى استقام على أمر الله تعالى ، وأنكر عبادة الأوثان ، وأعلن شكره وحمده وضاعته لله تعالى على ما آلاؤه من نعم ، وما حباه من كرم ، وفي تذكيرهم بهذه المشاهد حث لهم على الاقتداء بأبيهم الذى يفخرون بالانتساب إليه ، ودعوة لهم إلى اتباع الرسول ﷺ ، وشكر الله تعالى على النعم التى وهبها لهم وأولاهم أياها • ومنها نعمة البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا ، ورزقهم في رحابه من جميع الثمرات •

البداية :

هذه الحلقة كلها دعاء لله تعالى ، وثشاء عليه : وحمد له من ابراهيم عليه السلام ، وهي تبدأ بدعائين يتعلقان بأمرين لهما شأن عظيم في حياة الناس أولهما : الأمن والطمأنينة ، وثانيهما : العقيدة الصحيحة . قال جل شأنه : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلدا آمنا واجنبي وبني أن نعبد الأصنام » وتقديم الدعاء بالأمن للوطن ، لما أن الانسان اذا عاش في وطن آمن مطمئن ساعده ذلك على معرفة الطريق الصحيح ، والمحافظة على عقيدته ، وعبادة الله تعالى بدون خوف من بطش أحد . ومن ثم هاجر ابراهيم عليه السلام من وطنه الى وطن يأمن فيه على دينه وعبادته وتبليغ دعوته ، وهكذا فعل نبينا محمد ﷺ .

وجملة « واذ قال ابراهيم ... » معطوفة على جملة « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » (٤) والمراد بها تأكيد هذا التعجيب لسأنه بيان فإن آخر من جانياتهم ، فانهم كما بدلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم باجابة دعوة أبيهم ابراهيم عليه السلام وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة : وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالانعام عليهم كفرا بمفيض تلك النعم . ويجوز أن تكون معطوفة على جملة « الله الذي خلق السموات والأرض » (٥) بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت منتها أهل مكة بحكم العموم الى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكة ، وغير الأسلوب في الامتنان بها الى أسلوب الحكاية

(٤) ابراهيم : ٢٨ .

(٥) ابراهيم : ٣٢ .

عن ابراهيم لاندماج التتويه بابراهيم عليه السلام والتعريض بغيريته
من المشركين (٦) •

والاندماج ثون بديعى عرفه ابن أبى الاصمبح بقونه : أن يدمج
المتكلم غرضا له في ضمن معنى قد نحاد من جملة المعانى ، ليؤهم
السامع أنه لم يقصده ، وانما عرض في كلامه لتتمة معناه الذى قصد
النبه ، كقوله تعالى : « وله الحمد فى الأولى والآخرة » (٧) فن هذه
الجملة أدمج فيها المبالغة فى الحمد ضمن المطابقة ، إذ أفرد نفسه
لمبحانه بالحمد حيث لا يحمد سواه (٨) •

و « ان » ظرف زمان والمشهور فى اعرابه أنه منصوب على المعنوية
لفعل محذوف تقديره : اذكر ، أى : وادكر وقت قول ابراهيم :
وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها
المتصورة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها ، لما أن ذكر الوقت ايجاب
الذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتعل عليها ، فاذا
انه تحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٩) •

والتعبير يقال دون دعا ، لما فى القول من العموم فيشمل
اندعاء وغيره ، وما قاله ابراهيم عليه السلام منه دعاء رمله ها ليس
بدعاء • و « رب » هنادى بحرف نداء محذوف ، وأصله « ربى »
حذفت ياء المتكلم تخفيفا ، وهو كثير فى المنادى المضاف الى الياء •
وفى حذف حرف النداء اشعار بقرب ابراهيم من ربه ، وفى ايثار الرب المتشعرا
بتربيته والعناية به ، مع اضافته الى ضميره ايدان باجابه دعائه وتتحققا
رجائه •

(٦) التحرير والتنوير : ٢٣٧/١٣ ، ٢٣٨ • وأبو السعود : ٥٠٦/٥ •

(٧) القصص : ٧٠ •

(٨) بديع القرآن : ١٧٢ • وينظر خزانة الادب : ٤٨٤/٢ •

(٩) أبو السعود : ٧٩/١ •

والبلد : المكان المحيظ من الأرض ، ويطلق على القرية ، واللام فيه للعهد ، والمراد مكة المكرمة ، وابهامه لتعيينه في علم المخاطبين ، وقد بين بعد ذلك بقوله « عند بيتك المحرم » ، والبلد : بدل من اسم الإشارة ، والإشارة لتعظيمه وتفخيمه ، مع تمييزه أكمال تمييز بواسطة الإشارة إليه • و « آمنا » اسم فاعل ، وهذه الصيغة يمكن أن تكون تناسب كلابن وقامر ، أى : ذا آمن ، ويمكن أن يكون الاسناد مجازياً ، على أنه مجاز عقلى علاقته المفعولية •

ويأتى الدعاء الثانى « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » أى بعدنى وأباهم أن نعبد الأصنام • « واجنبنى » أمر من « جنب » الثلاثى ، يقال : جنبته الشيء بفتح النون أى نحيت عنه ، والجنب والجانب الناحية ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيرد ، ثم استعمل بمعنى البعد (١٠) •

والتعبير بـ « اجنبى » دون ابعدنى ، لما فى « اجنبى » من معنى البعد وزيادة معنى آخر هو جعله فى جانب آخر غير ما هى فيه • وانوصل بين هذا الدعاء وسابقه للتوسط بين الكملين ، لاتحاد الجملتين فى الانشائية مع التناسب • والمراد من الدعاء بالنسبة لابراهيم عليه السلام طلب الثبات والدوام على التوحيد ودين الاسلام ، والبعد عن عبادة الأصنام •

والمراد ببنيه أبناء صلبه ، وهم يوسف اسماعيل واسحاق فهو من استعمال الجمع فى التنثية ، وقيل المراد جميع نسله تعميماً للحير ، فاستجيب له فى البعض (١١) • وأن والفعل فى تأويل مصدر تقديره : عبادة الأصنام ، وفى استعمال الفعل المضارع إشارة الى عدم وقوعهم فى عبادتها ، ويطلب لهم الثبات على ذلك مستقبلاً •

(١٠) الصحاح • مادة : جنب ، وحاشية النهاب : ٢٧٢/٥ •

(١١) ينظر الالوسى : ٢٣٤/١٣/٧ ، والتحرير والتنوير : ٢٣٨/١٣

والأصنام : جمع صنم ، وهو تمثال يصنع من حجارة أو خشب أو غير ذلك • وتأنيث الأصنام لأنها جمع مالا يعقل فيخبر عنه اخبار المؤنث (١٢) •

ولما طلب ابراهيم من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام علل ذلك الدعاء بأن الأصنام تسببت في ضلال كثير من الناس « رب انهم أضلن كثيرا من الناس » وهذا التعليل يحمل ذبورا التحسر والشكوى الى الله تعالى مما فعلته الأصنام بالناس وفي تصديره بدعاء الرب من التأكيد للاعتناء ببيانته ، وتقوية مضمونه ، والاهتمام ببث الشكوى الى الله تعالى •

وفي اسناد الاضلال الى الأصنام مجاز عقلي علاقته السببية ، فمن الأصنام جمادات لا تفعل شيئا ، واكثرها سبب في الضلال ، فأسند الفعل الى سببه ، في ذلك اشارة الى قوة السبب وأثره الكبير في الاضلال كأنه هو الفاعل لذلك •

وفي تقييد الاضلال بكثير دلالة على شيئين : وجود بعض الناس الذين لم تضلهم الأصنام ، وكثرة من أضلتهم الأصنام من الناس • وقد استنبط ابراهيم عليه السلام هذه الكثرة لأنه خرج من بذه أور الكلدانيين انكارا على أهلها الذين يعبدون الأصنام ، وذهب الى مصر ووجدهم يعبدون الأصنام ، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام (١٣) ، وهكذا كلما دخل بلدا وجد أهلها عاكفين على عبادة الأصنام ، حيث كانت عبادتها تسود العالم •

وفرع على هذا التعليل تقسيم الناس قسمين : « فمن تبغنى فإنه منى ومن عصاني فانك غفور رحيم » • و « من » في قوله « منى » يحتمل أن تكون تبغيضية على التشبيه أى فإنه كبعضى في

(١٢) البحر المحيط : ٤٣١/٥ •

(١٣) ينظر التحرير والتنوير : ٢٣٩/١٣ •

عدم الانفكاك ، لفرط اختصاصه بى ، ويحتمل أن تكون اتصالية ، أى فأنه متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين ، كما فى قوله ﷺ لعلى كرم الله وجهه «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» ، وتسميتهما اتصالية لأنه يفهم منها اتصال شئ بمجرورها (١٤) • وإلغاء لربط الجواب بالشرط، وتأكيد الجواب لنقوية مضمونه •

وقوله « ومن عصانى » أى وهن لم يتبعنى ، والتعبير عن عدم اتباعه بالعصيان للإيذان بأن عليه السلام مستمر على الدعوة • وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (٢٥) • وفيه تأويل للتعبير باستعمل الاتباع ثم العصيان المفيد لعدم الاتباع وبين الاتباع والعصيان طباق معزى لما بينهما من تضاد فى المعنى ، فالاتباع طاعة ، وعدم الاتباع عصيان •

وقوله « فانك غفور رحيم » ينبىء عن كلام مطوى أى : ومن عصانى فليس منى وأفوض أمره اليك فانك غفور رحيم • وفى هذا التفويض تأدب من إبراهيم عليه السلام فى الدعاء (١٦) حيث ترك أمر العاصى الى الله تعالى ولم يقطع فى شأنه بشئ •

والايتين بالمغفرة والرحمة اشارة الى أن إبراهيم عليه السلام يؤيد لمن عصاه بالمغفرة والرحمة • وفى هذا تبدو سمة إبراهيم المطرف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصونه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، وإنما يكلهم الى غفران الله تعالى ورحمته (١٧) •

(١٤) ينظر الكشف : ٣٨٠/٢ ، وأبو السعود : ٥١/٥ ، والالوسى

• ٢٣٤/١٣/٧

(١٥) أبو السعود : ٥١/٥ •

(١٦) ينظر التحرير والتنوير : ٢٤٠١٣ •

(١٧) فى ظلال القرآن : ٢١٠٩/٤ •

وفي سوق دعاء ابراهيم عليه السلام بابعاده وبنيه عن عبادة الأصنام ، وتبرئه من عبدتها حيث لم يجعلهم منه ، تعريض بمشركي العرب الذين يعبدون الأصنام ويدعون أنهم من نسله وذريته .
دعاء وثاء :

ويتواصل دعاء ابراهيم عليه السلام لذريته الذين أسكنهم عند بيت الله الحرام مقدما بين يدي دعائه لهم شدة الخلقارهم الى معونة الله عز وجل وعنايته « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وقوله « انى أسكنت من ذريتي » تمهيد للدعاء ببيان حال من يدعو لهم من ذريته ، وشدة حاجتهم الى رعاية الله عز وجل . وبدى بدعاء الرب سبحانه وتعالى زيادة في التضرع ، واستجابا للإجابة ، وتأكيذا للدعاء السابق ، وفي هذا ضرب من الربط بين الجمل المفتحة بالدعاء ربط المثل بمثله (١٨) .

وجيء بصمير الجماعة في « ربنا » خلافا لسابقه ، لأن الدعاء المصدر به ، والتمهيد الذى قدم بين يديه متعلق بذرية ابراهيم عليه السلام ، فأشركهم معه في الدعاء ، ولأن التعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل في القول إجابة المسئول (١٩) .

ويرى أبو حيان أن مجيء ضمير الجماعة لتقدم ذكر ابراهيم عليه السلام وذكر بنيه في قوله « واجنبني وبني » (٢٠) وهذا غير

(١٨) التحرير والتنوير : ٢٤٠/١٣ .

(١٩) أبو السعود : ٥١/٥ .

(٢٠) البحر المحيط ٤٣٢/٥ .

حقيق لأنه إن كان اذاك لحيء بضمير الجماعة في قوله « رب انهن اضلان »
مراعاة له أيضا •

وأكدت الجملة بان لتقوية مضمونها ، و اظهار الاهتمام به •
و « هن » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتي ، والمراد : اسماعيل عليه
السلام وبن سبولد له بدليل الجمع في قوله « ليفيهوا الصلاة » ،
واسكان اسماعيل حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم (٢١) •
والروادى : الأرض المنخفضة بين الجبال • و « غير ذى زرع »
صفة له ، وايشره على غير مزروع أولا يزرع ونحو ذلك ، لما أن
المراد أنه لا يصلح للزرع بسبب تربته الحجرية ، وكلمة « ذو » تدل
على صاحب ما أضيفت اليه ، فاذا قيل : ذو مال ، فالمال ثابت له ،
ونذا أريد ضد ذلك قيل : غير ذى مال • وعلى هذا جاء قوله تعالى :
« قد آتانا عربيا غير ذى عوج » أى لا يعثره شئ من العوج (٢٢) •
و « عند بيتك » ظرف للأسكنت كقولك : صليت بمكة عند الركن ،
وتين : صفة ثانية لروادى ، واختار بعض العلماء الأول لأنه يدل على أن
المتصور اظهر كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه لحض التقرب الى
الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان
الحرمة المؤذن بعزة المتجأ وعصمته عن المكاره (٢٣) • وفى اضافة
أثبت الى الله سبحانه وتعالى تشریف لشأنه ورفع لمكانته •

وتسميته بيتا ولم يكن له بناء وقت الدعاء من قبيل 'اجاز المرسل
باعتبار ما كان عليه من قبل ، فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب
فيه ، أو باعتبار ما سيؤول اليه الأمر من بنائه عليه السلام ، واختار

(٢١) أبو السعود ٥١/٥ •

(٢٢) الألوسى : ٢٣٧/١٣/٧ ، والتحرير والتنوير ٢٤١/١٣ •

(٢٣) الألوسى : ٢٣٧/١٣/٧ •

أبو السعود التتوجيه الأول (٢٤) • والقولان مبنيان على أن دعاء إبراهيم عليه السلام كان رقت أسكانه اسماعيل وأمه حاجر بهذا الوادي قبل بنائه البيت •

ويرى الشيخ ابن عاشور أن هذا الدعاء صدر من إبراهيم عليه السلام بعد زمن من بناء الكعبة ، وتقرب مكة ، كما دل عليه قوله في دعائه هذا « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق » فذكر إسحاق عليه السلام (٢٥) • وقد ولد بعد اسماعيل بأربع عشر سنة • وما استدلل به لا يدل على ما ذهب إليه ، لأن هذه الأدعية لم تكن في وقت واحد بدليل دعائه فيها لوالديه بالمغفرة ، واستغفاره لأبيه كان قبل اعتزاله ، وقبل انجابها مطلقا •

و « المحرم » صفة للبيت ، ووصف بهذا الوصف لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما مكانه • وقيل غير ذلك (٢٥) • ويشير قوله « عند بيتك المحرم » إلى شرف المكان الذي أسكنهم به ، فهو مكان مجاور لبيت الله الحرام ، وحسه شرقا وبقعة بهذا الجوار •

وعلى أسكانهم في هذا المكان بقوله « ربنا ليقيموا الصلاة » وتكرير الدعاء وتوسيطه بين العلة والمعلول لتأكيد الدعاء الأول والتنبية عليه ولزيادة الضراعة ، ولاظهار كمال العناية بأقامة الصلاة ، والاهتمام ببيان أن الغرض من أسكانهم بذلك الوادي البلقع هو ذلك المقدس الأقصى والمطلب الأسنى (٢٦) •

واللام لام كي ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها ، والجار

(٢٤) أبو السعود : ٥٢/٥ •

(٢٥) الكشف : ٣٨٠/٢ وينظر الأوسى ٢٣٧/١٣/٧ •

(٢٦) أبو السعود : ٥٢/٥ •

والمجرور متعلق بأسننت ، أى أسكنتم لاقامة الصلاة • وتخصيص الصلاة بالذكر من بين شعائر الدين لفضلها ، وتكررها مع الأوقات •

والمعنى — على ما يقتضيه كلام صاحب الكشف وغيره — قائم على الحصر ، أى : ما أسكنتم هذا الوادى الخلاء البلقع من كل مرتفع . وهو يترق الا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذنوبهم وعبادتك (٢٧) • واختلف في وجه افادة الحصر ، ف قيل . ان الحصر مستفاد من السياق ، فإنه عليه السلام لما قال « بواد غير دى زرع » نفى أن يكون أسكنهم للزراعة ، ولما قال : « عند بيتك المحرم » أثبت أنه مكان عبادة ، فلما قال : « ليقيموا الصلاة » أثبت أن الإقامة عنده عبادة ، وقد نفى كونها للكسب ، فجاء الحصر ، مع ما في « ربنا » من الإشارة الى أن ذلك هو المقصود • وقيل : ان الحصر مستفاد من التعليل ، وقد استدل الامام مالك بقوله تعالى : « لتركبوها » (٢٨) على حرمة أكل الخيل والبغال والحمير • وقيل : ان الحصر مستفاد من تقدير محذوف مؤخر يتعلق به الجار والمجرور ، أى : ليقيموا الصلاة أسكنتم هذا الاسكان (٢٩) •

وبعد هذا التمهيد الذى قدمه بين يدي دعائه استجابا للاجابة فزع عليه دعائين لهم :

الأول : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » وإفاء تشير الى أن ما تقدم من بيان حالهم هو من مبادئ اجابة دعائه وتحقق رجائه عليه السلام ، وما بعد إفاء مترتب ومبنى عليه •

(٢٧) الكشف : ٣٨٠/٢ •

(٢٨) النحل : ٨

(٢٩) الألوسی : ٢٣٨/١٣/٧ •

والأفئدة : جمع فؤاد ، وهو القلب ، وهى مفعول أول لأجعل ،
ومفعوله الثانى جملة « تهوى » ، والمراد : فأجعل أناسا يههون اليهم ،
ونظ الأفئدة يشير الى أن يكون مسير الناس اليهم عن شوق ومحبة ،
حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد (٣٠) .

واختلف فى معنى « من » فقول أنها تبعيضية ، أى : أفئدة من
أفئدة الناس ، ويدل على ذلك ما روى عن مجاهد : لم يقل أفئدة الناس
لزمه متكم عليه فارس والروم . وقيل أنها ابتدائية ، كقولك القلب منى
سليم ، تريد قلبى ، فكأنه قيل : أفئدة ناس (٣١) . وقال الشيخ ابن
عاشور أنها بيانية ، لأن التبعيض هنا لا طائل تحته ، والمعنى : فأجعل
أناسا يقصدونهم بحبات قلوبهم (٣٢) .

ونرى أن اعتبارها بيانية هو ما لا طائل تحته : لأن الأفئدة
لا تحتمل أن تكون من جنس آخر غير الناس حتى يبين أنها أفئدة من
الناس لا من هذا الجنس الآخر ، أما كونها تبعيضية فيفيد أنها أفئدة
بعض الناس لا كلهم كما هو مشاهد على مر العصور . و « تهوى »
مضارع هوى بفتح الهاء والواو . هوىيا بضم الهاء وكسر الواو : أى
سقط الى أسفل (٣٣) . والمراد : تسرع اليهم وتطير نحوهم شرقا
ونزاعا (٣٤) ، ولذلك عدى بالى لقضمه معنى الميل والشوق والنزوع
فى استعمال « تهوى » بمعنى تسرع استعارة تبعية ، وإيثار « تهوى »
لما فيها من دلالة على نهاية السرعة التى لا يحجبها شيء ، لأنها
سقوط من أعلى الى أسفل .

(٣٠) التحرير والتنوير : ٢٤١/١٣ .

(٣١) الكشف : ٣٨٠/٢ .

(٣٢) التحرير والتنوير : ٢٤٢/١٣ .

(٣٣) الصحاح . مادة : هوى . (٣٤) الكشف : ٣٨٠/٢ .

(٢٣ — خصائص اللغة)

والتعبير كناية عن محبة الناس لهم ، وشوقهم لزيارتهم ، وفيه رقة ورقيقة تصور القلوب رفاة مجنحة ، وهى تهوى الى ذلك البيت وأهله ، فى ذلك الوادى الجديب (٣٥) .

والمراد من هذا الدعاء أعمار هذا المكان المجديب بقدم الناس اليه ، واختلاطهم بذريته ليأنسوا بهم ، وتقضى حاجاتهم ، ويطيح لهم المقام بجوار بيت الله الحرام ويفرغون لعبادة الله رب العالمين .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام ، وكانت أول آثار هذه الدعوة ما روى أنه مرت رفقة من « جرهم » تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل ، فقالوا ان هذا الطائر لعائف على اناء ، فأشرفوا فإذا عم « بهاجر » فقالوا لها : ان شئت كنا معك وآنسناك والماء مأوك ، فأذنت لهم ، وكانوا معها الى أن نسب اسماعيل عليه السلام وتزوج منهم (٣٦) .

والدعاء الثانى : « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وهو معطوف على الدعاء الأول ، والوصل للتوسط بين الكمالين ، لاتحادهما فى الانشائية مع التناسب . و « من » للتبعيض و « من الثمرات » أى من أنواعها ، ومن للتبعيض ، والثمرات جمع ثمرة ، والتعريف للاستغراق العرفى ، أى من جميع أنواع الثمرات المعروفة للناس . و « لعلهم يشكرون » رجاء داخل فى الدعاء ، جعل تكلمة له تعرضا لاجابة ، وزيادة فى الدعاء لهم بأن يكثرنوا من الشاكرين (٣٧) . وفى طى مفعول يشكرون تنزيل للمتعدى منزلة اللازم ، ليوصفهم بالشكر على الاطلاق من غير اعتبار تقييده بمفعول معين .

(٣٥) فى ظلال القرآن : ٤ / ٢١١٠ ،

(٣٦) أبو السعود : ٥٢ / ٥ .

(٣٧) التحرير والتنوير : ١٣ / ٢٤٢ .

وهذا الدعاء يعنى توفر أسباب الانقطاع للعبادة ، وانتفاء
ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب • وفيه دليل على أن
تحصيل منافع الدنيا إنما يُستعان بها على أداء العبادات وإقامة
الطاعات (٣٨) •

وبهذين الدعائين جمع إبراهيم عليه السلام لخبرته أسباب الحياة
في واد خال من الحياة في ذلك الوقت ، وتقديم الدعاء الأول على الثاني
لأن الأول من أسباب الثاني ، فأناس حينما يفدون عليهم سيحملون
معهم من خيرات بلادهم ما يستطيعون ، ويتم البيع والشراء وتبادل
المنافع ، فتزدهر الحياة ، ويتحقق الخير والرخاء •

وفي دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب ، والمحافظة على
قوانين الزراعة ، وعرض الحاجة واستئصال الرحمة واستجواب الرأفة
ما لا يخفى ، فانه عليه السلام بذكر الوادى غير ذى ررع بين كمان
افتقارهم الى المسئول ، وبذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم آثار
الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم ، وبعرض كون ذلك
الاسكان — مع كمال اعواز مرافق المعاش — لمحض اقامة الصلاة
وأداء حقوق البيت هد جميع مبادئ اجابة السؤال ، ولذلك قرنت
بدعوته عليه السلام بحسن القبول (٣٩) • وأجاب الله دعوته فجعله
حرماً آمناً تجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود
أصناف الثمار فيه على كل ريف ، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً ،
وفي أى بلاد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التى يريها الله بواد
غير ذى زرع ، وهى اجتماع البواكير وأنفواكه المختلفة الكائن من
الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته
بعجيب (٤٠) •

(٣٨) السابق • والألوسى : ٢٤٠/١٣/٧ •

(٣٩) أبو السعود : ٥٣/٥ • (٤٠) الكشف : ٣٨٠/٢ •

ويبتذل الدعاء ثناء من ابراهيم عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه الكامل الشامل ، لما في الذن من خفى وجنى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » وفي ثناء على الله تعالى بعلمه التام لجميع المعاومات اشارة الى انه جن ثناؤه عليم بما ذكره ابراهيم من ضلال كثير من الناس ، وبمن اتبعه وبمن عصاه ، وبذريته التي أسكنها عند البيت الحرام ، وبمراده من اسدانهم في هذا المكان . وفي هذا تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ، ويخلصوا النية اليه (٤١) .

وفي افتتاح هذا الثناء بثناء الرب سبحانه وتعالى اشعار بأن الثناء نظرا لسبق ذكرهم ، وليتم الاتساق مع ما يأتي من أفعال مسندة ويظهر مزيد الصراعة والخشوع لرب العالمين ، وهذا من مقدمات الدعاء ودواعي اجابته . وتكرار نداء الرب عز وجل دليل التضرع والابتهاال الى الله سبحانه وتعالى .

واضافة « رب » الى ضمير الجماعة لاشراك ذريته معه في عذا الثناء نظرا لسبق ذكرهم ، وليتم الاتساق مع ما يأتي من أفعال مسندة الى ضمير الجماعة ، وبهذا فلا عبرة بما قاله أبو حيان من أنه لا يظهر تفاوت بين اضافة « رب » الى ياء المتكلم وبين اضافته الى جمع المتكلم (٤٢) . وتأكيد الجملة لتقوية ما تثبته من حكم الله تعالى . وخطاب الله تعالى يشعر بحضور ابراهيم عليه السلام في مقام المشاهدة يخاطب دولاه رب العالمين .

و « ما » موصولة والعائد محذوف ، وقيل انها مصدرية . وبين « نخفى » و « نعلن » طباق أسبغ على التعبير جمالا وروعة ، وأضفى

(٤١) التحرير والتنوير : ٢٤٣/١٣ .

(٤٢) البحر المحيط : ٤٣٣/٥ .

على المعنى قرة وشمولا بما أثبتته الله تعالى من علم بما يخفون وما يعلنون وتقديم « ما يخفى » على « ما نعلن » لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه ، فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن ، ولأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن ، فما من شيء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفي ، فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية (٤٣) • وفي عدم تقييد الفعلين « نخفى » و « نعلن » بمتعلق معين افادة العموم والشمول ، فعلم الله تعالى بما يخفون وما يعلنون ليس مقصورا على شيء محدد ، بل هو شامل لكل ما يخفونه وما يعلنونه • ومن هنا فلا محل لتقييد الفعلين بمتعلق معين كما شاع في كثير من كذب التفسير (٤٤) •

وضمير الجماعة في « نخفى » و « نعلن » لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بسرّه وعلمه بل بجهيع خفايا الملك والملكوت ، وفد حقق ذلك بقوله على وجه الاعتراض « وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » ، لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائن ما كان في زمان من الأزمان إلا ووجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه (٤٥) •

وهذه الجملة تليق جرم مجرى المثل ، يؤكد الحكم السابق ، ويثبت علم الله تعالى بجميع المعلومات في الكون • وفيها التفتات من الخطاب في « انك » التي الغيبة في لفظ الجلالة • وفي الانتفات الى اسم اندات المستجمة الصفات تربية للمهابة ، واشمار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٤٦) •

(٤٣) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٤) ينظر الألوسي : ٢٤١/١٣/٧ • رغيره •

(٤٥) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٦) الملك : ١٤ •

وايذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص بابراهيم أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء ، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مسح لبدأ الكل (٤٧) • كما فيه ايذان باستقلال جملة التدبيل •

و « من » للاستغراق ، و « شيء » يشير الى العموم والشمول وتذكيره ليتناول كل شيء مهما كان دقيقا • و « في » متعلقة بمحذوف يقع صفة لشيء ، أى من شيء كائن فيهما • وبين الأرض والسماء طباقا يبرز المعنى ويؤكد بهما فيه من تضاد • وتكرار النفي والجار مع المعطوف عليه يؤذن باستقلاله في الحكم المنفى ، وليس تابعا فيه لما قبله ، فعلم الله تعالى بما في السماء يستوى مع علمه سبحانه بما في الأرض ، وتقديم الأرض على السماء ترتيب طبعى باعتبار القرب والبعد من البشر ، والمناسبة السماء للفاصلة بما فيها من مد قبل نهايتها •

ومجيء الجملة على طريقة نفى الخفاء دون أن يقال : ويعلم ما في السموات والأرض ، تحقيقا لما عناه بقوله « تعلم ما نخفى » من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى ، كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات (٤٨) • ولما في هذه الطريقة من تحقيق التناسق بين نظم هذه الجملة ونظم الجملة السابقة ، حيث بنيت الجملة السابقة على اثبات علم الله بما يخفون وما يعلنون ، وبنيت هذه الجملة على نفى خفاء شيء عن علم الله تعالى •

وعقب هذا الثناء بثناء آخر وهو اعلان الحمد لله تعالى على أن وهبه اسماعيل واسحاق مع كبر سنه « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء » • ان ابراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه ، يحمده ويشكره على ما أنعم به عليه من نعم

(٤٧) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٨) السابق •

سابقة يحيا في ظلالها ، فيذكر أعظمها أثرا في نفسه وهي نعمة الانجاب
بعد التكبر لما دعا ربه « رب هب لي من الصالحين » (٤٩) • لقد عهد
من ربه اجابة دعائه لأنه سميع الدعاء ، ومن ثم فهو مطمئن الى اجابة
هذا الدعاء • وفي ذكر هذا الثناء تعليم لذريته أن يحمداوا الله تعالى على
ما حباهم من نعم لا تعد ولا تحصى •

والحمد هو الثناء على الجميل • وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور
« لله » • وفي تعليق الحمد أولا باسم الذات ، ووصفه تعالى ثانيا بما في
خير الموصول تتبعه على أنه تعالى مستحق للحمد باعتبار ذاته جل
مُسنده ، ومستحق له باعتبار صفاته وأفعاله •

وفي اسم الموصول ايماء الى وجه بناء الحمد • وفي التعبير بروهب
اشعار بأن هذه النعمة هبة محضه ، وعطاء خالص لا مدخل للأسباب
العادية فيه •

و « على الكبر » جار ومجرور في موضع الحال ، و « على » بمعنى
« مع » أي مع كبرى ويأسى عن الولد ، كما في قول الشاعر :

انى على ما ترين من كبرى أعرف من أين تؤكل الكتف

ويصح جعل على بمعناها الأصلية ، والاستعلاء مجازي ، ومعنى
استعلائه على الكبر أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال :
على رأس السنة ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى (٥٠) وتقيد الهبة
بكونها على الكبر استعظاما للنعمة ، واذلها لشكرها ، قال الزمخشري
وانما ذكر حال الكبر لأن الملة بهبة الولد أعظم من حيث انها حال
وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل

(٤٩) الصفات : ١٠٠ •

(٥٠) الألوسی : ٢٤٢/١٣/٧ •

لأنعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأن الولادة في تلك السن العالية آية
لإبراهيم عليه السلام (٥١) .

وعلت الهبة بقوله « ان ربى لسميع الدعاء » وهو تعليل على
طريقة التذييل للهبة المذكورة ، وفيه ايدان بتضاعف النعمة فيها حيث
وقعت بعد الدعاء بقوله « رب هب لى من الصالحين » فافتترنت للهبة
بقبول الدعوة (٥٢) . وفصلت الجملة عما قبلها على نمط الجمل النعليلية
وأكدت بان واللام لتأكيد وتقوية الحكم الذى تثبته لله تعالى . وفى
التعبير برى مضاف الى ضميره — مع سبق التعبير فى صدر الآية باسم
الجلالة — إشارة الى عناية الله به ورعايته له ، واجابة دعائه ، فهو مربيه
ومالك أمره ، مع ما فى ذلك من تلوين للأسلوب بالمغايرة بين كلماته .
وفى اظهار الرب فى موضع الاضمار اشعار باستقلال جملة التذييل ،
بجانب دلالة على المعانى التى أشرنا اليها .

وتوحيد ضمير المتكلم فى « ربى » مع كونه مذكورا عقيب ذكر
هبة اسماعيل واسحاق لإبراهيم عليه السلام ، لما أن نعمة الهبة
فائضة عليه خاصة ، واسماعيل واسحاق عليهما السلام من النعم لا من
المنعم عليهم (٥٣) .

و « سميع » بناء مبالغة على وزن فعيل ، أضيف الى مفعول وهو
« الدعاء » وهذه الصيغة تدل على القوة والكمال فى اثبات معناها ،
كما تفيد الثبوت والاستمرار فوصف الله تعالى بأنه سميع الدعاء ثابت
ومستمر . وفى سميع الدعاء اشعار بقبوله واجابته . وهذه الجملة مع
كونها تعليل على طريق التذييل نهى من نعمة الحمد والشكر لله تعالى
لما فيها من وصفه سبحانه بأن قبول الدعاء سنته المستمرة .

(٥١) الكشف : ٣٨١/٢ .

(٥٢) أبو السعود : ٥٤/٥ ، والالوسى : ٢٤٢/١٣/٧ .

(٥٣) أبو السعود : ٥٤/٥ .

«وتواصل الآيات عرض دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه وذريته
 « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء » • وفى تكرار
 ابتداء زيادة ضراعة وابتهاال الى الله تعالى لاجابة دعائه • وتوحيد ضمير
 فى « رب اجعلنى ... » مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال «ومن
 ذريتى » للاستعار بأنه المقتدى فى ذلك ، وذريته أتباع له ، وأن ذكرهم
 بطريق الاستطراد ، لا كما فى قوله «ربنا انى أسكنت...» فان اسكانه
 مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد
 للدعاء الذى هو مخصص بذريته(٥٤) •

و « مقيم الصلاة » أى مثابرا عليها ، مستمرا فى اقامتها ، أو
 معدلا لها ، فيكون مجازا ، من أقمت العود اذا فومته وعدلته(٥٥) ،
 وفى صيغة اسم الفاعل اشعار بالدوام والاستمرار على ذلك •

وقوله « ومن ذريتى » صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء
 المتكلم والتقدير : واجعل مقيمين للصلاة من ذريتى ، و « من »
 ابتدائية ويجوز أن تكون تبعية ، بناء على أن الله أعلمه أن بعضا من
 ذريته لا يكون مقيم الصلاة ، أو يكون علم ذلك من استقراره سنة الله
 تعالى فى الأمم الماضية(٥٦) ويضرب ابراهيم الى ربه « ربنا وتقبل
 دعاء » وفى المجيء بضمير الجماعة اشعار باشتراك ذريته المذكورين فى
 هذه الضراعة •

الختاتمة :

وتختتم هذه الدعوات الصالحات بدعاء من غاية أهل الآملين ،
 وهو عقد رجاء الراجين « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم

(٥٤) السابق

(٥٥) الألوسى : ٢٤٣/١٣/٧ •

(٥٦) التحرير والتنوير : ٢٤٤/٦٣ ، والألوسى : ٢٤٣/١٣/٧ •

الحساب « ادعا ابراهيم ربه أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين كافة يوم القيامة ، وانما طلب المغفرة لوالديه قبل أن يتبين له أمر والده ، حسبما يفسره قول الله تعالى : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعده وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » (٥٧) •

وجيء بضمير الجماعة في « ربنا » للايدان يشترك الكثر في الدعاء بالمغفرة • وبدأ ابراهيم بالدعاء لنفسه ، ثم لأقرب الناس اليه ، ثم لجميع المؤمنين ، جريا على سبيل الأولوية • وتكرار حرف الجر مع المعطوفين للدلالة على أصالة الدعاء بالمغفرة لهما •

و « يقوم الحساب » أى : يثبت ويتحقق ، واستعمال القيام في ذلك اما على سبيل المجاز المرسل ، أو الاستعارة ، كما في قولهم : قامت الحرب والسوق ونحو ذلك ، أو يكون الكلام على سبيل الاستمارة المكنية : شبه الحساب برجل قائم منتصب للعمل ، وأثبت له القيام على سبيل التخيل ، أو يكون على تقدير مضاف محذوف ، أى أهل الحساب ، أو يكون في الكلام مجاز عقلى • حيث أسند الى الحساب ما هو لأهله مجازا (٥٨) ، وهذا من اسناد الفعل الى سببه الغائى أى يقوم أهل الحساب لأجله (٥٩) •

وعلى كل فالجملة لها دلالة قوية على تهويل ذلك اليوم العظيم ، الذى تنتشر فيه الكتب ، وتتصب الموازين ، ولا تظلم نفس شيئا • وبهذا الدعاء المشعر بالنهاية تختتم الحلقة •

(٥٧) التوبة ١١٤ •

(٥٨) ينظر الكشف : ٢/٣٨٢ ، وحاشية الشهاب : ٥/٢٧٤ •

(٥٩) أنطول : ٥٨ •

الحلقة الثانية

بناء البيت الحرام

قال الله تعالى :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتى بها قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظلمين • واد جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيئتى للطائفين والعاكفين والركع السجود • واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير • واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت القواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم • ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم بنبيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تهوتن الا وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهما واحدا ونحن له مسلمون • تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١) •

(١) البقرة : ١٢٤ - ١٣٤ •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة البقرة ، وتمثل الحلقة الثانية فيما يتصل بالبيت الحرام وندعاء إبراهيم عليه السلام فيه ، وهي تحكى ابتلاء الله تعالى لإبراهيم بالتكليف وعهده اليه بتطهير البيت الحرام للطائفتين والعاكفين والركوع السجود • وبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام ، ودعائهما في ساحته • وتعقب على ذلك ببيان دين إبراهيم عليه السلام ، ووصيته لبنيه وذريته من بعده بالنمسك به •

وهذه الآيات ارادة بعد حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وبين تعصبهم وقولهم «لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى» (٢٨) وذكر اختلافهم وتخاصمهم «وقالت اليهود لبست النصارى على شيء وقالت النصارى لبست اليهود على شيء وهم يفتنون الكتاب» (٣) •

وتبع ذلك حديث القرآن الكريم عن فداحة ظلم المنفعية من ذكر اسم الله في المساجد ، والسعى في خرابها ، والاشارة الى القبلة وتوجه الناس الى ربهم « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » (٤) ثم الحديث عن ارسال الرسول ﷺ بالحق بشيرا ونذيرا ، وبيان حقد اليهود والنصارى عليه وعدم رضاهم عنه حتى يتبع ملتهم ، وتخذيذه من ذلك • « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٥)

• البقرة : ١١١

• البقرة : ١١٣

• البقرة : ١١٥

• البقرة : ١٢٠

وتنتج الآيات انى بنى اسرائيل شكرهم بنعم الله تعالى ، وثأمرهم بتقواه عز وجل والاستعداد ليوم القيامة حيث « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » (١) . وبعد هذا تأتى قصة ابراهيم عليه السلام ، وهى تتناسب مع ما سبقها من حديث عن أهل الكتاب المختلفين فى ملته ، والمتناحرين حول كونه من اليهود أو النصارى ، ومع ما جرى من ذكر المسجد والقبلة ، حيث بينت بناء البيت الحرام ، وأوضحت أن دينه هو الاسلام . وفى ذكر قصته تعريف للمشركين بحقيقة ابراهيم ودينه الصحيح ليقتنوا عما هم عليه من شرك ، ويهتدوا الى الاسلام الذى كان يدين به نظراً لأنهم كانوا يعظمونه ويعتبرونه اباهم الأعلى .

البداية :

لما كانت هذه الحلقة تشتمل على بعض التكاليف التى كلف بها ابراهيم عليه السلام كبناء البيت الحرام ، وتطهيره للطائفين والعابدين ناسب ذلك أن تبدأ ببيان ابتلاء الله تعالى لابراهيم بالتكاليف الشرعية ، واختباره بأوامره ونواهيه ، ونجاحه فى ذلك . وما ترتب على هذا من جعله اماماً للناس ، فقال تعالى : « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى اجاءك للناس اماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » .

وهذا من براعة الاستمالة ، حيث بدئت الحلقة بحكية أمر عام ، ترد تفاصيله فى سرد مشاهدتها وأحداثها .

و « اذ » ظرف تعددت آراء العلماء فى بيان متعلقه : فقيل منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر ، أى : واذا ابتلاه كان دبت وكيت ...

«فيه منصرف بما سيأتى من قوله تعالى « قال انى جاعلك » ، والمشهور أن منسوب بهضم مقدم تقديره : اذكر أو اذكروا وقت ابتلائه عليه السلام ، وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقسدة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها ، لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق الدرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٧) .

واختار أبو السعود الرأى المشهور ، وقال انه هو اللائق بجزالة التذليل (٨) وهو يستند فى هذا الى أن الأصل فى المتعلق أن يكون متقدما وتأخيره انما يكون لسر يقتضيه المقام ، ولطول الفصل بين الضرف ومعلقه فى الاعرابين الأولين .

وعلى هذا تكون جملة « واذا ابتلى ... » معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة ، والجامع بينهما الاتحاد فى المقصد ، فان المقصد من تذكير بنى اسرائيل وتخويفهم فى الآيتين السابقتين « يبنى اسرائيل اذكروا نعمتى ... » هو تحريضهم على قبول دين الاسلام ، واتباع الحق ، وترك التعصب ، وحب الرياسة ، وكذلك المقصد من ذكر قصة ابراهيم عليه السلام وشرح أحواله (٩) .

ويمكن أن يكون « اذ » منصوبا بمضمرة معطوفة على « اذكروا » فى الآية السابقة التى تأمر بنى اسرائيل بالتذكر ، ويكون الخطاب هنا لبنى اسرائيل أيضا : ليتأملوا فيما يحكى عن يثتمون الى ملتته من من ابراهيم وأبنائه عليهم السلام ، فيقتدوا بهم ، ويسيروا سيرتهم (١٠) .

(٧) أبو السعود : ٧٩/١ .

(٨) السابق : ١٥٤/١ .

(٩) الأوسى : ٣٧٣/١/١ .

(١٠) أبو السعود : ١٥٤/١ .

والابتلاء : افتعال من البلاء • يقال : بلى الثوب بلى وبلاء أى خلق • ويراد به الاختبار ، ويلوته : اختبرته ، كَلأى أخذك من كثرة اختبارى له (١١) ، وإطلاق الابتلاء على الاختبار مجاز مشهور ، لأن الذى يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمنا انتظار فعله أو تركه ، فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز (١٢) •

فقال الراغب : وإذا قيل ابتلى فلان كذا وأبلاه ، فذلك يتضمن أمرين : أحدهما : تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره ، والثانى : ظهور جودته ورداعته • • فإذا قيل فى الله تعالى : بلى كذا أو أبلاه ، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداعته دون التعرف على ما يجهل من أمره ، إذ كان الله علام الغيوب ، وعلى هذا قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأثمنه » (١٣) •

وقال الزمخشري : واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك (١٤) وفصل الطيبي ذلك فقال : اختبار الله عبده لا يكون بطريق الحقيقة ، لأن الاختبار حقيقة إنما يصح فيمن خفى عليه العواقب ، بل هو مجاز على طريق التهويل ، شبه حال الله والعبد فى تمكينه من الأمرين : الطاعة والمعصية ، وإرادة الطاعة منه ، بحال المختبر مع المختبر ، ثم عبر عنها بالاختبار (١٥) •

وحاصل كلام الزمخشري والطبيبي أن المراد بالابتلاء والاختبار التكليف على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وكلام الراغب يشعر بأنه مجاز باعتبار إطلاقه على ما هو الغاية منه (١٦) •

(١١) المفردات : ٦٠ • (١٢) التحرير والتنوير : ٧٠١/١ •

(١٣) المفردات : ٦١ ، ٦٢ •

(١٤) الكشف : ٣٠٨/١ •

(١٥، ١٦) حاشية الشهاب : ٢٣٢/٢ •

وفي لفظ الابتلاء اشعار بصعوبة التكليف ومشقتها ، وحاجتها الى صبر وجلد وقوة تحمل ، وفي صيغة الافتعال مبالغة فيما يشعر به لفظ الابتلاء .

و « ابراهيم » مفعول به مقدم ، وهو واجب التقديم عند جمهور النحاة لئلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة (١٧) • و « ربه » فاعل مؤخر والهاء مضاف اليه • وفي تقديم المفعول عاياه واهتمام ببيان من وقع عليه الابتلاء ، وتجذب التعقيد اللفظي الذي كان سيحدثه عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة •

وفي ذكر اسم الرب ، و اضافته الى ضمير ابراهيم تشريفا له عليه السلام ، وايدان بأن ذلك الابتلاء تريية له وترشيح الأمر خطير ينط بابراهيم عليه السلام ، ولو قدم الفاعل ما كان هذا الأسلوب الموجز •

والكلمات : جمع كلمة ، وهي في الأصل اللفظ المفرد ، وتستعمل في الجمل المفيدة أيضا ، وتطلق على معاني ذلك ، لما بين اللفظ والمعنى من العلاقة (١٨) • وتفسير الكلمات أقوال عديدة تبلغ ثلاثة عشر قولاً (١٩) والذي أميل اليه أنها التكليف التي كلف الله بها ابراهيم ، وهذا قول جامع تتدرج فيه كل الآراء • وأجمت الكلمات هنا لأن الغرض ليس تفصيل شريعة ابراهيم ، ولا بسط القصة والحكاية ، وإنما الغرض بيان فضل ابراهيم ببيان ظهور عزمه وامتناله للتكليف (٢٠) • وعبر بالكلمات عن الوظائف التي كلفها ابراهيم عليه السلام ، لأن تكليفها كان عن طريق الكلام ، فسميت به ، كما سمي عيسى كلمة

(١٧) الفتوحات الالهية ١٠٢/١ •

(١٨) حاشية الشهاب : ٢٣٣/٢ •

(١٩) الأروى : ٣٧٤/١/١ •

(٢٠) التحرير والتنوير : ٧٠٣/١ •

لأنه صدر عن كلمة وهى « كن » ، وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز (٢١) . وإطلاق الكلمات على المعانى عند البلاغيين من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الدالية ، وهى كون الشيء يدل على شيء آخر (٢٢) وتكرير الكلمات مع جمعها جمع مؤنث سالمة يشعر بغضايتها وعظمتها وحاجتها الى صبر في تنفيذها وان كانت قابلة للعدد .

وتبين الآية موقف ابراهيم عليه السلام من هذا الابتلاء بجملة موجزة هى قوله تعالى « فأتهمن » أى فقام بهن حق القيام ، وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان (٢٣) . والفاء تشير الى قيامه بهن على الفور ، وعدم توانيه فى اتمامهن . والضمير المنصوب للكلمات ، وتعددية الفعل « أتم » الى ضمير « كلمات » مجاز عقلى ، وهو من تعليق الفعل بحاوى المفعول ، لأنه كالمكان له ، فالأفعال هنا بمعنى ايقاع الفعل على الوجه الأتم ، وليس المراد أنه صيرها تامة بعد أن كانت ناقصة . . . فدل قوله فأتهمن مع ايجازه على الامتثال الفورى ، مع الاتقان والاحسان (٢٤) .

وبهذا نجح ابراهيم عليه السلام فى الابتلاء الذى امتحنه الله تعالى به ليعده لأمر عظيم هو جعله اماما للناس . ومعاملة ابراهيم معاملة المختبر ، وتذكير ذلك للناس لارشادهم الى طريق اتقان الأمور . ببنائها على التجربة ، وللايدان بأن بعثة النبی محمد ﷺ أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة ، واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة (٢٥) .

(٢١) القرطبي : ٤٨٣/١ . (٢٢) علوم البلاغة : ٢٦٢ .

(٢٣) الكشف : ٣٠٩/١ .

(٢٤) التحرير والتنوير : ٧٠٣/١ .

(٢٥) أبو السعود : ٦٥٥/١ .

وتبين الآية فضل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بعد نجاحه في الاختبار « قال انى جاعك للناس اماما » فأخبره الله عز وجل أنه اختاره اماما للناس وقدوة لهم ، وهذا شرف عظيم لإبراهيم عليه السلام ، لا يبادلُه شرف آخر • ويختلف موقع هذه الجملة تبعا لأعراب الظرف « اذ » في أول الآية ، فعلى القول بأنه منصوب بمضمر ، تكون الجملة مستأنفة ، وفصل بينها وبين سابقتها للاستئناف البياني ، حيث وقعت جوابا عن سؤال تثيره الجملة السابقة ، كأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : قل : انى جاعك للناس اماما ، وعلى القول بأنه منصوب يقال : تكون الجملة معطوفة على ما قبلها ، والموافق للمعنى داخل على قال • ويجوز أن تكون الجملة بيانا وتفسيرا لقوله تعالى « ابتلى » ، ويكون المراد بالكلمات ما ذكر من الامامة وتطهير البيت ورفع قواعده ، وغير ذلك (٢٦) ، وعلى هذا يكون الفصل بينها وبين سابقتها لكامل الاتصال ، لكونها بيانا وتفسيرا لما سبقها •

ولم تعطف على سابقتها بالفاء ، فلم يقل : وقال للإشارة بأن هذه الامامة بفضل الله تعالى واصطفائه ، لا بسبب اتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهى لا تنال بكسب انكاسب (٢٧) وتأكيد الجملة بان لتقوية الحكم المستفاد منها واثبات وقوعه ، وفي التعبير باسم الفاعل « جاعل » دلالة على أن جملة اماما للناس أمر ثابت متقرر •

وفي قوله « انى جاعك » التثنية : الأول في « انى » حيث عبر عن المولى جل شأنه بضمير المتكلم بعد أن عبر عنه بضمير الغيبة ، والاسم الظاهر « رب » وهو من قبيل الغيبة ، والثاني في « جاعك » حيث عبر

(٢٦) ينظر الكشف : ٣٠٩/١ : والبيضاوى : ٥٠ : ...

(٢٧) التاج : ٣٨٤/١ •

عن إبراهيم عليه السلام بضمير الخطاب بعد التعبير عنه بضمير الغيبة؛ والاسم الظاهر وهو من قبيل الغيبة • وفي الالتفات الأول يشعر ضمير التكلم بأن الله ذو القدرة الغالبة التي لا يعجزها شيء ، هو الذي جعله اماما للناس ، ولا راد لحكمه • وفي الالتفات الثاني يشعر الخطاب بالترقى في الحديث من مقام الغيبة الى مقام المشاهدة والضرورة ، ومواجهة إبراهيم عليه السلام بالخطاب ، تبشيرا له بالفصل الكبير الذي جعله الله له ، بعد قيامه بما كلف به خير قيام •

و « للناس » اما متعنى بجعل ، أى جاعلك لأجل الناس ، واما متعلق بمحذوف وقع حالا من « اماما » أى اماما كائنا اهتم • وتقديم ايجار والمجسور على المفعول الثانى فيه اهتمام ببيان عموم امامته مؤبدة باقية على مر العصور ، ولا يضر مجيء الأنبياء بعده ، لأنه لم يبعث نبي بعده الا كان من ذريته مأمورا باتباع منته في الجملة ، وقيل غير ذلك (٢٨) •

والمراد بالامام هنا الرسول ، فان الرسالة أكمل أنواع الامامة ، والرسول أكمل افراد هذا النوع ، وانما عدل عن التعبير برسولا الى اماما ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل اليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء (٢٩) •

ويصل الحوار في الآية بين إبراهيم وربه عز وجل ، فيبعد أن بين له أنه جاعله اماما للناس سأل إبراهيم أن يمنح هذا الفصل لبعض ذريته « قال ومن ذريتى » أى قال إبراهيم واجعل من ذريتى أئمة للناس • وفي عبارة القرآن الكريم ايجاز بديع • والجملة مفصلة عما قبلها للاستئناف ، كأن سائلا سأل : فماذا قال إبراهيم عندما بشره ربه بجعله اماما للناس ؟ فقيل : قال ومن ذريتى •

(٢٨) الألبوسى : ٢٧٥/١/١ •

(٢٩) التحرير والتنوير : ٧٠٤/١ •

وقوله « ومن ذريتي » معطوف على الكاف في « جاعلك » و « من » تبعيضية متعلقة بجاعل ، أى : وجاعل بعض ذريتي ، أو متعلقة بمحذوف أى واجعل فريقاً من ذريتي اماماً (٣٠) . وهذا العطف يسمى عطف الخلقين ، وهو عطف المخاطب كلاماً على ما وقع في كلام المتكلم تنزيلاً لنفسه منزلة المتكلم فيكمل شيئاً تركه المتكلم ، بحيث يلتئم من الكلامين كلام تام في اعتقاد المخاطب ، كما تقول : وزيدا لمن قال : سأكرمك (٣١) . وعلى هذا فجملة « ومن ذريتي » خبر في معنى الطاب ، أى واجعل بعض ذريتي ، وعبارة القرآن الكريم فيها من البلاغة ما فيها ، حيث جعلت تنمة الكلام السابق ، وكأنها مستحقة وواقعة مثل ما عطف عليه ، وفي العدول عن صيغة الأمر للمبالغة في الثبوت ، ومراعاة الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر المشعرة بالاستعلاء ، مع الإيجاز في الكلام ونظير هذا العطف ما روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اللهم ارحم الملقين » قالوا : والمتعبرين يا رسول الله . قال : اللهم ارحم الملقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال : والمقصرين « (٣٢) » .

والذرية نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته ، ولم ينس إبراهيم ذريته وهو في غمرة فرحه بفضل الله تعالى عليه ، فسأل ربه أن يجعل من ذريته أئمة للناس . وقد جرى عليه السلام في ذلك على سنة الفطرة ، فإن الإنسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له ، يجب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها ، ليكون له حظ من البقاء جسداً وروحاً ، كما راعى عليه السلام الأئب في طلبه ، فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل لبعضها ، لأنه الممكن ، وفي هذا مراعاة لسنن

(٣٠) أبو السعود : ١٥٦/١

(٣١) ينظر التحرير والتنوير : ٧٠٤/١

(٣٢) الألوسی : ٣٧٦/١/١

الظرة أيضا ، وذلك من شروط الدعاء وآدابه ، فمن خالف في دعائه
محن الله في خليقته أو في شريعته فهو غير جدير بالاجابة (٣٣) •

ويجيب المولى عز وجل ابراهيم الى طلبه « قال لا ينال عهدي
الظالمين » وهذا استئناف مبنى على سؤال مقدر ، ومن ثم فصل عن
سابقه ، وهذا نهج متبع في حكاية المحاورات في القرآن الكريم • وقد
أجاب الله ابراهيم اجابة خفية ووعدته عدة اجمالية بتشريف بعض ذريته
عليه السلام بنيل عهد الامامة حسبا وقع في طلبه عليه السلام (٣٤) ،
ونم يعين هذا البعض تعيينا قاطعا ، انما ذكر الفريق الذي لا تتحقق
فيه الامامة ، ومنه يفهم الفريق الذي تتحقق فيه هذه الامامة : لأر حكم
أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر ، وفي ذلك من الايحاز ما لا يخفى (٣٥)
وذكر الصنف الذي لا تتحقق فيه الامامة دون الصنف الآخر لأنه
مبهم في دعاء ابراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من انصنف الذي
تتحقق فيه الامامة ، وفي ذكره تعريض بأهل الكتاب والمشركين الذين
يزعمون أنهم أولى الناس بابراهيم ، وهم في الحقيقة بعيدون عنه كل
البعد ، ومحرّمون من دعوته ، وليسوا جديرين بالامامة لظلمهم (٣٦) •
وايثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادئ الامامة من ذريته
وارسال الباقيين لئلا ينتظم المقتدون بالأئمة من الأمة في سلك المدرومين
وفي تفصيل كل فرقة من الاضباب ما لا يخفى • وأوثر النيل على الجعل
ايماء الى أن امامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته ليست بجعل مستقل
بل هي حاصلة في ضمن امامة ابراهيم عليه السلام ، يقال خلا منهم في
وقت قدره الله عز وجل (٣٧) •

(٣٣) المنار : ١/ ٣٧٥ •

(٣٤) أبو السعود : ١/ ١٥٦ •

(٣٥، ٣٦) ينظر الالوسي : ١/ ٣٧٧ ، والتحرير والتنوير : ١/ ٧٠٦ •

(٣٧) أبو السعود : ١/ ١٥٦ •

وفي العهد وجوه ذكرها العلماء أحدث : الإمامة ، وقيل . عهدى
 أى رحمتى ، وقيل : طاعتى وقيل : أمانى • والمختار الأقول الأول ،
 لأن قوله « ومن ذريتى » طلب لذلك الإمامة التى وعده الله بها بقوله :
 « انى جاءك للناس اماما » فقوله « لا ينال عهدى الظالمين » لا يكون
 جوابا عن سؤال ابراهيم الا اذا كان المراد بهذا العهد تلك الإمامة (٣٨) •
 وتسمية الإمامة عهدا مع اخلافتها الى الجليل يشعر بعظمة الإمامة ،
 وعلو مكانتها ، ووجوب المحافظة عليها لأنها عهد من الله تعالى ، يجب
 حفظه ، ومراعاته •

والظلم وضع الشيء فى غير موضعه المخصص به اما بنقصان أو
 بزيادة ، ويقال فى مجاوزة الحق كثيرا أو قليلا (٣٩) • والظلم أنواع
 منها : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغى ••• ومن ظلم أى
 لون من ألوان فقد جرد نفسه من حق الإمامة ، أسقط حقه فيها ••••
 والإمامة المتنوعة على الظالمين كل معنى الإمامة والقيادة ، فالعدل
 هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها (٤٠) •

البيت الحرام ومقام ابراهيم :

وبعد أن بدأت الحلقة ببيان مكانه ابراهيم عليه السلام ، وتفضيل
 الله له بجعله اماما للناس ، تمضى فى ذكر بعض فضائل البيت الحرام ،
 وجهود ابراهيم واسماعيل فى تطهيره واعداده للعبادة « واذ جعلنا
 البيت ذنابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى
 ابراهيم واسماعيل أن طهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » •
 والآية تشتمل على ثلاثة أحكام : الأول : « واذ جعلنا البيت

(٣٨) الرازى : ٤٦٨/١ •

(٣٩) المفردات : ٣١٥ •

(٤٠) فى ظلال القرآن : ١١٢/١ •

مثابة للناس وأمنا» والوإو عاطفة على «ابتلى» واذا ظرف ، كثر
للاشارة الى استقلال القصة ، وأنها جديرة بأن تذكر ويعتبر بها على
انفراد ، لما حوته من أخبار عظيمة ، ومناقب جليلة •

والبيت : علم غالب على الكعبة ، وهو مفعول أول ، ومثابة :
مفعول ثان ، وأصل الثوب رجوع الشيء الى حالته الأولى التي كان
عليها ... والثوب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله ، فيسمى
الجزاء ثوبا تصورا أنه هو هو (٤١) •

و «مثابة للناس» أى مباءة ومرجعا للحجاج والعمار ، يتفرقون
عنه ثم يثوبون اليه ، أى يثوب اليه أعيان الذين يزورونه أو
أمثالهم (٤٢) • واللام فى الناس للجنس وهو الظاهر ، وقيل للعهد
أو للاستغراق العرفى (٤٣) • والتعبير بإفظ «مثابة» دون غيره
كالقصد والمزار ، لأنه يتضمن هذا المعنى وزيادة ، فإنه لا يقال : تاب
المرء الى الشيء الا اذا كان قصده أولا ثم رجع اليه • وهذا الموصف
يصدق برجوع بعض زائريه اليه ، وحينئذ غيرهم وتمنيهم له عند
عجزهم عنه (٤٤) •

«وأما» عطف على مثابة ، وهو مصدر وصف به البيت بالمبالغة
فى اثبات الأمنية له على سبيل المجاز ، كأنه نفس الامن ، وهو ذاته آمن
وظمأنينه وسلام • ويمكن أن يكون من ايقاع المصدر مبقع اسم الفاعل
أى آما ، فهو مجاز عطفى من اسناد ما للمفعول الى الفاعل أى آمنا من
حجة وزاره • أو على تقدير مضاف محذوف أى دا آمن (٤٥) • ولم

(٤١) المفردات : ٨٣ •

(٤٢) الكشف : ٣٠٩/١ •

(٤٣) الألوسى : ٣٧٨/١/١ •

(٤٤) المنار : ٣٧٨/١ •

(٤٥) ينظر الشهاب : ٢٣٦/١ ، وأبر السعود : ١٥٧/١ •

يذكر للناس هنا كما ذكر مع « مثابة » اكتفاء به على سبيل الإيجاز ، وفي تركه اشعار بعموم الأمن لكل شيء ، أى أنه أمن لكل شيء كأننا ما كان من الانسان والطير والحيوان ، ويدخل فيه أمن الناس دخولا تولىا (٤٦) •

وفي التذكير بهذه النعمة الجليلة ما فيه من الفائدة في تقرير دعوة النبي ﷺ ، وبيان بنائها على أصول ملة ابراهيم عليه السلام الذى تحقرمه قريش وغيرها من العرب (٤٧) • وفى هذا دعوة لهم الى اتباع دعوة الرسول ﷺ ومناصرته •

ويأتى الحكم الثانى فى الآية وهو « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » قرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء على أنه فعل ماضى معطوف على جعلنا ، وقرأ الباقون بالكسر على أنه أمر ، والواو داخلة على مقدر يقع حالا من فعل « جعلنا » أى وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا ، والمأمور بذلك الناس • وفائدة الأمر استحضار صورة المسامورين حاضرين ، والأمر بوجه اليهم ، فهو تصوير للماضى بصورة الحاضر ، ليقع فى نفس المخاطبين بالقرآن أن الأمر يتناولهم ، وأنه موجه اليهم كما وجه الى سلفهم فى عهد أبيهم ابراهيم (٤٨) • والوصل بين جملة « واتخذوا » ومما قبلها للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجماتان فى الخبرية مع التناسب ، فجملة « واتخذوا » انشائية نفظا خبرية فى المعنى (٤٩) •

ومجىء هذه الجملة بصيغة الأمر خلافا للتى قبلها والتى بعدها فيه

(٤٦) الألوسى ١/١/٣٧٨ •

(٤٧) المنار : ١/٣٧٨ •

(٤٨) المنار : ١/٣٧٨ •

(٤٩) ينظر مفتاح العلوم : ٢٦٠ •

إشعار بأهمية ما تتطوى عليه من حكم ، نظرا لأنه يتعلق بعبادة عملية مستحبة من جميع المسلمين •

والمقام : اسم مكان من القيام ، واختلف في معناه على أقوال منها . أنه الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عذ بناء الكعبة ، وهو ما يعرفه الناس اليوم ويصلون عنده ركعتي الطواف ، وقيل : هو الكعبة ، وقيل الحرم كله مقام إبراهيم ، واختار القرطبي الرأي الأول وصححه ، وهو ما عليه جمهور المفسرين (٥٠) • والمصلى : موضع صلاة يصلى عندها ، وقيل غير ذلك (٥١) •

وتوضح الآية النظم الثالث « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » • والعهد : الأمان واليمين ، والدمه ، والوصية ، وعهدت إليه أى أوصيته (٥٢) • والمراد بالعهد هنا الأمر ، قال الحسن البصري معناه : أمرهما الله أن يطهرا ، وقال ابن جريج قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره ، وعدى بالي لأنه في معنى أوحينا (٥٣) •

واستعمال العهد في الأمر مجاز على سبيل الاستعارة ، وإشعار العهد على الأمر لأن العهد أقوى من الأمر ، لأنه يقوم على الرضا من الطرفين ، والاتفاق على موضوع العهد وبذولاه ، فهو أقوى من الأمر الذي يأتي من طرف واحد • ومن ثم قال أبو السعود : أمرناهم أمرا مؤكدا (٥٤) •

ويفسر العهد بـ « أن طهرا ... » ويجوز في أن وجهان : أحدهما أنها تفسيرية لقوله « عهدنا » لأنه يتضمن معنى القول لأنه بمعنى

(٥١، ٥٠) ينظر القرطبي : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩ • والألوسی : ٣٧٩/١/١

(٥٢) الصحاح : مادة « عهد » •

(٥٣) ابن كثير : ١٧١/١ • (٥٤) أبو السعود : ١٥٧/١ •

أمره أو وصيه • والثاني أن تكون محمديّة • والأصل بأن ظهر
وحذفت الباء (٥٥) •

والمراد بتطهير البيت تشييفه من كل ما يلين به من الأوثان
والنجاسات الحسية والمعنوية • والأصل في بيني الشريف والتعظيم •
وفي الأسلوب إيضاح بعد اتهام ، وتفسير بعد أجمل ، وهو من ألوان
الاطناب ، وفيه تشويق للذفس ، وأثارها للوقوف على تفسير العهد ،
وبورود عليها يتمكن فيها فضل تمكن •

و « الطائفين » جمع طائف ، اسم فاعل من طاف يطوف ،
و « العاكفين » جمع عاكف اسم فاعل من عكف يعكف • والعكوف معناه
اللزوم ، والعاكفون : المقيمون فيه المازمون له • والركع السجود أي :
المصلين • وفي التعبير عنهم بذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية • ووصفوا
بالركوع والسجود دون غيرهما من سائر أفعال الصلاة لأنها أقرب
أحوال المصلي إلى الله تعالى ، وهما الركنان الأعظمان ، وكثيرا ما يكتفى
عن الصلاة بهما • وإيثارهما على لفظ المصلين مع اختصاره للايذان بأن
المعتبر صلاة ذات ركوع وسجود لا صلاة أخرى كصلاة أهل الذناب ،
وقدم الركوع لتقدمه في الزمان • وللتقارب بينهما ذاتا وزمانا وتاثيرهما
في الصلاة ترك العاطف بينهما • وللتباين بين الطائفين والعاكفين جيء
بالعاطف بينهما • وجمع الوصفان الأولان جمع سلامة ، وجمع
الآخران جمع تكسير للمقابلة وتوزيع الأسلوب والتفخيم فيه • ورفولف ،
بين جمعي تكسيرهم في الصيغة زيادة في التفخيم والتوزيع • وآخر وصف
معول على فعل لكونه فاصلة ويتناسب مع الفواصل لما فيه من حرف
المد قبل آخره (٥٦) •

(٥٥) الفتوحات الإلهية : ١٠٤/١ •

(٥٦) ينظر أبو السعود : ١٥٨/١ ، والوسى : ٢٨١/١/١ •

والتحريم والتنوير ٧١٢/١ •

وقد أفادت الجملة القرآنية أن الله عز وجل عهد إلى إبراهيم وإسماعيل أن يقوموا بتطهير البيت الحرام بأعدادهم للطائفين والعاكفين والراكعين والساجدين ، وفي ذكر ذلك تعرض للمشركين • بأنهم ليسوا أهلاً لعمارة المسجد الحرام ، لأنهم لم يظهروه مما يجب تطهيره منه ، ولم يقوموا بما يجب نحوه •

دعاء إبراهيم للبلد الحرام وأهله :

وتمضى الآيات فتذكر بدعاء إبراهيم عليه السلام للبلد الحرام وأهله « وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » •

والآية معطوفة على ما قبلها ، وذكرت اد لبيان أهمية مضمونها ، وأحقيته بأن يذكر به على أفراد ، ويحدد على سبيل الاستقلال •

وهي تشتمل على دعائين محكيين عن إبراهيم عليه السلام ، وتعقيب من الله تعالى يبين سعة رحمته ورحمته • فالدعاء الأول هو « رب اجعل هذا بلداً آمناً » • سأل إبراهيم ربه أن يجعل هذا المكان بلداً آمناً ، وهذا غير ما في الآية السابقة التي أثبت الله فيها الأمن للبيت « وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » وهنا يسأل إبراهيم ربه الأمن للبلاد كله لا للبيت وحده •

ورب : منادى بحرف نداء محذوف ، وفي حذف حرف النداء أشعار بقرب إبراهيم من ربه ، ونداءه بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره لما في ذلك من التلطف في السؤال ، واستدعاء الإجابة ، فهو يدعو ربه الذي امتن عليه بتربيته ورعايته •

وهذا : إشارة الى المكان أو البراءة المذكور في قوله تعالى « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » (٥٧) • والمسئول على هذا شيئين : البلدية والأمن وقيل الإشارة الى البلد ، والمسئول على هذا شيء واحد هو الأمن (٥٨) • والبلد : المكان المتسع من الأرض المتحيز عامرا أو غامرا ، ويطلق على الأرض مطلقا ، كما يطلق على القرية أيضا (٥٩) • وتكبر « بلدا » للنوعية ، أى بلدا من نوع البلاد الآمنة • ووصفه بأمن يخرج على وجهين : أما على الحقيقة ، فيكون من باب النسب أى ذا أمن ، أى صاحب أمن لمن فيه ، أما على الاسداد المجازى ، ففيه مجاز عقلى علاقته المفعولية ، والأصل : مأمونا أو آمنا أهله •

والدعاء الثانى : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » وهو معطوف على اجعل ، والوصل بينه وبين سابقه للتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملتان في الانشائية مع التاسب بينهما في كونهما دعاء للمكان وأهله •

ومن للتبعية ، والثمرات : جمع ثمرة ، واللام للاستعراق العرفى ، أى من جميع الثمرات المعروفة للناس (٦٠) • وجمع القلة فيه اظهار للقناعة والرضا بالقليل • وخص ابراهيم المؤمنين بدعائه فقال « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » وهو بدل من « أهله » بدل بعض من كل ، وفي تخصيصهم بالدعاء اظهار لشرف الايمان ، وابانة لخطره ، واهتمام بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب ، وفيه ترغيب لقومه في

(٥٧) ابراهيم : ٣٧ •

(٥٨) ينظر الكشف : ٣١٠/١ والشهاب ٢٣٦/١ •

(٥٩) التحرير والتنوير : ٧١٤/١ •

(٦٠) السابق : ٧١٥/١ •

الايمان ، وزجر عن الكفر ، وفي حكايته ترغيب وترهيب اقريش وغريمهم
نكى يؤمنوا ويثابروا رزق الله تعالى (٦١) •

ودعوة ابراهيم عليه السلام من جوامع كنم النسوة ، فان آمن
البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ، ويستتبع العدل
والعزة والرخاء ، اذ لا أمن بدونها ، وهم يستتبع التعمير ، والانتقال
على ما ينفع ، والثروة ، فلا يختل الأمن الا اذا اختلت الثلاثة الأول ،
واذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة (٦٢) •

وقالوا انما خص ابراهيم عليه السلام دعاءه بالمؤمنين ، لأنه
لما قال له الله عز وجل « لا ينال عهدى الظالمين » اخترز من الدعاء
لمن ليس مرضيا عند الله تعالى ، فقيد دعاءه بالمؤمنين ، ولكن الله تعالى
أرشده الى كرمه الشامل (٦٣) « قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره
الى عذاب النار وبئس المصير » وفصل هذا عما قبله للاستئناف المبتدئ
على ما قال مقدر ، كأله قيل : فماذا قال له ربه عز وجل حين طلب ذلك؟
فقيل : قال ومن كفر ...

وقوله « ومن كفر » عطف على « من آمن » أى وأرزق من كفر
أيضا فأمتعه بهذا الرزق زمانا قليلا هو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه
الى عذاب النار سوفا اضطراريا لا يقصده هو ولا يعلم أن كثره ينتهى
به اليه • وقد علم من ذلك أن الله تعالى استجاب دعاء ابراهيم في
المؤمنين فجعل لهم هذا الخير في الدنيا وأعد لهم ما هو أفضل منه
في الآخرة (٦٤) • و « قليلا » صفة لمصدر مقدر أو لظرف مقدر أى
تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ، وفي هذا ايجاز بحذف الموصوف • والتعبيين

(٦١) أبو السعود : ١٥٩/١ •

(٦٢) التحرير والتنوير : ٧١٥/١ •

(٦٣) حاشية الشهاب : ٢٣٧/٢ •

(٦٤) المنار : ٣٨٢/١ •

في جانب الكافر بالمعزة دون الرزق ونحوه يشعر بأن ما يناله الكافر في الدنيا متعة موقوتة زائلة ، وفي وحشها بالقالة تأكيد لقصر مدتها وسرعة زوالها •

ولما كان الكافر يمكن أن يعتز بما أوتي من نعم دنيوية ، ويعد ذلك من رضوان الله تعالى عليه ، بين الله عز وجل مآله الشنيع احتراسا مما قد ينشأ عنه ، وتبليها على أن تمتيعه في العاجلة لا يمنع تعذيبه في الآجلة ، فقال تعالى «ثم اضطره إلى عذاب النار» والعطف بشم للتراخي الترتبي ، والاشعار بخون عذابه متأخرا عن تمتيعه • والاضطرار ضد الاختيار وهو في الأصل : الاحتياج إلى الشيء ، وقد اضطر إلى شيء أي لجئ إليه (٦٥) • والاضطرار حقيقة في كون الفعل صادرا من الشخص من غير تعلق إرادته به . كمن ألقى من السطح مثلا ، ومجازا في كون الفعل باختياره لكن بحيث لا يملك الامتناع عنه لعارض يقصره على اختياره كمن أكل الميتة حال الخمصة (٦٦) •

وفسر الزمخشري الجملة بقوله : أي فألزمه إلى عذاب النار لزم المضار الذي لا يملك الامتناع بما اضطر إليه (٦٧) • ولز الشيء بالشيء : فرضه به أو ألصقه (٦٨) • وقال الطيبي : إن الاضطراب هنا استعارة ، شبه حال الكافر الذي أدر الله عليه النعمة التي استدناها بها قليلا قليلا إلى ما يهلكه بحال من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه ، واستعمل في المشبه ما استعمل في المشبه به ، وقال الشهاب : إنه مجاز عن كون العذاب واقعا به وقوعا محققا كأنه مربوط به (٦٩) •

(٦٥) لسان العرب : مادة « ضر » •

(٦٦) الألوسي : ٣٨٢/١ •

(٦٧) الكشف : ٣١٠/١ •

(٦٨) أساس البلاغة مادة : لز •

(٦٩) حاشية الشهاب : ٢٣٧/٢ ، ٢٣٨ •

والإضافة في عذاب النار للتهويل والتخويف • وذيلت الآية نقولنه تعالى « ويئس المصير » وهو تذييل يؤكد سوء مصير الكافرين وشاعة عاقبتهم • والمختصر بالذم محذوف أي : ويئس المصير النار أو عذاب النار • وقد تغير النظم في جانب الكافرين عنه في جانب المؤمنين ففى جانب الكافرين قدم الكفر أولاً ثم ذكر التمتع ، وفى هذا اشعار بأن الكفر هو سبب اضطرارهم الى عذاب النار ، ومن ثم قدم السبب على المسبب أما رزق المؤمنين فهو على سبيل التفضل والاحسان لا على سبيل السبب والمسبب ومن ثم قدم الرزق على وصف الايمان (٧٠) •

رفع القواعد ودعاء ابراهيم واسماعيل :

وبعد بيان دعوة ابراهيم للباد الحرام بالأمن ولأهله بالزنيق من الثمرات ، تذكر الآيات ببشاء ابراهيم أنبيت الحرام بمساعدة ابنه اسماعيل ، وتحكى دعاءهما عنده ، ارشادا للمخاطبين الى الدبر الحق والعبادة الصحيحة ، وحثا لهم على اتباع نهج ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وهم يفتخرون بالانتساب اليهما ، ويدعون أنهم على دينهما • وتبدأ الآيات بقوله تعالى : « واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » وهى معطوف على قوله تعالى « واذا قائ ابراهيم ... » وعطفه مع تكرار « اذ » للايذان باستقلاله وبيان أنه بما يشتمل عليه من أخبار هامة جدير بأن يذكر على انفراد • و « اذ » لخصى ، وجيء بهما بالاضارع لاستحضار الصورة الماضية العجيبة نيتمثلها القائل وكأنها حاضرة تافد الآن • وفى التعبير بالاضارع بعد التعبير بالماضى قبله تلوين الأسلوب ، وتنويع النظم كي لا يسبى على وتيرة واحدة •

والقواعد جمع قاعدة ، وعلى الأساس والأصل لما فوقه ، ورفعها ،
 اعلاء البناء عليها ، أو علاؤها نفسها (٧١) . وفي إثبات الرفع على البناء
 تشريب وتعظيم لهذا العمل ، وأشعار بأن قواعد البيت كانت موجودة ،
 وقام إبراهيم واسماعيل عليهما السلام برفعها والبناء عليها . و « من »
 ابتدائية متعلقة بـ « يرفع » أو حال من القواعد . ولم يكن التعبير :
 قواعد البيت . لما في ابهام القواعد أولا ثم تبيينها ثانيا من تفخيم
 شأنها (٧٢) .

قال الشيخ محمد عبده : وفي الكلام نكتة لطيفة ، وهي أن ذكر
 القواعد أولا ينبه الذهن ويحركه الى طلب معرفة القواعد ما هي ؟
 وقواعد أى شيء هي ؟ فإذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعا
 في النفس وأشد تمكنا في الذهن (٧٣) .

واسماعيل معطوف على إبراهيم وفي تأخير عن المفعول إشارة الى
 أن الأصل في الرفع هو إبراهيم ، واسماعيل تبع له ، وقد ورد أنه
 كان يناوله الحجارة وهو يبنينا ، فهناك تفاوت بين عمل إبراهيم وعمل
 اسماعيل عليهما السلام (٧٤) .

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر اذا بالسياق يكشف لنا عن إبراهيم
 واسماعيل عليهما السلام ويرينا اياهما كأنهما حضاران نسمع صوتيهما
 يبتهلان الى الله عز وجل « ربنا تقبل منا انك أنت السميع
 العليم . . . » (٧٥) . وبذلك عدل النظم القرآني عن أسلوب حكاية
 قولهما الى ذكر ما نطقا به مسندا اليهما كأنهما يدعوان الآن ، وهذا
 ضرب من استحضار الحالة المحكية ، وتمثيلها شاخصة جليلة .

(٧٢) البيضاوي : ٥١ .

(٧١) الكشف : ٣١١/١ .

(٧٣) المنار : ٣٨٦/١ .

(٧٤) ينظر أبو السعود ١٦٠/١ .

(٧٥) في ظلال القرآن ١٩٤/١ .

وقد دعوا ربهما عز وجل بثلاثة أدعية جاء كل منها في آية على
حدة :

الأول : دعاء بقبول عملهما •

والثاني : دعاء بهدايتهما وذريتهما الى الدين الصحيح ، وقبولهما
التوبة •

والثالث : دعاء ببعث رسول من ذريتهما يهديهم الطريق المستقيم •
فالدعاء الاول هو « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » وفي
التلزام فعل مقدر أى يقولان ربنا •• والجملة الفعلية في محض نصب. حال
من فاعل « يرفع » وفي حذفها ايجاز واستحضر بصورة نطقتهما بالدعاء •
و « ربنا » منادى بحرف نداء مذكوف ، وفي حذفه اشعار بقربهما من
الله عز وجل الذى يجيب دعاءهما • وفي ايثار لفظ الرب المتبىء عن
افاضة ما فيه صلاح المربوب ، مع الاضافة الى ضميرهما عليهما السلام
لتحريك سلسلة الاجابة (٧٦) •

وتقبل الله العمل أى قبله ورضى به وهو مجاز عن الاثابة والرضاء
لأن كل عمل يقبله الله تعالى يثيب صاحبه عليه ويرضاه منه (٧٧) • ونظم
يذكر مفعول « تقبل » وفي هذا اشعار بالعموم ، فهما يدعوان الله أن
يتقبل دعاءهما وعملهما وكل ما يقدمان من خير • وفي هذا الدعاء اظهار
لخشوعهما وخشيتهما لله عز وجل ، وخوفهما نتيجة العمل ، وتيسير
صيعه التفعّل الى شدة الخوف من وجود قصور فيه ، كما أن في هذا
الدعاء اشارة الى أن العبرة ليست بالعمل ولكن بقبوله من الله تعالى •

وذيت الآية بقوله تعالى « انك أنت السميع العليم » أى السميع
لجميع المسموعات التى من جملتها دعائنا ، الذين بكل المعلومات التى

(٧٦) أبو السعود : ١/١٦٠ •

(٧٧) الأوسى : ١/٣٨٤ •

من زمرتها نياتنا في جميع أعمالنا • والجملة تعليل لاستدعاء التقبل (٧٨) •
فهو يدعو أن يتقبل دعاءهما ويقدمان بين يدي دعائهما الثناء
الجميل على الله تعالى بصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، وهذا من
دواعي قبول الدعاء ، وعلى هذا جرت سنة نبينا محمد ﷺ في الدعاء •

ونؤكد الجملة بأن وضيم الفصل ، يدل على كمال يقينهما بما
نضمنته من تخصيصه تعالى بصفتي السمع والعلم ، وفي الجملة قصر
لهاتين الصفتين على الله تعالى عن طريق تعريف المسند باللام ، وتأكد
هذا القصر بضمير الفصل « أنت » • وقد أفاد القصر اظهار اختصاص
دعائهما بالله عز وجل ، وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية (٧٩) •
والمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتزليل سمع غيره وعلم غيره منزلة
العدم فكأنه هو المختص بهما دون غيره (٨٠) • وعلى هذا فالقصر على
سبيل المبالغة ، ويجوز أن يكون قصرا تحقيقيا باعتبار متعلق خاص ،
أي السمع لدعائنا لا يسمعه غيرك العليم بنياتنا وأعمالنا لا يعلمها
غيرك (٨١) • وفي مجيء صفتي السمع والعلم على صيغة فعيل مبالغة
في أثبات كمال السمع وتمام العلم له جل شأنه • وتقديم صفة السمع
مع تأخر التقبل عن العمل للمجاورة ، ولإحاطة صفة العلم وشمونها لكل
الموجودات من مسموعات ومرئيات وغير ذلك • والدعاء الثاني هو « ربنا
واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ونب علينا
أنك أنت التواب الرحيم » وفي هذا الدعاء يطلبان من ربهما أن يثبتهما
على الاسلام ، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يعلمهم المناسك
والعبادات ، وأن يتوب عليهم فهو سبحانه التواب الرحيم • وبدي

(٧٨) أبو السعود : ١٦١/٨ •

(٧٩) السابق نفسه •

(٨٠) الرازي : ٤٧٨/٨ ، والتحرير والتنوير : ٩/١ •

(٨١) التحرير والتنوير : ٧١٩/١ •

الدعاء بفداء الرب سبحانه وتعالى كالدعاء السابق • وتكرير انداء مع
ايقار لفظ الرب لاظهر مزيد الضراعة الى الله تعالى، والاشارة الى أن
كل دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات ، ومستقلة في مضمونها عن
الدعوات الأخرى •

وقوله « واجعلنا » معطوف على « تقبل » و « مسلمين لك »
أي . مخلصين لك ، أو منقادين لك ، وهو يفيد الحصر أي : اجعلنا
مسلمين لك لا غيرك ، وهذا يدل على أن كمال «سعادة العبد في أن
يكون مسلما لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره ، وألا يكون ملتفتا
الناظر الى شيء سواه (٨٢) • وفيه تعريض بالمشركين الذين أعرضوا
عن التوحيد ، وساروا في ظلام الشرك • وطبيهما من الله تعالى أن
يجعلهما مسلمين له معناه طلب الزيادة في ذلك، أو طلب التثبيت والدوام
عليه : لأنهما كانا مخلصين منقادين لله رب العالمين (٨٣) •

ولما سألنا أنفسيهما دوام الاخلاص لله تعالى ، طلبا لذريتهما
النهائية الى الاسلام « وهن ذريتنا أمة مسلمة لك » أي واجعل من
ذريتنا أمة مسلمة لك ، وفي الجملة ايجاز بحذف الفعل ، و « من »
تلتعبض ، والأمة : الجماعة العظيمة • وخصا ذريتهما بالدعاء لأنهم
أحق بالشفقة والنصيحة كما جاء في قوله تعالى « قوا أنفسكم وأهليكم
نارا » (٨٤) ، ولأن الأنبياء اذا صلحوا صلح بهم غيرهم • وشايعوهم
على الخير (٨٥) • وفي اضافة الذرية الى ضمير الاثنين اشارة الى أن
المراد الذرية التي تنسب اليهما معا ، وهي ما يكون من ولد اسماعيل ،
واللفظ ظاهر في هذا المعنى ، ويرجح الحال والمحل الذي كانا فيه ،

(٨٢) الرازي : ٤٨٠/١ •

(٨٣) ينظر القرطبي : ٥١١/١ ، والبيضاوي : ٥١ •

(٨٤) التحريم : ٦ •

(٨٥) الكشف : ٣١١/١ •

وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل في بلاد العرب داعيا الى توحيد الله واسلام الوجه له ، ويرجع هو الى بلاد الشام ، وكذلك ادعاء هذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم كما في الآية التالية (٨٦) . وهذا يرجح أن المراد بالأمة أمة محمد ﷺ .

وانما خصا بالدعاء بعضهم لما علما أن في ذريتهما ظلمة وذلك من قوله تعالى « لا يزال عهدي انظالمين » كما أن الحكمة الالهية لا تقتضى الاتفاق على الاخلاص ، والاقبال الكللى على التقوى (٨٧) .

وبعد أن طلبا من الله تعالى أن يهديهم وذريتهما الى اسلام الوجه له سبحانه ، وهو أصل الدين وجوهره ، طلبا من الله أن يعلمهما الشروع العمية « وأرنا مناسكنا » . أى علمنا اياها علما يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح (٨٨) . والمناسك جمع منسك ، والمنسك في الأصل العبادة ، والمناسك العابد ، وشاع استعمال ذلك في أعمال الحج لما فيها من الكلفة والبعد عن العادة (٨٩) . واضافة المناسك اليهم مع أنها عبادات مطلوبة من جميع المسلمين يشعرون بانهم باهمامهم بمعرفتها ، وعنايتهم بتعلمها ، كأنها مختصة بهم ومقصورة عليهم .

ثم طلبا من الله التوبة « وتب علينا » والجملة معطوفة على سابقتها وقد وردت الجملة في هذه الآية موصولة للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت في الانشائية مع التناسب بينهما واختلغ العلماء في معنى طلبهما التوبة وهما نبيان معصومان فقالت طائفة : طلبا الثبات والدوام على التوبة ، وقيل طلبا التوبة لذريتهما ، وحكايتها عنهما لترغيب الكثرة في

(٨٦) النار : ٣٨٧/١

(٨٧) البىضاوى : ٥١ .

(٨٨) النار : ٣٨٧/١

(٨٩) المفردات : ٤٩٠ ، ٤٩١ ، وأبو السعود : ١٦١/١ .

التوبة والايهـان ، وتقبل قالا ذلك هضما لأنفسهما ، وارشادا
لذريتهما (٩٠) ٠٠٠٠

والأمر ميسور ، فهذا دعاء ، والدعاء مخ العبد ، ولا يشترط
لطلب التوبة وجرد ذنب ، فقاد كان نبينا ﷺ كثير الاستغفار ، مع أن
الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكان يقول : أفلا أكون عبدا
تسكورا ؟ وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر
من سبعين مرة (٩١) •

والتوبة تختلف باختلاف التائبين ، فتوبة سائر المسلمين السدم
والعزم على عدم العود، وورد المظالم اذا أمكن ، ونية الرد اذا لم يمكن،
وتربة الخراس الرجوع عن المكروهات من خواطر سوء ، والفتور فى
الأعمال ، والاتيان بالعبادة على غير وجه الكمأ ، وتوبة خواص الخراس
لرفع الدرجات ، والترقى فى المقامات ، وتوبة ابراهيم واسماعيل عليهما
السلام تدخل فى هذا القسم الأخير (٩٢) •

وذيلت الآية بتذييل صيغ على نمط لتذيل فى الآية السابقة وهو
قوله تعالى « انك أنت التواب الرحيم » وهو تعليل لدعاء ، وفيه مزيد
استدعاء للاجابة ، ومن آداب الدعاء ودواعى اجابته أن يدعو الانسان
ربه بما يناسبه من أسمائه وصفاته وفصلت هذه الجملة عما قبلها
للاستيف ، فهى تعليل لما قبلها ، وفي فصلها اشعار باستقلال التذيين
فى الافادة • أكدت الجملة بان وجىء بضمير الفصل لتأكيد ايمانها بما
تضمنته من حكم وهو أن الله عز وجل هو التواب الرحيم • وفى الجملة
قصر لصفى التواب الرحيم على الله سبحانه وتعالى • وطريق القصر

(٩٠) ينظر القرطبي : ٥١٦/١ وأبو السعود : ١٦١/١ •

(٩١) رياض الصالحين : ٦٠ •

(٩٢) الألوسى : ٣٨٦/١/١ •

تعريف المسند باللام ، وضمير الفصل يؤكد هذا انقصر ويقويه .
والمعنى : انك أنت القواب الرحيم لا غيرك .

والقواب : صيغة مبالغة من قاب ، والرحيم صيغة مبالغة من رحم ،
والصيغتان تدلان على المبالغة في وصف الله عز وجل بهاتين الصفتين ،
فهو سبحانه كثير التوبة على عبادة ، لا يرد توبة تائب منهم ، واسع
الرحمة بهم . وتقديم « القواب » على « الرحيم » لمجاورة للدعوة
بالتوبة ، ولشمول صفة الرحمة للتوبة ، ويكون « الرحيم » مناسباً
للفاصلة ، ومتلائماً مع فاصلة الآية التي قبلها والتي بعدها .

والدعاء الثالث هو « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم
آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم »
وهما يدعوان ربهما عز وجل أن يبعث في الأمة المسلمة الذي شئ من
ذريهما رسولا من أنفسهم ، يقرأ عليهم وحى الله تعالى ويعلمهم أحكام
شريعته ويظهرهم من الأرجاس الحسية والمعنوية . وفي هذا الدعاء وما
قبله تقرير للصلة التاريخية المتينة التي تربط النبي محمدا ﷺ وأمة
بذيئك النبيين الجليلين : ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . انها ليست
صلة النبوة النسبية فحسب ، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية
أيضا ، فهم من ذريتهما ، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما ، وملتهم
ملتهم وقبلتهم قبلتهما ، وه ثابتهم في حجم ثابتتهما (٩٣) .

وبدئ الدعاء بدعاء الرب سبحانه وتعالى كما سبق في الدعائين
السالفين ، وتكرير النداء مع إثارة لفظ الرب مضافا الى ضميريهما ،
لزيادة الضراعة والمبالغة في الاستعطاف واستجلاب الاجابة ، والاشارة
الى استقلال هذا الدعاء وانفراده بمضمون مغاير لما في الدعائين
السابقين .

و « فيهم » أى فى الأمة المسلمة المذكورة فى الآية السابقة ، وقيل « فيهم » دون « لهم » لتكون دعوة هذا الرسول دعوة عامة شاملة لهم ولغيرهم ، ولا تكون دعوته اليهم فقط ، وفى حذف متعلق برسولاً تأكيد لهذا العموم • وتذكير « رسولا » للتعظيم (٩٤) •

و « منهم » أى من نفس هذه الأمة المذكورة ، وفى تقييد الرسول بهذا الوصف تمحيص كونه من هذه الأمة وبذلك يكون أشفق عليهم ، ويكبروا أعزبه وأشرف وأقرب للاجابة ، لأنهم يعرفون منشأ وصدقته وأمانته (٩٥) •

ولا يعنى عن هذا القيد قوله « فيهم » فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث عنهم (٩٦) • وكان هذا الرسول هو خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ ، وفى الآية ما يشير الى ذلك ، فإنه ﷺ هو الرسول الوحيد من ذرية إبراهيم واسماعيل معا عليهما السلام وغيره من أنبياء بنى اسرائيل ليس من ذرية اسماعيل • وروى الامام أحمد عن العرباض رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : سأخبركم بأول أمرى : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى (٩٧) •

ويعد أن بينت الدعوة أصل هذا الرسول ونسبه بوصفه بأنه منهم بينت وظيفته المنوطة به وعمله الذى سينهض به فوصفته بثلاث صفات « يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فوظيفة هذا الرسول العظيم أن يبلغهم ويقرأ عليهم وحى الله تعالى ، الدال على الوهيته ، وصفاته القدسية ، وطريقة المستقيم ، ويفهمهم حقائق

(٩٤) ينظر التحرير والتنوير : ٧٢٢/١ •

(٩٥) الألوسى : ٣٨٦/١/١ •

(٩٦) حاشية الشهاب : ٢٣٩١ •

(٩٧) حاشية الشهاب : ٢٣٩/١ •

وأسرار الكتاب الذى يتنزل عليه ، ويعرفهم أحكام الشريعة ومقاصدها ،
ويضع الأشياء موضعها الصحيح ، ويظهرهم عن دنس الشرك ، وسائر
الأرجاس الحسية والمعنوية (٩٨) •

وهذا الدعاء يتفق مع ما جاء فى وصف رسولنا الكريم محمد ﷺ
فى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٩٩) • وهذا دليل آخر
على أن الرسول الذى أجيب به دعوتها هو خاتم النبيين محمد ﷺ •
وفى التعبير بالمضارع فى « يتلون » و « يعلم » و « يزكى » إشارة
إلى تجدد هذه الأفعال وتكررها بتكرر الوحي الالهى • وفى تقديم الجار
والمجرور « عليهم » على المفعول الصريح عناية واهتمام ببيان من
يتلقى عليهم • وفى ذكر « الكتاب » ائذان بأن يكون الرسول المطاوب
صاحب كتاب يخرجهم من الظلمات الى النور ، وكان هذا الكتاب هو
القرآن الكريم • والحكمة تشتمل على ما فى الكتاب وغيره مما يبينه
الرسول ﷺ ، وعطفها على الكتاب من عطف العام على الخاص ، لافادة
العموم والشمول •

وجاءت الجمل الثلاث موصولة للقوسط بين الكمالين • حيث
تتحد فى الخبرية مع التناسب بينها • وقد رتب هذه الجمل فى الذكر
على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ، ثم
يكون تعليم معانيه ، ثم العلم تحصن به الفكرية ، وهى فى العمل بارشاد
القرآن الكريم (١٠٠) •

وذيلت الآية بتذييل مناسب لها ، صيغ على نمط ما ذيلت به
الآيتين السابقتان « اذك أذت العزيز الحكيم » وفى هذا التذييل ثناء على

(٩٨) ينظر الكشف : ٣١٢/١ •

(٩٩) الجمعة : ٢

(١٠٠) التحرير والتنوير : ٧٢٣/١ •

الله تعالى بأسمائه وصفاته المناسبة للدعاء، استجلاباً للاجابة، واستدعاءً لقبول . وقد فصل عما سبقه للاستئناف وفي الفصل السابقة الى استدلال جملة انتذيل في الافادة .

و « العزيز » الغالب الذي لا يغلب ولا يقهر على ما يريد ، و « الحكيم » الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تدليل للدعاء المذكور واجابة المسئول . فان وصف الحكمة مقتضى لافاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول ، ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة (١٠١) .

وقد أكدت الجملة بان وحى بضمير الفصل لظهور يقينهما التام بضمه ونها ، وقصرت العزة والحكمة على الله تعالى عن طريق تعريف المسند باللام ، وأكد القصر بضمير الفصل ، فانه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم لا غيره .

وبهذا تنتهى الأدعية الثلاثة التى حكيت عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام عندما كانا بينيان الكعبة المشرفة . وقد وردت هذه الأدعية فى ثلاث آيات ، وجاءت مرتبة حسب أولويتها ، فاشتملت الآية الأولى على دعاء خاص بهما ويتعلق بالحالة التى كانا يدعوان فيها ، وهو أن يقبل الله تعالى عملهما ودعاءهما . واشتملت الآية الثانية على دعاء يشملهما ويشمل ذريتهما وهو الهداية الى الاسلام ، وتعليم الناسك ، وقبول التوبة . واشتمت الآية الثالثة على دعاء خاص بذريتهما فى المستقبل ، وهو أن يبعث الله عز وجل فى ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته وبعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

وقد ذلت كل آية من هذه الآيات بتذيل يتناسب مع ما تحويه من دعاء ، ففى الآية الأولى دعاء بقبول العمل والدعاء ، وهذا يناسب السمع والعلم ومن ثم ذلت الآية بقوله تعالى « انك أنت السميع العليم »

وفي الآية الثانية دعاء بالهداية وقبول التوبة ، وهذا يناسبه التوبة والرحمة ، ومن ثم ذيلت الآية بقوله تعالى « انك أنت التواب الرحيم » وفي الآية الثالثة دعاء ببعث رسول منهم ، وهذا يناسبه العزة والحكمة ، ومن ثم ذيلت الآية بقوله تعالى « انك أنت العزيز الحكيم » .

وقد صيغت التذييلات الثلاثة صياغة قوية وعلى نمط تعبيرى واحد ، مشتمل على تأكيدات مختلفة ، ومفيد للتخصيص .

وهنا يتبادر سؤال : هل ترتيب الحوادث المحكية من أول الحلقة ترتيب زمانى ؟ أو غير ذلك ؟ والجواب عن ذلك : أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يقص الحوادث حسب تاريخ وقوعها ، انما هو كتاب هداية وتشريعات ، وعبر وعظات ، وليس بالضرورة أن تحكى الحوادث فيه وفق ترتيب وقوعها . وقد حاول أبو السعود أن يرتب هذه الحوادث المحكية بناء على الظاهر ، ويبين سر الترتيب الذى وردت عليه فى القرآن الكريم فقال : واعلم أن الظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ، ثم دعاء البلدية والأمن ، وما يتعلق به ، ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ، ثم جعله مثابة للناس ، والأمر بتطهيره . ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية ، لنظم الشعون الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ، ونظم الأمور الواقعة من جهة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال فى سلك آخر . وأما قوله تعالى « ومن كفر ... » الخ فانما وقع فى تضاعيف الأحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء المقام ، واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك ، بحيث لم يكن بد منه أصلاً ، كما أن وقوع قوله عليه السلام « ومن ذريتى » فى خلال كلامه سبحانه اذلك (١٠٢) .

ومما يؤيد مجيئها على غير الترتيب الوقوعى بدء كل آية بداية

تشعر بامتثالها في الحكاية ، وانفرادها بالذكير بها ، حيث بددت كل آية ماذ « واذ ابتلى ابراهيم ربه » « واذ جعلنا البيت » « واذ قال ابراهيم » « واذ يرفع ابراهيم القواعد » •

ملة ابراهيم وفضله :

ويعد بيان ما يتعلق بابتلاء ابراهيم عليه السلام ، وبناء وتطهير البيت الحرام ، وحكاية دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، تمضي الآيات في الانكار على من يرغبون عن ملة ابراهيم وهو المصطفى عند الله تعالى ، والذي أسلم لرب العالمين « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اضطربناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » • وموقع هذه الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل ، فانه لما بين فضائل ابراهيم من قوله « واذ ابتلى » الى هنا ، علم أن صاحب هذه الفضائل لا يعدل عن دينه والافتداء به الا سفيه العقل أفن الرأي (١٠٣) •

والاستفهام في قوله « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفا نفسه » يفيد الانكار التوبيخي ، واستبعاد أن يكون في العقلاء من يرغب عن ملة ابراهيم التي هي الحق الواضح ، أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء الا من سفه نفسه (١٠٤) •

والرغبة : طلب أمر محبوب ، ورغبة في الشيء اذا أردته ، ورغبة عن الشيء اذا لم ترده ، وزهدت فيه ، وكرهته (١٠٥) • وملة ابراهيم دينه ، وقد كان عليه السلام حنيفا مسلما كما قال جل شأنه « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من

• (١٠٣) التحرير والتنوير : ٧٢٤/١

• (١٠٤) الكشف : ٣١٢/١

• (١٠٥) الصحاح : مادة « رغب » •

المشركين» (١٠٦) • وإضافة الملة الى ابراهيم إضافة مجازية ، وذلك لأنه لما أوحى بها اليه ، وآمن بها ، ودعا الناس اليها ، ودافع عنها ، وعذب من أجله على أيدي الكافرين ، نسبت اليه •

وسفه نفسه أى امتنها واستخف بها ، والسفه فى الأصل : خفة فى البدن ، ومنه قيل زمام سفيه أى كثير الاضطراب ، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل فقول : سفه نفسه • وانتصاب نفسه اما على أنها مفعول به: أى أهملها واستخفها ولم يبال باضاعتها دنيا وأخرى ، واما على التمييز المحول عن الفاعل ، وأظله سفهت نفسه بالرفع أى خفت وطاشت ، فحول الاسناد الى صاحب النفس على طريقة الإجازة العقلية للملابسة قصدا للمبالغة ، وهى أن السفاهة سرت من النفس الى صاحبها من شدة تمكنها بنفسه حتى صارت صفة لجثمانه ، ثم انتصب الفاعل على التمييز تفسيراً لذلك الابهام فى الاسناد المحاذى (١٠٧) • والجملة منية على القصر ، حيث قصرت الرغبة عن ملة ابراهيم على من سفه نفسه ، عن طريق النفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى والاستثناء بالآ ، وهو قصر صفة على موصوف على سبيل الحقيقة ، فلا يرغب عن ملة ابراهيم أحد إلا من استخف نفسه وامتنها ولم يبال بسلاستها ، وقد أفاد القصر الإيجاز ، وأكد الحكم الذى تضمنته الجملة تأكيداً قوياً ، كما أوجد التجانس بين « سفه » و « نفسه » وقعا أخذاً ، وأسبغ على الجملة جزالة تضاف الى ما فى نظمها من تلاؤم وقوة •

وفى الجملة توبييح لليهود والنصارى ومشركى العرب ، وتعميضى بهم ، حيث أعرضوا عن دعوة الرسول ﷺ ولم يتبعوه ، مع أن ملته

(١٠٦) آل عمران : ٦٧ •

(١٠٧) المفردات : ٢٣٤ ، والكشاف : ٣١٢/١ ، والتحرير والنوير

• ٧٢٦/١

هى ملة أبيهم ابراهيم الذى ينسبون اليه ، ويفخرون بذلك ، فكيف يرغبون عنها ؟!

وعلى الحكم الذى تضمنته جملة القصر وقرر بجداً : الأولى تبين مكانته فى الدنيا وهى « ولقد اصطفيناه فى الدين » أى اختارناه فى الدنيا بالنبوة والحكمة وامامة الناس • والوارى اعتراضية ، واللام واقعه فى جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق أى وبالله لقد اصطفيناه • والجملة تعليل لجملة القصر السابقة ، ومقررة لمضمونها ، وأكدت بالقسم واللام وقد لتأكيد اصطفائه فى الدنيا تأكيداً قوياً فى مواجهة من يرغبون عن ملته •

والثانية تبين فضله فى الآخرة وهى « وانه فى الآخرة لمن الصالحين » أى وهو فى الآخرة من المشهود لهم بنجات على الاستقامة والخير والصلاح • والجملة معطوفة على سابقتها داخلية فى حيز القسم ، مؤكدة لمضمونها مقررة لما تقرره • وأكدت بان واللام زيادة على القسم السابق لأنها من الأمور الأخروية ، وهى غيب خفى عن المخاطبين ، فحاجتها الى التأكيد أشد من الأمور التى تشاهد آثارها ، أما الاضطرار فى الدنيا فقد شاهده وقتها جيل بعد جيل (١٠٨) • وقدم الجار والمجرور « فى الآخرة » على الخبر للعناية والاهتمام ببيان مكان وزمان الحكم الذى تضمنته الجملة ، نظراً لأهمية الآخرة وعلو مكانتها على الدنيا ، وشوق الناس لمعرفة مصيرهم فيها ، وللملاءمة « الصالحين » لافراد انقرآنية •

وايراد الجملة الأولى فعلية ماضوية لمضيها من وقت الاخبار ، ومجىء الثانية اسمية لعدم تقييدها بالزمان ، لأن انتظامه فى زمرة

(١٠٨) أبو السعود : ١/١٦٣ ، والفتوحات الالهية : ١/١٠٩ •

صالحى أهل الآخرة أمور مستمر في الدارين لا أنه يحدث في الآخرة (١٠٩) •

ومما أوردناه من اختلاف في نظم الجنتين يتجلى لنا قانون التعبير في القرآن الكريم ، وهذه خاصية من خصائص نظمه المعجز ، تنحج إلى دراسة مفصلة •

وبين الآيات علة اصطفاؤه وجعله من الصالحين « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » أى اصطفاه الله حين أمره بالاخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب الى ذلك على الفور (١١٠) • و « اذ » ظرف لاصطفاؤه • ومفعول « أسلم » « ومعلقة محذوفان نطمعها من المقام والتقدير : أسلم وجهك أى ، وقد دل الجواب « أسلمت لرب العالمين » على ذلك ، وفى حذفها إيجاز مع تنزيل المتعدى منزلة الم لازم ، لاثبات أمره بالاسلام على الإطلاق دون اعتبار تعلقه بمن وقع عليه •

وفى الجملة التفات من التكلم فى « اصطفاؤه » الى الغيبة فى « قال له ربه » والاسم الظاهر من قبيل الغيبة • وفى الالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية وضافته الى ضميره عليه السلام لاضهار مزيد اللطف به ، والاعتناء بتربيته (١١١) وتوجيهه الى الطريق المستقيم •

واجاب ابراهيم عليه السلام أمر ربه تعالى على وجه السرعة « قال أسلمت لرب العالمين » والفصل بينه وبين سابقه للاستئناف ، على تقدير سؤال يقتضيه المقام ، أى : فماذا قال ابراهيم حين أمر ربه بالاسلام ؟ وجاء الجواب « قال أسلمت لرب العالمين » • ومجىء

(١٠٩) الألوسى : ٣٨٨/١/١

(١١٠) ابن كثير : ١٨٥/١ - والفريسي : ٥١٩/١ •

(١١١) أبو السعود : ١٦٢/١ •

الآلام على هيئة الأمر وجوابه مشعر بأنه بادر بالاجابة على الفور دون
تريث • وقل « أسلمت لرب العالمين » دون أن يقول : أسلمت أو أسلمت
لك ، ليكون قد أتى بالاسلام وبدليله (١١٢) • واضافة الرب في جوابه
عليه السلام الى العالمين للايذان بكمال قوة اسلامه ، حيث أيقن حين
النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو
المأمور به (١١٣) •

واختلف في وقت قول الله تعالى ذلك لابراهيم ، فقيل قبل النبوة ،
وقيل بعدها ، كما اختلف في هذا القول أهو على سبيل الحقيقة أم على
سبيل التمثيل ، فقيل انه على سبيل الحقيقة ، وقيل هذا على سبيل
التمثيل ، والمعنى أخطر بباله الدلائل المؤيدة الى المعرفة ، واستدل بها
وأدعن بمداولاتها ، الا أنه سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بالقولين
تصويرا لسرعة الانتقال بسرعة الاجابة • وعلى هذا فالمراد من القول
ليس نفس القول بل دلالة الدليل عليه على حسب مذاهب العرب في
هذا تقول الشاعر :

امتلا الحوض وقال قطنى مهلاً رويدا قد ملأت بطناً
وكما في قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا
به يشركون » (١١٤) فجعل دلالة البرهان كلاماً (١١٥) •

وصية ابراهيم لابنيه :

وتواصل الآيات عرض فضائل ابراهيم عليه السلام وهماقبه ،
فتذكر سعيه في هداية غيره الى الاسلام ، وحثهم على التمسك به ، بعد

(١١٢) التحرير والتنوير : ٧٢٧/١ •

(١١٣) أبو السعود : ١٦٣/١ •

(١١٤) الروم ٣٥ •

(١١٥) الرازي ٤٨٧/١ ، والآلوسي ٣٨٨/١/١ •

أن يثبت إسلامه وتمسكه بالانقياد لرب العالمين « ووصى بها إبراهيم
بنبيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم
مسلمون » •

والتوصية : التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح ، وأصلها
الوصل من قولهم : وصت الأرض ، إذا اتصل نباتها ، وأرض وافية :
متصلة انشبات (١١٦) • ووصاه إذا وصله ، كأن الموصى يصل ، فعله
بفعل النهى • والتوصية أبلغ من الأمر أو النهى ، لأنها تتعلق بصلاح
المخاطب وتحقيق الخير له عن أى طريق أمرا أو نهيا ، فعلا أو قولاً ،
وذلك تطلق حيث يخاف الموت ، ويشيع استعمالها عند توقع الموت ،
وكثيرا ما يوصى الناس حالة الاحتضار ، ووصية إبراهيم عليه السلام
كانت عند توقع الموت كما يدل عليه قوله تعالى في الآية التالية « إذ
حضر يعقوب الموت » (١١٧) ولذلك لم يكن التعبير أمر لما قدمناه ،
ولأن لفظ الوصية تؤكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ،
وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فإذا عرف أنه
عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتما بهذا الأمر متشددا فيه كان القوم
إلى قبوله أقرب (١١٨) •

والضمير في « بها » عائد لقوله : « أسلمت لرب العالمين » على
تأويل الكلمة والجملة ، أو عائد إلى الملة في قوله « ومن يرغب عن ملة
إبراهيم » • وتقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول للعناية
والاهتمام ببيان مضمون الوصية ، كما أن في تقديمه جزالة لا تتحقق
مع تأخيرها •

(١١٦) الصحاح مادة : وصى •

(١١٧) ينظر التحرير والتنوير ٧٢٧/١

(١١٨) الرازي ٤٨٧/١

و « بنيه » مفعول به : « ويعقوب » معطوف على « ابراهيم » داخل في حكمه ، أى : ووصى بها يعقوب بنيه أيضا ، وفريء بالذنب عطا على بنيه أى : ووصى بها ابراهيم بنيه وثاغلته يعقوب (١١٩) ، فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصاهم ابراهيم عليه السلام ، وفي ذكر يعقوب تذكير لبنى اسرائيل بوصية جدهم ، وفيه تعريض بهم لأعراضهم عن دين الاسلام ، وهو ملة ابراهيم ويعقوب ووصيتهما : وخص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقة على غيرهم ، ومن ثم وصاهم بهذه الوصية الخاصة ، وغيرهم من الناس منتظمون في دعوته العامة الى الاسلام .

وتحتى الآية وصية ابراهيم لبنيه ، وهى تشتمل على جملة خبرية وجملة انشائية فأما الجملة الخبرية فسبقت ببناء ، وهى « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين » وهذه الجملة تتضمن حكما هاما بالنسبة لهم ، وتعتبر مقدمة تترتب عليها الجملة الانشائية التى تأتى بعدها والى الكلام على اضممار القول عند البحرىين ، أى قال أو قائلا : يا بنى وعند الكوفيين متعلق بوصى لأنه فى معنى القول ، فلا حاجة الى الاضممار ، وعلى اضممار القول يكون التعبير مصورا لابراهيم عليه السلام وهو حاضر يخاطب بنيه ، وناطقا بحديثه اليهم . وفى النداء افت لأسماعهم وعقولهم ، وتثبيبه على أن ما يلقى اليهم أمر لله شأنه ، فعليهم أن يعوه جيدا ، ويلتزموا بما فيه . وفى ندائهم بأداة البعيد اشارة الى علو منزلتهم عنده ، ورفعة شأنهم اديه . وفى لفظ « بنى » اظهر لشفقته عليهم ، ومزيد لطفه بهم ، وحرصه على مستقبلهم .

والاصطفاء : الاختيار ، والدين : هو الاسلام ، وهو ملة ابراهيم عليه السلام ، وتعريفه باللام يدل على كماله وتمامه ، أى الدين

الكامل التام ، كما يشير الى أن الدين أحقاره الله لعباده دين واحد متعين ، وهو دين الاسلام الذى به يتم الاحلاص لله تعالى ، ويتحقق الانقياد له ، وتقديم « اكم » للمسارعة ببيان أن هذا الاصطفاء لهم ، وفائدته عائدة عليهم ، ومن ثم يجب عليهم التمسك به . وتأکید الجملة لتأيد اثبات مضمونها ، كى لا تعرض لبنية أثره من ريبة في عذا الامر الجليل .

وأما الجملة الانشائية فهي « فلا تهوتن الا وأنتم مسلمون » وهي نتيجة مترتبة عن الجملة الخبرية ومبنية عليها . والفاء السببية المحضة (١٢٠) . ومعنى الجملة : النهى عن مفارقة الاسلام في جميع أوقات حالهم الى أن يموتوا عليه ، وذلك كناية عن ما تضمنه مدة الحياة لأن الحى لا يدري متى يأتيه الموت ، فنهى أحد عن أن يموت غير مسلم ، أمر بالاتصاف بالاسلام في جميع أوقات الحياة ، فالمراد من هذا النهى شدة الحرص على ترك المنهى عنه (١٢١) .

وقد بين الزمخشري معنى هذه الجملة ووضحها يشرح جيد فقال: المعنى : لا يكن هـ وتكم الا على حال كونكم ثابتين على الاسلام ، فالنهى في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الاسلام اذا ماتوا ، كقولك : لا تصل الا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . فان قلت : فأى نكته في ادخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت : النكته فيه اظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : ألهاك عنها اذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى الى قوله عليه الصلاة والسلام « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » فانه كالتمريح بقولك لجار المسجد : لا تصل الا في المسجد

(١٢٠) معنى اللبيب ١/ ١٦٧ .

(١٢١) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٩ .

وكذلك المعنى في الآية : اظهر أن موتهم لا على حال الثبات على الاسلام
موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن منح هذا الموت
ألا يحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضا : مت وأنت شهيد ، وليس مرادك
الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته
بالموت اعتقادا منك بميتته ، واظهارا لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن
يحث عليها (١٢٢) •

ومن هذا نرى أنه قد يكون النهى عن الفعل دالا على شدة الرغبة
في وقوعه موصوفا بصفة معينة، حتى كأنه بدون هذه الصفة منهى عنه ،
وفي هذه الحالة تكون أداة الاستثناء مع النهى (١٢٣) وهذا سر دقيق
من أسرار النهى يكمن في صياغته على نمط تعبيرى معين مثله الحملة
القرآنية •

والجملة أسلوب قصر طريقته النهى المستفاد من النهى والاستثناء
وهو قصر صفة على موصوف ، وهو يؤكد الحكم الذى تضمنته الجملة
وهو حثهم على التمسك بالاسلام طوال حياتهم وعدم الموت على غيره،
وأكد النهى بذون التوكيد الثقيلة اللاحقة للفعل ، والواو للحال ،
و « أناتم مسلمون » جملة في محل نصب حال ، والتعبير القرآنى أبلغ
من قولنا لا تهوتن الا مسلمين ، لأن المقصور عليه في الآية جملة
اسمية تفيد حكما كاملا ثابتا ، وهؤكدة بتكرير الضمير « أنتم » الذى
أكد الضمير المستتر في الفعل •

وصية يعقوب ابنه :

وتعرض الآيات وصية يعقوب عليه السلام ابنه .
وصية جد ابراهيم عليه السلام ، حيث أشير الى يعقوب و
في

(١١٢) الكشف ١/ ٣١٣ •

(١٢٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري ٣١١ •

الآية السابقة « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » وفي بيان الوصية يعقرب جاء قوله تعالى : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » •

و « أم » عطف جملة « كنتم شهداء » على جملة « ووصى بها » والمشهور أنها منقطعة (١٢٤) بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى. بل أنتم شهداء • فتفديد الأضراب عن الكلام السابق وهو بيان الوصية الى مجادلة اليهود وابطال زعمهم فى ادعائهم اليهودية على يعقوب وابنائهم كما تفيد الإنكار والتوبيخ • والخطاب «وجه انى اليهود : حيث كانوا يدعون أن يعقرب مات على اليهودية وأوصى بها بنيه فلزمت ذريته • فأنكر عليهم ذلك • والمعنى : ما كنتم شهداء احتضار يعقوب عليه السلام ووصيته لبنيه ، فلم تدعون ما تدعون ؟! ثم أكمل الله تعالى القصة تعليما وتفصيلا واستقصاء فى الحجة بأن ذكر ما قاله يعقوب حين احتضاره ، وما أجابه أبناؤه به ، وليس ذلك بداخل فى حيز الإنكار فالإنكار ينتهى عند قوله « الموت » والبقية تكلمة القصة (١٢٥) •

وهذا من الإيجز والاكمال ، اذ جمع الإنكار عليهم فى القول على أن لم يشهدوه ، وتعليمهم ما جملوه (١٢٦) •

والشهداء : جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر للأمر والشاهد له وحضور الواقعة أقوى دليل على معرفة ما دار فيها ، ومن ثم كانت الشهادة فى مقدمة طرق الإثبات فى الشرع والقانون • وانقضاء مشاهدة المخاطبين ليعقوب وسمعهم لوصيته عند الموت يثير الشك فيما

(١٢٤) وقيل أنها متصلة • وفيها تفصيلات ، تراجع فى الكشف ٣١٤/١

والألوسى ٣٩٠/١/١ ، والشهاب ٢٤١/١ وغيرها •

(١٢٥) ينظر الألوسى ٣٩٠/١/١ والتحرير والتنوير ٧٣٠/١ •

(١٢٦) التحرير والتنوير ٧٣١/١ •

يقولونه عند « . ويبتذل زعمهم فيما ينسبونه إليه : اعدم وجود دليل آخر عليه .

والمراد من حضور الموت هشارفته أو حضور أسبابه وظهور آماراته من العلل والأمراض ، والموت : فاعل مؤخر ، ويعقوب : مفعول مقدم ، ونقديمه للعناية ببيان من حضره الموت ، وفيه تشويق للفاعل ليتمكن في النفس عندما يرد عليها . وفي حضور الموت استعارة مكنية مبنية على تشبيه الموت بمن يحضر ، وحذف المشبه به ، وإثبات لازمه وهو الحضور للمشبه ، وفي هذا تصوير تاموت في صورة شخص قوى يحضر الى الناس ويسلبهم حياتهم .

و « اذ قال لبيته » بدل اشتمال من « اذ حضر » والبدل والمبدل منه مقصودان بالحكم ، وفي البدل زيادة بيان ليست في المبدل منه . وفي مجيء التعبير على هذه الصورة دون أن يقال : أم كنتم شهداء اذ قال يعقوب لبيته عند الموت ، يشعر باستقلال الخبر ، وأهمية القصة وتصد حكايتها على ترتيب حصولها ، وقصد الاجمال ثم التفصيل ، لأن حالة حضور الموت لا تتأخر من حدث هام سيحكي بعدها فيترغبها السامع (١٢٧) .

وقوله « ما تعبدون من بعدى » أى أى شئ تعبدونه بعد «وتى» ، و « ما » في محل رفع والعائد محذوف ، وهذا أولى من جعلها في محل نصب على المفعولية ، لأن الرفع مقيد لتقوى المتألم للمقام ، وجيء في السؤال بما الاستهامية دون « من » لأن « ما » هي الأصل عند قصد العموم ، لأنه سألهم عما يمكن أن يعبدوه . وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر أولا مقدار ثباتهم على الدين ويطلع على خالص طريقتهم ، نيلقى اليهم الوصية المناسبة لهم . وفي السؤال

عن حالهم بعد موته دليل على أن الغرض حثهم على ما كانوا عليه حال حياتهم من التوحيّد والإسلام ، وأخذ الميثاق منهم عليه ، وعلى هذا فالاستفهام ليس حقيقياً ، وفي مجيء « مى » قبل الضرف « بعدى » تأكيد لضمونه (١٢٨) •

يذكر القرآن جوابهم عن سؤال أبيهم « فمادّا قال بنوه ؟ ويرى الشيخ ابن عاشور أن الفصل وقع على طريقة المحاورات بدون واو وليست الجملة استئنافية ، لأن الاستئناف بعد تمام الكلام ، ولا تمام له قبل حصول الجواب (١٢٩) •

وكلام ابن عاشور فيه وصف لظاهرة دون تعليلها ، فانفصل يقع في المحاورات وحكايتها • ولكن التعليل لهذه الظاهرة هو ما ذكره البلاغيون في حديثهم عن الفصل للاستئناف • والاستئناف البياني لا يشترط فيه تمام الكلام ، لأنه قائم على الاتصال بما قبله اتصال الجواب بالسؤال •

و « الهك » مفعول به ، وتعريفه بالاضافة دون التعبير بالاسم العلم بأن يقولوا نعبّد الله ، لأن اضافته الى ضمير يعقوب وآبائه تفيد انبات جميع الصفات القدسية التي كن يعقرب وآباؤه يثبوتونها الله تعالى كما أن فيه ايماء الى أنهم مقتدون بسلفهم ، و متمسكون بالملة القيومية التي ورثوها عنهم • وفي عطف « الهك » على « الهك » دون الاقتصار على « الهك » اشارة اتفاق الجميع على وجود اله واحد مستحق للعبادة هو الله عز وجل (١٣٠) •

(١٢٨) ينظر الألوسى ٣٩١/١/١ التحرير والتنوير ٧٣٢/١

(١٢٩) التحرير والتنوير ٧٣٣/١

(١٣٠) ينظر السابق والألوسى ٣٩١/١/١

و « ابراهيم » وما عطف عليه ، عطف بين يوضح المقصودين من آيائه ، وهم الأنبياء المذكورون دون غيرهم ، إذ يوجد من آيائه الأقدمين من لم يؤمن بالله تعالى كآزر • وذكر ابن عاشور أن فيه ضربا من محسن الاطراد تنويها بأسماء هؤلاء الأسلاف (١٣١) • والاطراد عند البلاغيين : أن تطرد للشاعر أسماء منتزعية يزيد المذروح بها تعريفا ، لأنها لا تكون الا أسماء آيائه تأتي منسوبة صحيحة التسلسل غير منفذعة مع عدم ظهور كلفة على النظم ، ولا تعسف في السبك بحيث يشبه تحدرها باطراد الماء لسهولة وانسجامه • ومثل له ابن أبي اصبح بقوله تعالى : « واتبعت ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب » (١٣٢) حكاية عن يوسف عليه السلام (١٣٣) • وإدراج اسماعيل في آيائه مع أنه عم يعقوب من باب تغليب الأكثر على الأقل • ولأن العم بمنزلة الأب ، وينخرطان في سلك واحد وهو الاخوة ، فأطلق عليه لفظه ، وقدم « اسماعيل » في الذكر على « اسحاق » لكونه أسن منه (١٣٤) •

و « الها واحدا » بدل من « اله آباءك » وفائدته دفع توهم التعدد الناشئ من ذكر الاله مرتين ، وتوضيح صفة الاله الذى يعبدونه • وفى اعادة لفظ الاله ، وعدم الاختصار على الوصف « واحدا » زيادة إيضاح ، لأن المقام مقام اطناب ففى الاعادة تنويه بالمعاد ، وتوكيد لما قبله • وهذا أسلوب من الفصاحة ، إذ يعاد اللفظ لينبى عليه وصف أو متعلق ، ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعا ، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد ، ومنه قوله تعالى : « واذا مروا باللغو مروا كراما » (١٣٥)

(١٣١) التحرير والتنوير ٧٣٣/١ •

(١٣٢) يوسف ٣٨ •

(١٣٣) بديع القرآن ١٤١ • وينظر خزانة الادب ٣٥١/١ •

(١٣٤) الألوسى ٣٩١/١/١ • (١٣٥) الفرقان ٧٢ •

ويقوله تعالى (١٣٦) : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » (١٣٧) •

ويقوله « ونحن له مسلمون » جملة في محل نصب حال من ضمير « نعبد » أن من هفعوله لرجوع الهاء اليه في « له » ويجوز أن تكون جملة معطوفة على جملة « نعبد » وجاء بها اسمية لافادة ثبوت الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار ، ويجوز أن تكون اعتراضية مؤكدة أى ومن حالنا انما له مسلمون مخلصون (١٣٨) •

و « نحن » ضمير يؤكد الضمير المستتر في « نعبد » وفي تكريره بارزا اشعار باستقلال الجملة ، وتأيد للحكم الذى تضمنته • وتقديم الجار والمجرور « له » على ما تعلق به يفيد التخصيص ، أى ونحن له مسلمون لا غيرهم • وفي مجيء الخبر اسم فاعل يشير الى ثبوت اسلامهم واستمرارهم عليه •

الخاتمة :

وتختتم هذه الحلقة بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » وهى خاتمة تبين مسئلية كل انسان عن عمله ، فعليه يحاسب وبه يجازى ، ولا تنفع الأحساب ولا الأنساب •

وانما جاءت كذلك لأن آيات الحلقة تضمنت الشاء على ابراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم ، والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من دريتهم وكان ذلك قد ينتحل منه المعرورون عذرا لأنفسهم ، فيقولون نحن وان

(١٣٦) الاسراء ٧ •

(١٣٧) التحرير والتنوير ٧٣٤/١ ، والآلوسى ٢٩١/١/١ •

(١٣٨) الكشاف ٧٣٤/١ •

قصرنا فإن لنا من فضل آبائنا مسلك لنجاتنا ، فذكرت هذه الآية لافادة
أن الجزاء بالأعمال لا بالانكال (١٣٩) •

و « تلك » اشارة الى ابراهيم عليه السلام وأولاده ، وتأنيثه
باعتبار أنهم جماعة ، والاخبار عنهم باسم مؤنث « أمة » ، وفي الانسار
اليهم بأداة البعيد تعظيم لشأنهم ، وتقخير لمكانتهم •

والأمة : الجماعة ، من أم بمعنى قسدد ، وسميت كل جماعة
يجمعهم أمر ما اما دين واحد ، أو مكان واحد ، أو زمان واحد أمة ،
لأنهم يؤم بعضهم بعضا ويقتصد (١٤٠) وفي ايثار الأمة على الجماعة
اشعاره بشدة وحدتهم ، وقوة رابطتهم النسبية والدينية ، ولتناسبها
مع ما تقدم في ادعاء ابراهيم عليه السلام « ومن ذريتنا أمة مسلمة
للك » •

والخاو : المضي ، و « قد خلت » أى : مضت ، و « قد » لتحقيق
مضمون الجملة وتأكيده وايثار الخلو على المضي لما فيه من اشارة الى
تجريهم من الحياة ، وترك المكان خاليا لمن قدموا بعدهم (١٤١) وهم
المخاطبون ، الذين عليهم أن يعتبروا بأحوال من خلوا قبلهم ، لأنهم
سيخلون مثلهم ، ويتركون الساحة لغيرهم •

وأصل الخلاء الفراغ ، فأصل معنى « خلت » خلا منها المكان
فأسند الخلو الى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة المبالغة
وهذا الخبر كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة ، والا فأن
تكونها خلت مما لا يحتاج الى الاخبار به (١٤٢) •

(١٣٩) التحرير والتنوير ٧٣٥/١ •

(١٤٠) ينظر مقاييس اللغة مادة : أم ، والألوسی ٣٩١/١/١ •

(١٤١) ينظر مقاييس اللغة مادة : خلو •

(١٤٢) التحرير والتنوير ٧٣٥/١ •

وقوله تعالى « لها ما كسبت وكنتم ما كسبتم » استئناف ، لبيان اختصاص كل أمة بجزاء ما عملت ، أو بدل من جملة « خلت » يفصل ما أجملته •

وتقديم المسند على المسند اليه في كل من الجولتين يفيد قصر المسند اليه على المسند ، أى : ما كسبته الأمة مقصور عليها لا يتجاوزها إلى غيرها ، وما كسبتموه مقصور عليكم لا يتجاوزكم إلى غيركم ، وهو قصر موصوف على صفة ، قصرا اضافيا لقلب اعتقاد مخاطبين ، فانهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي ، أو يحمله عنه أسلافهم (١٤٣) •

ويمكن حمل الجملة الأولى على معنى : لها ما كسبته لا يتخذها إلى غيرها ، والثانية على معنى : ولكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فيختلف القصران لاقتضاء المقام ذلك (١٤٤) ، حيث أنهم يظنون في كسب غيرهم ويتكلمون عليه •

وقد قرر البلاغيون أن أغراض تقديم المسند على المسند اليه تخصيصه بالمسند اليه ، أى قصر المسند اليه على المسند ، ومن ثم قالوا في قوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » (١٤٥) أن معناه دينكم مقصور على الاتصاف بلکم لا يتصف بلى ، ودينى مقصور على الاتصاف بلى لا يتصف بلکم (١٤٦) •

ومادة كسب تدل على ابتغاء وطلب واصابة ، والكسب طلب الرزق (١٤٧) والمراد بالكسب فى الآية ثواب الأعمال ، ففى الكلام ايجاز

• (١٤٣) ينظر التحرير والتنوير ٧٣٥/١

• (١٤٤) الألوسى ٣٩١/١/١

• (١٤٥) الكافرون ٦

• (١٤٦) المفلول ١٨٤

• (١٤٧) ينظر مقاييس اللغة والصحاح مادة كسب

بالحذف : أى ها جزاء ما كسبت ولكم جزاء ما كسبتم • أو هو من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالكسب عن الجزاء لما بينهما من سببية وفى التعبير بالكسب لا بجزاء الكسب مسارعة الى بيان أن الجزاء من جنس الكسب ، فكل أمة تأخذ ما كسبته •

وقوله تعالى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » معطوف على ما سبق . وفى بيان صلته بما قبله قال الأوسى : ان أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، وان أريد به مسببه وهو الجزاء فالجملة تذييل لتتميم ما قبله (١٤٨) •

وقال الشيخ ابن عاشور : هو من تمام التفصيل لمعنى « خلوت » فان جعلت « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » خاصا بالأعمال الصالحة فقول « ولا تسألون ... » تكميل للأقسام أى وعلى كل ما عمل من الاثم ، ولذلك عبر هناك بالكسب المتعارف فى الادخار وعبر هنا بالعمل وان جعل « ولكم ما كسبتم » مراداً به الأعمال الذميمة فيكون « ولا تسألون ... » احتراساً واستيفاء لتحقيق معنى الاختصاص ، أى كل فريق مختص به عمله أو تبعته ، ولا يلحق الآخر من ذلك شئ وانما نفى السؤال عن العمل لأنه أقل أنواع المؤاخذه فان الانسان يسأل ثم يعاقب ، وقد يسأل عن جريمة غيره ولا يعاقب كما يلام القوم على فعل بعضهم ، فنفى أصل السؤال أبلغ وأشمل للأمريين (١٤٩) •

وعلى هذا النحو البديع يأتى ختام هذه الحلقة ، وهو ختام فيه من الحسن والتناسب ما فيه ، حيث يشير الى النهاية المحتومة لكل انسان ، ورجوعه الى الله تعالى ليسأل عن عمله فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

(١٤٨) الأوسى ٣٩٢/١/١ •

(١٤٩) التحرير والتنوير ٧٢٦/١ •

وبعد هذا الختام تأتي آيات تتعلق بابراهيم عليه السلام وتحت
الرسول ﷺ والمؤمنين على اتباع ملته وهى قوله تعالى « وقالوا كنونوا
هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين •
قموا آلهنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم
لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٥٠) كما تأتي آية ترد على
اليهود والنصارى ادعاءهم أن ابراهيم وذريته كانوا هودا أو نصارى
وذلك فى قوله تعالى « أم تقولون أن ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن
أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون » (١٥١) •

• (١٥٠) البقرة ١٣٥ ، ١٣٦ •

• (١٥١) البقرة ١٤٠ •

الحلقة الثالثة

وأذن في الناس بالحج

قال الله تعالى :

« وإذ برأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي
للطائفين والقائمين والركع السجود • وأذن في الناس بالحج يأتوك
رجالا وعلى كل صامر يأتين من كل فج عميق • ليتسهدوا منافع لهم
ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام
فكفروا منها وأطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم
وليطوفوا بالبيت العتيق • » (١)

بين يدى الآيات :

هذه الآيات من سورة الحج ، وهي تمثل الحلقة الثالثة فيما يتصل
بالبيت الحرام من قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد سبقَت هذه الآيات
آية نتحدث عن جريمة الكافرين في ضد الناس عن سبيل الله والمسجد
الحرام — وهو الذى جعله الله مثابة للعابدين — وتبين العقاب — الشديد
الذى ينتظر هؤلاء الكافرين • وينتظر كل من يعدل عن الطريق المستقيم
في هذا المكان المقدس ، قال تعالى : « ان الذين كفروا ويصدون عن
سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد
ومن برء فيه بالحاد بظلم اذقه من عذاب أليم » (٢) •
وتأتى هذه الآيات بعد أن جرى ذكر المسجد الحرام ، لتذكر الناس
بتاريخه القديم ، ونشأته على يدى إبراهيم عليه السلام ، وتبين الغرض
من إقامته ، والهدف من دعوة الناس للحج اليه •

(١) الحج ٢٦ - ٢٩ •

(٢) الحج ٢٥ •

ويعنى تحمل في طياتها تعريضا بهؤلاء الكافرين الذين يشركون
 بالله تعالى ، ويصدون الناس عن المسجد الحرام . ثم يدعون انهم
 أحفاد ابراهيم وأولى الناس به ، وهذا الادعاء يفرض عليهم أن يهجروا
 نهجه ، ويسلكوا طريقه في نبذ الشرك، وتطهير البيت الحرام للعابدين .
 وفي الآيات تقريع وتهويل لمن عبد غير الله وأشرك به من ترشيس
 في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده
 لا شريك له (٣) .
 تشریف وتكليف :

نبدأ الآيات بالتذكير بأمور عظيمة ، يجب الانتباه انيها ، والانعاط
 بها ، فقد بين الله تعالى مكان البيت الحرام لابراهيم عليه السلام وأمره
 برفعه ليكون مرجعا له والناس من بعده « واذا بوأنا لابراهيم مكان
 البيت » .

أى : واذا حين جعلنا لابراهيم مكان البيت بماءة أى مرجعا
 يرجع اليه للعمارة والعبادة (٤) . وبوآه منزلا : أنزله فيه ،
 والمباءة بمعنى المنزل والمرجع ، والتعدية باللام لما فيه من معنى الجعل
 والتميين (٥) .

والمقصود بالبيت : البيت الحرام ، وأطلق لتعيينه ، وشهرته
 بذلك ، اذ هو أول بيت وضع للناس ، واللام بالعهد ، فالبيت معهود
 ومعروف عند المخاطبين (٦) .

(٣) ابن كثير ٢١٥/٣ .

(٤) الكشاف ١٠/٣ .

(٥) حاشية الشهاب ٢٩٢/٦ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٤١/١٧ .

وفي اعلام ابراهيم يمكن البيت لرفعه وعمارته تشريف ما بعده
تشريف ، حيث اختصه الله تعالى بهذا الفضل دون سواه ، وذكر به في
كتابه الكريم ، ليكون معلوما للناس حتى يأتي أمر الله .

وبعد التشريف يأتي التكليف ، والتكليف هنا يشتمل على نهى
وأمرين :

أما النهى ففي قوله تعالى : « أن لا تشرك بي شيئا » وقدم
النهى على الأمر لأن النهى موجه الى ابراهيم عليه السلام ، والأمر
سيفعله من أجل الآخرين ، ولأن النهى كف عن فعل محبط للعمل ،
وانتخيلة مقدمة على التحلية كما أن النهى هنا عن الشرك، والتوحيد هو
أصل العقيدة ، وعليه مدار صلاح الأعمال و « أن » دافعة على مذهب
اليه الرمحسرى حيث قال : وأن هي المفسرة ، فان غلت : كيف يكون
النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوءة ؟ قلت : كانت
التبوءة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تعبدنا ابراهيم فقلنا له
لا تشرك بالله شيئا وظهر بيتى (٧) ويجوز أن تكون « أن » مصدرية
موصولة بالنهى ، أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتى ، وظهر بيتى من
الأوثان والأقذار لمن يطوف ويصلى فيه (٨) .

وباء المتكلم في « بي » تشعر بالوحدانية ، والذون في « بوائنا »
تشعر بالتعظيم وهذا من تلاوين الأسلوب على حسب المعانى والأشوال
ففى مقام التعظيم جىء بنو العظمة ، وفى مقام التوحيد جىء بـياء
الوحدة .

ولفظ « شيئا » يفيد العموم بمادته ، وهيئته المنكرة ، وموقعه

(٧) الكشف ١٠/٣ .

(٨) البيضاوى ٤٥٣ .

في بيان النهي ، أى لا تشرك بى شيئاً من الأشياء ، كائناً ما كان ومن أى جنس كان •

وأما الأمر الأول فقوله تعالى : « وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » وأراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية ، والمعنى : وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ، والتعبير عن الصلاة بأركانها — القيام والركوع والسجود — فيه دلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير ، فكيف ، وقد اجتمعت (هـ) • وقد تناولنا نظير هذه الآية بتحليل فى حلقة بناء البيت الحرام فلا حاجة الى تكراره فى هذا الموضع •

وأما الأمر الثانى فقوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج » أى ناد فى الناس بدعوة الحج والأمر به والتأدين : رفع الصوت بالاعلام بشئ ، وأذن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل ، أى أكثر الاخبار بالحج ، والكثرة تحصل بالتكرار ، ويرفع الصوت النقثم مقام التكرار (١٠) •

وتقديم الأمر بتطهير البيت على الأمر بالنداء بالحج لأن أعداد البيت وتجهيزه مقدم على الدعوة لزيارته ، كما أن عدم الاشراك يقتضى نبذ مظاهر الشرك من الأوثان والأصنام ، فتطهير البيت عنها متصل بالنهي عن الاشراك بالله تعالى ، فناسب ذلك أن يكون عقبيه •

والواصل بين الأمر الثانى والأول ، وبين الأمر الأول والنهى لتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجمل الثلاث فى الانشائية مع التناسب بينها •

« والمقصود بالناس جميع الناس من كان منهم موجوداً فى عصره »

(٩) السابق

(١٠) التحرير والتنوير ١٧/٢٤٢ •

أو غير موجود على ما جاء في السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال : رب قد فرغت يا نفال : أذن في الناس بالحج ، قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلى البلاغ ، قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فسمعه أهل السماء والأرض ألا ترون أنهم يجيئون من أقصى البلاد يلبنون » (١١) .

ولما أمر إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج مما يثير في نفسه بعض المخاوف من عدم وصول نداءه إلى كافة الناس ، أكدت الآية وصوله ببيان اجابة الناس الفورية المتمثلة في جواب الأمر « يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » وهذا القدر من الآية يصور سعي الناس واسراعهم إلى الحج إلى بيت الله الحرام : حيث يتسابقون في المجيء إليه من فجاج الأرض البعيدة رجالاً وركبانا .

و « يأتوا » مجزوم في جواب الأمر ، وإيقاع الاثنيان على ضمير عليه السلام دون أن يقال : يأتوا البيت ، لكونه هو المنادى ، وقد أجيب بسرعة (١٢) .

و « رجالاً » جمع راجل ، أي مشاة وهو في موضع الحال ، « وعلى كل ضامر » حال معطوفة على الحال السابقة كأنه قيل : رجالاً وركبانا . والضامر : التعبير المنزول الذي أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله ، وبين رجالاً وعلى كل ضامر طباق بديع ، لأنها متضادان في المعنى . والمقصود بالجملة استيذاب أحواض الآتين تحقيقاً للوعد بتيسير الاثنيان المشرك إليه بجعل اتيانهم جواباً للأمر . أي يأتوك

(١١) الألوسي ١٧/٩ / ١٤٣ .

(١٢) الكشف ١١/٣ .

من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم (١٣) • وتقديم الراجلين على الراكبين لكون مجيئهم أدل على الاستجابة ، وأقوى في إثبات الطاعة لما في مجيئهم من المشقة الكبيرة التي لم تنتهم عن المجيء إليه •

و « يأتين » صفة لكل ضامر ، والجمع باعتبار المعنى ، كأنه قيل: وركبانا على ضوامر يأتين ، و « كل » هنا تفيد التكثير لا الإحاطة (١٤) و « الفج » شقة يكتنفها جبالن ، ويستعمل في الطريق الواسع و « عميق » أى بعيد ، وأصل العمق البعد سفلا ، يقال بئر عميق إذا كانت بعيدة القعر (١٥) •

وفى « فج عميق » قوة وجرالة تشعر ببعد المسافات ، وصعوبة المسالك وهذا يشير الى الشوق الجارف الذى يحدو الناس الى البيت العتيق ، غير عابئين بالمشقات والمصاعب •

حكمة التشريع :

ونظرا لما فى الحج من مشقة ظاهرة ، وتضحيات بدنية ومالية، عرضت الآيات الحكمة من تشريعه ، والفوائد التي تعود على الناس من أدائه ، وقد ذكرت الآيات خمس فوائد :

الفائدة الأولى : « ليشهدوا منافع لهم » و « يشهدوا » متعلق بياترك ، والتعبير به يشير الى أنها منافع محققة وهم يحضرونها ويشهدونها ، وليست من قبيل الترغيب بالأمانى • وتكثير « منافع » مع جمعها على صيغة منتزعي الجموع يدل على أنها منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد ، ويمكن أن يكون التكثير للتوزيع أى منافع مختصة بهذه

(١٣) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٣ •

(١٤) الألوسى ١٧/ ٩ •

(١٥) المفردات ٣٧٣ ، ٣٤٨ •

العبادة دينية ودينيوية لا توجد في غيرها من العبادات (١٦) وإطلاق المنافع وعدم تقييدها بمنافع معينة يدل على عمومها ، فتشمل المنافع الدينية والدنيوية ، وما أكثرها عند التأمل ووصف المنافع بأنها لهم زيادة ترغيب في أداء الحج لما فيه من منافع تعود على الحجاج أنفسهم والمنافع التي يشهدها الحجاج كثيرة ، فالحج موسم ومؤتمر ، موسم تجارة ، وموسم عبادة ، ومؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون (١٧) .

والفائدة الثانية : « ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » وذكر اسم الله يقتضى ذكر الله تعالى ، وفي جعل الذكر من غايات اتيان البيت إشارة الى أنه الغاية القصوى لأعمال الحج ، لأنها في الأصل تدور على ذكر الله تعالى . والأيام المعلومات هي أيام التحرر ، وتخصيص بهيمة الأنعام بالذكر لأنها عماد القربى في هذه الأيام ، وفي النص عليها حث على مواصلة التقرب بها . وحرف « على » متعلق بـ « يذكروا » وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابس والمصاحبة . والمعنى ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام ، وأدمج في هذا الحكم الامتتان بأن الله رزقهم تلك الأنعام . وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق باخلاص العبادة لله تعالى والالتزام بأوامره (١٨) .

ويوجه المولى عز وجل حجاج بيته الى الاستفادة من بهيمة الأنعام « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » وفي الكلام التفات من « الى » الى الخطاب يفيد العناية والاهتمام بإرشادهم وتوجيههم الى الطريق الأمثل

(١٦) ينظر الكشف ١١/٣ ، وأبو السعود ١٠٤/٦ .

(١٧) في ظلال القرآن ٢٤١٨/٤ .

(١٨) التحرير والتنوير ٢٤٦/١٧ .

حيث خاطبهم الله تعالى خطابا مباشرا بما يعود عليهم بالمنفعة ، ويحقق
 لهم المصلحة •

والفاء في قوله « فكلوا » فصيحة عاطفة لمدحونها على مقدر قد
 خذف للاشعار بأنه أمر محقق غير محتاج الى التصريح به ، أى :
 فانذكروا اسم الله على هداياكم فكلوا من لحومها • والأمر بالأكث
 للإباحة ، وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه ، أو للادب
 الى مواساة الفقراء ومساواتهم (١٩) • والبائس : الذى أصابه بؤس
 وشدة ، والفقر : المحتاج ، والأمر بالطعام للوجوب على الصحيح (٢٠)
 ولم يعطف أحد الوصفين على الآخر لكونهما لموصوف واحد ، أو لتقارب
 معنييهما ، وقد قيل : ان البائس هو الفقير ، وانما ذكر البائس مع أن
 انفقير مغن عنه أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنه فى بؤس
 وفى حالة تستوجب الطعام (٢١) وتقديم البائس لما فيه من شدة
 تستدعى العطف والاطعام • وتخصيص البائس الفقير بالاطعام
 للحث على العناية باطعام هذا الصنف من الناس لشدة حاجتهم اليه ،
 وإن كان يجوز اطعام غيرهم كما يرى العلماء •

الفائدة الثالثة : « ثم ليقضوا تقضهم » والتفت فى الأصل الوبسج
 والقذر ، وقضاء التفت ازالته ، فاستعمل القضاء فى الازالة مجازا لما
 أن القضاء فى الأصل القطع والفصل •

وفى قضاء التفت اشارة الى نظافتهم الحسية ، وظهرتهم المعنوية
 فقد نظفوا أجسامهم بعد أن كانوا شعنا غربا قبل الاحلال ، كما خرجوا
 بالحج من ذنوبهم ، وعادوا أطهارا كيوم وادتهم أمهاتهم : كما فى الحديث

(١٩) أبو السعود ١٠٤/٦ •

(٢٠) أبو السعود ١٠٤/٦ ، والالوسى ١٤٦/١٧/٩ •

(٢١) التحرير والتنوير ٧٤٨/١٧ •

« من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٢٢) •

وقيل المراد بالتفتت : المناسك كلها ، وبالقضاء : الأداء والمعنى : يؤدونها نسكهم (٢٣) • وفي التعبير بالتفتت عن النسيك مجاز مرسل علاقته السببية لأن التفتت مسبب عن المناسك • ورجح ابن عاشور أن التفتت مناسك الحج ، لأن الفعل « ليقضوا » ينادى على أنه كذلك ، وموقع « ثم » في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادى على معنى التراخي بالترتيب فيقضى أن المعطوف بـ « ثم » أهم مما ذكر قبلها ، فإن أعمال الحج هي المهم في الاتيان الى مكة (٢٤) • وفي قوله « ليقضوا تفتتهم » انتقاة من الخطاب الى الغيبة يعود به الكلام الى نهجه السالف الذي كان عليه قبل الأمر بالأكل والاطعام •

وفي التعبير بالمضارع المقرون بلام الأمر تنبيه على أهمية هذه الأعمال وحث على فعلها •

والفائدة الرابعة : « وليوفوا نذورهم » أي ما يندرونه من أعمال البر في حجهم ، وقيل : مواجب الحج ، فالنذر بمعنى الواجب مطاق على سبيل المجاز (٢٥) •

وفي التعبير بالوفاء إشارة الى أن النذر عمل ناقص لا يتمه الا بالوفاء به ، وأشعار بما في أداء النذر من خلق كريم •

والفائدة الخامسة : « وليطوفوا بالبيت العتيق » قيل طواف الافاضة وهو طواف الركن الذي يتم به التحلل ، وقيل طواف

(٢٢) رياض الصالحين: ٤٩٣ •

(٢٣) ينظر الألوسى ١٤٦/١٧/٩ •

(٢٤) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٧ •

(٢٥) الألوسى ١٤٦/١٧/٩ •

الوداع (٢٦) ، ولا مانع من تفسيره بالطوافين ، وفي تشديد اللفظ إشارة إلى كثرة الطواف ، مما يؤيد ذلك •

والمراد « بالبيت العتيق » الكعبة المشرفة ، و « العتيق » أي انقديم . فانه أول بيت وضع للناس ، وقيل سمي عتيقا لأنه أعتق من الجبابة ، أو أعتق من الغرق وقيل غير ذلك (٢٧) ، والأول أولى بالقبول واللفظ يحتمل ولا مانع من القول بالكل • وفي تسميته عتيقا إشارة بعظمة شأنه وفخامة أمره ، وشرافته •

واختار ابن عثور أن العتيق : المحرر غير المملوك للناس ، شبه بالعبد العتيق في أنه لا ملك لأحد عليه ، وفيه تعريض بالمشركين ، إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون ، حتى جعلوا بابه مرتفعا بدون درج لئلا يدخله الا من شاءوا (٢٨) •

وفي بدء الجمل الثلاثة السابقة بلام الأمر الداخلة على الفعل المضارع تناسق بديع في الأسلوب، وتأكيد على هذه الأعمال، وحث على الإتيان بها ، والوصل بينها للتوسط بين الكماليين حيث اتحدت في الإنشائية مع المناسبة بينها • وختم هذه الأوامر بالطواف فيه حسن ختام ، حيث يأتي الطواف ختاماً لأعمال الحج ، وقد جاء ختاماً لهذه الحلقة •

(٢٦) أبو السعود ١٠٤/٦ •

(٢٧) الرازي ١٥٨/٦ •

(٢٨) التحرير والتنوير ٢٥٠/١٧ •

أسرار التشابه والتنوع في النظم

ويبعد أن أُنْتَهِينَا من التحليل البلاغى للنظم انقراْنى فى الحلقات المتى تدور حول البيت الحرام ودعاء ابراهيم عليه السلام ، نأتى الى المقارنة بين نظمها مجتمعة لنقف على ما فيه من تشابه وتنوع . ونكتشف عن الأسرار البلاغية التى تراءت لنا فى ذلك .

الموضوع والنظم :

تدور الحلقات الثلاث فى رحاب البيت العتيق ودعاء ابراهيم عليه السلام الا أن كل حلقة منها تهتم بتفصيل موضوعات تخصها .
فحلقة سورة ابراهيم مختصة ببيان الدعاء الذى صدر عن ابراهيم عليه السلام للبلد الحرام ولنفسه ولذريته وللمؤمنين ، مع ما يتخلل ذلك من ثناء على الله تعالى ، وقد جاءت وسطا بين الحلقات الثلاث فى طولها .

وحلقة سورة البقرة تبين ابتلاء الله تعالى لابراهيم بالتكاليف ، وتفصيل بعضها، وتذكر الدعاء المصاحب لبعضها ، وتوضح دين ابراهيم عليه السلام وهو الاسلام ، وتورد وصيته لأبنائه وذريته بالتمسك به، وبذلك كانت أطول الحلقات الثلاث نظرا لتعدد موضوعاتها .

وحلقة سورة الحج تفصّل بعض ما كلف الله به ابراهيم من نهيه عن الاشرار بالله وأمره بتطهير البيت الحرام ، ودعوة الناس الى حج بيت الله العتيق ، لما فيه من فوائد دينية ودنيوية ، وهى أقصر الحلقات الثلاث .

وتختلف السمة الغالبة على النظم فى كل حلقة تبعا لموضوعها .
ففى حلقة ابراهيم المختصة بالدعاء ، تعلو نبرة الخشوع والخضوع والتضرع لله رب العالمين ، فتبدأ آية فيها بدعاء الرب

سبحانه وتعالى ، فالآية الأولى بعد البداية المذكورة بالوقائع ينادى
 ابراهيم ربه «رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام»
 ويستمر في ترديد هذا النداء الخاشع المستجلب للإجابة الى آخر الحلقة
 آية واحدة بدئت بحمد الله تعالى لذاته ولما أنعم عليه من نعمة
 الذرية بعد الكبر « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل
 واسحاق » ومع كون الثناء والدعاء من قبيل واحد ، الا أنه سرعان
 ما نجد لفظ الرب فى تذييل الآية « ان ربي لسميع الدعاء » •

وفى حلقة البقرة وهى فى معظمها تدور حول تعداد أمور جليلة
 كلف بها ابراهيم عليه السلام أو قام بها اثر التكليف ، تعلقو نبذة التذكير
 بهذه الأعمال عن طريق « اذ » الذى فيها تذكير بالوقت وما حدث فيه
 فبداية الآية الأولى « واذا ابتلى » والثانية « واذا جعلنا » والثالثة
 « واذا قال ابراهيم » والرابعة « واذا يرفع ابراهيم للقواعد » • ويأتى
 الدعاء فتدور نبذة الخشوع والخضوع ، ثم تعود نبذة التذكير وان
 كانت أخف من السابق « اذ قال له ربه أسلم » « أم كنتم شهوداء اذ
 حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى » •

وفى حلقة الحج تعلقو نبذة الأوامر الصارمة الصادرة الى ابراهيم
 عليه السلام ليقوم بتنفيذها وتبليغها للناس « لا تشرك بى شيئاً »
 « وطهر بيتى للطائفين » « وأذن فى الناس بالحج » ويعقب الأمر
 الأخير ببيان ما يعود على المأمورين من فوائد ومنافع عند تنفيذه •

البداية :

تتحدد الحقائق الثلاث فى البداية بالتذكير بما حدث فيها عن طريق
 « اذ » الظرفية التى تذكر بوقت وقوع هذه الأحداث ، وفى التذكير
 بالوقت تذكير بما وقع فيه من أحداث وتتبع « اذ » بالفعل المناسب
 لأوضاع كل حادثة •

نفى حلقة ابراهيم تتبع « اذ » بالفعل « قال » « واذا قال ابراهيم
رب اجعل هذا البلد آمنا » لأن هذه الحلقة خالصة للدعاء والثناء ، ولكن
مهما قول خاشع يتجه به العبد الى ربه عز وجل سائلا أو هشيا .

وفي حلقة البقرة تتبع « اذ » بالفعل « ابتلى » « واذا ابتلى
ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » لأن هذه الحلقة فيها اشارة الى التكليف
التي أوجبها الله تعالى على ابراهيم عليه السلام ابتلاء واختبارا له ،
ونجاحه في القيام بها ، ثم تفصيل لبعض هذه التكليف . فناسب هذا
ذكر الابتلاء .

وفي حلقة الحج تتبع « اذ » بالفعل « بوا » « واذا بوا لابراهيم
مكان البيت » وذلك لاختصاص هذه الحلقة بالدعوة الى شعيرة الحج الى
بيت الله الحرام ، حيث أمر ابراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس
بالحج بعد تطهير البيت واعداده لذلك ، فناسب هذا أن يباه الله
مكان البيت ليعده ويعمل على عمارته ، استعدادا للقادمين اليه .

الدعاء بالأمن :

في سورة البقرة تحكى دعوة ابراهيم بالأمن للبلد على هذا النحو
« واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا بلد آمنا » .

وفي سورة ابراهيم تحكى على هذا النحو « واذا قال ابراهيم رب
اجعل هذا البلد آمنا » .

فاندعرتان متشابهتان في النظم مع وجود تنوع يتمثل في تكرار
لفظ البلد في البقرة وتعريفه بلام العهد في ابراهيم . وقد بين العلماء
سبب هذا التنوع .

فالاستغنى يوضح أنه يخرج على وجهين : أحدهما . أن يقال ان
الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا ، فكأنه قال : اجعل

هذا الوادى بلدا آمنا • وعليه فـ « هذا » مفعول أول ، و « بلدا » مفعول ثان ، و « آمنا » صفته • وإن الدعوة الثانية وقعت وقد جعل المكان بلدا فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن على من أوى اليه ، وعليه فـ « هذا » مفعول أول ، و « البلاد » عطف بيان أوصفة ، و « آمنا » مفعول ثان • وبذلك عرف اللفظ حين كان بلدا معروفا بالبلدية ، ولاكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس •

والثانى : أن تكون الدعوتان واقعيتين بعد ما صار المكان بلدا ، وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمنا ، وهذا ظاهر فى قوله « اجعل هذا البلد آمنا » فى سورة ابراهيم ، أما فى قوله « اجعل هذا بلدنا » فى سورة البقرة فيكون على تقدير : اجعل هذا البلد بادا آمنا وبناء على هذا التقدير يكون المطلوب هو الأمن بعد ما صار بلدا ، وهو مثل المطلوب فى ابراهيم • وهذا جار فى كلامهم ، فالقائل يقول : اجعل ولدك هذا ولدا أدبيا ، وهو لا يأمره بأن يجعله ولدا ، وإنما يأمره بتأديبه ، فكأنه قال : اجعله بهذه الصفة • وكما تقول كان اليوم يوما حارا ، فتجعل يوما خبر كان ، وحارا صفة له ، ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوما ، لأنه يصير خبرا غير مفيد ، وإنما القصد أن تخبر عن اليوم بالحر ، فكان الأصل أن تقول : كان اليوم حارا وأعدت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والموصوف ، فكأنك قلت : كان هذا اليوم من الأيام الحارة (١) •

وحاصل كلام الاسكافى : أما أن تكون الدعوتان وقعتا فى وقتين مختلفتين فالتى وردت بالتكثير وقعت قبل جعل المكان بلدا والمسئول فيها شيئان : البندية والأمن • والتى وردت بالتعريف وقعت بعد جعل المكان

(١) ينظر درة التنزيل : ٢٩ •

بإدائها والمسئول فيها شيء واحد من الأمن • وإما أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بإدائها والمسئول في كل منهما هو الأمن فقط ، والبلدية موجودة في حال التعريف تصريحاً وفي حال التثكير تقريراً • وقد اعترض الغرناطي على الوجه الأول من كلام الاسكافي وقال انه بعيد وليس بفهم من لفظ الآي ، وهو ممكن (٢) •

وبين الاسكافي أن هناك من يقول في بيان سر ذلك : أن الأول الذي في البقرة جاء نكرة ، فلما أعيد ذكره أعيد بلفظ المعرفة ، كما تقول : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل • وضعف الاسكافي هذا الرأي وقال : ليس هذا بشيء ، وليس ما ذكره مثلاً لهذا ، ولا هذا المخان مكانه (٣) • وقال الزمخشري : فان قلت : أي فرق بين قوله « اجعل هذا بلداً آمناً » وبين قوله « اجعل هذا البلد آمناً » قلت : فلا سؤال في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً (٤) •

ويفهم من كلام الزمخشري أن المسئول في حال التثكير شيئان : البلدية والأمن وفي حال التعريف الأمن وحده •

وبين الشهاب كلام الزمخشري فقال : وتحقيقه أنك اذا قلت : اجعل هذا خاتماً حسناً فقد أشرت الى المادة أن يسبك منها خاتم حسن ، واذا قلت : اجعل هذا الخاتم حسناً فقد قصدت الحسن دون الخاتمية ، وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني لأنه بمنزلة الخبر (٥) • فالمطلوب أولاً سبك خاتم موصوف بالحسن ، فالخاتم

(٢) ملك التاويل ٢٣٥/١ •

(٣) درة التنزيل ٣٠ • وينظر معترك الاقران ٨٩٦/١ •

(٤) الكشف ٣٧٩/٢ •

(٥) حاشية الشهاب د/٢٧٠ •

والحسن مظهران ، والمطلوب ثانيا تحسين الخاتم الموجود ، فالمطلوب
شيء واحد ، وهذا يؤكد ما فهمناه من كلام الزمخشري •

وتبع الرازي الاسكافي في تحليله وأمثلته ، الا أنه صرح بنكتة
المفقد في حال التنكير وهي المبالغة حيث قال في الوجه اثنى: أن تكون
الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً، فقله « اجعل هذا بلداً آمناً »
تقديره : اجعل هذا البلد بلداً آمناً ، كقولك : كان اليوم يوماً حاراً ،
وهذا انما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ، لأن التنكير يدل على
المبالغة ، فقله : اجعل هذا البلد بلداً آمناً معناه : أجعله من البلدان
الكاملة في الأمن ، وأما قوله « رب اجعل هذا البلد آمناً » فليس فيه الا
طلب الأمن لا طلب المبالغة (٦) •

وتناول أبو السعود المسألة من ناحية تعدد السؤال وروحه فقال:
أن حمل على تعدد السؤال : فيكون عليه السلام سأل أولاً كلا الأمرين:
البلدية والأمن فاستجاب له في أحدهما وتأخر الى وقته المقدر له لما
تقتضيه الحكمة الباهرة ، ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد في الدعاء
والإهتمام • أو كان المسئول أولاً البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى
كما في سائر البلاد ، وقد أجيب الى ذلك ، وثانياً الأمن المعهود ، أو كان
هو المسئول أولاً أيضاً وقد أجيب اليه لكن السؤال الثاني لاستدامته ،
والاقتصار على سؤاله مع جعل البلاد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلي
أو لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن • وان
حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر : فالظاهر أن
المسئول كلا الأمرين ، وقد حكى ذلك في البقرة ، واقتصر في ابراهيم
على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال
جعل أفئدة الناس تهوى اليه ، لما فيه من دلالة على البلدية (٧) •

(٦) الرازي ١/٧٧ •

(٧) أبو السعود ١/١٥٨ •

وحاصل كلامه أن السؤال إما أن يكون متعددا ، وإما أن يكون واحدا وتكررت حكايته بأسلوبين مختلفين ، فإن كان متعددا فالمسؤول في البقرة البلدية والأمن وفي إبراهيم الأمن فقط بعد تحقق البلدية ، مع تفريعات أشار إليها •

وان كان السؤال واحدا مع تكرار حكايته فانسئوا في الموضوعين كلا الأمرين وقد ذكرنا معا في البقرة ، واكتفى في إبراهيم بذكر الأمن بدلالة الآيات التالية على البلدية •

وبالملاحظ أن هؤلاء جميعا تناولوا المسألة من حيث مفهوم الأسلوب ودلالة كل من التثنية والتعريف في صيغ وحيدة الدعاء أو تعدده ، فجاء كلامهم متشابها في محصله ، وان بدا مختلفا في معرضه ، وقد سار على هذا كثير من العلماء (٨) •

أما الغرناطي فقد تناول المسألة على أساس نحوي رابطا الأسلوب بما سبقه فقال : أما التثنية في سورة البقرة فوجهه — والله أعلم — أن اسم الإشارة الذي هو « هذا » فلم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » وقوله « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين .. » وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد لا سيما بما تقدم من قول إبراهيم عند نزوله بواذه بحرم الله ودعائه أولا بقوله « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » (٩) فتعريف البيت تعريف البلاد ، فورد اسم الإشارة غير مفتقر الى التامع المبين جنسه كالجاري في أسماء الإشارة ، اكتفاء ما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب « بلدا » مفعلا ثانيا و « آمنا » نعتا له واسم الإشارة

(٨) ينظر معترك الأقران ٨٩/١ ، والفتوحات الإلهية ١٠٥/١ •

(٩) إبراهيم ٣٧ •

منعولا أول غير محتاج الى تابع لقيام ما تقدم مقامه ، ولو تعرف افظ « بند » بالألف واللام ، وجرى على اسم الإشارة لم يكن يحرز بيانا زائدا على ما تحصل مما تقدم ، بل كان يكون كالانحرار • فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه ، فجاء على ما يجب •

وأما التعريف في سورة ابراهيم فذلك أنه لم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار اليه ، فلم يكن بد من اجراء البلد عليه تابعا بالألف واللام على المعهود الجارى في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار اليه باسم جامد في الغالب يكون عطف ببيان على قول الخليل أو نعتا على الظاهر من كلام سيوييه ، وانتصب اسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول و « آما » على أنه مفعول ثان ، ولم يكن عكس الوارد ليحسن ولا يناسب (١٠) •

فأساس التذكير والتعريف عند الغنطى ليس سؤالا شىء أو شيعين كما ذكر غيره ، ولكن التذكير في البقرة ورد لعدم الحاجة الى تابع معرف لاسم الإشارة نظرا لتقدم المعرف الذى يقوم لاسم الإشارة مقام التابع فاكتمل به ايجازا ، ولو ورد الاسم معرغا ما أفاد بيانا زائدا على ما فهم مما تقدم •

أما التعريف في ابراهيم فورد لعدم تقدم ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف كما هو معهود في أسماء الإشارة •

وقال الطاهر بن عاشور : لما جعل البلد مفعولا ثانيا استغنى عن بيان اسم الإشارة ، وفي ابراهيم لما جعل آما مفعولا ثانيا بين اسم الإشارة بلفظ البلد (١١) •

(١٠) ملاك التأويل ٢٣٤/١ ، ٢٣٥ •

(١١) التحرير والتأويل ٧١٤/١ •

ورأى الغرناطي لا يتعارض مع رأى الاسكافي ومن تبعه لأن كلا منهما ينظر من زاوية مختلفة لا تتعارض مع الأخرى • فالاسكافي وغيره ممن ذكرناهم ينظرون إلى الفرق المعنوي بين الأسلوبين بناء على اختلاف اللفظ بالتذكير والتعريف ، ويرجعون السر في اختلاف اللفظ إلى وقت السؤال وتعددته أو وحدته • والغرناطي لم ينظر إلى الفرق المعنوي بين الأسلوبين ، وإنما اهتم ببيان سر اختلاف الأسلوبين بالتذكير والتعريف ، وهذا على أساس نحوي كما أوضحنا •

الدعاء بالرزق :

جاء في سورة ابراهيم « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وجاء في سورة البقرة « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » • وسر هذا التنوع فيما نرى : أن ما جاء في سورة ابراهيم ورد في ثنايا الدعاء لذريته وتكلمة له ، فقوله « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم » فذا سب هذا أن يقول : « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » • وأتبع الدعاء بوجاء الشكر لأن ما تقدمه داعية للشكر ، فقد أسكنهم بواد خال من الحياة « غير ذي زرع » فتوجيه الناس إلى الذهاب إليهم في شوق جارف ، ورزقهم من الثمرات في هذا المكان الخالي من الحياة نعم جليلة تستوجب شكر المنعم عز وجل وأما ما جاء في سورة البقرة فقد ورد ضمن الدعاء للبند الحرام وأهله على العموم ، من ذريته أو من غيرهم « رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » ومن ثم أتبع هذا بقوله « من آمن منهم بالله واليوم الآخر فخصص الدعاء بالمؤمنين من أهل البلد بعد التعميم السابق ، لأن أهل هذا المكان منهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين • وإنما لم يخص الدعاء في سورة ابراهيم بالمؤمنين ، لأنه كان

خاصا بذريته الذين أسكنهم عاد بيت الله الحرام ، وهم مؤمنون ،
نلا داعى للتخصيص •

الأمر بتطهير البيت :

جاء في سورة البقرة « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن تطهرا
بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » • وجاء في سورة الحج
« واذ برأنا لابراهيم مكان البيت ألا تترك به شيئا وطهر بيتى الطائفين
والقائمين والركع السجود » •

والتنوع فى الآيتين يظهر فى أربعة مواضع :

الأول : قيل فى البقرة « وعهدنا » وقيل فى الحج « واذ برأنا
لابراهيم مكان البيت » وهذا راجع الى أن ما فى الحج واقع قبل بناء
البيت ، فناسب هذا أن يدل على مكان البيت ويعرف به ليرجع اليه
ويقوم فيه بما أمر به • أما ما فى البقرة فواقع بعد بناء البيت وجعله
مثابة للناس وأمانا كما سبق فى الآية « واذ جعلنا البيت مثابة للناس
وأمانا واتخذنوا من مقام ابراهيم مصلى » فناسب هذا أن يعهد اليه
بتطهير البيت والحفاظة عليه •

والثانى : وجه الأمر بالتطهير فى البقرة لابراهيم واسماعيل
عليهما السلام ، وفى الحج وجه الأمر لابراهيم عليه السلام وحده •
وسر هذا أن ما فى الحج واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله
تعالى « واذ برأنا لابراهيم مكان البيت » وكان اسماعيل عليه السلام
حينئذ بمنزل من مثابة الخطاب ، أما ما فى البقرة فظاهر أنه كان بعد
بلوغه مبلغ الأمر والنهي وتمام البناء بمباشرة كما ينبى عنه إيثاره
اثر حكاية جعله مثابة للناس وأمانا (١٢) •

(١٢) أبو السعود ١/ ١٥٨ •

والثالث : جاء في البقرة « للطائفين والعاكفين » وجاء في الحج « للطائفين والقائمين » وقد بين الغرناطي السر في تخصيص البقرة بالعاكفين وتخصيص الحج بالقائمين فقال : ان المراد بالقائمين هنا ذوو الإقامة والملازمة على صفة مخصوصة ، وإذا أريد القائمين هذا ، فهو بالعكوف مما يصح أن يعبر بأحدهما عن الآخر ، مع أن لفظ العكوف أخص بالمقصود ، فيكون خصوص آية الحج بقوله « قائمين » لتقدم ذكر العكوف قبل هذا في قوله « سواء العاكف فيه والباد » فلما تقدم ذكر العكوف متصلا بالآية وقع الاكتفاء بذلك ، وعدل عن التكرار الذي من شأن العرب العدول عنه إلا حيث يراد تعظيم ، أو تهويل وشبه ذلك ، ولما لم يقع ذكر العكوف قبل آية البقرة ولا بعدها وهو مراد لأنه أخص بالمقصود ، لم يكن بد من الإفصاح ، وكأنه قد قيل في آية الحج : والقائمين مكثفين ، فأغنى ذكرهم متقدما عن الانيان به حالا مبينة ، وأغنى قوله في آية البقرة « والعاكفين » عن قوله : « والقائمين » لأن العكوف : الملازمة ، وهو المراد بالقيام ، فورد كل على ما يجب ويناسب .

ومن قال ان المراد بقوله « والقائمين » المصلون فوجهه أن ذكر العكوف قد حصل فيما تقدم فاكتفى به ، ولم يكن وقع قبل آية البقرة ولا بعدها فلم يكن بد من ذكره ، وعبر عن المصلين بالركع السجود (١٣) وحاصل كلامك أن لفظ « القائمين » بمعناه المراد هنا يصح أن يعبر به عن « العاكفين » ، وإيثار « العاكفين » في البقرة لأنه أخص بالمقصود ، ولم يتقدم ذكره قبل ذلك ، وإيثار « القائمين » في الحج لتقدم العكوف في الآية السابقة ، ولا داعي للتكرار حتى يكرر اللفظ هنا .

والرابع : ورد في الحج نهى لإبراهيم عليه السلام عن الشرك

(١٣) ملاك التأويل ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .

(٢٨ - خصائص النظم)

« لا تشرك بى شيئا » ولم يرد مثل هذا فى البقرة • وسر ذلك والله أعلم أن آية الحج سبقت بالحديث عن المشركين وصددهم عن سبيل الله والمسجد الحرام • وبينان عاقبة الملحدين فى الحرم فى قوله تعالى « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » (١٤) فناسب ذلك أن يهوى ابراهيم عن الشرك على سبيل الالهاب والتهيج ، حثا له على التمسك بالايمان والمداومة عليه ، وذلك قبل أن يؤمر بتطهير البيت الذى يذنبه المشركون ويصدون الناس عنه • أما فى البقرة فالآيات السابقة على الآية مفعمة بجو الايمان اذ تتحدث عن ابتلاء الله تعالى لابراهيم بالتكاليف ونجاح ابراهيم فى ذلك ومكافأة الله تعالى له بجعله اماما للناس ، واتخاذ مقامه مصلى • فالجور كله جو إمامى ، لا مجال فيه للانهى عن الشرك لخاوه عنه •

الفصل الرابع

عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته

اختلف اليهود والنصارى والمشركون حول عقيدة ابراهيم عليه السلام ، فقال اليهود هو يهودى ، وقال النصارى هو نصرانى ، وزعم المشركون أنهم على دينه . وقد رد القرآن الكريم على هذه المزاعم فى مواضع متعددة ، منها قول الله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنфия مسلما وما كان من المشركين » (١) .

وهذا الفصل يتناول بالتحليل البلاغى الآيات التى تدور حول بيان عقيدة ابراهيم عليه السلام ، وتبين أنه كان حنфия مسلما ، وبريئا من اليهودية والنصرانية والشرك على السواء وتوضح منزلته عند الله تعالى .

وقد جاءت فى ثمان سور ، هى حسب ترتب النزول :

١ - ص : وهى سورة مكية وحلققتها تبين منزلته عند الله تعالى هو واسحاق ويعقوب عليهم السلام .

٢ - الزخرف : وهى سورة مكية وفيها بيان ابراءته من عبادة أبيه وقومه المشركين ، وتمسكه بعبادة الله تعالى خالفه يساديه ، ووصيته لذريته بذلك .

٣ - النحل : وهى سورة مكية ، وفيها بيان لمنزلة ابراهيم عليه السلام ، وكونه حنфия مسلما بريئا من المشركين .

٤ - البقرة : وهى سورة مدنية ، وفيها بيان لايمانه القوى باعتقاده الجازم فى البعث ، من خلال رؤيته لشهيد حتى يوضح كفية احياء الموتى .

(١) آل عمران ٦٧ .

٥ - آل عمران : وهي سورة مدنية ، وفيها ذكر لحاجبة أهل الكتاب في ملة إبراهيم عليه السلام وزعمهم بأنه كان يهودياً أو نصرانياً ، مع إبطال مزاعمهم بالدليل .

٦ - الممتحنة : وهي سورة مدنية ، وفيها دعوته إلى التماسي بإبراهيم عليه السلام في براءته من أبيه وقومه بسبب شركهم ، وإشارة إلى استغفاره لأبيه ، وأنه مما لا يؤتسى به فيه .

٧ - النساء ، وهي سورة مدنية ، وحلفتها تبين أنه لا أحد أحسن ممن أخلص وجهه لله ، وأتبع ملة إبراهيم وتوضح أن الله تعالى قد اتخذ خليلًا ، وهذه مرتبة ما بعدها مرتبة في الفضل والتكريم .

٨ - التوبة : وهي سورة مدنية ، وتبين علة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه ، وتبرأ منه بعد أن تبين حقيقته .

ومن النظر في هذه الحلقات نراها تأخذ ثلاثة محاور أساسية :
الأول : يبين دينه وملته . ويتمثل هذا في حلقات البقرة وآل عمران .

والثاني : يبين براءته من أبيه وقومه المشركين وما يعبدون ، ويتمثل هذا في حلقات الزخرف والممتحنة والنوبة .

والثالث : يبين مكانة إبراهيم عليه السلام ومنزلته عند الله تعالى ، والحث على اتباعه .

وبناء على هذا سنتناول النظم القرآني في هذه الحلقات بالتفصيل ابتداءً بادئين بالمحور الأول ثم بالثاني ثم بالثالث .

الحلقة الأولى

ابراهيم عليه السلام والبعث

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم رب أرني كيف الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » (١) •

بين يدي الآية :

هذه الآية الكريمة تعرض مشهودا من مشاهد قصة ابراهيم عليه السلام ، يوضح ما دار بينه وبين الله عز وجل ، عندما دعاه أن يريه كيفية احيائه الموتى ، ليزداد ايمانا على ايمانه ، ويقينا فوق يقينه ، وهو يرى البعث ، ماثلا بين عينيه ، ويبصر قدرة الله تعالى على احياء الموتى بعد فنائهم •

ولم يرد هذا المشهد في غير هذا الموضع من كتاب الله انكريم ، وقد عرضته آية واحدة ، هي الثالثة ثلاث آيات وردت متتابعة ، تحكى ثلاثة مشاهد ، تدل على ولاية الله تعالى للمؤمنين ، وتنبئهم لهم ، واخراجهم من الظلمات الى النور ، عقيب الحكم الالهي بذلك في قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) •

والشاهد الأول من هذه المشاهد الثلاثة يعرض بحاجة «الزمرود» لابراهيم عليه السلام في ربه ، ونصر الله له في هذه المحااجة (٣) ، والشاهد الثاني يروى ما كان من أمر الذى مر على قرية خاوية على عروشها ، فسأل متعجبا : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ ، فأراد الله معجزة في نفسه وطعامه وشرابه وحماره ، فأيقن أن الله على كل شئ قدير (٤) ، وقد اختلف المغسرون في اسم هذا الرجل وأكثر الأقوال على أنه « عزيز بن شرخيا » (٥) .

ويأتى المشهد الثالث الذى نحن بصدد الحديث عنه : وهو يحكى طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وإحالة الله عز وجل طلب ابراهيم عليه السلام ، والمناسبة بين هذا المشهد وبين ما قبله واضحة جلية ، فهو من ناحية أحد أدلة ثلاثة تظهر ولاية الله تعالى لمؤمنين ، وإخراجهم من الظلمات الى النور ، حيث يبين أن الله تعالى تولى ابراهيم بعنايته ورعايته ، وأجابه عن سؤاله ، فاطمأن قلبه ، وثبت فؤاده ، وازداد رسوخا ويقينا .

ومن ناحية أخرى يتحدث عن الاحياء والاماتة ، وقدرة الله عليهما كما في المشهدين السابقين له ، ثم هو يرتبط ارتباطا وثيقا بالمشهد الذى قبله مباشرة ، اذ يشتركان في اشتغالهما على سؤال عن كيفية احياء الموتى ، والاجابة عنه بآية عملية شاهدة ، تجلى تدرج الله تعالى على احياء الموتى ، وبعث الناس بعد فنائهم ، فهما دليلان على قضية البعث ، يثبتانها بواقعتين عمليتين حدثتا وشوهدتا رأى العين .

(٣) البقرة ٢٥٨ .

(٤) البقرة ٢٥٩ .

(٥) ينظر الألوسى ٢٠/٣/٢ .

البداية :

يبدأ هذا المشهة بحكاية طلب لابراهيم عليه السلام ، يدعو فيه ربه أن يريه كيفية احيائه الموتى ، قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » . وهى بداية فيها تنبيه للأسماع ، ولفتة للأذهان ، لتتأهل للوقوف على ما يدور من حوار ، وما يعرض أحداث ، ومن ثم اختلفت عن بداية المشهدين السابقين ، بالمشهد الأول بدىء بقوله تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه » والمشهد الثانى بدىء بقوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها » ، فسلك بهما مسلك الاستشهاد والاحتجاج على ولاية الله للمؤمنين ، وبدىء المشهد الثالث ببداية مختلفة ، ولم يسلك به نفس المسلك السابق ، بأن يقال : أو كالذى قال رب أرني كيف تحيي الموتى ، لجريان ذكر ابراهيم عليه السلام في المشهد الأول في أثناء المحاجة ، ولأنه لا دخل لنفسه عليه السلام في أصل الدليل (٦) ، وهذه البداية المخالفة للدايمين السابقين مع اتحاد الكل في الاستدلال على قضية أساسية واحدة ، فيها تاوين للأسلوب بعدم سيره على وتيرة واحدة ، ومن ثم ينبذ الذهن ويجدد نشاطه لاستيعاب ما يعرض عليه .

والظرف « اذ » منصوب على المفعولية بمضمرة تقديره : واذكر وقت قول ابراهيم . . . ، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله : « ألم تر الى الذى حاج » وتقديره : وألم تر اذ قال ابراهيم : أو معطوفاً على قوله : « أو كالذى مر على قرية » وتقديره : أو كالابراهيم اذ قال رب أرني . وعلى الاعراب الأول يكون توجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الوقائع مع أنها المقصودة بالتذكير ، لنمبالغة في ايجاب تذكرها ، لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه ، بالطريق انبرهاني ، ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة ، فاذا استحضرت كانت

(٦) ينظر أبو السعود ٢٥٦/١ .

حاضرة بتفصيلها ، بحيث لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر ، كأنها مشاهدة عيانا (٧) •

وصرح في هذه الآية باسم السائل وهو ابراهيم عليه السلام ، ولم يصرح في الآية السابقة باسم السائل الذي مر على النقرية ، لأن في سؤال ابراهيم من الأدب مع الله تعالى ، وإنشاء عليه ، ما ليس في سؤال ذاك ، فصورة سؤال ذاك صورة الالكار ، وصورة سؤال هذا صورة الاقرار مع طلب الزيادة في العلم (٨) • والحقيقة أن ابراهيم عليه السلام ليس سائلا ، انما هو طالب على سبيل التضرع ، وطلبه مبنى على أنه مقربا بالبعث ، مؤمن بقدره الله على احياء الموتي ، ولكنه يتوق الى مرتبة المعاينة ، ويهفو الى درجة المشاهدة ، ويود مجاوزة العلم العقلي البرهاني ، الى العلم الحسي الضروري ، ومن ثم قال : « رب أرني كيف تحبني المرتي » ، أما الذي مر على النقرية فكان سائلا سؤل المتعجب الذي تلوح عليه أمارات الشك ، ومن ثم قال : « أني يحبي هذه الله بعد موتها » ، فقال ابراهيم بأدبه مع الله تعالى ، وثباته عليه ، من التشريف بذكر اسمه مالم ينله الآخر •

وبدأ ابراهيم عليه السلام طلبه بنداء الله تعالى بلفظ الرب الذي يشير الى تربيته تعالى لعبده ، وعنايته به ، واشفاقه عليه ، ليكون ثناء واستعطافا بين يدي تضرعه ، مبالغة في استدعاء الاجابة من الله عز وجل (٩) • ، وحذف الفداء يشعر بقرب ابراهيم عليه السلام من ربه تعالى ، الذي هو مربيه ومالك أمره ، وفي ذلك مزيد طمع في نجابة دعائه وتحقيق رجائه •

(٧) السابق ٢٥٦/١ •

(٨) ينظر الرازي ٣٢٦/٢ ، والمنار ٤٥/٣ •

(٩) ينظر أبو السعود ٢٥٦/١ ، والمنار ٤٥/٣ •

والرؤية التى طلبها ابراهيم بقوله « أرنى » رؤية بصرية ، وعلى هذا فالفعل يتعدى الى مفعول واحد ، ولكن دخول همزة النقل عليه جعلته يتعدى الى مفعولين ، أولهما : ياء المتكلم ، وثانيهما : جملة « كيف تحيى الموتى » ، والتقدير : أرنى كيفية احيائك الموتى .
وقد يتبادر سؤال مؤداه : هل يشعر طلب ابراهيم عليه السلام بشيء من الشك ؟

والجواب : لا يشعر بذلك ، وبعبارة لا تنبئ عن إثارة من شك ، وذلك لأن الاستفهام بكيف ، انما هو سؤال عن حالة شيء موجود . متقرر الوجود عند السائل والمسئول ، فمتى قلت : كيف زيد ؟ وكيف ثوبك ؟ فاما تسأل عن حال كل منهما ، وكيف فى هذه الآية انما هى استفهام عن هيئة الاحياء ، والاحياء منقرر وثابت (١٠) . فابراهيم عليه السلام لم يسأل عن الاحياء وجودا وعدما ، لأن وجوده متقرر عنده وثابت لديه ، ولكنه يطلب رؤية هيئة الاحياء ومشاهدتها . وهنا دقيقة فى معنى « كيف » يجب أن نقف عندها ، وهى أن تكون « كيف » فى هذه الآية مجردة عن الاستفهام ، كما فى قوله تعالى (١١) : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » (١٢) ، وعلى هذا فليس فى الآية استفهام عن احياء الموتى ، ولا عن كيفية احيائهم . انما الذى فى الآية : طلب على سبيل التضرع ، توجه به ابراهيم الى ربه : أن يريه هيئة احياءه الموتى ، وفرق بين الاستفهام وبين الطلب ، فانك لا تطلب شيئا من أحد على سبيل الحقيقة الا وأنت تعلم قدرته على فعل ذلك الشيء .

(١٠) القرطبي ١١٠٧/٢

(١١) آل عمران ٦

(١٢) التحرير والتنوير ٣٨/٣

ومما يتصل بهذا بيان معنى حديث رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ٠٠٠ » (١٣) ومعناه : أن إبراهيم لو كان شاكاً لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك ، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام (١٤) ، وقيل : إن الكلام مع أفعل جاء هنا لنفي المعنى عن الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام ، أي لا شك عندنا جميعاً ، ومن هذا الباب قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبع » (١٥) أي لا خير في الفريقين (١٦) .

امتحان من الله تعالى :

لما طلب إبراهيم من ربه أن يريه هيئة أحيائه الموتى ، لم ينتق له ما طلبه مباشرة ، لكن بادره بامتحان يجلي عقيدته ، ويكشف مراده ، وهو سبحانه وتعالى عليم بذلك « قال أو لم تؤمن » وفصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البياني ، حيث إن الجملة الأولى تثير سؤالاً فحواه : فيماذا أجابه ربه ؟ وجاءت هذه الجملة جواباً عن هذا السؤال النفسي ، وعلى هذا كل ما وقع في القرآن الكريم من لفظ « قال » مفصلاً عن سابقه ، فالفصل فيه للاستئناف ، قال الامام عبد القاهر : واعلم أن الذي تراء في التنزيل من لفظ « قال » مفصلاً ، غير معطوف ، فذلك على تقدير السؤال والجواب ، كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقاتلوا كذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟ ، ويقول الجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج .

(١٣) البخاري ١٠٨/٣

(١٤) القرطبي ١١٠٦/٢

(١٥) الدخان ٣٧

(١٦) الألوسي ٢٧/٣/٢

لأن الناس خوذوا بما يتعارفونه • وسلك بانسخط معهم المسلك الذي يسلكونه (١٧) •

وقال الشيخ ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : «هالوا أتجن فيها من يفسد فيها » (١٨) هذا جواب الملائكة عن قول الله لهم « أنى جاعل في الأرض خليفة » والتقدير فقالوا ••• وفصل الجواب ولم يعطف بالفاء أو الواو جريا على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات ، وهي طريقة عربية قال زهير :

قيس لهم ألا اركبوا ألا تأقا ••• قاتوا جميعا كلهم ألاقا

أى فاركبوا ولم يقل فقالوا ••• وانما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القربل ، فان المحاورة تقتضى الاعادة في الغالب ، فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع ، وهو كثير في التنزيل (١٩) •••

وكلام الشيخ جيد في وصف ظاهرة ترك العاطف في المحاورات ، ولكنه لم يعلل ذلك بعلة معقولة ، بل أتى بعلة أشبه ما تكون بالعلل النحوية الواهية ، وتعليل عبد القاهر لهذه الظاهرة أدق ولا ينقصه الا ادخال مصطلح المحاورات فيه ، فقد دلنا على السبب المقبول للفصل بين جمل المحاورات ، وهو أن الجملة السابقة فيها تحرك السامعين وتثير في نفوسهم سؤالا ، فتجئ الجملة التالية جوابا عنه ، ومن ثم يفصلان عن بعضهما كما يفصل الجواب عن السؤال المرح به (٢٠) • كما أن الشيخ عبد القاهر لم يهمل الإشارة الى أن هذا الأسلوب متعارف ومتبع في الكلام العربي •

• (١٨) البقرة ٣٠ •

• (١٧) دلائل الإعجاز ٢٤٠ •

• (١٩) التحرير والتنوير ٤٠١/١ •

• (٢٠) ينظر دلائل الإعجاز ٢٣٥ وما بعدها •

وقوله تعالى : « أو لم تؤمن » معطوف على مقدر ، أى ألم تعلم ولم تؤمن ؟ ، أو الواو للحال ، وعامل الحال فعل مقدر دل عليه « أنى » والتقدير : أأريك فى حال أنك لم تؤمن ؟ ، والاستفهام تقريرى ، لدل ابراهيم على الاقرار بما ثبت لديه واستقر عنده من الإيمان واليقين ، والمراد بالتقرير هنا : التقرير بما بعد الدفى ، لا التقرير بالنفى والمعنى : آمنت ، وهكذا فى كل ما دخلت فيه همزة التقرير على النفى ، كما فى قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » (٢١) وقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » (٢٢) فالمقصود بالتقرير فى ذلك : التقرير بما دخله النفى ، لا التقرير بالنفى ، فالمعنى : وجدك ضالا فهداك ، وشرحنا لك صدرك ، ومن البلاغيين من جعل الهمزة فى مثل هذا للانكار ، ومراده الانكار الذى ينفى النفى فيصير الكلام مثبتا (٢٣) ، غائقولان ينتهيان الى مراد واحد ، ولأن كنت أستحسن لفظ التقرير ، لعدم اشعاره بما يشعر به لفظ الانتار ، فيناسب مقامات كثيرة لا يستساغ فيها لفظ الانكار كالأيتين السابقتين •

ويعرض هنا تساؤل فحواه : ما وجه امتحان ابراهيم بهذا السؤال وهو غير شك ؟ والجواب عن ذلك : أن السؤال بكى قد يستعمل فى الشك ، فأراد الله تعالى بالسؤال أن يجيب ابراهيم بما يرفع هذا الاحتمال (٢٤) • ، وأجاب ابن عطية عن هذا التساؤل اجابة دفصلة فقلها عنه القرطبى فقال : بعض المنكرين لوجود شىء ، قد يعبرون عن انكاره بالاستفهام عن حالة لدنك الشىء يعلم أنها لاتصح ، فيلزم من ذلك أن الشىء فى نفسه لا يصح ، مثال ذلك : أن يقول مدع : أنا أرفع

• (٢١) الضحى ٦

• (٢٢) الشرح ١

• (٢٣) ينظر المطول ٢٣٧

• (٢٤) حاشية الشهاب ٢/٣٤٠

هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه ؟ فنهذه طريقة مجاز في العبارة ، ومعناها تسليم جدلي ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه ، فأرني كيف ترفعه ؟ ، فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاستراك المجازي ، خلص الله له ذلك ، وحمله على أن يبين الحقيقة ، فقال له « أَلَمْ تَؤْمِنْ » « قال بلى » فكمّل الأمر وتخلص من ذلك شك (٢٥) .

ولما كان ابراهيم عليه السلام مؤمنا موقنا بأنبعث يقينا لا يتزحزح، أجاب ربه عز وجل اجابة واضحة «قال بلى» أى علمت واثبتت بقدرتك على احياء الموتى ، و « بلى » حرف جواب يختص بالنفى ، ويفيد ابطاله واثبات ما بعده ، سواء كان نفيا مجردا أم مقرونا بالاستفهام ، فاذا قيل : لم يقيم زيد ، أو أَلَمْ يقيم زيد ، فنقول اذا أثبت انقيام له : بلى ، ونقول ان نفية عنه : نعم (٢٦) .

وما دام ابراهيم عليه السلام مؤمنا بقدرّة الله على احياء الموتى، فما سر طلبه اذا ؟ من هنا كان الاستدراك ، لبيان سر ما طلبه من رؤية كيفية احياء الموتى « ولكن ليطمئن قلبي » أى : طلبت ما طلبت ليطمئن قلبي ، ولكن : حرف ابتداء لمجرد افادة الاستدراك ، وليست عاطفة (٢٧) ، واللام للتعليل ، والفعل المضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، والاطمئنان معناه السكون ، واطمأن الرجل اطمئنانا وطمأنينة: سكن (٢٨) ، وهو حقيقة في سكون الأجسام ، وقد أطلق هنا بمعنى استقرار الفكر والنفس، فهو مجاز بتشبيه التردد الفكرى بالاضطراب والحركة ، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويا للحقيقة ، والقلب مراد

(٢٥) القرطبي ١١٠٧/٢ .

(٢٦) مغنى اللبيب ١١٣/١ ، ٣٤٦/٢ .

(٢٧) السابق ٢٩٢/١ .

(٢٨) الصحاح ملادة طمن .

به الفكر ، اذ القلب لا يضطرب عدد انشك ، ولا ينحرك عند اقامة الدليل ، انما ذلك للكفر (٢٩) •

والتعبير بقوله «ليطمئن قلبي» فيه اشعار بأهمية القلب ، وعظيم مكانته ، فهو موطن العقائد الصحيحة أو فاسدة ، ومنبع الاتجاهات مستقيمة أو رافعة ، وبهذا نطقت آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، من ذلك قوله تعالى : « ولما يدخل الايمان في قلوبكم » (٣٠) وقوله تعالى : « في قلوبهم مرض » (٣١) وقوله تعالى : « الا من أتى الله بقلب سليم » (٣٢) وقوله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (٣٣) ومن دعاء الرسول ﷺ : « اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك » •

وجملة « ليطمئن قلبي » بينت أن طلب ابراهيم عليه السلام كان على سبيل الاطمئنان ليزول عن قلبه الفكر في كيفية الحياة ، لأنه اذا شاهدها سكن قلبه عن الجولان في كيفاتها المتخيلة ، وتعينت عنده بالتصوير المشاهد (٣٤) ، وهو طلب لا يقدر في يقينه وايمانه ، لأنه للطمأنينة فيما تنزع اليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الايمان بالبعث الذي عرغه بالوحي والبرهان ، دون المشاهدة والعيان (٣٥) •

(٢٩) ينظر التحرير والتنوير ٣٩/٢ •

(٣٠) الحجرات ١٤ •

(٣١) البقرة ١٠ •

(٣٢) الشعراء ٨٩ •

(٣٣) البخارى ١/١٩٠ •

(٣٤) الانصاف (دماش الكشاف) ١/٣٩٢ •

(٣٥) المنار ٤٦/٣ •

الاجابة :

وبعد أن قرّر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بما آمن به من البعث وأقر ابراهيم بذلك ، وبين أن طلبه على سبيل الاطمئنان بالمشاهدة والمعينة ، أجابه المولى سبحانه وتعالى الى ما طلبه ، بأن أمره أن يقوم بتجربة عملية يشاهد منها هيئة احياء الموتى « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل مهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا » •

والفصل بين جملة « قال » وما قبلها للاستئناف البياني ، كما ذكرنا آنفاً ، وفاعل القول هو الرب سبحانه وتعالى ، وقد أضمر الفاعل هنا كما أضمر قبل ذلك ، نتمام ظهوره ، بتقديم ذكره صريحا في أول الآية الكريمة ، وهذا من الايجاز في المحاورات ، اذ يضمّر اسم كل من المتحاورين ، لتعينه وظهوره في بداية المحاوراة ، وعلى هذا السنن جرت محاورات القرآن الكريم •

وقد بين هذا الجزء من الآية الكريمة مراحل العملية التي كلف الله عز وجل ابراهيم بالقيام بها ، لكي يرى ما طلبه ، وتتمثل في أربع مراحل فصلتها أربعة أوامر : المرحلة الأولى : « فخذ أربعة من الطير » والفاء واقعة في جواب شرط مقدر ، أي : ان أردت ذلك فخذ أربعة من الطير (٣٥) • ، وفي حذف الشرط مع ذكر الفاء في الجواب ايجاز بديع مع الحدث على المسارعة بعمل المطلوب ، واعتباره أمرا عليه أن يفعله دون تردد ، ليشاهد مطلوبه ، ولأن ذكره يشعر بتوقف ما كلف بعمله على ارادته واختباره ، وقد لا يفعله ، وعند ذلك لا تتحقق له رؤية كيقية احياء الموتى •

والطير : مصدر طار يطير ، سمي به هذا الجنس المعروف •

ويطلق على الواحد والجمع (٣٦) • ، ويذكر ويؤنث ، ومن ثم لحقت الاء عدده « أربعة » باعتباره مذكرا ، وتتكبر أربعة للإشارة إلى تسبوعها وعزم تعيينها في أربعة مخصوصة ، ولعل جعلها أربعة لتكثير الأصناف والأجزاء عند التقطيع والخط ، وقال ابن عاشور : ليكون وضعها على الجهات الأربع : المشرق ، والمغرب ، والجنوب ، والشمال ، لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتى الأحياء (٣٧) • ولا دلالة في الآية على ذلك •

و « من » للتبعض ، وتدل على اختلاف أنواع الطير ، وتخصيص الطير بذلك لأنها أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخصوص الحيوان ، ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك (٣٨) •

وعدم تسمية الطير أو تحديد نوعه ، فيه رفق بابراهيم عليه السلام ، وتيسير للأمر عليه ، حيث ترك له أن يختار أى طير يستطيع الحصول عليه دون عنت ومشقة ، كما أن فيه اظهارة لكمال قدرة الله تعالى على احياء أى أنواع من الطيور يأتى بها ، نو كلف ابراهيم يأخذ طير مخصوص لربما شق عليه ذلك ، ولم يستطيع الحصول عليه ، أو قاد هذا إلى الظن بأن القدرة متعلقة بأحياء أنواع مخصوصة ، وهذا يظهر شطط بعض المفسرين حينما كلفوا أنفسهم بالبحث في أنواع الطير التى أتى بها ابراهيم عليه السلام ، وتسميتها دونما اعتماد على نقل صحيح ، واختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا ما كان أغناهم عن الولوج فيه •

والمرحلة الثانية « فصرهن إليك » أى : أملهن واضمهن إليك : من

(٣٦) ينظر الصحاح مادة « طير » •

(٣٧) التحرير والتنوير ٣٩/٣ •

(٣٨) أبو السعود ٢٥٦/١ •

صاره يصوره ويصيره ، وإذا أمله (٣٩) ، والعطف بالفاء للإشارة إلى أن املتهن إليه مترتبة على أخذهن ، وحاصلة عقب ذلك من غير مهلة . وفائدة املتهن وضمنهن إليه ، أن يتأملهن ، ويعرف صفاتهن مفصلة ، حتى يعلم بعد الاحياء أنهن على حقيقتهن ، لم يتغير جزء من أجزائهن موضعاً أو شكلاً (٤٠) ، وفيه فائدة أخرى هي أن تحدث بينه وبين انطير ألفة ومودة، حتى إذا دعاهن بعد الاحياء عرفته وأسرعن نحوه كما هي عادة الطيور والحيوانات مع من تألفه وتحس بعطفه نحوها .

والمرحلة الثالثة « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً » وهذه المرحلة تقتضى أن تسبقها مرحلة أخرى هي : أن يذبحهن ويقطعهن أجزاء ، وقد طويت هذه المرحلة لدلالة السياق عليها ، حيث إن أمره بأن يجعل على كل جبل جزءاً منهن ، يقتضى أن يذبحهن ويقطعهن إلى أجزاء ، ومن ثم يقوم بوضع هذه الأجزاء على الجبال ، ومن ثم قال العكبري وفي الكلام محذوف وتقديره : أملهن اليك ثم قطعهن (٤١) . وقال النبقاعي : عطف بكلمة المهلة تجاوزاً بعد تربيتهن عن ذبحهن ودرسهن ، وخططن حتى صرن لحمه واحدة لا يبين في جملتها شيء من الصور الذاهبة ، كما تصير المواليد تراباً عند موتها وتبددها ، صورة واحدة ترابية ، ليتطابق المثل والمثول مطابقة تامة (٤٢) .

وهذا من الإيجاز البديع في القصة القرآنية ، حيث تطوى المشاهد التي تفهم من السياق ، ويدن عليها النظم ، وهو بجانب ما فيه من

(٣٩) ينظر الكشف ٢٩٢/١ ، والصراح مادة « صير » .

(٤٠) ينظر أبو السعود ٢٥٦/١ .

(٤١) أملاء ما من به الرحمن ٥٢٠/١ . « بهامش الفتوحات » .

(٤٢) نظم الدرر ٦٨/٤ .

ايجاز يبعث على التدبر والتفكر في المشاهد المطوية ، لتتصل أطراف القصة في الذهن ، فيتصورها مرتبة كما حدثت في الواقع .

والعطف « بثم » يدل على وجود مدة زمنية فاصلة بين التعرف عليهن ، وتفريقهن على الجبال ، وهذه المدة مشغولة بالمرحلة المطوية ، وهى ذبحهن وتقطيعهن أجزاء واعدادهن للتفريق وتقديم الجار والمجرور « على كل جبل » على المفعول التصريح « جزءا » يشير الى العناية والاهتمام بتفريقها على الجبال ، لما فى ذلك من تباعد المسافات بين الأجزاء ، وجعل التفريق على الجبال دون غيرها لأنها عادة تكون على مسافات متباعدة ، ومسالكها عسيرة وعرة ، وفى ذلك تقوية لتفريق الأجزاء ، فاذا جمعت وأحييت بعد ذلك فهذا أدل على كمال القدرة ، وتقديم الجار والمجرور « منهن » على « جزءا » مع كونه صفة له لتخصيص التفريق بأجزاء الطير التى تعرف عليها ، وقطعها دون غيرها ، حتى لا يختلط عليه الأمر بعد أحيائها . فلا يستطيع التحقق منها ، وفى تقطيعها الى أجزاء وتفريقها على الجبال اثبات لكمال قدرة الله تعالى على احياء الموتى ، مهما كانت طريقة موتهم ، والهيئة التى ماتوا عليها ، فلو قطعت أجسادهم ، أو أحرقت أبدانهم ، أو فعل بهم ما فعل ، فالله عز وجل قادر على احيائهم .

والمرحلة الرابعة : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » ، أى نادهن يأتين إليك ساعيات مسرعات فى طيرانهن أو فى مشيهن على أرجلهن (٤٣) ، والعطف بثم يدل على التراخى الرتبى والزمنى بين المرحلتين ، و « يأتينك » مضارع مبنى على السكون لاتصاله بنون النسوة فى محل جزم لوقوعه فى جواب الأمر والنون فى محل رفع فاعل ، والكاف فى محل نصب مفعول به ، و « سعيا » حال من فاعل « يأتينك » وفى

تقييد الاتيان به اشارة الى اسراعهن في المجيء اليه ، لأن السعى في الأصل : العدو ، يقال : سعى الرجل يسعى سعياً ، أى : عداً (٤٤) •

وقال ابن عاشور : والسعى من أنواع المشى لا من أنواع الطيران ، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت اليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، لئلا يظن أنهن لم يمتن تماماً (٤٥) • ، ولنا فيما قاله نظر ، إذ لو أعيدت اليهن حياة مخالفة لحياتهن السابقة ، لكان ذلك مثاراً للتساؤل : لماذا لم تعد اليهن الحياة الأولى ؟ أهى غير ممكنة ؟ وما السر في خلقهن على حياة مخالفة للأولى ؟ ... وإذا كان السعى من أنواع المشى ، فهل كان الطير لا يمشى على رجليه قبل ذبحه وتقطيعه ؟ ؟ حتى نقوله عندما عاد هاشيا : انها حياة مخالفة للأولى ؟ ان المعروف عن الطير أنه كما يطير يمشى أيضاً ، فلا مخالفة بين الحياتين . ونحوه : لئلا يظن أنهن لم يمتن تماماً ، فهذا الظن من المحال أن يعرض أن قام بذبح الطير ، وقطعها أجزاء ، وفرق أجزائها في جبال متباعدة • ، والذي أراه أن تفسير الزمخشري الذي سقاه أنفا أدق وأشمل وأولى بالاتباع وفي مجيء المرحلة الرابعة على هيئة الأمر وجوابه ، اشعار بسرعة اتيانهن اليه ، ثور دعائه لهن ، وربط لحيثهن اليه بدعائه لهن ، ليكون مستعداً لمشاهدة أهم خطوة في عملياته التي قام بها ، فبهذه الخطوة يتحقق له ما رآه • ، وقد بينت جملة الجواب نتيجة العملية التي سيقوم بها مقدماً في هذا طمأننة وتسكين له ، بدلالته على نتيجة عمله ، قبل أن يقوم به ، اذ يعرف أنه لن يخيب رجاءه ، ولكن سيحصل على مراده •

هذه مراحل العملية التي أمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام

(٤٤) التصحيح مادة « سعى » •

(٤٥) التحرير والتنوير ٤٠/٣ •

بتنفيذها ، ليرى هيئة احياء الموتى ، وبمنظرة أخرى فيها : نجدتها قد جاءت بصيغة الأمر ، دلالة على الاهتمام بتنفيذها ، وترتبت ترتيباً عقابياً لارما ، بحيث تسلم كل مرحلة منها الى التى تليها ، ولا يمكن تقديم مرحلة على أخرى ، فعليه أن يبدأ أولاً بأخذهم فيتعرف عليهم بضمهم انيه ، ثم يقطعهم ويفرق أجزاءهم على الجبال ثم يناديهم فيأتبهم مسرعات .

وقد بولغ في تحقيق شيوخ الطير، وتفريق أجزاءها مبالغات شتى . حيث أمر بأخذ أربعة من الطير ، غير محددة بنوع ولا بصفة ، يختارها بإرادته ، ويتعرف عليها ، ويقطعها أجزاء كبيرة أو صغيرة حسب رغبته ، ويفرق هذه الأجزاء بالكيفية التى يراها ، وكل ذلك دفعا لمظنة اختصاص القدرة بأحياء نوع دون نوع ، أو ما هو في مكان دون ما هو في مكان آخر ، أو ما هو على كيفية معينة دون غيره .

ونكليف ابراهيم عليه السلام بتنفيذ هذه العملية بنفسه بدلا من أن تنفذ أمامه ، يحقق شيئين : أن يكدر ويتعب في سبيل الوصول الى مراده فيسر اذا عاين الحقيقة ، ويتمكن في ذهنه فضل تمكن لحصوله عليها بعد تعب ومشقة ، وأن يزداد يقينا واطمئنانا بمباشرة العمل بنفسه ، واطلاعه على جميع مراحل ، ومشاهدته قدرة الله تعالى ماثلة أمام عينيه .

ولم تبين الآية موقف ابراهيم عليه السلام من هذا التكليف ، ولا ما وصل اليه من نتائج ، ومما لا مرأ فيه أنه امتثل لأمر الله تعالى ، وقام بتنفيذ ما كلفه به ، فعاين قدرة الله تعالى ، وشاهد كيفية احياء الموتى ، كما طالب من ربه عز وجل . وانما اقتضت الآية على حكاية أوامر عز وجل من غير تعرض لامثاله عليه السلام ، ولما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى . . للايذان بأن ترتب تلك الآيات

على الأرواح الجبيلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث
لا حاجة له الى الذكر أصلاً (٤٦) •

وهذا من الإيجاز القرآني البليغ ، وقد تمثل هذا في طي ما يدل
عنه الحال : ويهتدى اليه العقل ، اذ لا يتصور عدم استجابة ابراهيم
لما كلف به ، وفائدته في النهاية عائدة اليه ، وهو الذي رجا ربه وطلب
منه أن يريه هيئة احياء الموتى ، كذلك ليس من بلاغة الكلام أن يقال بعد
ذلك : واستجاب ابراهيم لأمر الله تعالى وأخذ الطبر وتعرف عليها ،
وذبحها وقطعها أجزاء وفرقتها على الجبال ثم دعاها فأثنته ساعة ، لأن
هذا تكرار همل ، وتطويل مجوج يخرج الكلام عن ساحة البلاغة ، وقد
هزه عنه القرآن الكريم الذي أعجزت بلاغته الانس والجن •

الختامة :

ويختتم هذا المشهد من قصة ابراهيم عليه السلام بأمر خامس
معطوف على الأوامر الأربعة السابقة : « واعلم أن الله عزيز حكيم »
وهو ختام مترتيب على ما سبقه من أحداث عجيبة ، عاين بها ابراهيم
هيئة احياء الموتى ، ويشاهد فيها دلائل القدرة الالهية ، لأن من يشاهد
هذا الحدث الخارق ، يعلم علماً يقينياً قائماً على المشاهدة أن الله تعالى
« عزيز » غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريد ، « حكيم » ذو حكمة
بالغة في أفعاله (٤٧) و في مجيء الوصفين على صيغة « فاعيل » ،
أشعار بكمال عزة الله تعالى ، وتمام حكمته •

وفي التصريح بلفظ الجلالة تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
اذ أن الظاهر أن يقال : واعلم أنني عزيز حكيم ، كما يقال : قال الشيخ
العلمية : أد واجبك واجتهد في دروسك واعلم أنني مكافئك • وهذا من

(٤٦) أبو السعود ٢٥٧/٦ •

(٤٧) ينظر أبو السعود ٢٥٧/٦ •

وضع المظهر موضع الخسر ، وقد أفاد في الجملة القرآنية تربية المهابة ،
 بذكر لفظ الجلالة ، والاشعار بعلو الحكم ، فهو عزيز حكيم لأنه الله تعالى
 وفيها لون آخر من ألوان التواوين في النظم ، حيث عدل عن لفظ « الرب »
 المتقدم في صدر المشهد الى لفظ الجلالة ، فلم يكن التعبير : واعلم أن
 الرب أو أن ربك عزيز حكيم ، لما في الاسم الجليل من مهابة وخشية
 وعظمة ، لاختصاصه بالمولى جل شأنه ، والمقام مقام تقرير حكم عام ،
 فيناسبه ما يبعث على الخشية والرغبة لا ما يوحى بالعطف والشفقة
 كما أن في « ربك » اشعاراً بالخصوصية ، وليس هذا مقامها •

وقد يقال : ما السر في أن الله عز وجل أمره أن يعلم أنه جل شأنه
 عزيز حكيم ، وإبراهيم عليه السلام يعلم ذلك يقينا ؟
 ولنا في الجواب عن ذلك ثلاثة ردود :

أولها : أن يكون الأمر بالعلم على سبيل الهاب والتهيج ، حيث
 أمر بعلم شيء يعلمه ، كما في قوله تعالى : « يأيها النبی اتق الله ولا تطع
 الكافرين والمنافقين » (٤٨) ، وفي هذا ما فيه من إثارة الشعور والوجدان
 والانفعال ، وهز المشاعر ، ودغدغة العواطف ، حيث تكون النفس عند
 سماعه أحسن تقنيا ، وأكثر تمسكا به (٤٩) •

وثانيها : أن العلم المسأور به هنا قائم على المشاهدة والمعاينة
 بعد رؤيته هيئة أحياء الموتى ، وعلمه السابق قائم على البراهين العقلية
 وبذلك كمل له العلمان : علم العقل ، وعلم الحس •

وثالثها : تنزيله وهو عالم بذلك منزلة غير العالم ، رعاية للمقام
 إذ أنه طلب من الله أن يريه هيئة أحيائه الموتى ، مع علمه بأنه قادر على
 ذلك ، فعومل في الخطاب معاملة غير العالم •

(٤٨) الأحزاب ١ •

(٤٩) مع أسرار التعبير القرآني ٨ •

وينبغي في هذا المقام أن نقارن بين ختام هذه الآية وختام الآية السابقة عليها . والتي عرضت مشهد « عزيز » فموضوعهما يكاد يكون واحدا ، كما بينا في أول حديثنا عن هذه الآية .

فقد ختم مشهد عزيز بقوله تعالى حكاية عنه : « فلما تبين له أنه أعلم أن الله على كل شيء قدير » وختم مشهد إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : « وأعلم أن الله عزيز حكيم » ، فجاء ختام الآية الأولى أسلوبا خبريا حاكيا اعتراف « عزيز » واقاراره بأن الله على كل شيء قدير ، وجاء ختام الآية الثانية أسلوبا انشائيا أمرا إبراهيم عليه السلام أن يعلم أن الله عزيز حكيم ، ولعل السر في ذلك : أن سؤال « عزيز » يوحى بالشك ، فترك حتى يشاهد بنفسه آيات الله تعالى ، ويعاين قدرته على إحياء الموتى ، فلما تبين له ذلك ورآه ماثلا أمامه ، اعترف ، وأقر بأن الله على كل شيء قدير ، أما طلب إبراهيم عليه السلام فهو على سبيل الدعاء ، ولا ينم عن شك ، ومن ثم أمر بتنفيذ عملية يشاهد من خلالها هيئة إحياء الموتى ، كما أمر بأن يعلم أن الله عزيز حكيم وكان هذا قبل أن يقوم بما كلف به ، فلم يترك حتى يشاهد النتيجة ويقر بنفسه ويعترف ، لأنه مقر ومعتزف بقدرته الله على إحياء الموتى ، ولا يداخله شك في هذا .

وأُسست فاصلة الآية الأولى على صفة القدرة ، لأن سؤال « عزيز » كان يتعلق بها ، حيث يشعر بشكه في القدرة والاستطاعة ، فتناسب ذلك أن يثبت القدرة فيقول كما حكى القرآن عنه « أعلم أن الله على كل شيء قدير » ، بينما أُسست فاصلة الآية الثانية على صفتي العزة والحكمة ، لأن طلب إبراهيم عليه السلام لم يتعلق بالقدرة فهو مقر ومعتزف بها ، إنما تعلق برؤية الكيفية ، وهي أمر خارق للعادة لا يخضع للأسباب ، فتناسب ذلك وصف العزة والحكمة قاله سبحانه

وتعالى عزيز غالب لا يعجزه شيء يريد من الخوارق ، وحكيم في أفعاله
التي يجريها وفق أسباب عادية أو غير عادية .

وتختتم الآية الكريمة بهذا الأمر المقرر لمبدأ هام من مبادئ العقيدة
وهو العلم بأن الله متصف بصفتي العزة والحكمة ، وبختم هذا المشهد
من مشاهد قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد دل فيما دل على فضله ،
وعاى مكانته ، قال أبا السعود : وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل
ويمن الضراعة فى الدعاء ، وحسن الأدب فى السؤال ، حيث أراد الله
تعالى ما سأله فى الحال على أيسر ما يكون من الوجوه ، وأرى « عزيزا »
ما أراه بعدها أماته مائة عام (٥٠) .

الحلقة الثانية

محاجة أهل الكتاب في ملة إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى :

« يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون • ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين • ان أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة آل عمران تحكي مجادلة أهل الكتاب في ملة إبراهيم عليه السلام ، حيث ادعى اليهود أنه يهودي ، وزعم النصارى أنه نصراني ، وتردد على الطائفتين زعمهما ردا قويا ، وتبين حقيقة دينه وأنه كان حنيفا مسلما • وسورة آل عمران مفعمة بالحديث عن أهل الكتاب : تدعوهم الى الاسلام ، وتبين لهم العقيدة الصحيحة ، وتفنن مزاعمهم حول القرآن الكريم ، ودين الاسلام ، وتبطل مفترياتهم في حق مريم وعيسى عليهما السلام ، وتبين أن عيسى مثل آدم خلقه الله بقدرته ، وجعله بشرا سويا وليس له من صفات الألوهية ما يزعمون • وتأمّر الرسول ﷺ بأن يدعو من يجادل في أمر عيسى بعد اتضاحه الى المباهلة واستتزال لعنة الله على الكاذبين « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (٢) • وفي سبيل ارساء عقيدة الوجدانية ، وبناء الوحدة الانسانية يؤمر ﷺ أن يدعوا أهل الكتاب الى الاتفاق على كلمة واحدة هي عبادة الله وحده لا شريك له ، وبذلك يتحد الجميع في ظل عقيدة التوحيد ، فان أعرضوا عن ذلك فليتمسك هو ومن معه بالاسلام دين الله القويم « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٣) •

وبعد هذا يساق جدال أهل الكتاب في ابراهيم عليه السلام وذلك في الآيات التي سنعرض لتحليلها ، وهذا الجدل والرد عليه مرتبط بما قبله ارتباطا وثيقا ، اذ هو قضية من قضاياهم الهامة التي جادلوا فيها الرسول ﷺ ، فقد قدم وفد من نصارى نجران الى المدينة والتقى باليهود واجتمعت الطائفتان عند رسول الله ﷺ ، وجادلوه في عدد من القضايا منها أمر عيسى عليه السلام ، وتنازعت الطائفتان عنده في شأن ابراهيم عليه السلام • أخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات (*) •

ابطال محاجة أهل الكتاب :

تبدأ الآيات بالانكار على أهل الكتاب تنازعهم في ابراهيم ، وتبطل دعوى اليهود والنصارى في شأن ملته بدليل عقلي لا ينكر « يا أحن

(٢) آل عمران ٦١ •

(٣) آل عمران ٦٤ •

(*) جامع البيان ٣/٢١٦ •

الكتاب لم تتعاجون في ابراهيم وما أنزنت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » •

والنداء لتنبية أذهانهم وإيقاظ أسماعهم لما يعرض عليهم كي يعقلوه وينتدبروه ، وندأؤهم بأهل الكتاب من اليهود والنصارى لتذكيرهم بالكتاب النازل على كل طائفة منهم مما يقتضى أن يعملوا بما فيه ، ويسيروا على منهجه ، وفي تذكيرهم بذلك مزيد توبيخ لهم على تنازعهم في أمر ابراهيم عليه السلام بالباطل ، كما يشير هذا الوصف الى أن الفريقين من واد واحد ، ويقفون معا في خندق ضد الاسلام وأهله •

و « ما » استفهامية ، حذفت ألفها لدخول الجار عليها فرقا بينها وبين الموصولة ، والاستفهام للانكار والتعجب من تنازعهم في ملة ابراهيم ، ولا محل لهذا التجادل لأنه لا يمكن أن يكون يهوديا أو نصرانيا لتقدمه على نزول الديانتين • وتسمية تنازعهم تحاجا مع عدم قيامه على حجة مبنية على ادعائهم وحكاية أوهامهم • وفي الجملة ايجاز بحذف المضاف والتقدير : لم تتعاجون في ملة ابراهيم ، وفي حذف المضاف اشعار بأن الجدل في حقيقة ابراهيم وماهيته ، لما أن دين الانسان هو المحدد لهويته والفصح عن حقيقته ، فاعتبر جدالهم في دين ابراهيم جدالا في ابراهيم نفسه •

وجملة « وما أنزات التوراة والانجيل الا من بعده » هي مثار التعجب ومحط الانكار ، وبها بطلان دعواهم ، اذ لا يعقل ولا يصدق أن يكون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا وهو متقدم على نزول التوراة والانجيل بزمن كبير ، حيث كان بينه وبين موسى ما يقرب من ألف سنة (٤) •

(٤) ينظر جامع البيان ٢/ ٢١٦ •

والنقص بالنفى والاستثناء لتأكيد الحكم الذى تضمنته الجملة ،
وتقرير ما يستفاد منها ، ولما أن الكلام على خلاف ما يريد المخاطب
ويروج له ، مما يترتب عليه أن يمارى فيه •

ولما كان الدليل على بطلان زعمهم من الوضوح بحيث لا يخفى
على ذى عقل ويخهم على اغفاله وعدم تعقله « أفلا تعقلون » وهمزة
الاستفهام التوبيخى داخلة على مقدر هو المعطوف عليه بالفاء ، أى
ألا تتفكرون فلا تعقلون يطلان قولكم ، أو أنقولون ذلك فلا تعقلون
بطلانه • وقيل ان الهمزة مقدمة عن تأخير وموقعها بعد حرف العطف
فقدمت عليه لأن الاستفهام له الصدارة ، أى فألا تعقلون • والأول هو
ما سار عليه الزمخشري ومن تبعه ، والثانى رأى الجمهور (٥) •

وحذف مفعول « تعقلون » مشعر بعموم نفى تعقلهم لموضع
الكلام وغيره • ويمكن أن يكون الفعل المتعدى منزلاً منزلة اللازم
لوصفهم بعدم العقل على الإطلاق دون تقييده بمفعول معين • وفى كلام
التخريجين من المبالغة فى ذمهم وتجهيلهم ما فيه •

وعقب أبطال زعمهم وتوبيخهم على عدم العقل ببيان كمال حماقتهم
وجهالتهم ، حيث يجادلون فيما لا علم لهم به « ها أنتم هؤلاء حاججتم
فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم » • والهاء حرف
تنبيه ، ويترد دخولها على ضمير الرفع المنفصل إذا كان مبتدأ مخبراً
عنه باسم الإشارة (٦) • وفائدتها إيقاظ أسماعهم ولفت أذهانهم الى
ما يلحق اليهم لأهميته لهم • واسم الإشارة « هؤلاء » لتحقيرهم
وتتقيرهم ، وفى تكرار التنبيه بالهاء تأكيد له •

(٥) ينظر الكشف ٤٣٦/١ • وأبو السعود ٤٨/٢ • ومغنى

اللبيب ١٦/١ •

(٦) الجنى الدانى فى حروف المعانى ٣٤٧ •

وبيّنت الجملة الابتدائية بجملة « حاجتكم فيما لكم به علم »
مما أشير إليه في التوراة والانجيل • والمقصود جدالهم في شأن موسى
وعيسى عليهما السلام • وابهامه لما أن الذي قالوه في شأنهما ليس كانه
صحيحا ، فأبهم للدلالة على الجملة لا على التفصيل •

والاستفهام في قوله « فلم تحتاجون فيما ليس بكم به علم »
للانكار والتعجب من حماقتهم وخوضهم فيما يجهلون • والمقصود
شأن ابراهيم عليه السلام وابهامه لتعميم الانكار عليهم خوضهم
في كل ما ليس لهم به علم من أمر ابراهيم أو غير ذلك • وتتكبر « علم »
في الموضعين لبيان ضآلته وقصوره ، أي علم ما بصرف النظر عن مدى
صحته • ومن ثم قيل : ليس المراد وصفهم بالعلم حقيقة ، وإنما المراد
« هب أنكم تحتاجون فيما تدعون علمه على ما يلوح لكم من خلال كتابكم
في زعمكم فكيف تحتاجون فيما لا علم لكم به ، ولا ذكر ولا رمز له في
كتابكم البتة (٧) ؟ »

وفي الكلام طباق سلب بين « فيما لكم به علم » و « فيما ليس لكم
به علم » وفيه إيضاح للمعنى من خلال الجمع بين المتضادين ، وبضدها
تتميز الأشياء • وذلك بجانب ما فيه من تحسين للأسلوب وتجانس
فيها •

وذلت الآية بقرله « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وهو يؤكد ما
سبق ويقرره ، وفي اسم الجلالة اشعارا بعلة ما تضمنته الجملة، وترتبة
للمهابة والخشية • وتقديمه على الخبر الفعلي يفيد التخصيص ، وأد
التخصيص بنفى العلم عنهم بعد اثباته لله تعالى دون سواه ، فجاء
التخصيص مفهوما من التقديم ، ومصرحا به من النفي بعد الإثبات ،
وبذلك لا تكون لهم شائبة في فهم المقصود •

وحذف مشعولى « يعلم » و « تعلمون » مفيد للتعميم فى العلم
المثبت لله تعالى ، والمنفى عنهم ، أى والله يعلم كل شىء وأنتم لا تعلمون
شيئاً ، ويدخل فى ذلك شأن إبراهيم عليه السلام الذى هو محل الجدل .
ويجوز جعل الفعلين منزلين منزلة اللازم ، لوصف الله تعالى بالعلم
المطلق ، ووصفهم بالجهل المطبق . وعلى كل ففى التعبير القرآنى قوة فى
بيان علم الله تعالى وجهل أهل الكتاب . وفى الجملة طباق سلب يوضح
المعنى ويقويه ، وبحسن العبارة ويفخمها .

الحين إبراهيم عليه السلام :

وبعد ابطال زعمهم فى إبراهيم بالدليل العقلى الذى لا يقبل الشك ،
وتوبيخهم على الجدل فيما لا علم لهم به ، صرح بما يفهم مما سبق
من كونه غير يهودى ولا نصرانى ، وبين دينه الحقيقى « ما كان إبراهيم
يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

والآية واردة بأسلوب القصر الذى طريقته العطف بلكن ، فنص
على المنفى والمثبت معا لأن المقام فى حاجة الى إيضاح وتبيين . اذ نفى
عن إبراهيم كونه يهودياً أو نصرانياً ، وأثبت كونه حنيفاً مسلماً . ولما
كان المقام مقام معارضة فى الصفة التى عليها إبراهيم جاء القصر
قصر موصوف على صفة ، لما يصحبه من الاهتمام بالصفة والتركيز
عليها ، وتأكيد وجودها دون غيرها ، فإبراهيم ليس له من الصفات الا
كونه حنيفاً مسلماً .

واعادة المنفى فى « ولا نصرانياً » للنص على نفى انصرانية عته
على سبيل الاستقلال لا التبعية . وفى نفى اليهود والنصرانية عن
إبراهيم وأثبت الحنيفية والاسلام له دلالة على أن الديانتين المنفيتين
لا تمثلان الطريق المستقيم والنهج الحق الذى ارتضاه الله لعباده بعد
أن نالهما من التحريف والتزوير ما نالهما .

وجملة «وما كان من المشركين» ايغال ينفي عنه كونه من المشركين عبدة الأصنام من العرب الذين كانوا يدعون أنهم على ملته ، وفيه تعريض باليهود والنصارى حيث أشركوا بقولهم : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله • ولم يكن التعبير : ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا ، لأن المقام مقام حديث مع اليهود والنصارى ، والآيات نزلت بسبب مجادلتهم للرسول ﷺ وتنازعهم أمامه في شأن ابراهيم ، فنفي كونه منهم أولا ، ولما تم المعنى المقصود نفى كونه من المشركين على سبيل الايغال كما قدمنا ، ولأن في هذا أيضا تنقيص على كونه غير مشرك عن طريق نفى هذه الصفة عنه على سبيل الاستقلاال : وهذا ما يناسب الرد القوي على مشركى قريش في دعواهم أنهم على ملته • ولم يكن التعبير : وما كان مشركا لأن التعبير القرآنى نفى أن يكون من جنس المشركين وفي هذا نفى للشرك عنه وزيادة ، اذ ينفي عنه أن يكون متخلقا بأخلاقهم الذميمة التى لا تدخل في أصل العقيدة •

أولى الناس بابراهيم :

وما دام ابراهيم حنيفا مسلما وليس يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا فمن أقرب الناس اليه وأخصهم به ؟! وتبين الآية الأخيرة ذلك « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا الذبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » •

والتأكيد بان واللام لتحقيق الحكم وتقريره ، حيث يقال في مواجهة من يعارضون ذلك من اليهود والنصارى والمشركين • وقد بينت الآية أن أحق الناس به وأقربهم اليه ثلاثة :

أولهم : « الذين اتبعوه » أى اتبعوا ملته • وقيل اتبعوه لأنه هو المبلغ عن الله بها فمن تبعه فقد تبع ملته من باب أولى •

وثانيهم : « هذا الذبى » وهو محمد ﷺ واسم الإشارة لتمييزه اكمل تمييز وتعظيمه وتفضيحه وعطفه على « الذين اتبعوه » من عطف

الخاص على العام ، لأن النبي ﷺ ممن اتبعه في أصول الاسلام
الحديث كما جاء في قوله تعالى « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم
حنيفاً » (٨) وفي عطفه عليهم مباشرة اشارة الى أن اليهود والنصارى
السابقين على النبي ﷺ ليسوا من أتباعه ، وليسوا من أقرب الناس
اليه .

وثالثهم : « الذين آمنوا » بمحمد ﷺ لأنهم متبعون له أسوة
بنبيهم . ووصفهم بالايمان فيه تشريف لهم ، واثارة الى أنه
لا يطلق الا عليهم ، وهم له مستحقون .

وترتيب هؤلاء الأقربين قائم على السبق الزمنى ، حيث قدم
الذين اتبعوه لأنهم كانوا في زمانه وعصره ، وأتبعوا بالنبي ﷺ
لتأخر زمانه عنهم فهو التالي اهم من هذه الناحية . وجاء المؤمنون في
المرتبة الثالثة لأن اتباعهم له كان عن طريق اتباعهم لنبيهم محمد ﷺ .
ثم ختمت الآية بتذييل يجمع هذه الطوائف « والله ولي المؤمنين »
ينصرهم . ويجازيهم على ايمانهم بالحبسنى . وجمعهم تحت وصف
الايمان مشير الى أنه أعلى الأوصاف التى ينصوى تحتها الموحدون
والسائرون في طريق الله المستقيم .

وبهذا الختام الطيب ينتهى حديث الآيات في هذا الموضوع .

الحلقة الثالثة

البراءة من عبادة الأصنام

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون • الا الذى مطرنى فانه سيهدين • وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون • » (١)

بين يدى الآيات :

هذه آيات ثلاث من سورة الزخرف ، وهى تحكى براءة ابراهيم عليه السلام من معبودات أبيه وقومه ، وتبين تمسكه بعبادة الله تعالى الذى خلقه وهده ، ووصيته لذريته بالانتماء هذه العقيدة •

وتركز سورة الزخرف فى بدايتها على الحديث عن تكذيب السابقين لرسلم « وكم أرسلنا من نبي فى الاولين وما يأتيهم من بنى الا كانوا به يستهزئون » (٢) وتذكر اعتراف المشركين بالألوهية مع عبادتهم الأصنام ، وتذكر بعض معتقداتهم وأعمالهم كجعلهم الملائكة بنات الله ، واحتقارهم البنات ، وزعمهم أنه لولا مشيئة الله ما عبدوا ما يعبدون ، وهذا تخرص وافك مبين « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون » (٣) •

وتبين تمسك المشركين بتقليد آباؤهم وهذا ليس جديدا فى مسلك الكافرين فقد تمسك السابقون بتقليد الآباء وكذبوا رسلم فيما جاءوا به وكانت نهايتهم انتقام الله منهم ، وجعلهم عبرة للناظرين « فانتقدنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المذابين » (٤) •

(١) الزخرف ٢٦ - ٢٨ •

(٢) الزخرف ٦ ، ٧ •

(٣) الزخرف ٢٠ •

(٤) الزخرف ٢٥ •

(٣٠ - خصائص النظم)

وبعد الدخول الى النظر في حال المكذبين تعرض السورة بعض قصص الأنبياء وعاقبة المكذبين من أقوامهم • وتبدأ بموجز لقصة ابراهيم عليه السلام مع قومه ، يحكى براءته مما يعبدون ، ووصيته بنبيه وذريته بعبادة الله وحده لا شريك له • وذلك لأن المغام مقام حديث عن مشركى قريش ومعتقداتهم وهم يتصلون بابراهيم حلة نسبية ويفخرون بانتسابهم اليه ، فاذا علموا أنه تبرأ من عبادة الأصنام وأوصى عقبه بعبادة الله الواحد ، كان ذلك دافعا لهم على نبذ عبادة الأصنام ، واتباع الرسول ﷺ في دعوتهم الى توحيد الله تعالى ، والا كانوا عاقين لأبيهم ابراهيم عليه السلام بمخالفتهم لعقيدته ووصيته •

مع الآيات :

تحتوى الآيات الثلاث على ثلاثة موضوعات : البراءة مما يعبده قومه ، وتمسكه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وغرس عقيدة التوحيد فى عقبه • ونأتى الى تفصيل ذلك :

الموضوع الأول : اعلان البراءة مما يعبده قومه ، وهذا بداية الحلقة ويتضمنه قوله تعالى : « واذا قال ابراهيم لأبيه اننى براء مما تعبدون » • و « اذ » منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى ﷺ ، أى واذكر لهم وقت قول ابراهيم لأبيه وقومه ... نيعتبروا بما فيه ، وبقلعوا عن عبادة الأصنام الى عبادة الله وحده لا شريك له • وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكره ، لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فاذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا كأنه مشاهد (٥) •

وحكاية قوله « دون وصف فعله بأن يقال : واذا تبرأ ابراهيم مما

(٥) أبو السعود ٧٩/١ •

يعبدون ونحو ذلك • ما في ذكر قوله من تأكيد لبراءته من معبوداتهم، وحكاية قوله لمشركي قريش كي يتعضوا بمقالة أبيهم الأعلى • وانفراد الأب بالذكر مع دخوله في القوم للتخصيص على أنه قال ذلك لأبيه على وجه الخصوص ، وعطف القوم على الأب من عطف العام على الخاص وفيه بيان لاعلانه البراءة على الجميع دون خوف أو مداراة • وتأكيدا قوله لتحقيق مضمونه أمام قومه والتأكيد لهم بأنه جاد في براءته من معبوداتهم ، ونون الوقاية مشعرة بشدة التأكيد على ذلك •

و « براء » في الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث (٦) • وفي الاخبار به مبالغة في وصف نفسه بالبراءة وفي التعبير به « دون ما يؤدي معناه من الألفاظ دلالة على رفضه التام لعبادتهم ومعبوداتهم ، فهو أقوى الألفاظ دلالة على ذلك • وقوله « مما تعبدون » دون : من أصنامكم ونحوه لتخفيف معبوداتهم بابهام اسمها الصريح ، واقتناؤا براءته كل ما يعبدون من أصنام وكواكب وغير ذلك • وللاشعار بعلّة البراءة منها وهي عبادتهم لها ، وصيغة المضارع « تعبدون » تصور حالتهم الحاضرة في عبادتهم الأصنام واستمرارهم على ذلك •

والموضوع الثاني : تمسكه بعبادة الله وحده لا شريك له ويدل عليه قوله تعالى « الا الذي فطرني فانه سيهدين » والاستثناء منقطع والمعنى : لكن الذي فطرني فانه سيهدين • وقيل الاستثناء متصل ببناء على أن « ما » تعم أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله ويشركون به الأوثان • ويمكن أن تكون « الا » صفة بمعنى غير و « ما » نكرة موصوفة ، أي اننى برىء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني (٧) • وفي التعبير بالذى فطرني دون لفظ الجلالة دعوة الى عبادته مع

(٦) الصحاح مادة : برأ •

(٧) ينظر الكشف ٤٨٠/٣ والبحر المحيط ١١/٨ •

اقامة الدليل على أحقيته بالعبادة فهو الذى خلقه ولا يستحق العبادة .
الا من خلق عبده • و « سيهدين » أى يثبتنى على الهداية ، فانسين
للتأكيد لا للاستقبال • وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (٨) •
ونؤكد الجملة لتحقيق مضمونها وتقريره •

والموضوع الثالث : غرس عقيدة التوحيد فى عقبه • ويدل على ذلك
قوله تعالى « وجعلنا كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » • أى وجعل
ابراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها ، وأشعر بها قوله « اننى براء مما
تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين » جعلها باقية فى ذريته فلا يزال
فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيده ، وهذا كما فى قوله تعالى (٩) .
« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا
تموتن الا وانتم مسلمون » (١٠) •

والتعبير عنها بالكلمة لقله ألفاظها وان كانت غزيرة المعانى • وهذا
مشعر فى حد ذاته بالوحدانية ، فهى كلمة واحدة لا كلمات متعددة •
واسم الفاعل « باقية » يشير الى الثبوت والاستمرار بصيغته ، والى
الدوام والبقاء بمادته • واثار العقب على الأبناء أو الذرية لما فيه
من اشعار بالعموم والشمول لكل من أعقبه وتناسل منه •

وعلى النجمل بقوله « لعلهم يرجعون » أى جعلها باقية فى عقبه رجاء
أن يرجع اليها من أشرك منهم بدعاء الموحّد • أو بسبب بقائها فيهم ،
وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف أى لعل مشركيهم ، أو هو من
اسناد ما للبعض الى الكل (١١) •

(٨) أبو السعود ٤٥/٨ •

(٩) البقرة ١٣٢ •

(١٠) الكشاف ٤٨٤/٣ •

(١١) أبو السعود ٤٥/٨ ، والألوسى ٧٧/٢٥/١٣ •

الحلقة الرابعة

الناسى بإبراهيم

قال الله تعالى :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا براءء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم • لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الممتحنة وهى تعرض جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام يحكى براءته من المشركين ومعاداته للكافرين هو والذين آمنوا معه ، وهذا الجانب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع سورة الممتحنة ، اذ تدور حول النهى عن موالات أعداء الله وأعداء المؤمنين ، وتحت على القبرؤ منهم وعدم هودتهم •

وكان سبب نزول هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أنه كان رجلا من المهاجرين ، ومن أهل بدر ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد معه ، وأمر بالتجهيز لذلك قال : « اللهم عم عليهم خبرنا » وجرى الأمر فى سرية قامة • فكتب حاطب كتابا وبعثه مع امرأة من قريش الى أهل مكة •

يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يدا
فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها،
وأرسل إلى حاطب يناقشه ويؤممه على ما فعل ، واعتذر حاطب وتحمس
عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ،
فقال رسول الله ﷺ : أنه قد شهد بدرا وما يدريك بعن الله أطلع على
أهل بدر فقال « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) •

وعلى أثر ذلك نزلت الآيات الأولى من السورة تنهى المسلمين عن
موالاة أعداء الله تعالى وأعدائهم من الكافرين الذين أخرجوهم من
ديارهم • وتبين عدم نفع الأرحام والأولاد يوم القيامة فإنه يفصل بين
الناس ولا تغنى نفس عن نفس شيئا •

ويعقب هذا عرض براءة إبراهيم عليه السلام من الكافرين من
قومه ، وترك مودتهم وقطع صلته بهم ، ويجعل في ذلك أسوة للمسلمين
يأتسون بها ويسيروا على منوالها في علاقتهم بالكافرين • وبذلك كان
التناسب تاما بين هذا الجانب من قصة إبراهيم وما سبقه من آيات
اذ هو درس عملي فيه تطبيق لما أمروا به ، وقد طبقه خليل الله
إبراهيم عليه السلام الذي هو أبو المسلمين •
الأسوة وموضعها :

تبدأ الآيات بحكم يقرر وجود قدوة حسنة للمؤمنين في إبراهيم
عليه السلام والذين آمنوا معه « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم
والذين معه » •

والتأكيد بقدر لاثبات الحكم قويا في أذهان المخاطبين ، في مقام
يحتاج إلى التأكيد ، لما صاحب نزول الآيات من ملابس تكشف عن
ميل بعضهم لمودة المشركين ، قبل نزول حكم الله تعالى بالنهاى عن ذلك ،

والتعبير بالمصاحي « كانت » يفيد ثبوت الأسوة ووجودها • وتقديم الجار والمجرور « نكم » للاهتمام والمصارعة ببيان كون الأسوة لهم • والأسوة • القدوة • ويستعملان بضم الفاء وكسرها • وهى : اسم لما يؤتى ويقتدى به •

قال الراغب : الأسوة هى الحالة التى يكون الانسان عليها فى اتباع غيره ان حسنا وان قبيحا ، وان سارا وان خارا ، ولهذا وصفت بالصفة (٣) • تقييدا لها بهذا الوصف الجميل •

المقصود بالذين معه • الذين آمنوا بدعوته وصحبوه ، والتعبير بالصفة يفيد لصحبتهن وهازلتهم له ، كما جاء فى وصف أصحاب رسولنا ﷺ « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٤) •

وفى العبارة تجريد عن طريق « فى » الداخلة على المنترع منه ، حيث انترع من ابراهيم والذين معه أسوة حسنة وهم أنفسهم الأسوة وذلك للمبالغة فى كمال هذه الصفة فيهم •

ويعد تقرير الحكم بوجود الأسوة ، بين موضع هذه الأسوة ومحلها المقصود فى هذا المقام ، اذ ان ابراهيم عليه انسلام فيه اسوة للمؤمنين فى نواح متعددة ، لكن المقصود هنا الأسوة فى فعل مناسب للمقام ، هو تبرؤ ابراهيم ومن معه ، من الكافرين ومعبوداتهم « اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » •

وتأكيد القول بان لتحقيق مضمونه وتثبيته وبيان أنه قول لا رجعة فيه • و « براء » جمع برىء ، كظريف وظرفاء • والتعبير بصيغة

(٣) المفردات ١٨ •

(٤) الفتح ٢٩ •

التكسير دون جمع المذكر السالم يريئون فيه تكثير للمتبرئين وتعظيم للبراءة • وإبهام ما يعبدون دون التصريح باسمه لتحقيره وإهمال ذكره ، ويشمل كل ما يعبدونه من دون الله تعالى • والفعل المضارع «تعبدون» يصور حالهم واستمرارهم على هذه العبادة الباطلة • والنص على التبرؤ مما يعبدون لأنه أساس البراءة منهم ولولا عبادته ما كانت البراءة • وتقديم البراءة منهم لأنها هي المقصودة ، وفيها موضح الأمانة • وقوله « من دون الله » لتذكيرهم بالاله الحق الذي يجب صرف العبادة اليه دون سواه • وجملة « ومما تعبدون من دون الله » شعرة بعبدة التبرؤ منهم ومن آلهتهم ، فلم يتبرؤا منهم لسبب دنيوى انما تبرؤا منهم لعبادتهم غير الله تعالى •

والفصل بين جملة « كفرنا بكم » وما قبلها اكمال الاتصال ، لأن البراءة منهم تفيد الكفر بهم • والمعنى : جحدناكم ونم نعتد بكم ولا بالهتكم وما أنتم ولا آلهتكم عندنا بشيء • ، وفي لفظ الكفر اشارة الى شدة البراءة وقرة المقاطعة • وقيل ان الكلام على تقدير مضاف أى كفرنا بدينكم أو بمعبودكم (٥) •

و « بدا » أى ظهر بوضوح • يقال : بدا الشيء بدءا وبدا أى ظهر ظهورا • بينا (٦) • وهو معطوف على « كفرنا » مكمل لتفصيل البراءة • والنص على ظهور العداوة والبغضاء بينهم لاختصاصه بأمر ليس فى البراءة • ولم يكن التعبير وعادينكم وأبغضناكم لافادة أن العداوة والبغضاء من الجانبين ، والاشارة الى أن ابراهيم ومن معه ليسوا انسبب فى ظهور هذه العداوة ولا هى من أخلاقهم وصفاتهم بل فرضتها ملابسات القوم •

(٥) حاشية الشهاب ١٨٧/٨ •

(٦) المفردات ٤٠ •

و « أبدا » يفيد دوام القطعية واستمرار العداوة بينهم مدة انزمان بدون حدود . ومن ثم قيد ذلك بقوله « حتى تؤمنوا بالله وحده » أى وعند ذلك تنقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة (٧) . وفى « وحده » تشديد وتأكيد على الوحدةانية ، فلا يقبل منهم لإنهاء العداوة إلا الإيمان بالله وحده لا شريك له . ويمكن أن يفهم من هذا أنهم كانوا يعرفون الله ولكن يشركون معه آلهة أخرى .

ثم استثنى من الأسوة الحسنة ما ليس ينبغى أن يؤتى به « الا قول ابراهيم لأبيه لا استغفرن لك » . وهى استثناء من قوله تعالى « أسوة حسنة » فان استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر وان كان جائز عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم كما نطق به الآية فى سورة التوبة ، الا أنه ليس مما ينبغى أن يؤتى به أصلا . للنص على منعه ، وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى الاستغفار نفسه لأنها كانت الحاملة له على الاستغفار (٨) .

وتأكيد العدة بالاستغفار بأكثر من مؤكد لتقريرها فى ذهن أبيه لما أنها جاءت بعد مناقشة حامية بينهما بينتها سورة مريم . ووقوله « وما أملك لك من الله من شئ » من تمام انقول استثنى ، ومحلها النصب على أنه حال من فاعل « لا استغفرن لك » أى أستغفر لك وليس فى طاقتى الا الاستغفار ، فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لاقيده ، الذى هو فى نفسه من خصال الخير لكونه ، اظهارا للعدو وتفويضا للأمر الى الله تعالى (٩) .

وفى الجملة خصائص تدل على عموم النفس رشمولة ، حيث عبر بجشئ وهو يفيد العموم بمادته وهيئته ، وسبق بمن ، وأوقع فى سياق

(٧) البضاوى ٦٩٢ .

(٨) أبو السعود ٢٣٧/٨ .

(٩) أبو السعود ٢٣٧/٨ .

النفى ، فصار المعنى يوما أملك لك من الله شيئاً أثبتة •
وبعد استثناء ما لا يدخل في الأسوة تتم حكاية ما فيه أسوة من
قول إبراهيم ومن معه ، « ربنا عليك توكلنا واليك أئبنا واليك المصير •
ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا أنك أنت العزيز الحكيم » •
والفصل بين هذا وما قبله بالمستثنى من الأسوة لاختلاف موضوعه
عما سبقه فهو دعاء وما قبله براءة من المشركين وفي هذا عناية واهتمام
بإبراز المستثنى من الأسوة ، وتأكيد على الالتزام باستثنائه منها ،
عن طريق توسيطه بين طرفي الكلام •

ويجوز أن يكون هذا الدعاء تعليماً من الله تعالى للمؤمنين غير داخل
فيما حكى عن إبراهيم والذين معه • قال الزمخشري : فان قلت بم
اتصل قوله « ربنا عليك توكلنا » قلت : بما قبل الاستثناء وهو من جملة
الأسوة الحسنة • ويجوز أن يكون المعنى : قلوبوا ربنا ، أمراً من الله
تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ، وتعليماً منه لهم ، تنميماً لنا رصاهم به
من قطع العلائق بينهم وبين الكفار والانتساء بإبراهيم وقومه في البراءة
منهم ، وتبنيها على الانابة الى الله ، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر
والاستنفار مما فرط منهم (١٠) • وبذلك جعل الزمخشري وجه اتصاله
بما قبله أنه من جملة الأسوة ، أو هو أمر وتعليم للمؤمنين ، وقد
ضعف أبو السعود الرأي الثاني فقال : وأما جعل الآيتين تلغيناً للمؤمنين
من جهته تعالى وأمرهم لهم ••• فلا يساعده النظم الكريم (١١) •

وذكر الشهاب أنه متصل بما قبله لا على أنه من جملة الأسوة
ومقول القول بل على أنه كلام مستأنف متصل بحسب المعنى بما مر من
أول السورة الى الاستثناء بياناً لحالهم في اظهار عداوة أعداء الله ،
والالتجاء الى الله في كفاية شرهم (١٢) •

(١٠) الكشف ٩١/٤ • (١١) أبو السعود ٢٣٨/٨ •

(١٢) حاشية الشهاب ١٨٧/٨ •

وهذا الثناء يتكون من ست جمل صيغته الثلاث الأولى منها صياغة واحدة ، حيث قديم فيها الجار والمجرور لافادة التخصيص ، وبذلك قصر التوكل والانابة والمصير على الله تعالى دون سواه . إلا أنه عبر في الأولى والثانية بالفعل المسند اليهم « توكلنا » و « أنبأ » لكونها أفعالا صادرة عنهم يصورون بها حالهم في التوكل على الله والانابة اليه ، واستمرارهم على ذلك . وعبر في الثالثة بالاسم « المصير » لكونه حكما ثابتا لله تعالى يشملهم ويشمل غيرهم ، وليس فعلا فعله والقرهوا به .

وجاء الدعاء في الجملة الرابعة عن طريق النهي بآلا يجعلهم الله فتنه للكافرين . وفي الخامسة عن طريق الأمر بأن يغفر الله لهم وهو خاتمة الدعوات وغاية ما يرجوه المسلم من ربه ، وفي ذلك تلويح للأسلوب وتفنن في التعبير وهو تهج بديع في القرآن الكريم .

أما الجملة السادسة فهي ثناء على الله تعالى يستوجب قبول اندعاء « انك أنت العزيز الحكيم » وهذا تذييل مشعر بعلة ما سبق ، فقد دعوه والتجأوا اليه لأنه عزيز لا يذل من لجأ اليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم لا يفعل الا ما فيه حكمة بالغة . وتأكيد الجملة لتحقيق مضمونها ، وتعريف المسند باللام يفيد القصر ، فهو سبحانه وتعالى العزيز الحكيم لا غيره . وقد تأكد هذا بضمير الفصل .

والنداء للتوسل والتضرع الى المنادى وهو الله عز وجل ، ونفـظـ الرب المضاف الى ضميرهم مشعر بالاستجابة لما فيه من دلالة على تربيته لهم وعنايته بأمرهم ، مع ما في الاضافة من تشريف لهم وتكريم . وحذف حرف النداء مشعر بقربهم من الله تعالى . وتكرير النداء للمبالغة في التضرع والتذلل لله تعالى استجابة للاجابة .

وقد رتّب الجمل ترتيباً دقيقاً حيث أبرزوا توكّاهم على الله تعالى وإنابتهم إليه ، لأن المصير والمرجع إليه ، ثم طلبوا من الله الدوام على ذلك بالألا يفتنهم بالكافرين ، ونختموا دعاءهم بطلب المغفرة من الله تعالى وهذا خاتمة المطاف • ورشح الدعاء بالثناء الذي هو من دواعي قبول الدعاء •

وتختتم الحلقة بما بدئت به فتكرر وجود الأسوة الحسنة في إبراهيم ومن معه تأكيداً وتقريباً لما سبق « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » •

وتعلو نبرة التأكيد هنا من خلال التكرير واللام الدالة على القسم إضافة الى قد التحقيق التي تقدم نظيرها في الآية الأولى • وفي كل ذلك يلوح بالتأكيد عايتته لتحقيق مضمون الجملة وعدم ترك مسرب لشك أو تساؤل •

وقوله « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » بذل من « لكم » فيه حث وإثارة وإلهاب على اتباع هذه الأسوة ، من خلال بيان أن من يرجو الله واليوم الآخر لا يترك هذه الأسوة ولا يتخلى عنها ، مان تركها مشعر بالتجرد من هذا الوصف العظيم • ولذلك عقب بقوله « ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » وهو يؤكد مفهوماً ما سبق ، فان من أعرض عن هذه الأسوة فان الله غنى عنه ، وسيجازيه عن اعراضه وتولييه •

وفي الجملة من خصائص التأكيد والتخصيص : ان ، وضمير الفصل ، وتعريف المسند باللام وفي ذلك من تقوية الحكم وتحقيقه ما فيه ، فانه هو الغنى الحميد لا غيره • وتتلاءم الفاصلة مع ما سبقها لئلا تلازم إذ لما كان اعراض المتولي مشعراً بغناه ثبتت الفاصلة أن الله هو الغنى الحميد لا غيره •

الحلقة الخامسة

استغفار ابراهيم لأبيه

قال الله تعالى :

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة ووعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم » (١) •

بين يدى الآية :

هذه الآية الكريمة من سورة التوبة وموضوعها يتلاءم مع جو السورة العام ، فهي تبين السبب الذى دفع ابراهيم عليه السلام الى الاستغفار لأبيه ، وتبرأ منه بعد أن تبين حقيقة أمره . وسورة التوبة تركز على البراءة من المشركين والانقطاع عنهم ، وتكثف أمر المنافقين وطريقتهم المتروية فى التعامل مع رسول الله ﷺ والمسلمين •

وهذه الآية تقرر وتؤكد ما جاء فى الآية السابقة عليها ، والخاصة باستغفار النبى ﷺ لعمه أبى طالب « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢) • أى ما صح ولا يصح للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (٣) ، فهي تستبعد حدوث مثل ذلك منهم • وتحت على الانقطاع عن المشركين والبراءة منهم ، وقد جاءت آية ابراهيم عليه السلام بعدها لتقرر هذا الحكم وتبين أنه حكم ماض ومشروع فى دين ابراهيم عليه السلام (٤) الذى هو أبو المسلمين ، وله مكانة خاصة بينهم • وبذلك نتأكد الدعرة الى البراءة من المشركين •

(٢) التوبة ١١٣ •

(١) التوبة ١١٤ •

(٣) الفتوحات الالهية ٣٢٢/٢ •

(٤) السابق •

مع الآية :

تبدأ الآية بداية قوية مؤكدة عن طريق القصر بطريق النفي والاستثناء « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها نيا » وهو قصر موصوف على صفه فيه اهتمام بالصفة وتأيد عليها وابرار لها ، أى لم يكن استغفار ابراهيم لأبيه ناشئاً عن سبب من الأسباب ، ولأجل شيء من الأشياء الا لأجل موعدة وعدها ابراهيم لأبيه قبل أن يتبين أمره •

وقد ذكرت الموعدة في قوله تعالى « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بى حفيا » (٥) ، كما ذكر الاستغفار في قوله تعالى « واغفر لأبى انه كان من الضالين » (٦) •

والتعبير بـ « تبين » يفيد انجلاء الأمر له بوضوح لا لبس فيه ، والاثنيان بمفعوله جملة اسمية مؤكدة بأن دون أن يقال : عداوته لله ، تأكيد اصراره واستمراره على هذه العداوة ، مع ما في لفظ « عدا » من قوة في اظهار العداوة الشديدة •

و « تبرأ منه » جواب « لما » والاثنيان بالعبارة في صورة شرط وجواب عن طريق « لما » التعليلية التي هي حرف لوجود أو وجوب لوجوب لما يقال (٧) مشعر بترتب البراءة منه على تبين العداوة ، ووجودها عقيبها من غير مهلة • ويفهم من العبارة أن استغفار ابراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين أمره • وفي لفظ « تبرأ » قوة في بيان ترك الاستغفار له ، وإشارة إلى أنه قاطعه وتجنبه كلى التجنب • وشدته ملازمة لوصف الأب بعداوة الله لأنها أيضا من أقوى العبارات في بابها •

(٥) مريم ٤٧ •

(٦) الشعراء ٨٦ •

(٧) ينظر الجنى الدانى ٥٩٤ •

ثم بين ما حمّله على وعد أبيه بالاستغفار له ، وتنفيذ هذا الوعد مع شدة أبيه وغلظته عليه بقوله تعالى « ان ابراهيم لأواه حلیم » .
وهو استئناف يبين ما ذكرناه ، ويوضح أن ذلك في الأصل لصفات جنيّة متمكنة في ابراهيم عليه السلام من رحمة ورقة قلب وحلم ، وتأكيّد الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها ووصلها بما قبلها وصلا خفيا ، على نمط تأكيد العلق المتبع في القرآن الكريم والأسلوب العربي الاصيل ، والمقام في حاجة الى التأكيد القوي ، لبيان أن هذا هو الذي دفع ابراهيم الى هذا الفعل ، وليس شيئا آخر .

والأواه : كثير التأوه ، وهو كناية عن شرب الرحمة ورقة القاب .
وفعله : أوه ، يقال : أوه الرجل تأويها وتأوه تأوها اذا قال : أوه (٨) .
وأصل التأوه : أن يسمع للصدر صوت بتنفس الصعداء عند شدة خوف أو حزن ونحو ذلك ، والسبب في ذلك أنه عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشد حرها ، فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخفف بعض ما به من الحزن والشدة (٩) .

والحلیم . من يصبر على الأذى ، ويصفح عن أساء اليه ، ويجازيه بالحسن . وفي ذكر هاتين الصفتين ثناء على ابراهيم عليه السلام ، وبيان لسر رحمته المفرطة ولطفه الواسع .

وقد بينت الآية وجه الحقيقة في مسألة استغفار ابراهيم لأبيه ، كى لا يفسر فعله بوجه من الوجوه التي لا يصح تأنيها من خليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٨) الصحاح مادة : أوه .

(٩) الفتوحات الالهية ٣٢٣/٢ .

الحلقة السادسة

منزلة ابراهيم عليه السلام ونريته

قال الله تعالى :

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار .
انا آخضناهم بخالصة ذكرى الدار » . وانهم عندنا لمن المصطفين .
الأخير » (١) •

بين يدى الآيات :

هذه الآيات من سورة ص ، وهى سورة مكية تبدأ ببيان اختلاف
الكافرين حول الرسول ﷺ ووصفهم له بأنه ساحر دجال . وعجبهم
من دعوته الى التوحيد ، وجعله الآلهة الها واحدا ، وتسمى الرسول ﷺ
ببيان تكذيب الأمم السابقة لرسولهم ، وتعرضهم لعقاب الله تعالى ،
جزاء تكذيبهم •

ثم توصى الرسول ﷺ بالصبر ، وتأمره بذكر قصص عدد من
الأنبياء من بنى اسرائيل أولهم داود عليه السلام « اصبر على ما يفوتون
واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » (٢) وبعد ذكر طرف من قصة
داود تنتقل الى ذكر طرف من قصة ابنه سليمان عليه السلام ، ثم
تذكر قصة أيوب عليه السلام ، وبعد هذا تأتى الآيات التى سنعرض لها
بالتحليل وهى فى التذكير بنبي الله ابراهيم وابنه اسحاق وحفيده يعقوب
عليهم السلام •

والسورة كما ذكرنا مقدورة على ذكر قصص عدد من أنبياء بنى
اسرائيل ، والبدء بقصة داود وسليمان لأن قصتهما أطول القصص فى

(١) ص ٤٥ - ٤٧ •

(٢) ص ١٩ •

السورة ، وفصل فيها من العظات والعبر ما لم يفصل في غيرها • وتلا ذلك قصة أيرب عليه السلام لأنها في المرتبة الثانية من حيث الطول وذكر التفاصيل ، وأتبع بقصة إبراهيم واسحاق ويعقوب ، لأنها مقصورة على بيان منزلتهم عند الله تعالى ، وجاءت في ثلاث آيات ، وختم القصص بالإشارة إلى اسماعيل وإيسع وذا الكفل في آية واحدة •

مع الآيات :

تبدأ الآيات بأمر الرسول ﷺ بذكر عباد الله إبراهيم واسحاق ويعقوب « واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب » وهو نهج متبع في بداية جميع قصص السورة ، وذكر الثلاثة دون ذكر اسماعيل عليه السلام جريا على ما عهد في معظم حلقات القصة ، ولأن اسماعيل عليه السلام مذكور في الآية التي تلى خبرهم •

ووصفوا بوصف عظيم « أولى الأيدي والأبصار » أي أولى القوة في الطاعة ، والبصيرة في الدين ، فتكون « الأيدي » مجازا مرسلًا عن القوة ، من ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر : مجاز عما يتفرع عليها من العلوم (٣) •

وعلى وصفهم بهذه الصفة العظيمة بقوله تعالى « انا أخلصناهم بخالصة ذكرى ادبار » أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها هي تذكرهم دائما الدار الآخرة • وتأتي الجملة لتحقيق مضمونها ، واسناد اخلاصهم الى نون العظمة فيه تفخيم وتعظيم لشأن هذا الاخلاص ومن وقع عليهم • والباء في بخالصة للسببية ، وتكرر « خالصة » لتفخيم والتعظيم ، وتعريف الدار للعهد ، أي الدار الآخرة ، وفيه اشعار بأنها الدار في الحقيقة ، وانما الدنيا دار على سبيل المجاز حيث لا بقاء فيها (٤) •

(٣) الألوسي ٢٣/١٢ • (٤) ينظر السابق •

ثم أثنى الله تعالى عليهم مبينا منزلتهم العظيمة ، واصطفاه لهم بقوله تعالى « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » وتأكيد الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها بقوة ، اذ الخبر يتضمن أمرا خاصا بهم ومن ثم فهو في حاجة الى مزيد من التقوية •

والظرف « عندنا » مشعر بأن هذه المنزلة لهم عند الله تعالى وحسب المؤمن أن ينال ذلك • واللام في « المصطفين الأخيار » للجنس، مهم من هذا الجنس المعروف بهذين الوصفين العظيمين •

الحلقة السابعة

ان ابراهيم كان امة

قال الله تعالى :

« ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين • نساكرا
لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم • وآتيناه في الدنيا حسنة
وبأنه في الآخرة لمن الصالحين • ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم
حنيفا وما كان من المشركين • » (١)

بين يدى الآيات :

تأتى هذه الآيات فى أواخر سورة الفحل • وهذه السورة تهتم
بإثبات وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث وذلك فى مواجهة افتراءات
المشركين وأكاذيبهم من إثبات الشركاء • وإتكار البعث والطعن فى نبوة
الرسول ﷺ ، وتعرض عددا كبيرا من دلائل قدرة الله تعالى فى الكون،
وفضائله على عباده ، وإنعامه عليهم بما لا يحصى من النعم •

وفى خواتيم السورة تركيز على الأمر بالأكل من رزق الله الحلال
انطياب من شكره جل شأنه على نعمه الغزيرة • وبيان ما حرم الله على
المسلمين من الأطعمة ، وتحذير من تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما
حرمه على سبيل الافتراء والكذب •

وفى خلال ذلك تشير الى ما حرم الله على اليهود مما قصه الله فى
آيات أخرى « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما
ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢) •

ولما أكدت السورة ابطال مذاهب المشركين من إثبات الشركاء

(١) النحل ١٢٠ - ١٢٣ •

(٢) النحل ١٦٨ •

لله تعالى ، والطعن في نبوة رسول الله ﷺ ، وتحليل ما حرم وتحريم ما أحل ، وعقبت بذكر اليهود وما حرم الله تعالى عليهم جزاء ظلمهم .
أوضحت مكانة ابراهيم عليه السلام وبينت منهاجه وما كان عليه من توحيد الله تعالى ورفض الأصنام ، ليكون ذلك حاملا لقريش على الاقتداء به ، حيث كانوا يجلوته ويفتخرون به لكونه جدتهم الاعلى ، ويقولون بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به (٣) . وبهذا أيضا يظهر انفرد بينه وبين المشركين الذين ينتسبون اليه ولا يقتدون به . وبينه وبين اليهود الذين يدعون أنه كان على ملتهم .

مكانة ابراهيم عليه السلام :

تستهل الآيات الحديث عن ابراهيم ببيان مكانته وقدره بين الناس « ان ابراهيم كان أمة » . وتأكيد الخبر بتحقيق مضمونه ، نظرا لكونه أمرا لم يعتده الناس في رجل منهم ، فهو وحده أمة كاملة في صفات الخير ، وامام يقتدى به في ذلك .

و « أمة » فيه وجهان : أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم تكمله في جميع صفات الخير كقوله :

وليس على الله بمستتكر أن يجمع العالم في واحد

والثاني : أن يكون أمة بمعنى مأموم ، أى يؤمه الناس لياخذوا منه الخير ، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة والخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله تعالى (٤) « انى جاعلك للناس اماما » (٥) .

(٣) البحر المحیط ٥/٤٧ ٥٥

(٤) البقرة ١٢٤

(٥) الكشاف ٢/٤٢٣

واختار ابن المنير الثانى وقال انه يقويه بقوله تعالى بعد ذلك « ثم أوحينا اليك أن انبج ملة إبراهيم حنيفا » أى كان أمة تؤمه الناس ليقبلسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أتت يا محمد على جلالة قدرك قد أوحينا اليك أن اتبع ملته ووافق سيرته (٦) •

وهو على كلا الوجهين فيه مبالغة في وصفه بالامامة للناس ، لأن من يؤتم به لابد أن يكون جامعا لصفات الامامة نائبا عن مأموميه ، وقد جمع إبراهيم عليه السلام من صفات الخير والكمال ما جعله بمثابة أمة من الناس ، وهى أنه لأن يكون اماما لهم • وتكرر « أمة » للتعظيم والتفخيم ، أى أمة عظيمة كاملة •

ولما أخبر عنه بهذه الصفة الجامعة نعتت هذه الأصفة باعتبارها علما عليه بأربع صفات : أولها « قانتا لله » أى مطبعا له قائما بأوامره • قال ابن فارس : القاف والنون واناء أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين لا يعدو هذا الباب ، والأصل فيه انطاعة ، ثم سمي كل استقامة في طريق الدين قنوتا (٧) • وإيثار « قانتا » على غيره لما فيه من اشعار بالخشوع والخضوع وطول الوقوف بين يدي ربه • وصيغة اسم الفاعل تفيد ثبوته على هذه الصفة واستمراره فيها • وثانيها : « حنيفا » أى مائلا عن الباطل الى الحق غير حائد عنه • وأصله : حنف وهو يدل على الميل • والحنيف المائل الى الدين المستقيم (٨) • والتعبير به دون غيره لما فيه من خصوصية دلالة على الميل الى الطريق المستقيم • وترك العطف بين الحنفين لما أنهما الموصوف واحد ، ووردتان على نمط تعداد الصفات دون مراعاة ما بينها من تعابير •

(٦) الانصاف (حاشية الكشف) ٤٣٣/٢ •

(٧) مقاييس اللغة مادة : قنت •

(٨) السابق مادة : حنف •

وثالثها : « ولم يك من المشركين » أى ولم يك من المشركين في أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا (٩) • وقد اختلفت صياغة هذه الصفة عما قبلها وما بعدها فجاء بها جملة معطوفة على جملة الخبر، لأنها جملتان متقابلتان عند التأمل ، فالأولى تثبت امامته ، واطاعته لله تعالى : والثانية تنفي أن يكون من المشركين ، وبذلك أكد إيمانه مرة بالاثبات ومرة عن طريق النفي • وقيل « ولم يك من المشركين » دون ولم يك مشركا لنفي أن يكون من جنس المشركين ، ونفي كونه من جنسهم فيه نفي لا شراكه بالطريق البرهاني مع زيادة معنى هو نفي أن يكون متصفا بصفة من صفاتهم الذميمة التي لا تدخل في مجال العقيدة •

وفي التصريح بأنه لم يكن من المشركين تعريض بمشركي قريش واليهود الذين أشركوا بقولهم « عزيز ابن الله » حيث كانوا يتهمدون به ويدعون أنهم مقتدون به ، فأثبتت الآية أن هؤلاء مشركون وإبراهيم لم يكن من المشركين •

ورابعها : « شاكرًا لأنعمه » والتعبير باسم الفاعل « شاكرًا » مفيد للتبهر والاستمرار فهو ثابت على الشكر مستمر فيه • وصيغة جمع القلة للتبهي على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة (١٠) • وفي الجملة تعريض بمشركي قريش حيث كان ديدنهم كفران النعم كما أشير إلى ذلك في المثل المضروب في قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنهم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١١) • وقد رتب الخبر وما تلاه من نعوت ترتبها بديعا ، فقدم الوصف العام الجامع وهو كونه أمة وجعل خبرا عنه ، ثم أتبع بأهم ما ينضوي تحته من صفات اكتسب بها هذا الوصف الجامع ، وهي طاعة الله تعالى •

(٩) أبو السعود ١٤٩/٥ •

(١٠) البيضاوي ٣٨٠ •

وعدم الانحراف ، وبالتنزه عن الشرك ، ومداومة الشكر ، وبدى فيها بالأصل ثم بما يترتب عليه ، فقدمت طاعته لله تعالى لأنها أساس يترتب عليه عدم انحرافه عن الحق ، وهذا يترتب عليه عدم كونه من المشركين لأن ذلك من الانحراف عن الحق ، وختمت النعوت ببيان مداومة شكره لله تعالى ، وهو لا يتأتى الا من طائع لله غير زائع عن الطريق المستقيم .

نعم الله على ابراهيم :

بعد بيان مكانة ابراهيم وقدره وأنه كان أمه قانتا حنيفا شاكرا . أتبع ذلك ببيان ما اختصه الله به من نعم جليلة ، وذكر منها أربع نعم : أولها : أن الله تعالى قد «اجتبا» أى اختص واصطفاه للنسوة ، وأصل الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء ، ويطلق على تخصيص الله تعالى العبد بفيض الهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى منه ، ويكون للأنبياء عليهم السلام ومن يقاربهم (١٢) .

وثانيها : « وهداه الى صراط مستقيم » وهو ملة الاسلام ، يسير عليها ، ويدعو الناس اليها ، وينافح عنها ، والصراط فى الأصل : الطريق . وأصله بالسين من سطر الشيء اذا ابتلعه سمي بذلك لأنه يتبلع سالكة ويعنيه (١٣) . وأطلق فى الآية على طريق الحق وهو ملة الاسلام على سبيل الاستعارة . وفيها تصوير للدين الحق بالطريق المستقيم المستورى الذى لا يضل سالكة ، ويصل السائر فيه الى الهدف المنشود بيسر وفى أمن واطمئنان . وتقديم الاجتباء على الهداية لما أن الاجتباء سبب الهداية ، فقدم السبب على المسبب .

(١١) النحل ١١٢ .

(١٢) الألوسى ٢٥٠/١٤/٧ .

(١٣) مقاييس اللغة مادة : سطر . والكشاف ١ .

وثالثها : « وآتيناه في الدنيا حسنة » أى نعمة حسنة ، وهى الذكر الحسن والثناء الجميل بين الأمم ، ولا مانع من أن تكون شاملة لما أنعم الله به عليه في الدنيا ومن ذلك : الذرية الصالحة ، وانعمر الطويل في الطاعة ، وغير ذلك . والالتفات الى التكلم لظاهر فضل هذه النعمة الدنيوية ، حيث ان أثرها ممتد الى آخر الزمان ، وتقديم الجار والمجرور للاهتمام ببيان محل الصنة ، فهى في الدنيا كما أن النعمة التى تليها في الآخرة .

ورابعها : « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وقد عرضنا لذلك بالشرح في حلقة العنكبوت . وقد عبر عن النعم الثلاث الأولى بجملة فعلية ماضوية نظرا لوقوعها ، وعبر عن النعمة بجملة اسمية لافادة ثبوتها واستمرارها مع عدم مجئ زمانها ، وقوى ذلك بالتاكيد بان واللام .

ورتب هذه النعم ترتيبا دقيقا فقدم الاجتناء على الهداية لما أنه سبب لها ، فان الله تعالى عندما يصطفى عبده يهديه للثلى هى أقوم . وقدمت الهداية على الحسنة الدنيوية لاتصالها بالدين ، ولكونها من أسباب حلول النعم على الانسان . وقدمت نعمة الدنيا على نعمة الآخرة للسبق الزمنى .

نعمة عظيمة القدر :

ويعد تعداد ما سبق من نعم تأتى نعمة عالية القادر رفيعة الشرف ، وهى أمر الرسول الخاتم ﷺ باتباع ملته « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . قال الزمخشري : فى « ثم » هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ واجلال محله ، والايدان بأن أشرف ما أوتى خليل الله ابراهيم من الكرامة ، وأجل ما أولى من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا

انذعت في المرتبة من سائر النعوت التي أثنى الله عليها بها (١٤) •

وفصل ابن المنير وجه افادة « ثم » هذا الأمر فقال : وانما تفيد « تم » ذلك لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان ، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمل محلا مما عطف عليه ، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى يوهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع ملته ، مأمور باتباعه بالوحي (١٥) •

والتعبير بـ « أوحينا » ثم الأمر باتباع الملة لا نباع إبراهيم عليه السلام دلالة على أن النبي ﷺ ليس بتابع له ، بل هو مستقل بالأخذ عن الله تعالى كإبراهيم (١٦) • وفي اسناد الايحاء الى ذنون انعدام تعظيم لشأن الموحى به والمرحى اليه • والضمير في « اليك » للرسول محمد ﷺ ، وقد كان الحديث معه قبل قصة إبراهيم عليه السلام في آية « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (١٧) • و « أن » تفسيرية ، وقد سلك في نظم الآية الاجمال ثم التفسير ، لما في ذلك من تشويق الى الموحى به ، وتأخيدا له من خلال حصوله في النفس بعد شوق اليه وبحث عنه •

والملة كالدين ، اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء لينوصلوا به الى جوار الله تعالى • والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاعف الا الى النبي الذي تسند اليه ، ولا تكاد توجد مضافة الى الله تعالى ، ولا الى آحاد أمة النبي ، ولا تستعمل في جملة السرائر دون

(١٤) الكشف ٤٣٤/٢ •

(١٥) الانصاف (حاشية الكشف) ٤٣٤/٢ •

(١٦) الألوسی ٢٥٢/١٤/٧ •

(١٧) السجل ١١٩ •

أحاديها ، فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتي وملة زيد ، كما يقال : دين الله ، ويقال : دين زيد ، ولا يقال : الصلاة ملة الله (١٨) • وفي إضافة الملة الى ابراهيم عليه السلام تشريف له وتفضيم لشأنه •

و « حنيفا » حال من المضاف اليه ، لشدة اتصاله به عذبه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل : رأيت وجه هند قائمة (١٩) •

وقوله « وما كان من المشركين » تكرر يؤكد عدم كونه من جنس المشركين ويقرر نزاهته عما هم عليه من عقيدة وعمل • والمقام في حاجة الى التأكيد نظرا لما يدعيه مشركوا قريش واليهود من كونهم على ملته ، وهو منهم برى • وضاعت من حسنه اختلاف الجملتين في الصياغة فالأولى « وأم يك من المشركين » بصيغة المضارع المنفى بلم ، والثانية بصيغة الماضي المنفى بما • الا أن المعنى في كل منهما على نفى كونه من المشركين ، لأن « لم » تقلب زمن المضارع الى الماضي •

الحدث على اتباع ماته :

وقد تكرر الحث على اتباع ملة ابراهيم عليه السلام في آيات أخرى أظهرها وألحقها بأوضح ما في سورة البقرة وهي قوله تعالى « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٢٠) •

وهي تحكى حث اليهود والنصارى الناس على اعتناق اليهودية والنصرانية ليكونوا مهتدين • وقد رد عليهم الله تعالى أمرا رسوله ﷺ

(١٨) المفردات ٤٧١ ، ٤٧٢ •

(١٩) أبو السعود ١٥٠/٥ •

(٢٠) البقرة ١٣٥ •

أن يبين لهم أن ملة ابراهيم الحنيفية هي الإجابة الاتباع • وأن يبرأ
ساحة ابراهيم من الشرك والمشركين •

وتشبه هذه الآية ، الآية الواردة في سورة آل عمران وهي
قوله تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من
المشركين » (٢١) •

وهذه الآية تأمر الرسول ﷺ بأن يجهر في الناس بصدق الله
تعالى في كل ما أخبر به • ويدخل في ذلك ما ذكره سبحانه وتعالى من
أخبار عن أهل الكتاب ، ومجادلتهم في شأن ملة ابراهيم عليه السلام
في سورة آل عمران • وفي هذا تعريض بكذب أهل الكتاب والمشركين •

كما تأمر الرسول ﷺ بأن يحث الناس على اتباع ملة ابراهيم
عليه السلام التي هي دين الحق ، المائلة عن سائر الأديان الباطلة •
وهذا الجزء من الآية قد مر تحليله في الآية السابقة •

الحلقة الثامنة

خليل الله تعالى

قال الله تعالى :

«ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً» (١) •

هذه الآية من سورة النساء وهي تبين أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أخلص نفسه لله تعالى ، ولم يعرف لها ريباً سواه ، وأتى بالأعمال الصالحات ، واتبع دين إبراهيم عليه السلام الذي هو دين الإسلام ودين الحق المائل عن كل الديانات الباطلة • وتوضح مكانة إبراهيم عليه السلام عند الله عز وجل حيث اتخذ الله خليلاً ، وهذه مرتبة في الفضل لا تعادلها مرتبة أخرى •

والاستفهام انكاري في معنى النفي ، والمقصود مدح من فعل ذلك على أتم وجه • و «ديناً» منصوب على التمييز من أحسن ، وهو تمييز محمول من المبتدأ والتقدير : ومن دينه أحسن من دين من أسلم (٢) •••

و «أسلم وجهه» أي انقاد بكليته لله تعالى وأخلص له دون سواه والتعبير بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ، والتوجه والانقياد يظهر فيه أول ما يظهر • وقوله «وهو محسن» حال من الضمير في «أسلم» (٣) • والمقصود امتيانه بالحسنات وتركه للسيئات •

وقوله «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» تذييل جيء به للترغيب في اتباع ملته عليه السلام ، والإيذان بأنها نهاية في الحسن ، وفيه أيضاً

(١) النساء ١٢٥ •

(٢) الألوسي ١٥٤/٥/٣ •

(٣) الفتوحات الانبية ٤٢٨/١ •

تأكيد لاتباع ملة ابراهيم عليه السلام لأن من بلغ من الزلفى عند الله
أن أتخذه خليلاً كان جديراً بأن تتبع ملته (٤) •

واظهار « ابراهيم » في موضع الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص
على أنه الممدوح (٥) ، والتنبيه على استقلال جملة التذييل •

وبهذه الآية التي ختمت ببيان المنزلة العظيمة لابراهيم عليه السلام
عند الله تعالى : نختتم الحديث عن التحليل البلاغى لحقائق هذا
الفصل ، لنبدأ الحديث عن أسرار التشابه والتنوع في هذه الجملات •

(٤) السابق •

(٥) الألوسى ١٥٤/٥/٣ •

أسرار التشابه والتنوع في النظم

الموضوع والنظم :

يتضمن هذا الفصل ثمانى حلقات قصيرة تدور حول بيان ملة ابراهيم عليه السلام ، والرد على الممارين فيها ، وبراعته من الشرك والمشركين ، ومنزلته ومكانته عند الله تعالى . وتختلف لغة النظم في كل منها تبعا لموضوعها .

فأية البقرة : يسأل فيها ابراهيم ربه أن يريه كيفية احيائه الموتى، وقد أجابه الله تعالى وأراه ما سأل . فجاءت على هيئة حوار بين ابراهيم عليه السلام وربه عز وجل . وصيغ سؤال ابراهيم صياغة هادئة فيها استجلاب للإجابة حيث استهل باسم الرب المasher بالتربية به والعناية واللف به ، ومن ثم لن يتركه دون اجابة ، ثم كان السؤال عن كيفية الاحياء المفيد لعلمه بقدرة الله تعالى على الاحياء واعتقاده في ذلك ، ولكنه يريد رؤية الكيفية . وجاءت اجابة المولى سبحانه وتعالى شديدة « أو نم تؤمن » كى يقرره بايمانه ، ازالة لما قد يتوهمه متوهم في حقه عليه السلام ، وأجاب ابراهيم عن السؤال اجابة موجزة محكمة « بلى » وأردف ذلك ببيان هدفه من ذلك ، وهذا من الاطباب الرقيق الذى يستجلب به طول الكلام مع مولاه تلخذا بمخاطبته ، وتشرفا بوقوفه في مقام الألوهية . وتأتى الاجابة بجمال طلبية موجزة ، وتسكت الآية عن بيان ما فعله ابراهيم بعد ذلك ، مهتمة بالتنبيه على موطن العبرة والعظة « واعلم أن الله عزيز حكيم » ، وهذا من الایجاز البديع الذى يدع النفس في شوق لمعرفة النهاية .

وحلقة آل عمران : فيها توبيخ لأهل الكتاب بسبب محاجتهم في منه ابراهيم عليه السلام مع عدم علمهم بحقيقتها ، وتبين لهم وجه الحقيقة في ذلك فلم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا ولكن كان حنيفا

مسلمًا ، ومن ثم فأولى الناس به هم الذين اتبعوه وأنبنى محمد ﷺ والمؤمنون به ، أما أنتم فلا صلة لكم به لعدم اتباعكم مذهبه • والآيات تنهض على الحجة العقلية التي لا تنكر ، وتسلط في مخاطبة أهل الكتاب لغة شديدة قرينة مفعمة بالاستفهامات التوبيخية التعجبية ، بجانب الجمل الخبرية المؤكدة التي تقر الحقائق ، ومتمكة على الإشارة والتوبيه الشديد المشعر بغفاتهم ، ولا مجال للحوار من جهة أهل الكتاب إذا الحجة واضحة للجميع ومفعمة هم ، ولا تدع مجالًا لمناوئ •

وحلقة الزخرف فيها اعلان للبراءة من المشركين وشركهم ، حيث يراجعه ابراهيم عليه السلام أباه وقومه بالبراءة منهم ومن شركهم وهذا من أشد الأساليب تعبيرًا عن المجانبية والترك ، وقد ضاعف من شدته ما فيه من تأكيد قوى ، واستثناء مرشد الى الاله الحق الذي عظمه وهدهاء لعلمهم يثوبون الى رشدهم ، وختمت الحلقة ببيان وصيته لأبنائه بالتمسك بعقيدة التوحيد • وهى على الرغم من ايجازها فقد لخصت مرحلة كبيرة من قصة ابراهيم عليه السلام ، منذ أن عزم على الهجرة الى أن لقي الله تعالى •

وحلقة المنتحنة تحكى موضوع البراءة السابق الا أنها نتجه به اتجاهًا آخر ، حيث تجعل فيه أسوة للنبي ﷺ والمسلمين • حثالهم على اعلان البراءة من المشركين • وذكر جوانب أخرى مما يؤتى بابراهيم عليه السلام فيه وهو اندعاء الضارع الخاشع لله رب العالمين ، ولكنها تفصل بين البراءة والدعاء باستثناء من الأسوة ، وهو وعد ابراهيم لأبيه بالاستغفار له ، نظر لأهمية هذا الاستثناء بعد التأكيد على الأسوة عامة ، وتختتم الآية بالتأكيد النقي على اتخاذ ابراهيم والمؤمنين معه أسوة ، درسًا لما قد يوحى به الاستثناء • ودرجة التأكيد فى الحلقة عالية ، لاستعمالها على أمور هامة يقتضى المقام تأكيدها ، وفيها تكرار لاتخاذ ابراهيم عليه السلام أسوة ، حيث استهلكت بذلك وختمت به على نهج

التجريد الذى فيه مبالغة فى كمالهم فى الأسوة • ولغة الحلقة قوية شديدة فى حكاية البراءة ، وفى هذا الختام الذى فيه تهديد ووعيد للمذنبين ، بينما هى رقيقة ضارعة فى مقام الدعاء •

وحلقة التوبة تكمل حلقة الممتحنة ، حيث تبين السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه وتوضح براءته منه بعد أن كشف حقيقته وهو ما لم تذكره حلقة الممتحنة ، والمقام يقتضى هذا النهج فيها حيث جاءت عتب معاتبه النبى ﷺ والمسلمين على الاستغفار لبعض المشركين من ذوى القربى وأرسل الأيدي فى الدفاع عنهم • ولما كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه قد يكون فيه مندوحة لفعل ذلك بينت الآية وجه هذا الاستغفار ، وأشارت الى انفكك إبراهيم عن أبيه وبرأته منه بعد وقوفه على حقيقة أمره • ودرجة التأكيد فى الحلقة عالية لاشتمالها على موضوع يثير تساؤلات ، ويبعث على استفسارات ، ويظهر فيها جانب الإيجاز بطى الموعظة ، والسبيل الذى تبين به عداوة أبيه لله تعالى •

والحلقات الثلاث الأخيرة تبين منزلته ومكانته عند الله تعالى ، وقد انفردت كل منها بما لا يوجد فى الأخرى • فحلقة ص تبين اصطفاء الله تعالى له ولبعض من ذريته • وتشير الى سبب هذه الاصطفاء • وحلقة الفحل تبين أنه أمة كاملة فى صفات الخير ، واماما يقتدى به ، وتوضح ملته ودينه ، وجزاءه فى الدنيا والآخرة ، وتحت الرسول ﷺ على اتباع ملته ، وفى هذا ربط بين الرسل والرسالات • والتأكيد فى هاتين الحلقتين درجته عالية ، عن طريق الأدوات فى الحلقة الأولى وعن طريق الأدوات والتكرار فى الحلقة الثانية • أما حلقة النساء فتبين أن إبراهيم عليه السلام وصل أعلى مرتبة يتمناها مقرب الى الله تعالى وهى مرتبة الخلقة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ، وبجانب ذلك لا تخلو من حث على اتباع ملته •

ملة ابراهيم عليه السلام :

يشترك عدد من الحلقات في بيان ملة ابراهيم عليه السلام التي هي دين الاسلام الحنيف مع وجود تنوع في التعبير عن ذلك .
 ففي « آل عمران » نجد قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » . وبعد ذلك نجد قوله تعالى « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وفي « النساء » نجد قوله تعالى « ومن أحسن ديننا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .
 وفي « النحل » نجد قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » وقوله تعالى « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وفي حلقة الأنعام وهي من حلقات الدعوة نجد قوله تعالى « انى وجهت وجهى للذى قطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .
 وترتيب هذه الآيات طبقا لترتيب نزول السور الواردة فيها كما يلى :

آية الأنعام ، ثم آيتا النحل ، ثم آيتا آل عمران ، ثم آية النساء .
 وبناء على هذا يمكن لنا بيان سر التنوع فيها .
 فأية الأنعام هي أول الآيات نزولا ، والحلقة التي وردت فيها تحكى مواجهة له مع قومه عباد الكواكب وقد أبطل لهم بالحجة ربوبيتها وبين فساد عبادتها ، وبعد ذلك أعلن البراءة دما يشركون بقوله « انى برى مما تشركون (١) » ثم أقر أمامهم بملته التى يسمير عليها بقوله

(١) الأنعام ٧٨ .

« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » ومن هذا الاقرار ثبت أنه أعلم وجهه لله على ملته الحنيفية وليس من المشركين •

وبمقتضى هذا الاقرار جاءت الآيات فى الحقائق الأخرى تخبر أن ملته هى الحنيفية الاسلامية ، وتبين براءته من الشرك والمشركين • فجاءت حقاقة النحل تبين أنه كان « قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » وتأمر النبى ﷺ باتباعه فى ذلك مع التأكيد على حنيفيته وبراءته من المشركين •

وجاءت حلقة آل عمران فى مناسبة خاصة للرد على اليهود والنصارى ، وقد تجادلوا فى ملته ، فبينت أنه لم يكن يهوديا مثلاما يزعم اليهود ، ولم يكن نصرانيا مثلاما يزعم النصارى ، ولكنه كان حنيفا مسالما • وأنبت ذلك بنفى كونه من المشركين ردا على مزاعم المشركين من أنهم على ملته • والفصل بين الرد على اليهود والنصارى والرد على المشركين ببيان كونه حنيفا مسلما ، لأن زعم المشركين لم يكن مصاحبا لزعم كل من اليهود والنصارى فى هذه الحادثة الخاصة •

ثم جاءت بومدها آية أخرى فى نفس السورة تأمر باتباع ملته الحنيفية وتنفى كونه من المشركين « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » •

وبوردت بعد كل ذلك آية النساء موجزة فى الحث على اتباع ملته الحنيفية اعتمادا على ما فصل فى الآيات السابقة •

والملاحظ أن كل الآيات التى سبقناها ما عدا آية النساء تشترك فى إثبات كونه حنيفا مسلما بنفى كونه من المشركين • وفى ذلك تأكيد لهذه الحقيقة وتقرير لها أمام مزاعم المشركين فى عهد الرسول ﷺ ،

حيث كانوا يدعون أنهم على ملته • وقد انفردت حنيفة آل عمران بنفى كونه يهوديا أو نصرانيا بجانب ما سبق ، لنزولها في حادثة معينة تقتضى ذلك كما بينا آنفا •

اتباع ملته :

ويورد في بعض الآيات حث على اتباع ملة ابراهيم عليه السلام بأساليب متنوعة •

ففى النحل « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » وهو أمر مباشر للرسول ﷺ باتباع ملة ابراهيم •

وفى آل عمران « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وهو أمر للناس باتباع ملة ابراهيم عليه السلام ، وهو وارد عن طريق الأمر من الله تعالى للرسول ﷺ أن يأمر الناس بذلك ، بعدما أمر هو باتباعه في آية الأنحل التى جاءت سابقة في النزول •

وفى النساء دعوة الى اتباع ملته بطريق غير مباشر ، اذ بين أنه لا أحد أحسن ممن أخلص وجهه لله واتبع ملة ابراهيم ، وهذا حثا على اتباع ملته بطريق اللزوم اذ يلزم من كون اتباع ملته في غاية الحسن وجوب اتباعها • ولم يصرح به في هذه الآية نظرا للتصريح به في الآيتين السابقتين •

ويورد في آل عمران دعوة الى اتباعه بطريق غير مباشر في قوله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبی الذین آمنوا » وهذه الصياغة ملائمة للحادثة الخاصة التى نزلت فيها الآية ، فاليهود يزعمون أنهم أولى الناس به ، والنصارى كذلك والمشركون على سائرهم ، فبيّنت الآية أنه لا أحد من هؤلاء ينطبق عليه هذا الهدف ، فان أولى الناس به من اتبعوه والرسول محمد ﷺ والمؤمنون به لأنهم يدينون بالاسلام الذى هو ملة ابراهيم •

دَمَا ورد في الحج حث على اتباع ملته وذلك في قوله تعالى « وما جعركم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم » (٢) حيث ذكر أبو البقاء أن « ملة أبيكم » نصب على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم (٣) •

ورود في البقرة حث على اتباع ملته عن طريق الرد على اليهود والنصارى في دعواهم وذلك في قوله تعالى « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا ما كان من المشركين » (٤) • فاليهود والنصارى يدعون أن الهداية تتمثل في اتساع اليهودية أو النصرانية ويحثون الناس على ذلك • وقد رد الله تعالى عليهم في ذلك، فأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم إن ملة إبراهيم الحنيفية هي الأولى بالاتباع ومعنى ذلك أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، كما أنه لم يك من المشركين كما صرحت بذلك الآية •

البراءة من المشركين :

وتشروع التعبير عن براءة إبراهيم عليه السلام من قومه ومما يعبدون من دون الله تعالى •

ففى الزخرف « واذا قال إبراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون » •

وفى الممتحنة « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقوقهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله » •

• (٢) الحج ٧٨

• (٣) املاء ما من به الرحمن ٤٩/٤

• بهامش الفتوحات

• (٤) البقرة ١٣٥

وفي التوبة « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » •

وفي الأنعام « قال يا قوم انى برىء مما تشركون » •

وهذا التنوع يتلاءم مع مقتضيات كل موضع ، ففي الزخرف حكى الكلام على لسان إبراهيم عليه السلام بمفرده دون مشاركة أحد ، فناسب ذلك « انى برء » ، وفي الأنعام حكى الكلام على لسانه أيضا ولكن جرى بصيغة المبالغة « برىء » لتناسب مقام الشدة الذى نتج عن محاورتهم فى أمر الكواكب حتى أظهر بطلان ربهيتها بالحجة الواضحة ، وما كان أمامه بعد ذلك إلا أن يعلن فى مواجهتهم براءته مما يشركون بقوة وشدة •

وفي المتحنة جاءت الحكاية على لسان إبراهيم والذين معه ، فناسب ذلك صيغة الجمع « انا برءاء منكم » وإيثار صيغة جمع الكثرة لما فيها من شدة وبالعلة فى البراءة تتناسب مع بقية الآية فى شدتها حيث جاء تمام كلامهم « كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا » •

وفي التوبة لم يرد الكلام محكيا على لسان إبراهيم عليه السلام إنما ورد على سبيل الخبر ، فناسب ذلك صيغة الماضى « تبرأ منه » •
وغد جاءت ملامة للشرط « تبين » فتم التناسب بين الشرط والجواب فى انصيغة •

والبراءة تنفرع الى فرعين براءة من القوم وبراءة مما يعبدون • وقد ذكر من ذلك فى كل موضع ما يناسبه • غفى המתحنة نص على البراءة من القوم ومما يعبدون ، لأن المقام مقام أسيرة ، وهو يقتضى ذكر البراءة كاملة بفرعها لتعريفهم بموطن الأسوة كاملا غير منقوص ،

حتى ي نهجوا نهجه • وفى الزخرف نص على البراءة مما يعبدون ولم ينص على البراءة منهم لأن المقام ليس مقام أسوة فاكثفى فيه بما هو أهم وهو البراءة مما يعبدون •

وفى الأنعام نص على البراءة مما يشركون دون البراءة ، منهم حيث ذكرت البراءة منهم مفردة فى الآية التالية « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » •

وفى التوبة نص على براءته من أبيه فقط ، لأن المقام فى الحديث عن البراءة من المشركين ولو كانوا أولى قربى ، فذكرت براءة ابراهيم عليه السلام من أبيه وهو أقرب الناس اليه ، لكنى يأتسى به انبى ﷺ والمسلمون فى البراءة من أقاربهم المشركين •

استغفار ابراهيم لأبيه :

وورد التعبير عن استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه متنوعا ففى مريم « سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » وفى الممتحنة « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ » • فأكد الفعل فى مريم بالنسبة فقط ، وهى تفيد أن الفعل واقع لا محالة ، لأنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخلوها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى التوكيده ، وتثبت معناه (ه) ، وأكد الفعل فى الممتحنة بالقسم واللام والنون ، ونعل السر فى ذلك أنه فى مريم وعد أباه بالاستغفار بعد عذ وقسوة من أبيه وتهديد له بالرجم وأمر له بهجره ، فجاء وعده بالاستغفار غير مؤكد تأكيدا قويا من جراء هذه القسوة الشديدة التى أثرت فى نفسه دون شك • أما فى الممتحنة فلم يذكر شئ من قسوة أبيه عليه ، وكان

العدة بالاستغفار جاءت في ساعة هدوء لا ثورة فيها من جهة أبيه ،
، فأتاح ذلك تأكيدها تأكيداً قويا .

وفي مريم أتبع العدة بالاستغفار بقوله « انه كان بى حنيا »
وهذا مشعر بعلّة الاستغفار ورجاء ابراهيم عليه السلام في قبوله من
أنه تعالى ، فهو كثير البر واللفف يجيبه اذا دعاه . وفي الممتحنة أتبع
العدة بالاستغفار بقوله « وما أملك لك من الله من شيء » وهذا يضعف
الأخذ في قبول الاستغفار ، ولعل السر في ذلك أن العدة في مريم جاءت
غير مؤكدة تأكيداً قويا ، ومن ثم أتبع بهذه الجملة المشعرة بالاستجابة
تقوية لها ، وترغيباً لأبيه فيها ، وفي الممتحنة أكدت بطريئة قوية بحيث
يتأكد لساهاها أن الاستجابة واقعة لا محالة ، فأزال هذا الودم بقوله
« وما أملك لك من الله من شيء » حيث دل على أن الاستغفار له لن
يكون له أثر الا بارادة الله تعالى ، الذى له أن يعفو عن عبده وأن
يعذبه حسب مشيئته جل شأنه .

وبهذا توازنت العدة في الموضعين .

جزاء ابراهيم عليه السلام :

ورد في القصة جزاء ابراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة
بأساليب متنوعة ففى البقرة « ولقد اطيناه في الدنيا وانه في الآخرة
لن الصالحين » .

وفي النحل « وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن
الصالحين » .

وفي العنكبوت « وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن
الصالحين » .

والكلام عن هذه الآيات، يتناول الاجابة عن أسئلة ثلاثة :

١ - ما سر اختلاف صيغة التعبير عن الدنيا عن صيغة التعبير عن الآخر ؟

٢ - ما سر تعدد التعبير عن الدنيا ، واتحاد التعبير عن الآخرة ؟

٣ - ما سر التنوع التعبير عن الدنيا ؟

والاجابة عن السؤال الأول - والله أعلم - أن الدنيا واقعة ، والحكاية عما ناله ابراهيم فيها حكاية عن أمور وقعت ، فناسب ذلك التعبير بالجملة الفعلية الماضية للدلالة على تحقق الوقوع . أما الآخرة فلم تقع ، وأمرها في علم الله تعالى ، فناسب ذلك أن يعبر عما سيئاله فيها بالجملة الاسمية المؤكدة للتسارع بأنه أمر ثابت ومحتوم وإن كان لم يقع بعد .

والاجابة عن السؤال الثاني : أن ما ناله في الدنيا أمور متعددة وقعت له في أوقات مختلفة فتعددت العبارة عنها تارة بالاصطفاء وأخرى بآبائاه الحسنة أو الأجر ، أما ما سيناله في الآخرة فلم يقع ، وانتازل التي سيرقى اليها لم يشاهدها المخاطبون ، فناسب ذلك أن يعبر عما سيئاله من فضل تعبيرا عاما شاملا لكل ما أعده الله في الآخرة دون تفصيل .

والاجابة عن السؤال الثالث : أن التعبير عن جزائه في الدنيا جاء متنوعا تبعا لمقامات الكلام . فالتعبير الذي في البقرة مسبوق بالحديث عن الذين يرغبون عن ملة ابراهيم « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » وهؤلاء الذين يرغبون عن ملته يجحدون نبوته ، فناسب ذلك ذكر الاصطفاء مؤكدا بتأكيدين « ولقد اصطفيناه في الدنيا » . وآية الفصل مسبوقه ببيان أنه كان قانتا وعابدا لله تعالى وشاكرا لأنعمه ،

وهذا قد يشعر بأنه نال ما نال بعمله من قنوت وعبادة وشكر لله تعالى
 فتناسبه أن يقال « وآتيناها في الدنيا حسنة » لبيان أن ما له كان حسنة
 من الله تعالى • وفي العنكبوت لم يذكر عمل من أعماله ، ولم ينسب
 إليه سوى الهجرة ، وهذا قد يشعر بأنه نال ما نال من غير جهاد منه ،
 فتناسب ذلك أن يقال « وآتيناها أجره في الدنيا » ليدل على أنه كان
 قائماً لله تعالى عاملاً لخيري الدنيا والآخرة فنال أجره واستحق جزاءه •

الفصل الخامس

الخصائص البلاغية العامة في القصة

بعد أن انتهينا من تحليل حلقات قصة ابراهيم عليه السلام وبيان ما في نظمها من تشابه وتنوع وأسرار ذلك • نقف في هذا الفصل أمام بعض الخصائص البلاغية الشائعة في حلقات القصة لنحدث عنها بصفة عامة في جميع الحلقات ، بعد أن تناولنا كثيراً منها بالحديث في مواضعها • وسنهتم هنا بالجانب الاحصائي وما له من دلالات •

وسنقصر الحديث على أهم الخصائص المتصلة بعلم المعاني تاركين النظر في صور البيان والبدیع اكتفاء بما تقدمناه عنها في تحليلنا لنظم الحلقات في الفصول السابقة •

الخبر المؤكّد :

تكثر الأسانيب الخبرية المؤكدة في قصة ابراهيم عليه السلام ، حيث جاءت في سبعة وتسعين موضعاً موزعة على النحو التالي (١) :

(أ) من جانب الله تعالى واحد وثلاثون خبراً جاءت كالتالي :

١ - اثنان وعشرون في الحديث عن ابراهيم عليه السلام ، خطاباً له ، أو ثناء عليه ، أو ذكراً لبعض أخباره والتبئيه على جانب العبرة

(١) آثرنا الإشارة الى أرقام الآيات نظر لكثرتها ، وفي كتابتها تطويل لا داعي له ، حيث سبقت كتابتها في الدراسة التحليلية • كما لم نذكر سر التوكيد في كل جملة لأن الحديث عن ذلك سبق مفصلاً في موضعه من الدراسة التحليلية •

فيها • وعددها وهواضعها في السور والآيات حسب ترتيب المصحف :
 خمسة في البقرة : ١٢٤ ، ٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٦٠ • وواحد في آل
 عمران : ٦٨ • وواحد في التوبة : ١١٤ • واثنان في هود : ٦٩ ، ٧٨ •
 واثنان في النحل : ١٢٠ ، ١٢٢ • وواحد في مريم : ٤١ • وواحد في
 الأنبياء : ٥١ • واثنان في العنكبوت : ٢٤ ، ٢٧ • وخمسة في
 الصافات : ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ • واثنان في ص : ٤٦ ، ٤٧ •

٢ — اثنان في خطاب الرسول ﷺ في الأنعام : ٨٣ ، ٨٩ •

٣ — واحد في وصف والد ابراهيم في التوبة : ١١٤ •

٤ — ثلاثة لقوم ابراهيم تبين قدرة الله ، وعدم وجود نصير لهم
 في العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ •

٥ — ثلاثة للنبي ﷺ وصحابته والمسلمين عامة • في المتحنة :

٤ ، ٦ •

(ب) حكى عن ابراهيم عليه السلام سبعة وأربعون خبراً مؤكداً
 كما يلي :

١ — ثلاثة عشر في خطاب الله تعالى والثناء عليه جل شأنه ، منها
 ثلاثة في البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ • وستة في ابراهيم : ٢٦ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ • وثلاثة في الشعراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ • وواحد في
 المتحنة : ٥

٢ — ثمانية في حديثه مع أبيه ، منها خمسة في مريم : ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٧ • وواحد في الشعراء : ٨٦ • واثنان في المتحنة : ٤ •

٣ — واحد وعشرون في الحوار مع قومه ، منها ستة في
 الأنعام : ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ • واثنان في الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨ •

- وواحد في الثعراء : ٧٧، وسبعة في العنكبوت : ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ .
- واثنان في الصافات : ٨٩ ، ٩٩ . واثنان في الزخرف : ٢٦ ، ٢٧ .
- وواحد في الممتحنة : ٤ .

٤ — واحد في حوارهِ مع النمرود في البقرة : ٢٥٨ .

٥ — واحد في موضيته لبنية في البقرة : ١٣٢ .

٦ — واحد في حديثهِ مع الملائكة في الحجر : ٥٢ .

٧ — واحد في حديثهِ مع ابنهِ اسماعيل عليهما السلام في الصافات : ١٠٢ .

٨ — واحد في جدانه مع الملائكة عن قوم لوط في العنكبوت : ٣٢ .

(ج) حكى عن الملائكة ثلاثة عشر خبراً مؤكداً هي :

١ — ثمانية في حوارهم مع ابراهيم عليه السلام منها ثلاثة في هود : ٧٠ ، ٧٦ ، وأربعة في الحجر : ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ . وواحد في الذاريات : ٣٢ .

٢ — اثنان في حوارهم مع سارة زوج ابراهيم عليه السلام منها وواحد في هود : ٧٢ . وواحد في الذاريات : ٣٠ .

٣ — ثلاثة في جدالهم مع ابراهيم عن لوط في العنكبوت : ٣٢، ٣١ .

(د) حكى عن سارة خبر مؤكد في هود : ٧١ وذلك في تعجبها من البشرى باسحاق عليه السلام .

(هـ) حكى عن اسماعيل عليه السلام خبر مؤكد في الصافات : ١٠٢ . وذلك في حديثهِ مع أبيهِ معلناً طاعته لأمر الله تعالى .

(و) حكى عن والد ابراهيم خبر مؤكد في مريم : ٤٦ ، وذلك في تهديده لابراهيم عليه السلام بالرجم •

(ز) حكى عن قوم ابراهيم ثلاثة أخبار مؤكدة اثنان في الانبياء : ٥٤ ، ٦٤ ، وهما في حديث القوم مع بعضهم • وواحد في ردعهم على ابراهيم عليه السلام وهو في الانبياء : ٦٥ •

وبهذا ينتهى حصر الجمل الخبرية المؤكدة وبيان مواقعها في قصة ابراهيم عليه السلام •

ومن تأملنا في هذه الأساليب في مواضعها من الآيات لحدثنا ما يلى :

١ - زيادة الأخبار الطلبية عن الأخبار الانكارية ، حيث يوجد من بينها تسعة وخمسون خبراً طابياً ، بينما يوجد ثمانية وثلاثون خبراً انكارياً • وذلك لأن الدواعى التى تقتضى الاسلوب الطلبى كثيره تتعدى حالات الشك الى المقامات التى يكون الكلام فيها مثار تساؤلات ، أو فى حاجة الى بيان علته وسببه ، أو فى حاجة الى الاهتمام به ، وتقوية مضمونه ، أو متضمناً أخباراً غريبة ونحو ذلك •

٢ - أكثر الأخبار الانكارية يشتمل على مؤكدين ، حيث يوجد سبعة وعشرون خبراً من ذلك . بينما توجد عشرة أخبار تشتمل على ثلاثة مؤكدات ، ويوجد خبر واحد يشتمل على أربعة مؤكدات هو قوله تعالى « لقد كنتم أنتم وأباؤكم فى ضلال مبين » الانبياء : ٥٤ ، فقد عد بالقسم واللام وقد والضمير ، وهو رد حاسم على تعلق القوم بتقليد آباءهم فى قولهم « وجدنا آباءنا لها عابدين » الانبياء : ٥٣ وهى حجة راهية تكرر تمسككم بها ، ومن ثم رد عليهم ابراهيم هذه الحجة رداً

عزيفا ، حتى لا يلجئوا اليها بعد ذلك ، وكان لهذا الرد العنيف أثر كبير حيث هزمهم وزلزلهم وجعلهم متحيرين في أمره ، متسائلين « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » الأنبياء : ٥٥ •

٣ - حلقة الأنبياء هي الحلقة الوحيدة من بين حلقات الدعوة ، التي جاءت كل أخبارها المؤكدة أخبارا انكارية عالية التأيد ، نفي تستعمل على ستة أخبار مؤكدة ، منها اثنان بتأكيدين ، وثلاثة أكدت بثلاثة ، وواحد أكد بأربعة وهو الذى سبق أنفا • وفى هذه الحلقة يكثر التأكيد القسمى مع ما يصحبه من مؤكدات أخرى سواء أكان الخبر من جانب الله تعالى أم محكيا عن ابراهيم عليه السلام أم محكيا عن قومه ، فمن جانب الله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده » وفيما حكى عن ابراهيم « اقد كنتم أنتم وآبائكم فى ضلال مبين » « وقاله لأكيدن أصنامكم » ، وفيما حكى عن القوم « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » الأنبياء : ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٥ •

ومرد هذا فى نظرى الى أن المواجهة فى هذه الحلقة كانت حاسمة. حيث اشتد ابراهيم عليه السلام فى توبيخ القوم والتهكم بهم وبأصنامهم ، واشتد القوم فى الرد عليه ، وتطور الأمر الى تكسيره الأصنام ، ومثوله أمام محكمة علنية ، حاد القوم فيه عن الحق بعد تجليه لهم ، وحكموا باحراقه ، وقد دلت هذه التأكيدات القوية على شدة الثورة ، واحتدام الخصومة ، وعنف المواجهة بين الطرفين •

أما حلقة الشعراء فلم يرد فيها خبر انكارى واحد على الرغم من وجود خمسة أخبار طلبية فيها • وحلقتنا العنكبوت والصفات لم يرد فيها خبر انكارى لا من ابراهيم عليه السلام الى القوم ولا من القوم الى ابراهيم • وحلقة الأنعام ورد فيها خبر انكارى واحد اشتدت فيه درجة التوكيد « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » الأنعام : ٧٧ • وهو خبر قاله عن نفسه ، وقد أكدّه بالقسم واللام والذون ليقرر

بكل قنود أن الهداية من عند الله تعالى ، وأنه جل شأنه ان لم يوافقته الى طريق الصواب فسيكون من الضالين • وقد خفت حدة التأكيد في هذه الحلقات لأن الحوار فيها كان هادئا لم يصل الى مرحلة النهاية •

وحلقة مريم فيها من جانب ابراهيم عليه السلام ستة أخبار مؤكدة ، خمسة طلبية وواحد انكاري هو « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » مريم ٤٣ ، والسر في علو درجة التأكيد في هذا الخبر هو ما يتضمنه من اظهار تميز ابراهيم عليه السلام وانفراده بعلم لم يأت أباه ، ومن طبيعة الآباء أن يجادلوا أبناءهم عندما يدعون أنهم على علم لم يأتهم ، وعلى معرفة لم يتوصلوا إليها ، ومن ثم كان هذا الخبر في حاجة الى مزيد من التأكيد • وكان من نتيجة هذه الأخبار المؤكدة أن هاج الأب هاجا شديدا وتوعد ابنه « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » مريم : ٤٦ ، فأكد الكلام بالقسم واللام والذون •

٤ - حلقة العنكبوت في جداله عن قوم لوط كثرت فيها التأكيدات حيث ورد فيها ثلاثة أخبار طلبية وخبر انكاري علما بأنها مكونة من آيتين ، وهذا راجع الى أن المقام مقام جدال بين ابراهيم عليه السلام والملائكة ، وهذا يقتضى التأكيد ، حيث أخبره الملائكة باهلاك أهل القرية مؤكداين كلامهم « انا مهلكوا أهل هذه القرية » ثم علاوا الاهلات بخبر مؤكد « ان أهلا كانوا ظالمين » ورد عليهم ابراهيم بخبر مؤكد « ان فيها لوطا » فرددوا عليه مبينين عامهم به وبغيره « نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ فزادوا في التأكيد في الرد عليه لازالة كل ما في نفسه •

٥ - مجيء كثير من الأخبار الانكارية في بيان اصطفاء الله تعالى لابراهيم والثناء عليه في الدنيا والآخرة •

ففي بيان اصطفاء الله تعالى له وهدايته يقول الله تعالى « ولقد اصطفيناد في الدنيا » البقرة : ١٣٠ « ولقد آتينا ابراهيم رشده » الانبياء : ٥١ « وان من شيعته لابراهيم » الصافات : ٨٣ ، « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » ص : ٤٧ ، وعلو درجة التأكيد هنا لما أن الأخبار تتضمن أمورا جلية تتصل باصطفائه للنبوة ، واختصاصه بالامامة ، وهذا يناسبه مزيد من التأكيد والتقوية •

وفي الثناء عليه بعظيم السجايا يقول تعالى « ان ابراهيم لأواه حليم » التوبة : ١١٤ « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » هود : ٧٥ ، والمقام هنا في حاجة الى هذا التأكيد القوي ، لأن الجملة الأولى تذييل لآية تبين سبب وعده أباه بالاستغفار له ، كي لا يكون في نفس المؤمنين من ذلك شيء ، وحتى لا يقتدوا به في الاستغفار للمشركين • وهذه الظروف تستدعي تأكيد الخبر تأكيذا قويا • وانجمله الثانية آية كاملة ذكرت عقيب الاخبار بجدالة في قوم لوط ، فجاءت لبيان مبعث هذا الجدل ، هو ما طبع عليه من اللطف والحلم والخوف والانابة ، وأكدت تأكيذا قويا لتبين الحقيقة جلية ، كي لا يفهم جداله عن قوم لوط فهما على غير حقيقته •

وفي بيان منزلته في الآخرة يقول تعالى « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وقد جاءت هذه الجملة في ثلاث سور : البقرة والنحل والعنكبوت (٢) • وعلو درجة التأكيد فيها مرده الى أنها تتضمن أمورا غيبية لم يطلع عليها الناس ، ومثل ذلك في حاجة الى مزيد من التأكيد ، دفعا لما يقع في نفوس بعض الناس من اهتراء في ذلك •

وفي بيان كونه أسوة للنبي ﷺ والمؤمنين يقول تعالى « لقد كان

(٢) البقرة ١٣٠ ، والنحل ١٢٢ ، والعنكبوت ٢٧ •

لكم فيهم أسوة حسنة » الممتحنة : ٦ ، وهذه الجملة واردة بعد بيان اتخاذه أسوة في البراءة من الشرك والمشرّكين ، وعدم التأسى به في الاستغفار لأبيه ، فجاءت مؤكدة تأكيداً أقوى من نظيرتها التي تبدأ بها الحلقة ، لتقوية النحث على اتخاذه أسوة بعد النهي عن التأسى به في الاستغفار لأبيه ، كي تدفع ما قد يثيره هذا الاستثناء من تساؤلات .

٦ - أكثر الأدوات استعمالاً في التأكيد : ان المكسورة الهمزة ، حيث جاءت منفردة في واحد وأربعين خبراً ، وجاءت مشتركة مع غيرها من الأدوات في ستة وعشرين خبراً . وهذا راجع الى أنها من أقوى أدوات التأكيد . وتنفيد بجانب التأكيد ربط الجمل بما قبلها ربطاً قوياً على سبيل التعليل له ، وبيان سببه ، وقد أشار الامام عبد القاهر الى ذلك فذكر أن الجملة عن طريق « ان » ترتبط بما قبلها وتأنف معه وتنحذ به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغاً افرأغا واحداً ، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر (٣) .

وتأتى اللام في المرتبة الثانية بعد « ان » حيث جاءت في خمسة وعشرين خبراً ، ولم تأت مفردة بل مصاحبة لأدوات أخرى . أما قد وهي من الأدوات القوية في التأكيد والتحقيق فجاءت بمفردها في ستة أخبار ، ومصاحبة لغيرها في سبعة أخبار . وجاءت مؤكدة أخرى بنسب قليلة وهي انقسم ، والنون المشددة ، والسين ، وضمير الفصل ، ومن الزائدة في مصطلح النحاة .

التعريف بالاسم الموصول :

ورد التعريف بالاسم الموصول في قصة ابراهيم عليه السلام في أربعة وخمسين موضعاً تفصيلها حسب الأدوات كما يلي :

(٣) دلائل الاعجاز ٣١٦ .

١ - الذى : وجاءت فى تسعة مواضع :

موضعين من جانب الله تعالى ، وذلك فى قوله « أئتم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه » وقوله « فبئس الذى كفر » البقرة . ٢٥٨ . والتعبير بالاسم الموصول فإيهما لتحقير الطاغية باهمال اسمه ، ولعدم حاجة المناطيين الى معرفة شخصه لأن كل الذى يهمهم معرفة عمله الشائن ، وخزائنه المنيه ، وهذا كان فى الموعظة وأخذ العبرة •

وسبعة محكية عن ابراهيم عليه السلام وذلك فى قوله تعالى « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ . وفى اسم الموصول وصلته اشعاراً بعله الحكم المتقدم وهو تخصيص الله تعالى بالحمد •

وفى قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطمئنى ويسقين • وإذا مرضت فهو يشفين • والذى يمينتى ثم يخيبن • والذى أظمئع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » الشعراء : ٧٨ - ٨٢ • وفى اسم الموصول وصلته اشعاراً بعله الحكم المتقدم وهو استثناءه الله تعالى من العداوة له فى قوله « فانهم عدو لى الا رب العالمين » • فالمرصولات وصلتها تشير الى سبب هذا الاستثناء ، كما تبين قدرة الله تعالى ولطفه بابراهيم ودعاه عليه ، ليطلع القوم على قدرة الاله الحق مقارنة بعجز آلهتهم المنيه •

وفى قوله تعالى « ربى الذى يحيى ويميت » البقرة : ٢٥٨ • وتعريف المسند بالاسم الموصول للتوصل بصلته الى تعريف الطاغية بالرب الحق ، عن طريق ما اختص به سبحانه من صفات لا يشترك فيها أحد من خلقه •

٢ - التى : وجاءت فى موضع واحد من جانب الله تعالى فى قوله

« ونجيناها واطوا الى الأرض التي باركنا فيها انعمائين » الأنبياء : ٧١ .
واسم الموصول يفيد تعظيم الأرض وتعظيمها ، ويشير الى معرفتها
وشهرتها بالبركة الالهية ، من حيث ان جملة الصلة تكون معلومة
!المخاطبين •

٣ - الذين : وجاءت في تسعة مواضع :

سبعة من جانب الله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه
وهذا النبی والذين آمنوا » آل عمران : ٦٨ • وفي اسم الموصول وصلته
تعظيم لهم وثناء عليهم بالاتباع والایمان حيث عرفوا بذلك وشعروا به •
وفي قوله تعالى « الذين آمنوا ولم ينسوا ایمانهم بظلم أولئك
ائم الأمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ • وفي اسم الموصول ایماء الى
وجه بناء الخبر : وأنه من الأمور العظيمة التي يستحقها بإيمانهم
المخلص •

وفي قوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة »
و « أولئك الذين هدى الله » الأنعام : ٨٩ ، ٩٠ • وتعريف المسند فيهما
بالموصول مدحيم بما في حيز الصلة ، والاشعار بعة التعظيم المستفاد
من اسم الإشارة •

وفي قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه »
وتعريفهم بالموصول للاشعار بمكانتهم من خلال الصلة التي تفيد
معيتهم لابراهيم عليه السلام • وهذا أبلغ في التعريف بهم من ذكر
أسمائهم التي قد لا تفهم المخاطبين •

وفي قوله تعالى « والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك بدء
من رحمتي » العنكبوت : ٢٣ • وفي اسم الموصول وصلته إيماء الى وجه
بناء الخبر ، وأنه من الأمور السيئة ، والعذاب المهين •

وموضع محكى عن ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى « ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » العنكبوت : ١٧ • وتعريف المسند اليه بالموصول يومىء الى وجه بناء الخبر وأنه لا ينطوى على خير : لأن المعبودين من دون الله عجزوا لا يملكون نفعا ولا ضرا •

وموضع محكى عن ابراهيم عليه السلام والذين معه • في قوله تعالى « رينا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » الممتحنة : ٥ • وفي اسم الموصول وصفته اسمعار بشهرتهم بهذا الوصف المشين ، فهو وصف يعينهم أكثر من تعريفهم بالعلمية • وفيه ذم لهم بما في حيز الصلة من الكفر •

٤ - من : وجاءت في عشرة مواضع :

سبعة من جانب الله تعالى • وهى في قوله جل شأنه « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ ، وقوله « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » النساء : ١٢٥ ، وقوله « نرفع درجات من نشاء » و « يهدى به من يشاء » الأنعام : ٨٣ ، ٨٨ ، وقوله « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » العنكبوت : ٢١ • وقوله « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » الممتحنة : ٦ •

وموضعين محكيين عن ابراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » البقرة : ١٢٦ • ونحوه « الا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ •

وموضع محكى عن الملائكة ، في قوله تعالى : « قالوا نحن أعلم بمن فيها » العنكبوت : ٣٢ •

هـ - ما : وجاءت في خمسة وعشرين موضعاً (٤) : ثمانية من جانب الله تعالى ، وستة عشر فيما حكى من إبراهيم عليه السلام . وموضع محكى عن اسماعيل عليه السلام .

فأما التي ما جانب الله تعالى ففي قوله تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » البقرة : ١٣٢ . وفي قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس بكم به علم » آل عمران : ٦٦ . وفي قوله تعالى « لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ . وفي قوله تعالى « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله » مريم : ٤٩ . وفي قوله تعالى « على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » الحج : ٢٨ .

وأما التي حكيت عن إبراهيم عليه السلام :

فأربعة في الأنعام في قوله تعالى « انى برىء مما تشركون » : ٧٨ . وقوله « ولا أخاف ما تشركون به » : ٨٠ ، وقوله « وكثير أخاف ما أشركتم » : ٨١ ، وقوله « ما لم ينزل به عليكم سلطاناً » : ٨١ . و « ما » في هذه المواضع تشير إلى تحقيره لعبودانهم التي يعبدونها من دون الله تعالى ، حيث أبومها ولم يفصح عنها كما تدل على العموم والشمول .

رموضعان في إبراهيم في قوله تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن » : ٣٨ ، و « ما » في الموضعين تشير إلى أن علم الله تعالى عام وشامل لكل ما يخفون وما يعلنون من أمور صغيرها وكبيرها . وثلاثة في مريم في قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا

(٤) بعض المواضع تحتل أن تكون « ما » موصولة أو مصدرية . وما ذكرناه هنا رجحنا فيه جانب الموصولية .

ميدصر : ٤٣ ، ويقول « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك » : ٤٣ ،
 وقوله « وأعتزلكم يوما تدعون من دون الله » : ٤٨ • و « ما » في الآية
 الثانية تشعر بفخامة هذا العلم ، وعلو شأنه ، بينما هي في الآيتين
 الأولى والثالثة تدل على تحقيره للأصنام بابهامها وترك التصريح باسمها ،
 مع افادة العموم •

وموضعان في الأنبياء في قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله
 مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون
 الله » : ٦٦ ، ٦٧ • و « ما » في الموضعين تنبىء بتحقيقه للأصنام ،
 ولأن ما يعبدون من دون الله •

وموضع في الشعراء في قوله تعالى « أفرأيتم ما كنتم تعبدون » :
 ٧٥ ، وموضعان في الصافات في قوله تعالى « أتعبدون ما تتحتون •
 والله خلقكم وما تعملون » : ٩٥ ، ٩٦ • وموضع في الزخرف في قوله
 تعالى « انفى براء مما تعبدون » : ٢٦ ، وموضع في الممتحنة في قوله
 تعالى « انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله » و « ما » في كل
 هذه المواضع تشعر بتحقيقه لمعبوداتهم ، وعموم ذلك في الأصنام
 وغيرها •

وأما الذى حكى عن اسماعيل عليه السلام نفى قوله تعالى :
 « قال يا أبت أبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ و « ما » تشعر برضا
 اسماعيل القام عن كل ما يفعله أبوه به ذبحا أو غير ذبح ، لأن ذلك
 من امر الله تعالى •

ومن التفصيل السابق للمواضع التى ورد فيها الاسم الموصول
 قلحدا ما يلى :

١ - أكثر الأسماء الموصولة استعمالا « ما » يليها « من »

وتنساوي « الذي » و « الذين » في عدد مرات ورودهما ، وأقل الأسماء استعمالاً « التي » حيث لم ترد الأمرة واحدة ، ولعل هذا راجع إلى ما في « ما » من إيجاز وخفة ، وما يكتنفها من ابهام يقتوع حسب المقامات إلى تفخيم وتعظيم أو تحقير وتصغير • وما تتضمنه من عموم وشمول للعقلاء وغيرهم • و « من » وإن كانت فيها بعض الخصائص السابقة إلا أن اختصاصها بالعقلاء يحدد من مساحات استعمالها في الأساليب • أما « الذي » و « التي » و « الذين » فأسماء طويلة ومعانيها محددة ومن ثم يقل استعمالها •

٢ - جاءت أكثر الأسماء الموصولة في الأساليب المحكية عن إبراهيم عليه السلام ، حيث وردت في سبعة وعشرين موضعاً ، وهذا راجع إلى ثنائه على الله عن طريق الموصول وحواره مع قومه لأبطال عبادة الأصنام ، وقد أكثر في ذلك من استعمال الموصولات المبهمة التي تنصح عن تحقيره لمعبوداتهم •

يلى ذلك ما جاء من جانب الله تعالى ، حيث وردت الأسماء الموصولة في خمسة وعشرين موضعاً ، وهو عدد كبير أيضاً وقد اقتضت مقامات الحديث عن قدرة الله تعالى ومشيبته في التعذيب والرحمة والهداية ورفع الدرجات ، وإثابة المؤمنين وطرد الكافرين من رحمته ، وإثناء على الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ومواجهة أهل الكتاب • والرد على ضلالهم •

٣ - ورد التعريف بالاسم الموصول كثيراً في حلقات الدعوة إلى الله تعالى ، فقد جاء في الأنعام في عشرة مواضع وفي الشعراء في ستة مواضع وفي العنكبوت في أربعة مواضع وفي كل من الأنبياء والصفات والبقرة في ثلاثة مواضع • وهذا راجع إلى ما في هذه الحلقات من ثناء

على الله تعالى ، وبيان لقدرته ومشيئته ، وتهكم وتحقير للأصنام وعابديها •

أما بقية الحطقات فقد ورد الاسم الموصول في حلقة البقرة حول البيت الحرام في ستة مواضع ، وفي كل من آل عمران والممتحنة في أربعة مواضع ، وفي إبراهيم في ثلاثة مواضع ، وفي الزخرف في موضعين وفي كل من النساء والحج والعنكبوت الخاصة بالحديث مع الملائكة في موضع واحد •

التعريف باسم الإشارة :

ورد اسم الإشارة في قصة إبراهيم عليه السلام في واحد وثلاثين موضعاً على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى في ثلاثة عشر موضعاً منها عشرة مواضع يفيد فيها التعظيم والتفخيم بجانب الإيجاز وتمييز المشار إليه ، وثلاثة تفيد التحقير والتهوين ، فأما التي يفيد فيها التعظيم فهي :

١ - في آل عمران في قوله تعالى « ان أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » آل عمران : ٨٦ ، والإشارة فيها تعظيم للنبي ﷺ ، وتمييز له •

٢ - في الأنعام في أربعة مواضع الأول قوله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » ٧٥ ، والإشارة على رأى انزمخشري ومن تبعه الى مصدر نرى لا الى اراء أخرى مفهومة مما سبق • أى ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم وتبصرة ملكوت السموات والأرض (٥) • واسم الإشارة يفيد التعظيم والتفخيم ، والكاف الأولى لتأكيد ما أقاده من الفخامة •

والثانى فى قوله تعالى « ذلک هدى الله يهدى به من يشاء من عباده » ٨٨ ، والاشارة الى الهدى وهى مفيدة لتعظيمه وتفخيمه ، والخطب بذلك فى الأصل هو الرسول ﷺ .

والثالث فى قوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب » ٨٩ ، والرابع فى قوله تعالى « أولئك الذين هدى الله » ٩٠ ، واسم الاشارة فيهما لتعظيم الاشار اليهم وهم الانبياء المذكورون من ذرية ابراهيم عليه السلام .

٣ - فى العنكبوت فى موضعين ، الأول قوله تعالى « ان ذلک على الله يسير » ١٩ ، والاشارة الى بدء الخلق واعادته ، وتنفيذ التعظيم والتفخيم ، اى ان ذلک الفعل العظيم البالغ الفخامة يسير على الله تعالى . والثانى قوله تعالى « ان فى ذلک لآيات لقوم يؤمنون » ٢٤ ، والاشارة الى انجاء الله تعالى ابراهيم عليه السلام من النار بعد لقائه فيها : والاشارة تدل على فضاة هذا الفعل وعظمته .

٤ - فى الصافات فى ثلاثة مواضع الأول قوله تعالى « انا كذلك نجزي المحسنين » ١٠٥ ، والثانى قوله تعالى « ان هذا لمر البلاء المبين » ١٠٦ ، والثالث قوله تعالى « كذلك نجزي المحسنين » ١١٠ ، والاشارة فى المواضع الثلاثة تفيد التعظيم والتفخيم .

وأما الثلاثة التى يفيد فيها التحقير فالأول فى آل عمران فى قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » ٦٦ ، والاشارة الى أهل الكتاب وفيها تحقير لهم بسبب ما أقدموا عليه من الجدل فى شأن دين ابراهيم عليه السلام دون علمه . والثانى والثالث فى العنكبوت فى قوله تعالى « والذين كفروا بآيات الله وإلقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » ٢٣ ،

والإشارة في الموضوعين لتحقيرهم وبيان سوء مصيرهم بسبب كفرهم
بآيات الله تعالى •

(ب) وجاء اسم الإشارة فيهما حكى عن إبراهيم عليه السلام
في عشرة مواضع ، منها ثمانية يفيد فيهما التعظيم وما يتصل به ،
وموضعان يفيد فيهما التحقير •
فأما التي يفيد فيها التعظيم فهي :

١ — أربعة مواضع في الأنعام في قوله تعالى « هذا ربي » ٧٧، ٧٨ ،
عند رؤية الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، وقوله تعالى « هذا
أكبر » ٧٨ ، عند رؤية الشمس • والإشارة في هذه المواطن الأربعة
تشعر بتعظيم المشار إليه ، وهذا مبنى على مجازة إبراهيم لقومه حتى
يلزمهم بالحجة •

٢ — موضعان متشابهان في البقرة وإبراهيم في قوله تعالى « رب
اجعل هذا بلدا آمنا » ١٢٦ ، وقوله تعالى « رب اجعل هذا انبلا
آمنا » ٣٥ ، وغرض التمييز هنا ظاهر ، وهو أقوى من غيره •

٣ — موضعان في الأنبياء والعنكبوت الأول في قوله تعالى « بل
ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من
الشاهدين » ٥٦ ، والثاني في قوله تعالى « اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير
لكم » ١٦ ، والإشارة في الآية الأولى للرب سبحانه وتعالى ، وفي
الثانية لعبادة الله وتقواه ، وقد جاءت الإشارة في الموضوعين على نمط
واحد ، وفي كل منهما تفيد التعظيم والتفخيم •

وأما الموضعان اللذان يفيدان التحقير ففي قوله تعالى « ما هذه
التمائيل التي أنتم لها عاكفون » وقوله تعالى « بل فعنه كبيرهم هذا »

والموضعان في سورة الأنبياء : ٥٢ ، ٦٣ ، والاشارة في الأول للأصنام
وفي الثاني لكبير الأصنام الذي تركه دون تكسير • والتحقيق واضح
في كل من الاشارتين •

(ج) وورد اسم الاشارة فيما حكى عن الملائكة في ثلاثة مواضع:
الأول في قوله تعالى « يا ابراهيم أعرض عن هذا » هود : ٧٦ ،
والاشارة الى جدال ابراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، ووضح
في اسم الاشارة التحقير والتهوين ، أى أعرض عن هذا الجدال الذي
لا فائدة منه فقد جاء أمر الله بعذابهم • والثاني في قوله تعالى « قالوا
كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الذاريات : ٣٠ ، واسم الاشارة
يعود الى التبشير بالغلام والمخاطب به سارة حين تعجبت من هذا
وصكت وجهها ، وهو يفيد التعظيم • والثالث : في قوله تعالى « انا
مهلكوا أهل هذه القرية » العنكبوت : ٣١ وفي اسم الاشارة تمييز
القرية واشعار بحقارتها •

(د) وجاء اسم الاشارة فيما حكى عن سارة في موضعين يفيد
فيهما تمييز المشار اليه مع تعظيمه وذلك في قوله تعالى « وهذا بعلى
شيخا ان هذا لشيء عجيب » هود : ٧٢ •

(هـ) وجاء اسم اشارة فيما حكى عن القوم في ثلاثة مواضع
الاول في قوله تعالى « من فعل هذا بالهتتا » الأنبياء : ٥٩ ، وفيه تهويل
لشأن كسر الأصنام وتكبير لهذا الجرم ، والثاني في قوله تعالى « لقد
علمت ما هؤلاء ينطقون » الأنبياء : ٦٥ ، وفيه تعظيم لشأنها حسب
اعتقادهم ، والثالث في قوله تعالى « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »
الشعراء : ٧٤ ، وفيه تعظيم لشأن عبادة الأصنام التي يقلدون فيها
آباءهم •

وبالتأمل في المواضع التي ورد فيها اسم الإشارة نلاحظ ما يلي :

١ - أكثر الأدوات استعمالاً « هذا » وذلك لما فيها من تنبيه وإيتناظ وقد جاءت في ثلاثة عشر موضعاً ، كما وردت مؤنثة في موضعين ويليها « ذا » ولم تأت مفردة وإنما ألحق بها لام البعد وكاف الخطاب في ثمانية مواضع ، كما زيد على ذلك ميم الجمع في موضعين • ويليها « أولاء » حيث جاءت في أربعة مواضع ملحقاً بها كاف الخطاب • وتأتى « هؤلاء » في آخر الأدوات حيث وردت في موضعين •

٢ - كثر اسم الإشارة في حلقات الدعوة حيث ورد في الأنعام في ثمانية مواضع وفي كل من الأنبياء والعنكبوت في خمسة مواضع • في الصافات في ثلاثة مواضع ، وجاء في الشعراء في موضع واحد • أما الحلقات الأخرى فقد ورد في هود في ثلاثة مواضع وفي آل عمران في موضعين وفي كل من البقرة وإبراهيم والعنكبوت والذاريات في موضع واحد •

٣ - أكثر المواضع التي ورد فيها اسم الإشارة كان الغرض منه التعظيم والتفخيم بجانب كونه مفيداً للإيجاز ومميزاً للمشار إليه أكمل تمييز • وقد فصلنا في التحليل البلاغى الغرض المستفاد من كل اسم إشارة في موضعه الخاص به •

التقديم والتأخير :

وهو من الظواهر البلاغية الشائعة في قصة إبراهيم عليه السلام. وسيأتى حديثنا عن التقديم المفيد للتخصيص في الكلام عن انقصر. أما في هذا الموضع فسنحدث عن التقديم الذى تتحقق به أغراض أخرى خلاف التخصيص.

وهذا اللون من التقديم قد ورد في نحو عشرة ومائة موضع ،
بيانها فيما يلي :

١ - تقديم بعض المعمولات على بعض ، وهو أكثر مواضع التقديم ورودا في القصة ، حيث جاء في ثمانين موضعا ، تتوزع بين تقديم الجار والمجرور على المفعول ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول معا ، وتقديم الجار والمجرور على مثله ، وتقديم المفعول على الفاعل أو ما عطف عليه ، وتقديم بعض المفاعيل على بعض ، وتقديم النداء على المفعول •

فأما تقديم الجار والمجرور على المفعول ، فقد ورد في واحد وخمسين موضعا ، نراها موزعة في السور والآيات كما يلي : تسعة مواضع في البقرة في الآيات : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٦٠ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٤ ، ٨١ ، ٧٤ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ ، ٠ .

وأما تقديم الجار والمجرور على الفاعل فورد في تسعة مواضع :
 • موضع في البقرة : ١٣٢ • وثلاثة في الأنعام : ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩ • وموضع
 في كل من : هود : ٧٤ • وإبراهيم : ٣٨ • والحجر : ٥٦ • والأنبياء :
 ٦٠ • والممتحنة : ٤ •

وأما تقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول معا نفى موضع
 في سورة البقرة : ١٣١ •

وأما تقديم الجار والمجرور على مثله فورد في تسعة مواضع هي :
 موضع في كل من : البقرة : ١٢٦ • وإبراهيم : ٤١ ، وفيها تقدم الجار
 والمجرور على الظرف • والأنبياء : ٧١ • والذاريات : ٣٤ • وموضعان
 في الحج : ٢٧ ، ٢٨ • وثلاثة في الصافات : ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٨ •
 وأما تقديم المفعول على الفاعل فورد في موضعين في البقرة :
 ١٢٥ ، ١٣٣ •

وأما تقديم المفعول على ما عطف على الفاعل نفى موضع في
 البقرة : ١٣٢ •

وأما تقديم بعض المفاعيل على بعض فورد في أربعة مواضع هي
 في مريم : ٥٠ ، وفي الشعراء : ٨٤ • وفي العنكبوت : ٢٧ • وفي
 الصافات : ٨٦ •

وأما تقديم النداء على المفعول فورد في ثلاثة مواضع : في الأنعام :
 ٧٨ ، وفي الصافات : ١٠٢ •

٢ — تقديم الجار والمجرور على الخبر • وورد في أربعة عشر
 موضعا هي : أربعة في مريم : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ • وموضعان في كل
 من : الأنبياء : ٥١ ، ٥٢ • والعنكبوت : ٢٠ ، ٢٧ • وموضع في كل من :
 البقرة : ١٣٥ • والأنعام : ٨٩ • والشعراء : ٥٢ • والنحل : ١٣٢ •
 والشعراء : ٧١ • وص : ٤٧ •

٣ - تقديم الخبر على المبتدأ • وقد ورد في اثني عشر موضعاً
هي : موضعان في كل من : آل عمران : ٦٦ • والصفات : ٨٣ ، ١١٣ •
مخمسة في العنكبوت : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢ • وموضع في
الأنعام : ٨٤ •

٤ - تقديم المسند اليه على الفعل • وورد في ثلاثة مواضع :
البقرة : ٢٥٨ • والأنبياء : ٦٢ • والعنكبوت : ٣٢ •

٥ - تقديم المفعول على الفعل • وورد في موضع واحد في
الصفات : ٨٦ •

فهذا بيان عشرة ومائة موضع وقع فيها التقديم في قصة إبراهيم
عليه السلام ، وقد آثرنا الإشارة الى سورها وآياتها نظراً لكثرتها •
ومما هو جدير بالذكر أننا أشرنا في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة الى
الأسرار البلاغية في كثير من هذه المواضع ، ومن ثم فلم نرد داعياً
لتكرار ما سبق • ولكتنا سنقف عند أمور لحظناها من التأمل في مواضع
التقديم مجتمعة وهي :

١ - التزام التقديم في أساليب معينة • من ذلك :

(أ) تأخير مفعول القول وتقديم من يوجه اليه القول ففي الأنعام
« واذ قال إبراهيم لأبيه أزر اتخذ أصناماً آلهة » ٧٤ • وفي مريم :
« اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » ٤٢ ، وفي الأنبياء
« اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ٥٢ •
وفي الشعراء « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » ٧٠ • ونحو هذا في
العنكبوت والصفات والزخرف والامتحنة • وفي هذا النهج تشويق القارئ
المؤخر ، واهتمام بالمقدم ، ووجود طعن في المفعول به في بعض المواضع
فيخل تقديمه يتجاوب أطراف النظم وتماثلها •

والاهتمام بالمقول له راجع الى شيئين : التأكيد على أنه بلغ الرسالة لأبيه وقومه مرارا وتكرارا ولم يدخر وسعا في ذلك • والتنبيه على خصوصية الرسالة اذ هي لقومه ، وليست عامة كرسالة الرسول محمد ﷺ الذي أمره الله بقوله « قل يأيها الناس انما اذا لكم نذير مبين » الحج : ٤٩ • وقوله « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » يونس : ١٠٨ ومثل هذا كثير • والأمر باتباع ملة ابراهيم هو في الحقيقة أمر باتباع الاسلام الذي هو دين محمد ﷺ ، وانما أمر باتباع ملة ابراهيم لصلته الوثيقة بالعرب وغيرهم من أهل الكتاب ، ولكانته العظيمة عندهم ، وفي اتباعه اتباع للرسول ﷺ •

(ب) تقديم المخوف منه على الخيفة • وذلك في حوار مع الملائكة • ففي هود « فأوجس منهم خيفة » ٧٠ • وفي الحجر « انا منكم وجلون » ٢٢ • وفي الذاريات « فأوجس منهم خيفة » ٢٨ • وفي ذلك مسارعة الى بيان سبب الخوف والوجل وأنه كان من الملائكة وليس من شيء آخر ، فهو لا يخاف من قومه ولا من أعداء دعوته ، لأنه واثق من نصر الله تعالى له • ولعل هذا يشير الى أن التقديم في قوله تعالى « فأوجس في نفسه خيفة موسى » ليس مراعاة للفواصل ، وانما هو نهج مسلوک في وصف ما يعترى الرسل من خوف ، للمسارعة ببيان ما هو مهم في الحكاية •

(ج) تقديم المرهوب له على الهبة • ففي الأنعام « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٨٤ • وفي مريم « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٥٠ • وفي الأنبياء « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٧٢ • وفي العنكبوت « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٢٧ • وليس هذا في الاخبار من الله تعالى بل انه واراد على هذا النهج في دعاء ابراهيم عليه السلام غفي الشعراء « رب هب لي حكما » ٨٣ • وفي المسافات « رب هب لي من الصالحين » ١٠٠ • وفي التقديم

مسارعة الى بيان أن الهبة كانت لابراهيم عليه السلام ، حيث كان يتوقع الى ذلك من زمن بعيد ، ويتشوق اليه من عهد طويل . كما أن التقديم فيما أخبر الله تعالى به فيه تلاؤم بين السؤال والجواب ، حيث تقدم الموهوب له في سؤال ابراهيم عليه لسلام ، وتقدم الموهوب له في اجابة الله تعالى لضراعته .

(د) تقديم المفعول له على المفعول . ففي مريم « وجعلنا هم لسان صدق عايا » ٥٠ . وفي العنكبوت « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » ٢٧ . وفي دعاء ابراهيم عليه السلام « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » الشعراء : ٨٤ . وفى هذا اهتمام ببيان كون الجعل لهم . وفيه أيضا تلاؤم بين السؤال والجواب كما أسلفنا . ويدخل فى هذا قوله تعالى « ائى جاعلك للناس اماما » البقرة : ١٢٤ . وان كان المفعول له قد تقدم على المفعول الثانى الذى هو مصب الجعل . وفى هذا اهتمام ببيان من جعل اماما لهم . وقدم المفعول له على ما عطف على المفعول الثانى فى قوله تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » البقرة : ١٢٥ ، وفى هذا مسارعة الى بيان كون البيت مرجعا للناس يتفرقون عنه ثم يثوبون اليه ، وكون البيت مثابة للناس صفة شديدة اللصوق بالبيت لا تنفك عنه فى وقت من الأوقات بخلاف الأمن ، ومن ثم فصل بالمفعول له .

(هـ) تقديم محل الجزاء على الجزاء . ففي البقرة « وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ١٣٠ ، وفى النحل : « وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ١٢٢ . وفى العنكبوت « وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ٢٧ . وفى ص « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » ٤٧ . وفى التقديم اهتمام ببيان محل الجزاء نظرا لفخامته وعظمته ، وحاجة الناس المساسة فيه الى الثواب والجزاء الكريم . وتكرار ذلك فى عدد من الحلقات بعارة واحدة لما أن أمر الآخرة أهم والحاجة الى الزجاة (٣٤ - خصائص النظم)

فيها أمس فناسب ذلك تكرار الجزء فيها بعبارة واحدة مشتملة على صروب من التأكيد بخلاف الجزء في الدنيا فقد اختلف التعبير عنه ، وقد بينا ذلك فيما سبق •

٢ - جاءت أكثر أساليب التقديم في الحلقات من جانب الله تعالى حيث تصل إلى أربعة وخمسين أسلوبا ، يلي ذلك ما حكى عن إبراهيم عليه السلام إذ تبلغ ستة وأربعين أسلوبا • وحكى عن القوم خمسة أساليب ، وعن الملائكة ثلاثة أساليب ، وعن اسماعيل عليه السلام أسلوبان • وهذا راجع إلى كثرة ما صدر من جانب الله تعالى من أوامر وسواه وتوجيهات وارشادات ، وثناء على إبراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء ، وبيان لنعمه تعالى عليهم وعلى إبراهيم بصفة خاصة ، وذلك لكي تؤدي القصة وظيفتها ، تسلية وطمنة وتقوية للرسول ﷺ ، وعظة وعبرة للمعتبرين ، وترغيبا وحثا للشاردين على الدخول في طاعة الله عز وجل •

كما يرجع إلى كثرة ما حكى عن إبراهيم عليه السلام من حوار مع قومه في دعوتهم إلى عبادة الله تعالى ، وثناء على الله عز وجل وضرعة إليه ، في الوقت الذي لاذ فيه القوم بالصمت كبتا وافحاما •

ألوان أخرى من التقديم :

• وحدثنا السابق كان عن التقديم المبني على أسس نحوية ، وهو تقديم ما حقه التأخير ، وسنتحدث هنا عن ألوان من التقديم لا مدخل فيها بقواعد النحوية ، حيث يتساوى المقدم والمؤخر في الحكم النحوي ، فكل منهما يمكن تقديمه وتأخيره ، ولكن قدم المقدم لأسباب معنوية وأغراض بلاغية يمكن الكشف عنها من خلال التأمل في النظم ومقامات الأعلام • وقد وقفنا في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة أمام كثير من

التعبيرات التي فيها تقديم وتأخير من هذا القبيل . مبينين ما وراء ذلك من أسرار البلاغة ولطائف البيان ، ويتضح هذا في حديثنا عن ترتيب النعم التي نزلت على ابراهيم عليه السلام من اذن رب العالمين . وترتيب الذنرات التي تضرع بها ابراهيم لربه ، وترتيب الحقائق التي بلغ بها أباه وقومه ، وغير ذلك مما هو مبعوث في ثنايا التحليل البلاغي لنظم حلقات القصة .

ومن خلال استعراضنا لمحلقات القصة جميعها سنعرض لبعض الأساليب التي جرى فيها هذا اللون من التقديم مصنفة حسب الأسرار واللفائف :

١ - التقديم للسبق الزمني • حيث يراعى في ترتيب الأسلوب تقديم ما هو أسبق وجودا وزمانا على غيره من ذلك قوله تعالى « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ فقدم ما في الدنيا على ما في الآخرة للسبق الزمني ، ويكون ما في الدنيا قد تحقق ووقع ، وما في الآخرة آت في المستقبل • ولهذه الآية نظائر في النحل : ١٢٢ • والعنكبوت : ٢٧ • وص : ٤٦ ، ٤٧ • ومن ذلك قوله تعالى « الحمد لله الذي وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ • وقوله تعالى « قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق » البقرة : ١٢٣ • فتقديم اسماعيل على اسحاق للسبق الزمني ، وتقديم ابراهيم عليهما لذلك أيضا بجانب ماله من مكانة عظيمة عند الله تعالى ، وكونه أساس وجودهما •

ومن ذلك قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين » وقوله « وإذا مرضت فهو يشفين » وقوله « والذى يميتنى ثم يحيين » الشعراء : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ • فتقديم الخلق على الهداية والمرض على الشفاء والامانة على الاحياء للسبق الزمني • أما ترتيب الآيات على ما جاءت

عليه في النظم انقرأني فقد بيناه في تحليلنا البلاغى حلقة الشعراء .
ومن ذلك قوله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه
وهذا النبي والذين آمنوا » آل عمران : ٦٨ ، حيث جاء الترتيب بين
المذكورين للسبق الزمني وجودا واتباعا .

٢ - تقديم الداعية والسبب . من ذلك قوله تعالى : « فلما رأى
أيديهم لا فصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » هود : ٧٠ . فقدم
نكرانهم على التوجس منهم خيفة لأن الأول داعية وسبب للثاني .
وقوله تعالى « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا
سوييا » مريم : ٤ . قدمت الجملة الأولى على الثانية لأنها داعية لها
فمجيء العلم الى ابراهيم دون أبيه داعية لاتباعه والسير على نهجه .
وقد يقدم السبب المباشر على غيره كما في قوله تعالى « قالت
يا ويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٢ . فالسبب الأول
في ذلك كونها عجوزا ، أما كون بعليها شيخا فيأتى في المرتبة الثانية ، إذ
شيخوخة الرجل لا تمنع قدرته على الأنجاب .

٣ - تقديم التخلية على التحلية . من ذلك قوله تعالى « قال
يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات
والأرض حنيفا » الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ . حيث قدم براءته من الشرك
على التوجه لله تعالى ، لما أن التخلية مقدمة على التحلية ، ودرء
المفسد مقدم على جلب المصالح . ولأن الثانى لا يتأتى دون الأول . وقوله
تعالى « وأعتزلکم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى » مريم : ٤٨ .
وقوله تعالى « ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين » الحج : ٢٦ .

٤ - تقديم الحاضر على الغائب . من ذلك قوله تعالى « قاتلوا
معبد المك والاله آبائك » البقرة : ١٣٣ . قدم « المك » على ما بعده
مراعاة لحضور يعقوب عليه السلام وعدم وجود آبائه . وقوله تعالى

« انى اراك وقومك فى ضلال مبين » الأنعام : ٧٤ • تقدم مخاطبة
أبيه على قومه لأن الكلام موجه له ، والقوم غائبون • وقوله تعالى
« لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » الأنبياء : ٥٤ • خاطبهم أولا
نظرا لحضورهم ، وعدم وجود الآباء • ومثل هذا قوله تعالى « أنظرأيتم
ما كنتم تدعون • أنتم وآباؤكم الأقدمون » الشعراء : ٧٥ ، ٧٦ •

٥ — التقديم للتعظيم والتشريف • من ذلك قوله تعالى « فمن
تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ابراهيم : ٣٦ • تقدم
الفريق الأول تعظيما له وتشريفا ومثله وقوله تعالى « لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر ومن يقول فان الله هو الغنى الحميد » الممتحنة : ٦ •
وقوله تعالى : « وهن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع
ملة ابراهيم حنيفا » النساء : ١٢٥ • فقدم اسلام الوجه لله على اتباع
ملة ابراهيم لما له من العظمة والتشريف • وعدم تأتى الثانى دون
الأول •

٦ — تقديم العام على الخاص • ومن ذلك قوله تعالى « انه كان
صديقنا نبيا » مريم : ٤١ وقوله تعالى « اعبدوا الله واقفوه » العنكبوت :
١٦ • وقوله « واعبدوه واشكروا له » العنكبوت : ١٧ فتقديم الأول على
الثانى فى كل ذلك لعمومه ودخول الثانى فيه •

٧ — تقديم ما يناسب المقام • من ذلك قوله تعالى « أولئك لهم
الآمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ • قدم الأمن على الهداية مراعاة
للمقام لأنه مقام حديث عن الخوف والأمن ، وسؤال عن الفريق
الأحق بالأمن • وقوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن
كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » آل عمران : ٦٧ • قدم كونه
حنيفا مسلما على نفي أشرك مراعاة للمقام لأن الحديث فى الآية كان
مع اليهود والنصارى : فلما نفى كونه يهوديا أو نصرانيا أتبع ذلك

ببيان كونه مسلماً ثم تلا ذلك نفى كونه من المشركين نتميم للسلام ،
وقوله تعالى « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » العنكبوت : ٢١ قدم
العذاب على الرحمة لأن المقام مقام تضييق وترهيب فالحديث مع
المكذبين بقدره الله تعالى على البعث ، فناسب تقديم العذاب على
الرحمة . .

٨ - تقديم ما هو محبوب الى النفس ، وما تنمناه ونتوق اليه .
من ذلك قوله تعالى « وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً » مريم :
٤٦ . وقوله تعالى « وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه
وعلى اسحاق » الصافات : ١١٣ . فتقديم الهبة على ما بعدها يكونها
الأمل الذي ظله يراوده سنين طويلة . وقوله تعالى « ليشهدوا منافع لهم
ويذكروا اسم الله » الحج : ٢٨ . فتقديم شهود المنافع على ذكر الله
تعالى لأن النفس جبلت على حب العاجلة ، والسعى الى ما يعود عليها
بالنفع الدنيوى .

٩ - تقديم ما يخص النفس على ما يخص الغير . من ذلك قوله
تعالى « رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ابراهيم :
٤١ . فبدأ فى الدعاء بنفسه ثم بوالديه ثم بالمؤمنين ، وقوله تعالى
« رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » ابراهيم : ٤٠ ، ، فدعا لنفسه
ثم لذريته . وقوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » الحج :
٢٨ ، فأمروا بالأكل منها ثم بالأطعام . وفيه أيضاً تسوية بين الغنى
والفقير ، حيث يبدأ الغنى بالأكل مما يطعم منه الفقراء .

١٠ - تقديم الأول على القدرة . من ذلك قوله تعالى « ربنا انك
تعلم ما نخفى وما نعلن » ابراهيم : ٣٨ . فقدم علم الخفى على علم
العلن لأنه أدل على القدرة وأقوى فى الدلالة على شمول علم الله تعالى
لنا فى الكون ، ومن ذلك تقديم النفع على الضر فى قوله تعالى

« اغتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ •
 وقوله تعالى « أو ينفعونكم أو يضرون » الشعراء : ٧٣ • وذلك لأن
 النفع أدل على القدرة من حيث أنه يتضمن إيجاد غير الموجود، أما الضرر
 فيقوم على سلب الموجود وهذا أيسر وأسهل • كما أن ما يحقق النفع
 محبوب للنفس وهو مقدم لديها •

١١ — تقديم الأصغر على الأكبر للتدرج في الاستدلال • يمثل
 ذلك ما حكى في سورة الأنعام عن نظر إبراهيم عليه السلام في الكوكب
 ثم في القمر ثم في الشمس فتدرج من الأصغر إلى الأكبر ليفهم قومه
 بالدليل الذي لا يقبل الشك • ومما يتصل بذلك ما حكى عنه في مواجهة
 النمرود حيث استدل أولاً بالاحياء والاماتة فلما عارض النمرود الدليل
 وأثار حواره الشبهة أتى بما لا يستطيع الخصم أن يثير شبهة فيه •
 « اد قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال
 إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت
 الذى كفر » البقرة : ٢٥٨ •

١٢ — تقديم الخاص بالشيء على غيره ، من ذلك قوله تعالى
 « أن طهراً بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » البقرة : ١٢٥
 فتقديم الطائفين على غيرهم في الآيتين لاختصاص البيت الحرام
 بالطواف ، أما العكوف والقيام والركوع والسجود فأمور تؤدي في
 جميع المساجد وفي غير المساجد •

١٣ — تقديم ما يظن فعله على مالا يمكن فعله • وذلك في قوله
 تعالى « وما أذنت بمعجزين في الأرض ولا في السماء » العنكبوت : ٢٢
 فربهم في الأرض قد يتوهمون فعله ويظنون قدرتهم عليه ، أما في
 السماء فلا يتصورون فعل ذلك لأن صعودهم إليها غير مستطاع لديهم

وتقديم نفى اعجازهم الله تعالى في الأرض وهم عليها ومتمكنون منها
يسنوجب نفى اعجازهم في السماء من باب أولى •

١٤ - تقديم ما هو أكثر مشقة وكلفة • من ذلك قوله تعالى :
« يأتئوك رجالا وعلى كل ضامر » الحج : ٢٧ • فقدم الرجال على
الركبان لما في اتیانهم من مشقة زائدة • ويمكن أن يكون ذلك من تقديم
الأكثر والأغلب •

القصر :

وهو من الأساليب البارزة في قصة ابراهيم عليه السلام . حيث ورد في نحو اثنين وستين موضعا ، تفصيلها حسب طرق القصر كما يلي :

١ - القصر عن طريق تقديم ما حققه التأخير . وهو أكثر الأساليب القصرية ورودا في القطعة ، حيث جاء في اثنين وثلاثين (١) موضعا على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى واحد وعشرون قصرا :

أربعة تقدم فيها المقول « كلا » على الفعل ، وذلك في قوله تعالى « كلا هدينا » الأنعام : ٨٤ ، وقوله « وكلا جعلنا نبيا » مريم : ٤٩ ، وقوله « وكلا جعلنا صالحين » الأنبياء : ٧٢ . والمقصود عليه فيها : اسحاق ويعقوب عليهما السلام ، وفي قوله تعالى « وكلا فضلنا على العالمين » الأنعام : ٨٦ . والمقصود عليه فيها الأنبياء المذكورون في صدر الآية من ذرية ابراهيم عليه السلام . والقصر في هذه الآيات الأربعة قصر صفة على موصوف ، فيه اهتمام بالثناء على الموصوفين بالهداية والنبوة والصلاح والتفضيل .

وأربعة تقدم فيها اسم الإشارة الواقع موقع المفعول المطلق على الفعل . وذلك في قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض » وقوله « وكذلك نجزي المحسنين » الأنعام : ٧٥ ، ٨٤ . وقوله « انا كذلك نجزي المحسنين » وقوله « كذلك نجزي المحسنين »

(١) توجد بعض أساليب لم نذكرها يمكن حمل التقديم فيها على القصر وغيره .

الصفات : ١٠٥ ، ١١٠ والقصر في هذه الأساليب قصر موصوف على صفة وأصل التدوير في الآية الأولى : نرى ابراهيم أراءه مثل تلك الاراءه ، وفي الآيات التالية : نجزي المحسنين جزاء مثل ذلك الجزاء • فاسم الإشارة مشار به الى مصدر الفعل الذي بعده • وتقديمه على الفعل لإفادة القصر (٢) • وفي هذا القصر اهتمام بابرار الصفة والتأكيد عليها • وقد ورد هذا الأسلوب كثيرا من سورتي الأنعام والصفات في غير قصة ابراهيم عليه السلام ، فهو سبيل متبع في كل منهما •

وأربعة تقدم فيها الجار والمجرور على المفعول • وذلك في قوله تعالى « وأرادوا به كيدا » الأنبياء ، ٧٠ ، وقوله « واذا بوأنا لابراهيم مكان البيت » الحج : ٢٦ ، وقوله « وأرادوا به كيدا » وقوله « فلما بلغ معه السعي » الصفات : ٨٩ ، ١٠٢ • والقصر في هذه الأساليب الأربعة قصر صفة على موصوف • وفيه اهتمام بالموصوف والتأكيد على اختصاص الفعل به •

واثنان تقدم فيهما الجار والمجرور على الخبر ، وذلك في قوله تعالى « وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ ، وقوله « ان ذلك على الله يسير » العنكبوت : ١٩ • وهما من قصر الصفة على الموصوف • وفيه تأكيد على اختصاص الصفة بالموصوف ، فعبادتهم لله لا لغيره ، والبدء وإعادة أمران يسيران على الله لا على غيره •

واثنان تقدم فيهما الجار والمجرور على الفاعل ، وذلك في قوله تعالى « فبهدهم اقتده » الأنعام : ٩٠ ، وقوله « واليه تقلبون » العنكبوت : ٢١ • والقصر فيهما من قصر الصفة على الموصوف أي اقتدهم لا بغيره ، وتقلبون الى الله تعالى لا الى سواه •

(٢) ينظر أبو السعود ١٥٢/٣ ، ١٥٨ •

وواحد تقدم فيه الجار والمجرور على الفاعل • في قوله تعالى
 « فآمن له لوط » العنكبوت : ٢٦ وهو من قصر الموصوف على الصفة •
 وواحد تقدم فيه المسند اليه على خبره الفعلي • في قوله تعالى
 « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » • آل عمران : ٦٦ وهو من قصر الصفة
 على الموصوف •

وثلاثة تقدم فيها المسند على المسند اليه الأول والثاني في قوله
 تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » البقرة : ١٣٤ ، أى ما كسبته
 الأمة مقصور عليها لا يتجاوزها إلى غيرها ، وما كسبتموه مقصور عليكم
 لا يتجاوزكم إلى غيركم وهو من قصر الموصوف على الصفة • وتقدم
 الكلام عليهما مفصلاً في التحليل الإبلأغى لحقة البقرة في بناء البيت
 الحرام • والثالث في قوله تعالى « أولئك لهم الأمن » الأنعام : ٨٢
 وهو من قصر الموصوف على الصفة •

(ب) جاء القصر بطريق التقديم فيما حكى عن ابراهيم عليه
 السلام في ثمانية مواضع كالتالى :

أربعة تقدم فيها الجار والمجرور على الفعل • وذلك في قوله تعالى
 « لعلمهم اليه يرجعون » الأنبياء : ٥٨ ، وقوله « اليه ترجعون »
 العنكبوت : ١٧ ، وقوله « عليك توكلنا واليك أنبنا » الممتحنة : ٤ •
 والقصر في هذه الأساليب الأربعة قصر صفة على موصوف • وفيه
 تأكيد على اختصاص الصفة بالموصوف ونفيها عن غيره •

وواحد في كل من :

تقديم الجار والمجرور على المفعول • في قوله تعالى « فابتهوا
 عند الله الرزق » العنكبوت : ١٧ • وتقدم الجار والمجرور على الخبر
 في قوله تعالى « وأنا على ذلكم من الشاهدين » الأنبياء : ٥٦ • وتقدم

المسند على المسند اليه • في قوله تعالى «واليك المصير» الممتحنة : ٤ •
والقصر في الثلاثة من قصر الموصوف على الصفة •

وواحد تقدم فيه المسند اليه على خبره الفعلى • في قوله تعالى
« والله خلقكم وما تعملون » الصافات : ٩٦ • وهو من قصر الصفة على
الموصوف • أى والله خالقكم وما تعملون لا غيره فخلقهم وخلق ما يعملون
مقصور على الله تعالى دون سواه •

(ج) وورد القصر بطريق التقديم فيما حكى عن أبناء يعقوب
عليه السلام في موضع واحد في قوله تعالى « ونحن له مسلمون » •
البقرة : ١٣٣ • وقد تقدم فيه الجار والمجرور على الخبر • وهو من
قصر الصفة على الموصوف •

(د) وورد القصر بطريق التقديم فيما حكى عن القوم في
موضعين :

الأول قدم فيه انجار والمجرور على المفعول وذلك في قوله تعالى
« وجدنا آبائنا لها عابدين » الأنبياء : ٥٣ • والثاني تقدم فيه المفعول
المطلق على الفعل « بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون » • والقصر فيهما
عن قصر الموصوف على الصفة •

٢ - القصر بطريق النفي والاستثناء • وجاء منه عشرة أساليب،
خمس من جانب الله تعالى وخمسة محكية عن إبراهيم عليه السلام •

فالتى من جانب الله تعالى في قوله جل شأنه « ومن يرغب عن ملة
إبراهيم إلا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ • وهو قصر صفة على
موصوف • أى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من استخف نفسه
وإمتهنها ولم يبال بهلاكها ، وقد أكد القصر الحكم المستفاد من الجملة
وخصص هذه الصفة المشينة بالموصوف •

وفي قوله تعالى « وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده »
آل عمران : ٦٥ . وقوله تعالى « ان هو الا ذكرى للعالمين » الأنعام :
٩٠ . وقوله تعالى « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة
وعدها اياه » التوبة : ١١٤ ، وقوله تعالى « فما كان جواب قومه الا أن
قالوا اقتلوا أو حرقوه » العنكبوت : ٢٤ . والقصر في هذه الأساليب
الأربعة من قصر الموصوف على الصفة .

والتي حكيت عن ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى « فلا تموتن
الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وقوله تعالى « ولا أخاف ما
تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا » الأنعام : ٨٠ ، اذ المعنى في الأو
لا يكن موتكم الا على حال كونكم ثابتين على الاسلام (٣) والمعنى في
الثانى نفى الخوف منها في وقت من الأوقات الا في وقت مشيئته تعالى
شيئا .

وفي قوله تعالى « قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »
الحجر : ٥٦ ، وقوله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله
بقاب سليم » الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ ، وقوله تعالى « وما على الرسول
الا البلاغ المبين » العنكبوت : ١٨ . والقصر فيهما من قصر الصفة على
الموصوف . والمعنى في الأول نفى صفة القنوط من رحمة الله عن كل
أحد الا عن الضالين ، وفي الثانى نفى صفة نفع المال والبنين عن كل
أحد الا عن الذى أتى ربه بقاب سليم ، والمعنى في الثالث قصر مهمة
الرسول ﷺ على البلاغ ، دون الهداية .

٣ - القصر عن طريق انما . وقد جاء في موضحين محكيين عن

(٢) انكشاف ١/ ٣١٣ .

(٤) ينظر أبو السعود ٣/ ١٥٤ .

ابراهيم عليه السلام ، في قوله تعالى « لنما تعبدون من دون الله آوثانا ونخلقون افئدة » وقوله تعالى « انما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا » • العذكبوت : ١٧ ، ٢٥ • والقصر غيها قصر صفة على موصوف ، حيث قصرت عبادتهم واتخاذهم على الأوثان • والائتان بالقصر عن طريق انما مشير الى أن هذا أمر ظاهر بين لا يجهاه أحد •

٤ — القصر عن طريق العطف ولكن • وقد جاء في موضع واحد من جانب الله تعالى في بيان ملة ابراهيم عليه السلام • وذلك في قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ال عمران : ٦٧ • وهو قصر موصوف على صفة ، حيث قصر ابراهيم عليه السلام على كونه حنيفا مسلما • وفي هذا القصر اهتمام بالصفة وبراز لها ونفى ما سواها • وقد جاء القصر عن طريق العطف ببل في بعض الأساليب حسب توجيهات معينة لبعض المفسرين ، ومن ثم أغضينا عنها •

٥ — القصر عن طريق ضمير الفصّل • وقد جاء في أربعة أساليب واحد من جانب الله تعالى ، وثلاثة محكية عن ابراهيم عليه السلام • فانذى من جانب الله تعالى في قوله جل شأنه « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ فالآيتان بالضمير « هم » مفيدة للقصر ، وهو قصر موصوف على صفة ، حيث قصروا على صفة الاهتداء دون غيرها من الصفات •

والتي حكيت عن ابراهيم في قوله تعالى « الذي خلقني فهو يوديني » والذي هو يطمعني ويسقين • وإذا مرضت فهو يشفين » الشعراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ • فالضمير « هو » مفيد للقصر في الآيات الثلاث •

والقصر فيها من قصر الموصوف على الصفة ، اذ المعنى : فهو يهدينى ،
وهو يطعمنى ويسقينى ، وهو يشفينى لا غيره •

٦ - القصر عن طريق التعريف • وقد جاء فى أربعة مواضع من
جانب الله تعالى وذلك قوله جل ثناؤه « فجعلناهم الأخسرين » الأنبياء :
٧٠ • وقوله « فجعلناهم الأسفلين » الصافات : ٩٨ • وقد عرف
المفعول الثانى الذى أصله الخبر بلام الجنس ، والمعرف بلام الجنس
هو المقصور (٥) وعلى هذا فهو من قصر الصفة على الموصوف أى :
فجعلناهم الأخسرين والأسفلين لا غيرهم •

وقوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والذبرة »
وقوله « أولئك الذين هدى الله » الأنعام : ٨٩ ، ٩٠ • وفى الآيتين
عرف المسند اليه بالاشارة ، والمسند بالموصول وتعريفهما غنى
للقصر (٦) ، وهو قصر موصوف على صفة •

٧ - القصر عن طريق التعريف مع التأكيد بضمير الفصل • وقد
جاء منه تسعة أساليب : اثنان من جانب الله تعالى وذلك فى قوله تعالى
« أن هذا لهو البلاء المبين » الصافات : ١٠٦ • وقوله تعالى « فان
الله هو الغنى الحميد » الممتحنة : ٦ • وبناء على ما ذكره السعد من
أن المقصور هو المعرف بلام الجنس (٧) ، يكون القصر فيهما قصر صفة
على موصوف • أى البلاء المبين هذا لا غيره ، والغنى الحميد هو الله
لا غيره •

(٥) بنظر المطول ١٧٨ •

(٦) بنظر التحرير والتنوير ٣٥٥/٧ •

(٧) بنظر المطول ١٧٨ وكلمات فى القصر ٤٨ •

وثلاثة محكية عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يرغبان قواعد البيت الحرام وذلك في قوله تعالى « انك أنت اسميع العليم » « انك أنت الثواب الرحيم » « انك أنت العزيز الحكيم » البقرة : ١٢٧ - ١٢٩ • والقصر فيها قصر صفة على الموصوف كما سبق •

وواحد محكى عن ابراهيم عليه السلام • في قوله تعالى « وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » العنكبوت : ٢٦ • وواحد محكى عنه هو والذين معه في قوله تعالى « ربنا انك أنت العزيز الحكيم » الممتحنة : ٥ • والقصران من قبيل قصر الصفة على الموصوف •

وواحد محكى عن الملائكة في حوارهم مع سارة « كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الاذاريات : ٣٠ • وهو من قصر الصفة على الموصوف كسابقيه •

وواحد محكى عن القوم في حديثهم مع بعضهم ، وذلك في قوله تعالى « فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم اذتم الظالمون » الانبياء : ٦٤ • وهو من قصر الصفة على الموصوف كما مر •

وبهذا ينتهى تفصيل أساليب القصر في قصة ابراهيم عليه السلام حسب طرق القصر مع الاشارة الى نوع كل أسلوب باعتبار الطرفين • وقد لاحظنا من هذا التتبع ما يلى :

١ - أكثر طرق القصر مجيئا في القصة هو تقديم ما حقه التأخير ، حيث جاء في اثنين وثلاثين ، موضعا • يليه النفي والاستثناء وورد في عشرة مواضع ، يليه التعريف مع الضمير وورد في تسعة مواضع ، ثم يأتي التعريف وحده في أربعة مواضع والضمير وحده في أربعة مواضع وانما في موضعين والعطف ولكن في موضع واحد • وهذا راجع الى أن

طريق التقديم لا يعتمد على أدوات ففيه ايجاز يفرد به زيادة على ما يحققه أسلوب القصر عامة من ايجاز • كما أنه يكون محققا لمعان أخرى تستفاد في بعض التراكيب كراية الفاصلة ، والعناية بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، وترابط النظم وتجاوب أطرافه عندما يكون الترتيب الطبيعي للكلام مؤديا الى الاخلال بذلك بسبب الطول في أحد مكونات الأسلوب .

٢ - جاء قصر الصفة على الموصوف أكثر من قصر الموصوف على الصفة ، حيث ورد في ستة وثلاثين موضعا ، بينما ورد قصر الموصوف على الصفة في ستة وعشرين موضعا ، وهذا راجع الى كثرة المقامات التي تقتضي الاهتمام بالموصوف ثناء عليه ، أو اخبارا عنه ، أو دما له ونحو ذلك ، حيث يأتي القصر في مثل هذه الحالات قصر صفة على موصوف فيجعل الصفة مختصة بالموصوف لا تتجاوز الى غيره . ولا يمنع من وصفه بصفات أخرى •

٣ - أكثر أساليب القصر ورودا كان من جانب الله تعالى ، حيث جاء القصر في أربعة وثلاثين موضعا • يلي ذلك ما حكى عن ابراهيم عليه السلام فقد ورد في ثلاثة وعشرين موضعا • أما ما حكى عن القوم ففي ثلاثة مواضع ، وما حكى عن الملائكة ففي موضع واحدة • ومن ذلك ما حكى عن أبناء يعقوب عليه السلام •

ومرجع هذا الى كثرة الثناء من الله تعالى على ابراهيم ودرية ، وبينان ما اختصهم الله به من الفضل والتكريم • وكثرة الثناء من ابراهيم عليه السلام ومن معه على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، واهتمام ابراهيم بتوجيه الحقائق الى قومه مؤكدة تأكيدا قويا •

٤ - ورد أسلوب القصر كثيرا في الحقائق التي تحكى دعوته القوم الى عبادة الله تعالى ، حيث اشتملت وبجدها على اثنين وأربعين (٣٥ - خصائص النظم)

أسلوباً قصصياً ، جاء في الأنعام منها أحد عشر أسلوباً ، وفي العنكبوت عشرة أساليب ، وفي الأنبياء ثمانية ، وفي الصافات سبعة ، وفي الشعراء خمسة ، وفي مريم أسلوب واحد .

وهذا راجع الى ما فيها من بيان لفضل ابراهيم عليه السلام وذريته من جانب الله تعالى ، وايضاح من جانب ابراهيم للحقائق الالهية أمام القوم ، وكشف لضلالهم في عبادتهم ومعبوداتهم . وهذه مقامات في حاجة الى مزيد من التقوية .

أما الحلقات الأخرى فقد جاء في البقرة ثمانية أساليب ، وفي الممتحنة خمسة وذلك لما فيهما من مزيد الثناء على الله تعالى في مقام الدعاء من ابراهيم عليه السلام واسماعيل والمؤمنين معهم . وجاء في آل عمران ثلاثة أساليب وذلك لاشتداد المواجهة فيها مع اليهود والنصارى ، فأكدت الحقائق الموجهة اليهم لكي تدمغهم وتدهض باطلهم . وجاء أسلوب واحد في التوبة في بيان السبب في استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه وهو مقام يقتضى التأكيد .

وجاء أسلوب واحد في الحجر نفى فيه ابراهيم عليه السلام القنوط عن نفسه بطريق برهاني ، حين نهى الملائكة عن القنوط ، بقولهم « فلا تكن من القانطين » فكان رده عليهم قويا يناسب المقام . ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » ومعلوم أن النفي والاستثناء أقوى طرق القصر .

وجاء أسلوب واحد في الحج ، وأسلوب في الذاريات . والمقام في كل منهما في حاجة الى التأكيد اذ الأول يبين اختصاص الله تعالى ابراهيم بمعرفة مكان البيت في هذا الوادي المجدب المتسع الجوانب . والثاني للرد على سارة حين تعجبت من تبشيرها بالولد .

الاستفهام :

يبرز أسلوب الاستفهام على رأس انخصائص البلاغية الملحوظة في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام . وذلك لما له من قدرة على اظهار المعنى الحقيقية كانت أو مجازية . وقد ورد الاستفهام في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعا . فمنه ما هو من جانب الله تعالى ، ومنه ما هو محكى عن الملائكة ، ومنه ما هو محكى عن ابراهيم عليه السلام أو زوجه ، أو أبيه ، أو قومه ، أو يعقوب عليه السلام .

(:) ورد من جانب الله تعالى عشرة استفهامات ، تتنوع في أدراجتها وأغراضها على ما يلي :

١ - المهمة : وجاءت في ثلاثة أساليب :

الأول في قوله تعالى لابراهيم « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » البقرة : ٢٦٠ ، دخلت فيه المهمة على النفي مع توسط واو النطق بينهما . وهو استفهام تقريرى لحمل ابراهيم عليه السلام على الاقرار بما ثبت لديه واستقر عنده من الايمان واليقين ، والمراد بالتقرير هنا : التقرير بما بعد النفي لا التقرير بالنفي أى آمنت .

والثانى في قوله تعالى : « أولم يروا كيف بيدى الله الخلق ثم يعيده » العنكبوت : ١٩ ، وهو استفهام لانكار عدم رؤيتهم وتقريرهم بها ، أى قد رأوا ذلك (١) .

والثالث في قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » آل عمران : ٦٥

(١) أبو السعود ٣٤/٧ .

أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم • وهو استنفهام انكارى لتوبييهم بعدم العقل والتفكر ، وفيه شدة في التوبيخ نظرا لمواجهتهم به عن طريق الفعل المبدوء بالتاء • وقد جاء هذا في مقام ارشاد الرسول ﷺ الى ما يقوله لأهل الكتاب في محاجتهم •

٢ - هل : وقد جاءت في آية واحدة هي « هل أتاك حديث خيف ابراهيم المكرمين » الذاريات : ٢٤ والاستفهام يفيد انتشويق ويثير الانتباه • وقد استعملت فيه « هل » وهي الأداة التي يؤدي بها أغلب الأساليب التشويقية ، لأنها أعلى تنبيها ، وأقوى ايقاظا لما يأتى بعدها

٣ - من : وقد جاءت في موضعين الأول في قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من نسفه نفسه » البقرة : ١٣٠ والاستفهام يفيد الانكار والاستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة ابراهيم (٢) • وفيه تعريض بالمشركين الذين رغبوا عن دين الاسلام الذي دعاهم اليه الرسول ﷺ ، فهو ملة ابراهيم عليه السلام •

والثاني في قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله » النساء : ١٢٥ والاستفهام انكارى بمعنى النفي أى لا أحد أحسن دينا • وهو مشعر بمدح من أسلم وجهه لله واتبع ملة ابراهيم حنيفا من حيث بيان أفضليته وأحسنيته على من سواه •

٤ - ما : وقد جاءت في موضعين في محاجة أهل الكتاب ، ارشادا من الله تعالى للرسول ﷺ الى ما يقوله لأهل الكتاب في محاجتهم « يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة

والانجيل الا من بعده » و « ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ وهي مسبوقة في الموضع الأول بلام الجر ، وفي الموضع الثاني بالفاء واللام ، والاستفهام للانكار والتعجيب من حماقة أهل الكتاب اخوضهم بأنباطل فيما يجهلون •

٥ - كيف : وقد جاءت في موضعين من حلقة العنكبوت ، الأول : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » ١٩ ، والمعنى : ألم يتأملوا في كيفية بدء الله الخلق ثم اعادته ، والثاني : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ٢٠ ، وفيه جاءت « كيف » وما بعدها معنقة فعل النظر ، وهو أكثر مواقع كيف في القرآن الكريم (٣) ، وفي الاستفهام تنبيه ولفت للانتظار ، وحث على الاطلاع على هذه الكيفية العجيبة •

(ب) وحكى عن الملائكة استفهام واحد في قوله تعالى « قالوا أتعجبين من أمر الله » وقد جاء بالهمزة ، وهو يفيد الانكار لتعجب زوج ابراهيم والتعجيب منه . حيث قالت عند تبشيرها باسحاق « أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب » هود : ٧٢ ، ٧٣ •

(ج) وحكى عن ابراهيم عليه السلام أكثر الأساليب الاستفهامية في القصة ، حيث تبلغ ستة وعشرين استفهاما تتنوع في أدائها وأغراضها على ما يلي :

١ - الهمزة : وقد جاءت مباشرة للمستفهم عنه في خمسة مواضع •
منها ثلاثة لقومه وواحد لأبيه ، وواحد للملائكة •

فأما التي إقبرمه ففي قوله تعالى « أفكأ آلهة دون الله تريدون » وقوله تعالى « أتعبدون ما تتحنون » الصافات : ٨٦ ، ٩٥ ، وقوله تعالى « أتحتاجونى فى الله وقد هدى » الأنعام : ٢٨٠ ، وهى كلها تنفيذ الانكار على قومه فى عبادة الأصنام ومحاجتهم له ، والتوبيخ لهم على ذلك ، والتعجب من أمرهم فى فعل ما يتناقض مع العقل ، حيث اتخذوا أصناما آلهة من دون الله كذبا وبهتاناً ، وعبدوها وهم ينحتقونها بأيديهم وحاجوهم فى شأن الله تعالى الذى هداه وهم بعيدون عن هداه . وأما الذى لأبيه ففي قوله تعالى « اتخذ أصناما آلهة » الأنعام : ٧٤ ، وهو استفهام ينكر فيه على أبيه اتخاذه أصناما آلهة ، ويوبخه على ذلك ، ويتعجب من أمره فى فعل هذا الذى يتنافى مع العقل ، فهو الذى يصنع الأصنام بيديه ، فكيف يتخذها آلهة ؟

وأما الذى للملائكة ففي قوله تعالى « أبشرونى على أن مسنى الكبر » الحجر : ٥٤ ، والاستفهام هنا للتعجب من تبشيره بالولد مع كونه أمراً مستبعداً فى العادة مع هذه السن الكبيرة ، ويجوز أن يكون للإنكار على معنى أنكم تبشرونى بما هو غير متصور فى العادة ولا مما ينبغى أن يكون (٤) .

وجاءت الهمزة داخلة على الفاء المباشرة للمستفهم عنه فى موضعين مع قومه الأول فى قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ ، والثانى فى قوله تعالى « أنم أبتم ما كنتم تعبدون » الشعراء : ٧٥ ، والاستفهام فيهما للإثكار والتوبيخ ، والفاء تشعر بترتب الإنكار والتوبيخ على ما سبق من كلامهم ، وهو يحتمل فى طياته دليل بطلان عبادتهم للأصنام .

(٤) ينظر الكشف ٣٩٢/٢ وحاشية الشهاب ٢٩٨/٥ .

وجاءت الهمزة داخلة على الفاء انتى تعقبها « لا » النافية في مرضعين مع قومه الأول في قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنعام : ٨٠ ، والاستفهام فيهما غييه انكار عليهم عدم التعقل والتذكر ، وتوبيخ لهم على ذلك • وحش لهم على التعقل والتذكر والرجوع الى الحق الواضح •

وجاءت الهمزة مركبة مع « لا » النافية في موضعين : الأول مع الأضنام وذلك في قوله تعالى « فراغ انى آلهتهم فقال ألا تأكلون » الصافات : ٩١ ، والاستفهام هنا يفيد الاستهزاء والتهكم بها والتحقيق لها ، حيث لا تستطيع أن تفعل ما يفعله عبادها • والثانى مع الملائكة وذلك في قوله تعالى « فقربه اليهم قال ألا تأكلون » الذاريات : ٢٧ ، وهنا يجوز أن تكون « ألا » أداة عرض ، حيث عرض على الملائكة الأكل مما قدمه لهم ، فان في ذلك تأنيسا للأكل بخلاف من قدم طعاما وام يحش عليه ، ويجوز أن تكون الهمزة للانكار وركبت مع « لا » النافية ، وكأنه ثم محذوف تقديره : فامتنعوا عن الأكل فانكر عليهم ترك الأكل فقال ألا تأكلون(٥) •

٢ — هل : وقد وردت في استفهام واحد في قوله تعالى « هل يسمعونكم اذ تدعون » الشعراء : ٧٢ ، والاستفهام لتوبيخهم وتبكيتهم بعبادة ما لا يسمع ولا يرفع ولا يضر ، وبإبطال لعبادته نظرا لتجرده من صفات الألوهية ، وهم يقرون بذلك ولا يقدررون على انكاره •

٣ — من : وجاء بها استفهام واحد أجاب فيه ابراهيم عليه السلام على الملائكة وذلك في قوله تعالى « قال ومن يقنط من رحمة ربه الا النذالون » الحجر : ٥٦ ، وهو استفهام انكارى يفيد نفى قنوطه من

(٥) البحر المحيط ١٣٦/٨ ، وينظر الكشف ١٨/٤ •

ورحمة الله بأبلغ وجه (٦) ، فالضالون هم الذين يقتطون من رحمة الله تعالى وهو ليس منهم ، فلا يمكن أن يصيبه قنوط •

٤ - ما : وقد جاءت في عشرة مواضع ، ثلاثة منها مع الملائكة ، وواحد مع اسماعيل عليه السلام ، وواحد مع أبيه ، وأربعة مع قومه ، وواحد مع الأصنام •

فأما التي مع الملائكة ففي قوله تعالى « قال أبشروني على أن مسى الكبر فبم تبشرون » الحجر : ٥٤ وفي قوله تعالى « قال فما خطبكم أيها المرسلون » في الحبر : ٥٧ ومثله في الذاريات : ٣١ •

والأول منها يفيد التعجب ، كأنه قال : فبأي أعجوبة تبشروني ، ويجوز أن يكون للأنكار على معنى : فبأي شيء تبشروني ، يعني لا تبشروني في الحقيقة بشيء ، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء (٧) • والاستفهام في الموضعين الثاني والثالث استفهام حقيقي من إبراهيم عليه السلام للملائكة عن سبب مجيئهم •

وأما الذي مع ابنه اسماعيل عليه السلام ففي قوله تعالى « فانظر ماذا ترى » الصافات : ١٠٢ ، والاستفهام مقصود به الإطلاع على رأيه في أمر ذبحه ، وليعلم موقفه من بلاء الله تعالى ، ومدى صبره على تنفيذ •

وأما الذي مع أبيه ففي قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » مريم : ٤٢ ، والاستفهام يفيد التعجب من شأن أبيه في عبادته ما لا يسمع ولا يبصر ، وفيه توبيخ رقيق له كي يرجع إلى نفسه ، ويدرك الخطأ الذي هو فيه •

(٦) أبو السعود ٨٢/٥ •

(٧) الكشف ٣٩٢/٢ •

وأما التي مع قومه ففي قوله تعالى « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥٣ ، وقوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » الشعراء : ٢٧٠ وقوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » وقوله تعالى : «فما ظنكم برب العالمين» الصافات : ٨٥، ٨٧. وفي الاستفهام الأول انكار لعكوفهم على هذه التماثيل ، وتحقير لسانها، وسخرية منها ومنهم وفي الثاني والثالث انكار لعبادتهم لها ، وتوبيخ لهم على ذلك . وفي الرابع انكار لظنهم برب العالمين ، وهو يعنى انكار ما يقتضيه الظن ، من الاشراك به ، والصد عن عبادته ، والأمن من عقابه (٨) •

٥ - كيف : وقد وردت في موضعين الأول مع الله عز وجل وذلك في قوله تعالى « رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، وهو استفهام حقيقي ، عن حالة شيء متقرر الوجود عند ابراهيم عليه السلام ، فالسؤال عن هيئة احياء الموتى، أما احياء الموتى نفسه فهو متقرر وثابت في اعتقاد ابراهيم عليه السلام (٩) •

وانثاني مع قومه ، وذلك في قوله تعالى «وكيف أخاف ما أشركتم» الأنعام : ٨١ ، والاستفهام لانكار وقوع الخوف منه ووفيه بالكافية ، وفي توجيه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس في توجيهه الى نفسه بأن يقال : أخاف ، لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعاً ، فإذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني (١٠) •

(٨) ينظر البيضاوي ٥٨٧ •

(٩) ينظر القرطبي ١١٠٧/٢ •

(١٠) أبو السعود ١٥٥/٣ •

٦ - أى : وقد جاء بها سؤال واحد لقومه وذلك في قوله تعالى « ذَايَ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » الأنعام ٨١ ، والاستفهام لتقريرهم والجائهم الى الاعتراف بأن فريقه وحده هو الأحق بالأمن ، وأنهم أولى بالخوف من الله تعالى الذى له الخلق والأمر أما آلهتهم فلن يخاف منها لأنها عاجزة لا تملك من أمر نفسها شيئاً . والاتيان بأى دون غيرها من الأدوات للتمكن من سوق الكلام على سنن الانصاف ، ليلزمهم بالحجة عن طريق اقرارهم بالحقيقة الواضحة .

(د) وحكى عن « سارة » زوج ابراهيم عليه السلام استفهام واحد موجه الى الملائكة عندما بشروها باسحاق عليه السلام « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٣ ، وقد جاء الاستفهام بالهمزة ، وهو يفيد التعجب من بشارتهم لها بالولد ، واستبعاد ذلك بناء على ما جرت به العادة ، لابناء على وما تجرى به قدرة الله تعالى .

(هـ) وحكى عن أبيه استفهام واحد بالهمزة ، وموجه الى ابراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى « أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَيْتَ إِبرَاهِيمَ » مريم : ٤٦ ، والاستفهام انكارى تعجبى وقد وجه الانكار الى نفس الرغبة ، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلاً عن ترغيب الغير فيها (١١) .

(و) وحكى عن قومه ثلاثة استفهامات ، وقد جاءت كلها في حلقة واحدة هي حلقة الأنبياء ، واستعملت الهمزة في اثنين منها ، و « من » في الثالث .

فأما اللذان جاءا بالهمزة فأولهما في قوله تعالى « قالوا اجئنا »

بالحق أم أنت من اللاعين » الأنبياء : ٥٥ ، وهو استنفهام يفيد التعجب من وصف إبراهيم لهم ولآبائهم بالضلال البين ، واستبعاد ذلك ، ومن ثم سأئوه ان كان ما يقوله على سبيل الجد أم اللعب والمزاح •
ونانيهما في قوله تعالى « أأنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم » الأنبياء : : ٦٢ ، والاستفهام للتقرير بالفاعل ، فقد أرادوا حمله على الاقرار بأنه هو الذى كسر أصنامهم • وقد فصلنا الحديث عنه في موضعه •

وانذى جاء بمن في قوله تعالى « من فعل هذا بالهتتا انه لمن الظالمين » الأنبياء : ٥٩ ، وفي الاستفهام بحث عن الفاعل ، وانكار عليه ما ذمعه . وتنشيع به ، وتحقير له وكأنهم يقولون من الذى تجرأ على الهتتا وفعل بها ما فعل •

(ز) وحكى عن يعقوب عليه السلام استفهام واحد لبنيه وقد جاء بما • وذلك في قوله تعالى : « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى » البقرة : ١٣٣ ، وفي الاستفهام اختبار لمقدار ثباتهم على الدين ، وحث لهم على التمسك بالاسلام الذى كانوا عليه حال حياته •

وبالتأمل في الاستفهامات السابقة نرى أنها باعتبار المستفهم تنوزع على النحو التالي :

- من جانب الله تعالى عشرة استفهامات •
- وحكى عن إبراهيم عليه السلام ستة وعشرون استفهاما •
- وحكى عن قومه ثلاثة استفهامات •
- وحكى استفهام واحد عن كل من أبويه وزوجه ويعقوب والملائكة •

فأكثر الاستفهامات محكى عن ابراهيم عليه السلام •
وهي باعتبار الأداة تتوزع على النحو التالي :

الهمزة : ورد بها عشرون استفهاما •

ما : ورد بها اثنا عشر استفهاما •

كيف : ورد بها أربعة استفهامات •

من : ورد بها أربعة استفهامات •

من : ورد بها استفهامان •

أى : ورد بها استفهام واحد •

فأكثر الاستفهامات بالهمزة التى هى أم الباب ويكثر استعمالها فى أساليب الإنكار والتوبيخ ، يليها « ما » التى يكثر استعمالها عند ارادة التعجيب والتحقيق ، والتهكم •

وهي باعتبار حلقات القصة تتوزع على النحو التالي :

فى حلقات الدعوة الى الله تعالى ستة وعشرون استفهاما • منها ثلاثة من جانب الله وتسعة عشر من ابراهيم عليه السلام ، وثلاثة من قومه وواحد من أبيه •

وفى حلقات نقائه بالملائكة تسعة استفهامات ، منها واحد من جانب الله تعالى ، وستة من ابراهيم عليه السلام وواحد من زوجه وواحد من الملائكة •

وفى حلقات البيت الحرام استفهامان واحد من جانب الله تعالى ، وواحد من يعقوب •

وفى الحلقات التى تبين ملة ابراهيم عليه السلام ستة استفهامات خمسة من جانب الله تعالى وواحد من ابراهيم عليه السلام •
فأكثر الحلقات التى ورد فيها أسلوب الاستفهام هى حلقات الدعوة ، وأكثر الاستفهامات فيها من ابراهيم عليه السلام ، حيث

بلغت تسعة عشر استنفهاما كما ذكرنا ، ومن هذا العدد الكبير استنفهام واحد لأبنة اسماعيل عليه السلام في حلقة الصافات ، والباقي منه موجه لأبيه وقومه ، وهذه الاستنفهامات الموجهة لأبيه وقومه كلها تخرج عن معناها الحقيقي الى معانى الانكار والتوبيخ والتعجيب والتهكم والسخرية ، كما فصلنا ذلك آنفا •

وهذا يدلنا على شراسة المعركة الجدلية التى كانت بين ابراهيم عليه السلام وقومه ، حيث كثرت فيها الاستنفهامات الانكارية والتوبيخية والتعجبية ، نظرا لعدم جدوى دعوتهم بالحسنى ، وتمسكهم بالضلال والاصرار على العناد •

وهذه الاستنفهامات الثمانية عشر التى فى حلقات الدعوة منها ستة فى الصافات ، وخمسة فى الأنعام ، وثلاثة فى الأنبياء ، وتلاثة فى الشعراء ، وواحد فى مريم ، ولعل كثرتها فى الصافات والأنعام راجعة الى أن المعركة الجدلية فيهما كانت من جانبه هو وحده ، حيث التزم قومه الصمت وأجبروا عن مواجهته ، فكان هذا دافعا له الى أن تتوالى منه الاستنفهامات الانكارية والتوبيخية ، ليضاعف من كبتهم وتبذيرتهم •

أما فى حلقة الأنبياء فكانت المعركة بينه وبين قومه شديدة ولكنه كان يجد ردودا من قومه ، واستنفهامات منهم ، ومن ثم نرى أن له فى هذه الحلقة ثلاثة استنفهامات ، كما أن لقومه ثلاثة أخرى •

وحلقة الشعراء حلقة هادئة ، وفى مراحل الدعوة الأولى ، وفيها دور لقومه ، ومن ثم قلت فيها الاستنفهامات • وحلقة مريم كانت بينه وبين أبيه وهى مبنية على اللطف والرقّة ومن ثم لم تكثر فيها استنفهامات ابراهيم عليه السلام فجاء فيها استنفهام واحد من جانبه ، وذلك لأن المقام يتنافى مع كثرة الانكار والتوبيخ ، نظرا لأنه يخاطب أباه •

الأمور :

وهو من الأساليب الواضحة في قصة إبراهيم عليه السلام ، حيث ورد في تسعة وستين موضعا • تتوزع على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى ثمانية وعشرون أمرا هي كالآتي :

١ - تسعة أوامر لإبراهيم عليه السلام منها خمسة في آية احياء الموتى « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » البقرة : ٢٦٠ ، والأربعة الأولى منها أوامر حقيقية ، عليه أن يلتزم بتنفيذها ليصل الى جواب سؤاله بنفسه من خلال التجربة العملية التي يقوم بها ، فيكون ذلك أوضح له ، وأدلى وأقوى في بيان قدرة الله تعالى • والأمر الخامس منها فيه حث على الثبات على العلم المطلوب ، والمداومة عليه والازدياد منه • اذ أنه ﷻ يعلم أن الله عزيز حكيم من قبل ذلك •

ودونها أمران في حلقة « الحج » « وظهر بيتي للطائفين » « وآذن في الناس بالحج » ٢٦ ، ٢٧ ، وهما أمران حقيقيان ، وفيهما تشريف لإبراهيم عليه السلام حيث أمره الله تعالى بتطهير بيته • ودعوة الناس الى الحج اليه •

كما يوجد أمر في البقرة « اذ قال له ربه أسلم » ١٣١ ، وأمر في العنكبوت « قل سيروا في الأرض » ٢٠ ، والأمر الأول فيه تصوير لهذا الفعل العظيم ، وبيان لسرعة تحققه وكأن اسلام إبراهيم عليه السلام قد تحقق على وجه السرعة فما هو إلا أمر من الله أعقبه جواب من إبراهيم « قال أسلمت لرب العالمين » • والثاني أمره الله فيه أن يأمر قومه بالسير في الأرض والنظر في بدء الخلق واعادته • وانما أمره أن

يأمر قومه بذلك لأنه هو المباشر لدعوتهم ، وحديثه اليهم يكون مواجهة ومشفهة ، وهذا أدعى الى الامتثال •

٢ — أمر واحد لابراهيم واسماعيل معا عليهما السلام وذلك في قوله تعالى « أن طهرا بيتي » البقرة : ١٢٥ ، وقد أمرا معا بذلك لما أسهما كانا مشتركين في رفع قواعد البيت ، ومن ثم أمرا بتطهيره ، وتوجيه الأمر بذلك الى ابراهيم وحده في سورة الحجر لما أن الكلام ماض على أن الله تعالى برأ له مكان البيت وأمره بتطهيره ، ولم يرد في هذا المقام ذكر لاسماعيل عليه السلام •

٣ — ثمانية أوامر للرسول ﷺ • منها أربعة يأمره الله تعالى فيها بذكر قصة ابراهيم والاعمال بها « واذكر في الكتاب ابراهيم » مريم : ٤١ ، « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب » ص : ٤٥ ، « واثق عليهم نبأ ابراهيم » الشعراء : ٦٩ ، « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » الحجر : ٥١ ، وفي ذلك دلالة على أهمية هذه القصة ، والعناية بتعريف العرب بحقائقها ، فابراهيم جدهم الأعلى وينتسبون اليه ، ويدعون أنهم على نهجه : ففي ذكر حقائقها لهم كشف لضلالتهم ، ودلالة على خروجهم عن ملة جدهم ، وهذا يبعثهم على سلوك الطريق المستقيم ، واتباع الرسول ﷺ •

ومنها أمران بـ « قل » هما « قل صدق الله » آل عمران : ٩٥ ، « قل لا أسألكم عليه أجرا » الأنعام : ٩٠ وأمره ﷺ بأن يقول ذلك ، لما أنه مباشر بالخطاب للناس ، فتأثرهم بقوله أكبر ، وامتنانه لهم أرجى •

والأمران الأخيران في حثه ﷺ على الاقتداء بابراهيم عليه السلام والأدبياء من ذريته وهما « فبهذا هم اقتداء » الأنعام : ٢٩٠ و « اتبع

ملة ابراهيم حنيفا « النحل : ١٢٣ ، وهذا يدل على وحدة أصول الدين الذى ارتضاه الله للبشر ، وبلغهم به رسله عليهم السلام •

٤ - تسعة أوامر للناس منها خمسة فى الحج « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير • ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » : ٢٨ ، ٢٩ ، والأمر الأول « فكلوا » لئلا يحاحه ، وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التخرج فيه ، والأمر الثانى « وأطعموا » لنوجوبه (١) • وأمرهم بالأكل والاطعام فيه اشعار بمواساة الفقراء باطعامهم ، ومساواتهم بالأكل منها • والأوامر الثلاثة التالية وردت بصيغة المضارع المقرون بلام الأمر ، لأنها أوامر عامة للحجيج غنيهم وفقيرهم ، من قدم منهم هديا ومن لم يقدم ، وبصيغة المضارع أكمل فى أداء هذا الغرض •

ومنها عمران فى الحث على الصلاة فى مقام ابراهيم واتباع ملته « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » البقرة : ١٢٥ « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » آل عمران : ٩٥ ، وفيهما تكريم لابراهيم عليه السلام وتشريف له ، وبيان لعلوا منزلته عند رب العالمين •

والأمران الأخيران فى الحث على السير فى الأرض والنظر فى آيات الله تعالى التى تبين قدرته على بدء الخلق واعادته « سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » العنكبوت : ٢٠ ، وهما موجهان الى قوم ابراهيم أو الى قوم النبی ﷺ على خلاف بين المفسرين ، وعلى كل فهما صالحان لكل زمان ومكان ، والناس كافة مأثورون بهما •

(١) أبو السعود ١٠٤/٦ •

٥ - والأمر الثامن والعشرون من أوامر الله تعالى في القصة موجه الى التار « كوني بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ ، والأمر هنا يفيد التسخير ، حيث سخرها الله تعالى لأن تتبدل من حال الى حال ، وليس لها في ذلك اختيار •

(ب) حكى عن ابراهيم عليه السلام احدى وثلاثين أمرا تتوزع كالتالى :

١ - الدعاء والتضرع • وجاء ذلك في اثنين وعشرين موضعا •
سبعة بلفظ الجعل ، ففي البقرة « اجعل هذا بلدا آمنا » واجعلنا مسلمين لك : ١٢٦ ، ١٢٨ ، وفي ابراهيم « اجعل هذا البلد آمنا » : ١٢٦ ، « اجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » « اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، وفي الشعراء « واجعل لى اسان صدق فى الآخرين » « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » : ٨٤ ، ٨٥ •
والنعم التى سألها ابراهيم فى هذه الآيات يظهر فيها معنى التحويل من حال الى حال والتصيير من شىء الى شىء ، ومن ثم ناسبها لفظ الجعل لما يشعر به من تحويل وتصيير •

وثلاثة بلفظ المغفرة « اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ابراهيم : ٤١ ، « واغفر لأبى انه كان من الضالين » الشعراء : ٨٦ ، « واغفر لنا ربنا » الممتحنة : ٥ ، وأكمل لفظ فى الدلالة على طلب غفر الله يوم القيامة هو المغفرة ومن ثم كان هذا اللفظ أنسب شىء بالنعيم المطلوبة فى الآيات •

واثنان بلفظ الهبة « رب هب لى حكما » الشعراء : ٨٣ ، « رب هب لى من الصالحين » الصافات : ١٠٠ ، والحكم : كمال العلم والعمل أو الحكمة أو النبوة ، وهذا مما يظهر فيه عطاء الله الخالص ، وتوفيذه (٣٦ - خصائص النظام)

الْحُض ، ونعمة الأولاد بعد الكبر أيضا يبرز فيها جانب العطاء دون توقف على سبب عادي ، ومن ثم كان لفظ الهبة مناسبة لهاتين النعمتين .

واثنان بلفظ الرزق « و ارزق أهله من الثمرات » البقرة : ١٢٦ ، « و ارزقهم من الثمرات » ابراهيم : ٣٧ ، وطلب ما يختص بالطعام و أنفكه ونحو ذلك يناسبه لفظ الرزق حيث يدل على عطاء نوفت ، ثم حمل عليه غير الموقوت (٢) . فكان هو الأنسب بما في الآيتين السابقتين .
ي واثنان بلفظ الرؤية « وأرنا مناسكنا » البقرة : ١٢٨ ، « أرني كيف تجي الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، والطلب هنا طلب تعليم ومعرفة ، ولفظ الرؤية أبلغ في الدلالة على ذلك ، لأنه طلب علم قائم على الرؤية والمشاهدة ، وهي أقوى وسائل العلم والمعرفة .

واثنان بلفظ التقبل « ربنا تقبل منا » البقرة : ١٢٧ ، « ربنا تقبل دعاء » ابراهيم : ٤٠ ، والتقبل يشعر بما لا يشعر به غيره من الاستجابة ونحوه ، حيث يشير الى أن الدعاء عمل جليل مقدم من العبد الى ربه ، وهو يرجو منه أن يقبله .

وواحد بلفظ التوبة « وتب علينا » البقرة : ١٢٨ ، وواحد بلفظ التبعث « ربنا وبعث فيهم رسولا » البقرة : ١٢٩ ، وواحد بلفظ الالتحاق « وألحقني بالصالحين » الشعراء : ٨٣ ، ولفظ التوبة تتسع دلالاته لتشمل رجوع العبد الى ربه ، ومغفرة الله له ، وليس مقصورا على جانب منهما ، وهذا أعظم ما يدعو به المؤمن لنفسه وذريته ، فما أجدر خليل الله بأن يدعو ربه به ، ولفظ البعث أدل من الارسلان لما فيه من اشعار بالسرعة والاثارة ، وكأن الرسول ﷺ أثار الناس وأسرع بهم

(٢) ينظر مقاييس اللغة مادة : رزق .

التي طريق النجاة • ولفظ الالتحاق فيه دلالة على السرعة في ادراك الخير ، فهو يدعو الله تعالى أن يلحقه بالصالحين ليذكرهم ويكون معهم • فالألفاظ الثلاثة معبرة في موضعها خير تعبير •

والنداء الأخير في هذه المجموعة « واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام » ابراهيم : ٣٥ ، وفيه يطلب من ربه أن يبعده وينحيه عن عبادة الأصنام هي وبنيه ، ولفظ « اجنبني » أقوى في الدالة على الإبعاد والتحذير •

٢ — ارشاد قومه • وذلك في ستة أوامر • خمسة منها في حلفة العنكبوت في قوله تعالى « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » وقوله تعالى « غابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » : ١٦ ، ١٧ ، وفيها حث على عبادة الله تعالى وتقواه ، وابتغاء الرزق عنده ، وشكره • وتكرر أمره بالعبادة لأنها الأصل في ذلك وتجمع التقوى والشكر ، وهي من أقوى أسباب استجلاب الرزق •

وواحد في حاقة الأنبياء « فاسألوهم ان كانوا ينطقون » : ٦٣ ، والأمر هنا للتهكم بهم وبأصنامهم ، والسخرية منهم ، حيث يعلم ويعلمون أنها لا تنطق ومن ثم لا يصح سؤالها •

٣ — ارشاد أبيه • وذلك بأمر واحد في قوله تعالى : « هاتبعني اعدك صراطا سويا » مريم : ٤٣ ، وفيه يحث أباه على اتباعه ليهديه الصراط السوي ، وبعد أن مهد لذلك بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأت به ، ومن الوجوب على الجاهل أن يتبع العالم •

٤ — تحدى النهرود ، وذلك في قوله تعالى « ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » البقرة : ٢٥٨ ، والأمر هنا يراد به التحدي والتعجيز ، لأن ابراهيم عليه السلام يعلم أنه لن يستطيع

فعل ذلك مهما أوتى من قوة ، وكذلك لا يدور بخلد هذا الطاغية أنه يقدر على فعل المطلوب •

٥ — اختبار اسماعيل • وذلك في قوله تعالى « فانهظر ماذا ترى » الصافات : ١٠٢ ، وفي أمره بالنظر اشعار بوجوب التأمل والتفكير في الجواب ، لأنه يتعلق بأمر جلال وبلاء مبين •
(ج) أوامر موجهة الى ابراهيم عليه السلام من غير الله تعالى • وهي ثلاثة :

١ — أمر من الملائكة في قوله تعالى « يا ابراهيم أعرض عن هذا » هود : ٧٦ ، وفيه تظهر الشدة في طلب ترك المجادلة في شأن قوم لوط ، نظرا لمجيء أمر الله تعالى باهلاكهم بالعذاب الشديد •

٢ — أمر من اسماعيل عليه السلام وذلك في قوله تعالى « ياأبتـه افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ ، وفيه تظهر استجابة اسماعيل لما عرضه عليه أبوه ، وهي استجابة قوتها صيغة الأمر « افعل » وأدبتها ، وإام تدع مجالا للتردد في الفعل من جانب الأب الرحيم الحليم • ، والتعبير بإفعل دون اذبحني لما في لفظ اذبحني من أثر نفسي ثقيل على الأب والابن معا ، ولتعميم الاستجابة في كل فعل يؤمر به ، غايلين يعلن استجابته لكل فعل من جانب أبيه ذبحا أو غير ذلك •

٣ — أمر من أبيه وذلك في قوله تعالى « واهجرني مليا » مريم : ٤٦ وهو أمر فيه غلظة وشدة وقسوة بمادته وصيغته إضافة الى ما تقدمت من تواعد وتهديد بالرجم ، وما تبعه من تقييده بأوقت الطويل غير المحدد •

(د) أوامر من بعض القوم لبعضهم • وهي سبعة أوامر تدور كلها حول الاتيان بابراهيم عليه السلام للتحقيق معه ، والقضاء عليه •

بالحرق ومن ثم وردت في ثلاث حلقات عرضت لهذا المشهد ، ففي الأنبياء « غاثوا به على أعين الناس » « حرقوه وانصروا آلهمكم » : ٦١ ، ٦٨ ، وفي العنكبوت « اقتلوه أو حرقوه » : ٢٤ وفي الصافات « ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » : ٩٧ وأوامر القوم في الأنبياء والصافات صارمة وقاطعة في تنفيذ المطلوب . وفي العنكبوت يظهر معنى الوجوب والتخيير معا ، فالوجوب في حتمية الانتقام منه والتخيير في طريقة الانتقام ، قتلا أو تحريقا وهذا يشعر بأن الانتقام منه سهل وميسر ولا يصعب عليهم تنفيذ ما يختارون اذ لا يقف لنصرته أحد . وعلى الرغم من كثرة صيغة الأمر في قصة ابراهيم عليه السلام، الا أننا نراها قليلة جدا من قبل ابراهيم عليه السلام في حلقات الدعوة الى الله تعالى سوى حلقة العنكبوت ، اذ جاء أمر فرعون لأبيه ، وأمر في الأنبياء لقومه على سبيل التهمك ، وأمر للنمرود في البقرة وهو على سبيل التحدي والاعجاز .

وهذه القلة راجعة الى أن هذه الحلقات تقوم على الحوار والاتناع بالحجة ، وصيغة الأمر قد تؤدي الى الثورة ونفور النفس ومن ثم لم ترد في هذه الحلقات . وحلقة العنكبوت هي الحلقة الوحيدة التي كثرت فيها صيغة الأمر من قبل ابراهيم عليه السلام لقومه . وهي حلقة كما ذكرنا قبل ذلك لا تعتمد على الحوار ، وانما تعتمد على سوق قضايا خبرية ، بجانب تروحيات انشائية ، وليس الحوار فيها نصيب . كما نلاحظ أن القصة كاملة لم يأت فيها أمر من القوم لابراهيم عليه السلام ، وهذا مؤشر الى أنهم لم يستطيعوا أمره بشيء لعدم سيطرتهم عليه ، وتيقنهم من عدم استجابته لهم ، ومن ثم اكتفوا بالمحاورات القليلة معه .

الذهي :

تقل صيغة الذهي في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام ، فبجانب

تسعة وستين أمرا نجد ثمانية نواه تتوزع على النحو التالي :

٢ — الدعاء والضرع من قبل إبراهيم عليه السلام • وذلك في موضعين ، في قوله تعالى « ولا تخزنى يوم يبعثون » الشعراء : ٨٧ ، وقوله تعالى « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » الممتحنة : ٥ ، والدعاء الأول مسبوق بدعاء وارد بصيغة الأمر ، والدعاء الثانى يعقبه دعاء وارد بصيغة الأمر وبهذا يتلون أسلوب الدعاء •

٣ — من جانب الملائكة • وذلك فى ثلاثة مواضع فى قوله تعالى « لا توجل انا نبشرك بغلام عليم » الحجر : ٥٣ ، ، وقوله تعالى « فلا تكن من القانطين » الحجر : ٥٥ ، وقوله تعالى « قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم » الذاريات : ٢٨ ، وقد جاء النهى الأول والثالث رداً على وجل اعتراه وخوف تلبس به عندما وجد ضيوفه فى هيئة غريبة ولا يمدون أيديهم الى الطعام • وجاء الثانى رداً على تعجبه واستعباده للبشرى بالولد بناء على ما جرت به العادة من استبعاد ذلك فى مثل حاله وسنه •

٤ — من إبراهيم عليه السلام لبيته فى قوله تعالى « فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وفيه نهى مؤكد لهم عن مفارقة الاسلام فى جميع أوقات حالهم ، وحث على أن يحرصوا على الاسلام حتى يلقوا ربهم عليه • وقد فصلنا الحديث عنه فى موضعه من الحلقات •

٥ — من إبراهيم عليه السلام لأبيه فى قوله تعالى « لا تعبد الشيطان » مريم : ٤٤ •

ومما سبق نرى أن صيغة النهى على قلبها وقعت فى الدعاء • وفى حديثه مع الملائكة ، ومع بذيه وأبيه ، ونم تقع فى حوار مع قومه لابطال عبادة الأصنام والكأكب ، وندعوتهم الى عبادة الواحد القهار ، لأن الحوار والحنة العقاية يغنيان عن أسلوب النهى •

النداء :

والنداء أسلوب واضح في القصة ، خصوصاً في الحلقات التي فيها دعاء . وقد جاء هذا الأسلوب في خمسة وثلاثين موضعاً على النحو التالي :

(أ) نداءات إبراهيم عليه السلام وهي تستولى على معظم نداءات القصة حيث تبلغ سبعة وعشرين نداءً تأتي على هذا النحو :

١ - نداء إبراهيم ربه عز وجل • وقد وقع في ثمانية عشر موضعاً . كلها في مقام الدعاء ، وأكثرها في حلقتي إبراهيم والبقرة المتصلتين بالبيت الحرام حيث ورد فيهما في اثني عشر موضعاً ، منها في حلقة إبراهيم ثمانية مواضع (١) ، لأنها بذيت على الدعاء والثناء من أولها . وآخرها • وفي حلقة البقرة أربعة مواضع (٢) نظراً لورود الدعاء في ثانياً التكليف التي أمر بها إبراهيم عليه السلام وما يتصل بها •

ويليهما في الكثرة حلقة الممتحنة ، وقد ورد فيها ثلاث مرات في قوله تعالى « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم » : ٤ ، ٥ ، وهو مقام دعاء وتضرع الى الله تعالى ، وعبر فيه بضمير المتكلمين ، لأن الدعاء محكى عن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه •

ووقع النداء مرة واحدة في حلقة أحياء الموتى « رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، ولم يرد نداء من إبراهيم لربه عز وجل في حلقات الدعوة الا في موضعين : الأول في الشعراء « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » : ٨٣ ، والثاني في الصافات « رب هب لي

(١) إبراهيم الآيات ٣٦ - ٤١ •

(٢) البقرة الآيات ١٢٦ - ١٢٩ •

من الصالحين » : ١٠٠ وهما أيضا في مقام الدعاء بعد الانتهاء من حكاية
لدعوته القوم الى عبادة الله تعالى •

وكل النداءات السابقة جاءت بلفظ « رب » أو « رينا » حسب
المقامات الواردة فيها ، لما في ذلك من استجلاب للاجابة بما يقتضيه
للفظ من دلالة على أن المدعو عز وجل هو مربيه ، ومتولى أمره ، ورحيم
به ، ولن يرد دعاءه ، أو يرجعه صفر اليدين • وقد حذف حرف النداء
مثلا للاشعار بقرب ابراهيم عليه السلام من ربه عز وجل ، وهذا ادعى
لاستجابة الدعاء •

٢ - نداء ابراهيم الملائكة ، ووقع في موضعين بصيغة واحدة في
الحجر والذاريات « فما خطبكم أيها المرسلون » (٣) وفي حذف حرف
النداء اشعار بقربه منهم ، واستعمال هذه الصيغة في ندائهم لما
فيها من تنبيه ودلالة على المشافهة عن طريق « ها » ، وتشويق
وتأكيد عن طريق الايضاح بعد الابهام في « أي » وصفتها •

٣ - نداء ابراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل وهو نداء واحد
في حلقة الصافات « يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك » : ١٠٢ ،
وناداه بأداة البعيدة لشدة تنبيهه لهذا الأمر الجلل ، مع ما في ذلك من
اشعار بعلو منزلته عنده ، ورشح ذلك ببني الدالة على الرقة والملاطفة ،
وشدة الحذب عليه والعناية به •

يضاف الى ذلك نداؤه أبناءه في وصيته لهم « يا بني ان الله اصطفى
لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وفيه من
الأسرار البلاغية ما أشرنا اليه في نداء اسماعيل عليه السلام •

٤ - نداؤه أباه ، وقد ورد في أربعة مواضع في سورة مريم بلفظ

« يا أبت » (٢) وهى حلقة خاصة بدعوة أبيه ، وماضية على سنن التلطف وحسن الأدب من ابراهيم عليه السلام ، ومن ثم ناداه بهذا اللفظ الرقيق الذى هو عنوان أقوى الروابط بينهما ، واستعمل أداة البعيد اشعارا بعلو منزلته ، وعناية بتنبئيه •

٥ - ندأؤه قرومه • وقد جاء مرة واحدة فى سورة الأنعام « يا قوم انى برىء مما تشركون » : ٧٨ وهو مشعر برفع الصوت بالنداء لينبئهم بشدة ، ويعلن لهم بلا مواربة تبرأه منهم ومن شركهم • وقلة ندأؤه لقومه مشيرة الى عدم اعتداده بهم وبما بينه وبينهم من صلة القومية، نظرا لتماديتهم فى الضلال ، واصرارهم على الكفر •

(ب) نداءات الله تعالى • وقد جاءت فى القصة فى ثلاثة مواضع : الأول فى سورة آل عمران « يا أهل الكتاب لم تصاجون فى ابراهيم » : ٦٥ ، وهو ارشاد من الله تعالى لنبيه وتعليم له بالحجة التى يبرأجه بها أهل الكتاب ، وندأؤه بأداة البعيد فيه اشارة الى بعدهم عن الصواب ، وشرودهم عن الحق ، ومن ثم يهتف بهم ألحق ، عز وجل ليرجعوا الى الطريق السوى ، وفى وصفهم بأهل الكتاب تذكيرا لهم بما نزل عليهم من الوحي الذى يجب عليهم اتباعه ، وتوبيخ لهم بمخالفة ما جاء فيه ، وتشنيع عليهم بذلك •

والثانى فى سورة الأنبياء « قلنا يا نار كُونِي بردا ومسالما على ابراهيم » : ٦٩ ، وهو نداء للنار كى تتنبيه للأمر الوارد عليها من القادر الحكيم ، وتستجيب على الفور له ، وقد نزلت فيه النار منزلة العقلاء فتزوديت نداء عاليا ثم أمرت أمرا حازما بكوني فكاست على سبيل التسخير •

والثالث في سورة الصافات « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت
الرؤيا » : ١٠٤ ، ١٠٥ وهو نداء من قبل الله تعالى لابراهيم عليه السلام
باسمه تشريفاً له وتكريماً ، واستعمال أداة البعيد مشعر بعلو منزلته ،
ومشير الى بعده وشروده بما كان يعانيه من آلام البلاء المبين •

(ج) نداء الملائكة ، وقد جاء في موضعين الأول في سورة هود
في قوله تعالى « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » : ٧٣ وهو نداء
لابراهيم وزوجه ، وفائدته تخصيص أهل البيت بالرحمة والبركات ،
وفي حذف حرف النداء اشعار بالقرب الشديد ، وقوة الصلة ، وعظيم
التقدير ، ورشح ذلك عن طريق الكناية عنهما بأهل البيت •

والثاني في نفس السورة « يا ابراهيم أعرض عن هذا » : ٧٦
وهو نداء من الملائكة لابراهيم عليه السلام لحثه على ترك المجادلة في
سأن قوم لوط ، ومن ثم نودى بأداة البعيد مع قربه الشديد منهم
لقوة تنبيهه ، وشدة ايقاظه الى الأمر الذي سيوجه اليه ، نظراً لما
يوحى به جداله عنهم من انشغاله بأمرهم ، وانصرافه الى المطالبة
بنجاتهم •

(د) نداء اسماعيل • وورد في موضع واحد في قوله تعالى « قال
يا أبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ ، فنادى أباه في أشد ساعات
المحنة بهذا النداء الرقيق اللطيف ، المعبر عن صبره وحلمه وطاعته لأمر
ربه دون انفعال أو غضب ، وفي استعمال أداة البعيد مع قربهما الشديد
مشعر بتعظيمه لأبيه ، ومشير الى انشغال الأب بالمحنة الشديدة التي
يمر بها ، حيث نبهه بأقوى الأدوات تنبيهاً •

(هـ) نداء الأب • وجاء في موضع واحد في قوله تعالى : « أرأيت
أنت عن آلهتى يا ابراهيم » مريم : ٤٦ وهو نداء شديد اللهجة جاء عقيم
أربعة نداءات لطيفة رقيقة من ابراهيم عليه السلام ، وفي هذا اشعار

بمدى القسوة والغلظة التي كان عليها الأب : وإشارة الى أن أصغائه الى الموعظة أعقبه انفجار شديد ، وكأن الصمت الطويل يولد الانفجار .

(و) نداء سارة زوج ابراهيم عليه السلام وهو في قوله تعالى « قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٢ ، وأصل الويلى الخزى ثم شاع في كل أمر فظيع ، وخف هذا القول على أنفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يدعو الى الدهشة والتعجب ، ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك : والمقصود بالنداء هنا التعبير عن فرط التعجب والاندهاش (هـ) • وأداة البعيد مشعرة بعلو الصوت وشدة الصياح كما جاء في قوله تعالى « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » الذاريات : ٢٩ •

الفصل والوصل :

ويأتيان على رأس الخصائص البلاغية في القصة ، وقد أشرنا الى كثير من أسرارهما في ثنايا تحليلاتنا البلاغية لحلقات القصة .
وسننظر اليهما في هذا الموضع نظرة شاملة تعطى تصورا عاما عن كل منهما في القصة .

وقع الفصل بين الجمل في نحو مائة وخمسة وثمانين موضعا ،
بينما جاء الوصل في نحو مائة وسبعة وأربعين موضعا ، نشير اليهما
بإيجاز فيما يلي (١) :

في حلقة البقرة التي تدور حول بناء البيت الحرام ورد الفصل
في تسعة عشر موضعا في الآيات :

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٤ . بينما ورد الوصل في ثلاثة وعشرين موضعا في الآيات : ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

وفي حاقة البقرة التي تحدى فيها النمرود وتحكيها الآية ٢٥٨ ،
وقع الفصل في خمسة مواضع بينما وقع الوصل في موضع واحد . وفي
آية السؤال عن كيفية احياء الموتى ٢٦٠ جاء الفصل في ثلاثة مواضع ،
وجاء الوصل في موضعين .

وفي آل عمران جاء الفصل في خمسة مواضع في الآيات : ٦٥ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٦٨ . كلما جاء الوصل في خمسة مواضع في الآيات : ٦٦ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٩٥ .

(١) أشرنا الى الآيات ولم نشر الى الجمل ، ليقينا بان النساظر في
عنه الخصائص لا يغيب عنه معرفتها بعد الرجوع الى الآيات فهو غالبا
من المتخصصين .

وفي آية النساء ١٢٥ وقع الوصل في موضعين « ومن أحسن ديناً »
« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ولم يقع فصل فيها •

وفي الأنعام ورد الفصل في ثلاثة وعشرين موضعاً في الآيات : ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ • بينما ورد
الوصل في ثمانية عشر موضعاً في الآيات : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ •

وفي آية التوبة ١١٤ فصل قوله تعالى « ان إبراهيم لأواه حليم »
ورصد قوله « وما كان استغفار إبراهيم » •

وفي هود وقع الفصل في اثني عشر موضعاً في الآيات : ٦٩ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ • ووقع الوصل في أربعة مواضع في الآيات : ٦٩ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ •

وفي إبراهيم ورد الفصل في عشرة مواضع في الآيات : ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ • بينما جاء الوصل في خمسة مواضع في الآيات :
٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ •

وفي الحجر ، وقع الفصل في أحد عشر موضعاً في الآيات : ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ •

وجاء الوصل في موضع واحد « ونبتئهم عن ضيف إبراهيم » ٥١
وفي النحل أتى الفصل في أربعة مواضع في آيتي : ١٢٠ ، ١٢١
وأتى الوصل في أربعة مواضع في الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ •

وفي مريم ورد الفصل في أحد عشر موضعاً في الآيات : ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ •

بينما ورد الوصل في تسعة مواضع في الآيات : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ •

٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ • وأتى الوصل في موضعين في

آيتي : ٢٨ ، ٢٩ •

وفي المتنفة جاء الفصل في ثمانية مواضع في الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ •

٦ • وجاء الوصل في ستة مواضع في الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ •

ومن تأملنا في مواضع الفصل والوصل التي أشرنا إليها فلاحظ

ما يلي :

١ - أكثر مواضع الفصل بين الجمل سببه الاستئناف البياني

الذي هو شبه كمال الاتصال ، حيث جاء في نحو مائة موضع ، وهذا

راجع الى شيئين : أولهما : كثرة الجمل التعليلية والتذييلية في مقاطع

الآيات ، وهذه الجمل غالبا ما تكون جوابا عن أسئلة تثيرها الجمل

السابقة عليها •

وثانيهما : شيوع أسلوب الحكاية الذي يروى ما دار بين الأطراف

من حوار ، والفصل بين الأقوال والردود عليها في هذا الأسلوب مؤسس

على الاستئناف البياني • وقد نبه الشيخ عبد القاهر على ذلك فذكر أن

اندى نراه في التنزيل من لفظ « قال » مفصولا غير معطوف جاء على ما

يقع في أنفس المخلوقين من السؤال كما جرت به العادة في الكلام

بين الناس (٢) •

ومن ثم نرى وقوع الفصل للاستئناف كثيرا في الحلقات التي

تعتمد أسلوب حكاية الحوار فمن ذلك ما نراه في حلقة البقرة في أول

آية منها « واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك لندس

اماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدي الظالمين » حيث فصل بين قال

وما قبلها في المواضع الثلاثة لأنها جاءت جوابا عن سؤال مقدر •

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٠ وما بعدها •

وما نراه في السؤال عن كيفية احياء الموتى « واذا قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ٠٠٠ » البقرة : ٢٦٠ •

وما نراه في حلقات الأنبياء والصفات وغيرهما من مواطن يكثر فيها الحوار بين ابراهيم عليه السلام وقومه •

كما نراه جليا في الحلقات التي تحكى حديثه مع الملائكة في هود والحجر والعنكبوت والذاريات • حيث بنيت في غالبها على حكاية الحوار الذى دار بين الطرفين • بل ان حلقة « الحجر » قد قامت كلها على هذا الأسلوب ، ومن ثم جاءت جملها مفصلة للاستئناف البياني •

ولقد ضرب الشيخ عبد القاهر بعض آيات حلقة الذاريات مثالا على الفصل بين حكاية الأقوال للاستئناف البياني ، وكلامه في ذلك مما ينبغى ذكره ، قال : واعلم أن الذى تراه في التزييل من لفظ « قال » مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه (٣) ، والله أعلم • أعنى مثل قوله تعالى « هل أتاك حديث ابراهيم المكرمين • إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ إلى أهله نجاء • بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف » — الذاريات : ٢٤ ، ٢٨ ، جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين اذا قيل لهم : دخل قوم على غلان فقالوا كذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟ ويقول المجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج ، لأن الناس خطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه • وكذلك قوله « قال ألا تأكلون » وذلك أن قوله « فجاء بعجل سمين فقربه

(٣) يقصد كونه جوابا عن سؤال مقار ، كما سبق فى كلامه •

اليهم » يقتضى أن يتبع هذا الفعل بقول ، فكأنه قيل والله أعلم : فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم ؟ فأتى قوله « قال ألا تأكلون »
جوابا عن ذلك •

وكذا « قالوا لا تخف » لأن قوله « فأوجس منهم خيفة » يقتضى أن يكون من الملائكة كلام في تأنيبه وتسكينه مما خاشره ، غذأه قيل : فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة ؟ فقيل « قالوا لا تخف »
ومما هو في غاية الوضوح قوله تعالى « قال فما خطبم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » — الحجر : ٥٧ ، ٥٨ ،
الذاريات : ٣١ ، ٣٢ — وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب ، وعلى أن نزل السامعون كأنهم قالوا : فما نال له الملائكة ؟
فقيل : « قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » (٤) •

٢ — وقع الفصل كثيرا بين انجمل لكمال الانقطاع بصورتيه :
اختلاف الجملتين في الخبرية والانشائية ، وعدم وجود جامع يصح
العطف بينهما •

ويجدر بنا أن ننبه على أن كمال الانقطاع لا يعنى تفكك الكلام
وعدم ترابطه انما هو مصطلح بلاغى يعنى الاختلاف في الخبرية
والانشائية أو عدم وجود مناسبة خاصة بين الجملتين تستوجب العطف ،
وبعد هذا المعنى المحدد وقبلة ، لابد أن يرتبط الكلام في غرض عام ،
وأن يمتزج بعلاقة معنوية تغنى عن الرابطة اللفظية التى هى الواو (و) •
ومما يشير إلى هذا قول السيد الشريف : الجملتان اذا لم يعطف أحدهما

(٤) دلائل الإعجاز ٢٤٠ ، ٢٤١ •

(٥) ينظر دلائل التراكيب ٣٥٣ وما بعدها ، ومذكرات فى الفصل

والوصل : ٦٠ ، ١١١ •

(٣٧ — خصائص النظم)

على الأخرى فهم اجتماع مضمونيهما في الحصول بدلالة العقل ، ضرورة
أن الأمور الواقعة في نفس الأمر تكون مجتمعة فيها ، وربما لا تكون هذه
إدلالة مقصودة للمتكلم ، وإذا عطف بالواو فقد دل على الاجتماع ،
بدلالة نظرية مقصودة (٦) .

ومما وقع الفصل فيه للاشتراك في الغرض العام آيات الدعاء
في حلقه البقرة وحلقة إبراهيم ، وحلقة المتحدة . والآيات التي نادى
فيها أباه وهو يدعو إلى عبادة الله تعالى والكف عن عبادة الأصنام في
حلقة مريم . ويمكن أن يسمى هذا « استئناف المعاني » (٧) ، لأنه
استئناف لمعان متداعية نظمت في سلك واحد من غير واء العطف .

٣ - وقع الوصل للتوسط بين الكمالين في كثير من مواضع الوصل،
حيث تتحد الجمل في الخبرية أو الانشائية مع التناسب المصحح للعطف،
ومن ذلك قوله تعالى « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون .
وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من
دلي ولا نصير » العنكبوت : ٢١ . ٢٢ . حيث وقعت الجمل معطوفة
في الآيتين وهي متحدة في الخبرية وبينها تناسب قوى يقوم على التضاد
بين الجملتين ، والتماثل في الجمل التالية .

ومن ذلك قوله تعالى « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين .
وأجعل لي لسان صدق في الآخرين . وأجعلني من ورثة جنة النعيم .
واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني بيعثون » الشعراء :
٨٣ - ٨٧ . فقد وقع الوصل بين الجمل في الآيات السابقة وهي متحدة
في الانشائية مع التناسب القائم على التماثل في كونها دعوات تصرع
بها إبراهيم عليه السلام إلى ربه عز وجل راجيا خيري الدنيا والآخرة .

(٦) حاشية السمد على المطول ٢٥٠ .

(٧) ينظر دلالات التراكيب ٣٤٩ .

وَيُظَاهِرُ أَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ جُمْلَةٍ « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ » وَمَا تَبَلَّهَا لِلْإِسْتِثْنَاءِ
الْبَيَانِي ، حَيْثُ جَاءَتْ جَوَابًا عَنْ سَوْأَلٍ تُثِيرُهُ الْجُمْلَةُ الَّتِي قَبْلَهَا •

٤ - وَنَمِيعُ الْوَصْلِ بَيَاوُ الْإِسْتِثْنَاءِ بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْمُخْتَلَفَةِ خَبَرًا
وَأَنْشَاءً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًى » الْبَقْرَةُ :
١٣٥ • فَقَوْلُهُ « وَاتَّخِذُوا » عَلَى قِرَاءَةِ الْأَمْرِ جُمْلَةٌ أَنْشَاءِيَّةٌ ، وَقَدْ سَبَقَتْهَا
جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ ، وَهِيَ وَجْهُ الْإِعْرَابِ فِيهَا أَنَّ الْوَاوَ لِلْإِسْتِثْنَاءِ وَالْجُمْلَةُ
مُسْتَأْنَفَةٌ (٨) •

وَهَذِهِ الْوَاوُ لِعَطْفِ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ وَأَشَارَ إِلَيْهَا الزَّمْخَشَرِيُّ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا » الْبَقْرَةُ : ٢٥ حَيْثُ قَالَ : فَإِنْ
قُلْتَ : عَلَامٌ عَطَفَ هَذَا الْأَمْرَ وَلَمْ يَسْبِقْ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَصِحُّ عَطْفُهُ عَلَيْهِ ؟
قُلْتَ : لَيْسَ الَّذِي اعْتَمَدَ بِالْعَطْفِ هُوَ الْأَمْرُ حَتَّى يُطْلَبَ لَهُ مَشَاكِلُ مِنْ
أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ يُعْطَفُ عَلَيْهِ ، إِذَا اعْتَمَدَ بِالْعَطْفِ هِيَ جُمْلَةٌ وَصَفَ ثَوَابَ
الْمُتَّقِينَ ، فَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ وَصَفَ عِقَابَ الْكَافِرِينَ ، كَمَا تَقُولُ :
زَيْدٌ يُعَاقَبُ بِالْقَيْدِ وَالْأَرْهَاقِ ، وَيُبَشِّرُ عَمْرًا بِالْعَفْوِ وَالْإِطْلَاقِ (٩) •

فِي هَذِهِ الْوَاوُ تَعَطُّفٌ مَضْمُونٌ كَلَامٌ عَلَى مَضْمُونٍ كَلَامٌ آخَرُ ، أَوْ
تَعَطُّفٌ قِصَّةٌ عَلَى قِصَّةٍ ، سَوَاءٌ كَانَتْ بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْإِنْشَاءِ أَوْ بَيْنَ خَبَرَيْنِ
أَوْ بَيْنَ أَنْشَاءَيْنِ (١٠) وَمِثْلُ هَذَا الذَّلَامُ الَّذِي يُعْطَفُ بِهِذِهِ الْوَاوُ لَا يَشْتَرِطُ
فِيهِ وَجُودُ مَنَاسِبَةٍ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْكَلَامَيْنِ ، بَلْ تَعْتَبَرُ الْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ نَفْسِ
الْمَضْمُونَيْنِ (١١) •

(٨) املاء ما من به الرحمن هامش الفتوحات الالهية ١/٢٦١ ، وينظر

الفتوحات ١/١٠٣ ، ١٠٤ •

(٩) الكشف ١/٧٨ •

(١٠) دلالات التراكيب ٣٤٨ •

(١١) مذكرات في الفصل والوصل ٥٢ •

وبهذه الواو عطف آيات كثيرة في حلقات القصة وخصوصاً الآية الأولى في كل حاقة • ففي البقرة « وإذا ابتلى إبراهيم ربه » ١٢٤ ، وفي الأنعام « وإذا قال إبراهيم لأبيه أزر » ٧٤ ٧٥ وفي هود « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » ٦٩ ، وفي مريم « واذكر في الكتاب إبراهيم » ٤١ • وفي الأنبياء « ولقد آتينا إبراهيم رشده » ٥١ • وفي الشعراء « وأتاهم نبي إبراهيم » ٦٩ • وهكذا في العنكبوت والنصافات والزخرف •

ولا يقتصر وجود هذه الواو في أوائل حلقات القصة بل تأتى بين الآيات في موطن متعددة •

وبعض العلماء يرى تقدير معطوف عليه مناسب للمعطوف ، وبذلك تكون هذه الواو عاطفة وليست للاستئناف (١٢) •

الإيجاز :

وقع الإيجاز بذريعة في قصة إبراهيم عليه السلام في مواطن متعددة •

فأما إيجاز القصر فمنه قوله تعالى « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » البقرة : ١٢٤ • إذ يتضمن اختبار الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالتكاليف الشرعية التي أمره بفعلها ، وقيام إبراهيم بفعلها على وجه التمام والكمال •

ومنه قوله تعالى « قد جاء أمر ربك » هود : ٧٦ • حيث اشتمل على بيان قضاء الله تعالى في قوم لهط بالهلاك ، فلا نفر من وقوعه بهم ، ولا مجال للجدال في شأنهم فأمر الله نافذ لا محالة •

(١٢) ينظر مذكرات في الفصل والوصل ٥٣ والمطول ٢٦٣، ٢٦٤ •

ومنه قوله تعالى « فجعلهم جذاذاً الا كبيرا لهم » الأنبياء : ٥٨ ، فقد أوجز ما فعله ابراهيم عليه السلام بالأصنام من تكسير ، وبين حجم ما أحاط بالأصنام من ذلك ، وأشار الى استبقائه كبيرها دون كسر .

ومنه قوله تعالى « يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ . اذ بين نجاة ابراهيم عليه السلام من النار دون أن يمسسه سوء ، وفصل الطريقة التي نجاه الله بها حيث تحولت النار بأمره تعالى من جحيم يصهر الجلود الى برد وسلام .

ومنه قوله تعالى « ياأبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ . فقد أوضح دور رب اسماعيل عليه السلام من ذبحه ، وبين رضاه التام عن كل ما يعمل به والده من ذبح أو غيره ، وأشار الى أنه حث والده على تنفيذ ذلك ، ودل على فقه اسماعيل عليه السلام ببيان أن هذا من أمر أمر قدير هو الله تعالى ، فلا سبيل الى مخالفته .
وأما ايجاز الحذف فيدور أكثره حول حذف جزء من أجزاء الجملة أو حذف الجمل والمشاهد .

١ - حذف جزء من الجملة :

ويتبدل أدر ما جاء من ذلك في حذف المفعول ، القصد الى ذات الفعل مطلقا دون تقييده بمفعول به تنزيلا له منزلة اللزم ، أو لافادة العميم والشعور ، وقد جاء من ذلك :

قوله تعالى « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » البقرة . ١٣١ ، حيث حذف مفعول « أسلم » ومتعلقه ، والتقدير : أسلم وجهك لى . وقد دل الجواب على ذلك . والفعل هنا منزل منزلة اللزم ، لأمره بالاسلام مطلقا عن القيد (١٣) . فعليه أن يحقق الاسلام تحقيقا كاملا .

ومنه قوله تعالى « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » آل عمران : ٦٦ ،
فقد حذف مفعول العلم من الجملتين تنزيلا للفعل المنعدي منزلة الملام ،
أوصف الله تعالى بالعلم المطلق ، ونعتهم بعدم العلم مطلقا • وفي ذلك
أيضا دلالة على العموم والشمول ، فإله تعالى يعلم كل شيء وهم
لا يعلمون شيئا •

ومنه قوله تعالى « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وقوله
تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن » ابراهيم : ٢٧ ، ٢٨ • حذف
مفعول « يشكرون » ومفعول « نخفى » و « نعلن » لاثبات الفعل
على إطلاقه ، فإله سبحانه وتعالى عليم بما يخفون وما يعلنون على
سبيل الإطلاق • والذرية يرجى اتصافها بالشكر لا تنفك عنه •

ومنه قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » مريم : ٤٢ •
حذف مفعول السمع والبصر لوصف معبوداتهم بعدم السمع وعدم البصر
على الإطلاق ، وفي ذلك دلالة على عموم نقى ذلك وسموه في
لا تسمع ولا تبصر شيئا البته •

ومنه قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا
ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ أى ولا يضركم شيئا ، حذف لدلالة الأول عليه ،
وفي حذفه افادة العموم والشمول ، بجانب الإيجاز ، وشبهه بهذا قوله
تعالى « هل يسمعونكم إذ تدعون • أو ينفعونكم أو يضرون » الشعراء :
٧٢ ، ٧٣ ، فحذفت المفاعيل من « تدعون » و « ينفعونكم » و « يضرون »
لأفادة العموم والشمول • كما حذف المفعول به من « يضرون » فلم
يخاطبهم بالضر وفيه تطف معهم بعدم توجيه الضر إليهم مباشرة ،
بجانب افادة الشمول والعموم ، فالأصنام لا تضرهم ولا تضر غيرهم •

ومنه قوله تعالى « وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم »
العنكبوت : ١٨ • فحذف مفعول « تكذبوا » ومفعول « كذب » والتدوير

وان تكذبونى فتد كذب أمم من قبلكم رسلهم • وفى الحذف وصم لهم بالتدبيب المطلق وهذا أبلغ فى ذمهم • ومنه قوله تعالى « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء » العنكبوت : ٢٢ • حذف مفعول « معجزين » والتقدير : بمعجزين الله ، وفى الحذف نفى لأعجازهم مطلقا ، فهم لا يوصفون بهذه الصفة ، ولا يستطيعون تحقيقها •

ويتصل بهذا حذف مفعول المشيئة لدلالة ما سبق عليه ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى « نرفع درجات من نشاء » وقوله « يهـدى به من من يشاء من عباده » الأنعام : ٨٣ ، ٨٨ وقوله تعالى « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » العنكبوت : ٢١ •

حذف المضاف : وقد جاء من ذلك قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى إبراهيم » آل عمران : ٦٥ • والتقدير فى ملة إبراهيم ، فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، اشعارا بأن الحاجة كانت فى إبراهيم نفسه ، اذ الدين وصاحبه لا ينفصلان ، وفى ذلك مزيد توبيخ لهم وانكار عليهم حيث يحتاجون فى إبراهيم وهو جد هم الأعلى •

ومنه قوله تعالى « قال أتحتاجونى فى الله وقد هـدان » الأنعام : ٨٠ • فدخل « فى » على اسم الجلالة على تقدير مضاف لأن الحاجة لا تكون فى الفوات • أى فى صفات الله تعالى (١٤) • وفى حذف المضاف اشعار بشدة الجرم الذى أقبلوا عليه ، حيث يحتاجون فى الله تعالى ، ويجادلون فيه ، مع عدم خفاء أمره وشأنه على ذى عقل •

حذف جواب الشرط ووقع ذلك فى قوله تعالى « فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » الأنعام : ٨١ • حذف جواب الشرط كما حذف المفعول والتقدير : ان كنتم تعلمون من أحق بذلك فأخبرونى •

ويمكن أن يكون حذف المفعول للقصد الى التعميم ، أى ان كنتم تعلمون شيئاً ، أو لتنزيل الفعل منزلة اللازم أى ان كنتم من أولى العلم (١٥) .
ومن ذلك قوله تعالى « فلما أسلما وتله للجبين » الصافات : ١٠٣ .
فجواب « لما » محذوف للاشعار بأنه مما لا تقى به العبارة ، ولا يحيط به المقام ، والتقدير : « فلما أسلما وتله للجبين » وناديه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا « كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف ، من استبشارهما واغتيابهما وحملهما الله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعدا حوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والاعراض ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب (١٦) » .

حذف المفضل عليه : وذلك في قوله تعالى « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر » الأنعام : ٧٨ . أى أكبر من الكوكب والقمر ، وحذف المفضل عليه للاشعار بالعموم أى أكبر من كل شيء .
حذف المخصوص بالذم : وذلك في قوله تعالى « ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » البقرة : ١٢٦ . فالمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير النار أو عذابها (١٧) وفي حذفه إشارة الى سوء نهايته على سبيل العموم .

حذف الموصوف : وذلك في قوله تعالى « فأمتعته قليلا » البقرة : ١٢٦ . فالموصوف محذوف وهو المصدر المقدر أى فأمتعته تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا . وفي حذفه اشعار بقلة متعته وعدم دوامها .

(١٥) أبو السعود ١٠٦/٣ .

(١٦) الكشف ٣٤٨/٣ .

(١٧) أبو السعود ١٥٩/١ .

حذف المسند اليه : وذلك في قوله تعالى « وقالت عجوز عقيم »
الذاريات : ٢٩ فقد حذف المسند اليه والتقدير : أنا عجوز ، وفي حذفه
دلالة على ضيق صدرها وشدة الأمر عليها بعد تبشيرها ، بسبب حالها
التي تتنافى مع ذلك حسب العادة •

حذف المعطوف : وذلك في قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله
ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ ، فالمستفهم عنه محذوف دل
عليه ما عطف عليه بحرف العطف والتقدير : أتعلمون ذلك تعبدون من دون
الله ... وهذه طريقة التزمخشري ومن تبعه في أمثال ذلك (١٨) • ومنه
قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنبياء :
٦٧ ، أى ألا تفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم • وقوله تعالى « وسع
ربى كل شيء عما أفلا تتذكرون » الأنعام : ٨٠ ، أى أتعرضون عن
التأمل في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع ولا ضر فلا
تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى (١٩) • وفي حذف المعطوف تروحيه
الإنكار الى ما يلى الهمزة وهذا أبلغ في توبيخهم وتعنيفهم ، حيث أنكر
عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر ، وعدم التعقل وعم التذكر ، وتوبيخهم
على ذلك توبيخاً شديداً •

حذف الجار والمجرور : ومن ذلك قوله تعالى « فأتوا به على أعين
الناس نعلمهم يشهدون » الأنبياء : ٦١ • حيث حذف الجار والمجرور
والتقدير : لعلمهم يشهدون عليه بما سمع منه ، أو بما فعله ، ويمكن أن
يكون من قبيل حذف المفعول على معنى : يحضرون عقربتنا له (٢٠) •

(١٨) ينظر الكشف ٥٧٨/٢ • وأبو السعود ٧٦/٦ •

ومعنى اللبيب ١٦/١ •

(١٩) أبو السعود ١٥٥/٣ •

(٢٠) الكشف ٥٧٧/٢ •

وفي الحذف عموم وشمول لكل ذلك ، فاللفظ متسع عليه لكل تأويل .
ومن ذلك قوله تعالى « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون »
الزخرف : ٢٨ ، فحذف الجار والمجرور والمعنى : رجاء أن يرجع اليها
من أشرك منهم بدعاء المرحد أو بسبب بقائها فيهم ، وهو من اسناد
ما للبعض الى الكل (٢١) . وفي حذف الجار والمجرور وصف لهم
بالفعل على الاحلاق ، فهو يرجو أن يكونوا من الراجعين التائبين عند
التفريط .

ومن ذلك قوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » العنكبوت :
٢٤ . حذف الجار والمجرور والتقدير : يؤمنون بالله تعالى . وفي حذفه
وصف لهم بالفعل على اطلاقه أى لقوم يتحقق فيهم الايمان ، وفيه
عموم وشمول للايمان بالله تعالى وبقدرته على البعث ، وبما أنزل من
أحكام وتشريعات .
٢ — حذف الجملة :

وجاء حذف الجملة في القصة بنسبة قليلة ، ومن ذلك قوله تعالى
« اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون » الحجر : ٥٢ .
حيث حذف رد ابراهيم عليهم بقوله « سلام » ، حسبما بين في حلقتي
هود والذاريات . وفي حذف جملة الرد اشعار بشدة الوجع الذي سيطر
عليه من جراء قدومهم على هيئة غريبة ، وعدم الأكل من الطعام الذي
قدمه اليهم . وكأن الوجع شغله عن رد السلام .

ومن ذلك قوله تعالى « فقربه اليهم قال ألا تأكلون » فأوجس منهم
خيفة « الذاريات : ٢٧ ، ٢٨ . حيث حذف من الكلام جملة مفادها :
فلم يأكلون ، « فأوجس منهم خيفة » وفي حذفها مسارعة الى وصف
حاله وما ناله من خوف ووجل عندما لم يأكلوا .

ومن ذلك قوله تعالى « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله » اليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا » البقرة : ١٢٦ ، وفى الكلام ايجاز بحذف جملة عطف عليها قوله « ومن كفر » يفهم منها استجابة الله تعالى دعاء ابراهيم عليه السلام أى : أرزق من آمن ومن كفر فأمتعه قليلا . . . (٢٢) وفى حذف الجملة اشعار بتحقيق الاجابة ، ومن ثم ترك النص عليها .

ومن ذلك قوله تعالى « قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » الأنبياء : ٦١ ، ٦٢ . فبين الآيتين جملة محذوفة معلومة من الكلام والتقدير : فأتوا به ، فقالوا أنت فعلت . الخ وفى حذف الجملة دلالة على سرعة مجيئهم به ، حيث لم يمض وقت بين الأمر بالأتين به ، وبين سؤاله .

ومن ذلك قوله تعالى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » البقرة : ١٣٤ . وفى الكلام ايجاز بحذف جملة والتقدير : ولا يسألون عما كنتم تعملون ، ودل على المحذوف قوله تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » (٢٣) .

٣ - حذف الجدل والمشاهد :

وهذا اللون من الحذف شائع فى القصة فى حلقات الدعوة الى عبادة الله تعالى ، وحديث ابراهيم عليه السلام مع الملائكة ، لاشتمالها على حوادث ومشاهد متعددة ، يطوى بعضها فى موضع ويذكر بعضها فى موضع آخر ، فينتفى التكرار ، ويوجد الجديد فى كل حلقة ، كما تطوى بعض التفاصيل التى تفهم من خلال السياق وتبرز الحوادث الهامة التى

(٢١) النار / ١ / ٣٨٢ .

(٢٣) املاء ما من به الرحمن . همامش الفتوحات الالهية

٢٧٥/١ ، ٢٧٦ .

يقوم عليها بناء القصة ، فتقوى الحبكة القصصية ، وتخلص من مظاهر الترهل والمط والتطويل الذى لا داعى له .

ففى حلقة الأنبياء : نجد قوله تعالى « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ٥٧ . متبوعا بقوله تعالى « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم » ٥٨ . وبين القولين الكريمين جمل مطوية مفادها أن القوم تركوا إبراهيم وذهبوا الى عيدهم ، فأتى إبراهيم الى الأصنام فى خيفة وتحرش بها ثم قام بتفسيرها (٢٤) . وفى طى هذه الجمل مسارة الى بيان قيام إبراهيم عليه السلام بتنفيذ تهديده ، وإشعار بأن التنفيذ أعقب التهديد على وجه السرعة ودون تراخ أو فتور . على أن جل هذه التفاصيل المطوية قد ذكر فى حلقة الصافات « فأتولوا عنه مدبرين . فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين » ٩٠ — ٩٣ .

كما نجد قوله تعالى « نجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » ٥٨ ، مشفوعا بقوله تعالى « قالوا من فعل هذا بالهتنا » ٥٩ . وبين الآيتين جمل مطوية تبين أن القوم فرغوا من عيدهم وعادوا الى آلهتهم فرحين مسرورين فرأوا ما فعل بها ، غعلتهم الدهشة وتساءلوا عن الفاعل منكرين فعلته الشنعاء . وأنت ترى أن هذه الجمل المطوية تفهم من خلال السياق ، ولو صرح بها أكانت من قبيل التطويل الممل الذى تنزه عنه القرآن الكريم .

كما نجد قوله تعالى « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » ٦٨ ، متلوا بقوله تعالى « قلنا بانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » ٦٩ . وبين الآيتين كلام مطوى مؤداه استبعاد انقراضهم

(٢٤) ينظر البحر المحيط ٦/ ٣٢٢ .

لتحريقه ببناء البنيان وجمع الأخشاب اللازمة لاشعال جحيم نسيدي .
لا يترك له أثر عندما يبقى فيه ، وقيامهم باشعال الديران ، والقاء
ابراهيم عليه السلام فيها . وهذه التفاصيل بعضها مذكور في حلقة
الصفات ، وبعضها مفهوم من تداعى الحوادث وسياق الكلام . دما
ان قولهم : حرقوه ، مسبوق بمشاورات دارت بينهم في كيفية الانتقام
من ابراهيم عليه السلام حسبما فصل في حاقة العنكبوت .

بعد بيان نجاته من النار تطرى الحلقة مراحل طريقة من حياة
ابراهيم عليه السلام عاد غيبها لدعوى قومه ، ثم اعترلهم وهاجر الى
بلاد عديدة حتى استقر به المقام في أرض فلسطين ، تطوى الحلقة هذه
السنوات الطويلة وما حدث له فيها لتبين أن الله تعالى نجاه الى أرض
مباركة وأنعم عليه بالذرية الصالحة وغيرها من النعم الجليلة .
وفي حاقة الصفات : تطوى المشاهد المفصلة في الأنبياء ، فجعله
الأصنام جذاذا وترك كبيرها ، وتساؤل التوم عن الفاعل ، والانيان
بابراهيم عليه السلام ، والتحقيق معه . بينما تذكر قيام القوم ببناء
البنيان والقاء ابراهيم في الجحيم وتذكر قصة اسماعيل عليه السلام ،
وحادث الفداء العظيم .

ولو ذهينا لاستعراض حلقات الدعوة وحلقات حديث ابراهيم عليه
السلام مع الملائكة لوجدنا مظاهر الايجاز بحذف الجمل وطى المشاهد
كثيرة وقد فصلنا ذلك في حديثنا عن أسرار التنوع في هذه الحلقات ،
ومن ثم لا نرى داعيا لتكراره ، والاكتفاء بالأمثلة التي ذكرناها آنفا .

الاطناب :

جاءت بعض ألوان الاطناب في قصة ابراهيم عليه السلام في
مقامات تستدعى بسط الكلام أو تأكيده وتقريره ، وغير ذلك من
الأغراض البلاغية ، وأهم هذه الألوان .

١ - التكرير :

وهو من ألوان الاطناب البارزة في حلقات القصصه .

ففى حلقة البقرة فى بناء البيت الحرام نجد تكرير النداء باسم الرب « ربنا تقبّل منا » « ربنا وأجعلنا مسلمين لك » « ربنا وأبعث فيهم رسولا » ١٢٧ - ١٢٩ ، وذلك فى مقام التضرع والدعاء عند رفع البناء استجابة للقبول بهذا النداء الضارع الذى يوحى بمعانى التربية والعناية وتحقيق المطالب ، واجابة الرغائب . ومثل هذا نجده فى حلقة ابراهيم الخاصة بالدعاء وحلقة الممتحنة التى تتضمن دعاء وثناء على الله تعالى بعد البراءة من المشركين .

وفى حلقة الانعام نجد تكرارا لاسم الرب فى قوله تعالى « الا ان يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيء علما » ٠٨٠ وفى تكراره مضافا الى ضميره اشعار بمساعدة الله تعالى له ، فهو ان يخاف من آنتهم لانه فى رعاية ربه وخاضع لمشيئته وموجه بآرادته وعلمه الذى وسع كل شيء .

وفى حلقة الحجر نجد تكرارا للفظ البشارة « انا نبشرك بغلام عظيم » قال أبشركم ونى على أن مسنى الكبير فبم تبشرون . قالوا بشرك باحق فلا تكن من الناقطين » ٥٣ - ٥٥ وذلك لما للفظ من أثر نفسى يستجلب السرور ويستدعى الحبور ، خصوصا أن البشرى بغلام عظيم ، طالما تآقت نفسه الى مثله دون جدوى .

وفى حلقة مريم نرى تكرير النداء لأبيه بلفظ « بأبى » فى أربع آيات متواليات وذلك لمزيد تنبيهه الى ما يعرضه عليه . واستمالة لجانبه بلفظ الأبوة الذى يدل على تمام بره به وأخلاص النصيح له ، وكمال الشفقة عليه . كما نجد تكرارا للفظ « الشيطان » « يا أبى لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا » ٤٤ . وفى ذلك مزيد تحذير

لأبيه منه ، فاللفظ مخيف يشيع في النفس الرعب والاشمئزاز بما وقر
في النفوس عنه من نزعات الشر ، ونزعات الهلاك •

ونلتقى فيها أيضا بتكرار اعتزال القوم وما يدعون من دون الله
تعالى « وأعتزلنكم وما تدعون من دون الله » فلما اعتزلنهم وما يعبدون
من دون الله « ٤٨ ، ٤٩ • وهذا مشعر بأن ابراهيم عليه السلام نفذ
ما عزم عليه كاملا غير منقوص ، رغم شدته على نفسه ، ومسير الى أن
هذا الشيء نفسه كان فاتحة خيرات وبركات توالى عليه ، حسبما فصل
في جواب الشرط •

وفي حلقة الأنبياء نقف أمام تكرير الجملة « تعبدون من دون الله »
وذلك في قوله تعالى « قال أغتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا
ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون الله » ٦٦ ، ٦٧ • وفي
هذا التكرار تقوية لدمهم والمتنصبر منهم ومن آلهتهم لكونه كاشفا عن
سبب ذلك ، ومبيناً لجريماتهم الشنعاء ، فهو دم مشفوع بسببه •

وفي حلقة الشعراء نرى تكرار « انذى » مع تنوع صلتها ، وذلك
في مقام الثناء على الله تعالى بنعمه التي لا تحصى في الآيات : ٧٨ ،
٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ • وفي هذا التكرار مزيد تعظيم لرب العالمين ، بوصفه
بصفات معلومة لا تنكر ، لما أن الشأن في جملة الصلة أن تكون معلومة
للمخاطبين ، كما أن فيه اشعارا باستقلال كل جملة في الثناء على الله
تعالى ، وانفرادها عن الأخرى •

وفي حلقة العنكبوت يطالعنا التكرير في قوله تعالى « انما تعبدون
من دون الله آوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله
لا يملكون لكم رزقا » ١٧ • حيث كررت جملة « تعبدون من دون الله »
وفي تكرارها مزيد تشنيع عليهم بهذه الجريمة النكراء وذلك باظهارها
في موضع الاختصار • كما نجد التكرار في قوله تعالى « أولئك يتسوا من

رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم» ٢٣ • حيث كرر اسم الإشارة للتأكيد
تمييزهم ، وتقرير تحقيرهم وبعده منزلتهم في الشر • وللاشعار
باستقلال كل جملة عن الأخرى في وصفهم بما تضمنته ، مع مخاطبتهم
بذلك •

وفي حلقة الصافات نلاحظ تكريرا متباعدة حيث يأتي قوله تعالى
« انا كذلك نجزي المحسنين » ١٠٥ ثم يأتي قوله تعالى « كذلك نجزي
المحسنين » بعد أربع آيات • والتكرير هنا لتعدد المتعلق ، حيث أن
كل آية منهما مذكورة عقيب جزاء يختلف عن الآخر ، فالآية الأولى
أعقبت نداء الله تعالى له بالكف عن ذبح ولده ، فقد صدق الرؤيا ونفذ
أمر الله تعالى فاستحق جزاء المحسنين • وفي الآية الثانية أعقبت منه الفداء
وابقاء السلام على ابراهيم في الآخرين ، فهو محسن يستحق جزاء
المحسنين • والسورة كلها ماضية على هذا النهج، حيث ختمت القمص
فيها بمثل ذلك •

ونجد تكرارا آخر فيها في قوله تعالى « وباركنا عليه وعلى
اسحاق » ١١٣ • حيث كرر الجار وفي تكراره اشعار باستقلال كل منهما
في نيل البركة من الله تعالى ، فابراهيم عليه السلام قد نال حظه الذي
يخصه من البركة وكذلك اسحاق عليه السلام •

وفي حلقة الممتحنة تبدأ الحلقة بقوله تعالى « قد آتيتكم أسوة
حسنة في ابراهيم والذين معه » ٤ • وتنتهي بمثل ذلك • وفي عدا
التكرير تأكيد على التأسي بهم ، بعد أن تقدم استثناء عن الأسوة في
الآية الأولى ، يجعل المقام في حاجة الى التأكيد وتكرير التأسي على
التأسي بهم •

تكرار المشاهد :

وأما تكرار المشاهد في قصة إبراهيم عليه السلام فقد تحدثنا عنه في نهاية كل من الفصلين الأول والثاني في حديثنا عن أسرار التشابه والتنوع فبينما أنه لا توجد مشاهد مكررة بنصها وفصها ، وأن المشهدين المكررين في حلقات الدعوة هما : تكديره للأصنام وتحريقه بالنار وقد اختلف التعبير عنهما في كل حلقة وردا فيها بالزيادة في ذكر التفاصيل ، وتلوين الأسلوب مما جعل كل موضع ذكرا فيه مغاير للآخر في شكله ومضمونه •

كما أن الحلقات التي تحكى حوارا مع الملائكة وإن كانت تعبر عن قصة واحدة إلا أن تاوين الأسلوب وإضافة تفاصيل جديدة في كل حلقة جعل القصة في كل حلقة كأنها شيء جديد في هيئته ومحتواه ، وقد بينا ذلك بإفانضة وأشرنا إلى تكامل الحلقات ونسجنا منها قصة كاملة الجوانب لا تكرار فيها وهذا يرد ما قد يثار عن تكرار القصة في القرآن الكريم •

٢ - التفصيل :

وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد (٢٥) ، وهو أكثر ألوان الاطناب وجودا في قصة إبراهيم عليه السلام ، حيث تختتم به آيات كثيرة تأكيدا لما فيها من معان وتعليلا لها • وقد أولينا التذييل عناية كبيرة في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة ، ومن ثم فسنتحدث عنه هنا حديثا مختصرا يوضح معاني القصة • وقد وقفت في حلقات القصة أمام خمسين تذييلا: منها سبعة في البقرة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٢٥٨ • وخمسة في آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ • وتذييل في النساء : ١٢٥ •

وثمانية في الأنعام : ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ . وتذييل في التوبة : ١١٤ . وثلاثة في هود : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ . واثنان في ابراهيم : ٣٨ ، ٣٩ . واثنان في النحل : ١٢٠ ، ١٢٣ ، وثلاثة في مريم : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧ . وثلاثة في الأنبياء : ٥١ ، ٥٩ ، ٦٧ . وتذييل في الشعراء : ٨٦ . وتسعة في العنكبوت : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣١ . وثلاثة في الصافات : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ . وتذييل في الذاريات : ٣٠ . ومثله في المتحنة : ٥ .

وهذه التذييلات منها خمسة وثلاثون تذييلا لا تجرى مجرى الأمثال لأنها غير مستقاة بالافادة حيث ربطت بما قبلها بالضمير أو الإشارة ، وخمسة عشر تذييلا تجرى مجرى الأمثال لاستقلالها في الافادة ، بقيامها بذاتها .

فمن التذييلات الجارية مجرى الأمثال ما في قوله تعالى « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » الأنعام : ٨٣ ، ففي الآية تذييلان أولهما قوله تعالى « نرفع درجات من نشاء » وهو يؤكد ما سبق من اعلاء مكانة ابراهيم على قومه ونصره عليهم بايتائه الحجة المفحمة التي رفعته وحطتهم . وثانيهما قوله تعالى « ان ربك حكيم عليم » وهو بجانب ما تضمنه من اخبار مؤكد بحجة الله تعالى وعلمه يؤكد ما سبق فانه تعالى حكيم في كل ما فعل من رفع وخفض وعليم بحال من يرفعه (٢٦) ، كما أنه تعليل له : فهو سبحانه يرفع من يشاء ويخفض من يشاء لأنه حكيم عليم فهو تذييل تعليلي . والتذييلان جاريان مجرى المثال في استقلالهما بالامادة . ومنها قوله تعالى « قلما ذهب عن ابراهيم الرواع وجأته البشري

يجادلنا في قوم لوط « ان ابراهيم لحايم أوامه منيب » هود : ٧٤ ، ٧٥ .
فالأية الثانية تذييل جار مجرى المثل ، وهو تذييل تعليلي ، يعمل جدال
ابراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، بجانب ما ينسقل عليه من
وصف لابراهيم عليه السلام بصفات عظيمة .

ومنها قوله تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى
على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » ابراهيم : ٣٨ . فجملة
« وما يخفى على الله من شيء » . . » تذييل يؤكد علم الله سبحانه وتعالى
بما يخفون وما يعلنون . بجانب ما أثبتته من علم الله تعالى بكل شيء
في الكون . وهو تذييل جار مجرى المثل لاستقلاله في الافادة .

ومنها قوله تعالى « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق
ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير » العنكبوت : ٢٠ .
فجملة « ان الله على كل شيء قدير » تذييل تعليلي ، يؤكد ما قبله ويعتله
فان قدرة الله تعالى على كل شيء تستوجب قدرته على البدء والاعادة ،
حيث لا يستعصى على قدرته شيء ما من الأشياء .

ومن التذييلات التي لا تجرى مجرى الأمثال قوله تعالى « قلت
يا أيها آلأد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب » هود :
٧٢ . فجملة « ان هذا لشيء عجيب » تذييل يؤكد تعجبها واستبعادها
السابق ، وهو غير جار مجرى المثل لارتباطه بما قبله عن طريق الإشارة
التي تقتدر الى حضور المشار اليه وهو في الجملة السابقة .

ومنها قوله تعالى : « فأندجاء الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم
يؤمنون » العنكبوت ٢٤ . فجملة « ان في ذلك لآيات » . . » تذييل
غير جار مجرى المثل لأنه كسابقه في ارتباطه بما قبله عن طريق
الإشارة .

ومنها قوله تعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً » مريم : ٤١ •

فجمله « انه كان صديقاً نبياً » تذييل غير جار مجرى المثل ، لارتباطه بما قبله عن طريق الضمير الذي يحتاج الى تفسير ، وتفسيره في الجملة السابقة ، وهو تذييل تعليلي يؤكد الأمر بذكر ابراهيم ويعله •

ومنها قوله « قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحداً ونحن له مسلمون » البقرة : ١٣٢ • فجمله « ونحن له مسلمون » تذييل يؤكد ما سبق من عبادتهم لله تعالى الواحد ، وهو مرتبط بما قبله بالضمير فهو غير جار مجرى المثل •

ومنها قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنبياء : ٦ • فجمله « أفلا تعقلون » تذييل يؤكد ما سبق من توبيخ لهم ، وتضجر منهم ومن آلهتهم • وينكر عليهم عدم تعقلهم ، وهو تذييل غير جار مجرى المثل ، لارتباطه بما قبله ، حيث ان الانكار والتوبيخ فيه مبني على ما سبق من عبادتهم ما لا ينفع ولا يضر ، والفاء تشير الى ذلك (٢٧) •

ومنها قوله تعالى « وفسديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه في الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين » الصافات : ١١٠ • فالآية الأخيرة تذييل غير جار مجرى المثل ، لارتباطه بما قبله عن طريق الكاف والاشارة « كذلك » • وهو مؤكد لجزاء ابراهيم السابق ، ويشير الى أنه جار على سنة الله تعالى في مجازاته المحسنين باحسنهم •

(٢٧) ينظر مواهب الفتاح ٢٢٨/٣ •

٣ - الايضاح بعد الابهام :

ومن أمثنته في القصة قوله تعالى «وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» البقرة : ١٢٥ ، وقوله تعالى « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » البقرة : ١٢٢ ، فقوله تعالى « أن طهرا ... » ايضاح للعهد الذى عهده الله تعالى الى ابراهيم واسماعيل . وقوله تعالى « يا بنى ان الله اصطفى ... » ايضاح لوصية ابراهيم ويعقوب عليهما السلام . ومنه قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ... » الاذاريات : ٢٤٠ فقوله تعالى « اذ دخلوا عليه » الى آخر القصة ايضاح لحديث ضيف ابراهيم المجل في الآية الاولى . ويشبه هذا قوله تعالى « ونبئهم عن ضيف ابراهيم . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ... » الحجر : ٥١ ، فقوله « اذ دخلوا عليه » الى آخر القصة تفصيل لنبا ابراهيم عليه السلام .

ومنه قوله تعالى « واتد عليهم نبا ابراهيم . اذ قال لآبيه وقومه ما تعبدون » الشعراء : ٧٠ . فقوله تعالى « واذا بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى ... » الحج : ٢٦ ، فان هى المفسرة ، والنهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسير للتبوءة ، لأن التبوءة كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل : تعبدنا ابراهيم فقلنا نه لا تشرك بالله شيئا وطهر بيتى ... » (٢٨) .

وفي الايضاح بعد الابهام : تأكيد وتقوية للمعنى حيث يرى في صورتين مختلفتين صرة مبهمة وأخرى موضحه . وتمكين للمعنى في

النفس لوقوعه فيها بعد شوق اليه ، ولهفة عليه ، وإكمال لذة العلم به لحصوله للنفس بعد حرمان منه وألم بسبب جهله • وتفخيم للأمر وتعظيم له حسب المقامات • وقد فصل الخطيب هذه الأغراض الدقيقة بكلام طيب فقال في بيان فائدة الايضاح بعد الابهام : أن يرى المعنى في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن في النفس فضل تممين ، فإن المعنى اذا ألقى على سبيل الاجمال والابهام تشوقت نفس السامع الى معرفته على سبيل التفصيل والايضاح ، فتتوجه الى ما يرد بعد ذلك ، فاذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أنتم • أو لتكمل اللذة بالعلم ، فإن الشيء اذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به أنتم واذا حصل الشعور به من وجه تشوقت النفس الى العلم بالمجهول ، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة وبسبب حرمانها من السابق ألم ، ثم اذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم • أو لتفخيم الأمر وتعظيمه (٢٩) •

وهذا بصر دقيق بأسرار الأساليب ، وتأثيرها النفس • ومن الايضاح بعد الابهام ما في قوله تعالى « ثم اضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » البقرة : ١٢٦ • فقوله « وبئس المصير » فيه ايضاح بعد ابهام على رأى من يجعل المخصوص بالذم خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر • أى وبئس المصير النار أو عذابها • وانما لكان هذا من قبيل الايضاح بعد الابهام لأنه أبهم المفاعل أولاً ثم فسر ثانياً بالمخصوص (٣٠) • ولو قصد الاختصار لكفى : بئس النار • ووجه حسن هذا الأسلوب زيادة على ما تقدم في فائدة الايضاح بعد الابهام أمران :

(٢٩) الايضاح ١٣٣/٢ •

(٣٠) ينظر المطول ٢٩١ •

أحدهما : إبراز الكلام في معرض الاعتدال نظراً الى اطنابه من وجه حيث لم يكن : بئس الذار ، والى اختصاره من آخر وهو حذف المبتدأ في جواب السؤال المقدر ، لأن جملة المخصوص بالذم استغنائية •

وثانيهما : إيهام الجمع بين المنافقين وهما الإيجاز والاطناب ، ولاشك أن الجمع بين المتنافيين من الأمور الغريبة المستطرفة التي يظهر في النفس عند وجدانها تأثر وانفعال عجيب (٣١) •

٤ - عطف العام على الخاص ، والخاص على العام :

ومن أمثلة النوع الأول قوله تعالى « ربنا اغفر لى ولوالدى ولنمؤمنين يوم يقوم الحساب » إبراهيم : ٤١ • فقوله « وللمؤمنين » من عطف العام على الخاص وهو يفيد العموم والشمول في الدعاء ، ويشعر بحرص إبراهيم عليه السلام على جماعة المؤمنين ، واهتمامه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة •

ومنه قوله تعالى « انى أراك وقومك فى ضلال مبين » الأنعام ٧٤ وكذلك ما بدئت به بعض الحلقات من قوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه » • فعطف القوم على الأب من عطف العام على الخاص لأن أباه داخل فى قومه ، وفى هذا العطف بيان لعموم دعوته ﷺ لجميع القوم ، وإشارة الى عدم تقصيره فى ذلك •

ومن أمثلة النوع الثانى قوله تعالى « وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة » الأنبياء ٧٣ • فعطف اقام الصلاة وايتاء الزكاة على فعل الخيرات من عطف الخاص على العام

(٣١) بغية الايضاح ١٣٤/٢ ، والمطول ٢٩٢ • وينظر مفتاح

ادخولهما في فعل الخيرات دخولا أوليا ، وفي عطفهما عليه اشعار بأهميتهما وأنافتهما على سائر أفعال الخير ، واختصاصهما بأمور لا توجد فيها ، ومن ثم نص عليهما دون سائر الأعمال حتى كأنهما شيئان آخران مغايران لفعل الخيرات ، تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات (٣٢) .

ومنه قوله تعالى « اعبدوا الله واتقوه » وقوله « واعبدوه واشكروا له » العنكبوت : ١٦ ، ١٧ . فعطف التقوى والشكر على العبادة من عطف الخاص على العام لعموم العبادة وخصوص كل منهما . ودخوله في العبادة ، وفي هذا إشارة الى فضل التقوى ، والشكر ، وترغيب في تحقيقهما .

٥ - التكميل أو الاحتراس :

وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع الابهام (٣٣) . ومن أمثلته في قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار » البقرة ١٢٦ فقوله « ثم اضطره . . . » احتراس يدفع اغترار الكافر بأن تخذله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله تعالى عنه (٣٤) .

ومنه قوله تعالى « ومن أحسن حينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » النساء : ١٢٥ . فقوله « وهو محسن » احتراس يدفع ما قد يتوهمه بعض الناس من أن الدين هو اسلام الوجه لله تعالى فقط ، فبين هذا الاحتراس أن احسان العمل شرط لا بد من تحققه في التدين الصحيح .

(٣٢) المطول ٢٩٢

(٣٣) المطول ٢٩٥

(٣٤) التحرير والتنوير ٧١٧/١

ومنه قوله تعالى « الا قول ابراهيم لأبيه أستغفرن لك » فهذا احتراس قائم على الاستثناء من الحث على التأسى بابراهيم في قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه » الممتحنة : ٤ • وقد دفع هذا الاحتراس ما قد يفهم من أن التأسى بابراهيم عليه السلام في جميع أفعاله وأقواله ، حيث بين أن قوله لأبيه لاستغفرن لك خارج من الأسوة •

ومنه قوله تعالى « قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ • فقوله تعالى « وسلاما على ابراهيم » احتراس يفصله ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يقل وسلاما لهك ابراهيم من البرد ، ولو لم يقل على ابراهيم لما أحرقت نار بعدها ولا اتقدت (٣٥) •

٦ — التتميم :

وهو أن يؤتى في كلام لا يؤهم خلاف المقصود بفضلة نسكتة كالمبالغة وغيرها (٣٦) ، ومن أمثلته في القصة قول الله تعالى « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ فقوله « على الكبر » تتميم يفيد عظيم الهبة التى وهبها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ، حيث امتن عليه بالذرية فى سن تستبعد العادة حصـولها فيه • قال الزمخشري : وإنما ذكر حال الكبر لأن المدة بهبة الولد فيها أعظم من حيث أنها حال وقع اليأس من الولادة ، وانخفض بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر ولأن الولادة فى تلك السن العالية آية لابراهيم عليه السلام » (١٦) •

• (٣٥) البحر المحيط ٦/٣٢٨ •

• (٣٦) المطول ٢٩٦ •

• (٣٧) الكشف ٢/٣٨١ •

ومنه قوله تعالى « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن » الأنبياء : ٥٦ ، فقوله : « الذى فطرهن » على أن الضمير للسموات والأرض تتيمم ببيان أن الرب الحقيقى هو الذى خلق السموات والأرض وأن ما لا يكون كذلك بمعزل عن الربوبية •

وهذه صفة أساسية تتمم وصفه تعالى بأنه رب السموات والأرض •

ومنه قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » الأنبياء : ٥١ • فقوله « من قبل » تتيمم ببيان سبق ابراهيم لموسى وهارون عليهما السلام زمانا وهداية •

٧ - الاعتراض :

وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لنكتة سوى دفع الأيهام (٣٨) •

وقد وقع الاعتراض في قصة ابراهيم عليه السلام في مواضع متعددة ، ومنه ما هو بجملة ومنه ما هو بآية ومنه ما هو بآيات كثيرة • وكثيراً ما جاء تذييلاً للآيات وهو ما يعرف بالاعتراض التذييلي •

فما جاء بجملة ما في قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥١ ، ٥٢ •

فقوله « وكنا به عالمين » جملة معترضة على اعراب « اذا » ظرف

لآتيناً ، أو لرشده • وهو اعتراض تذييلي يزيد من غشامة الرشد الذي آتاه الله ابراهيم ويؤوه بشأنه ، أى آتيناؤه رشداً عظيماً على علم منا بابراهيم بأنه أهل لهذا الرشد (٣٩) •

ويشبهه هذا ما فى قوله تعالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً • اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » مريم : ٤١ ، ٤٢ • فقوله « انه كان صديقاً نبياً » اعتراض على اعراب « اذ قال لأبيه » بدل اشتغال من ابراهيم وهو اعتراض تذييلي مقرر لما قبله ومعمل له ، فان كونه عليه السلام صديقاً نبياً موجب للأمر بذكره (٤٠) •

ومنه قوله تعالى « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » هود ٧٣ فهو اعتراض يفيد الدعاء بالرحمة والبركات لأهل البيت الابراهيمى ، بعد تعجبهم من البشرى بالولد ، وفيه تضييه على أن البشارة ليست غريبة على هذا البيت فرحمة الله تعم أهله ، وبركاته تنثر عليهم •

والاعتراض الذى وقع بآية قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين » الأنعام : ٧٥ • فإذ الآية معترضة بين الآية التى قبلها والتى بعدها ، اذ ان قوله تعالى « فلما جن عليه الليل » معطوف على قوله « قال ابراهيم لأبيه » وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق ما لحق (٤١) •

والاعتراض الذى وقع بآيات قوله تعالى « وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم » الى قوله تعالى « فما كان جواب قومه » العنكبوت :

(٣٩) ينظر الكشف ٥٧٥/٢ • والتحرير والتنوير ٩٣/١٧ •

(٤٠) ينظر أبو السعود ٢٦٦/٥ •

(٤١) ينظر الكشف ٣٠/٢ ، وأبو السعود ١٥٢/٣ •

١٨ - ٢٣ • فان هذه الآيات محتملة أن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم للتبليس عن الرسول ﷺ وتسلية ببيان أن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بفوه « وان تكذبوا » على معنى أنكم يا معشر قريش وان تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه ، وكل أمة نبيها ، وبذلك كان الاعتراض متصلا بما قبله (٤٢) •

وقد وقع الاعتراض في أربعة مواطن في ثانيا تعداد الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في حلقة الأنعام وذلك بقوله تعالى « كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل » وقوله تعالى « وكذلك نجري المحسنين » وقوله تعالى « كل من الصالحين » وقوله تعالى « وكلا فضلنا على العالمين » الأنعام : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ • وفي هذه الاعتراضات مسارعة إلى الثناء على كل طائفة بوصف من الأوصاف العظيمة تنويها بشأنهم ، ونفخهما لأمرهم •

بسط الكلام :

وقد يكون الاطاب ببسط الكلام دون وجود زيادة فيه مما سبق من ألوان الاطاب ، وقد أشار السكاكي الى ذلك ، حيث قال : والاطاب هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارات متعارف الأوساط ، سواء كانت الكثرة راجعة الى الجمل أو الى غير الجمل (٤٣) • وجعل من ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قالوا نعبد أصناما فغفل لها عاكفين » الشعراء : ٧١ ، فقد جاء ذلك في جواب سؤال

(٤٢) الكشف ٢٠١/٣ •

(٤٣) مفتاح العلوم ٢٧٧ •

ابراهيم عليه السلام « ما تعبدون » ولو أريد الإيجاز لكفى أن يقولوا :
 أصناما • وإنما بسطوا الكلام ابتهاجا منهم بعبادة الأصنام ، واقتضرا
 به، واطبعتها ، منحرفين عن الجواب المطابق المختصر وهو : أصناما (٤٤) •
 وقد أشار الزمخشري الى ذلك (٤٥) •

وقد بسط التعبير في بعض مواطن من القصة كسفا للحقائق ،
 واطهارا لضلالات القوم وبياناً لعقابهم وسوء مصيرهم ، وتفصيلاً لثناء
 ابراهيم على ربه وغير ذلك •

نفى دعوة ابراهيم لأبيه بسط للعبارة وتقليلاً لوجوه الأساليب تارة
 بالنداء والاستفهام ، وأخرى بالأمر والنهي ، وثالثة بالخبر والتأكيد ،
 ورابعة باظهار الخوف والشفقة وذلك في سبيل كشف الحقيقة لأبيه ،
 وبيان ما هو عليه من الخطأ ، واستجلاب طاعته لأمر الله تعالى •

وفي بيان عداوة الآلهة لابراهيم ، وثنائه على الله بنعمه ودعائه
 والتضرع اليه في حلقة الشعراء نجد بسطاً واتساعاً في الأسلوب حيث
 يستغرق ذلك ما يزيد عن عشر آيات ، عرف القوم فيها بربه الكريم رب
 العالمين ، وما له من نعم عظيمة على ابراهيم ، وتضرع فيها اليه طالباً
 الرحمة والمغفرة •

وفي بيان سوء مصير القوم يوم القيامة نجد بسطاً في بعض
 المواطن بتصوير الملائكة القرية بينهم وبين الأصنام في الدنيا ، وتحول
 هذه العلاقة في الآخرة الى كفران وتلاعن مراعاة لزيادة التحذير من
 الأصنام وعبادتها ، والتخويف من سوء العاقبة بسبب الضلال من ذلك
 قوله تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً هودة بينكم في »

(٤٤) السابق ١٧٨ ، ٢٨٣ •

(٤٥) ينظر الكشف ١٩٦/٣ •

الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا
وما أواكم النار وما لكم من ناصرين » العنكبوت : ٢٥ •

وفي حديث ابراهيم عليه السلام مع أبيه عن ابرؤيا نرى بسطا في
العبارة توضيحا للحقائق وتأكيدا لموقف الابن الطائع « قال يا بني انى
أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر -
ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » الصافات : ١٠٢ • واو توخى
المجاز لقال ان الله يأمرنى بذبحك ، وقال الابن : نفذ ما أمرك الله به ،
ولكن بسطت العبارة القرآنية ببيان أن هذا كان من الوحي عن طريق
الرؤيا المنامية ، ودعوة الابن الى النظر فى هذا الأمر ، وايضاح موقف
الابن ، مع زيادة بيان لصبره وتعليقه الصبر على مشيئة الله تعالى ،
هضما للنفس ، واستعدادا للمعونة من رب العالمين •

ويتضح بسط العبارة عند مقارنة حكاية الأحداث فى مواطن مختلفة،
ففى الأنبياء يحكى موقفه مع الأصنام بقوله تعالى « فجعلهم جذاذا
الا كبيرا لهم » ٥٨ ، وفى الصافات يحكى هذا الموقف فى ثلاث آيات
« فمراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون • ما لكم لا تنطقون • فراع عليهم
ضربا باليمين » ٩١ - ٩٣ •

وبرأته من قومه تحكى فى الزخرف بقوله تعالى « اننى براء مما
تعبدون » ٢٦ ، بينما تحكى فى الممتحنة ببسط وتوسع « اذا براء منكم
ومما تعبدون من دهن الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » ٤ • وقد بينا فى أسرار التنوع ما فى ذلك
من لطائف البيان ودقائق البلاغة ، وإنما غرضنا هنا أن نشير الى اختصار
العبارة وبسطها •

البناء القصصى فى الحلقات :

بيان فى التمهيد أن القصص القرآنى لا ينبغى أن يقاس بمقاييس الفن القصصى فى تراث البشر ، فهو قصص له سماته الخاصة التى تتحدد فى ضوء أهدافه الدينية العالية ، وأغراضه الوعظية السامية •

وهذا لا يمنع من أن نرى فى القصة القرآنية أصولاً عامة تجرى عليها ، وهذه الأصول نجد ما يشبهها فى مقاييس القصة الأدبية •

ولو تأملنا فى حلقات قصة إبراهيم عليه السلام نجد أن معظم حلقاتها تكون كل منها قصة على حدة ، لها بداية وقمة ونهاية • ويظهر هذا جلياً فى حلقات الدعوة ، وحديثه مع الملائكة •

وانقصة فى هذه الحلقات يمكن أن تسمى قصة المشاهد والحوار ، حيث تعتمد فى طريقة عرضها على المشاهد ، وفى طريقة التعبير على الحوار ، وفى تنسيق الحوادث على تصوير أبرز المواقف ، تاركة بين المشاهد كثيراً من التفاصيل التى يتصورها العقل (١) •

وأسلوب انعرض القصصى فى هذه الحلقات يعتمد طريقة الرواية ، التى تؤخذك دائماً بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى التاريخ ، وانتهى دورهم فى الحياة ••• وأنها فى هذا العرض إنما هى فى بعث جديد قد جاءت تسعى اليك ، تحدثك بلسانها ، وتسمعك أقوالها ، وتطلعك على ما حدث لها (٢) •

والحوار فى القصة القرآنية يرسم معالم الشخصيات الانسانية بالتعبير عن خواطرم النفسية وآرائهم ومواقفهم وما تسجر بينهم من

(١) ينظر منهج القصة فى القرآن ٤٤ •

(٢) ينظر القصص القرآنى ٨٠ •

صراع على طريقة الحكاية عنهم ونقل أقوالهم نقلا أميناً ، لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أساليب اعجازه لا على التصيغة التي صدرت فيها ، ولو كان المنقول عنهم من العرب ، حتى يكون الاعجاز البياني للأقوال المحكية اعجازاً للقرآن لا لتلك الأقوال (٣) •

وقد أشار أبو والسعود الى هذا حين قال : وجميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم انما تحكى بكيفيات واعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتماً ، والا لأمكن صدور الكلام الممجز عن البشر فيما اذا كان المحكى كلاماً (٤) •

وقدرة القرآن على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر ، وبراعته في العرض والأداء ، واعجازه في التعبير المركز المشع بالايحاءات تبعث الحياة في هذا اللون من القصص ، وتحوله الى صور حية وشخص متحركة ومشاهد تتبض بالحياة (٥) •

خذ مثلاً حلقة الأنبياء : تجدها قصة على انفرادها • ترى بدايتها في سؤال يطرحه ابراهيم عليه السلام على أبيه وقومه في تهكم وتوبيخ « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ، ويحييه القوم اجابة فيها مراوغة « قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين » • ويمتد الحوار بين الفريقين مصوراً ما حدث بينهما ، وكأنك تراه رأى العين ، ويتدرج الحوار الى تهديد ووعيد ، وتتصاعد الأحداث ، وينفذ ابراهيم عليه السلام تهديده فيكسر الأصنام ، ويجن جنون القوم ، ويبحثون عن الفاعل

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن ٤١١ •

(٤) أبو السعود : ٢١٨/٣ •

(٥) مارج القصة في القرآن ٥٤ •

الظالم ، ويشيرون بأصابع الاتهام الى ابراهيم، ويأتون به الى المحامدة .
وهنا نلتقي بقمة الحدث في حكم المحكمة الظالمة سالقائه في النار ،
انها عقدة القصة ، وقمة الاثارة فيها ، كيف يلقي انسان في نار
الجحيم ؟ وما مصيره في هذ النار المتأججة ؟ وما ٠٠٠ وما ٠٠٠ .
استفهامات عديدة . تملأ القلوب أسى ولوعة ، ورحمة وسفقه على هذا
النبى العظيم ، وتفجرها غيظا وحقدا على قومه الظالمين .

وبسرعة ينجلي الموقف بالحل المفرح والنهاية السعيدة ، لقد أنجاه
الله من النار ، وأسبغ عليه نعمه العظيمه .

وحلقة الأنعام : انها قصة أخرى تجرى أحداثها في وضع مختلف
من حيث الموضوع والزمان والمكان والأشخاص : فبدايتها تتمثل في
رؤية الكوكب والقمر والشمس ساطعات ثم يعترىها الأقوال ليتخذها
ابراهيم عليه السلام دليلا على بطلان ربوبيتها ، وعندها يجهر في
في قومه « انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر
السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وتطالعنا قمة الحدث في جدال قومه له وتذويمه بالآلهم ، ورد
عليهم ردا مفحما ، انها معركة كلامية حامية بين الحق والباطل ، بين
المؤمنين والظالمين ، من المتصر فيها ؟ ٠٠٠ وتجيب النهاية بانتصار
ابراهيم عليه السلام ، وعلو درجته بين العالمين .

والحلقات التى تعرض حديثه مع الملائكة كل منها قصة على حدة ،
تتمثل بدايتها في مجىء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام في هيئة غريبة
فيتبادلون التحية معه ويسرع ابراهيم بتقديم أطيب الطعام . لكنهم
لا يأكلون ، ويشتد خوفه ووجله منهم .

(٣٩ - خصائص النظم)

وتبرز قمة الحدث في البشرى وكشفهم عن هويتهم ، يطفئ
ابراهيم عليه السلام ، ويأنس اليهم ، ويسألهم عن المهمة التي جاءوا
من أجلها ، وهذا ما يؤذن بنهاية القصة •

وربما اشتملت الحلقة الواحدة على قصتين منفصلتين الا أنهما
ربطتا في النظم برباط متين ، مثلما نرى في حلقة الصافات ، فالقسم
الأول منها يفصل قصة الدعوة الى الله تعالى وانتهائها بالقائه في النار
ونجاته منها • والقسم الثاني منها يحكى قصة اسماعيل عليه السلام
وما كان من أمر الابتلاء المبين والفداء العظيم •

ونجد في بعض الحلقات والمشاهد ما يشبه القصة القصيرة ، وهي
في موازين النقاد تعرض حدثا واحدا في صورة سريعة ذات تأثير قوى ،
لتؤدى الغرض في أقصر وقت ومن أقرب طريق (٦) •

وهم يقولون ان من أهم شروطها : وحدة الزمان بحيث لا يتناول
تطاوله في الرواية • ووحدة الموضوع فهي تتناول جانبا واحدا من
الحياة • وقلة الأشخاص ، وأن تكون لها بداية وقمة ونهاية مع التركيز
والإيجاز (٧) •

ومما يمثل ذلك : الحلقة التي تعرض تحديه لطاغية عصره النمرود ،
« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ... » البقرة :
٢٥٨ • انها آية واحدة ، والقصة فيها لا تتجاوز ثلاثين كلمة فى غاية
التركيز والإيجاز ، وقد توحد فيها الزمان والمكان والموضوع ، وتقوم
على شخصين لا ثالث لهما ، وتتمثل بدايتهما في قول ابراهيم عليه
السلام « ربى الذى يحيى ويميت » ورد الطاغية عليه « أنا أحيى

(٦) ينظر منهج القصة في القرآن ٤٢ •

(٧) ينظر السرد القصص في القرآن الكريم ٥٩ ، ٦٢ •

وأُميت » • ورائى قممها فى التحدى الثانى « ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأنت بها من المغرب » انه تحد مثير ، واختبار عجيب ، يدع النفوس متلذذة لسماع النهاية « فبهت الذى كفر » وتأتى الموعظة عقيب النهاية « والله لا يهدى القوم الظالمين » •

ومشهد اسماعيل عليه السلام فى حلقة الصافات يمثل قصة قصيره بأدق موازين النقاد وهو يأتى على النحو التالى :
 « رب هب لى من الصالحين • فبشرناه بسلام حليم • علما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين • فلما أسلما بواته للجبين • وناديناه أن يا إبراهيم • قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • » •

يقول الأستاذ ثروت أباطة : فى سمتين كلمة اكتملت قصة معجزة • من ناحية الزمن لحظة • أب يهيم بقتل ابنه ويطلبه للجبين : فوحى اليه ربه قد صدقت الرؤيا فينقذ الابن • ومن ناحية الموضوع واحد • لم يتغير ، أب يقول لابنه أنه أوحى اليه أن يقتله فيقول الابن فى روعة الايمان وعظمته ، وأمنة المطمئن افعل ما تؤمر ، لم تحد القصة عن موضوعها قيد أنملة •

ومن ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما • وليس أقل من الاثنين الا الواحد : وما أحسب أن الواحد يستطيع وحده أن يصنع قصة •

ومن ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما ، وليس أقل من الاثنين الصالحين « والقمة » افعل ما تؤمر « • وتله للجبين » ، والنهاية « وفديناه بذبح عظيم » • البداية أروع ما تكون البداية ، فالقصة تبدأ منذ أن كان اسماعيل دعاء يتوجه به ابراهيم عليه السلام الى ربه ، والقمة أروع ما تكون القمة ، أب يقتل ابنه وابن يرحب أن يقتل فى

سبيل الله ، والنهاية أروع ما تكون النهاية ، لقد وضع الله نبيه وابنه في بلاء عظيم يمتحن صبرهما ، حتى اذا أبدياه واضحا جلليا عفا ... وأعاد الابن الى أبيه ، والحياة الى الابن ، فكلاهما جميعا في فرح مقيم .. ألم أقل لك انه الاعجاز (٨) •

وقد ينسج الزمان قليلا في القصة على الرغم من وحدة الموضوع نظرا لما يقتضيه تنفيذ المطلوب ، الا أن القصة لاتعبر عن ذلك، تعامدا على أنه مقصور في العقل، ويمثل ذلك في حلقة السؤال عن كيفية احياء الموتى « واذا قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ والقصّة هنا تعبر عنها آية واحدة تقرب كلماتها من أربعين كلمة ، وتحكى تجربة عملية علم منها ابراهيم عليه السلام كيفية احياء الموتى ، وقد حكّت القصة المطلوب من ابراهيم عليه السلام ، وطوت مرحلة التنفيذ انتهى يختلف زمانها عن زمان الطلب ، اعتمادا على حركة الفكر، وقدرة العقل على تصورها •

ويستطيع المتأمل أن يجد مثلا للقصة القصيرة في حلقة هريم التي تحكى دعوته لأبيه خاصة حيث تتضح فيها وحدة الزمان والمكان والموضوع وقلة الأشخاص • مع بنائها على بداية وقمة ونهاية وفي ختام حديثنا عن هذا الموضوع نؤكد ما قلناه آنفا من أن القصص القرآنية لا يحكم عليها بالمقاييس البشرية وان كنا نرى في مقاييس القصص البشرية ما يشبه أصول القصص القرآنية ، ومثل هذه الموضوعات تحتاج الى دراسات مفصلة •

الختمة :

تناولنا في المفضول السابقة تحليل النظم القرآنى فى قصة ابراهيم عليه السلام ، تحليللا يلاغيا موسعا يكشف عن خصائصه اللغوية واسرارہ البيانیه ، ويبين ما فيه من تشابه وتنوع .

وقد بدأنا بنمهيذ نحدثنا فيه عن القصة فى القرآن الكريم ، وعن سيرد ابراهيم عليه السلام ، ومعالم قصته فى كتاب الله تعالى .

وأتبعناه بالفصل الأول الذى تناولنا فيه تحليل الآيات التى تحكى دعوة ابراهيم الى عبادة الله تعالى ، وإبطال عبادة الأصنام والكواكب . وتلاه الفصل الثانى وتحدثنا فيه عن الآيات التى تحدثى حوارہ مع الملائكة عندما دخلوا عليه مبشرين بالعلام ، ومخبرين بهلاك قوم لوط .

وجاء الفصل الثالث وفيه تحليل للآيات التى تحدثى أخبارہ فى رجاب البيت العتيق ودعاءه فيه . وتبعه الفصل الرابع وفيه تحليل نأيات التى تهتم ببيان عقيدته وبراءته من الشرك والمشرکين ، وثوضح منزلته الأكریمة عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة .

ثم كان الفصل الخامس وعرضنا فيه لأهم الخصائص البلاغية الشائعة فى قصة ابراهيم عليه السلام .

وبعد هذه المسيرة العطرة فى ظلال قصة ابراهيم عليه السلام نقب لنرصد الحقائق التالية :

— لاقصة القرآنية نهج متميز فى بنائها المحكم ، وصياغتها الدقيقة ، التى تقوم على الايجاز البديع بطنى المشاهد الجزئية ، والتفصيلات التى لا يتعلق بها غرض ، اعتمادا على فهمها من السياق ووحى العبارات ، وهذا راجع الى أنها تركز على جانب العظة والعبرة، ومن ثم فلا تسرد الأحداث سردا تاريخيا ، ولا تراعى ذكر كل صغيرة وكبيرة .

— تعد قصة ابراهيم عليه السلام من أطول القصص فى القرآن الكريم ، وقد تعددت حلقاتها وتنوعت مشاهداتها ، واستملت على ضروب

من العظات ، وألوان من الدلائل البينات على وحدانية الله تعالى وقدرته
وإسائر صفاته القدسية •

— سلك النظم القرآنى مسلکا معجزا فى حكاية المشاهد المكررة فى
انحقات ، وذلك بتلوين الأسلوب وتنويعه ، وإضافة أحداث لم تذكر ،
وبتفصيل وقائع لم تفصل طبقا لمقتضيات المقام ، وبذلك يبدو المثل -جد
جديدا فى شكله ومضمونه ، ويرى المتأمل أنه لا تكرار فى القصص
القرآنى •

— تعددت مظاهر التنوع فى الأساليب المتشابهة والمواقف المتقاربة
وقد وقفنا فى دراستنا لهذا الجانب على أسرار دقيقة فى النظم القرآنى
تقرر ما ذكره العلماء من أن لكل كلمة فيه موقعا خاصا تتلاءم معه ،
وتلاءم معنا ، ولا تصالح فى غيره ، ولا يصلح لغيرها •

— للخصائص البلاغية فى القصة جانب كبير فى إبراز المعانى
المقصودة ، وإظهار الأغراض المرادة ، ومن ثم برزت هذه الخصائص
فى ثنايا القصة فلم يخل منها تعبير ولا أسلوب ، بل لم تخل منها كلمة
ولا لفظة •

— تتعدد الموضوعات وتتنوع فى الحلقات ما بين عرض أحداث
وتصوير مشاهد ، ومواعظ وعبر ، وأحكام وتشريعات ، وحمد وثناء ،
وتضرع ودعاء ، وتذكير بالثعم والأفضال ، والنظم فى كل ذلك على درجة
واحدة من السمو والعلو والرفعة ، لا تقل درجته فى موضوع عن
موضوع ، ولا تضعف فى معنى عن معنى آخر •

وبعد : فقد تم لنا بحول الله تعالى انجاز ما قصدناه وفى الختام
نتوجه الى الله العلى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم
« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا أصرا كمالا
نحملنه على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به راعف عنا
واقهر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » •

المراجع

- ١ - الاتقان في علوم القرآن - السيوطي - ط مصطفى الحلبي •
- ٢ - أساس البلاغة - الزمخشري - ط دار الشعب •
- ٣ - الاسلام في عصر العلم - د. محمد الغمراوي - دار الكتب الحديثة •
- ٤ - اعجاز القرآن - الباقلائي - ت السيد صقر - دار المعارف •
- ٥ - اعجاز القرآن وانبلاغة النبوية - الرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت •
- ٦ - أملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب وانقراءات في جميع القرآن - العكبري - بهامش الفتوحات الالهية - المكتبة التجارية •
- ٧ - الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ابن المنير - بهامش الكشاف الحلبي •
- ٨ - بديع القرآن - ابن أبي الأصبع - ت د • حفني شرف - نهضة مصر •
- ٩ - البرهان في علوم القرآن - الزركشي - ت محمد أبو الفضل - عيسى الحلبي •
- ١٠ - البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن • ابن الزماكاني - ت د • خديجة الحديثي و د • أحمد مطلوب بغداد •
- ١١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الفيروز بادي محمد علي النجار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية •
- ١٢ - بغية الايضاح - القزويني والصعدي ط - سبيح •

- ١٣ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري - د. محمد أبو موسى -
دار الفكر .
- ١٤ - تاريخ الأديباء . د. محمد الطيب النجار - مكتبة المعارف -
الرياض .
- ١٥ - التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - دار الشروق .
- ١٦ - التعريض في القرآن الكريم - د. إبراهيم الخولي - نوزيم
دار المعارف .
- ١٧ - تفسير ابن كثير - للحافظ ابن كثير - عيسى الحنبلي .
- ١٨ - تفسير أبي السعود - أبو السعود العمادى - دار احياء
التراث العربى - بيروت .
- ١٩ - تفسير الألوسى - شهاب الدين الألوسى - دار الفكر -
بيروت .
- ٢٠ - تفسير البحر المحيط - أبو حيان الأندلسى - دار الفكر -
بيروت .
- ٢١ - تفسير البيضاوى - القاضى البيضاوى - مكتبة الجمهورية .
- ٢٢ - تفسير التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور - ادار التونسية
للنشر .
- ٢٣ - تفسير القرآن الحكيم « المنار » - رشيد رضا - الهيئة العامة
للكتاب .
- ٢٤ - تفسير القرطبي - دار الشعب - القاهرة .
- ٢٥ - التفسير الكبير - الرازى - دار الفكر - بيروت .
- ٢٦ - تلخيص المفتاح - القزوينى - شرح البرقوقى - دار الفكر .

- ٢٧ — جامع البيان في تفسير القرآن — الطبرى — المطبعة الأميرية —
القاهرة •
- ٢٨ — الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور — ابن
الأثير — ت مصطفى جواد ، ود • جميل سعيد — بغداد •
- ٢٩ — الجنى الدانى في حروف المعانى — المرادى — ت د • فخرى
الدين قباوة ومحمد نديم — دار الآفاق — بيروت •
- ٣٠ — حاشية زادة على البيضاوى — محى الدين زادة — المكتبة
الإسلامية — تركيا •
- ٣١ — حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى — الشهاب الخفاجى —
دار صادر — بيروت •
- ٣٢ — خزانة الأدب — ابن حجة الحموى ت عصام شعيقتو — مكتبة
الهلال — بيروت
- ٣٣ — خصائص التراكيب — د • محمد أبو موسى — مكتبة وهبة —
القاهرة •
- ٣٤ — دراسات لأسلوب القرآن الكريم — محمد عبد الخانق
عزيمة — دار الحديث — القاهرة •
- ٣٥ — درة التنزيل وغرة التأويل — الاسكافى — بيروت •
- ٣٦ — دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — ت دحمود شاذى —
الخانجى •
- ٣٧ — رياض الصالحين — النووى — دار المأمون — دمشق •
- ٣٨ — السرد القصصى في القرآن الكريم — ثروت أبانلة — دار نهضة
مصر •

- ٣٩ — سيكولوجية القصة في القرآن — المهامى ذفيرة — الشركة التونسية للتوزيع •
- ٤٠ — شرح الأشموني وحاشية الصبان على الألفية — الأشموني والصبان — عيسى الحلبي •
- ٤١ — شروح التلخيص — التفتازانى وآخرون — عيسى الحلبي •
- ٤٢ — الصحاح — الجوهري — ت أحمد عطار — القاهرة •
- ٤٣ — فتح البيان في مقاصد القرآن • صديق حسن خان — القاهرة •
- ٤٤ — الفنوحات الالهية « حاشية الجمل » — سليمان العجيل — المكتبة التجارية •
- ٤٥ — في ظلال القرآن — سيد قطب — دار الشروق •
- ٤٦ — قصص الأنبياء — عبد الوهاب النجار — مؤسسة الحامى — القاهرة •
- ٤٧ — قصص الأنبياء — ابن كثير — دار عمر بن الخطاب — الاسكندرية •
- ٤٨ — قصص القرآن — محمد أحمد جاد المولى وآخرون — دار
- ٤٩ — القصص القرآنى في منطقته ومفهومه • عبد الكريم الخطيب — دار المعرفة •
- ٥٠ — الكشف عن حقائق التنزيل — الزمخشري — مصطفى الحلبي •
- ٥١ — لسان العرب — ابن منظور — دار المعارف — القاهرة •
- ٥٢ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر — ابن الأنير — ت د •
- ٥٣ — أحمد الحوقى ود • بدوى طبانة — نهضة مصر •

- ٥٥ — مذكرات في انفصل والوصل والقصر — سليمان نوار — مطبعة العلوم •
- ٥٦ — المنطوق على التلخيص — سعد الدين التفتازاني — ط أحمد كامل •
- ٥٧ — معترك الأقران في اعجاز القرآن — السيوطي ت على البجاوي — دار الفكر •
- ٥٨ — معجم المصطلحات البلاغية — د • أحمد مطلوب — بغداد •
- ٥٩ — مع القرآن الكريم في دراسة مستهمة — عليّ النجدي ناصف — دار المعارف •
- ٦٠ — مغني اللبيب عن كتب الأعراب — ابن هشام — ت محمد محيي الدين عبد الحميد — ط صبيح •
- ٦١ — مفتاح العلوم — السكاكي — ت نعيم زرزور — دار الكتب بيروت •
- ٦٢ — المفردات في غريب القرآن — الراغب الأصفهاني — دار المعرفة بيروت •
- ٦٣ — مقاييس اللغة — ابن فارس — ت عبد السلام هارون ط — مصطفى الحلبي •
- ٦٤ — ملاك التأويل القاطع بذوى الالحاد والتطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل — الغرناطي — ت سعيد الفلاح — دار الغرب الاسلامي •
- ٦٥ — من أسرار التعبير القرآني — د • محمد أبو موسى — دار الفكر العربي •

- ٦٦ - منهج القصة في القرآن - محمد شديد - عكاظ للنشر والتوزيع •
- ٦٧ - النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز - دار القلم - الكويت •
- ٦٨ - النبوة والأنبياء - محمد علي الصابوني - دار القلم - دمشق •
- ٦٩ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - حيدر آباد - الهند •
- ٧٠ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - الرازي - مكتبة الآداب •

محتويات الكتاب

٣	تقديم
٧	تمهيد
٢٣	الفصل الأول : الدعوة الى عبادة الله تعالى
٢٥	الحلقة الأولى : دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه
٢٨	بين يدي الآيات : ٢٥ البداية : ٢٧ دعوته لأبيه : ٢٩ رد الأب : ٢٨
	موقف ابراهيم عليه السلام : ٤٢ الخاتمة : ٤٨
	الحلقة الثانية : واثل عليهم نبأ ابراهيم : ٥٥
٥٧	بين يدي الآيات : ٥٥ البداية : ٥٧ حوار ابراهيم مع قومه : ٥٧
	ثناء على الله تعالى : ٦٥ الخاتمة : ٧٣
٨١	الحلقة الثالثة : وان من شيعته لابراهيم
٨٦	بين يدي الآيات : ٨١ البداية : ٨٣ انكار عبادة الأصنام : ٨٦
٩٧	تدمير وتدمير : ٨٨ مواجهة وانتقام : ٩٣ الهجرة والبشرى : ٩٧
	ابتلاء ونداء : ١٠١ الخاتمة : ١٠٨
١١٢	الحلقة الرابعة : ولقد آتينا ابراهيم رشده
١١٨	بين يدي الآيات : ١١٣ البداية : ١١٦ جدال مع النصارى : ١١٨
١٣٧	رد ابراهيم : ١٢٦ البحث عن الفاعل : ١٣٣ المدح مأكمة : ١٣٧
	الحكم النجاة : ١٤٩ الخاتمة : ١٥٣
١٥٩	الحلقة الخامسة : اعبدوا الله واتقوه
١٦٣	بين يدي الآيات : ١٦٠ ابداية : ١٦١ ابطال عبادة الأصنام : ١٦٣
١٨٣	الدعوة الى السير والنظر : ١٧٤ جواب القوم : ١٨١ مواصلة الدعوة : ١٨٣
	الهجرة وتوالي النعم : ١٨٦ الخاتمة : ١٨٨
١٩٠	الحلقة السادسة : ابراهيم عليه السلام والنمرود
١٩٥	بين يدي الآية : ١٩٠ البداية : ١٩١ ما دار في الحاجة : ١٩٥
	الخاتمة : ٢٠٢
٢٠٤	الحلقة السابعة : ابطال عبادة الكواكب

بين يدي الآيات : ٢٠٥ البداية : ٢٠٦ الاستدلال على بطلان ربوبية الكواكب : ٢١٠ مجادلة القوم وجواب ابراهيم : ٢٢٠ الخاتمة : ٢٣٠
أسرار التشابه والتنوع في النظم : ٢٤١
الموضوع والنظم : ٢٤١ البدايات : ٢٤٦ التعلل بتقليد الآباء : ٢٥٦
ابطال علتهم : ٢٥٧ تكسير الأصنام : ٢٥٨ القاؤه في النار ونجاته : ٢٦٣
قرار الاعتزال : ٢٦٧ ختام الحلقات : ٢٦٩

٢٧١ الفصل الثاني : ابراهيم عليه السلام والملائكة

٢٧٣ الحلقة الأولى : مجيء الرسل بالبشرى
بين يدي الآيات : ٢٧٣ تحية وحوار : ٢٧٦ جداله عن قوم لوط ورد الملائكة ٢٨٥

٢٩١ الحلقة الثانية : ونبتهم عن ضيف ابراهيم
بين يدي الآيات : ٢٩٠ البداية : ٢٩١ تحية وحوار : ٢٩٢

٣٠٤ الحلقة الثالثة : حديث ضيف ابراهيم
بين يدي الآيات : ٣٠٤ تحية وحوار : ٣٠٧

٣١٦ الحلقة الرابعة : جدال ابراهيم عن لوط عليهما السلام
بين يدي الآيات : ٣١٦ بداية وحوار : ٣١٧

أسرار التشابه والتنوع في النظم ٣٢١
البدايات : ٣٢١ لقاء السلام : ٣٢٢ طمأننة الملائكة والبشرى : ٣٢٥
الملائكة وامرأة ابراهيم عليه السلام ٣٢٩ . الحوار بشأن قوم لوط : ٣٣١
تكامل الحلقات : ٣٣٧

٣٤٠ الفصل الثالث : في رحاب البيت العتيق

٣٤٢ الحلقة الأولى : دعاء ابراهيم في الحرم

بين يدي الآيات : ٣٤٢ البداية : ٣٤٤ دعاء وثناء : ٣٥٢ الخاتمة ٣٦١
الحلقة الثانية : بناء البيت الحرام ٣٦٣

بين يدي الآيات : ٣٦٤ البداية : ٣٦٥ البيت الحرام ومقام ابراهيم ٣٧٤
دعاؤه لتبديد الحرام وأهله : ٣٧٩ رفع القواعد ودعاء ابراهيم

واسماعيل : ٤٠٨

ملة ابراهيم وفضله : ٣٩٥ وصيته لبنيه : ٣٩٩ وصية يعقوب : ٤٠٣
الخاتمة : ٤٠٨

٤١٣ الحلقة الثالثة وأذن في الناس بالحج
بين يدي الآيات : ٤١٣ تشریف وتكليف : ٤١٤ حكمة التشريع : ٤١٨
أسرار التشابه والتنوع في النظم : ٤٢٣
الموضوع والنظم : ٤٢٣ البدايات : ٤٢٤ اندعاء بالامن : ٤٢٥ الدعاء
بالرزق : ٤٣٢ الأمر بتنظيف البيت ٤٣٢

٤٣٥ الفصل الرابع : عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته

٤٣٧ الحلقة الأولى : ابراهيم والبعث
بين يدي الآيات : ٤٣٧ البداية : ٤٣٩ امتحان من الله تعالى : ٤٤٢
الاجابة : ٤٤٧ الخاتمة : ٤٥٣
٤٥٧ الحلقة الثانية : محاجة أهل الكتاب
بين يدي الآيات : ٤٥٧ ابطال المحاجة : ٤٥٨ ملة ابراهيم : ٤٦٢
أولى الناس بابراهيم : ٤٦٣

٤٦٥ الحلقة الثالثة : البراءة من عبادة الأصنام
بين يدي الآيات : ٤٦٥ مع الآيات : ٤٦٦
٤٦٩ الحلقة الرابعة : التأسي بابراهيم
بين يدي الآيات : ٤٦٩ الأسوة وموضعها : ٤٧٠

٤٧٧ الحلقة الخامسة : استغفار ابراهيم لأبيه
٤٨٠ الحلقة السادسة : منزلة ابراهيم وذريته
٤٨٣ الحلقة السابعة : ان ابراهيم كان أمة
بين يدي الآيات : ٤٨٣ مكانة ابراهيم : ٤٨٤ نعمة عظيمة الفسيدر : ٤٨٨
البحث على اتباع ملته : ٤٩٠

٤٩٢ الحلقة الثامنة : خليل الله تعالى
٤٩٤ أسرار التشابه والتنوع في النظم

الموضوع والنظم : ٤٩٤ ملة ابراهيم ٤٩٧ اتباع ملته ٤٩٩ البراءة من
المشركين ٥٠٠ استغفار ابراهيم لأبيه : ٥٠٢ جزاء ابراهيم عليه السلام ٥٠٣
الفصل الخامس : الخصائص البلاغية العامة في القصة ٥٠٦

الخبر المؤكد : ٥٠٦ التعريف بالاسم الموصول : ٥١٣ التعريف
بالإشارة : ٥٢٠

التقديم والتأخير : ٥٢٥ القصر : ٥٣٧ الاستفهام : ٥٤٧ الأمر ٥٥٨
النهى : ٥٦٦ النداء : ٥٦٧ التفسير والمؤول : ٥٧٢ الإيجاز ٥٨٠
الاطناب : ٥٨٩ التكرير ٥٩٠ التذييل : ٥٩٣ الإيضاح بعد الإبهام : ٥٩٧
عطف العام على الخاص والخاص على العام : ٥٩٩ التكميل : ٦٠٠
التميم : ٦٠١ الاعتراض : ٦٠٢ بسط الكلام : ٦٠٤ البناء القصصى فى
الحلقات : ٦٠٧

الخاتمة ٦١٣

فهرس المراجع : ٦١٦ فهرس الموضوعات : ٦٢١

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩١/٧٦٢٥